تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥

الجزء الثاني

فهرس مواضيع الكتاب

الموضوع الصفحة المقدّمة الثانية في بيان أنّ العالم و الإنسان و القرآن كلّها كتاب اللّه تعالى و التطبيق بينها ١٥ في جامعيّة القرآن للإنسان و العالم ١٥ في بيان المراد من الكتاب ١٦ في أنّ هداية الكتابين أهدى هداية الكتب ١٦ في أنّ كلمات الكتابين غير قابلة الانتهاء و الانقطاع ١٦ اختلاف الأقوال في المراد من الكتاب المذكور في الآية: ذٰلِكَ الْكِتٰابُ ١٨ ...

تحقيق الأقوال في تطبيق الكتب ٢٦ في معنى العالم و مصاديقه ٢٨ في بيان الحضرات الخمسة ٢٩ في أنّ العوالم كلّها كتب إلهيّة ٣٠ القاعدة الاولى في تفصيل العالم و ترتيب الموجودات العلويّة و السفليّة إجمالا و تفصيلا ٣٢ في أنّ العالم عرض و الجوهر هو العماء ٣٢ تفصيل الموجودات على الظهور و الترتيب ٣٦ الباب السّابع: في معرفة بدء الجسوم الانسانيّة ٣٧ في عمر العالم الطبيعي ٣٧ في أنّ لكل فلك حركتين: طبيعيّة و قسريّة ٣٧ خلق القلم و اللّوح و الهباء ٣٨

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٦

الموضوع الصفحة في المراتب الأربعة بين الرّوح و الهباء ٤١ الجسم الكلّ أوّل الخلق في الأعيان ٤٢ خلق اللّه أربعة أشياء بيده ٤٢ قسمة الفلك الأدنى إثنا عشر بروجا ٤٣ بيان الطبائع و العناصر الأربعة ٤٤ خلق الدار الدّنيا ٤٥ خلق الأرض و تقدير أقواتها ٤٦ خلق الإنسان ٤٧ تخلّق الإنسان بأسماء الحقّ تعالى ٥٣ بيان جسوم الإنسانيّة و أنواعها و هي أربعة ٥٨ العقل إنسان في السّماء كما إنّ الإنسان عقل في الأرض ٦٢ ابتلاء الإنسان بقوّة العقل و التفكّر ٦٤ تكليف العقل بمعرفة الحقّ سبحانه ٦٤ في معرفة العناصر و سلطان العالم العلويّ على العالم السفليّ ٧٢ في استناد كلّ شيء إلى حقائق إلهيّة ٧٢ المطلوب من الحقائق الإلهيّة أربع نسب ٧٢ العالم بالنسبة إلى الحقّ سبحانه منفعل و بالنظر إلى نفسه ٧٣ اصول ظهور الصّور و مراتب العناصر في العالم ٧٣ إنشاء اللّه تعالى الإنسان من حيث الجسم ٧٧ العالم مرتّب بترتيب المملكة و البلاد و فيه توجد جنودا و مأمورين ٨٠ خلق النون و القلم و غيرهما من الملائكة ٨١ ان للعالم اثنى عشر وال ٨٢ بيان نقباء الولاة ٨٣ المقصود من خلق العالم هو الإنسان ٨٣ انعزال الحاكم بفسقه و عدم معاملته بالإحسان مع رعيّته ٨٤

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٧

الموضوع الصفحة استغفار الملائكة لمن في الأرض و للمؤمنين ٨٩ في تطبيق الأئمّة المعصومين عليهم السّلام بالولاة الحقيقيّة العلويّة ٩١ في بيان خلقة الجنّ و الإنسان ٩٣ الباب التّاسع: في معرفة وجود الأرواح المارجيّة الناريّة، المعبّر عنهم بالجنّ ٩٤ في خلق الجانّ و الملائكة و الإنسان ٩٤ جعل الالتحام بين السّماء و الأرض ٩٩ في أنّ الأصل في الجانّ الاستكبار كما أنّ الأصل في الإنسان التواضع ١٠٠ حسن استماع الجانّ حين تلاوة النّبيّ سورة الرّحمن ١٠٠ الجانّ و

قبول الصّور المختلفة ١٠١ التناسل في الجانّ و الإنسان ١٠٢ غذاء الجانّ و نكاحهم ١٠٣ قبائل الجانّ و عشائرهم ١٠٤ تشكّل العالم الروحانيّ و نشأة عالم الجانّ ١٠٧ كيفيّة الموت في عالم الروحانيّ ١٠٧ في تشكّل نشأة الإنسان و خلقته ١٠٨ قوّة العقل في الإنسان و ضعفه في الجانّ ١١١ أوّل من سمّي شيطانا كان من الجانّ ١١٣ أوّل الأشقياء من الجنّ إبليس ١١٤ الباب الحادي عشر: في معرفة آبائنا العلويّات و امّهاتنا السّفليّات ١١٦ المقصود من العالم الإنسان و هو الإمام ١١٦ في معنى الأب و الإبن و الأمّ ١١٦ الإسلام أكمل الشرائع ١١٧ النكاح المعنوي بين العقل و النّفس ١٢١ نظريّة نهاية الأركان قبال نظريّة المركز ١٢٥ جعل الزّمان الّذي هو اللّيل و النّهار ١٢٦

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٨

الموضوع الصفحة في بيان الشكر للّه سبحانه و للوالدين ١٣٢ مخاطب السّلام في الصّلاة ١٣٣ في بيان الآباء و الأمّهات الطبيعيّين ١٣٤ خلق العالم ١٤٩ خلق الملائكة ١٥٠ صفة خلق آدم عليه السّلام ١٥١ إختيار الأنبياء ١٥٢ مبعث النّبيّ (ص) ١٥٢ القرآن ١٥٣ الحجّ ١٥٣ الفصل الأوّل: في تصديرها بذكر اللّه سبحانه و تمجيده ١٥٥ شرح المفردات ١٥٥ في معنى الصّفة و أقسامها ١٥٧ في تقدّم الصّفات السلبيّة الصّفات على الثبوتيّة ١٥٨ عدم إمكان ثنائه تعالى بما هو عليه ١٥٩ في معنى التوحيد ١٦٠ الإنسان لا يتمكّن حصر نعم اللّه تعالى ١٦٥ في أنّ شكر النعمة نعمة منه تعالى ١٦٨ في أنّ الواجب ليس بمركّب و ما ليس بمركّب ليس بمدرك الحقيقة ١٦٩ في بيان معنى الفطر و الإفطار ١٧٢ في بيان المراد من أوتاد الأرض و المقصود من الوتد ١٧٦ الفصل الثاني: في نسبة إيجاد العالم إلى قدرة اللّه تعالى جملة و تفصيلا ١٧٩ شرح ألفاظ الخطبة ١٧٩ في بيان أنّ إيجاد العالم كان بلا تفكّر و لا حركة ١٨١ في إحاطة علمه تعالى بالأشياء ١٨٤

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٩

الموضوع الصفحة في بيان تعداد أسماء اللّه الحسنى ١٨٥ في كيفيّة الخلق و تفصيل إيجاده و الإشارة إلى مباديه ١٩٠ في نقل أقوال الحكماء في خلق السّماوات و الأرض ١٩١ في بيان ما تكوّنت منه السّماء ١٩٩ في أنّ الماء أصل في تكوين الخلق و بيان جواهر الفرد ٢٠٠ في أنّ العالم عالمان: عالم الأمر و عالم الخلق ٢٠١ في عظمة شأن السّماوات ٢٠٥ في تشبيه العالم ببيت واحد ٢٠٩ في تطابق الشرع و البرهان في أنّ تعداد الأفلاك تسع ٢١٠ في أنّ النظام الموجود نظام أتمّ و أحسن ٢١١ تفصيل الأقوال في تفسير الآية: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ ... ٢١٦
في بيان أنواع الملائكة و أصنافها ٢٢٠ سكان الجنان و خزّانها ٢٣٠ الفصل الثالث: في كيفيّة خلق آدم عليه السّلام ٢٥٩ شرح ألفاظ الخطبة ٢٥٩ في بيان تكرّر قصّة آدم و الملائكة و إبليس في القرآن ٢٦٠ في خلقت آدم من تراب ٢٦٢ في حقيقة سجود الملائكة لآدم عليه السّلام ٢٦٧ في أنّ الملائكة المأمورين بالسجود من هم؟ ٢٧٠ في أنّ إبليس أهو من الملائكة أم لا؟ ٢٧١ في بيان سبب عداوة إبليس لآدم عليه السّلام ٢٧٢ في احتجاج الأشاعرة بخلق الكفر في الكافرين و جوابهم ٢٧٣ في معنى تلقّي آدم كلمات ربّه و تفصيل الأقوال فيه ٢٧٥ في بيان التحذير عن المعاصي في قصّة آدم و إبليس ٢٨٣ في المراد من الرّوح في الآية: نفخت ٢٨٦

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٠

الموضوع الصفحة في قوى الإنسان باطنيّة و ظاهريّة ٢٨٧ في سبب السرور في الإنسان ٢٩٠ في بيان استكبار إبليس عن السجود ٢٩٢ في طهارة الإنسان بالفطرة ٢٩٤ في بيان وجه عداوة إبليس مع آدم عليه السّلام ٢٩٦ في بيان حقيقة الوسوسة ٢٩٧ في بيان سبب متابعة الشيطان ٢٩٧ الفصل الرابع: في بعث الأنبياء و الرّسل من ذرّيّة آدم عليه السّلام و

الكتب النازلة عليهم (ع) من اللّه تعالى ٣٠٢ في شرح ألفاظ الفصل الرابع من الخطبة ٣٠٣ في بيان سبب إرسال الرّسل و آثارهم في الإنسان ٣٠٤ في أنّ اللّه سبحانه لم يخل امّة من نبيّ مرسل ٣٠٧ في بيان أحوال الأمم السّابقة على نبيّنا (ص) ٣٠٩ في بيان فضيلة القرآن ٣١٥ في بيان وظائف القارئ للقرآن ٣١٨ الفصل الخامس: في الحجّ و ترتيبه و أركانه ٣٥٠ المقدّمة الثالثة:

في بيان الحروف الآفاقيّة الإلهيّة و تطبيقها بالحروف القرآنيّة و الانسانيّة ٣٥١ في أنّ حروف العالم عبارة عن الحقائق البسيطة من الأعيان في علم الحقّ سبحانه ٣٥١ في أنّه تعالى كلّ يوم هو في شأن ٣٥٢ في أنّ الوجود من حيث هو وجود واحد من جميع الجهات ٣٥٤ في أنّ ظهور الوجود المطلق لا يكون إلاّ من حيث الإضافات ٣٥٦ في أنّ الظهور و الإضافات لا بدّ له تعالى من حيث الكمال و الاقتضاءات الأسمائيّة ٣٥٩ في بيان نسبة الموجودات العلميّة و العينيّة إلى الفيض الأقدس و الفيض المقدّس ٣٦٠ في توقّف انكشاف الأفعال على انكشاف الأكوان ٣٦٢

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ١١

الموضوع الصفحة في بيان الوحدة المحضة و التوحيد الصّرف ٣٦٣ في ظهور الوجود بصور الموجودات مثل ظهور الألف بصور الحروف ٣٦٥ في معيّة الوجوديّة ٣٦٧ في أنّ ليس في الوجود غيره تعالى و إنّ صورة العالم صورته سبحانه ٣٦٧ في أنّه تعالى حقيقة كلّ شيء كما هو سبحانه صورة كلّ شيء ٣٦٨ في تفسير قوله (ص): ظهرت الموجودات من باء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ٣٦٩ القسم الأوّل: في تحقيق الباء و التعيّن الأوّل الذي هو مظهره ٣٧٢ في بيان الباء صورة الوجود الظاهر كما أنّ الألف صورة الوجود الباطن ٣٧٢ في بيان معنى العماء ٣٧٥ في بيان أسماء التعيّن الأوّل ٣٧٨ في المراد بالتعيّن الأوّل و بيان أسمائه ٣٧٨ عناوين الخليفة ٣٧٩ في ذكر عبارة الشيخ الأكبر في بيان التعيّن الأوّل ٣٨٣ إنّ القرآن صورة إجمال العالم ٣٩٩ ترتيب القرآن مطابق لترتيب العالم ٣٩٩ اختفاء ذات الحقّ تعالى في باء الآفاق و هو الإنسان ٤٠٠ تطابق القرآن مع العالم في الكلمات و الحروف و غيرهما ٤٠٠ في تعداد حروف القرآن و حركاته و أنّ تحت كلّ واحد منها علوّ و سرّ و باطن ٤٠١ في بيان الأسرار و الأقوال في الحروف المقطّعة في أوائل السّور ٤٠٢ في أنّ بسم اللّه الرّحمن الرّحيم مترتّبة عليل ترتيب العالم ٤٠٣ القسم الثاني: في تحقيق النقطة و كيفيّة التميّز بها في الصّورتين ٤٠٦ في أنّ الموجودات الممكنة إضافات هالكة ٤٠٧ في تفسير قول عليّ (ع): أنا النقطة و: كنت وليّا و آدم بين الماء و الطين ٤٠٧ في بيان أنّ النقطة مخصوصة بالوليّ المطلق ٤١٠ في أنّ الولاية أعظم من النبوّة و خاتم الأولياء وارث الأنبياء ٤١٢

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ١٢

الموضوع الصفحة في أنّ الهباء أوّل موجود في العالم ٤١٢ في تطبيق العالم بالقرآن و الإنسان ٤١٤ في علم النّبيّ و الوليّ (ع): بأسرار العالم و الإنسان و القرآن ٤١٨ في أنّ الإنسان هو النقطة المركزيّة الّتي يدور عليها الوجود ٤٢٢ في بيان مقام الفناء و الرّجوع و الخفاء و البطون ٤٢٤ في بيان حقيقة الفقر و معناه ٤٣١ القسم الثالث: في تطبيق الحروف الآفاقيّة بالحروف القرآنيّة على سبيل التفصيل ٤٣٣ في بيان المقصود من الحروف الآفاقيّة ٤٣٣ في أنّ تركيب الحاصل من الحروف القرآنيّة و أيضا الآفاقيّة لا تقبلان الحصر ٤٣٣ في بيان مركّبات القرآن و الآفاق و حركاتهما ٤٣٤ في المراد من ستّة أيّام في خلق العالم ٤٣٥ في بيان وقوع الموجودات على طبيعة العدد ٤٣٦ المقدّمة الرّابعة:

في الكلمات الآفاقيّة الإلهيّة و تطبيقها بالكلمات القرآنيّة على سبيل الإجمال و التفصيل ٤٤١ في معنى الكلمة الآفاقيّة و

أقسامها ٤٤١ البحث الأوّل: في الدّواة و القلم الصّادرة منها الكلمات الآفاقيّة ٤٤٤ في بيان الموجودات غير قابلة للانتهاء و أنّ الموجود يستحيل اعدامه ٤٤٨ البحث الثاني: في تحقيق الكلمة الآفاقيّة ٤٥٠ في أنّ الإنسان على قسمين ٤٥٠ في أنّ للكلمة اعتبارين: تامّة و هي الإنسان، و غير تامّة و هي سائر الموجودات ٤٥١ في أنّ الأنبياء كلمات تامّات و مقاماتهم حصلت لهم لا بالمجاهدة ٤٥٢ البحث الثالث: في تحقيق الكلمة بوجه آخر ٤٥٩ مرتبة كلّ نبيّ، مرتبة من مراتب النّبيّ الخاتم (ص) ٤٦١ في تفسير قول نبيّنا (ص): بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق ٤٦٣ البحث الرابع: في الأخلاق و ما يتعلّق بها من بحث الكلمات ٤٧٠

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌٢، ص ١٣

الموضوع الصفحة في بيان أصول الأخلاق و معنى الحكمة و العفّة و الشجاعة و العدالة ٤٧٠ الفصل الأوّل: في تعريف الخلق و بيان تغيّره ٤٧٤ الفصل الثاني: في مكارم الأخلاق و أجناس الفضائل ٤٧٦ الفصل الثالث: في الأنواع الواقعة تحت جنس الحكمة ٤٨٠ الفصل الرابع: في الأنواع التي تحت الشجاعة ٤٨٢ الفصل الخامس: في الأنواع الواقعة تحت العفّة، و هي إثنا عشر ٤٨٧ الفصل السادس: في الأنواع التي تحت العدالة، و هي أربعة عشر ٤٩٧ البحث الخامس: في تحقيق الكلمات من حيث التوحيد ٥٠٣ المقدّمة الخامسة:

في تحقيق الآيات الآفاقيّة و تطبيقها بالآيات القرآنيّة على سبيل الإجمال و التفصيل مطابقة بالآيات الأنفسيّة ٥٠٧ في أنّ مبادئ الإدراك ثلاثة: الكشف التفكّر و التعقّل ٥٠٨ في أنّ مطالعة القرآن، كما هي مخصوصة و شاملة إلى أهل الظاهر و الباطن معا ٥١١ في كيفيّة مطالعة أهل الظاهر و أهل الباطن في القرآن و الآفاق ٥١٣ في أنّ معرفة الحقيقيّ موقوفة على مطالعة القرآن و الآفاق معا ٥٢١ القاعدة الاولى في تأويل قوله: سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ ٥٢٢ القاعدة الثانية في تأويل قوله: اللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ ... ٥٢٦

في أنّ الأعيان الثابتة غير الثابتات الأزليّة ٥٣٣ في أنّ النّور هو الوجود الحقيقي ٥٣٤ الفرق بين الخوف و الخشية ٥٤٥ في بيان المراد من شجرة طوبى ٥٥٢ في بيان المراد من الشجرة التي أكل منها آدم عليه السّلام ٥٥٧ في أنّ الوجود مطلقا دائر على التقابل من الأسماء الجلاليّة و الجماليّة ٥٦٠ في أنّ للعارفين شهوة و شوق إلى اللّه و لمعرفة جلاله و هي ليست في غيرهم ٥٦١

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌٢، ص ١٥

المقدّمة الثانية

[في مباحث شتى]

في بيان كتاب اللّه الآفاقي التفصيلي و تطبيقه بالكتاب الأنفسي الإجمالي و تطبيقهما بالكتاب القرآني الجمعي

اعلم أيّها الطالب كحّل اللّه عين بصيرتك بنور الهداية و التوفيق و أرشدك إلى طريق التأويل و سبيل التحقيق، أنّ كتاب اللّه ليس مخصوصا بالقرآن فقط، و لا بالتّوراة و الإنجيل و غيرهما من الكتب السّماويّة، و أنّ آياته ليست منحصرة في آيات القرآن و لا غيره من الكتب، و لا كلماته في كلماته، و لا حروفه في حروفه، بل العالم المسمّى بالآفاق كلّه كتاب اللّه مشتمل على آياته و كلماته و حروفه، و هو الكتاب الكبير الإلهيّ، و الإنسان المسمّى بالأنفس، و هو أيضا كتاب

جامع إلهيّ مشتمل على آياته و كلماته و حروفه، و هو الكتاب الصّغير الإلهيّ، و يسمّى الأوّل بالإنسان الكبير، و الثّاني بالإنسان الصّغير، لقولهم: العالم إنسان كبير، و الإنسان عالم صغير، و إليهما أشار الحقّ تعالى بقوله:

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ٥٣- ٥٤].

(في جامعيّة القرآن للإنسان و العالم)

و أمّا القرآن، فصورة تفصيلهما و إجمالهما، و الجامع بينهما صورة و معنى، و لجامعيّته سمّي بالقرآن كما مرّ تقريره في المقدّمة الأولى إجمالا و كما سنبيّنه تفصيلا إن شاء اللّه، و الدّليل على أنّ الآفاق و الأنفس كتابان مشتملان على آيات اللّه و كلماته و حروفه،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦

كثير، و سنشير إلى أكثرها، لأنّا في صدد إثبات هذا، لكن أعظم الدّليل و أجلّه و هو الّذي شهد اللّه تعالى جلّ ذكره باشتمالهما على الآيات و الكلمات و الحروف، و شهد بأنّ مطالعتهما موجب لمشاهدته و مشاهدة أنوار وجهه الكريم.

(في بيان المراد من الكتاب)

و معلوم أنّ الآيات لا تنسب إلّا إلى الكتاب لأنّ الكتاب عبارة عن صورة جامعة مشتملة على آيات و كلمات و حروف، لأنّ الآيات لا تطلق إلّا على هيئة جامعة من الكلمات كما أنّ الكلمات لا تطلق إلّا على هيئة جامعة من الحروف، فالكتاب المشتمل على الآيات يكون مشتملا على الكلمات و الحروف و بناء على هذا يكون العالم كتابا كبيرا مشتملا على هذه الثّلاث و كذلك الإنسان الّذي هو الكتاب الصّغير، و بالحقيقة إليهما أشار الحقّ أيضا في قوله:

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [سورة القصص: ٤٩].

(في انّ هداية الكتابين اهدى هداية الكتب)

لأنّه ليس هناك كتاب أهدى من هذين الكتابين إليه تعالى و إن كان كلّ كتاب هادي إليه، لأنّ كلّ هداية لم تكن هادية إلى مشاهدته في مظاهره الآفاقيّة و الأنفسيّة المعبّرة بالآيات كما أشار إليها هو بنفسه لم يكن هداية و قد سبق بيان الهداية و أقسامها إجمالا و تفصيلا، و بيان أنّ نهايتها و غايتها مشاهدته في مظاهره الآفاقيّة و الأنفسيّة.

(في انّ كلمات الكتابين غير قابلة الانتهاء و الانقطاع)

و سيجيء البسط في ذلك إن شاء اللّه، و إلى كلمات هذين الكتابين و آياتهما المركّبة عنها الغير القابلة للانتهاء و الانقطاع أشار بقوله:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٧

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً [سورة الكهف: ١٠٩].

و بقوله:

وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [سورة لقمان: ٢٧].

لأنّ هذا لو كان إشارة إلى كلمات القرآن أو التّوراة و الإنجيل و غير ذلك من الكتب بزعم المفسّرين لم يقل في أوصافها هذا، و لا بالغ في كثرتها هذه المبالغة، لأنّ كلمات القرآن، أو كلمات أيّ كتاب من كتب اللّه المنزّلة يفرض، تنفد بأوقية

من المداد أو أكثر أو أقلّ، و أمّا كلمات هذين الكتابين الّتي هي عبارة عن حقايق الموجودات و ماهيّاتها و أعيانها، أو المركّبات الخارجيّة منها، روحانيّة كانت أو جسمانيّة، فإنّه لا يمكن انفادها و انتهاءها لأنّها غير متناهية باتفاق المحققين كما سبق ذكرها أيضا، و سيجيء بيانها في المقدّمة الرّابعة مبسوطا، لأنّا قد بيّنا عند تعريف التّأويل و كيفيّة قراءة هذه الكتب، أنّ حروف الكتاب الآفاقي هي مفردات العالم بأسرها و هي بمثابة مفردات الحروف و بسائطها، و أنّ كلماته مركّبات العالم بأجمعها و هي بمثابة كلمات القرآن و مركّباته، و أنّ آياته كليّات العالم على حسب طبقاتها و هي بمثابة آيات القرآن و كليّاته، و بيّنّا أنّ الإنسان صورة إجمال هذا الكتاب و تفصيله، و مفردات نفسه و بسائطه بمثابة مفردات العالم، و بسائطه و مركباته بمثابة كلماته، و كليّاته بمثابة آياته حذو النعل بالنعل و القذة بالقذ، كما عرفته مفصّلا في صورة الدائرة، و قبل الدائرة، و كما ستعرفه في هذه المقدّمة، و بيّنّا أنّ القرآن صورة تفصيل هذين الكتابين و اجمالهما صورة و معنى فحينئذ كما يصدق على القرآن أنّه كتاب إلهيّ و مصحف ربّانيّ يصدق على الآفاق المسمّى بالعالم انّه كتاب إلهي و مصحف ربّانيّ، و كذلك على الإنسان المعبر عنه بالأنفس لأنّه أيضا كتاب إلهي و مصحف ربّانيّ، و هذا هو المطلوب من هذا البحث، و إذا تقرّر هذا.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ١٨

(اختلاف الأقوال في المراد من الكتاب)

فاعلم أنّ ذلك لو لم يكن كذلك أي لو لم يكن لفظ الكتاب محتملا لهذه المعاني كلّها و قابلا لهذه الوجوه بأسرها ما اختلف العلماء و أرباب التفسير و التّأويل في تعيين الكتاب و تحقيقه عند قوله:

كٰانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتٰابِ مَسْطُوراً [سورة الأسراء: ٥٨].

و عند قوله:

وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ [سورة الأنعام: ٥٩].

و عند قوله:

وَ الطُّورِ وَ كِتٰابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ [سورة الطّور: ١- ٣].

و سيّما في قوله:

الم ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [سورة البقرة: ١- ٢].

فإنّ أرباب التّفسير قد اختلفوا فيه اختلافا شديدا، فانّ بعضهم قال: المراد به القرآن، و بعضهم قال: إنّه الكتاب الموعود في التّوراة و الإنجيل، و بعضهم قال: إنّه اللوح المحفوظ، و بعضهم قال: إنّه القرآن النازل على السّماء الرّابعة مجملا و على قلب محمّد مفصّلا، و أمثال ذلك، كقول جار اللّه الزّمخشري في الكشّاف الّذي هو أعظم المفسّرين، فانّه قال:

إن جعلت «الم» اسما للسورة، ففي التّأليف وجوه: و هو أنّه يكون «الم» مبتدأ، و «ذلك» مبتدأ ثانيا، و «الكتاب» خبره، و الجملة خبر المبتدأ الأوّل، و معناه: أنّ ذلك هو الكتاب الكامل، كأنّ ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، و أنّه يستأهل أن يسمّى كتابا كما تقول: هو الرّجل أي الكامل في الرّجوليّة الجامع لما يكون في الرّجال من خيار الخصال «١».

(١) قوله: كقول جار اللّه الزمخشري.

راجع تفسير الكشّاف للزمخشري ج ١، ص ٣٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ١٩

و كقول فخر الدّين الرّازي في مفاتيح الغيب «٢»، فانّه قال فيه وجوه: منها، قوله:

لقائل أن يقول: المشار إليه (هاهنا) حاضر و «ذلك» اسم مبهم يشار به إلى البعيد، و الجواب عنه من وجهين:

الأوّل، لا نسلّم أنّ المشار إليه حاضر، و بيانه من وجوه:

الأوّل، قال الأصم: أنّ اللّه تعالى أنزل الكتاب بعضه بعد بعض فنزل قبل سورة البقرة سور كثيرة بمكّة ممّا كان فيه دلالة على التّوحيد و فساد الشّرك و إثبات النبوّة و المعاد، فقوله: «ذلك»، إشارة إلى تلك السّور الّتي نزلت قبل هذه السّورة، و قد يسمّى بعض القرآن قرآنا، قال تعالى:

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ [سورة الأعراف: ٢٠٤].

و قال حاكيا عن الجنّ:

إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً [سورة الجنّ: ١].

و لم يسمعوا كلّ القرآن بل بعضه.

الثّاني، أنّ اللّه وعد رسوله عند مبعثه أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الباطل و لا الماء «٣»، و أخبر امّته بذلك و روت الأمّة عنه ذلك، و يؤكّده قوله تعالى:

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً [سورة المزمل: ٥].

و هي نزلت في ابتداء المبعث.

و الثّالث أنّه تعالى خاطب بني إسرائيل، و سورة البقرة مدنيّة و أكثرها احتجاج على اليهود و على بني إسرائيل لأنّ موسى و عيسى عليهما السّلام بشّرا بقدوم النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انّ اللّه ينزل عليه كتابا فقال تعالى:

---

(٢) قوله: كقول فخر الدّين الرّازي.

راجع التفسير الكبير للفخر الرّازي ج ٢، ص ١٢.

(٣) قوله: لا يمحوه الباطل و لا الماء.

العبارة في المصدر كما يلي: أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماحي.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٢٠

ذٰلِكَ الْكِتٰابُ (أي) الّذي أخبر اللّه على لسان موسى و عيسى أنّه ينزل على ولد إسماعيل، المرسل المبعوث من العرب، هو هذا الكتاب.

و الرّابع أنّه تعالى لمّا أخبر عن القرآن بأنّه في اللّوح المحفوظ لقوله:

وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ [سورة الزّخرف: ٤].

و قد كان النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخبر أمّته بذلك، فغير ممتنع أن يقول اللّه:

«ذلك الكتاب» ليعلم أنّ هذا المنزل هو ذلك المثبت في اللوح المحفوظ.

و كقول أمين الدّين الطبرسي من الإماميّة في تفسيره الكبير «٤» فإنّه قال:

مروي عن ابن عباس رضي اللّه عنه، أنّ الكتاب هو القرآن و يكون ذلك بمعنى هذا، و قيل: هذا مضمر و معناه هذا ذلك الكتاب الّذي وعد بك يا محمّد في التّوراة و الإنجيل و يكون اللاّم في الكتاب للعهد لا غير.

و غير هؤلاء الثّلاث من المفسّرين ليس لهم كلام يستحقّ أن ينقل و يذكر، و سبب اختلاف هؤلاء، و المفسرين مطلقا و هو أنّهم ما تحقّقوا معنى «الم» بأنّه اسم للسّورة، أو اسم للكتاب أو قسم أو لعدد السّور، أو إشارة إلى صفات اللّه تعالى، و ما تحقّقوا أيضا أنّ لفظة «ذلك» إشارة إلى القرآن أو إلى الكتاب الموعود في التّوراة و الإنجيل أو إلى اللّوح المحفوظ، أو إلى كتاب آخر غير هذه الكتب، لأنّ لفظة ذلك في الأغلب لا يشار بها إلاّ إلى الغائب دون الحاضر و لم يعرفوا أنّ هذا الألف و اللاّم في الكتاب للجنس أو للعهد أو للاستغراق أو للحصر، أو غير ذلك، و الحقّ أنّ هذه الوجوه كلّها ليست مشبعة و لا معطية حقّ المراد مع أنّها أحسن الوجوه و أشرفها، و الحقّ أنّ تحقيق أمثال ذلك خارج عن طور المفسّرين، لأنّهم من اللّذين يعلمون ظاهر الحياة الدّنيا، و هم عن الآخرة هم غافلون.

و أمّا أرباب التّأويل فهم أيضا اختلفوا اختلافا شديدا، فقال بعضهم: إنّه إشارة إلى

---

(٤) قوله: كقول أمين الدّين الطبرسي.

راجع مجمع البيان في تفسير القرآن ج ١، ص ٣٦، و فيه هكذا: المراد بالكتاب: القرآن، و قال الأخفش: «ذلك» بمعنى هذا، لأنّ الكتاب كان حاضرا.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٢١

العقل الأوّل، و بعضهم: إنّه إشارة إلى النّفس الكليّة، و بعضهم: إنّه إشارة إلى اللّوح المحفوظ، و بعضهم: إنّه إشارة إلى لوحي القضاء و القدر، و الجفر و الجامع، و بعضهم: انه إلى الكتاب الكبير الآفاقي، و بعضهم: إنّه إلى الكتاب الصغير الأنفسي و أمثال ذلك ممّا يطول ذكره، و هذه أيضا ليست بمشبعة و إن كانت دقيقة شريفة إلاّ بعضها، و ذلك البعض هو ما ذهبنا إليه من الكتاب الآفاقي مع ما في ضمنه من الكتاب الأنفسي، أمّا تفسيره بالعقل أو النّفس فليس بصحيح، لأنّ العقل و النّفس أمّيا الكتاب لا الكتاب نفسه لقوله تعالى:

يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ [سورة الرعد: ٣٩].

و لقوله:

كٰانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتٰابِ مَسْطُوراً [سورة الإسراء: ٥٨].

لأنّه ما أراد بهما إلاّ العقل الأوّل، و النّفس الكليّة اللّذان هما صورتا الكتاب إجمالا و تفصيلا. لأنّ العقل الأوّل الكتاب الإجمالي الكلّي لثبوت الأشياء فيه مجملا، و النّفس الكلّية هي الكتاب التفصيلي الجزئي لثبوت الأشياء فيها مفصلا، كما

مرّ ذكره غير مرّة، و عند التّحقيق هذان الكتابان بالنّسبة إلى الكتاب الآفاقي كسورتي البقرة و آل عمران بالنّسبة إلى الكتاب القرآني المسمّاة عند المفسرين بالزهراوين «٥»، و اللّوح المحفوظ عند البعض أيضا عبارة عن النّفس الكليّة، و العقل الأوّل عن القلم لأنّ العقل من حيث فيضانه العلوم و الحقائق على النّفس الكليّة صار كالقلم، و النّفس لقابليّتها لها كاللّوح، و:

---

(٥) قوله: المسمّاة عند المفسرين بالزّهراوين.

روى الطبرسي أمين الإسلام في تفسيره مجمع البيان ج ١، ص ٦٩٣ (في سورة آل عمران) عن رسول اللّه (ص) أنّه قال:

تعلّموا سورة البقرة، و سورة آل عمران فإنّهما الزّهراوان.

و في مجمع البحرين للطريحي: و في الخبر: سورة البقرة و آل عمران الزّهراوان، أي المنيرتان، واحدتهما زهراء، و قال بمثله ابن الأثير في النهاية.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٢

ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ [سورة القلم: ١].

إشارة إليهما، لأن النّون عبارة عن النّفس الكليّة، و القلم عن العقل الأوّل، و قيل:

بالعكس و يجوز.

و أمّا تفسيره بلوحي القضاء و القدر فكذلك، لأنّ العقل الأوّل هو لوح القضاء على رأي من قال به لاشتماله على العلم بالحقايق و الأعيان إجمالا، و النفس الكليّة هي لوح القدر لاشتماله على العلم بالموجودات و المخلوقات تفصيلا، و كذلك الجفر و الجامع على من قال به لأنّه فسّر الجفر بلوح القضاء و الجامع بلوح القدر و هو مولانا كمال الدّين عبد الرزّاق قدس اللّه سرّه، فإنّه ذكر في تأويله هذا المعنى بعينه و هو قوله «٦»:

«فمعنى الآية: الم (هو) ذلِكَ الْكِتابُ الموعود، أي صورة الكلّ المومى إليها بكتاب الجفر و الجامعة المشتمل على كل شيء، الموعود بأنّه يكون مع المهدي في آخر الزّمان، لا يقرأه كما هو بالحقيقة إلاّ هو، و الجفر لوح القضاء الّذي هو عقل الكلّ، و الجامعة لوح القدر الّذي هو نفس الكلّ، فمعنى كتاب الجفر و الجامعة (على هذا هو الكتاب الّذي فيه الجفر و الجامعة) المحتويان على (علم) كلّ ما كان و يكون، كقولك:

سورة البقرة و سورة النّمل».

لا رَيْبَ فِيهِ، عند التّحقيق بأنّه الحقّ، و على تقدير القسم (القول) فمعناه بالحقّ الّذي هو الكلّ من حيث هو كلّ (الكلّ) لأنّي (لأنّه) مبين لذلك الكتاب الموعود على ألسنة الأنبياء، و في كتبهم بانّه سيأتي به (المهدي) كما قال عيسى عليه السّلام:

«نحن نأتيكم بالتنزيل، و أمّا التأويل فسيأتي به الفارقليط (المهدي) في آخر الزّمان» «٧».

---

(٦) قوله: فإنه ذكر في تأويله.

راجع التأويلات (المطبوع باسم ابن عربي سهوا) ج ۱، ص ١٤.

(٧) قوله: قال عيسى (ع): نحن نأتيكم بالتنزيل الحديث.

أقول: ذكره ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ٤، ص ١٢٤، الحديث ۲۰۹.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣

و حذف جواب القسم، لدلالة ذلك الكتاب عليه كما حذف في غير موضوع من القرآن، مثل: «و الشّمس»، و «النازعات»، و غير ذلك، أو لأني منزل (أي إنّا منزلون) لذلك الكتاب الموعود في التّوراة و الإنجيل بأنّه (بأن يكون) مع محمّد، حذف لدلالة قوله: ذٰلِكَ الْكِتٰابُ عليه، أي ذلك الكتاب المعلوم في العلم السّابق الموعود في التّوراة و الإنجيل حقّ بحيث لا مجال للرّيب فيه. هُدىً لِلْمُتَّقِينَ، أي هدى في نفسه للّذين يتّقون الرّذائل و الحجب المانعة لقبول الحقّ».

و المراد من إيراد كلامه بعبارته أنّه فسّر الكتاب بالجفر و الجامعة و ليس في الواقع كذلك كما ذكرناه و كما سنذكره إن شاء اللّه. لأنّه يلزم من قوله إنّ الجفر و الجامعة من

- و جاء مضمون الحديث أيضا في احتجاجات الرّضا (ع) على الجاثليق و رأس الجالوت، رواه الطبرسي في الإحتجاج ج ۲، ص ۱۹۹ و الخبر طويل و فيه:

قال الرّضا عليه السّلام:

و في الإنجيل مكتوب: «أنّ ابن البرّة ذاهب و الفارقليطا جائي من بعدي، هو يخفّف الآصار، و يفسّر لكم كلّ شيء، و يشهد لي كما شهدت له، أنا جئتكم بالأمثال و هو يأتيكم بالتأويل».

و لعلّ ممّا يفيد ذكره هنا نقل ما ذكره الراوندي في كتابه «الخرائج و الجرائح» ج ۱، ص ٧٦ نقلا عن الإنجيل، و نقل عنه المجلسي (ره) في بحار الأنوار ج ١٥، ص ۲۱۰، فهو هذا، (تلخيصا منّا):

قال المسيح للحواريّين: أنا أذهب و سيأتيكم الفارقليط روح (بروح) الحقّ الّذي لا يتكلّم من قبل نفسه.

و في حكاية يوحنّا عن المسيح قال: الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبّخ العالم على الخطيئة، و لا يقول من تلقاء نفسه، و لكنّه يكلّمكم ممّا يسمع، و سيؤتيكم بالحقّ، و يخبركم بالحوادث و الغيوب.

و قال في حكاية أخرى: الفارقليط روح الحقّ الّذي يرسله باسمي، هو يعلّمكم كلّ شيء.

و قال في حكاية أخرى: ابن البشر ذاهب، و الفارقليط يأتي بعده، يحيي لكم الأسرار، و يفسّر لكم كلّ شيء، و هو يشهد لي كما شهدت له، فإنّي أجيئكم بالأمثال و هو يجيئكم بالتأويل.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٤

الكتاب، لا الكتاب، و سبب اختلاف هؤلاء أيضا في تعيين الكتاب و تحقيقه ليس إلّا الإشارات الإلهيّة و المخاطبات الرّبانيّة في كتابه القرآني بالنّسبة إلى الأنبياء و الأولياء عليهم السّلام كقوله في حقّ يحيى عليه السّلام.

يٰا يَحْيىٰ خُذِ الْكِتٰابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنٰاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا [سورة مريم: ١٢].

و كقوله في حقّ عيسى عليه السّلام:

قٰالَ إِنِّي عَبْدُ اللّٰهِ آتٰانِيَ الْكِتٰابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا [سورة مريم: ٣٠].

و كقوله في حق آصف عليه السّلام:

قٰالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتٰابِ [سورة النمل: ٤٠].

و كقوله في حقّ عليّ عليه السّلام:

قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ [سورة الرّعد: ٤٣].

لأنّ هذه الإشارات شواهد و دلالات على أنّ هذه الكتب غير الكتب المذكورة من القرآن و التّوراة و الإنجيل و أمثالها، فإنّ في زمن يحيى و عيسى عليهما السّلام لم تكن التّوراة و الإنجيل، موجودان خصوصا بالنّسبة إليهما لأنّهما كانا صبيان طفلان كما أخبر عنهما القرآن، و كذلك آصف فإنّه أيضا لم يكن صاحب كتاب معيّن، و كذلك أمير المؤمنين فإنّ في زمانه لم يكن القرآن كتابا موجودا في الخارج حتّى يشير إليه بأنّه كتاب لأنّ القرآن بعد وفاة النّبي صلّى اللّه عليه و آله صار كتابا مجموعا بقول من قال:

جمعه عليّ عليه السّلام، أو بقول من قال: جمعه عثمان، أو ابن مسعود و على جميع التّقادير ليس المراد به القرآن و لا غيره من الكتب السّماويّة بل المراد به الكتاب الآفاقي الشّامل للكلّ أو الكتاب العقلي المسمّى بامّ الكتاب على تقدير الجواز، و معلوم أنّه لو كان المراد بالكتاب الّذي نسب إلى يحيى أو إلى عيسى عليهما السّلام التّوراة أو الإنجيل ما قال تعالى في حقّ عيسى:

وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ رَسُولاً إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ [سورة آل عمران: ٤٨- ٤٩].

و ما عطف التّوراة و الإنجيل على الكتاب و الحكمة و العطف شاهد بالمغايرة.

و قول صاحب التّأويل الّذي هو أحسن الأقوال يشهد بذلك و إن لم يكن مراده

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٢٥

ذلك لأنّه إذا فسّر الكتاب بصورة الكلّ و الكلّ بكتاب الجفر و الجامعة أو الكتاب الّذي فيه الجفر و الجامعة، لو قال الجفر عبارة عن الكتاب الكبير الآفاقي، و الجامعة عن الكتاب الصّغير الأنفسي كان أحسن و ألطف و إلى طريق أهل الحق أقرب، و الكتابان كانا داخلان تحتهما، لأنه إذا قال صورة الكلّ المومأ إليه بكتاب الجفر و الجامعة و قال:

فمعنى كتاب الجفر و الجامعة على هذا هو الكتاب الّذي فيه الجفر و الجامعة المحتويان على علم كلّ ما كان و يكون، لم يكن يحتاج إلى تعيين آخر. فإن قوله: صورة الكلّ يقوم بجواب الكلّ، و المعنى مطابق و ليس فيه الخلاف، لأنّه بعد ذلك كلّه أوّل الجفر بالعقل الأوّل و الجامعة بالنّفس الكليّة، و العقل و النّفس جزآن من أجزاء الكلّ المعبّر عنه بالعالم و سورتان من سور كتاب اللّه الآفاقي كما قال هو، و عبّر عنهما بالبقرة و النمل، فتعبيره على هذا بالكتاب الكبير الآفاقي كان أنسب، و قوله في تأويل سورة الطور «٨» يعضد ذلك كلّه و يصدّق قولنا المجموع و يناقض قوله هذا لأنّه قال:

وَ الطُّورِ وَ كِتٰابٍ مَسْطُورٍ [سورة الطّور: ١- ٢].

الطّور هو الجبل الّذي كلّم عليه موسى و هو الدماغ الإنساني الّذي هو مظهر العقل و النّطق، أقسم به لشرفه و كرامته، و لكون الفلك الأعظم الّذي هو محدّد الجهات بالنّسبة إلى العالم بمثابة الدماغ بالنّسبة إلى الإنسان، يمكن أن يكون إشارة

إليه، و أقسم به لشرفه و كونه مظهر الأمر الإلهي و محلّ القضاء الأزلي.
«و الكتاب المسطور» هو صورة الكلّ على ما هو عليه من النّظام المعلوم المنتقش في لوح القضاء الّذي هو الرّوح الأعظم، المشابه إليه هاهنا بالرقّ المنشور و تنكيرهما للتعظيم.
وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ هو قلب العالم أي النّفس الناطقة الكلّيّة و هو لوح القدر، و عمرانه إطافة الملكوت به.

---

(٨) قوله: و قوله في تأويل سورة الطور.

القائل هو كمال الدّين عبد الرّزّاق القاساني في كتابه التأويلات ج ٢، ص ٥٤٧ الذي طبع بعنوان تفسير القرآن الكريم للشيخ الأكبر سهوا.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٢٦

وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ هو السّماء الدّنيا الّتي تنزل الصّور و الأحكام من لوح القدر الّذي هو اللّوح المحفوظ إليه، ثمّ تظهر في عالم الشّهادة بحلولها في المراد و هو لوح المحو و الإثبات بمثابة محلّ الجنان في الإنسان.
وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ هو الهيولى المملوءة بالصّور الّتي تظهر عليها جميع ما أثبت في الألواح المذكورة.
إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ بظهور القيامة الصغرى، و على التأويل الأوّل و هو تأويل الطور بالدماغ يكون الكتاب المسطور إشارة إلى المعلومات المركوزة في الرّوح الإنساني المسمّاة بالعقل القرآني، و الرّوح هو الرّق المنشور، و نشوره ظهوره و انبثاثه في البدن، و البيت المعمور هو القلب الإنساني، و السّقف المرفوع هو مصعد الخيال المنتقش بالصّور الجزئية، و البحر المسجور هو مادة البدن المملوءة بالصّورة و اللّه أعلم و أحكم

(تحقيق الأقوال في تطبيق الكتب)

و المراد من إيراد هذا الكلام صورتان: الاولى، قوله: و الكتاب المسطور هو صورة الكلّ على ما هو عليه من النّظام المعلوم. و الثّانية، تطبيقه الكتاب الآفاقي بالكتاب الأنفسي، لأنّ الصّورتين هما مطابقان لدعوانا في هذا الباب.
و بالجملة تأويل الكتاب بالكتاب الكبير الآفاقي أنسب من تأويله بالجفر و الجامعة الدّاخلتين فيه صورة و معنى. و قد ذهب إلى هذا أكثر المشايخ من أرباب التّوحيد و من جملتهم الشيخ الأعظم محيي الدّين ابن عربي قدّس اللّه سرّه، لأنّه كتب في هذا كتابا و سمّاه بالتدبيرات الإلهيّة في إصلاح المملكة الإنسانية «٩»، و طابق فيه الكتاب

---

(٩) قوله: و سمّاه بالتدبيرات الإلهيّة في اصطلاح المملكة الإنسانيّة.

و الجدير بالذكر أنّ هذا الكتاب طبع في مدينة ليدن في عام ألف و ثلاثمائة و ستة و ثلاثين من الهجرة النبويّة، و طبع معه أيضا كتاب إنشاء الدّوائر و كتاب عقلة المستوفر، و هما أيضا للشيخ الأكبر.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٢٧

الكبير الآفاقي بالكتاب الصّغير الأنفسي تطابقا تفصيليّا بحيث وصل إلى المواليد الثّلاثة و الحشرات الأرضيّة كما سنشير

إليه في آخر هذا البحث إن شاء اللّه.

و قد ذكر في الفتوحات المكيّة هذا المعنى بعينه و هو قوله في تفسير البسملة و الفاتحة: فالعالم حروف مخطوطة مرقومة في رقّ الوجود المنشور و لا تزال الكتابة فيه دائمة أبدا.

و استشهد فيه قوله تعالى:

وَ الطُّورِ وَ كِتٰابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ [سورة الطّور: ٢].

و الحقّ في هذا المقام عندي و هو أنّ الطّور هو العقل الأوّل لعلوّ شأنه و عظيم منزلته عند اللّه، و الكتاب المسطور: الوجود المطلق المحض مع ما عليه من المقيّدات المسطورة المرقومة بالإضافة و النّسبة، و الرقّ المنشور هو العالم الجسماني من العرش إلى الفرش و ما عليه من السّطور و الخطوط المسمّاة بالموجودات البسيطة و المركبة، و البيت المعمور هو قلب الإنسان الكبير المشار بالنّفس الناطقة الكلّيّة الآفاقيّة من حيث الحقيقة و المعنى، و من حيث الصّورة و المجاز أعني الظّاهر الفلك الرّابع الّذي هو البيت المعمور الصّوريّ، الوارد في الشّرع أنّه في السّماء الرّابعة، و السّقف المرفوع عن العرش، و العرش: صورة هو الفلك الأعظم المحيط المعبّر عنه بالمحدّد للجهات، و معنى هو الرّوح الأعظم الكلّي الظّاهر آثاره و أفعاله في هذا العرش كآثار النّفس الكلية في الكرسيّ المعبّر عنه بالفلك الثّامن الّذي هو فلك الثّوابت و البروج، و علّة نسبة الكتاب بالوجود المطلق و تجرّده عن جميع الاعتبارات كاللّوح السّاذج مثلا عن الخطوط أو الأوراق الخالية عن الرّقوم و عليه نسبة المسطور عليه بالمقيّدات قيام المقيّد بالمطلق و بقاؤه به كقيام الكتابة بالأوراق و الألواح و قيامها بها، و عليه نسبة الرّق المنشور بالجسم الكلّ و ما عليه من الموجودات الممكنة لسذاجته و لطافته حين الخلوّ عن الصّور كالهيولى المطلقة مثلا حين خلوّها عن الصّور القائمة بها و الباقي ظاهر.

و من جملتهم الشيخ الكامل شهاب الدّين الوركانيّ قدّس اللّه سرّه فانّه كتب في ذلك كتابا معتبرا و هو سبعون مجلدا و طابق الكتاب الكبير الآفاقي بالكتاب الصّغير الأنفسي إجمالا و تفصيلا، و من جملة ما ذكر فيه بالفارسيّة و هو أنّه قال: الكتاب

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٨

الكبير الآفاقي كان كبيرا عريضا وسيعا، و الحقّ تعالى جلّ ذكره كان عالما بعجزنا عن مطالعته و ضعفنا عن مشاهدته على ما هو عليه من عظم حجمه و طول أوراقه و كثرة خطوطه و عرض سطوره فأخذ منه نسخة مختصرة و أنموذجا مطابقا و سمّاه بالكتاب الصّغير و دلّنا عليه بقوله:

اقْرَأْ كِتٰابَكَ كَفىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [سورة الإسراء: ١٤].

حتّى نقرأه و نستدلّ به على قراءة ذلك الكتاب و مطالعته و يحصل لنا بواسطته مشاهدة الحقّ و معاينة ذاته و صفاته و أفعاله على ما ينبغي، لقوله جلّ ذكره:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [سورة فصّلت: ٥٣].

و قد سبق غير مرّة كيفيّة مطالعة هذين الكتابين و مشاهدة الحقّ فيهما صورة و معنى و سنبيّنه أيضا إن شاء اللّه. و منهم الشيخ العارف عزيز الدّين النسفي البخاري قدّس اللّه سرّه، فإنّه أيضا كتب في هذا المعنى رسالة و طابق كلّ واحد من الكتابين و مشاهدة الحقّ فيهما صورة و معنى، و سنبيّنه أيضا إن شاء اللّه. و منهم الشيخ الكامل المحقق أفضل الدّين

الكاشي رحمة اللّه عليه. و منهم نجم الدّين داية الرّازي صاحب التأويل رحمة اللّه عليه.

و منهم الشّيخ الكامل سعد الدّين الحموي قدّس اللّه سرّه، و منهم الشّيخ العارف شرف الدّين القصيري قدّس اللّه سرّه، فإنه كتب في أوّل شرحه للفصوص فصولا و خصّ بهذا المعنى فصلا مفردا و هو قوله «١٠»:

(في معنى العالم و مصاديقه)

«اعلم أنّ العالم لكونه مأخوذا من العلامة لغة، عبارة عما يعلم به الشّيء و اصطلاحا عن كلّ ما سوى اللّه تعالى لأنّه يعلم به اللّه من حيث أسمائه و صفاته، إذ

---

(١٠) قوله: و خصّ بهذا المعنى فصلا.

راجع شرح الفصوص للقيصري، الفصل الخامس من المقدّمة ص ٢٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٩

لكلّ فرد من أفراد العالم يعلم اسم من الأسماء الإلهيّة لأنّه مظهر اسم خاصّ منها، فبالأجناس و الأنواع الحقيقيّة تعلم الأسماء الكلية حتّى تعلم بالحيوانات المستحقرة عند العوام كالذّباب و البراغيث و البقّ و غير ذلك أسماء هي مظاهر لها، فالعقل الأوّل لاشتماله على جميع كلمات حقايق العالم و صورها على طريق الإجمال عالم كلّي يعلم به الإسم الرّحمن و النّفس الكلّيّة لاشتمالها على جميع جزئيّات ما اشتمل عليه العقل الأوّل تفصيلا أيضا عالم كلّي يعلم به الإسم الرّحيم.

و الإنسان الكامل الجامع لجميعها إجمالا في مرتبة روحه و تفصيلا في مرتبة قلبه عالم كلّي يعلم به الإسم اللّه الجامع للأسماء.

و إذا كان كلّ فرد من أفراد العالم علامة لاسم إلهى، و كلّ اسم لاشتماله بالذّات الجامعة لأسمائها مشتمل عليها كان كلّ فرد من أفراد العالم أيضا عالما يعلم به جميع الأسماء، فالعالم غير متناه (فالعوالم غير متناهية) من هذا الوجه، لكن لمّا كانت الحضرات الإلهيّة الكلّيّة خمسة (خمسا) صارت العوالم الكلية الجامعة لما عداها أيضا كذلك.

(في بيان الحضرات الخمسة)

و أوّل الحضرات الكلّيّة حضرة الغيب المطلق و عالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلميّة و في مقابلتها حضرة الشّهادة المطلقة و عالمها عالم الملك، و حضرة الغيب المضاف و هي تنقسم إلى ما يكون أقرب من الغيب المطلق و عالمه عالم الأرواح الجبروتيّة و الملكوتيّة، أعني عالم العقول و النّفوس المجردة، و إلى ما يكون أقرب من الشّهادة المطلقة و عالمه عالم المثال، و إنّما انقسم الغيب المضاف إلى القسمين لأنّ للأرواح صورا (مثاليّة) مناسبة لعالم الشّهادة المطلقة، و صورا عقليّة مجردة مناسبة للغيب المطلق، و الخامسة الحضرة الجامعة للأربعة المذكورة و عالمها العالم الإنساني الجامع لجميع العوالم و ما فيها، فعالم الملك مظهر عالم الملكوت و هو العالم المثالي المطلق، و هو مظهر عالم الجبروت أي عالم المجردات، و هو مظهر عالم الأعيان الثّابتة و هو مظهر الأسماء الإلهيّة و الحضرة الواحديّة هي مظهر الحضرة الأحديّة».

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٣٠

(في أنّ العوالم كلّها كتب إلهيّة)

ثمّ قال:

«يجب عليك أن تعلم أنّ هذه العوالم كلّيها و جزئيّها كتب إلهيّة لإحاطتها بكلماتها التامّات، فالعقل الأوّل و النّفس الكلّيّة اللّتان هما صورتا أمّ الكتاب و هي الحضرة العلميّة كتابان إلهيّان، و قد يقال للعقل الأوّل: أمّ الكتاب لإحاطته بالأشياء إجمالا، و للنفس الكلّيّة: الكتاب المبين لظهورها تفصيلا، و كتاب المحو و الإثبات هو حضرة النّفس المنطبعة في الجسم الكلّي من حيث تعلّقها بالحوادث، و هذا المحو و الإثبات إنّما يقع للصّور الشخصيّة الّتي فيها باعتبار أحواله اللاّزمة لأعيانها بحسب استعداداتها الأصليّة المشروط ظهورها بالأوضاع الفلكيّة المعدّة لتلك الذّوات أن تتلبّس بتلك الصّور مع أحوالها الفائضة عليها من الحقّ سبحانه بالاسم المدبّر و الماحي و المثبت و الفعّال لما يشاء و أمثالها، و الإنسان الكامل كتاب جامع لهذه الكتب لأنّه نسخة العالم الكبير، كما قال العارف الربّاني (علي بن أبي طالب) أمير المؤمنين عليه السّلام «(١١)»:

دائك فيك و ما تشعر　　و دوائك فيك و ما تبصر

و تزعم أنّك جرم صغير　　و فيك انطوى العالم الأكبر

و أنت الكتاب المبين الّذي　　بأحرفه يظهر المضمر

فمن حيث روحه و عقله كتاب عقليّ مسمّى بأم الكتاب، و من حيث قلبه كتاب

---

(١١) قوله: كما قال العارف الربّاني أمير المؤمنين (ع):

ورد ذكر هذه الأبيات في ديوان المنسوب إليه عليه السّلام «روائع الحكم في أشعار الإمام علي عليه السّلام» ص ٢٠٠، و في الديوان كما يلي:

دواؤك فيك و ما تشعر　　و داؤك منك و ما تبصر

و تحسب أنّك جرم صغير　　و فيك انطوى العالم الأكبر

و أنت الكتاب المبين الّذي بأحرفه يظهر المضمر

فلا حاجة لك في خارج يخبّر عنك بما سطّروا

[.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٣١

اللّوح المحفوظ، و من حيث نفسه كتاب المحو و الإثبات، فهي الصّحف المكرّمة المرفوعة المطهّرة الّتي لا يمسّها و لا يدرك أسرارها و معانيها إلاّ المطهّرون من الحجب.

و ما ذكر من الكتب إنّما هي أصول الكتب الإلهية و أمّا فروعها فكلّ ما في الوجود من النّفس و العقل و القوى الرّوحانيّة و الجسمانية و غيرها لأنّها ممّا ينتقش فيها أحكام الموجودات إمّا كلّها أو بعضها، و سواء كان مجملا أو مفصّلا، و أقلّ ذلك انتقاش عينها فقط و اللّه أعلم و أحكم.

هذا آخره و آخر بحث الكتاب الآفاق و تعيينه و تحقيقه بقدر هذا المقام، و سيجيء هذا البحث أبسط من ذلك عند تأويل:

الم ذٰلِكَ الْكِتٰابُ [سورة البقرة: ٢].

لأنّ هذا البحث يتعلّق بذلك المقام و هنا كان للتّنبيه عليه و تقديم مقدّمات تكون معينة على دركه و فهمه، و حيث فرغنا من هذا، و تقرّر أنّ الآفاق المسمّى بالعالم هو الكتاب الكبير الإلهي، و أنّ الأنفس المسمّى بالإنسان هو الكتاب الصّغير الإلهي فلنشرع في تطبيقهما و تعيين كلماتهما و حروفهما و آياتهما إجمالا و تفصيلا، ثمّ في تطبيق القرآن بهما قبل وصولنا إلى مقدّمات متعلّقة بهذا البحث لأنّ لهذه الأبحاث كما قرّرناه ثلاث مقدّمات مخصوصة بها آتية في موضعها، و إذا عرفت هذا، فاعلم، أنّ هذا التّطبيق يحتاج إلى ثلاث قواعد:

القاعدة الاولى، في تفصيل العالم و ترتيب الموجودات الروحانيّة و الجسمانيّة على طريق الموحّدين و غيرهم أيضا الّذي هو الحكيم و المتكلّم.

و القاعدة الثّانية، في تفصيل الإنسان و ترتيب وجوده من حيث الظّاهر و الباطن.

و القاعدة الثّالثة، في تطبيق القرآن بهما من حيث الحروف و الكلمات و الآيات.

و أوّل تلك القواعد هذا، و باللّه التوفيق.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٣٢

القاعدة الأولى في تفصيل العالم و ترتيب الموجودات العلويّة و السفليّة إجمالا و تفصيلا

اعلم أنّ العوالم كلّها من عالم الملك و الملكوت، و الغيب و الشهادة، و الأمر و الخلق، و الرّوحاني و الجسماني، و غير ذلك منحصرة في العالم الكبير المسمّى بالآفاق، و في العالم الصغير المسمّى بالأنفس، و كلّ واحد من هذين العالمين مطابق للآخر في جميع الأحوال المبتدائيّة و المنتهائيّة، و الدّنيا و الآخرة، و بالجملة ... «١٢».

(في انّ العالم عرض و الجوهر هو العماء)

الفصل التاسع في العالم و هو كلّ ما سوى اللّه و ترتيبه و نضده روحا و جسما و علوا و سفلا «١٣».

اعلم أنّ العالم عبارة عن كلّ ما سوى اللّه و ليس إلاّ الممكنات، سواء وجدت أو لم توجد، فإنّها بذاتها علامة على علمنا أو على العلم بواجب الوجود لذاته و هو اللّه، فإنّ الإمكان حكم لها، لازم في حال عدمها و وجودها، بل هو ذاتيّ لها لأنّ التّرجيح لها لازم فالمرجّح معلوم و لهذا سمّي عالما من العلامة، لأنّه الدّليل على المرجّح، فاعلم

---

(١٢) قوله: و بالجملة:

و الجدير بالذكر: انّه سقطت هنا (مع الأسف) من النسخة صفحات حتّى لا يوجد في المخطوط تفصيل القواعد الثلاثة و مطالبها.

و الفصل التالي المنقول من الفتوحات المكيّة كان ناقصا أيضا في المخطوط، فإنّا بعد التأمّل و الدقّة و التتبّع وجدنا بأنّه بعض مطالب الفصل التاسع من ذلك الكتاب و لذا نقلناه و أوردناه بتمامه.

(١٣) قوله: الفصل التاسع.

راجع الفتوحات المكيّة ج ٣، ص ٤٤٣ من باب الأحد و السبعين و ثلاثمائة.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٣٣

ذلك، و ليس العالم في حال وجوده بشيء سوى الصّور الّتي قبلها العماء و ظهرت فيه، فالعالم إن نظرت حقيقته انّما هو عرض زائل أي في حكم الزّوال، و هو قوله تعالى:

كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ [سورة القصص: ٨٨].

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أصدق بيت قالته العرب.

قول لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل (١٤).

---

(١٤) قوله: قول لبيد:

ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل   و كلّ نعيم لا محالة زائل

البيت من أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري و هو من الصحابة و له ديوان و شارح ديوانه الطوسي.
قال الطريحي في مجمع البحرين: لبيد بن عامر الشاعر الصّحابي و هو المقول فيه أصدق كلمة قالها لبيد: (الشعر).
نقل الشيخ البهائي من حواشي السيوطي على البيضاوي: إنّ لبيدا قد عاش مائة و خمسة و أربعين سنة و هو القائل:

و لقد سئمت من الحياة و طولها   و سؤال هذا النّاس كيف لبيد

و راجع في ترجمته أيضا الإصابة للعسقلاني ج ٣، ص ٣٢٦، و في الإستيعاب في هامش الإصابة في نفس الصفحة.
في صحيح مسلم ج ٤، كتاب الشعر، ص ١٧٦٨، بإسناده عن أبي هريرة عن النّبي (ص) قال: أصدق بيت- أشعر كلمة- أصدق كلمة تكلّمت بها العرب- قالها الشاعر- قالته الشعراء:
ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل ذكره أيضا ابن ماجة في سننه ج ٢، ص ١٢٣٦، الحديث ٣٧٥٧.
قال صدر المتألهين في الأسفار ج ١، ص ٨٩: اهتزت نفس النبيّ اهتزازا علويّا لا سفليّا حيث سمع قول لبيد:

ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل   و كلّ نعيم لا محالة زائل

و طربت طربا قدسيّا لا حسيّا، و قال:
اللّهمّ إلاّ أنّ العيش عيش الآخرة.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٣٤

- أقول، الشعر المذكور في معنى قوله تعالى:
كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ.
و قوله تعالى:
كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِكْرٰامِ [سورة الرّحمن: ٢٧].
و أمّا قوله (ص) أنّ العيش عيش الآخرة، فإنّ الحياة الحقيقيّة ما لا تكون مشوبة بالموت و الفناء و لا تنتهي إلى الموت، و الحياة التي بهذه الصفة هي حياة الآخرة بقوله تعالى:
وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ [سورة العنكبوت: ٦٤].

و لا بأس بذكر بعض ما ذكره العلاّمة المجلسي في: (لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) في كتابه القيّم بحار الأنوار، قال في ج ۷۰، ص ۲۹٤٥، نقلا عن مصباح الشريعة:

قال الصادق عليه السّلام: قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

أصدق كلمة قالتها العرب كلمة لبيد:

ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل و كلّ نعيم لا محالة زائل

و قال في ج ۹۲، ص ۱۳۲:

جاء لبيد و آمن برسول اللّه (ص) و ترك قيل الشعر تعظيما لأمر القرآن، فقيل له: ما فعلت قصيدتاك؟ قال: أبدلني اللّه بهما سورتي البقرة و آل عمران.

ذكره أيضا الراوندي في كتابه الخرائج و الجرائح ج ۳، ص ۹۹٤ فراجع.

و قال في ج ۵۱، ص ۲٤۵:

عاش لبيد بن ربيعة بن الجعفريّ مائة و أربعين سنة و أدرك الإسلام فأسلم فلمّا بلغ سبعين من عمره أنشأ يقول:

كأنّي و قد جاوزت سبعين حجّة خلعت بها عن منكبيّ ردائيا

إلى أن قال:

فلمّا بلغ مائة و أربعين سنة أنشأ يقول:

و لقد سئمت من الحياة و طولها و سؤال هذا النّاس كيف لبيد

إلى آخر ما قال فراجع.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۵

يقول: ما له حقيقة تثبت عليها من نفسه، فما هو موجود إلّا بغيره، و لذلك قال عليه السّلام:

أصدق بيت قالته العرب: ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل.

فالجوهر الثّابت هو العماء و ليس إلّا نفس الرّحمن و العالم جميع ما ظهر فيه من الصّورة، فهي أعراض فيه، يمكن إزالتها و تلك الصّور هي الممكنات، و نسبتها من العماء نسبة الصّور من المرآة تظهر فيها لعين الرّائي، و الحقّ تعالى هو بصر

العالم فهو الرّائي و هو العالم بالممكنات. فما أدرك إلّا ما في علمه من صور الممكنات فظهر العالم بين العماء و بين رؤية الحقّ، فكان ما ظهر دليلا على الرّائي و هو الحقّ، فتفطّن و اعلم من أنت.

- و قال في ج ۱۷، ص ۱٦٦:

و قد قيل: إنّ أحسن الشعر أكذبه، و لهذا فإنّ لبيد بن ربيعة و حسّان بن ثابت لمّا أسلما و تركا سلوك سبيل الكذب و التخييل ركّ شعرهما.

و قال في ج ۱۸، ص ۲۲ (نقلا عن المناقب ج ۱، ص ۱۱۵ و عن الخرائج ج ۱، ص ۳۳ و عن اعلام الورى ص ۲۸):

من معجزاته (ص): أن أبا براء ملاعب الأسنّة (هذا الرّجل كان جدّ لبيد) كان به استسقاء فبعث إليه (ص) لبيد بن ربيعة، و أهدى له (ص) فرسين و نجائب، فقال (ص): لا أقبل هديّة مشرك، قال لبيد: ما كنت أرى أنّ رجلا من مضر يردّ هديّة أبي براء، فقال (ص): لو كنت قابلا هديّة من مشرك لقبلتها، قال: فإنّه يستشفيك من علّة أصابته في بطنه، فأخذ (ص) حثوة من الأرض فتفل عليها ثمّ أعطاه و قال (ص): دفها بماء ثمّ أسقه إيّاه، فأخذها متعجّبا يرى أنّه قد استهزئ به، فأتاه فشربها و أطلق من مرضه كأنّما أنشط من عقال.

أقول: الحثو: قبض التراب باليد.

حثا الرّجل التراب (يحثوه) حثوا و يحثيه حثيا، من باب رمى، إذا هاله بيده و بعضهم يقول: قبضه بيده.

الحثي (مص) ج حثيات: ما غرف باليد من التّراب و غيره، و يقال حثا التراب و نحوه (حثوا) عليه و له: أعطاه شيئا يسيرا.

راجع المصباح المنير و المعجم الوسيط و المنجد و غيرها.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳٦

(تفصيل الموجودات على الظهور و الترتيب)

و أمّا تفصيله (نضده) على الظّهور و التّرتيب فأرواح نوريّة إلهيّة مهيّمة في صور نوريّة خليقة (خلقية) إبداعيّة في جوهر نفس هو العماء من جملتها العقل الأوّل و هو القلم، ثمّ النّفس و هو اللّوح المحفوظ، ثمّ الجسم الكلّي، ثمّ العرش و مقرّه و هو الماء الجامد و الهواء و الظلمة، ثمّ ملائكته، ثمّ الكرسي، ثمّ ملائكته، ثمّ الأطلس، ثمّ ملائكته، ثمّ فلك المنازل، ثمّ الجنّات بما فيها، ثمّ ما يختصّ بها و بهذا الفلك من الكواكب، ثمّ الأرض، ثمّ الماء، ثمّ الهواء العنصري، ثمّ النّار، ثمّ الدّخان و فتق فيه سبع سموات: سماء القمر، و سماء الكاتب، و سماء الزّهرة، و سماء الشّمس، و سماء الأحمر، و سماء المشتري، و سماء زحل (المقاتل)، ثمّ أفلاكها المخلوقون منها، ثمّ ملائكة النّار و الماء و الهواء و الأرض، ثمّ المولّدات: المعدن و النّبات و الحيوان، ثمّ نشأة جسد الإنسان، ثمّ ما ظهر من أشخاص كلّ نوع من الحيوان و النّبات و المعدن، ثمّ الصّور المخلوقات من أعمال المكلّفين و هي آخر نوع، هذا ترتيبه بالظّهور في الإيجاد.

و أمّا ترتيبه بالمكان الوجودي أو المتوهّم، فالمكان المتوهّم المعقولات الّتي ذكرناها إلى الجسم الكلّ، ثمّ العرش، ثمّ الكرسي، ثمّ الأطلس، ثمّ المكوكب و فيه الجنّات، ثمّ سماء زحل، ثمّ سماء المشتري، ثمّ سماء المرّيخ، ثمّ سماء الشّمس، ثمّ سماء الزّهرة، ثمّ سماء الكاتب، ثمّ سماء القمر، ثمّ سماء الأثير، ثمّ الهواء، ثمّ الماء، ثمّ الأرض.

و أمّا ترتيبه بالمكانة: فالإنسان الكامل، ثمّ العقل الأوّل، ثمّ الأرواح المهيّمة، ثمّ النّفس، ثمّ العرش، ثمّ الكرسي، ثمّ الأطلس، ثمّ الكثيب، ثمّ الوسيلة، ثمّ عدن، ثمّ الفردوس، ثمّ دار السّلام، ثمّ المأوى، ثمّ الخلد، ثمّ النعيم، ثمّ فلك

المنازل، ثمّ البيت المعمور، ثمّ سماء الشّمس، (ثمّ القمر)، ثمّ المريخ، ثمّ المشتري، ثمّ زحل، ثمّ الزهرة، ثمّ الكاتب، (ثمّ المريخ)، ثمّ القمر، ثمّ الهواء، ثمّ الماء، ثمّ التّراب، ثمّ النار، ثمّ الحيوان، ثمّ النّبات، ثمّ المعدن، و في النّاس الرّسل، ثمّ الأنبياء، ثمّ الأولياء، ثمّ المؤمنون، ثمّ سائر الخلق.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٧

الباب السّابع في معرفة بدء الجسوم الإنسانيّة

و هو آخر جنس موجود من العالم الكبير و آخر صنف من المولدات «١٥»

(في عمر العالم الطبيعي)

اعلم أيّدك اللّه أنّه لمّا مضى من عمر العالم الطبيعيّ المقيّد بالزّمان المحصور بالمكان إحدى و سبعون ألف سنة من السّنين المعروفة في الدّنيا و هذه المدّة أحد عشر يوما من أيام غير هذا الاسم و من أيام «ذي المعارج» يوم و خمسا يوم، و في هذه الأيّام يقع التّفاضل، قال تعالى:

فِي يَوْمٍ كٰانَ مِقْدٰارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [سورة المعارج: ٤].

و قال:

وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ [سورة الحج: ٤٧].

فأصغر الأيّام هي الّتي تعدها (نعدها) حركة الفلك المحيط الّذي يظهر في يومه اللّيل و النّهار، فأقصر يوم عند العرب، و هو هذا، لأكبر فلك، و ذلك لحكمه على ما في جوفه من الأفلاك، إذ كانت حركة ما دونه في اللّيل و النّهار حركة قسريّة له قهر بها ساير الأفلاك الّتي يحيط بها.

(في أنّ لكل فلك حركتين: طبيعيّة و قسريّة)

و لكلّ فلك حركة طبيعيّة تكون له مع الحركة القسريّة، فكلّ فلك دونه ذو حركتين في وقت واحد: حركة طبيعيّة و حركة قسريّة، و لكلّ حركة طبيعيّة في كلّ

---

(١٥) قوله: الباب السابع.

راجع الفتوحات المكيّة ج ٢، ص ٣٣٤ الطبع الجديد، و ج ١، ص ١٢١ الطبع السابق.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٨

فلك يوم مخصوص يعدّ مقداره بالأيّام الحادثة عن الفلك المحيط، المعبّر عنها بقوله:

«ممّا تعدّون»، و كلّها تقطع في الفلك المحيط، فكلّما قطعته على الكمال، كان يوما لها و يدور الدور، فأصغر الأيّام منها هو ثمانية و عشرون يوما «مما تعدّون»، و هو مقدار قطع حركة القمر في الفلك المحيط.

و نصب اللّه هذه الكواكب السّبعة في السّموات، ليدرك البصر قطع فلكها في الفلك المحيط، لتعلم (لنعلم) عدد السّنين و الحساب، قال تعالى:

وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ [سورة يونس: ٥].

وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً [سورة الإسراء: ١٢].

ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [سورة الأنعام: ٩٦].

فكلّ كوكب منها يوم مقدّر يفضل بعضها على بعض، على قدر سرعة حركاتها الطبيعيّة، أو صغر أفلاكها و كبرها.

(خلق القلم و اللّوح و الهباء)

فاعلم أنّ اللّه تعالى لمّا خلق القلم و اللّوح، و سمّاها العقل و النّفس (الرّوح)، فأعطى الرّوح صفتين: صفة علميّة، و صفة عمليّة، و جعل العقل لها معلّما و مفيدا، إفادة مشاهدة حاليّة، كما تستفيد من صور (صورة) السكّين القطع من غير نطق يكون معه (منه) في ذلك.

و خلق تعالى جوهرا دون النّفس الّذي هو الرّوح المذكور، سمّاه الهباء، و هذه الاسميّة له نقلناها من كلام علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه.

و أمّا الهبا فمذكور في اللّسان العربي، قال تعالى:

فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا [سورة الواقعة: ٦].

كذلك لمّا رآها علي بن أبي طالب، أعنى هذه الجوهرة منبثّة في جميع الصّور الطبيعيّة كلّها و أنّها لا تخلو صورة منها إذ لا تكون صورة إلاّ في هذه الجوهرة، سمّاها هباء،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٣٩

و هي مع كلّ صورة بحقيقتها لا تنقسم، و لا تتجزّى، و لا تتّصف بالنّقص، بل هي كالبياض الموجود في كلّ أبيض بذاته و حقيقته، و لا يقال: قد نقص من البياض قدر ما حصل منه في هذا الأبيض، هذا مثل حال هذه الجوهرة (١٦).

---

(١٦) قوله: فهذا مثل حال هذه الجوهرة.

أقول: لا بأس بذكر بعض ما نطق به الشيخ الأكبر حول الهباء في الفتوحات المكيّة ليتضح المطلب، قال:

«جوهر الهباء الّذي يسمّيه أهل النظر: الهيولى الكلّ الّذي لم تظهره صورة الجسم إلاّ فيه» ج ١، ص ٧٢١ و ج ١٠، ص ٤٣٥ (ط ج).

و قال: الهباء بسيط، فما قرب منه عومل بمعاملته، و ما بعد عنه تميّز في الحكم عن القريب ج ١، ص ٦٧٩ و ج ١٠، ص ١٤٥ (ط ج).

و قال: فأوجد اللّه سبحانه العقل الأول من نسبة الحياة، و أوجد النّفس من نسبة العلم، و كان العقل شرطا في وجود النّفس، كالحياة شرط في وجود العلم.

و كان المنفعلان عن العقل و النّفس: الهباء و الجسم الكلّ.

فهذه الأربعة أصل ظهور الصور في العالم، غير أنّ بين النّفس و الهباء مرتبة الطبيعة ج ١، ص ٢٩٣ و ج ٤، ص ٣٤٤ (ط ج).

و قال في ج ١، ص ٢٦٠ و ص ١٥٨ ج ٤ (ط ج):

و صورة الأمر فيها هكذا:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٤٠

- و قال في الباب ٧٨ حينما شرع في بحث الخلوة:

قال رسول اللّه (ص):

«كان اللّه و لا شيء معه».

و سئل رسول اللّه (ص): أين كان ربّنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء ما فوقه هواء و ما تحته هواء.

ثمّ خلق الخلق و قضى القضيّة و فرغ من أشياء، و هو:

كلّ يوم في شأن.

إلى أن قال:

و أصل الخلوة في العالم: الخلاء، الّذي ملأه العالم، فأوّل شيء ملأ: الهباء، و هو جوهر مظلم ملأ الخلأ بذاته، ثمّ تجلّى له الحقّ باسمه: النور، فانصبغ به ذلك الجوهر و زال عنه حكم الظلمة و هو العدم فاتّصف بالوجود، فظهر لنفسه بذلك النور المنصبغ به، و كان ظهوره به على صورة الإنسان ج ٢، ص ١٥٠ و ج ١٣، ص ٣٥٣ (ط ج).

و قال:

و أعلى ما يشبهها (أي حقيقة الحقائق) من الحدثات الهباء الّذي خلق فيه صور العالم، ثمّ النور أنزل منه في الشّبه بها، فإنّ النّور صورة في الهباء كما أنّ الهباء صورة فيها. ج ١، ص ٧٨ و ج ١، ص ٣٣٣ (ط ج).

و قال:

«كان اللّه و لا شيء معه» ثمّ أدرج فيه: «و هو الآن على ما عليه كان»، لم يرجع إليه سبحانه من إيجاده العالم صفة لم يكن عليها، بل كان موصوفا لنفسه، و مسمّى قبل خلقه بالأسماء الّتي يدعوه بها خلقه.

فلمّا أراد (تعالى) وجود العالم، و بدأه على حدّ ما علمه بعلمه بنفسه، انفعل عن تلك الإرادة المقدّسة بضرب تجلّ من تجلّيات التنزيه إلى الحقيقة الكلّيّة، انفعل عنها حقيقة تسمّى: الهباء، هي بمنزلة طرح البنّاء الجصّ ليفتح فيها ما شاء من الأشكال و الصّور، و هذا هو أوّل موجود في العالم، و قد ذكره عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه و سهل بن عبد اللّه رحمه اللّه، و غيرهما من أهل التحقيق، أهل الكشف و الوجود.

ثمّ إنّه سبحانه تجلّى بنوره إلى ذلك الهباء، و يسمّيه أصحاب الأفكار الهيولى الكلّ،-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤١

(في المراتب الأربعة بين الروح و الهباء)

و عيّن اللّه سبحانه بين هذا الرّوح الموصوف بالصفتين، و بين الهباء أربع مراتب، و جعل كلّ مرتبة منزلا لأربعة أملاك، و جعل هؤلاء الأملاك كالولاة على ما أحدثه سبحانه دونهم من العالم من العلّيّين إلى أسفل سافلين، و وهب كلّ ملك من الملائكة علم ما يريد إمضاءه في العالم.

- و العالم كلّه فيه بالقوّة و الصلاحيّة، فقبل منه كلّ شيء في ذلك الهباء على حسب قوّته و استعداده، كما تقبل زوايا البيت نور السراج و

على قدر قربه من ذلك النّور يشتدّ ضوءه و قبوله، قال تعالى:

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكٰاةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ [سورة النور: ٣٤].

فشبّه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه تعالى قبولا في ذلك الهباء إلاّ حقيقة محمّد (ص) المسمّاة بالعقل، فكان سيّد العالم بأسره، و أوّل ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك النور الإلهي و من الهباء و من الحقيقة الكلّيّة و في الهباء وجد عينه، و عين العالم من تجليه.

و أقرب النّاس إليه علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه (عليه السّلام) إمام العالم و سرّ الأنبياء أجمعين. ج ١، ص ١٩٩ و ج ٢، ص ٢٣٦ (ط ج).

و (في بعض النسخ): علي بن أبي طالب و أسرار الأنبياء أجمعين.

(و في بعضها): علي بن أبي طالب و أسرار الأنبياء.

و في نسخة ابن فناري اضافة إلى هذه العبارة (مصباح الأنس ص ١٧٥):

علي بن أبي طالب عليه السّلام ثمّ ساير الأنبياء.

و قال ابن فناري في مصباح الأنس- بعد ذكر هذه العبارة في بحثه عن ما يشتمل عليه اللّوح من الأرواح بعد ما نقل كلاما طويلا عن الشيخ من كتابه «عقلة المستوفر» (ص ٤٩)-:

أقول: هذا غير الهباء الّذي قال في الفتوحات بعد وريقات:

لمّا خلق القلم و اللوح و سمّاها العقل و الرّوح إلخ، فراجع فتأمّل.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٤٢

(الجسم الكلّ أوّل الخلق في الأعيان)

فأوّل شيء أوجده اللّه في الأعيان ممّا يتعلّق به علم هؤلاء الملائكة و تدبيرهم الجسم الكلّ، و أوّل شكل فتح في هذا الجسم الشّكل الكري المستدير، إذ كان أفضل الأشكال، ثمّ نزل سبحانه بالإيجاد و الخلق إلى تمام الصّنعة، و جعل جميع ما خلقه تعالى مملكة لهؤلاء الملائكة و ولاّهم أمورها في الدّنيا و الآخرة، و عصمهم عن المخالفة فيما أمرهم به، فأخبرنا سبحانه أنّهم:

لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ [سورة التّحريم: ٦].

(خلق اللّه أربعة أشياء بيده)

و لمّا انتهى خلق المولّدات من الجمادات و النّبات و الحيوان بانتهاء إحدى و سبعين ألف سنة من سني الدّنيا ممّا يعدّ (نعد)، و رتّب العالم ترتيبا حكميّا، و لم يجمع سبحانه لشيء ممّا خلقه من أوّل موجود إلى آخر مولود و هو الحيوان بين يديه تعالى إلاّ للإنسان، و هي هذه النشأة البدنيّة التّرابيّة، بل خلق كلّ ما سواها إمّا عن أمر إلهي، أو عن يد واحدة قال تعالى:

إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَيْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [سورة النحل: ٤٠].

فهذا عن أمر إلهي، و ورد في الخبر:

«إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق جنّة عدن بيده، و كتب التّوراة بيده، و غرس شجرة طوبى بيده» (١٧).

(۱۷) قوله: و ورد في الخبر: إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق جنّة عدن بيده.

أقول: روي مضمون الحديث في كتب الفريقين، راجع ما يلي:

في المحاسن للبرقي (ره)، كتاب عقاب الأعمال، الباب ۵۵ ص ۱۱۵، الحديث ۱۱۸، بإسناده عن محمّد بن قيس، عن الباقر أبي جعفر عليه السّلام قال:

عرض إبليس لنوح (ع) و هو قائم يصلّي، فحسد على حسن صلاته، فقال:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۴۳

و خلق آدم الّذي هو الإنسان بيديه.

فقال تعالى لإبليس عن جهة التّشريف لآدم عليه السّلام:

مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [سورة ص: ۷۵].

(قسمة الفلك الأدنى اثنا عشر بروجا)

و لمّا خلق اللّه الفلك الأدنى الّذي هو الأوّل المذكور آنفا، قسّمه اثنى عشر قسما سمّاها بروجا، قال تعالى:

وَ السَّمٰاءِ ذٰاتِ الْبُرُوجِ [سورة البروج: ۱].

فجعل كلّ قسم برجا، و جعل تلك الأقسام ترجع إلى أربعة في الطّبيعة، ثمّ كرّر كلّ واحد من الأربعة في ثلاثة مواضع (منها) منه، و جعل هذه الأقسام كالمنازل و المناهل الّتي ينزل فيها المسافرون، و يسير فيها السّائرون في حال سيرهم و سفرهم، لينزل في هذه الأقسام عند سير الكواكب فيها و سباحتهم مما (ما) يحدث اللّه في جوف هذا الفلك من الكوكب الّتي تقطع سيرها في هذه البروج، ليحدث اللّه عند قطعها و سيرها ما شاء أن يحدث من العالم الطّبيعي و العنصري، و جعلها علامات على أثر حركة فلك البروج.

- يا نوح إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق جنة عدن بيده، و غرس أشجارها و اتّخذ قصورها و شقّ أنهارها، ثمّ أطلع إليها فقال: «قد أفلح المؤمنون».

و نقل عنه المجلسي (ره) في بحار الأنوار ج ۸، ص ۱۹۵، الحديث ۷۷۸.

و أيضا روى الشيخ المفيد (ره) في كتابه الإختصاص ص ۴۵ في مسائل عبد اللّه بن سلام عن النّبي (ص)، باسناده عن ابن عبّاس عن نبيّنا (ص) قال:

«خلق اللّه (سبحانه) جنّات عدن بيده، و نصب شجرة طوبى في الجنّة بيده، و خلق آدم (ع) بيده، و كتب التّوراة بيده»، الحديث.

و عنه المجلسي في البحار ج ۹، ص ۳۳۸، و أيضا روى مثله في ج ۶۰، ص ۲۴۳.

و راجع أيضا المستدرك على الصّحيحين ج ۳، ص ۳۱۹ و ص ۳۹۷، و كنز العمّال ج ۶، ص ۱۳۰ و ج ۱۴، ص ۴۵۴، و مجمع الزّوائد ج ۱۰، ص ۳۹۷.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۴۴

(بيان الطبائع و العناصر الأربعة)

فاعلم فقسم من هذه الأربعة طبيعيّة الحرارة و اليبوسة، و الثّاني البرودة و اليبوسة، و الثّالث الحرارة و الرّطوبة، و الرّابع البرودة و الرّطوبة، و جعل الخامس و التّاسع من هذه الأقسام مثل الأوّل، و جعل السّادس و العاشر مثل الثّاني، و جعل السّابع و الحادي عشر مثل الثّالث، و جعل الثّامن و الثّاني عشر مثل الرّابع أعني في الطبيعة.

فحصر الأجسام الطبيعيّة بخلاف، و الأجسام العنصريّة بلا خلاف في هذه الأربعة الّتي هي الحرارة و البرودة و الرّطوبة و اليبوسة، و مع كونها امّهات فإنّ اللّه جعل اثنين منها أصلا في وجود الإثنين الآخرين، فانفعلت اليبوسة عن الحرارة، و الرّطوبة عن البرودة، و الرّطوبة و اليبوسة موجودتين عن سببين هما الحرارة و البرودة، و لهذا ذكر اللّه تعالى في قوله.

وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ [سورة الأنعام: ٥٩].

لأنّ السّبب (المسبّب) يلزم من وجوده من كونه مسبّبا وجود السّبب، أو منفعلا، وجود الفاعل، كيف شئت فقل، و لا يلزم من وجود المسبّب وجود المسبّب «من وجود السّبب وجود المسبّب».

و لمّا خلق اللّه هذا الفلك الأوّل دار دورة غير معلومة الانتهاء للّه تعالى، لأنّه ليس فوقه شيء محدود من الأجرام يقطع فيه، فإنّه أوّل الأجرام الشّفافة، فتعدّد الحركات و تتميّز، و لا كان قد خلق اللّه في جوفه شيئا فتتميّز الحركة و تنتهي عند من يكون في جوفه، و لو كان، تتميّز أيضا (لم تتميّز أصلا) لأنّه أطلس لا كوكب فيه متشابه الأجزاء، فلا يعرف مقدار الحركة الواحدة منه و لا تتعيّن، فلو كان فيه جزء مخالف لسائر أجزائه عدّ به حركاته بلا شكّ، و لكن علم اللّه قدرها و انتهاءها و كرورها، فحدث عن تلك الحركة اليوم، و لم يكن، ثمّ ليل و لا نهار في هذا اليوم.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٥

ثمّ استمرّت (حركات) هذا الفلك.

فخلق اللّه ملائكة خمسة و ثلاثين ملكا، من جملة هؤلاء الملائكة جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و عزرائيل، ثمّ خلق تسع مائة ملك و أربعا و سبعين، و أضافهم إلى ما ذكرناه من الأملاك، و أوحى إليهم و أمرهم بما يجري على أيديهم في خلقه فقالوا:

وَ مٰا نَتَنَزَّلُ إِلاّٰ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مٰا بَيْنَ أَيْدِينٰا وَ مٰا خَلْفَنٰا وَ مٰا بَيْنَ ذٰلِكَ وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ نَسِيًّا [سورة مريم: ٦٤].

و قال فيهم:

لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ [سورة التحريم: ٦].

فهؤلاء من الملائكة هم الولاة خاصّة، و خلق ملائكة هم عمّار السّموات و الأرض لعبادته، فما في السّماء و الأرض موضع إلاّ و فيه ملك و لا يزال الحقّ يخلق من أنفاس العالم ملائكة ما داموا متنفّسين.

(خلق الدار الدنيا)

و لمّا انتهى من حركات هذا الفلك الأوّل، و مدّته أربع و خمسون ألف سنة «ممّا تعدّون»، خلق الدّار و الدّنيا، و جعل لها أمدا معلوما تنتهي إليه و تنقضي صورتها، و تستحيل من كونها دارا لنا و قبولها صورة مخصوصة، و هي الّتي نشاهد اليوم، إلى أن:

تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمٰاوٰاتُ [سورة إبراهيم: ٤٨].

و لمّا انقضى من مدّة (حركات) حركة هذا الفلك ثلاث و ستّون ألف سنة ممّا تعدّون خلق اللّه الدّار الآخرة و الجنّة و النّار اللّتين أعدّهما اللّه لعباده السّعداء و الأشقياء، فكان بين خلق الدّنيا و خلق الأرض تسع آلاف سنة ممّا تعدّون، و

لهذا سمّيت آخرة لتأخّر خلقها عن خلق الدّنيا، و سمّيت الدّنيا: الأولى لأنّها خلقت قبلها، قال تعالى:
وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولىٰ [سورة الضحى: ٤].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤۶

يخاطب نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لم يجعل للآخرة مدّة ينتهى إليها بقاؤها، فلها البقاء الدّائم.

و جعل سقف الجنّة هذا الفلك و هو العرش عند الّذي لا تتعيّن حركته و لا تتميّز، محركته دائمة لا تنقضي، و ما من خلق ذكرناه خلق إلاّ و تعلّق القصد الثّاني منه وجود الإنسان الّذي هو الخليفة في العالم، و إنّما قلت: القصد الثّاني، إذ كان القصد الأوّل معرفة الحقّ و عبادته الّتي لها خلق العالم كلّه، فما «من شيء إلاّ و هو يسبّح بحمده»، و معنى القصد الثّاني و الأوّل: التعلّق الإرادي لا حدوث الإرادة، لأنّ الإرادة للّه صفة قديمة أزليّة اتصفت بها ذاته، كسائر صفاته.

و لمّا خلق اللّه هذه الأفلاك و السّموات، و أوحى في كلّ سماء أمرها، و رتّب فيها أنوارها و سرجها، و عمرها بملائكته، و حرّكها (اللّه) تعالى، فتحرّكت طائعة للّه، آتية إليه طلبا للكمال في العبوديّة الّتي تليق بها، لأنّه تعالى دعاها، و دعا الأرض، فقال لها و للأرض:
ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً [سورة فصّلت: ١١].
لأمر حدّ لهما، قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ [سورة فصّلت: ١١].

فهما آتيان أبدا، فلا تزالا متحرّكتين، غير أنّ حركة الأرض خفيّه عندنا و حركتها حول الوسط، لأنّها أكر، فأمّا السّماء فأتت طائعة عند أمر اللّه لها بالإتيان، و أمّا الأرض فأتت طائعة لمّا علمت نفسها مقهورة، و أنّه لا بدّ أن يؤتي بها بقوله تعالى:
أَوْ كَرْهاً، فكانت المراد بقوله تعالى: أَوْ كَرْهاً، فأتت طائعة كرها.
فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا [سورة فصّلت: ١٢].

(خلق الأرض و تقدير أقواتها)

و قد كان خلق الأرض و قدّر فيها أقواتها من أجل المولّدات، فجعلها خزانة لأقواتهم، فكان من تقدير أقواتها وجود الماء و الهواء و النّار، و باقي ذلك من البخارات

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧

و السّحب و البروق و الرّعود و الآثار العلويّة، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، و خلق الجانّ من النّار، و الطّير و الدّواب البريّة و البحريّة، و الحشرات من عفونات الأرض، ليصفّوا الهواء لنا من بخارات العفونات الّتي لو خالطت الهواء الّذي أودع اللّه حياة هذا الإنسان و الحيوان و عافيته فيه لكان سقيما مريضا معلوما، فصفّى له الحقّ سبحانه لطفا منه بتكوين هذه المعفّنات، فقلّت الأسقام و العلل.

(خلق الإنسان)

و لمّا استوت المملكة و تهيّأت، و ما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلّها من أيّ جنس يكون هذه (هذا) الخليفة الّذي مهّد اللّه هذه المملكة لوجوده، فلمّا وصل الوقت المعيّن في علمه لإيجاد هذا الخليفة بعد أن مضى من عمر الدّنيا سبع عشرة ألف سنة، و من عمر الآخرة الّذي لا نهاية له في الدّوام ثمان آلاف سنة أمر اللّه بعض ملائكته أن يأتيه بقبضة من

كلّ أجناس تربة الأرض، فأتاه بها، في خبر طويل معلوم عند النّاس (١٨)، فأخذها سبحانه و خمّرها بيديه فهو قوله:

---

(١٨) قوله: في خبر طويل.

إن شئت فراجع ما يلي من الكتب: قصص الأنبياء لقطب الدّين الرّاوندي الفصل الثاني في ذكر أبينا آدم عليه السّلام ص ٤١، و بحار الأنوار ج ٥، ص ٢٤٥، الحديث ٣٥ و ص ٢٥٥، الحديث ٥٢، و أيضا ج ١١، ص ١٠٣، الحديث ٩ و ١٠، و أيضا ج ٦٣، ص ٢٧٣، الحديث ١٦١، و أيضا ج ٦٧، ص ٨٧ الحديث ١٠ و ص ٩٧، الحديث ١٥.

و راجع أيضا الدّر المنثور في التفسير المأثور ج ١، ص ١١٥ و ص ١١٩، روي الكليني ره في الأصول من الكافي ج ٢، ص ٥، الحديث ٧، باب طينة المؤمن و الكافر، بإسناد، عن أبي عبد اللّه الصادق (ع) قال:

إنّ اللّه عزّ و جلّ لمّا أراد أن يخلق آدم عليه السّلام بعث جبرئيل (ع) في أوّل ساعة من يوم الجمعة فقبض بيمينه قبضة فبلغت قبضته من السماء السابعة إلى السّماء الدّنيا، و أخذ من كلّ سماء تربة، و قبض قبضة اخرى من الأرض السّابعة العليا إلى الأرض السّابعة-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٨

لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [سورة ص: ٧٥].

و كان الحقّ قد أودع عند كلّ ملك من الملائكة الّذين ذكرناهم، وديعة لآدم، و قال لهم:

إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ [سورة ص: ٧١].

و هذه الودائع الّتي بأيديكم، فإذا خلقته، فليؤدّ إليه كلّ واحد منكم ما عنده ممّا أمنتكم عليه.

فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ [سورة ص: ٧٢].

فلمّا خمّر الحقّ تعالى بيديه طينة آدم حتّى ريحها و هو المسنون، و ذلك الجزء الهوائي الّذي في النّشأة جعل ظهره محلاّ للأشقياء و السّعداء من ذرّيته، فأودع ما كان في قبضته، فإنّه سبحانه أخبرنا أنّ في قبضة يمينه السّعداء، و في قبضة اليد الأخرى الأشقياء، و كلتا يدي ربّي يمين مباركة (١٩)، و قال: «هؤلاء للجنّة و بعمل أهل الجنّة

- القصوى.

فأمر اللّه عزّ و جلّ كلمته فأمسك القبضة الأولى بيمينه، و القبضة الأخرى بشماله ففلق الطين فلقتين، فذرا من الأرض ذروا، و من السّماوات ذروا.

فقال للّذي بيمينه: منك الرسل و الأنبياء و الأوصياء و الصّديقون و المؤمنون و السعداء و من أريد كرامته، فوجب لهم ما قال.

فقال للّذي بشماله: منك الجبارون و المشركون و الكافرون و الطواغيت و من أريد هو انه و شقوته، فوجب لهم ما قال كما قال. الحديث فراجع.

و الجدير بالذكر: انّه توجد في الباب الأحاديث المتعدّدة غير هذا الحديث و بعضها أكثر اعتبارا من هذا سندا، و لكن بما أنّ ألفاظ هذا الحديث المذكور أقرب و أكثر مطابقة لبحث المتن فلذا نقلناه في المقام، إضافة إلى ذلك أنّ المضمون المشترك الموجود في الأحاديث

الواردة في المقام لا يبعد أن يكون قريبا من التواتر لكثرتها.

(١٩) قوله: و كلتا يدي ربّي يمين.

نقل هذا المضمون في أحاديث كثيرة عن المعصومين (ع)، منها، عن الباقر أبي جعفر- [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٩

يعملون، و هؤلاء للنّار و بعمل أهل النّار يعملون» (٢٠).

- (ع)، قال: قال رسول اللّه (ص): المتحابّون في اللّه يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظلّ عرشه عن يمينه و كلتا يديه يمين. الحديث. أصول الكافي ج ٢ باب الحبّ في اللّه و البغض في اللّه ص ١٢٦، الحديث ٧، و عنه بحار الأنوار ج ٧، ص ١٩٥ ح ٦٤.

و مثله في المحاسن، باب ٣٤ باب الحبّ و البغض في اللّه، ج ٣٣٧، ص ٢٦٤، و عنه المجلسي في بحار الأنوار ج ٧٤، ص ١٥٩ ج ٣٤.

و منها، في المحاسن باب ٤٠ باب الابتلاء و الاختبار ج ٤٠٩، ص ٢٨٠. بإسناده عن الصّادق (ع)، عن رسول اللّه (ص) قال:

كتاب كتبه اللّه بيمينه، و كلتا يديه يمين، فيه أسماء أهل الجنّة، الحديث. و عنه بحار الأنوار ج ٥، ص ١٥٩، الحديث ١٥، فراجع.

(٢٠) قوله: و قال: هؤلاء للجنّة و بعمل أهل الجنّة يعملون.

رواه أحمد بن حنبل في مسنده ج ١، ص ٤٤ و أخرجه الحاكم أيضا في المستدرك على الصحيحين ج ٢، ص ٥٤٤ و في ج ١، ص ٢٧، و أيضا أخرجه المتّقي في كنز العمّال ج ٢، ص ٤٠٩، الحديث ٤٣٧٥، و في ج ١، ص ١١٣، الحديث ٥٢٩، و ذكره أيضا الفخر الرازي في تفسيره ج ١٥، ص ٤٦، و عنه المجلسي في البحار ج ٥، ص ٢٦٩.

و لفظ الحديث ما يلي:

قال رسول اللّه (ص): انّ اللّه خلق آدم ثمّ مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريّة، فقال: خلقت هؤلاء للجنّة و بعمل أهل الجنّة يعملون، ثمّ مسح ظهره فاستخرج منه ذريّة فقال: خلقت هؤلاء للنّار و بعمل أهل النّار يعملون، فقال رجل: يا رسول اللّه ففيم العمل؟

فقال رسول اللّه (ص): إنّ اللّه إذا خلق العبد للجنّة استعمله بعمل أهل الجنّة حتّى يموت على عمل من أعمال أهل الجنّة فيدخله به الجنّة، و إذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النّار حتّى يموت على عمل من أعمال أهل النّار فيدخله به النّار.

و روى العياشي في تفسيره ج ١، ص ١٨٢، الحديث ٧٨ في ذيل الآية: **وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ باسناده عن أبي الأحوص عن أبي عبد اللّه (ع) قال:**

إنّ اللّه تبارك و تعالى خلق في مبتدأ الخلق بحرين: أحدهما عذب فرات، و الآخر ملح أجاج، ثمّ خلق تربة آدم من البحر العذب الفرات ثمّ أجراه على البحر الأجاج فجعله حمأ-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٠

- مسنونا و هو خلق آدم.

ثمّ قبض قبضة من كتف آدم الأيمن فذرأها في صلب آدم فقال:

هؤلاء في الجنّة و لا أبالى، ثمّ قبض قبضة من كتف آدم الأيسر فذرأها في صلب آدم فقال: هؤلاء في النّار و لا أبالي، و لا اسأل عمّا أفعل، ولي في هؤلاء البداء بعد، و في هؤلاء و هؤلاء سيبتلون.

قال أبو عبد اللّه (ع): فاحتجّ يومئذ أصحاب الشمال و هم ذرّ، على خالقهم، فقالوا:

يا ربّنا لم (بم) أوجبت لنا النّار و أنت الحكم العدل، من قبل أن تحتجّ علينا و تبلونا بالرّسل، و تعلم طاعتنا لك و معصيتنا؟

فقال اللّه تبارك و تعالى:

فأنا أخبركم بالحجّة عليكم الآن في الطاعة و المعصية، و الإعذار بعد الإخبار.

قال أبو عبد اللّه (ع): فأوحى اللّه إلى مالك خازن النّار: أن مر النّار تشهق، ثمّ تخرج عنقا منها فخرجت لهم، ثمّ قال لهم: ادخلوها طائعين، فقالوا: لا ندخلها طائعين! ثمّ قال:

ادخلوها طائعين، أو لأعذبنّكم بها كارهين، قالوا: إنّا هربنا إليك منها، و حاجبناك فيها حيث أوجبتها علينا، و صيّرتنا من أصحاب الشمال، فكيف ندخلها طائعين؟ و لكن أبدأ أصحاب اليمين في دخولها، كي تكون قد عدلت فينا و فيهم.

قال أبو عبد اللّه (ع): فأمر أصحاب اليمين و هم ذرّ بين يديه، فقال ادخلوا هذه النّار طائعين، قال: فطفقوا يتبادرون في دخولها فولجوا فيها جميعا فصيّرها اللّه عليهم بردا و سلاما، ثمّ أخرجهم منها.

ثمّ أنّ اللّه تبارك و تعالى نادى في أصحاب اليمين و أصحاب الشمال:

«أ لست بربّكم»؟

فقال أصحاب اليمين: بلى يا ربّنا نحن بريّتك و خلقك مقرّين طائعين، و قال أصحاب الشمال: بلى يا ربّنا نحن بريّتك و خلقك كارهين! و ذلك قول اللّه (تعالى):

وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ [آل عمران: ۸۳].

قال: توحيدهم للّه.

راجع البحار ج ۵، ص ۲۵۵، الحديث ۵۲.

و ذكر الصدوق (ره) في كتابه علل الشرائع باسناده عن الصادق (ع) حديثا آخر في-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۵۱

- مضمونه و عنه بحار الأنوار ج ۵، ص ۲۴۵، الحديث ۳۵، فراجع.

و روى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره ج ۱، ص ۳۶، بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي، عن الباقر (ع)، عن آبائه عن أمير المؤمنين (ع) قال:

إنّ اللّه تبارك و تعالى أراد أن يخلق خلقا بيده ...... إلى أن قال (ع):

فاغترف ربّنا تبارك و تعالى غرفة بيمينه من الماء العذب الفرات- و كلتا يديه يمين- فصلصلها في كفّه حتّى جمدت، فقال لها:

منك أخلق النبيّين و المرسلين و عبادي الصّالحين و الأئمّة المهتدين و الدّعاة إلى الجنّة و أتباعهم إلى يوم القيامة، و لا ابالي و لا أسأل عمّا

أفعل و هم يسألون.

ثمّ اعترف غرفة أخرى من الماء المالح الأجاج فصلصلها في كفّه فجمدت، ثمّ قال لها:

منك أخلق الجبارين و الفراعنة و العتاة و إخوان الشياطين و الدّعاة إلى النّار إلى يوم القيامة و أشياعهم، و لا أبالي و لا اسأل عمّا أفعل و هم يسألون.

قال: و شرط في ذلك البداء فيهم و لم يشترط في أصحاب اليمين البداء. الحديث، فراجع الحديث فهو طويل.

و نقل عنه المجلسي في بحار الأنوار ج ١١، ص ١٠٣، الحديث ١٠، و ان شئت الاطلاع أكثر من هذا فراجع بحار الأنوار ج ٥، باب الطينة و الميثاق، ص ٢٢٥، و أيضا ج ٦٧، باب طينة المؤمن و خروجه من الكافر و بالعكس، ص ٧٧، و أصول الكافي ج ٢، باب طينة المؤمن و الكافر، ص ٢.

روى الشيخ الجليل المحدّث الكبير ثقة الإسلام الكليني في كتاب التومية عن أصول الكافي ج ١، ص ١٥٢، باب المشيئة و الإرادة، الحديث ٦، بإسناده عن أبي الحسن الرّضا (ع) في حديث قال:

قال اللّه تعالى: إنّني لا أسأل عمّا أفعل و هم يسألون.

قال صدر المتألهين (ره) في تفسيره ج ٢، ص ٢٣٢ بعد ذكر هذا الحديث:

قوله: لا أسأل عمّا أفعل، انّ الأفعال الصادرة منه بلا واسطة، و كذا الصفات الإلهيّة الثابتة له في مقام التوحيد قبل عالم الكثرة ليست فيه شائبة النقص و القبح حتّى يرد فيها السئوال، لأنّ عالم الإلهيّة كلّه نور و كمال.

أقول: ما قال به صدر المتألّهين حقّ لا ريب فيه لما ورد في أحاديث عن موالينا-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٢

و أودع الكلّ طينة آدم و جمع فيه الأضداد بحكم المجاورة، و أنشأه على الحركة المستقيمة، و ذلك في (دولة) دورة السّنبلة، و جعله ذا جهات ستّ: الفوق، و هو ما يلي رأسه، و التّحت يقابله و هو ما يلي رجليه، و اليمين و هو ما (يلي) جانبه الأقوى، و الشّمال يقابله (و هو ما يلي) جانبه الأضعف، و الأمام و هو ما يلي الوجه و يقابله القفاء، و صورّه و عدلّه و سوّاه، ثمّ نفخ فيه روحه المضاف إليه فحدث عند هذا النفخ فيه بسريانه في أجزائه أركان الأخلاط الّتي هي الصّفراء و السّوداء و الدّم و البلغم، فكانت الصّفراء عن الرّكن النّاري الّذي أنشأه اللّه منه في قوله تعالى:

مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ [سورة الرّحمن: ١٤].

و كان السّوداء عن التّراب، و هو قوله:

خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ [سورة آل عمران: ٥٩].

و كان الدّم من الهواء و هو قوله:

مَسْنُونٍ [سورة الحجر: ٢٦].

و كان البلغم من الماء الّذي يحجن به التّراب فصار طينا، ثمّ أحدث فيه القوّة الجاذبة الّتي بها يجذب الحيوان الأغذية، ثمّ القوّة الماسكة و بها يمسك ما يتغذى به الحيوان، ثمّ القوّة الهاضمة و بها يهضم الغذاء، ثمّ القوّة الدّافعة و بها يدفع الفضلات عن نفسه، من عرق و بخار، و رياح و براز، و أمثال ذلك.

و أمّا سريان الأبخرة و تقسيم الدّم في العروق من الكبد و ما يخلصه كلّ جزء من

- المعصومين (ع) منها عن مولانا الصادق عليه آلاف التحية و السّلام قال:

«هو نور لا ظلمة فيه، و حياة لا موت فيه، و علم لا جهل فيه، و حقّ لا باطل فيه».

توحيد الصدوق، باب صفات الذّات، الحديث ١٤، ص ١٤٦.

و أيضا عن مولانا الباقر (ع) قال:

«إنّ اللّه تبارك و تعالى، كان و لا شيء غيره، نورا لا ظلام فيه، و صادقا لا كذب فيه، و عالما لا جهل فيه، و حيّا لا موت فيه، و كذلك هو اليوم، و كذلك لا يزال أبدا». المصدر السابق، الحديث ٥، ص ١٤٠.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۳

الحيوان فبالقوّة الجاذبة لا الدافعة، فحظ القوّة الدّافعة ما تخرجه كما قلنا من الفضلات لا غير.

ثمّ أحدث فيه القوّة الغاذية و المنمية، و الحاسيّة، (الحسيّة) و الخياليّة، و الوهميّة، و الحافظة، و الذّاكرة.

و هذا كلّه في الإنسان بما هو حيوان لا بما هو إنسان فقط، غير أنّ هذه القوى الأربعة: قوة الخيال، و الوهم، و الحفظ، و الذّكر، هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان.

(ثمّ) خصّ آدم الّذي هو الإنسان بالقوّة المصوّرة و المفكّرة، و العاقلة، فتميّز عن الحيوان، و جعل هذه القوى كلّها في هذا الجسم، آلات للنّفس النّاطقة، لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة و المعنويّة، «ثمّ أنشأه خلقا آخر»، و هو الإنسانيّة، فجعله درّاكا بهذه القوى حيّا، عالما، قادرا، مريدا، متكلّما، سميعا، بصيرا، على حدّ معلوم معتاد في اكتسابه: فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ [سورة المؤمنون: ١٤].

(تخلق الإنسان بأسماء الحقّ تعالى)

ثمّ إنّه سبحانه ما سمّى نفسه باسم من الأسماء إلاّ و جعل للإنسان من التخلّق بذلك الإسم حظّا يظهر به في العالم على قدر ما يليق به، و لذلك تأول بعضهم قوله عليه السّلام:

«خلق اللّه تعالى آدم على صورته» (٢١).

---

(٢١) قوله: قوله (ع): خلق اللّه تعالى آدم صورته.

رواه الشيخ الجليل الصدوق (ره) في كتابه التوحيد في باب تفسير قول اللّه عزّ و جلّ:

كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ، الحديث ١٠، بإسناده عن عليّ أمير المؤمنين (ع) قال: سمع النبيّ (ص) رجلا يقول لرجل: قبّح اللّه وجهك و وجه من يشبهك، فقال (ص): مه، لا تقل هذا، فإنّ اللّه خلق آدم على صورته.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۴

- قال الصدوق رحمه اللّه: تركت المشبّهة من هذا الحديث أوّله و قالوا: إنّ اللّه خلق على صورته، فضلّوا في معناه و أضلّوا.

أقول: لا يخفي انّه اعتمد العرفاء في كتبهم في بيان حقيقة الإنسان و مكانته، بهذا الحديث فلذا أصبح هذا الحديث من المنابع و الأصول الأصليّة للعرفان النظري و من الموازين في إثبات صحّة بعض الكشفيّات حول حقيقة الإنسان، و حيث نحن نقوم عادة بتطبيق المعارف العرفانيّة و عرضها على الأحاديث الّتي وردت عن المعصومين عليهم السّلام اهتممنا ببيان بعض المطالب حول هذا الحديث، و نقل بعض الرّوايات في مضمونه في الجزء الأوّل من تفسير المحيط الأعظم ص ٢٤٤ في تعليقنا عليه الرّقم ٣١، فراجع و نذكر هنا أيضا إضافة إلى ذلك بعض المطالب الأخرى و هو ما يلي:

هذا الحديث من غرر الأحاديث، يتضمن معارف جمّة في حقيقة الإنسان و سرّها و منزلتها في العالم بل الإنسان بنفسه و بوحدته عالم، و في معناه وردت روايات أخرى سنذكر بعضها إن شاء اللّه.

و يفهم من الحديث: أنّ الإنسان مظهر تامّ له تعالى و يوجد فيه الأسماء كلّها الجماليّة و الجلاليّة، و أنّ حقيقته هي الإسم الأعظم الجامع، كما قال تعالى:

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمٰاءَ كُلَّهٰا [سورة البقرة: ٣١].

فانّ الإنسان مثال تامّ له سبحانه و تعالى ذاتا و فعلا و صفتا، فإنّ للحقّ في كلّ خلق ظهورا خاصّا و ظهوره، في الإنسان ظهور تامّ و جامع للظهورات فلذا أصبح الإنسان خليفة له تعالى، و قال:

إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً [سورة البقرة: ٣٠].

و انّه تعالى خلقه بيديه و نفخ فيه من روحه و جعله قبلة للملائكة حيث أمرهم للسجود إليه، **فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ. و قال تعالى:**

فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ [سورة ص: ٧٢].

و قال: **يٰا إِبْلِيسُ مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [سورة ص: ٧٥].**

و نذكر بعض الأحاديث المطابقة في المعنى للحديث المذكور:

و هي ما يلي:

ألف- روي عن الصّادق (ع) و عن أمير المؤمنين (ع):-

- الصّورة الإنسانيّة هي أكبر حج اللّه على خلقه، و هي الكتاب الّذي كتبه بيده و هي الهيكل الّذي بناه بحكمته، و هي مجموع صور العالمين، و هي المختصر من اللوح المحفوظ، و هي الشاهدة على كلّ غائب، و هي الحجّة على كلّ جاحد، و هي الطريق المستقيم إلى كلّ خير، و هي الجسر (الصّراط) الممدود بين الجنّة و النّار. نقله السبزواري (ره) في كتابه شرح الأسماء الحسنى ص ١٢، عن الصّافي و عن ابن جمهور.

ب- روي عن النبيّ (ص) قال:

إنّ اللّه خلق آدم فتجلّى فيه. ذكره صدر المتألهين في تفسيره سورة يس ذيل الآية ٦٧ ص ٢٧٤.

ج- روى عن النّبي (ص) (بحار الأنوار ج ٧٤، ص ٢٧٠) و عن أمير المؤمنين (ع) في وصيّته لكميل بن زياد (بحار الأنوار ج ٧٧، ص ٤١٤) قالا:

المؤمن مرآة المؤمن.

و معلوم انّ «المؤمن» من الأسماء الحسنى، كما في قوله تعالى:

هُوَ اللهُ الَّذِي لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاٰمُ الْمُؤْمِنُ [سورة الحشر: ٢٣].

و لا فرق في أن يكون «المؤمن» الثاني هو اللّه سبحانه و الأوّل هو الإنسان الكامل، أو بالعكس، فلا تغفل عن هذا السرّ، و يمكن أن يكون المراد من كليهما هو اللّه سبحانه فيكون هو المرآة لنفسه سبحانه فافهم.

قال محيي الدّين ابن عربي في نصوص الحكم (شرح القيصري ص ١٠٧): «فهو مرآتك في رؤيتك نفسك، و أنت مرآته في رؤيته أسماءه و ظهور أحكامها» قال القيصري:

«لأنّ العبد يرى في ذات الحقّ عينه، و الحقّ يرى في عين العبد أسمائه».

قال ابن فناري في مصباح الأنس ص ١٩٤: و هي مرتبة قرب الفرائض المعتبر فيها أنّ العبد المتجلّى له آلة لإدراك الحقّ المتجلّى، فهذا ما أشار إليه الشيخ (رض) بقوله: أنت مرآته و هو مرآة أحوالك. (مراده من الشيخ: القونوي في تفسيره).

د- عن أمير المؤمنين (ع) قال:

إنّ اللّه عزّ و جلّ ليس بينه و بين خلقه حجاب. توحيد الصدوق ص ١٨٤، ح ٢١.

و عن الكاظم (ع) قال:

ليس بينه و بين خلقه حجاب غير خلقه. توحيد الصدوق ص ١٧٩، ح ١٢.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥۶

- أقول: كون الإنسان مرآة و آية هو الحجاب بينه و بين اللّه سبحانه كما أن هويّة الإنسان هي عين مرآتيّته.

هناك أقوال و آثار من العلماء و الحكماء نأتي ببعضها و لا بأس به:

نقل السيّد بن طاوس في كتابه سعد السّعود ص ٣٣ عن صحف إدريس (ع)، قال:

فقال في الصّحف ما هذا لفظه:

فخلق آدم على صورة (صورته كما في البحار) الّتي في اللوح المحفوظ.

و قال بعده: يقول علي بن موسى بن طاوس: فاسقط بعض المسلمين بعض هذا الكلام و قال: إنّ اللّه خلق آدم على صورته، فاعتقد التجسيم فاحتاج المسلمون إلى تأويلات الحديث، و لو نقله بتمامه استغنى عن التأويل بتصديق، و شهد العقل المستقيم.

راجع البحار أيضا ج ١١، ص ١٢٠، ح ٥٥ و ج ٥٧، ص ١٠١، ح ٨۶

و ذكر السيّد المرتضى علم الهدى (ره) في كتابه تنزيه الأنبياء ص ١٢٧ أقوالا في معنى الحديث فقال: و يمكن وجه خامس، و هو أن يكون المعنى: أنّ اللّه أنشأه على هذه الصورة الّتي شوهد عليها على سبيل الابتداء، و انّه لم ينتقل إليها و يتدرّج كما جرت العادة في البشر. (انتهى

كلام السيّد)، فراجع.

و قال المجلسي رحمه اللّه بعد ذكر لفظه في بحار الأنوار ج ٤، ص ١٤:

نقول: و فيه وجه سادس ذكره جماعة من شرّاح الحديث، و هو أنّ المراد بالصّورة:

الصفة من كونه سميعا بصيرا متكلّما، و جعله قابلا للاتّصاف بصفاته الكماليّة و الجلاليّة على وجه لا يفضي إلى التشبيه، و الأولى الاقتصار على ما ورد في النصوص عن الصادقين (ع).

و ذكر ابن أبي جمهور أيضا أقوالا في معنى الحديث في كتابه عوالي اللئالي ج ١، ص ٥٣، فراجع.

قال الغزالي في كتابه احياء علوم الدّين ج ٤، ص ٣٠٦ و عنه الفيض الكاشاني في المحجّة البيضاء ج ٨ ص ٢٥، في باب «حقيقة المحبّة و أسبابها»: و أمّا السبب الخامس للحبّ فهو المناسبة و المشاكلة، لأنّ شبه الشيء منجذب إليه، و الشكل إلى الشكل أميل.

إلى أن قال:

و هذا السبب أيضا يقتضي حبّ اللّه تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصّور و الأشكال بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب، و بعضها لا يجوز أن يسطر -

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٧

- بل يترك تحت غطاء الغبرة حتّى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السّلوك.

فالّذي يذكر هو قرب العبد من ربّه عزّ و جلّ في الصّفات الّتي أمر فيها بالاقتداء و التخلّق بأخلاق الرّبوبيّة، حتّى قيل: «تخلّقوا بأخلاق اللّه»، و ذلك في اكتساب محامد الصفات الّتي هي من صفات الإلهيّة من العلم و البرّ و الإحسان و اللطف، و افاضة الخير و الرحمة على الخلق، و النصيحة لهم و إرشادهم إلى الحقّ و منعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة، فكلّ ذلك يقرّب إلى اللّه سبحانه و تعالى، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصّفات.

و أمّا ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة الّتي اختصّ بها الآدمي فهي الّتي يومئ إليها قوله تعالى:

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [سورة الإسراء: ٨٥].

إذ بين أنه أمر ربّاني خارج عن حدّ عقول الخلق، و أوضح من ذلك قوله تعالى:

فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي [سورة الحجر: ٢٩].

و لذلك أسجد له ملائكته، و يشير إليه قوله تعالى:

إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ [سورة ص: ٢٦].

إذا لم يستحق آدم خلافة اللّه تعالى إلاّ بتلك المناسبة و إليه يرمز قوله (ص):

«إنّ اللّه خلق آدم على صورته».

حتّى ظنّ القاصرون أن لا صورة إلاّ الصّورة الظاهرة المدركة بالحواسّ فشبّهوا و جسموا و صوّروا، تعالى اللّه ربّ العالمين عمّا يقول الجاهلون علوّا كبيرا.

و نختم الكلام بما قال صدر المتألهين في كتابه الأسفار الأربعة ج ١، ص ٢٦٥:

إنّ الباري تعالى خلاّق الموجودات المبدعة و الكائنة، و خلق الإنسانيّة مثالا لذاته و صفاته و أفعاله، فإنّه تعالى منزّه عن المثل لا عن المثال، فخلق النفس مثالا له ذاتا و صفاتا و افعالا ليكون معرفتها مرقاة لمعرفته، و صيّرها ذات قدرة و علم، و إرادة و حياة، و سمع و بصر، و جعلها ذات مملكة شبيهة بمملكة بارئها، يخلق ما يشاء و يختار لما يريد.

و قال في كتابه مفاتيح الغيب ص ٣٢: و اعلم أن الباري وحدانيّ الذّات في أوّل الأوّلين، و خليفة اللّه فرداني الذّات في آخر الآخرين، «كما بدأكم تعودون» فاللّه سبحانه ربّ-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٨

على هذا المعنى، و أنزله خليفة عنه في أرضه، إذ كانت الأرض من عالم التغيير و الاستحالات، بخلاف العالم الأعلى، فيحدث فيهم من الأحكام بحسب ما يحدث في العالم الأرضيّ من التغيير، فيظهر لذلك حكم جميع الأسماء الإلهيّة، فلذلك كان خليفة في الأرض دون السّماء و الجنّة. ثمّ كان من أمره ما كان: من علم الأسماء، و سجود الملائكة، و إباء إبليس، كما هو معلوم لأهله، و سنذكره إن شاء اللّه،

(بيان جسوم الإنسانيّة و أنواعها و هي أربعة)

و ذلك لأنّ هذا الباب مخصوص بابتداء الجسوم الإنسانيّة، و هي أربعة أنواع:

جسم آدم، و جسم حواء، و جسم عيسى، و أجسام بني آدم، و كلّ جسم من هذه الأربعة نشاه (نشوه) يخالف نشوء الآخر في السّببيّة مع الاجتماع في الصّورة الجسمانيّة و الرّوحانيّة، و إنّما سقنا هذا و نبّهنا عليه لئلاّ يتوهّم الضّعيف العقل أنّ القدرة الإلهيّة، أو أنّ الحقائق لا تعطي أن تكون هذه النشاة إلاّ عن سبب واحد يعطي بذاته هذا النّشا، فردّ اللّه هذه الشّبهة بان أظهر هذا النّشا الإنساني في آدم بطريق لم يظهر به جسم حوّاء، و أظهر جسم حوّاء بطريق لم يظهر جسم ولد آدم، و أظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر جسم عيسى عليه السّلام، و ينطلق على كلّ واحد من هؤلاء اسم الإنسان بالحدّ و الحقيقة، ذلك ليعلم أن اللّه بكل شيء عليم، و أنّه على كلّ شيء قدير.

ثمّ إن اللّه سبحانه قد جمع هذه الأربعة الأنواع من الخلق في آية من القرآن في سورة

-الأرض و السّماء، و خليفة اللّه مرآة تظهر فيها الأسماء، و يرى بها صور جميع الأشياء، و ينظر خليفة اللّه مرآة تظهر فيها الأسماء، و يرى بها صور جميع الأشياء، و ينظر بنور عينه إلى نور عين المسمّى، من عرف نفسه فقد عرف ربّه، انتهى قوله رحمه اللّه.

قال الشاعر باللغة الفارسيّة:

در أزل پرتو حسنت ز تجلّى دم زد | عشق پيدا شد و آتش به همه عالم زد

جلوه‌اى كرد كه بيند به جهان صورت خويش | خيمة در آب و گل مزرعة آدم زد

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۹

الحجرات فقال:

يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم (يريد آدم) من ذكر (يريد حوّاء) و أنثى (يريد عيسى، و من المجموع:) من ذكر و أنثى (يريد بني آدم بطريق النّكاح و التّوالد، فهذه الآية من:

جوامع الكلم (۲۲) و فصل الخطاب (۲۳) الّذي أوتي محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

---

(۲۲) قوله: من جوامع الكلم الّذي أوتي محمّد (ص).

في عوالي اللئالي: و قال (ص):

أوتيت جوامع الكلم و اختصر لي الكلام اختصارا. عوالي اللئالي ج ٤، ص ۱۲، الحديث ۱۹٤ و أخرج مثله في كنز العمّال ج ۱۱، ص ٤٤٠، الحديث ۳۲۰٦۹.

و في مسند أحمد بن حنبل ج ۲، ص ۱۱۲ عن النّبي (ص) قال: أوتيت فواتح الكلم و جوامعه و خواتمه.

و في صحيح مسلم ج ۱، ص ۳۷۰ كتاب المساجد الحديث ۵:

أنّ رسول اللّه (ص) قال:

فضّلت على الأنبياء بستّ: أعطيت جوامع الكلم، و نصرت بالرّعب، و أحلّت لي الغنائم، و جعلت لي الأرض طهورا و مسجدا، و أرسلت إلى الخلق كافّة، و ختم بي النبيّون.

و فيه أيضا الحديث ۷ و ۸:

و أوتيت جوامع الكلم.

و فيه أيضا الحديث ٦: قال رسول اللّه (ص):

بعثت بجوامع الكلم.

و روى الصدوق (رض) في الخصال ج ۱، باب الخمسة ص ۲۹۲ الحديث ۵٦، عن محمّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، عن محمّد بن الحسن الصفّار، و سعد بن عبد اللّه جميعا، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، و أحمد بن أبي عبد اللّه البرقي، عن محمّد بن خالد البرقي، عن محمّد بن سنان، عن زياد بن المنذر أبي الجارود، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال:

قال رسول اللّه (ص):

أعطيت خمسا لم يعطها أحد قبلي: جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا، و نصرت بالرّعب، و أحلّ لي المغنم، و أعطيت جوامع الكلم، و أعطيت الشفاعة.

و روى شيخ الطّائفة الطّوسي أماليه الجزء الرابع ص ۱۰۲، عن محمّد بن محمّد المفيد،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌٢، ص ٦٠

و لمّا ظهر جسم آدم كما ذكرناه، و لم تكن فيه شهوة نكاح، و كان قد سبق في علم الحقّ إيجاد التّوالد و التّناسل، و النّكاح في هذه الدّار إنّما هو لبقاء النّوع، فاستخرج من ضلع آدم من القصيرى حواء فقصرت بذلك عن درجة الرّجل، كما قال تعالى:

وَ لِلرِّجٰالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ [البقرة: ٢٢٨].

فما تلحق بهم أبدا، و كانت من الضّلع للانحناء الّذي في الضّلوع، لتحنو بذلك على ولدها و زوجها، فحنوّ الرّجل على المرأة حنوّه نفسه، لأنّها جزء منه و حنوّ المرأة على الرّجل لكونها خلقت من الضلع، و الضلع فيه انحناء و انعطاف.

و عمر اللّه الموضع من آدم الّذي خرجت منه حواء بالشّهوة إليها، إذ لا يبقى في

- عن أبو الحسن أحمد بن محمّد بن الحسن، عن أبيه، عن سعيد بن عبد اللّه بن موسى، عن محمّد بن عبد الرحمن العرزميّ، عن المعلّى بن هلال، عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن عبد اللّه ابن عبّاس، قال: سمعت رسول اللّه (ص) يقول:

أعطاني اللّه تعالى خمسا، و أعطى عليّا خمسا: أعطاني جوامع الكلم، و أعطى عليّا جوامع العلم، و جعلني نبيّا، و جعله وصيّا، و أعطاني الكوثر، و أعطاه السلسبيل، و أعطاني الوحي، و أعطاه الإلهام، و أسرى بي إليه، و فتح له أبواب السّماء و الحجب حتّى نظر إليّ و نظرت إليه.

الحديث، ذكره أيضا المجلسي (ره) في بحار الأنوار ج ١٨، ص ٣٧٠، الحديث ٧٧.

(٢٣) قوله: و فصل الخطاب الّذي أوتي محمّد (ص).

قال أمير المؤمنين عليّ (ع): و أجزه رسول اللّه (ص) من ابتعاثك له مقبول الشّهادة، مرضيّ المقالة، ذا منطق عدل، و خطبة فصل. نهج البلاغة الخطبة ٧٢ صبحي صالح.

و أيضا قال عليه السّلام في خطبة أخرى: سيرته القصد، و سنّته الرّشد، و كلامه الفصل، و حكمه العدل. نهج البلاغة الخطبة ٩٤ صبحي صالح.

و في الخصال للشيخ الجليل الصدوق (رض) ج ٢، ص ٤١٤ الحديث ٤، عن الصادق (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع):

و اللّه لقد أعطاني اللّه تبارك و تعالى تسعة أشياء لم يعطها أحدا قبلي خلا النبيّ (ص): لقد فتحت لي السّبل، و علّمت الأنساب، و أجرى لي السّحاب، و علّمت المنايا و البلايا و فصل الخطاب، الحديث. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌٢، ص ٦١

الوجود خلاء، فلمّا عمره بالهواء حنّ إليها حنينه إلى نفسه لأنّها جزء منه، و حنّت إليه لكونه موطنها الّذي نشأت منه، فحبّ حوّاء حبّ الموطن، و حبّ آدم حبّ نفسه، و لذلك يظهر حبّ الرّجل للمرأة إذ كانت عينه، و أعطيت المرأة القوّة المعبّر عنها بالحياء في محبة الرّجال فقويت على الإخفاء، لأنّ الموطن لا يتّحد بها اتّحاد آدم بها.

فصوّر في ذلك الضّلع جميع ما صوّره و خلقه في جسم آدم، فكان نشؤ جسم آدم في صورته كنشؤ الفاخوريّ فيما ينشئه من الطين و الطبخ، و كان نشؤ حواء نشؤ النّجار فيما ينحته من الصّور في الخشب، فلمّا نحتها في الضلع، و أقام صورتها و سوّاها و عدّلها، نفخ فيها من روحه فقامت حيّة ناطقة أنثى، ليجعلها محلاّ للزراعة و الحرث لوجود الإنبات الّذي هو التناسل، فسكن إليها و سكنت إليه، و كانت لباسا له و كان لباسا لها، قال تعالى:

هُنَّ لِبٰاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبٰاسٌ لَهُنَّ [سورة البقرة: ١٨٧].

و سرت الشّهوة منه في جميع أجزائه فطلبها.

فلمّا تغشّاها و ألقى الماء في الرّحم، و دار بتلك النّطفة من الماء دم الحيض الّذي كتبه اللّه على النّساء، تكوّن في ذلك الجسم جسم ثالث على غير ما تكوّن منه جسم آدم و جسم حواء، فهذا هو الجسم الثالث، فتولاّه اللّه بالنشوء في الرّحم حالا بعد حال بالانتقال من ماء إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظم، ثمّ كسا العظم لحما، فلمّا تمّ نشأته الحيوانيّة، أنشاه خلقا آخر، فنفخ فيه الرّوح الإنساني.

فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ [سورة المؤمنون: ١٤].

و لولا طول الأمر لبيّنا تكوينه في الرّحم حالا بعد حال، و من يتولّ ذلك من الملائكة الموكّلين بإنشاء الصّور في الأرحام إلى حين الخروج، و لكن الغرض الإعلام بانّ الأجسام الإنسانيّة، و إن كانت واحدة في الحدّ و الحقيقة و الصّورة الحسيّة و المعنويّة، فإنّ أسباب تأليفها مختلفة، لئلاّ يتخيّل أن ذلك لذات السّبب تعالى اللّه، بل ذلك راجع إلى فاعل مختار يفعل ما يشاء كيف يشاء من غير تحجير و لا قصور على أمر دون أمر.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٦٢

لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة آل عمران: ١٨].

و لمّا قال أهل الطّبيعة: إنّ ماء المرأة لا يتكوّن منه شيء، و إن الجنين الكائن في الرّحم إنّما هو من الرّجل، لذلك جعلنا تكوين جسم عيسى تكوينا آخر و إن كان تدبيره في الرّحم تدبير أجسام البنين، فان كان من ماء المرأة:

«إذ تمثّل لها الرّوح بشرا سويا» «٢٤».

أو كان عن نفخ بغير ماء، فعلى كلّ وجه هو جسم رابع مغاير في النشء غيره من أجسام النّوع، و لذلك قال تعالى: إنّ مثل عيسى ((أي) إنّ صفة نشؤ عيسى) عند اللّه كمثل آدم خلقه من تراب (الضّمير يعود على آدم، و وقع الشّبه في خلقه من غير أب، أي صفة نشاه (نشئه) صفة نشا آدم إلاّ أن آدم خلقه من تراب ثمّ قال له: كن.

ثمّ إنّ عيسى على ما قيل لم يلبث في بطن مريم لبث البنين المعتاد لأنّه أسرع إليه التكوين لمّا أراد اللّه أن يجعله آية و يرد به على الطّبيعيين حيث حكموا على الطّبيعة بما أعطتهم من العادة، لا بما تقتضيه ممّا أودع اللّه فيها من الأسرار و التكوينات العجيبة، و لقد أنصف بعض حذّاق هذا الشّأن الطّبيعة فقال:

لا نعلم منها إلاّ ما أعطتنا خاصّة، و فيها ما لا نعلم.

(العقل إنسان في السّماء كما إنّ الإنسان عقل في الأرض)

فهذا قد ذكرنا ابتداء الجسوم الإنسانيّة، و أنّها أربعة أجسام، مختلفة النشء (النشا) كما قررنا، و أنّه آخر المولّدات، و هو (فهو) نظير العقل الأوّل، و به ارتبط، لأنّ الوجود دائرة، فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأوّل (الّذي ورد في الخبر أنه أوّل ما خلق اللّه العقل) (٢٥).

---

(٢٤) قوله: إذ تمثّل لها ... إلخ.

اقتباس من الآية القرآنيّة في سورة مريم الآية ١٧:

فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا.

(٢٥) قوله: الّذي ورد في الخبر أنّه: «أوّل ما خلق اللّه العقل».

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٦٣

فهو أوّل الأجناس، و انتهى الخلق إلى الجنس الإنساني فكملت الدائرة و اتّصل الإنسان بالعقل كما يتّصل آخر الدائرة بأولها، فكانت دائرة، و ما بين طرفي الدّائرة جميع ما خلق اللّه من أجناس العالم بين العقل الأوّل الّذي هو القلم أيضا، و بين الإنسان الّذي هو الموجود الآخر، و لمّا كانت الخطوط الخارجة من النقطة الّتي في وسط الدّائرة إلى المحيط الّذي وجد عنها، تخرج على السّواء لكلّ جزء من المحيط، كذلك نسبة الحقّ تعالى إلى جميع الموجودات نسبة واحدة، فلا يقع هناك تغيير البتّة، و كانت الأشياء كلّها ناظرة إليه و قابلة منه ما يهبها نظر أجزاء المحيط إلى النقطة.

و أقام سبحانه هذه الصّورة الإنسانيّة بالحركة المستقيمة صورة العمد الّذي للخيمة، فجعله لقبة هذه السّماوات، فهو سبحانه يمسكها أن تزول بسببه فعبّرنا عنه بالعمد، فإذا فنيت هذه الصّورة و لم يبق منها على وجه الأرض متنفس.

وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ [سورة الحاقّة: ١٦].

لأنّ العمد زال و هو الإنسان.

و لمّا انتقلت العمارة إلى الدّار الآخرة بانتقال الإنسان إليها و خربت الدّنيا بانتقاله عنها، علمنا قطعا أنّ الإنسان هو العين المقصود للّه من العالم و أنّه الخليفة حقّا، و أنّه محل ظهور الأسماء الإلهيّة، و هو الجامع لحقايق العالم كلّه من ملك، و فلك، و روح و جسم، و طبيعة، و جماد، و حيوان، إلى ما خصّ به من علم الأسماء الإلهيّة مع صغر

- روى البرقي (ره) في المحاسن ج ١، ص ١٩٦ الحديث ٢٢ من باب العقل، بإسناده عن سماعة ابن مهران عن الصادق (ع) قال:

إنّ اللّه خلق العقل و هو أوّل خلق خلقه من الرّوحانيين عن يمين العرش من نوره، الحديث.

و اخرج أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء ج ٧، ص ٣١٨، بإسناده عن عائشة عن (ص)، قال:

أوّل ما خلق اللّه سبحانه و تعالى العقل، فقال أقبل فأقبل، ثمّ قال أدبر فأدبر، ثمّ قال: ما خلقت شيئا أحسن منك، بك آخذ، و بك أعطي، الحديث.

و راجع أيضا تعليقنا الرقم ٧٥ في الجزء الأوّل ص ٣١٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٦٤

حجمه و جرمه، و إنّما قال اللّه فيه بأنّ:

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ [سورة غافر: ٥٧].

لكون الإنسان متولّدا عن السّماء و الأرض فيما له كالأبوين رفع اللّه مقدارهما:

وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [غافر: ٥٧].

فلم يرد في الجرميّة فان ذلك معلوم حسّا.

(ابتلاء الإنسان بقوّة العقل و التفكّر)

غير أنّ اللّه تعالى ابتلاه ببلاء ما ابتلى به أحدا من خلقه إمّا لأن يسعده أو يشقيه على حسب ما يوفقه إلى استعماله، فكان البلاء الّذي ابتلاه به أن خلق فيه قوّة تسمّى الفكر و جعل هذه القوّة خادمة لقوّة أخرى تسمّى العقل، و جبر العقل مع سيادته على الفكر أن يأخذ منه ما يعطيه و لم يجعل للفكر مجالا إلاّ في القوّة الخياليّة، محلا جامعا لما تعطيها القوّة الحسّاسة و جعل له قوّة يقال لها: المصورّة، فلا يحصل في القوّة الخياليّة إلاّ ما أعطاه الحسّ، أو أعطته القوّة المصورّة و مادّة المصورّة، من المحسوسات، فتركب صورا لم يوجد لها عين، لكن أجزاءها كلّها موجودة حسّا، و ذلك لأنّ العقل خلق ساذجا ليس عنده من العلوم النظريّة شيء، و قيل للفكر: ميّز بين الحقّ و الباطل الّذي في هذه القوّة الخياليّة فينظر بحسب ما يقع له فقد يحصل في شبهة، و قد يحصل في دليل عن غير علم منه بذلك، و لكن في زعمه أنّه عالم بصور الشّبه من الأدلة و أنّه قد حصل على علم و لم ينظر إلى قصور الموادّ الّتي استند إليها في اقتناء العلوم فتقبلها العقل منه و يحكم بها فيكون جهله أكثر من علمه بما لا يتقارب.

(تكليف العقل بمعرفة الحقّ سبحانه)

ثمّ إنّ اللّه كلّف هذا العقل معرفة سبحانه ليرجع إليها فيها لا إلى غيره، ففهم العقل نقيض ما أراد به الحقّ بقوله تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٦٥

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا [سورة الأعراف: ١٨٤].

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [سورة يونس: ٢٤].

و استند إلى الفكر و جعله إماما يقتدى به، و غفل عن الحقّ في مراده بالتفكّر إنّه خاطبه أن يتفكّر فيرى أن علمه باللّه لا سبيل إليه إلاّ بتعريف اللّه فينكشف له عن الأمر على ما هو عليه، فلم يفهم كلّ عقل هذا الفهم إلاّ عقول خاصّة اللّه من أنبيائه و أوليائه.

يا ليت شعري هل بأفكارهم قالوا: بلى، حين أشهدهم على أنفسهم في قبضة الذرّية من ظهر آدم؟ لا و اللّه، بل عناية إشهاده إيّاهم ذلك عند أخذه إيّاهم عنهم من ظهورهم، و لمّا رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكرة في معرفة اللّه لم يجتمعوا قطّ على حكم واحد في معرفة اللّه و ذهب (ذهبت) كلّ طائفة إلى مذهب، و كثرت المقالة (القالة) في الجناب الإلهي الأحمى، و اجترءوا غاية الجراة على اللّه، و هذا كلّه من الابتلاء الّذي ذكرناه من خلقة الفكرة في الإنسان.

و أهل اللّه افتقروا إليه فيما كلّفهم من الإيمان به في معرفته، و علموا أنّ المراد منهم رجوعهم إليه في ذلك، و في كلّ حال، فمنهم من قال: «سبحان من لم يجعل سبيلا إلى معرفته إلاّ العجز عن معرفته».

و منهم من قال: «العجز عن درك الإدراك إدراك» (٢٦).

---

(٢٦) قوله: و منهم من قال: العجز عن درك الإدراك إدراك.

قال ابن عربي في الفصّ الشيثي من فصوص الحكم (شرح القيصري ص ١٠٨):

فمنّا من جهل في علمه فقال: العجز عن درك الإدراك إدراك.

أقول: قال الإمام الخميني رضوان اللّه تعالى عليه في ذيل هذه الجملة في تعليقاته على شرح الفصوص (ص ٥٨):

ليس العجز عن إدراك الإدراك إدراكا بل إدراك العجز الكذائي إدراك كما يقال: غاية عرفان أهل المعرفة العجز عنها، و لعلّه سمع شيئا و لم يحفظه فقال ما قال: انتهى.

و قال الشيخ الأكبر: «و منّا من علم و لم يقل بمثل هذا».-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٦٦

و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«لا أحصي ثناء عليك» (٢٧).

- أقول: بل قال: «لو كشف الغطاء لمزددت يقينا».

و قال الشيخ الأكبر: و ليس هذا العلم إلاّ لخاتم الرسل و خاتم الأولياء.

أقول: كما قال رسول اللّه (ص) لعليّ عليه السّلام: يا علي! «إنّك تسمع ما أسمع و ترى ما أرى، إلاّ انّك لست بنبيّ». نهج البلاغة الخطبة القاصعة ١٩٢ صبحي صالح.

(٢٧) قوله (ص): لا أحصي ثناء عليك.

رواه ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ٤، ص ١١٣، الحديث ١٧٦ و قال:

و روى في الحديث أنه لما نزل قوله تعالى: **وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ سجد النّبي (ص) فقال في سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، و معافاتك من عقوبتك، و أعوذ بك منك، لا احصى ثناءٍ عليك أنت كما أثنيت على نفسك.**

و جاء أيضا في كتاب «مصباح الشريعة» المنسوب إلى الإمام الصادق (ع)، في آخر الباب الخامس (في الذكر) و عنه بحار الأنوار ج ٩٣، ص ١٥٨، الحديث ٣٣.

و رواه أيضا السيّد ابن طاوس في كتابه اقبال الأعمال ص ٤٨ باسناده في دعاء عن الصادق (ع) قال:

اللّهمّ إنّي أعوذ بعفوك من عقوبتك و أعوذ برضاك من سخطك، و أعوذ بطاعتك من معصيتك، و أعوذ بك منك جلّ ثناؤ وجهك لا أحصى الثناء عليك و لو حرصت، و أنت كما أثنيت على نفسك سبحانك و بحمدك.

و في دعاء آخر ذكره السيّد أيضا في فلاح السائل ص ١٤٢:

و أعوذ بك منك لا إله إلاّ أنت لا ابلغ مدحتك و لا الثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. عنه البحار ج ٨٧ ص ٦٨.

و أخرجه ابن ماجة في سننه ج ١، ص ٣٧٢، باب ١١٧ ما جاء في القنوت في الوتر، الحديث ١١٧٩، بإسناده عن عليّ (ع):

أنّ النبيّ (ص) كان يقول في آخر الوتر:

اللّهم إنّي أعوذ برضاك من سخطك و أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، و أعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٦٧

و قال تعالى:

وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [سورة طه: ١١٠].

فرجعوا إلى اللّه في المعرفة به و تركوا الفكر في مرتبته و وفوه حقه لم ينقلوه إلى ما لا ينبغي له التفكّر فيه، و قد ورد النّهي عن التفكّر في ذات اللّه، و اللّه يقول:

وَ يُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ [سورة آل عمران: ٢٨ و ٣٠].

فوهبهم اللّه من معرفته ما وهبهم، و أشهدهم من مخلوقاته و مظاهره ما أشهدهم فعلموا أنّه ما يستحيل عقلا من طريق الفكر، لا يستحيل نسبة إلهيّة، فالّذي ينبغي للعاقل أن يدين اللّه به في نفسه أن يعلم:

إِنَّ اللّهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

من ممكن و محال و لا كلّ محال، نافذ الاقتدار، واسع العطاء، ليس لإيجاده تكرار، بل أمثال تحدث في جوهر أوجده (٢٨)، و شاء بقاءه، و لو شاء أفناه مع الأنفاس.

- و أخرجه أيضا في ج ٢، باب ٣ ما تعوّذ منه رسول اللّه (ص)، ص ١٢٦٢، الحديث ٣٨٤١.

و أخرجه أيضا مثله مسلم في صحيحه ج ١، كتاب الصّلاة، ص ٣٥٢، الحديث ٢٢٢.

و أخرجه أيضا ابن حنبل في مسنده ج ١، ص ٩٦ و ص ١١٨ و ص ١٥٠ و ج ٦، ص ٥٨.

و في جامع الترمذي ج ٥، كتاب الدعوات، باب ٧٦، الحديث ٣٤٩٣، ص ٥٢٤.

راجع أيضا في هذا الدعاء تعليقنا الرقم ١٤٤.

(٢٨) قوله: «ليس لإيجاده تكرار، بل أمثال تحدث في جوهر.

يعني انّه «لا تكرار في التجلّي»، بل الواقع في الموجودات «هو تجدّد الأمثال» و تبدلّها، و من هذا المبني، نشأ القول «بالحركة الجوهريّة» في الحكمة المتعالية، و هذا القولان كحقيقة واحدة، فهي في العرفان تلاحظ بالنّسبة إلى الموجودات كلّها و العالم كلّه، فعنونت بالتّجدد الأمثال، و في الحكمة المتعالية يلاحظ بالنسبة إلى الطبيعة و الموجودات الطبيعيّة، فعنونت بالحركة الجوهريّة، و كأنّ الحركة الجوهريّة مرتبة نازلة من التجدّد الأمثال.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٦٨

- و الثابت في الحركة الجوهريّة هو الصّورة، كما أنّ الثابت في التجدّد الأمثال و تبدّل العالم هو أمر اللّه الواحدة و وجهه الباقي المعبّر عنه بالوجود المطلق و الوجود الساري و الوجود المنبسط و الظلّ الممدود، كما قال اللّه تعالى:

وَ ما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ [سورة القمر: ٥٠].

فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ [سورة البقرة: ١١٥].

كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ [سورة القصص: ٨٨].

و على هذا لا يبقى شيء من الموجودات من الأعراض و الجواهر و المجرّدات، على حالين فيتبدّل العالم كلّ آن، هذا بسبب استمرار الفيض من الحقّ سبحانه و تعالى، فالعالم كما يحتاج إلى العلّة في الحدوث كذلك يحتاج إليها في البقاء كما قال تعالى:

يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماٰواتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [سورة الرّحمن: ٢٩].

و قال:

أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ [سورة ق: ١٥].

و معنى تجدّد الأمثال و حقيقته هو الإخفاء و الإظهار و عبّر عنه أحيانا بالإعدام و الإيجاد، كما قيل:

و لا أقول بتكرار الوجود و لا عود الوجود فما في الأمر تكرار

البحر بحر على ما كان من قدم إن الحوادث أمواج و أنهار

لا يحجبنك أشكال مشكلة عمّن تشكل فيها فهي أستار

و كن فطينا بها في أيّ مظهره فإنّ ذا الأمر إخفاء و إظهار

و نعم ما قال فقيه العرفاء و عارف الفقهاء الإمام الخميني (رض) في المقام:

ليس هذا الإعدام إعداما مطلقا حتّى يكون الإيجاد من قبيل اعادة المعدوم، بل الإعدام هو الإدخال تحت الأسماء الباطنة المناسبة، و الإيجاد هو الإظهار من الأسماء الظاهرة المناسبة. راجع تعليقاته على الفصوص ص ١٩١.

و إليك بعض عبادات القوم حول تجدّد الأمثال:

قال الشيخ الأكبر في الفتوحات (ج ٣، ص ١٧٢، ط ج) (ج ١، ص ١٨٤ ط ق):

فإنّ اللّه تعالى لا يكرّر تجلّيا على شخص واحد، و لا يشرّك فيه بين شخصين للتوسّع الإلهي، و إنّما الأمثال و الأشباه توهم الرّائي و السّامع للتشابه الّذي يعسر فصله إلاّ على أهل-

- الكشف.

و قال أيضا في الباب الثالث و السبعون في السؤال الثامن:

فتحدث نشأة الإنسان مع الأنفاس و لا يشعر بها، و هو قوله تعالى:

وَ نُنْشِئَكُمْ فِي مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ [سورة الواقعة: ٦١].

يعني مع الأنفاس، ففي كلّ نفس له فينا إنشاء جديد بنشأة جديدة، و من لا علم له بهذا فهو:

فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ [سورة ق: ١٥].

لأنّ الحسّ يحبه بالصورة الّتي لم يحسّ بتغييرها مع ثبوت عين القابل للتغيير مع الأنفاس.

قال في الفصوص، الفصّ الشيثي (شرح القصيري ص ١٧٧):

فما في الحضرة الإلهيّة لاتّساعها شيء يتكرّ أصلا.

قال القيصري: و ذلك لأنّ الأسماء غير متناهية، و الفائض أيضا من اسم واحد بحسب شخصيّته يغاير ما هو مثله، فإنّ مثلين أيضا متغايران، فلا تكرار أصلا، لذلك قيل: «إنّ الحقّ لا يتجلّى بصورة مرتين»، و لمّا كان الحقّ المشهود عند: انّ الأعراض و الجواهر في كلّ آن يتبدّل و لا تكرار قال: «و هذا هو الحقّ الّذي يعوّل عليه» .... فالمستفيض سواء كان عقولا و نفوسا مجرّدة، أو أشياء زمانية يحصل لهم في كلّ آن وجود مثل الوجود الأوّل و لا تكرار، و هكذا فيما يتبعه. انتهى. (أي يتجدّد الوجود في كمالات وجود الشيء أيضا).

قال القيصري في موضع آخر (ص ٣٨٩): و يظهر هذا المعنى في النّار المشتعلة من الدّهن و الفتيلة، فإنّه في كلّ آن يدخل منهما شيء في تلك النّاريّة و يتّصف بالصّفة النورانيّة، ثمّ يذهب تلك الصّورة بصيرورته هواء، و هكذا شأن العالم بأسره فإنّه يستمد دائما من الخزائن الإلهيّة فيفيض منها و يرجع إليها.

أقول: فلاحظ أيضا استمرار ضوء مصباح كهربائي بسبب الطّاقة الكهربائيّة، و استمرار الصورة على شاشة التلفزيون، و غير ذلك من الأمور المختلفة الّتي يريد استمرار الشيء فيها بسبب استمرار وصول الطاقة من أصله، و لكنّا نتخيّل أنّه شيء واحد، و أنّه ثابت، و أنّه مستقلّ!.

و أدقّ الأمثلة في هذا المورد الصّور الذهنيّة، الّتي تستمر وجودها في الذهن مادام-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٧٠

لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة آل عمران: ١٨].

و هذا آخر كلامه في هذا الباب، أي في إيجاد العالم و إيجاد آدم من العلو إلى السّفل، و من السّفل إلى العلو، و قد سبق من كلام مولانا و سيّدنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام في هذه المقدمة أمثال ذلك بالنّسبة إليهما، و هذه قاعدتنا في هذا الكتاب و غيره، أعني إذا جرى منّا كلام في تحقيق شيء من الأشياء لا بدّ و أن نقوم بالاستشهاد فيه أوّلا من كلام اللّه تعالى ثمّ كلام أنبيائه ثمّ كلام أوليائه، ثمّ كلام المشايخ، و من المشايخ أعظمهم و أشرفهم، و معلوم أنّ الشّيخ الأعظم محيي الدّين الأعرابي قدّس

- الإنسان متوجّها إليها، و معلوم أنّ التوجّه من الإنسان للصور يفيض الوجود إليها، و وجودها باق مادام التوجّه باق و إفاضة الوجود يستمر و يتجدّد آنا فآنا، من عرف نفسه فقد عرف ربّه.

قال ابن فناري في مصباح الأنس ص ٢٩٠: إن قلت: فالمتماثلات المتّحدة في صورة المعلوميّة الّتي هي الحقيقة المشتركة كيف يختلف أحكامها و صورها و مدبّر الكلّ الإسم المتعيّن بتلك الحقيقة فيكون الأسماء أيضا متماثلة.

قلت: بين كلّ اسم و اسم فروق شتّى و إنّ توهّمت المثليّة، و ذلك لأنّ الشيئين يمتنع اتّحادهما من كلّ وجه و لا اختلاف إلاّ باختلاف بعض الحقائق الّتي تعيّن المجموع منها فبذلك تعيّن لكلّ مجموع اسم برأسه و امتنع التكرار في التجلّي (لأنّه) عبث و تحصيل للحاصل.

قال صدر المتألّهين في الأسفار ج ٧، ص ٣٢٨:

«فالفيض من عند اللّه باق دائم، و العالم متبدّل زائل في كلّ حين، و إنّما بقاءه بتوارد الأمثال كبقاء الأنفاس في مدّة حياة كلّ واحد من الناس، و الخلق في لبس و ذهول عن تشابه الأمثال و تعاقبها على وجه الاتّصال».

و نختم الكلام بما قال به الحكيم السبزواري المنظومة ص ٢٤٩:

و جوهريّة لدينا واقعة إذ كانت الأعراض كلاّ تابعة

و الطبع ان يثبت فينسدّ العطاء بالثابت السيّال كيف ارتبطا

و في استحالة العلوم ظاهر إذ صور الجواهر جواهر

ثمّ اتّحاد العرضي بالعرض إلاّ في الاعتبار مثبت الغرض

تجدّد الأمثال كونا ناصري إذ الوجود جوهر في جوهر

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٧١

اللّه سرّه من أعظم المشايخ و أشرفهم من المتقدّمين و المتأخرين، و برهانه في هذا واضح، و لا يخفى على أحد صحته

إذا اطلع على علومه و مقاماته.

و إذا فرغنا من هذا الباب من كلامه فلنشرع في باب آخر من كلامه في هذا المعنى أي في إيجاد العالم و ترتيبه، و إيجاد الإنسان و تحقيقه و هو هذا و باللّه العصمة و التوفيق.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٧٢

الباب السّتّون «٢٩» في معرفة العناصر و سلطان العالم العلوي على العالم السّفليّ،

و في أيّ دورة كان وجود هذا العالم الإنساني من دورات الفلك الأقصى، و أيّة روحانيّة لنا

في استناد كلّ شيء إلى حقائق إلهيّة)

اعلم، أنّ كلّ شيء من الأكوان لا بدّ أن يكون استناده إلى حقايق إلهيّة فكلّ علم مدرج في العلم الإلهيّ، و منه تفرّعت العلوم كلّها و هي منحصرة في أربع مراتب و كلّ مرتبة تنقسم إلى أنواع معلومة محصورة عند العلماء و هو العلم المنطقيّ، و العلم الرّياضيّ، و العلم الطبيعيّ، و العلم الالهيّ.

(المطلوب من الحقائق الإلهيّة أربع نسب)

و العالم يطلب من الحقائق الإلهيّة أربع نسب: الحياة، و العلم، و الإرادة، و القدرة، إذا ثبتت هذه الأربع النّسب للواجب الوجود، صحّ أنّه الموجد للعالم بلا شكّ. فالحياة و العلم، أصلان في النّسب، و الإرادة و القدرة دونهما، و الأصل الحياة، فإنّها الشّرط في وجود العلم، و العلم له عموم التعلّق، فانّه يتعلّق بالواجب الوجود و بالممكن و بالمحال، و الإرادة دونه في التعلّق فانّه لا تعلّق لها إلاّ بالممكن في ترجيحه بإحدى الحالتين من الوجود و العدم، فكأنّ الإرادة تطلبها الحياة فهي كالمنفعلة عنها، فإنّها أعمّ تعلّقا من القدرة، و القدرة أخصّ تعلّقا فإنّها تتعلّق بإيجاد الممكن لا بإعدامه، فكأنّها كالمنفعلة عن العلم لأنّها من الإرادة بمنزلة العلم من الحياة.

---

(٢٩) قوله: الباب السّتّون.

راجع الفتوحات المكيّة الجزء الأوّل، ص ٢٩٢ ط ق، و الجزء الرّابع، ص ٣٤٠ ط ج.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٧٣

(العالم بالنسبة إلى الحقّ سبحانه منفعل و بالنظر إلى نفسه) (فمنه فاعل و منه منفعل)

فلمّا تميّزت المراتب في النّسب الإلهيّة، تميّز الفاعل عن المنفعل، خرج العالم على هذه الصّورة فاعلا و منفعلا. فالعالم بالنّسبة إلى اللّه من حيث الجملة منفعل محدث، و بالنّظر إلى نفسه فمنه فاعل و منفعل.

(اصول ظهور الصّور و مراتب العناصر في العالم)

فأوجد اللّه سبحانه العقل الأوّل من نسبة الحياة، و أوجد النّفس من نسبة العلم، و كان العقل في وجود النّفس، كالحياة شرط في وجود العلم و كان المنفعلان عن العقل و النّفس، الهباء و الجسم الكلّ. فهذه الأربعة أصل ظهور الصّور في العالم، غير أنّ بين النّفس و الهباء مرتبة الطبيعة، و هي على أربع حقايق، منها اثنان فاعلان، و اثنان منفعلان، و كلّها في

رتبة الانفعال بالنّظر إلى من صدرت عنه، فكانت الحرارة و البرودة و الرّطوبة و اليبوسة، فاليبوسة منفعلة عن الحرارة، و الرّطوبة منفعلة عن البرودة، فالحرارة من العقل، و العقل عن الحياة فكذلك (و لذلك) طبع الحياة في الأجسام العنصريّة، الحرارة و البرودة من النّفس، و النّفس من العلم، و لهذا يوصف العلم إذا استقرّ ببرد النّفس و بالثلج، و منه قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين وجد برد الأنامل بين ثدييه: (٣٠) «فعلم علم الأوّلين و الآخرين».

---

(٣٠) قوله (ص) حين وجد برد الأنامل.

روى علي بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره ج ٢، ص ٢٤٣ في سورة ص الآية ٦٧- ٧٠، بإسناده عن إسماعيل الجعفيّ قال: كنت في المسجد الحرام قاعدا و أبو جعفر (ع) في ناحية،-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٧٤

- فرفع رأسه فنظر إلى السّماء مرّة، و إلى الكعبة مرّة، ثمّ قال:

سُبْحٰانَ الَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى [سورة الإسراء: ١].

و كرّر ذلك ثلاث مرّات، ثمّ التفت إليّ فقال: أيّ شيء يقول أهل العراق في هذه الآية يا عراقيّ؟ قلت: يقولون: اسرى به من المسجد الحرام إلى البيت المقدس، فقال: ليس هو كما يقولون، و لكنّه أسرى به من هذه إلى هذه، و أشار بيده إلى السّماء و قال: ما بينهما حرم، قال: فلمّا انتهى به إلى «سدرة المنتهى» تخلّف عنه جبرئيل فقال رسول اللّه (ص):

يا جبرئيل في هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدّم أمامك فو اللّه لقد بلغت مبلغا لم يبلغه أحد من خلق اللّه قبلك، فرأيت من نور ربّي، و حال بيني و بينه السبخة.

قلت: و ما السبخة جعلت فداك؟ فأومأ بوجهه إلى الأرض و أومأ بيده إلى السّماء و هو يقول: جلال ربّي، جلال ربّي ثلاث مرّات.

قال: يا محمّد! قلت: لبيك يا ربّ، قال: فيم اختصم الملأ الأعلى؟

قال: قلت: سبحانك لا علم لي إلاّ ما علمتني، قال: فوضع يده (أي يد القدرة) بين ثدييّ فوجدت بردها بين كتفيّ، قال: فلم يسألني عمّا مضى و لا عمّا بقي إلاّ علمته، قال:

يا محمّد فيم اختصم الملأ الأعلى؟

قال: قلت: يا ربّ في الدرجات و الكفّارات و الحسنات، فقال: يا محمّد قد انقضت نبوّتك، و انقطع أكلك، فمن وصيّك؟ فقلت: يا ربّ قد بلوت خلقك فلم أر فيهم من خلقك أحدا أطوع لي من عليّ، فقال: ولي يا محمّد، فقلت: يا ربّ انّي قد بلوت خلقك فلم أر في خلقك أحدا أشدّ حبّا لي من عليّ بن أبي طالب (ع) قال: ولي يا محمّد، فبشّر بأنه راية الهدى، و إمام أوليائي، و نور لمن أطاعني: و الكلمة الّتي الزمتها المتّقين، من أحبّه احبّني، و من أبغضه أبغضني، مع أنّي أخصّه بما لم أخصّ به أحدا، فقلت: يا ربّ أخي و صاحبي و وزيري و وارثي، فقال: إنّه أمر قد سبق، إنّه مبتلي و مبتلي به، مع ما أنّي قد نحلته و نحلته و نحلته و نحلته أربعة أشياء، عقدها بيده، و لا يفصح بها عقدها.

و أخرج التّرمذي ج ٥، ص ٣٦٦ و ٣٦٧، الحديث ٤، و ٣٢٣٣، بإسناده عن ابن عبّاس، عن رسول اللّه (ص) قال:

أتاني ربّي في أحسن صورة، فقال: يا محمّد! فقلت: لبّيك و سعديك، قال: هل تدري- [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۷۵

- فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا أدري، قال فوضع يده بين كتفيّ فوجدت بردها بين ثدييّ، فعلمت ما في السماوات و ما في الأرض- ما بين المشرق و المغرب.

و أخرجه أيضا الدّارمي ج ۲، ص ۱۷۰ كتاب الرّؤيا الحديث ۲۱۴۹، و أحمد بن حنبل في مسنده ج ۱، ص ۳۶۸ و ج ۴، ص ۶۶ و ج ۵، ص ۲۴۳، و السّيوطي في الدّر المنثور ج ۳، ص ۳۰۱، و ابن حجر في المطالب العالية ج ۳، ص ۳۶۳، الحديث ۳۷۱۸ في تفسير سورة ص.

و روى ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ۱، ص ۵۲، الحديث ۷۶، قال فيه: و روي عنه (ص) إنّه قال: رأيت ربّي ليلة المعراج في أحسن صورة فوضع يده بين كتفي حتّى وجدت برد أنامله بين ثديي.

و قال بعد ذكره:

و في بعض كتب الأصحاب، عن بعض الصادقين انّه (ع) قال: وضع يده بين ثدييّ، فوجدت برد أنامله بين كتفي، لأنّه (ع) كان مقبلا عليه و لم يكن مدبرا عنه.

و في سنن الدارمي ج ۲، كتاب الوصايا، باب ۱۲، ص ۱۷۰، الحديث ۲۱۴۹ أخرج الحديث أيضا، و في نقله بعد قوله (ص): فعلمت ما في السموات و الأرض: و تلا (ص) هذه الآية:

وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [الأنعام: ۷۵].

و أخرجه الترمذي أيضا في ص ۳۶۸، ج ۵، الحديث ۳۲۳۵، بإسناده عن معاذ بن جبل قال: أحتبس عنّا (علينا) رسول اللّه (ص) ذات غداة عن صلاة الصّبح حتّى كدنا نتراءى عين (قرن) الشّمس، فخرج (رسول اللّه (ص)) سريعا فثوّب بالصّلاة، و صلّى رسول اللّه (ص) و تجوّز في صلاته، فلمّا سلّم دعا بصوته قال لنا على مصافّكم كما أنتم، ثمّ أقبل إلينا، ثمّ قال: أمّا إنّي سأحدّثكم ما حبسني عنكم الغداة: إنّي قمت من اللّيل فتوضأت و صلّيت ما قدّر لي فنعست في صلاتي حتّى استثقلت (استيقظت)، فإذا أنا بربّي تبارك و تعالى في أحسن صورة، فقال يا محمّد، قلت: لبّيك ربّ قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟

قلت: لا أدري، قالها ثلاثا، قال فرأيته وضع كفّه بين كتفيّ حتّى وجدت برد أنامله بين ثدييّ، فتجلّى لي كلّ شيء و عرفت.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۷۶

و لمّا انفعلت اليبوسة و الرّطوبة عن الحرارة و البرودة طلبت الإرادة اليبوسة لأنّها في مرتبتها، و لمّا كانت القدرة مالها تعلق إلّا بالإيجاد خاصّة كان الأحق بها طبع الحياة و هي الحرارة و الرّطوبة في الأجسام، و ظهرت الصّور و الأشكال في الهباء و الجسم الكلّ فظهرت السّماء و الأرض مرتوقة غير متميّزة.

ثمّ إنّ اللّه تعالى توجّه إلى فتق هذا الرّتق ليميّز أعيانها و كان الأصل الباقي وجودها، و لهذا قال:

وَ جَعَلْنٰا مِنَ الْمٰاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ [سورة الأنبياء: ۳۰].

و لحياته وصف بالتّسبيح، فنظم اللّه أوّلا هذه الطبائع الأربع نظما مخصوصا، فضمّ الحرارة إلى اليبوسة فكانت النار البسيطة المعقولة فظهر حكمها في جسم العرش الّذي هو الفلك الأقصى و الجسم الكلّ في ثلاثة أماكن، منها المكان الواحد سمّاه حملا، و المكان الثاني و هو الخامس من الأمكنة المقدّرة فيه سمّاه أسدا، و المكان الثالث و هو التّاسع من الأمكنة المقدّرة فيه سمّاه قوسا.

ثمّ ضمّ البرودة إلى اليبوسة، و أظهر سلطانهما في ثلاثة أمكنة من هذا الفلك و هو التّراب البسيط المعقول فسمّى المكان الواحد ثورا، و الآخر سنبلة، و الثّالث جديا.

ثمّ ضمّ الحرارة إلى الرّطوبة فكان الهواء البسيط المعقول، و أظهر حكمه في ثلاثة أمكنة من هذا الفلك الأقصى سمّى المكان الواحد منه الجوزاء، و الآخر الميزان، و الثالث الدالي.

- فقال يا محمّد، قلت لبّيك ربّ، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات، قال ما هنّ؟ قلت: مشي الأقدام إلى الحسنات، و الجلوس في المساجد بعد الصّلوات، و إسباغ الوضوء حين الكريهات، قال فيم، قلت: اطعام الطعام، و لين الكلام، و الصّلاة باللّيل و النّاس نيام، قال: سل، قل اللّهمّ إنّي أسألك فعل الخيرات، و ترك المنكرات، و حبّ المساكين، و أن تغفر لي و ترحمني، و إذا أردت فتنة قوم، فتوفّني غير مفتون، أسألك حبّك و حبّ من يحبّك، و حبّ عمل يقرّب إلى حبّك.

قال رسول اللّه (ص): إنّها حقّ فادرسوها ثمّ تعلّموها.

و أخرج ابن حنبل مثله في ج ٥، ص ٢٤٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٧٧

ثمّ ضمّ البرودة إلى الرّطوبة فكان الماء البسيط و أظهر حكمه في ثلاثة أمكنة من الفلك الأقصى، سمّي المكان الواحد السرطان، و سمّي الآخر بالعقرب، و سمّي الثّالث بالحوت، فهذا تقسم فلك البروج على اثنى عشر قسما مفروضة تعيّنها الكواكب الثّمانية و العشرون، و ذلك بتقدير العزيز العليم.

فلمّا أحكم صنعتها و ترتيبها و أدارها، فظهر الوجود مرتوقا فأراد الحقّ فتقه ففصل بين السّماء و الأرض، كما قال تعالى: كٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا [سورة الأنبياء: ٣٠].

أي ميّز بعضها عن بعض، فأخذت السّماء علوا دخانا فحدث فيما بين السّماء و الأرض، ركنان من المركبات: الرّكن الواحد الماء المركّب ممّا يلي الأرض، لأنّه بارد رطب فلم يكن له قوّة الصعود، فبقى على الأرض تمسكه بما فيها من اليبوسة عليها.

و الآخر النّار و هي أكرة الأثير ممّا يلي السّماء لأنّه حار يابس فلم يكن له طبع النّزول إلى الأرض فبقي ممّا يلي السّماء من أجل حرارته، و اليبوسة تمسكه هناك.

و حدث ما بين النّار و الماء ركن الهواء من حرارة النّار و رطوبة الماء فلا يستطيع أن يلحق بالنّار، فانّ ثقل الرّطوبة يمنعه أن يكون بحيث النّار و ان طلبت الرّطوبة تنزله إلى أن يكون بحيث (الماء) تمنعه الحرارة من النّزول فلمّا تمانعا لم يبق إلاّ أن يكون بين الماء و النّار، لأنّهما يتجاذبانه على السّواء، فذلك المسمّى هواء، فقد بان لك مراتب العناصر و

ماهيّتها، و من أين ظهرت و أصل الطبيعة.

(إنشاء اللّه تعالى الإنسان من حيث الجسم)

و لمّا دارت الأفلاك و مخضت الأركان بما حملته ممّا ألقت فيها في هذا النكاح المعنوي، و ظهرت المولّدات من كلّ ركن بحسب ما تقتضيه حقيقة ذلك الرّكن فظهرت أمم العالم و ظهرت الحركة المنكوسة (و الحركة) الأفقيّة، فلمّا انتهى الحكم إلى السّنبلة ظهرت النشأة الإنسانيّة بتقدير العزيز العليم، فأنشأ اللّه عزّ و جلّ الإنسان من حيث جسمه خلقا سويّا و أعطاه الحركة المستقيمة، و جعل اللّه لها من الولاية في العالم

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٧٨

العنصري سبعة آلاف سنة.

و ينتقل الحكم إلى الميزان و هو زمان القيامة، و فيه يضع اللّه الموازين القسط، ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئا و لمّا لم يكن الحكم له بما أودع اللّه فيه من العدل في الدّنيا، شرع الموازين فلم يعمل بها إلاّ القليل من النّاس و هم النبيّون خاصّة، و من كان محفوظا من الأولياء، و لمّا كانت القيامة محل سلطان الميزان لم تظلم نفس شيئا، قال اللّه تعالى:

وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ (يعني من العمل).

أَتَيْنا بِها وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ [سورة الأنبياء: ٤٧].

و لمّا كان للعذراء السّبعة من الأعداد كانت لها السّبعة و السّبعون و السّبع مائة من الأعداد في تضاعف الأجور و ضرب الأمثال في الصّدقات، قال تعالى:

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ [سورة البقرة: ٢٦١].

إلى سبعة آلاف، إلى سبعين ألفا، إلى سبع مائة ألف، إلى ما لا نهاية له، و لكن من حساب السّبعة.

و انّما كانت الفروض المقدّرة في الفلك الأطلس اثنى عشر فرضا، لأنّ منتهى أسماء العدد إلى اثنى عشر اسما، و هو من الواحد إلى العشرة إلى المائة و هو الحادي عشر، إلى الألف و هو الثاني عشر، و ليس وراءه مرتبة أخرى، و يكون التّركيب فيها بالتضعيف إلى ما لا نهاية له بهذه الأسماء خاصّة.

و يدخل النّاس الجنّة و النّار، و ذلك في أوّل الحادية، إحدى عشرة درجة من الجوزاء، و تستقرّ كلّ طائفة في دارها و لا يبقى في النّار من يخرج بشفاعة و لا بعناية إلهيّة و يذبح الموت بين الجنّة و النّار (٣١) و يرجع الحكم في أهل الجنّة بحسب ما يعطيه

---

(٣١) قوله: يذبح الموت بين الجنّة و النار.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٧٩

الأمر الإلهي الّذي أودع اللّه في حركات الفلك الأقصى، و به يقع التكوين في الجنّة

- قال المفسّر الكبير الطبرسي في قوله تعالى:

لاٰ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ [سورة الأنبياء: ١٠٣].

و قيل: هو حين يذبح الموت على صورة كبش أملح و ينادي: يا أهل الجنّة خلود و لا موت، و يا أهل النار خلود و لا موت.

و يوجد الحديث في مسائل عبد اللّه بن سلام عند رسول اللّه (ص)، و منها، سئله عن الموت و قال: يا محمّد (ص)! فأخبرني ما يضع اللّه بالموت؟ قال (ص):

يا ابن سلام، إذ استوى أهل الجنّة في الجنّة و أهل النّار في النّار أتي بالموت كأنّه كبش أملح، فيوقف بين الجنّة و النّار، فيقال لأهل الجنّة: يا أولياء اللّه هذا الموت، أ تعرفونه، فيقولون: نعم، فيقولون لهم: نذبحه؟ فيقولون: نعم يا ملائكة ربّنا اذبحوه حتّى لا يكون موت أبدا.

فيقولون لأهل النّار: يا أعداء اللّه! هذا الموت هل تعرفونه؟ فيقولون: نعم، فتقول الملائكة: نذبحه؟ فيقولون: يا ملائكة ربّنا لا تذبحوه و دعوه لعلّ اللّه يقضي علينا بالموت فنستريح، قال النبيّ (ص):

و يذبح الموت بين الجنّة و النار فييأس أهل النار من الخروج منها، و تطمئن قلوب أهل الجنّة للخود فيها. راجع البحار ج ٦٠، ص ٢٦١.

و أخرج البخاري باسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه (ص): يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد يا أهل الجنّة فيشرئبون و ينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا، فيقولون نعم هذا الموت و كلّهم قد رآه، ثمّ ينادي يا أهل النّار فيشرئبون و ينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت و كلّهم قد رآه، فيذبح، ثمّ يقول: يا أهل الجنّة خلود فلا موت و يا أهل النّار خلود فلا موت، ثمّ قرأ (ص):

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ [سورة مريم: ٣٩].

و هؤلاء في غفلة أهل الدّنيا.

صحيح البخاري كتاب التفسير باب ٤٠٥ في قوله تعالى: **وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ، ج ٦، ص ٤٤٨، و قريب منه في صحيح مسلم، كتاب الجنّة باب ١٣، الحديث ٤٣ ج ٤، ص ٢١٨٩، و مسند أحمد ج ٢، ص ١١٨، و سنن ابن ماجة ج ٢، ص ١٤٤٧، كتاب الزهد، باب صفة النار، الحديث ٤٣٢٧، و الترمذي ج ٤، ص ٦٩٢، كتاب صفة الجنّة، باب ٢٠، الحديث ٢٥٥٧.**

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌٢، ص ٨٠

بحسب ما تعطيه نشأة الدّار الآخرة، فانّ الحكم دائما في القوابل، فإنّ الحركة واحدة و آثارها تختلف بحسب القوابل، و سبب ذلك حتّى لا يستقلّ أحد من الخلق بفعل و لا بأمر دون مشاركة فيتميّز بذلك فعل اللّه الّذي يفعل لا بمشاركة من فعل المخلوق، فالمخلوق أبدا في محل الافتقار و العجز، و اللّه الغنيّ العزيز.

فيكون الحكم في أهل النّار بحسب ما يعطيه الأمر الإلهي الّذي أودع اللّه تعالى في حركات الفلك الأقصى، و في الكواكب الثابتة و في سباحة الدّراريّ السّبعة المطموسة الأنوار، فهي كواكب لكنّها ليست بثواقب، فالحكم في النّار خلاف الحكم في الجنّة، فيقرب حكم النار من حكم الدّنيا فليس بعذاب خالص و لا بنعيم خالص و لهذا قال تعالى:

لاٰ يَمُوتُ فِيهٰا وَ لاٰ يَحْيىٰ [سورة طه: ٧٤].

فلم يخلصه إلى أحد الوجهين و كذلك قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«أمّا أهل النّار الّذين هم أهلها فانّهم لا يموتون فيها و لا يحيون» «٣٢».

و سبب ذلك أنّه بقي ما أودع اللّه عليهم في الأفلاك و حركات الكواكب من الأمر الإلهي و تغيّر منه على قدر ما تغيّر من صور الأفلاك بالتّبديل، و من الكواكب بالطمس و الانتثار، فاختلف حكمها بزيادة و نقص، لأنّ التّغيير وقع في الصّور، لا في الذّوات.

(العالم مرتّب بترتيب المملكة و البلاد و فيه توجد جنودا و مأمورين)

و اعلم أنّ اللّه تعالى لمّا تسمّى بالملك رتّب العالم ترتيب المملكة، فجعل له خواصّا

---

(٣٢) قوله: و كذلك قال (ص): أمّا أهل النّار، الحديث.

راجع صحيح المسلم ج ١، كتاب الإيمان، باب ٨٢ الحديث ٣٠٦، ص ١٧٢، و سنن ابن ماجة ج ٢، كتاب الزهد، باب ٣٧، الحديث ٤٣٠٩، ص ١٤٤١، و كنز العمّال ج ١٤، ص ٥٣٢، الحديث ٣٩٥٢٩.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٨١

من عباده و هم الملائكة المهيّمة جلساء الحق تعالى بالذّكر.

لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ لاٰ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ لاٰ يَفْتُرُونَ [سورة الأنبياء: ١٩- ٢٠].

(خلق النون و القلم و غيرهما من الملائكة)

ثمّ اتّخذ حاجبا من الكروبين واحدا أعطاه علمه في خلقه و هو علم مفصّل في إجمال فعلمه سبحانه كان فيه مجلى له و سمّى ذلك الملك نونا فلا يزال معتكفا في حضرة علمه عزّ و جلّ و هو رأس الدّيوان الإلهي، و الحقّ من كونه عليما لا يحتجب عنه.

ثمّ عيّن من ملائكته ملكا آخر دونه في الرّتبة سمّاه القلم و جعل منزلته دون النّون و اتّخذه كاتبا فيعلّمه اللّه من علمه ما شاء في خلقه بوساطة النّون، و لكن من العلم الإجمالي و ممّا يحوي عليه العلم الإجمالي علم التّفصيل و هو من بعض علوم الإجمال، لأنّ العلوم لها مراتب من جملتها علم التّفصيل فما عند القلم الإلهي من مراتب العلوم المجملة إلاّ علم التّفصيل مطلقا، و بعض العلوم المفصّلة لا غير.

و اتّخذ هذا الملك كاتب ديوانه و تجلّى له من اسمه القادر، فأمدّه من هذا التجلّي الإلهي و جعل نظره إلى جهة عالم التدوين و التّسطير، فخلق له لوحا و أمره أن يكتب فيه جميع ما شاء سبحانه أن يجريه في خلقه إلى يوم القيامة خاصّة، و أنزله منزلة التلميذ من الأستاذ، فتوجّهت عليه هنا الإرادة الإلهيّة، فخصّصت له هذا القدر من العلوم المفصّلة، و له تجلّيان من الحقّ بلا واسطة، و ليس للنون سوى تجلّ واحد في مقام أشرف فإنّه لا يدل تعدّد التجلّيات و لا كثرتها على الأشرفيّة و إنّما الأشرف من له المقام الأعمّ.

فأمر اللّه النّون أن يمدّ القلم بثلاث مائة و ستّين علما من علوم الإجمال، تحت كلّ علم تفاصيل و لكن معيّنة منحصرة لم يعطه غيرها يتضمّن كلّ علم اجماليّ من تلك العلوم ثلاثمائة و ستّين علما من علوم التّفصيل، فإذا ضربت ثلاث مائة و ستّين في

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٨٢

مثلها، فما خرج لك فهو مقدار علم اللّه تعالى في خلقه إلى يوم القيامة خاصّة، ليس عند اللّوح من العلم الّذي كتبه فيه هذا القلم أكثر من هذا لا يزيد و لا ينقص، و لهذه الحقيقة الإلهيّة جعل اللّه الفلك الأقصى ثلاث مائة و ستين درجة، و كلّ درجة مجملة لما تحوي عليه من نقصان (تفصيل) الدّقائق و الثواني و الثوالث إلى ما شاء اللّه سبحانه ممّا يظهره في خلقه إلى يوم القيامة و سمّي هذا القلم: الكاتب.

(انّ للعالم اثنى عشر وال)

ثمّ إنّ اللّه سبحانه و تعالى أمر أن يولّي على عالم الخلق اثنى عشر واليا يكون مقرّهم في الفلك الأقصى منّا في بروج، فقسّم الفلك الأقصى اثنى عشر قسما، جعل كلّ قسم منها برجا لسكنى هؤلاء (الولاة) البروج مثل أبراج سور المدينة فأنزلهم اللّه إليها فنزلوا فيها كلّ وال على تخت في برجه، و رفع اللّه الحجاب الّذي بينهم و بين اللّوح المحفوظ فرأوا فيه مسطرا أسماءهم و مراتبهم و ما شاء الحق ان يجريه على أيديهم في عالم الخلق إلى يوم القيامة فارتقم ذلك كلّه في نفوسهم و علموه علما محفوظا لا يتبدل و لا يتغيّر.

ثمّ جعل لكلّ واحد من هؤلاء الولاة حاجبين ينفّذان أوامرهم إلى نوّابهم، و جعل بين كلّ حاجبين سفيرا يمشي بينهما بما يلقي اللّه كلّ واحد منهما، و عيّن اللّه لهؤلاء الّذين جعلهم اللّه حجابا لهؤلاء الولاة في الفلك الثاني منازل يسكنونها و أنزلهم إليها و هي ثمانية و عشرون منزلة الّتي تسمّى المنازل الّتي ذكرها في كتابه فقال:

وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ [يونس: ٥].

يعني في سيره ينزل كلّ ليلة منزلة منها إلى أن ينتهي إلى اخرها، ثمّ يدور دورة أخرى لِتَعْلَمُوا بسيره و سير الشّمس فيها و الخنّس.

عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسٰابَ [سورة يونس: ٥].

و كلّ شيء فصّله الحقّ لنا تفصيلا، فأسكن في هذه المنازل هذه الملائكة و هم حجاب أولئك الولاة الّذين في الفلك الأقصى.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٨٣

(بيان نقباء الولاة)

ثمّ إنّ اللّه تعالى أمر هؤلاء الولاة أن يجعلوا نوّابا لهم و نقباء في السّموات السّبع، في كلّ سماء نقيبا كالحاجب لهم، ينظر في مصالح العالم العنصري بما يلقون إليهم هؤلاء الولاة و يأمرونهم به و هو قوله:

وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا [سورة فصّلت: ١٢].

فجعل اللّه أجسام هذه الكواكب النّقباء أجساما نيّرة مستديرة، و نفخ فيها أرواحها و أنزلها في السّماوات السّبع، في كلّ سماء واحد منهم، و قال لهم:

قد جعلتكم تستخرجون ما عند هؤلاء الإثنى عشر واليا بوساطة الحجّاب الّذين هم ثمانية و عشرون، كما يأخذ أولئك الولاة عن اللّوح المحفوظ.

ثمّ جعل اللّه لكلّ نقيب من هؤلاء السّبعة النّقباء فلكا يسبح فيه هو له كالجواد للراكب، و هكذا الحجّاب لهم أفلاك

يسبحون فيها، إذ كان لهم التّصرف في حوادث العالم، و الاستشراف عليه، و لهم سدنة و أعوان يزيدون على الألف و أعطاهم اللّه مراكب سمّاها أفلاكا فهم أيضا يسبحون فيها و هي تدور بهم على المملكة في كلّ يوم مرّة فلا يفوتهم من المملكة شيء أصلا من ملك السّموات و الأرض، فيدور الولاة و هؤلاء الحجّاب و النقباء و السّدنة كلّهم في خدمة هؤلاء الولاة.

(المقصود من خلق العالم هو الإنسان)

و الكلّ مسخرون في حقّنا إذ كنّا المقصود من العالم، قال تعالى:

وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ [سورة الجاثية: ١٣].

و أنزل في التّوراة:

«يا ابن آدم! خلقت الأشياء من أجلك و خلقتك من أجلي».

و هكذا ينبغي أن يكون الملك يستشرف كلّ يوم على أحوال أهل ملكه، يقول

تعالى:

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [سورة الرّحمن: ٢٩].

لأنّه يسأله من في السّموات و الأرض، بلسان حال و بلسان المقال و لا يؤوده حفظ العالم و هو العلي العظيم فماله شغل إلاّ بها، يقول تعالى:

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ [سورة السجدة: ٥].

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ [سورة الرّعد: ٢].

و لولا وجود الملك ما سمّي الملك ملكا فحفظه لملكه حفظه لبقاء اسم الملك عليه و إن كان كما قال:

فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ [سورة آل عمران: ٩٧].

(انعزال الحاكم بفسقه و عدم معاملته بالإحسان مع رعيّته)

فما جاء باسم الملك فان أسماء الإضافة لا تكون إلاّ بالمضاف، فكلّ سلطان لا ينظر في أحوال رعيّته و لا يمشي بالعدل فيهم، و لا يعاملهم بالإحسان الّذي يليق بهم فقد عزل نفسه في نفس الأمر.

يقول الفقهاء: إن الحاكم إذا فسق أو جار، فقد انعزل شرعا و لكن عندنا انعزل شرعا فيما فسق فيه خاصّة، لأنّه (ما) لا حكم بما شرع له أن يحكم به فقد أثبتهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا (ولاة) مع جورهم فقال عليه السّلام فينا و فيهم:

فإن عدلوا فلكم و لهم و إن جاروا فلكم و عليهم (٣٣).

---

(٣٣) قوله: فقال (ع): فإن عدلوا ...

ما وجدت الحديث بعد ما فحصت كثيرا في الكتب المربوطة، و لكن هناك حديث آخر رواه أبو يوسف القاضي في كتابه: «الخراج» ص ١٠، عن الحسن البصري قال: قال-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٨٥

- رسول اللّه (ص):

«لا تسبّوا الولاة، فإنّهم إن أحسنوا كان لهم الأجر و عليكم الشكر، و إن أساؤوا فعليهم الوزر و عليكم الصبر، و إنّما هم نقمة ينتقم اللّه بهم ممّن يشاء فلا تستقبلوا نقمة اللّه بالحميّة و الغضب و استقبلوها بالاستكانة و التّضرع». راجع «ولاية الفقيه و فقه الإسلاميّة» ج ١، ص ٥٨٤.

تبصرة: يجب تفسير أمثال هذه الروايات، و لعلّها ناظرة إلى الأمراء و الولاة الّذين هم كانوا منصوبين من قبل الإمام و الحاكم العادل، عند ما يصدر معصية منهم أحيانا، و معلوم أنّ هذا لا يوجب انعزالهم عن منصبهم و بل لا يوجب جواز التخلّف عن أوامرهم و نواهيهم ما داموا لم يعزلوا من قبل الحاكم العادل، بل الواجب على الناس الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و إرشاد ذلك الحاكم العاصي و نصحه و أمّا عزل أمثال ذلك الحكّام و الولاة يكون بيد الحاكم العادل الّذي نصبهم بهذا المقام.

و أمّا تكليف النّاس و المسلمين تجاه الحكّام الجور يعلم من الحديث الّذي روى عن أبي عبد اللّه الحسين عليه السّلام قال: قال رسول اللّه (ص):

«من رأى سلطانا جائرا مستحلاّ لحرم اللّه، ناكثا لعهد اللّه، مخالفا لسنّة اللّه، يعمل في عباد اللّه بالإثم و العدوان ثمّ (و) لم يغيّر عليه بفعل و لا قول، كان حقّا على اللّه أن يدخله مدخله»، الحديث. راجع البحار ج ٤٤، ص ٢٨٢، و تاريخ الطبري ج ٣، ص ٣٠٧.

و يمكن تفسير الحديث المذكور في المتن بالحديث التالي:

روى الكليني في الروضة ص ٢٧١، ح ٤٠٠ باسناده عن الصادق عليه السّلام قال: إنّ اللّه عزّ و جلّ جعل لمن جعل له سلطانا أجلا و مدّة من ليال و أيّام و سنين و شهور، فإن عدلوا في النّاس أمر اللّه عزّ و جلّ صاحب الفلك أن يبطئ بإدارته فطالت أيّامهم و لياليهم و سنينهم و شهورهم، و إن جاروا في النّاس و لم يعدلوا أمر اللّه تبارك و تعالى صاحب الفلك فأسرع بإدارته فقصرت لياليهم و أيّامهم و سنينهم و شهورهم و قد وفا لهم عزّ و جلّ بعدد اللّيالي و الشّهور.

و روى مثله الصدوق في (علل الشرائع) باب ٣٦٧ ص ٥٦٦، الحديث ١.

أي لو عدلوا فيطول أيامهم فأصبح خيرا لهم و للنّاس، و إن جاروا فقصّر أيّامهم فأصبح شرا عليهم و خيرا للناس.

و لا يخفى أنّ نفس هذا الحديث أيضا يحتاج إلى التفسير.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٨٦

و نهى: أن «يخرج يدا من طاعة» «٣٤».

و ما خصّ بذلك واليا من وال، فلذلك زدنا في عزله شرعا، إنّما ذلك فيما فسق فيه.

فالملك مأمور أن يحفظ نفسه من الخروج ممّا حدّ له من الأحكام في رعاياه و في نفسه، فانّه وال على نفسه.

«كلّكم راع و كلّكم مسؤول عن رعيّته» (٣٥).

(٣٤) قوله: و نهى أن يخرج يدا من طاعة.

أخرجه الدّارمي في سننه ج ٢، كتاب الرقاق، باب في الطاعة (٧٨)، الحديث ٢٧٩٧، ص ٤١٧، بإسناده عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: سمعت رسول اللّه (ص) يقول:

خيار أئمّتكم الّذين تحبّونهم و يحبّونكم، و تصلّون عليهم و يصلّون عليكم، و شرار أئمّتكم الّذين تبغضونهم و يبغضونكم، و تلعنونهم و يلعنونكم، قلنا: أفلا ننابذهم يا رسول اللّه عند ذلك؟ قال: لا، ما أقالوا فيكم الصّلاة، إلاّ من ولي عليه و آل فرآه يأتي شيئا من معصية اللّه، فليكره ما يأتي من معصية اللّه و لا ينزعنّ يدا من طاعة.

و روى مثله أحمد بن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٢٤. و أيضا رواه مسلم في الصحيح ج ٣، ص ١٤٨١ كتاب الإمارة، باب ١٧، الحديث ٦٥، و فيه في الفقرة الأخيرة:

قيل: يا رسول اللّه (ص)! أفلا ننابذهم بالسّيف؟ فقال: لا، ما أقاموا فيكم الصّلاة، و إذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله، و لا تنزعوا يدا من طاعة.

(٣٥) قوله: كلّكم راع و كلّكم مسئول عن رعيّته.

رواه ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ١، ص ١٢٩، الحديث ٣، بطريقة و قال: قال رسول اللّه (ص):

كلّكم راع و كلّكم مسؤول عن رعيّته، فالإمام راع، و هو المسؤول عن رعيّته، و الرّجل في أهله راع، و هو مسؤول عن رعيّته، و المرأة في بيت زوجها راعية و هي مسؤولة عن رعيّتها، و الخادم في مال سيّده راع و هو مسؤول عن رعيّته، و الرّجل في مال أبيه راع و هو مسؤول عن رعيّته، و كلّكم راع و كلّكم مسؤول عن رعيّته.

و رواه أيضا المجلسي في البحار مرسلا ج ٧٥، ص ٣٨.

و قال ابن أبي جمهور في ذيله: بل الإنسان نفسه راع على جوارحه و قواه فهو مسؤول عن رعيّته، لأنّه موكّل عليها بأن يصرفها لما خلقت له فلو خالف لزم السؤال.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٨٧

فالإنسان راع على نفسه فما زاد، و لذلك قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«إن لنفسك عليك حقّا، و لعينك عليك حقّا، الحديث» (٣٦).

- و أخرجه أيضا البخاري في صحيحه في عدّة موارد منها: ج ٤، كتاب الوصايا، باب ٦١٥، ص ٣٩٢، الحديث ٩٥٠، و أيضا باب ٤٠٥، كتاب في الاستقراض، الحديث ٦٣١، و أيضا ج ١، ص ٤١٤، باب ٥٦٩، الحديث ٨٤١ كتاب الجمعة.

و أيضا ج ٩، في كتاب النكاح، باب ٨٢ الحديث ١١٨، ص ٤٩، و باب ٩١، الحديث ١٣٠، ص ٦٤، و أخرجه أيضا ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٥.

و أيضا أخرجه أبو نعيم في كتابه حلية الأولياء ج ٧، ص ٣١٨، في ترجمة سفيان بن عيينة.

و قال أمير المؤمنين في نهج البلاغة الخطبة ١٦٧:

فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده إلاّ بالحقّ، و لا يحلّ أذى المسلم إلاّ بما يجب، بادروا أمر العامّة و خاصّة أحدكم و هو الموت،

اتقوا اللّه في عباده و بلاده فإنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع و البهائم.

(٣٦) قوله: قال (ص): «إن لنفسك عليك حقّا».

روى البخاري في صحيحه ج ٩، كتاب الأدب، باب ٦٠٦، الحديث ١٠١١، ص ٣٦٢، و كتاب النكاح، باب ٩٠، الحديث ١٢٩، ص ٦٤، بإسناده عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: دخل عليّ رسول اللّه (ص) فقال: ألم أخبر أنّك تقوم اللّيل و تصوم النهار، قلت بلى، قال: فلا تفعل، قم و نم، و صم و أفطر، فإنّ لجسدك عليك حقّا، و إنّ لعينك عليك حقّا، و إنّ لزورك عليك حقّا، و إنّ لزوجتك عليك حقّا، الحديث.

و روى أيضا في كتاب الصّوم من الصحيح ج ٣، باب ١٣٧، الحديث ٢٢٥ ص ٨٨ بإسناده عن أبي جحيفة، قال: آخى النبيّ (ص) بين سلمان و أبي الدّرداء، فزار سلمان أبا الدّرداء فرأى أمّ الدّرداء متبذّلة، فقال لها: ما شأنك، قالت: أخوك أبو الدّرداء ليس له حاجة في الدّنيا، فجاء أبو الدّرداء فصنع له طعاما، فقال: كل، قال: فإنّي صائم، قال: ما أنا بآكل حتّى تأكل، قال: فأكل، فلمّا كان اللّيل ذهب أبو الدّرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثمّ ذهب يقوم، فقال: نم، فلمّا كان من آخر اللّيل، قال سلمان قم الآن، فصلّينا، فقال له سلمان: إنّ لربّك عليك حقّا، و لنفسك عليك حقّا، و لأهلك عليك حقّا، فأعط كلّ ذي حقّ-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٨٨

فمن لم يف لمن بايعه بما بايعه عليه فقد عزل نفسه، و ليس بملك و إن كان حاكما فما

- حقّه، فأتى النبيّ (ص) فذكر ذلك له، فقال النبيّ (ص): صدق سلمان.

راجع في حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص، صحيح مسلم ج ٢، كتاب الصيام، باب ٣٥، الحديث ١٨٦، ص ٨١٤ و الحديث ١٨٨ و ١٩٣، و أيضا سنن النسائي ج ٤، باب صوم يوم و إفطار يوم، ص ٢١١، و ٢١٥، و أيضا مسند ابن حنبل ج ٢، ص ١٩٤ و ١٩٨ و ١٩٩.

و توجد هنا (أي في موضوع البحث) رسالة الحقوق لمولانا زين العابدين علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم آلاف التحيّة و السّلام: رواها الصدوق (ره) في كتابه الخصال في أبواب الخمسين ج ٢، ص ٥٦٤، الحديث ١، و روى عنه المجلسي في البحار ج ٧٤، ص ٢، ح ١، و أيضا رواها الصدوق (ره) في أماليه، في المجلس التاسع و الخمسون ص ٣٠١، و أيضا رواها في الفقيه ج ٢ بالحقوق، ص ٣٧٦، الحديث ١٦٢٦، و أيضا رواها علي بن شعبة الحرّاني في كتابه تحف العقول ص ٢٥٥، و الرسالة طويلة نذكر قسما منها فقط:

اعلم أنّ للّه عزّ و جلّ عليك حقوقا محيطة بك في كلّ حركة تحرّكتها، أو سكنة سكنتها، أو حال حلتها، أو منزلة نزلتها، أو جارحة قلّبتها، أو آلة تصرّفت فيها، (بعضها أكبر من بعض).

فأكبر حقوق اللّه تبارك و تعالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقّه الّذي هو أصل الحقوق.

ثمّ أوجب اللّه عزّ و جلّ عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك، فجعل عزّ و جلّ للسانك عليك حقّا، و لسمعك عليك حقّا، و لبصرك عليك حقّا، و ليدك عليك حقّا، و لرجلك عليك حقّا، و لبطنك عليك حقّا، و لفرجك عليك حقّا، فهذه الجوارح السبع الّتي بها تكون الأفعال.

ثمّ جعل عزّ و جلّ لأفعالك عليك حقوقا: فجعل لصلاتك عليك حقّا، و لصومك عليك حقّا، و لصدقتك عليك حقّا، و لهديك عليك حقّا، و لأفعالك عليك حقوقا.

ثمّ يخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك، فأجبها عليك حقوق أئمّتك، ثمّ حقوق رعيّتك، ثمّ حقوق رحمك، فهذه

حقوق تتشعّب منها حقوق.

الحديث، فراجع.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٨٩

كلّ حاكم يكون سلطانا فانّ السّلطان من تكون له الحجّة لا عليه، و لهذا جعل اللّه الأفلاك تدور علينا كلّ يوم دورة لتنظر الولاة ما تدعو حاجة الخلق إليهم فيسدّون الخلل، و ينفّذون أحكام اللّه تعالى من كونه مريدا في خلقه، لا من كونه آمرا، فينفّذون أحكامه الّتي أمرهم سبحانه أن ينفّذوها فيهم و هو القضاء و القدر في أزمان مختلفة فكلّ شيء بقضاء و قدر حتّى العجز و الكيس، و كلّ صغير و كبير مستطر في اللّوح المحفوظ فما فيه إلاّ ما يقع، و لا ينفّذ هؤلاء الولاة في العالم إلاّ ما فيه، و اللّه على كلّ شيء رقيب.

و مع هذا كله فإنّ اللّه له مع كلّ واحد من المملكة أمر خاصّ في نفسه يعلمه الولاة و الحجّاب و النّقباء، فمنهم لا يفقدون مشاهدة ذلك الوجه، ذلك ليعلموا:

أَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً [سورة الطلاق: ١٢].

و أنّه، رقيب عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ [سورة الرّعد: ٣٣].

و: أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ٥٤].

(استغفار الملائكة لمن في الأرض و للمؤمنين)

و لمّا جعل اللّه زمام هذه الأمور بأيدي هؤلاء الجماعة من الملائكة و أقعد من أقعد منهم في برجه و مسكنه الّذي فيه تخت ملكه، و أنزل من أنزل من الحجّاب و النّقباء إلى منازلهم في سماواتهم، و جعل في كلّ سماء ملائكة مسخّرة تحت أيدي هؤلاء الولاة و جعل تسخيرهم على طبقات، فمنهم أهل العروج باللّيل و النّهار: من الحقّ إلينا و منّا إلى الحقّ، في كلّ صباح و مساء، و ما يقولون إلاّ خيرا في حقّنا و منهم المستغفرون لمن في الأرض، و منهم المستغفرون للمؤمنين، لغلبة الغيرة الإلهيّة عليهم كما غلبت الرّحمة على المستغفرين لمن في الأرض، و منهم الموكّلون بإيصال الشّرائع، و منهم أيضا الموكّلون باللّمّات، و منهم الموكّلون بالإلهام، و هم الموصلون العلوم إلى القلوب، و منهم الموكّلون بالأرحام، «و منهم الموكّلون بتصوير ما يكون اللّه في الأرحام، و منهم الموكّلون بنفخ الأرواح، و منهم الموكّلون بالأرزاق»، و منهم الموكّلون بالأمطار،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٩٠

و كذلك، (لذلك قالوا):

وَ ما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ [سورة الصّافات: ١٦٤].

و ما من حادث يحدث اللّه في العالم إلاّ و قد وكّل اللّه بإجرائه (ملائكة) ملائكته و لكن بأمر هؤلاء من الملائكة كما منهم أيضا: الصّافّات، و الزّجرات، و التاليات، و المقسمات، و المرسلات، و الناشرات، و النّازعات، و الناشطات، و السّابقات، و السّابحات، و الملقيات، و المدبّرات، و مع هذا، فما يزالون تحت سلطان هؤلاء الولاة إلاّ الأرواح المهيّمة، فهم خصائص اللّه و من دونهم ينفّذون أوامر اللّه في خلقه.

ثمّ إن العامّة ما تشاهد إلاّ منازلهم، و الخاصّة يشهدونهم في منازلهم كما أيضا تشاهد العامّة أجرام الكواكب، و لا تشاهد

أعيان الحجّاب و لا النّقباء.

و جعل اللّه في العالم العنصري خلقا من جنسهم، فمنهم الرّسل، و الخلفاء، و السّلاطين، الملوك، و ولاة أمور العالم.

و جعل اللّه بين أرواح هؤلاء الّذين جعلهم اللّه ولاة في الأرض، من أهلها بينهم و بين هؤلاء الولاة في الأفلاك مناسبات و رقائق تمتدّ إليهم من هؤلاء الولاة بالعدل، مطهرة من الشوائب مقدسة عن العيوب، فتقبّل أرواح هؤلاء الولاة الأرضيين منهم بحسب استعداداتهم، فمن كان استعداده قويّا حسنا قبل ذلك الأمر على صورته ظاهرا مظهرا (طاهرا مطهرا)، فكان والي عدل و إمام فضل، و من كان استعداده رديّا قبل ذلك الأمر الظاهر (طاهر) و ردّه إلى شكله من الرداءة و القبح فكان والي جور و نائب ظلم و بخل فلا يلومنّ إلاّ نفسه.

فقد أبنت لك سلطنة العالم العلويّ على العالم السّفلي، و كيف رتّب اللّه ملكه هذا الترتيب العجيب، و ما ذكرنا من ذلك إلاّ الأمّهات لا غير.

يقول اللّه تعالى: وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا [سورة فصّلت: ۱۲].

و قال: يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ [سورة الطلاق: ۱۲].

و يكفي هذا القدر من هذا الباب، و اللّه يقول الحقّ و هو يهدي السبيل، و اللّه أعلم بالصّواب و إليه المرجع و المآب.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۹۱

هذا آخر هذا الباب و في ضمّه إلى الأبواب الّتي سبقت من كلامه قدّس اللّه سرّه قبل هذا الباب، كان لنا أغراض:

(في تطبيق الأئمّة المعصومين عليهم السّلام بالولاة الحقيقيّة العلويّة)

منها، ترتيب العالم و تحقيقه من العلوّ إلى السّفل أو بالعكس، و منها تحقيق الكتاب الإلهيّة و تعيين الدّواة و القلم و الصّادر منها من الأزل إلى الأبد، حيث نحن في بحث القرآن و تعيين الكتاب الآفاقي و الأنفسي.

و منها تعيين الملائكة و ترتيب طبقاتهم و ترتيب المملكة الإلهيّة، و تعيين الولاة و الحجّاب و النقباء و السّدنة و غير ذلك، و تعيين الموكلين منهم على كلّ نوع نوع من أجناس العالم و أشخاصه و أصنافه.

و منها تعداد الولاة الحقيقيّة الإلهيّة العلويّة المنحصرة في اثني عشرة ولاة تطبيقا بالأئمّة الإثني عشرة من أهل بيت النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الّذين سبق ذكرهم مفصلا و مجملا بوجوه مختلفة، و اعتراض بعض النّاس في تخصيص هذا العدد بهم دون غيره و جوابه بالبروج الإثني عشرة، و النّقباء من بني إسرائيل و غير ذلك فإنّها كذلك، و للدائرة الآفاقيّة و الأنفسيّة الّتي مثّلنا به في صورة الجداول و ترتيب العالم الصّوري بالعالم المعنوي، و الأقطاب و الأئمّة من السّبعة و الإثني عشرة.

فإنّ كلام الشيخ حجّة في ذلك مع المعترض «۳۷»، فانّ الشّيخ عيّن في هذا الباب أنّ

(۳۷) قوله: فإنّ كلام الشيخ حجّة في ذلك مع المعترض.

قد سبق ذكر هذه المطالب تفصيلا في الجزء الأوّل، ص ۵۷۴ فراجع، و الجدير بالذكر، أنّ كلام الشيخ حجّة على نفسه أيضا حيث قال في بعض كلماته: إنّ الشيعة من هذا قالوا بالأئمّة الإثنى عشر، و ما يشعرون أن الأئمّة ليسوا (هؤلاء الملائكة) بل الأئمّة الإثنا عشر يأخذون منهم الفيض.

و قال السيّد المؤلّف قدّس اللّه سرّه في ذيل كلامه بعد نقله (الجزء الأوّل، ص ٥٤٧):

و على جميع التقادير، قال بهم و نسب قيام الدّنيا إليهم كما نسب قيام الجنّة إلى تلك الملائك، و الكلّ موافق لدعوانا.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٩٢

بعد اللّه تعالى و الملائكة المهيّمة، العالم كلّه في تصرّف هؤلاء الولاة الأثني عشرة، و أرواح الأنبياء و الرّسل و الخلفاء و الأولياء و الملوك و السّلاطين يأخذ منهم و من فيضهم في هذا العالم العنصري الشهاديّ، فالشّيعة من هذا قالوا أنّ الأئمّة الإثنى عشرة عليهم السّلام، على عددهم و جميع كمالاتهم و علومهم و صفاتهم منهم، و هم مظاهر تلك الولاة و مجاليهم، و لا يجوز أن يكون عددهم أكثر من ذلك إلاّ غيرهم من الولاة ليسوا كذلك و لا يوافق عددهم عددهم، و لا أخلاقهم أخلاقهم، و لا صفاتهم صفاتهم، من العصمة و الطّهارة و العدل في الأفعال و القسط في الأقسام و غير ذلك، كما ذكر الشيخ في قوله:

و بين هؤلاء الولاة في الأفلاك مناسبات و رقائق تمتدّ إليهم من هؤلاء الولاة بالعدل مطهّرة من الشّوائب مقدّسة عن العيوب. هذا في هذا الباب.

فأمّا في الفصل الثالث من باب الواحد و السّبعون و ثلاثمائة، في بيان الفلك الأطلس و البروج ذكر و هو قوله «٣٨»:

اعلم أنّ اللّه خلق في جوف هذا الكرسي الّذي ذكرناه جسما شفّافا مستديرا قسّمه اثنى عشر قسما سمّى الأقسام بروجا و هي الّتي أقسم بها لنا في كتابه فقال تعالى:

وَ السَّمٰاءِ ذٰاتِ اَلْبُرُوجِ [سورة البروج: ١].

و أسكن كلّ برج منها ملكا هم لأهل الجنّة كالعناصر لأهل الدّنيا، فهم ما بين مائيّ و ترابيّ و هوائيّ و ناريّ، و عن هؤلاء يتكوّن في الجنّات ما يتكوّن، و يستحيل فيها ما يستحيل، و يفسد ما يفسد، أعني ينفسد بتغيّر نظامه إلى أمر آخر ما هو الفساد المذموم المستخبث، فهذا معنى يفسد فلا يتوهّم، و من هنا، قالت الإماميّة بالإثنى عشر إماما، فإنّ هؤلاء الملائكة أئمّة العالم الّذي تحت إحاطتهم و من كون هؤلاء الإثنى عشر لا يتغيّرون عن منازلهم، لذلك قالت الإماميّة بعصمة الأئمّة لكنّهم لا يشعرون أن الإمداد يأتي إليهم من هذا المكان و إذا سعدوا سرت أرواحهم في هذه

---

(٣٨) قوله: فأمّا في الفصل الثالث.

راجع الفتوحات المكيّة ج ٣، ص ٤٣٣. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٩٣

المعارج بعد الفصل و القضاء (النافذ بهم) لأنها إلى هذا الفلك تنتهي لا تتعدّاه فإنّها لم تعتقد سواه، فهم و ان كانوا اثنى عشر، فهم على أربع مراتب لأنّ العرش على أربع قوائم، و المنازل ثلاثة: دنيا و برزخ و آخرة (و) ما ثمّ رابع، و لكلّ منزل من هذه المنازل أربعة لا بدّ منهم لهم الحكم في أهل هذه المنازل، فإذا ضربت ثلاثة في أربعة كان الخارج من هذا الضرب اثنى عشر، فلذلك كانوا اثنى عشر برجا.

و هذا الباب و الفصل، فيهما أمثال، و لكن كثيرة و لا تعلّق لها بهذا المقام غير هذا.

و هذا البحث دالّة على صحّة ما قلناه في المقدّمة الأولى من فضيلة الأئمّة و تعدادهم في العدد المعيّن و غير ذلك، و إذا تقرّر هذا، و كان الغرض الأوّل من نقل هذه الأبواب بأسرها تحقيق العالم و ترتيبه بعد أن بيّناه مفصّلا و مجملا. فلنشرع في تعيين الملائكة و الجنّ، و كيفيّة إيجادهم، لأنّ ذلك أيضا من تماميّة ترتيب العالم و إيجاده، فبحث الملائكة قد سبق (سيأتي) بعضه في خطبة مولانا و سيّدنا أمير المؤمنين على عليه السّلام، و بعضه في هذا الباب، و الزّائد على ذلك توجد في مظانّه.

و أمّا بحث الجنّ فله باب آخر في تعيين تخليقهم و تركيبهم و كيفيّة صدورهم من العلويّات و السفليّات نذكره و نرجع إلى غيره، و الغرض الأعظم و الأحوج إلى تعيين الملك و الجنّ هو أنّ في نفس التأويل سيجيء ذكر آدم و حوّاء و الملائكة و الجنّ و إبليس و الشّيطان و السّجود و التّرك و ذلك المكان يحتاج إلى تعيينهم و تفصيلهم و يخرج البحث عن المقصد فهذا المكان أولى به لأنّا إذا وصلنا في التّأويل إلى هذا المكان أمرنا الطّالب أن يرجع إلى المقدّمات و إلى الموضع الفلاني و يظفر بمطلوبه، و هذا أنسب و أليق من ذكرهم في نفس التأويل، و الحمد للّه الّذي ألهمنا لهذا و هدانا إليه، و ما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه و اللّه يقول الحقّ و هو يهدي السّبيل.

و الباب المخصوص ببحث الجنّ و هو هذا:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٩٤

الباب التّاسع «٣٩» في معرفة وجود الأرواح المارجيّة النّاريّة، المعبّر عنهم بالجنّ في الكتاب و السّنّة

اعلم أنّ هذا الباب و إن كان مخصوصا ببحث الجنّ و بخلقتهم لكنّ يعلم فيه علوم جمّة و أسرار كثيرة غير متعلّقة ببحث الجنّ من بحث العالم و آدم و الملائكة و إبليس و غير ذلك.

و أوّل الباب قوله:

(في خلق الجان و الملائكة و الإنسان)

قال اللّه تعالى:

وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مٰارِجٍ مِنْ نٰارٍ [سورة الرحمن: ١٥].

و ورد في الحديث الصّحيح (٤٠):

---

(٣٩) قوله: الباب التاسع.

راجع الفتوحات المكيّة ج ١، ص ١٣١ (ط ق) و ج ٢، ص ٢٧٦ (ط ج).

(٤٠) قوله: ورد في الحديث الصحيح: إنّ اللّه خلق الملائكة من نور.

في صحيح مسلم ج ٤، كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة، الحديث ٦٠، ص ٢٢٩٤، بإسناده عن عائشة، قالت: قال رسول اللّه (ص): خلقت الملائكة من نور، و خلق الجانّ من مارج من نار، و خلق آدم ممّا وصف لكم.

و أخرجه أيضا ابن حنبل في مسنده ج ٦، ص ١٥٣، و ص ١٦٨.

و أخرجه السيوطي أيضا في تفسيره الدّر المنثور في سورة الرحمن ج ٧، ص ٦٩٥.

روى أيضا الشيخ المفيد (رض) في الاختصاص ص ١٠٩ باب القياس، عن أبي عبد اللّه-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٩٥

انّ اللّه خلق الملائكة من نور، و خلق الجانّ من نار، و خلق الإنسان ممّا قيل لكم.

قال: و أمّا قوله عليه السّلام في خلق الإنسان: مما قيل لكم، و لم يقل مثل ما قال في خلق الملائكة و الجانّ طلبا للاختصار، فإنّه «أوتي جوامع الكلم» و هذا منها، فان الملائكة لم يختلف أصل خلقها و لا الجانّ، و أمّا الإنسان اختلف خلقه على أربعة أنواع من الخلق: فخلق آدم لا يشبه خلق حواء، و خلق حواء لا يشبه خلق سائر بني آدم، و خلق عيسى عليه السّلام لا يشبه خلق من ذكرنا، فقصد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الاختصار، و أحال على ما وصل إلينا من تفصيل خلق الإنسان، فآدم من طين، و حواء من ضلع، و عيسى من نفخ روح، و بنو آدم من ما مهين (٤١).

- (ع) قال:

إنّ أوّل من قاس إبليس، فقال: خلقتني من نار و خلقته من طين، و لو علم إبليس ما جعل اللّه في آدم لم يفتخر عليه، ثمّ قال:

إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق الملائكة من نور، و خلق الجانّ من النّار و خلق صنفا من الجانّ من الريح و خلق صنفا من الجنّ من الماء، و خلق آدم من صفحة الطّين، ثمّ أجرى في آدم النّور و النّار و الرّيح و الماء، فبالنّور أبصر و عقل و فهم، و بالنار أكل و شرب ... إلخ.

و عنه المجلسي في البحار ج ١١، ص ١٠٢، الحديث ٨ و ج ٦١، ص ٣٠٦، الحديث ١٤، و ج ٥٩، ص ١٩١، الحديث ٤٨، و ج ٦٣، ص ٩٤، الحديث ٥٠.

(٤١) قوله: فآدم من طين، و حواء من ضلع، إلخ.

أمّا آدم من حيث هو بشر، فخلق من تراب، و من طين، و من نطفة، و من علق، و من مضغة، و إليك الآيات التّالية با ترتيب و التأمل فيها:

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [سورة الرّوم: ٣٠].

إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ [سورة ص: ٧١].

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ [سورة السجدة: ٧].

و إمّا بنو آدم:

أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ [سورة المرسلات: ٢٠].

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ [سورة الطارق: ٥- ٧].-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٩٦

- هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً [سورة الفرقان: ٥٤].

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ [سورة الإنسان: ٢].

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ [سورة العلق: ٢].

فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ [سورة الحجّ: ٥].

و أمّا آدم من حيث حقيقته الإنسانيّة، الّتي هي فصله الأخير و بها يمتاز من سائر الدوائب، فخلق (أي أصله) هو الرّوح المنفوخ، فانظر فتأمل في الآيات التالية بعد ما دقّقت في الآيات المذكورة، و هذه هي الآيات:

وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ.

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ.

ثُمَّ سَوّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ [سورة السجدة: ٩].

وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ [سورة الحجر: ٢٨- ٢٩].

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [سورة ص: ٧٥].

ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ [سورة المؤمنون: ١٤].

و أمّا عيسى عليه السّلام فخلق من نفخ الروح، قال تعالى:

وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ [سورة الأنبياء: ٩١].

و قال تعالى:

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ [سورة النساء: ١٧١].

و أمّا حواء زوج آدم فخلق من نفسه لقوله تعالى:

يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَ نِساءً [سورة النساء: ١].

و لقوله تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها [سورة الأعراف: ١٨٩].-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٩٧

- و أمّا قوله: و حوّاء من ضلع. هذا ما ورد في الأحاديث، نذكر بعض ما روى فيه:

أخرج البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب ٨٠ الحديث ١١٥، ج ٧، ص ٤٩، بإسناده عن النّبي (ص) قال: المرأة كالضّلع ان أقمتها كسرتها، و إن استمتعت بها استمتعت بها و فيها عوج.

و في صحيح مسلم ج ٢، ص ١٠٩، كتاب الرضاع، باب الوصيّة بالنساء، الحديث ١٤٦٥- ١٤٦٨:

إذا ذهبت تقيمها كسرتها و إن تركتها استمتعت بها.

و قريب منهما في سنن الدّارمي ج ٢، ص ١٩٩، باب مداراة الرجل أهله، الحديث ٢٢٢٢. و أيضا أخرج البخاري في ج ٤، ص ٥٨٧، كتاب الأنبياء، باب ٨٩٦ الحديث ١٤٨٩، بإسناده عن النّبي (ص) قال: استوصوا بالنساء، فإنّ المرأة خلقت من ضلع و إنّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته و إن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء.

و في سنن ابن ماجة ج ١، ص ١٧٥، كتاب الطهارة، باب ما جاء في بول الصبي، الحديث ٥٢٥، بإسناده عن النبيّ (ص) قال: إنّ اللّه لمّا خلق آدم خلقت حوّاء من ضلعه القصير.

و روى الكليني في الفروع من الكافي ج ٥، ص ٥١٣، باب مداراة الزوجة، بإسناده عن الصادق (ع)، عن رسول اللّه (ص) قال: إنّما مثل المرأة مثل الضلع المعوج إن تركته انتقمت به، و إن أقمته كسرته، قال الكليني: و في حديث آخر استمعت به.

و أيضا روى باسناده عن الصادق عليه السّلام قال: إنّ إبراهيم شكا إلى اللّه عزّ و جلّ ما يلقي من سوء خلق سارة، فأوحى اللّه تعالى إليه: إنّما مثل المرأة مثل الضلع المعوج، إن أقمته كسرته و إن تركته استمتعت به، اصبر عليها. و عنه المجلسي في البحار ج ١٢، ص ١١٦، ج ٥٠. و تفسير القمّي ج ١، ص ٦٠ في الآية:

وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰاهِيمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمٰاعِيلُ [البقرة: ١٢٧].

و عنه المجلسي في البحار ج ٩٩، ص ٣٦، الحديث ١٥.

و روى الصدوق في معاني الأخبار، باب معنى الصائم المفطر، ص ٣٠٥، ج ١، بإسناده عن أبي ذر عن رسول اللّه (ص) قال: إنّما المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها و فيها بلغة. و عنه-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٩٨

و لمّا أنشأ اللّه الأركان الأربعة و علا الدّخان إلى مقعّر فلك الكواكب الثابتة و فتق في ذلك الدّخان سبع سماوات ميّز بعضها عن بعض.

- في البحار ج ٩٧، ص ٩٩، الحديث ٢٢.

و روى العياشي في تفسيره في أول سورة النساء ج ١، ص ٢١٥، الحديث ٢، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) قال: خلقت حوّاء من قصيرا جنب آدم- و القصيرا هو الضلع الأصغر- و أبدل اللّه مكانه لحما.

و روى العياشي في تفسير سورة النساء ج ٧، ص ٢١٦، بإسناده عن الباقر (ع)، قال:

قال رسول اللّه (ص): انّ اللّه تبارك و تعالى قبض قبضة من طين فخلطها بيمينه- و كلتا يديه يمين- فخلق منها آدم، و فضلت فضلة من الطين فخلق منها حوّاء. عنه البحار ج ١١، ص ١١٦، الحديث ٤٦.

و روى الشيخ الطوسي في التهذيب، باب بدء النكاح و أصله، الحديث ١، ج ٣، ص ٢٣٩ (ط نجف)، بإسناده عن زرارة، عن الصادق (ع) قال: انّ اللّه تبارك و تعالى لمّا خلق آدم (ع) من طين و أمر الملائكة فسجدوا له ألقى عليه السبات، ثمّ ابتدع له حواء فجعلها في موضع النقرة التي بين وركيه، و ذلك لكي تكون المرأة تبعا للرّجل، و رواه الصدوق في العلل، باب علّة كيفية بدء النسل، الحديث ١.

و أيضا روى الصّدوق (ره) في العلل باب العلة التّي من أجلها فضل الرّجال على النساء ح ١، ص ٥١٢ عن أمير المؤمنين (ع)، عن رسول اللّه (ص) قال: خلق اللّه آدم من طين و من فضلته و بقيّته خلقت حوّاء.

و أيضا روى في العلل في باب النّوادر، الحديث ٣٣، ص ٤٧١، بإسناده عن النّبي (ص) قال: حين ما سئل عن بدء خلق حوّاء: (خلقت) من الطّينة الّتي فضلت من ضلعه الأيسر.

أقول: انظر فتأمّل أيّها القارئ الكريم في ترتيب ما نقلنا في الأحاديث الواردة في المقام، فإنّه يدلّ على ما اخترناه في الجمع بين الرّوايات المختلفة المضامين، فالأحاديث الأخيرة تفسّر ما ورد من الأحاديث في انّ حوّاء خلقت من ضلع آدم و معناه انّها خلقت من الطينة الّتي فضلت منه.

و الجدير بالذكر، أنّ الأحاديث الواردة في الضلع ناظرة إلى مسألة أخلاقيّة في مداراة الرّجل مع زوجته فتأمل، و اللّه هو العالم.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٩٩

وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا [سورة فصّلت: ١٢].

بعد ما قَدَّرَ فِيهٰا أَقْوٰاتَهٰا [سورة فصّلت: ١٠].

و ذلك كلّه في أربعة أيّام، ثمّ قال للسّماوات و الأرض:

ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً [سورة فصّلت: ١١].

أي أجيبا إذا دعيتما لما يراد منكما، ممّا أمّنتما عليه أن تبرزاه.

قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ [سورة فصّلت: ١١].

(جعل الالتحام بين السّماء و الأرض)

فجعل سبحانه بين السّماء و الأرض التحاما معنويّا، و توجها حقيقيّا لما يريد سبحانه أن يوجده في هذه الأرض من المولّدات من معدن و نبات و حيوان، و جعل الأرض كالأهل، و جعل السّماء كالبعل، و السّماء تلقي إلى الأرض من الأمر الّذي أوحي اللّه فيها كما يلقي الرّجل الماء بالجماع في المرأة، و تبرز الأرض عند الإلقاء ما خبأه الحقّ فيها من التكوينات على طبقاتها، فكان من ذلك أن الهواء لمّا اشتغل و حمى اتقد مثل السّراج و هو اشتغال النّار، ذلك اللهب الّذي هو احتراق الهواء و هو المارج و إنّما سمّي مارجا لأنّه مختلط بهواء و هو الهواء المشتعل فإنّ المرج الاختلاط و منه سمّي المرج مرجا لاختلاط النبات فيه فهو من عنصرين هواء و نار أعني الجانّ، كما كان آدم من عنصرين ماء و تراب، عجن به فحدث له اسم الطين، كما حدث لامتزاج النّار بالهواء اسم المارج ففتح سبحانه في ذلك المارج صورة الجانّ فبما فيه من الهواء يتشكّل في أي صورة شاء و بما فيه من النّار سخف و عظم لطفه و كان فيه طلب القهر و الاستكبار و العزّة، فإنّ النّار أرفع الأركان مكانا و له سلطان عظيم على إحالة الأشياء الّتي تقتضيها الطبيعة و هو السبب الموجب لكونه استكبر عن السّجود لآدم عند ما أمره اللّه عزّ و جلّ بتأويل أدّاه أن يقول:

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ [سورة ص: ٧٦].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٠٠

(في أنّ الأصل في الجانّ الاستكبار كما أنّ الأصل في الإنسان التواضع)

يعني بحكم الأصل الّذي فضّل اللّه به بين الأركان الأربعة، و ما علم أنّ سلطان الماء الّذي خلق منه آدم أقوى منه، فإنّه يذهبه و أن التّراب أثبت منه للبرد و اليبس فلآدم القوّة و الثبوت لغلبة الركنين اللّذين أوجده اللّه منهما، و إن كان فيه

بقيّة الأركان، و لكن ليس لها ذلك السّلطان و هو الهواء و النّار كما (كان) في الجانّ من بقيّة الأركان، و لذا سمّي مارجا و لكن ليس لها في نشأته ذلك السّلطان، و أعطى آدم التواضع للطّينيّة بالطبع فإن تكبّر فلأمر يعرض له، يقبله لما فيه من النّاريّة، كما يقبل اختلاف الصّور في خياله و في أحواله من الهوائيّة، و أعطى الجانّ التكبّر بالطبع للنّاريّة، فان تواضع فلأمر يعرض له يقبله لما فيه من التّرابيّة، كما يقبله الثبات على الإغواء إن كان شيطانا، و الثّبات على الطّاعات إن لم يكن شيطانا.

(حسن استماع الجانّ حين تلاوة النّبيّ سورة الرّحمن)

و قد أخبر النّبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لمّا تلى سورة الرّحمن على أصحابه قال:

إنّي تلوتها على الجنّ فكانوا أحسن استماعا لها منكم، فكانوا يقولون: لا بشيء من آلاء ربّنا نكذّب، إذا قلت: فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ [سورة الرّحمن] «٤٢».

ثابتين عليه ما تزلزلوا عند ما كان يقول لهم عليه السّلام في تلاوته: فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ.

---

(٤٢) قوله: و قد أخبر النّبيّ (ص).

رواه الطبرسي (ره) في تفسيره مجمع البيان سورة الأحقاف في الآية: **وَ إِذْ صَرَفْنٰا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ، و عنه المجلسي في البحار ج ١٨، ص ٧٨، و رواه أيضا في البحار ج ٦٣، ص ١١٧، الحديث ٩٤.**

و أخرجه أيضا السيوطي في تفسير الدّرّ المنثور في سورة الرّحمن ج ٧، ص ٦٩٠.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٠١

و ذلك بما فيه من الترابيّة، و بما فيه من المائيّة ذهبت بحميّة النّاريّة، فمنهم الطائع و العاصي.

(الجانّ و قبول الصّور المختلفة)

و لهم التشكّل في الصّور كالملائكة: و أخذ اللّه بأبصارنا عنهم فلا نراهم إلاّ إذا شاء اللّه أن يكشف لبعض عباده فيراهم، و لمّا كانوا من عالم السّخافة و اللّطف قبلوا التّشكيل فيما يريدونه من الصور الحسيّة، فالصّورة الأصلية الّتي ينسب إليها الرّوحاني إنّما هي أوّل صورة قبل عند ما أوجده اللّه، ثمّ تختلف عليه الصّور بحسب ما يريد اللّه أن يدخل فيها، و لو كشف اللّه عن أبصارنا حتّى نرى ما تصوره القوّة المصوّرة الّتي و كلّها اللّه بالتّصوير، في خيال المتخيّل منّا، لرأيت مع الآنات، الإنسان في صور مختلفة لا يشبه بعضها بعضا.

(التناسل في الجانّ و الإنسان)

و لمّا نفخ الرّوح في اللهب و هو كثير الاضطراب لسخافته زاده النّفخ اضطرابا و غلب الهواء عليه و عدم قراره على حالة واحدة ظهر عالم الجانّ على تلك الصّورة، و كما وقع التناسل في البشر بإلقاء الماء في الرّحم فكانت الذريّة و التوالد في هذا الصّنف البشري الآدمي، كذلك وقع التّناسل في الجانّ بإلقاء الهواء في رحم الأنثى منهم، فكانت الذّريّة و التوالد في صنف الجانّ، و كان وجودهم بالقوس و هو ناريّ، هكذا ذكر الوارد، حفظه اللّه.

فكان بين خلق الجانّ و خلق آدم ستّون ألف سنة، و كان ينبغي على ما يزعم بعض النّاس أن ينقطع التوالد من الجانّ بعد

انقضاء أربعة آلاف سنة، و ينقضي التوالد من البشر بعد انقضاء سبعة آلاف سنة و لم يقع الأمر على ذلك، بل الأمر راجع إلى ما يريده اللّه، فالتّوالد في الجنّ إلى اليوم باق، و كذلك فينا، (فلم يتحقّق مبدأ آدم كم له من السنين) فتحقّق بهذا كم لآدم من السّنين؟ و كم بقي إلى انقضاء الدّنيا و فناء البشر عن

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۰۲

ظهرها و انقلابهم إلى الدّار الآخرة؟، و ليس هذا بمذهب الرّاسخين في العلم، و إنّما قال به شرذمه قليلا لا يعتدّ بقولها. فالملائكة أرواح منفوخة في أنوار، و الجانّ أرواح منفوخة في رياح، و الأناسي أرواح منفوخة في أشباح و يقال: إنّه لم يفصل عن الموجود الأول من الجانّ أنثى، كما فصلت حواء من آدم، قال بعضهم: أنّ اللّه خلق للموجود (الأوّل) من الجانّ فرجا في نفسه، فنكح بعضه ببعضه فولد مثل ذريّة آدم، ذكرانا و إناثا، ثمّ نكح بعضهم بعضا فكان خلقه خنثى، و لذلك هم من عالم البرزخ، لهم شبه بالبشر و شبه بالملائكة، كالخنثى يشبه الذّكر و يشبه الأنثى، و قد روينا (فيما رويناه) من الأخبار عن بعض أئمة الدّين أنّه رأى رجلا و معه ولدان، و كان خنثى، الواحد من ظهره و الآخر من بطنه، نكح فولد له، و نكح فولد «۴۳»، و سمّي خنثى من الانخناث و هو الاسترخاء و الرّخاوة،

---

(۴۳) قوله: نكح فولد له، و نكح فولد.

روى الشيخ الجليل المفيد في الإرشاد ص ۱۱۴، و في مصنّفات الشيخ المفيد ج ۱۱، ص ۲۱۳، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: بينا شريح في مجلس القضاء إذ جاءه شخص فقال: يا أبا أميّة أخلني فإنّ لي حاجة، قال: فأمر من حوله أن يخفّوا عنه، فانصرفوا و بقي خاصّة من حضر، فقال له: اذكر حاجتك، فقال: يا أبا أميّة إنّ لي ما للرجال و ما للنساء، فما الحكم عندك فيّ، أرجل أنا أم امرأة؟ فقال له: قد سمعت من أمير المؤمنين عليه السّلام في ذلك قضيّة أنا أذكرها، خبّرني عن البول من أيّ الفرجين يخرج؟ قال الشخص: من كليهما، قال: فمن أيّهما ينقطع؟ قال منهما معا، فتعجّب شريح، فقال الشخص: سأورد عليك من أمري ما هو أعجب، قال شريح: و ما ذاك؟ زوّجني أبي على أنّني امرأة فحملت من الزّوج، و ابتعت جارية تخدمني فأقضيت إليها فحملت منّي. قال: فضرب شريح إحدى يديه على الأخرى متعجّبا و قال: هذا أمر لا بدّ من إنهائه إلى أمير المؤمنين عليه السّلام، فلا علم لي بالحكم فيه. الحديث، فراجع.

و رواه أيضا الصدوق في الفقيه ج ۴، ص ۲۳۹، الحديث ۷۶۲، باب ميراث الخنثى، الحديث ۴، و الشيخ الطوسي (ره) في التهذيب ج ۹، ص ۳۵۴ ح ۱۲۷۱ باب ميراث الخنثى الحديث ۵، و المغربي في دعائم الإسلام ج ۲، ص ۳۸۷، الحديث ۱۳۷۷، و الخوارزمي في المناقب ص ۱۰۱، الحديث ۱۰۵.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۰۳

عدم القوّة و الشدّة، (فلم تقو فيه قوّة الذكوريّة فيكون ذكرا)، و لم تقو فيه قوّة الأنوثة فيكون أنثى، فاسترخى عن هاتين القوّتين فسمّي خنثى و اللّه أعلم.

(غذاء الجان و نكاحهم)

و لمّا غلب على الجانّ عنصر الهواء و النّار، لذلك كان غذاؤهم ما يحمله الهواء ممّا في العظام من الدّسم، فإنّ اللّه جاعل لهم فيها رزقا، فانّا نشاهد جوهر العظم و ما يحمله من اللحم لا ينتقص منه شيء فعلمنا قطعا انّ اللّه جاعل لهم فيها

رزقا، قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في العظام «٤٤»:

إنها زاد إخوانكم من الجنّ.

و في حديث.

إنّ اللّه جاعل لهم فيها رزقا «٤٥».

و أخبرني بعض المكاشفين أنّه رأى الجنّ يأتون إلى العظم فيشمونه كما تشمّ السّباع

---

(٤٤) و (٤٥) قوله: قال النّبي (ص) في العظام.

فروع الكافي ج ٦، باب نهك العظام، ص ٣٢٢:

عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن أبي عبد اللّه، عن محمّد بن عليّ، عن محمّد بن الهيثم، عن أبيه قال: صنع لنا أبو حمزة طعاما و نحن جماعة، فلمّا حضرنا رأى رجلا ينهك عظما، فصاح به فقال: لا تفعل فإنّي سمعت علي بن الحسين عليه السّلام يقول:

«لا تنهكوا العظام، فإنّ فيها للجنّ نصيبا، و إن فعلتم ذهب من البيت ما هو خير من ذلك».

و في صحيح الترمذي ج ١، أبواب الطهارة، باب ١٤، الحديث ١٨، بإسناده عن عبد اللّه ابن مسعود قال: قال رسول اللّه (ص):

«لا تستنجوا بالرّوث و لا بالعظام فإنّه زاد إخوانكم من الجنّ».

و في صحيح البخاري باسناده عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللّه (ص):

«هما- العظم و الروثة- من صحام الجنّ» الحديث. ج ١، كتاب مناقب الأنصار، باب ٩٤، الحديث ٣٦٦.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٠٤

ثمّ يرجعون و قد أخذوا رزقهم، و غذاؤهم في ذلك الشمّ، فسبحان اللطيف الخبير.

و أمّا و اجتماع بعضهم ببعض عند النّكاح فالتواء، مثل ما تبصر الدّخان الخارج من الأتّون أو من قرب الفخّار، يدخل بعضه في بعض فيلتذ كلّ واحد من الشخصين بذلك التداخل، و يكون ما يلقونه كلقاح النخلة بمجرّد الرّائحة كغذائهم سواء.

(قبائل الجان و عشائرهم)

و هم قبائل و عشائر، و قد ذكر أنهم محصورون في اثنتي عشرة قبيلة أصولا، ثمّ يتفرعون إلى أفخاذ و تقع بينهم حروب عظيمة، و بعض الزوابع قد يكون عين حربهم (٤٦)، فإنّ الزّوبعة تقابل ريحين تمنع واحدة صاحبتها أن تخترقها فيؤدّي ذلك المنع

---

(٤٦) قوله: و بعض الزوابع قد يكون عين حربهم.

انظر الحديث التالي تجد فيه ما يدل على ما قال به الماتن من انّ فيهم (الجنّ) توجد قبائل، و توجد بينهم الحرب أحيانا، و أنّ بعض الزوابع نفس حربهم:

روى السيّد ابن طاوس في كتاب: «اليقين في إمرة أمير المؤمنين»، الباب ٩٠، ص ٦٨، بإسناده عن أبي سعيد الخدريّ قال: كان النّبيّ (ص) ذات يوم جالسا بالأبطح و عنده جماعة من أصحابه و هو مقبل علينا بالحديث إذ نظر إلى زوبعة قد ارتفعت، فأثارت الغبار و ما زالت تدنو و الغبار تعلو إلى أن وقعت بحذاء النبيّ (ص) فسلّم على رسول (ص) شخص فيها، ثمّ قال: يا رسول اللّه إنّي وافد و قومي، و قد استجرنا بك فأجرنا و ابعث معي من قبلك من يشرف على قومنا، فإنّ بعضهم قد بغوا علينا، ليحكم بيننا و بينهم بحكم اللّه و كتابه، و خذ عليّ العهود و المواثيق المؤكّدة أنّي أردّه إليك سالما في غداة إلاّ أن يحدث عليّ حادثة من قبل اللّه، فقال (له) النبيّ (ص): من أنت و من قومك؟ قال: أنا عرفطة بن شمراخ (سمراخ) أحد بني كاخ من الجنّ المؤمنين، أنا و جماعة من أهلي كنّا نسترق السمع، فلمّا منعنا ذلك و بعثك اللّه نبيّا آمنّا بك و صدّقنا قولك، و قد خالفنا بعض القوم المؤمنين و بعضهم و أقاموا على ما كانوا عليه، فوقع بيننا و بينهم الخلاف، و هم أكثر منّا عددا و قوّة، و قد غلبوا على الماء و المراعي و أضرّوا بنا و بدوابّنا، فابعث معي من يحكم بيننا بالحقّ، ... ثمّ إنّ النبيّ (ص) أخذ عليه العهد و الميثاق على أن يردّ عليه في غد من-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٠٥

إلى الدور المشهود في الغبرة في الحسّ، الّتي أثارها تقابل الرّيحين المتضادّين، فمثل ذلك يكون حربهم، و ما كلّ زوبعة حربهم، و حديث (قصة) عمرو الجنّي، مشهورة مرويّة، و قتله في الزّوبعة الّتي أبصرت فانقشعت عنه و هو على الموت فما لبث أن مات، و كان عبدا صالحا من الجانّ (٤٧).

- يبعث معه به.

فلمّا فرغ من ذلك التفت إلى أبي بكر و قال: سر مع أخينا عرفطة و تشرّف على قومه و تنظر إلى ما هم عليه فاحكم بينهم بالحقّ، فقال يا رسول اللّه و أين هم؟ قال: هم تحت الأرض، فقال أبو بكر: و كيف أطيق النّزول في الأرض؟ و كيف أحكم بينهم و لا احسن كلامهم؟ فالتفت إلى عمر بن الخطّاب و قال له مثل قوله لأبي بكر، فأجاب بمثل جواب أبي بكر، ثمّ استدعى بعليّ (ع) و قال له: يا عليّ سر مع أخينا عرفطة و تشرّف على قومه و تنظّر إلى ما هم عليه و تحكّم بينهم بالحقّ، فقام عليّ (ع) مع عرفطة و قد تقلّد سيفه، و تبعه أبو سعيد الخدري و سلمان الفارسيّ، قالا: نحن أتبعناهما إلى أن صاروا إلى واد، فلمّا توسّطاه نظر إلينا عليّ (ع) فقال: قد شكر اللّه تعالى سعيكما فارجعوا فقمنا ننظر إليهما، فانشقّت الأرض و دخلا فيها و عادت إلى ما كانت. الحديث، فراجع.

نقله أيضا عن السيّد، بحار الأنوار ج ٣٩، ص ١٦٨، الحديث ٩، و في ج ١٨، ص ٨٦، الحديث ٤، نقله عن كتاب عيون المعجزات للشيخ حسين بن عبد الوهاب ص ٤٣، بإسناده عن سلمان.

(٤٧) قوله: و حديث عمرو الجنّي مشهورة مرويّة.

أحمد بن حنبل باسناده عن صفوان بن المعطل قال: خرجنا حجاجا فلمّا كنّا بالعرج إذا نحن بحيّة تضطرب، فلم تلبث أن ماتت، فاخرج لها رجل منّا خرقة من عيبة، فلفها فيها و دفنها و خدّ لها في الأرض، فلمّا أتينا مكّة فإنّا لبالمسجد الحرام. إذ وقف علينا شخص فقال: أيّكم صاحب عمرو بن جابر؟ قلنا ما نعرفه، قال: أيّكم صاحب الجانّ؟ قالوا هذا، قال أما انّه جزاك اللّه خيرا، أمّا إنّه قد كان من آخر التسعة موتا الّذين أتوا رسول اللّه (ص) يستمعون القرآن، راجع الفتح الربّاني ج ٢، ص ٢٧، الحديث ٨٤.

و أخرجه أيضا الحاكم في المستدرك ج ٣، ص ٥١٩، كتاب معرفة الصّحابة في ذكر صفوان بن المعطل، بإسناده عنه.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٠٦

- و أخرجه أيضا السيوطي في تفسيره الدرّ المنثور في سورة الأحقاف ج ٧، ص ٤٥٣.

و روى الطبرسي في كتابه الإحتجاج، (باب احتجاج أمير المؤمنين (ع) على اليهود، ج ١، ص ٣١٤)، عن الإمام موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليهم السّلام قال: إن يهوديّا من يهود الشام جاء إلى مجلس فيه أصحاب رسول اللّه (ص) و فيهم علي بن أبي طالب، ابن عباس، و ابن مسعود، أبو سعيد الجهنيّ، فقال: يا أمّة محمّد ما تركتم لنبيّ درجة، و لا لمرسل فضيلة إلاّ انحلتموها نبيّكم، فهل تجيبوني عمّا أسألكم عنه، فكاع القوم عنه، فقال علي بن أبي طالب عليه السّلام: نعم ما أعطى اللّه نبيّا درجة، و لا مرسلا فضيلة، إلاّ و قد جمعها لمحمّد (ص) و زاد محمّدا على الأنبياء أضعافا مضاعفة ...

إلى أن قال: قال اليهودي: فان هذا سليمان سخرت له الشياطين، يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل؟ قال له علي (ع): لقد كان كذلك، و لقد أعطي محمّد (ص) أفضل من هذا، إنّ الشياطين سخرت لسليمان و هي مقيمة على كفرها، و لقد سخرت لنبوة محمّد (ص) الشياطين بالإيمان، فاقبل إليه من الجنّة التسعة من أشرافهم، واحد من جنّ نصيبين، و الثمان من بني عمرو بن عامر بن الأحجّة، منهم شضاه، و مضاه، و الهملكان، و المرزبان، و المازمان، و نضاه، و هاضب، و هضب، و عمرو، و هم الّذين يقول اللّه تبارك اسمه فيهم:

وَ إِذْ صَرَفْنٰا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ [الأحقاف: ٢٩].

و هم التسعة، الحديث فراجع، عنه البحار ج ١٧، ص ٢٧٣، الحديث ٧.

و روى الكليني (ره) في الأصول الكافي ج ١، ص ٣٩٦، الحديث ٦، بإسناده عن جابر عن الباقر (ع) قال: بينا أمير المؤمنين (ع) على المنبر إذ أقبل ثعبان من ناحية باب من أبواب المسجد، فهمّ الناس أن يقتلوه، فارسل أمير المؤمنين (ع) أن كفّوا، فكفّوا، و أقبل الثعبان ينساب حتّى انتهى إلى المنبر فتطاول فسلّم على أمير المؤمنين (ع) فأشار أمير المؤمنين (ع) إليه أن يقف حتّى يفرغ من خطبته، و لمّا فرغ من خطبته أقبل عليه فقال:

من أنت؟ فقال: عمرو بن عثمان خليفتك على الجنّ، و إنّ أبي مات و أوصاني أن آتيك، فأستطلع رأيك، و قد أتيتك يا أمير المؤمنين فما تأمرني به و ما ترى؟ فقال له أمير المؤمنين (ع): أوصيك بتقوى اللّه و أن تنصرف فتقوم مقام أبيك في الجنّ، فإنّك خليفتي عليهم، قال: فودّع عمرو أمير المؤمنين و انصرف فهو خليفته على الجنّ، فقلت له: جعلت فداك فيأتيك عمرو، و ذاك الواجب عليه؟ قال: نعم.- [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٠٧

(تشكّل العالم الروحاني و نشأة عالم الجانّ)

ثمّ نرجع و نقول: و ان هذا العالم الرّوحاني إذا تشكل و ظهر في صورة حسّية يقيّده البصر بحيث لا يقدر أن يخرج عن تلك الصّورة مادام البصر ينظر إليه بالخاصيّة، و لكن من الإنسان، فإذا قيده و لم يبرح (ناظرا) إليه و ليس له موضع يتوارى فيه أظهر له هذا الرّوحاني صورة جعلها عليه كالستر، ثمّ يخيل له مشي تلك الصّورة إلى جهة مخصوصة فيتبعها بصره فإذا أتبعها بصره خرج الرّوحاني عن تقييده، فغاب عنه و بمغيبه تزول تلك الصّورة عن نظر النّاظر الّذي أتبعها بصره، فإنّها للرّوحاني كالنّور مع السّراج المنتشر في الزّوايا نوره، فإذا غاب جسم السّراج فقد ذلك النّور، فهكذا هذه

الصّورة، فمن يعرف هذا و يحبّ تقييده لا يتبع الصورة بصره، و هذا من الأسرار الإلهيّة الّتي لا تعرف إلاّ بتعريف اللّه، و ليست الصّورة غير عين الرّوحاني، بل هي عينه و لو كانت في ألف مكان، أو في كلّ مكان و مختلفة الأشكال.

(كيفيّة الموت في عالم الروحاني)

و إذا اتّفق قتل صورة من تلك الصّورة و ماتت في (ظاهر) هذا الأمر انتقل ذلك الرّوحاني من الحياة الدّنيا إلى البرزخ، كما ننتقل نحن بالموت و لا يبقى له في عالم الدّنيا حديث مثلنا سواء، و تسمّى تلك الصّورة المحسوسة الّتي تظهر فيها الروحانيّات أجسادا، و هو قوله تعالى:

وَ أَلْقَيْنا عَلىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً [سورة ص: ٣٤].

و قوله:

وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لاٰ يَأْكُلُونَ الطَّعٰامَ [سورة الأنبياء: ٨].

و الفرق بين الجانّ و الملائكة و إن اشتركوا في الرّوحانيّة انّ الجانّ غذاؤهم ما تحمله الأجسام الطّبيعيّة من المطاعم، و الملائكة ليست كذلك، و لهذا ذكر اللّه في قصّة ضيف

- أوردنا هذا الحديث لما فيه من دلالة واضحة على دوام بقاء الجنّ و تديّنهم و اتّباعهم الأئمّة (ع)، و معلوم أنّ عمرو المذكور في هذا الحديث غير عمرو الّذي هو من التسعة.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٠٨

إبراهيم الخليل:

فَلَمّٰا رَأىٰ أَيْدِيَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ [سورة هود: ٧٠].

يعني إلى العجل الحنيذ، أي لا يأكلون منه و خاف!.

و حين جاء وقت إنشاء عالم الجانّ، توجّه من الأمناء الّذين في الفلك الأوّل من الملائكة ثلاثة، ثمّ أخذوا من نوّابهم من السّماء الثانية ما يحتاجون إليه منهم في هذا النشأ، ثمّ نزلوا إلى السّماوات فأخذوا من النّواب إثنين، من السّماء الثّانية و السّادسة من هناك، و نزلوا إلى الأركان، فهيئوا المحل و اتّبعهم ثلاثة أخر من الأمناء و أخذوا من الثّانية ما يحتاجون من نوّابهم، ثمّ نزلوا إلى السّماء الثالثة و الخامسة من هناك فأخذوا ملكين، و مرّوا بالسّماء السّادسة فأخذوا نائبا آخر من الملائكة، و نزلوا إلى الأركان ليكملوا التّسويه فنزلت السّتة الباقية و أخذت ما بقي من النّواب في السّماء الثانية و في السّماوات، فاجتمع الكلّ على تسوية هذه النّشأة بإذن العليم الحكيم.

فلمّا تمّت نشأته و استقامت بنيته توجّه الرّوح من عالم الأمر فنفخ في تلك الصّورة روحا سرت فيه بوجودها الحياة، فقام ناطقا بالحمد و الثّناء لمن أوجده جبلّة جبل عليها و في نفسه عزة و عظمة لا يعرف سببها و لا على من يعتزّ (بها)، إذ لم يكن ثمّ مخلوق آخر من عالم الطّبائع سواه، فبقي عابدا لربّه مصرّا على عزّته متواضعا لربوبيّة موجده لما يعرض له ممّا هو عليه في نشأته إلى أن خلق آدم، فلمّا رأى الجانّ صورته غلب على واحد منهم اسمه الحادث بعض تلك النشأة و تجهّم وجهه لرؤية تلك الصورة الآدميّة، و ظهر تلك منه لجنسه فعاتبوه لذلك لما رأوه عليه من الغم و الحزن

لها، فلمّا كان من أمر آدم ما كان أظهر الحارث ما كان يجد في نفسه منه و أبى عن امتثال أمر خالقه بالسّجود لآدم، و استكبر على آدم بنشأته و افتخر بأصله و غاب عنه سرّ قوّة الماء الّذي جعل منه كلّ شيء حيّ، و منه كانت حياة الجان و هم لا يشعرون.

(في تشكّل نشأة الإنسان و خلقته)

و تأمّل إن كنت من أهل الفهم قوله تعالى:

وَ كٰانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمٰاءِ [سورة هود: ٧].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۱۰۹

فحيي العرش، و ما حوى عليه من المخلوقات:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ [سورة الإسراء: ٤٤].

فجاء بالنكرة و لا يسبح إلاّ حيّ، و ورد في الحديث الحسن عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«إنّ الملائكة قالت: يا ربّ! (في حديث طويل) هل خلقت شيئا أشدّ من النّار؟

قال: نعم، الماء» (٤٨).

---

(٤٨) قوله: هل خلقت شيئا أشدّ من النّار؟

رواه الترمذي في (الجامع الصّحيح) ج ٥، كتاب تفسير القرآن، باب ٩٦، الحديث ٣٣٦٩، و أيضا أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٣، ص ١٢٤، و الجزري في (جامع الأصول) ج ٦، ص ٤٤٦، الحديث ٤٦٤٦. بإسنادهم عن رسول اللّه (ص) قال: «لمّا خلق اللّه الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فعاد بها عليها فاستقرّت، فتعجّبت الملائكة من شدّة الجبال، فقالوا: يا ربّ هل من خلقك شيء أشدّ من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا:

يا ربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد؟ قال: نعم النّار، فقالوا: يا ربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من النّار؟ قال: نعم الماء، قالوا: يا ربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من الماء؟ قال: نعم الرّيح، قالوا: يا ربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من الرّيح؟ قال: نعم ابن آدم، تصدّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله.

هناك روايات أخرى وردت في الموضوع عن طريق أهل البيت (ع) و لا بأس بذكر طرف منها مزيدا للفائدة و الاستفادة.

روى ابن شعبة في تحف العقول، باب (حكمه و كلامه (ص)) في ما أجاب (ص) عن مسائل شمعون بن لاوي بن يهود أمين حواريّ عيسى (ع) (الحديث طويل، منه قال (ص):

يا شمعون خالط الأبرار و اتّبع النبيّين: يعقوب و يوسف و داود، إنّ اللّه تبارك و تعالى لمّا خلق السفلى فخرت و زخرت و قالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الأرض فسطّحها على ظهرها، فذلّت، ثمّ إنّ الأرض فخرت و قالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق اللّه الجبال، فأثبتها على ظهرها أوتادا من أن تميد بما عليها، فذلّت الأرض و استقرّت، ثمّ إنّ الجبال فخرت على الأرض فشمخت و استطاعت و قالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الحديد فقطعها فذلّت،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۱۱۰

فجعل الماء أقوى من النّار، فلو كان عنصر الهواء في نشأة الجانّ غير مشتعل بالنّار لكان الجانّ أقوى من بني آدم، فإنّ الهواء أقوى من الماء، فإنّ الملائكة قالت في هذا الحديث:

«يا ربّ! فهل خلقت شيئا أشدّ من الماء؟ قال: نعم الهواء.

ثمّ قالت:

«يا ربّ! فهل خلقت شيئا أشدّ من الهواء؟ قال: نعم، ابن آدم»، الحديث.

- ثمّ إنّ الحديد فخر على الجبال و قال: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق النار فأذابت الحديد، فذلّ الحديد، ثمّ إنّ النار زفرت و شهقت و فخرت و قالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الماء فأطفأها فذلّت، ثمّ إنّ الماء فخر و زخر و قال: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الريح، فحرّكت أمواجه و أثارت ما في قعره و حبسته عن مجاريه، فذلّ الماء، ثمّ إنّ الريح فخرت و عصفت و قالت: أيّ شيء يغلبني؟ فخلق الإنسان فبنى و احتال ما يستتر به من الريح و غيرها فذلّت الريح، ثمّ إنّ الإنسان طغى و قال: من أشدّ منّي قوّة، فخلق الموت فقهره فذلّ الإنسان، ثمّ إنّ الموت فخر في نفسه فقال اللّه عزّ و جلّ: لا تفخر فإنّي ذابحك بين الفريقين:

أهل الجنّة و أهل النّار، ثمّ لا أحييك أبدا فخاف، ثمّ قال: و الحلم يغلب الغضب، و الرحمة تغلب السخط و الصّدقة تغلب الخطيئة.

و قريب منه رواه الكليني في (الروضة) ص ١٤٨، الحديث ١٢٩، و أيضا قريب منه رواه الصدوق في الخصال باب العشرة ص ٤٤٢، الحديث ٣٤. و الحديث ٣٣، ص ٤٤٠.

و أيضا قريب منه روى صاحب تفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) في قوله تعالى:

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً [البقرة: ٢٢]، ص ١٤٤، الحديث ٧٣.

و روى الثقفي في (الغارات)، ص ١٠٦، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) في جواب ابن الكوّاء حين ما سأله: أيّ خلق اللّه أشدّ؟

قال عليه السّلام: إنّ أشدّ خلق اللّه عشرة: الجبال و الرّواسي، و الحديد تنحت به الجبال، و النار تأكل الحديد، و الماء يطفئ النار، و السّحاب المسخّر بين السماء و الأرض يحمل الماء، و الرّيح تقلّ السحاب، و الإنسان يغلب الريح، يتّقيها بيديه و يذهب لحاجته، و السّكر يغلب الإنسان، و النوم يغلب السّكر، و الهمّ يغلب النوم، فأشدّ خلق ربّك الهمّ.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١١١

(قوّة العقل في الإنسان و ضعفه في الجانّ)

فجعل النشأة الإنسانيّة أقوى من الهواء، و جعل الماء أقوى من النّار، و هو العنصر الأعظم في الإنسان، كما أنّ النّار العنصر الأعظم في الجانّ، و لهذا قال في الشيطان:

إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً [سورة النّساء: ٧٦].

فلم ينسب إليه من القوّة شيئا، و لم يردّ على العزيز في قوله:

إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ [سورة يوسف: ٢٨].

و لا أكذبه مع ضعف عقل المرأة عن عقل الرّجل، «فانّ النّساء ناقصات عقل (و دين)»، (٤٩)، فما ظنّك بقوّة الرّجل؟.

(٤٩) قوله: فانّ النّساء ناقصات عقل و دين.

أخرج مسلم في صحيفة «كتاب الإيمان باب (٣٤) نقصان الإيمان، ج ١، ص ٨٦ الحديث (٧٩- ١٣٢)، بإسناده عن عبد اللّه بن عمر، عن رسول اللّه (ص) أنّه قال:

يا معشر النّساء! تصدّقن و أكثرن الاستغفار، فإنّي رأيتكنّ أكثر أهل النّار، فقالت امرأة منهنّ جزلة: و مالنا يا رسول اللّه أكثر أهل النار، قال: تكثرن اللعن، و تكفرن العشير، و ما رأيت من ناقصات عقل و دين أغلب لذي لبّ منكنّ، قالت: يا رسول اللّه و ما نقصان العقل و الدّين؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، و تمكّث الليالي ما تصلّي، و تفطر في رمضان، فهذا نقصان الدّين.

و أخرجه البخاري بإسناده عن أبي سعيد الخدريّ كتاب الحيض باب ترك الحايض الصّوم ح ٢٩٣، ج ١، ص ١٩٣. و أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن عمران، ج ٢، ص ٦٦، و ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة النساء، الحديث ٢، ص ١٣٢٦، الحديث ٤٠٠٣. و أبي داود ج ٤، باب الدليل على زيادة الإيمان و نقصانه، الحديث ٤٦٧٩، ص ٢١٩. و الدّارمي ج ١، باب الحائض تسمع السجدة و لا تسجد، الحديث ١٠٠٧، ص ٢٥٤. و الترمذي بإسناده عن أبي هريرة ج ٥، كتاب الإيمان، باب ٦، الحديث ٢٦١٣، ص ١٠.

و في تفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) ص ٦٥٦، قال أمير المؤمنين (ع): كنّا نحن مع رسول اللّه (ص) و هو يذاكرنا بقوله تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١١٢

و سبب ذلك أن النشأة الإنسانيّة تعطي التوءدة في الأمور و الأناة و الفكر و التّدبير لغلبة العنصرين: الماء و التّراب، على مزاجه فيكون وافر العقل، لأنّ التّراب يثبّطه و يمسكه، و الماء يليّنه و يسهّله، و الجانّ ليس كذلك، فإنّه ليس لعقله ما يمسكه عليه ذلك الإمساك الّذي للإنسان، و لهذا يقال: فلان خفيف العقل، و سخيف العقل، إذا كان ضعيف الرأي في الأمور، و هذا هو نعت الجانّ، و به ضلّ عن طريق الهدى لخفة عقله و عدم تثبته في نظره، فقال:

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ [سورة الأعراف: ١٢].

- وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ.

إذ جاءت امرأة فوقفت قبالة رسول اللّه (ص) و قالت: بأبي أنت و أمّي يا رسول اللّه أنا وافدة النساء إليك، ما من امرأة يبلغها مسيري هذا إليك إلّا سرّها ذلك، يا رسول اللّه، إنّ اللّه عزّ و جلّ ربّ الرّجال و النساء، و خالق الرّجال و النساء، و إنّك رسول اللّه إلى الرجال و النساء، فما بال امرأتين برجل في الشهادة و الميراث؟ فقال رسول اللّه (ص) يا أيّتها المرأة إنّ ذلك قضاء من ملك عدل حكيم لا يجوز، و لا يحيف و لا يتحامل، لا ينفعه ما منعكنّ، يدبّر الأمر بعلمه، يا أيّتها المرأة لأنّكنّ ناقصات الدّين و العقل، قالت: يا رسول اللّه (ص) و ما نقصان ديننا؟ قال: إنّ إحداكنّ تقعد نصف دهرها لا تصلّى بحيضة (عن الصّلاة للّه)، و إنّكنّ تكثرن اللعن، و تكفرن النعمة (العشير) (العشيرة)، تمكث إحداكنّ عند الرّجل عشر سنين فصاعدا يحسن إليها و ينعم عليها فإذا ضاقت يده يوما أو خاصمها قالت له: ما رأيت فيك خيرا قطّ، فمن لم يكن من النساء هذا خلقها فالّذي يصيبها منها النقصان محنة عليها لتصبر فيعظم اللّه ثوابها، فابشري.

عنه البحار ج ١٠٤، ص ٣٠٤، الحديث ١٠.

و قال علي (ع) (نهج البلاغة صبحي صالح خ ٨٠):

معاشر النّاس! إنّ النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول، فأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصّلاة و الصّيام في أيّام حيضهنّ، و أمّا نقصان عقولهنّ فشهادة امرأتين كشهادة الرّجل الواحد، و أمّا نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرّجال.

عنه المجلسي في البحار ج ٣٢، ص ٢٤٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١١٣

فجمع بين الجهل و سوء الأدب، لخفته.

(أوّل من سمّي شيطانا كان من الجنّ)

فمن عصى من الجانّ كان شيطانا أي معبودا من رحمة اللّه و كان أوّل من سمّي شيطانا من الجنّ الحارث، فأبلسه اللّه أي طرده من رحمته، و طرد الرّحمة عنه، و منه تفرعت الشياطين بأجمعها، فمن آمن منهم مثل هامّة بن الهام بن لا قيس بن إبليس، التحق بالمؤمنين من الجنّ، و من بقي على كفره كان شيطانا. و هي مسألة خلاف بين علماء الشّريعة، فقال بعضهم إنّ الشّيطان لا يسلم أبدا، و تأوّل قوله عليه السّلام في شيطانه و هو القرين الموكل به: إن اللّه أعانه عليه فأسلم «٥٠».

روى برفع الميم و فتحها أيضا، فتأوّل هذا القائل الرّفع بأنّه قال: فأسلم منه، أي ليس له عليّ سبيل، و هكذا تأوّله المخالف، و تأول الفتح فيه على الانقياد، قال: فمعناه انقاد مع كونه عدوا، فهو بعينه لا يأمرني إلّا بخير، خيرا من اللّه و عصمة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، و قال المخالف معنى فأسلم بالفتح أي آمن باللّه كما يسلم الكافر عندنا فيرجع مؤمنا، و هو الأولى و الأوجه.

---

(٥٠) قوله: إنّ اللّه أعانه عليه فأسلم.

أخرج ابن حنبل في مسنده ج ١، ص ٢٥٧، بإسناده عن ابن عباس عن رسول اللّه (ص) قال: ليس منكم من أحد إلّا و قد و كل به قرينه من الشياطين، قالوا: و أنت يا رسول اللّه، قال: نعم و لكن اللّه أعانني عليه فأسلم.

و أخرجه أيضا كنز العمّال ج ١، ص ٢٥٣، الحديث ١٢٧٥.

و في حديث آخر (١٢٧٦) فلا يأمرني إلّا بخير.

و في كشف الغمّة ج ٢، ص ٧٨ نقلا عن الجنابذي الحنبلي في كتابه معالم العشرة، مرسلا عن آدم (ع) قال:

إنّي لسيّد البشر يوم القيامة إلّا رجل من ذريّتي، نبيّ من الأنبياء يقال له: أحمد (ص) فضل عليّ باثنتين: زوجته عاونته و كانت له عونا، و كانت زوجتي عليّ عونا، و أنّ اللّه أعانه على شيطانه فأسلم و كفر شيطاني.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١١٤

(أوّل الأشقياء من الجنّ هو إبليس)

و أكثر النّاس يزعمون أنّه أوّل الجنّ و هو بمنزلة آدم من النّاس، و ليس كذلك عندنا، بل هو واحد من الجنّ، و انّ الأوّل

فيهم الّذي بمنزلة آدم من البشر إنّما هو غيره، و لذلك قال تعالى:

(إِلاَّ إِبْلِيس َ كَان َ مِن َ الْجِنِّ [سورة الكهف: ۵۰].

أي من هذا الصّنف من المخلوقين، كما كان قابيل من البشر و كتبه اللّه شقيا، فهو أوّل الأشقياء من البشر، و إبليس أوّل الأشقياء من الجنّ، و عذاب الشّياطين من الجنّ في جهنّم أكثر ما يكون بالزّمهرير لا بالحرور، و قد يعذّب بالنّار، و بنو آدم أكثر عذابهم بالنّار.

و وقفت يوما على مخبول العقل من الأولياء، و عيناه تدمعان و هو يقول للنّاس:

لا تقفوا مع قوله تعالى:

(لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ) [سورة ص: ۸۵].

لإبليس فقط، بل انظروا في إشارته سبحانه لكم بقوله لإبليس: جهنم منك، فإنّه مخلوق من النّار فيعود لعنه اللّه إلى أصله، و إن عذّب به فعذاب الفجّار (الفخار) بالنّار أشدّ، فتحفّظوا، فما نظر هذا الولي من ذكر جهنم إلاّ النّار خاصّة، و غفل عن أن جهنم اسم لحرورها و زمهريرها، و بجملتها (لجهامتها) سمّيت جهنّم لأنّها كريهة المنظر، و الجهام: السّحاب الّذي قد هرق ماءه، و الغيث رحمة اللّه، فلمّا أزال اللّه الغيث من السّحاب بإنزاله، أطلق عليه اسم الجهام، لزوال الرحمة الّذي هو الغيث عنه، كذلك الرّحمة أزالها اللّه من جهنّم فكانت كريهة المنظر و المخبر، و سمّيت أيضا جهنّم لبعد قعرها، يقال:

ركيّة جهنام، إذا كانت بعيدة القعر، نسأل اللّه العظيم لنا و للمؤمنين، الأمن منها، و يكفى هذا القدر من هذا الباب.

و هذا آخره، و كان الغرض منه بحث الملك، و الجنّ، و آدم، و إبليس، و لها ذكر الجنّة و الجحيم، و البرزخ و غير ذلك، فسيجيء في آخر المقدّمة السّادسة، مبسوطا مفصّلا من كلامنا و كلام الشيخ أيضا، و الحمد للّه وحده.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۱۵

و حيث (قلنا) بنقل من كلام الشّيخ ما هو مناسب بهذا المقام سيّما ببحث العالم و ترتيبه و إيجاده و تحقيقه، فبقي هناك باب آخر في هذا الباب ننقله و نقطع هذا البحث عليه بحيث يكون هذا الجزء بتمامه مخصوصا بكلامه.

و هذا الباب عندي أحسن الأبواب و أبسطها في كثرة اللطائف و الحقائق الّتي فيه، كما ستعرفها إن شاء اللّه و هو هذا، و باللّه التّوفيق.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۱۶

الباب الحادي عشر في معرفة آبائنا العلويّات و أمّهاتنا السّفليّات

«۵۱» أنا ابن آباء أرواح مطهّرة

و امّهات نفوس عنصريّات

ما بين روح و جسم كان مظهرنا عن (عند) اجتماع بتعنيق و لذّات

ما كنت عن واحد حتّى أوحّده | بل عن جماعة آباء و أمّات
هم للإله إذا حقّقت شأنهم | كصانع صنع الأشياء بآلات
فنسبة الصّنع للنّجّار ليس لها | كذاك أوجدنا ربّ البريّات
فيصدق الشخص في توحيد موجده | و يصدق الشخص في إثبات علاّت
فإن نظرت إلى الآلات طال بنا | إسناد عنعنة حتّى إلى الذّات
و إن نظرت إليه و هو يوجدنا | قلنا بوحدته لا بالجماعات
إنّي ولدت وحيد العين منفردا | و النّاس كلّهم أولاد علاّت

(المقصود من العالم الإنسان و هو الإمام)

اعلم، أيّدك (نا) اللّه و إيّاكم، أنّه لمّا كان المقصود من هذا العالم، الإنسان، و هو الإمام، لذلك أضفنا الآباء و الأمّهات إليه فقلنا: آبائنا العلويات و أمّهاتنا السّفليّات.

(في معنى الأب و الابن و الأمّ)

فكلّ مؤثّر أب، و كلّ مؤثّر فيه أمّ، هذا هو الضّابط لهذا الباب، و المتولّد بينهما من ذلك الأثر يسمّى ابنا و مولّدا، و كذلك المعاني في إنتاج العلوم إنّما هو بمقدّمتين تنكح

---

(٥١) قوله: الباب الحادي عشر.

الفتوحات المكيّة ج ٢، ص ٣٠٨ ط ج، و ج ١، ص ١٣٨ ط ق.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١١٧

إحداهما الأخرى بالفرد الواحد الّذي يتكرّر فيهما و هو الرّابط، و هو النّكاح، و النّتيجة الّتي تصدر بينهما هي المطلوبة، و الأرواح كلّها آباء و الطّبيعة أمّ لما كانت محل الاستحالات، و بتوجّه هذه الأرواح على هذه الأركان الّتي هي العناصر القابلة للتغير و الاستحالة تظهر فيها المولّدات و هي المعادن و النّبات و الحيوان و الجانّ و الإنسان أكملها.

(الإسلام أكمل الشرائع)

و كذلك جاء شرعنا أكمل الشرائع، حيث جرى مجرى الحقائق الكلّيّة، فأوتي جوامع الكلم «٥٢»، و اقتصر على أربع نسوة و حرّم ما زاد على ذلك بطريق النكاح الموقوف على العقد (٥٣) فلم يدخل في ذلك ملك اليمين، و أباح ملك اليمين في مقابلة

(٥٢) قوله: فأوتي جوامع الكلم.

راجع التعليقة رقم ٢١.

(٥٣) قوله: الموقوف على العقد.

أقول: يلزم أن يقيّد (العقد) بالدوام، يعني حرمة النكاح زايدا على أربع نسوة في الشرع مبنيّ على العقد الدائم، و أمّا على سبيل الزّواج الموقّت المعبّر عنه بالمتعة فجائز مشروع بلا شكّ، و هذا ثابت بالكتاب و السنّة.

و أكثر أحكام الزواج الموقّت هي نفس أحكام النكاح الدائم بالنّسبة إلى الزوجين، و العدّة و الأولاد، إلاّ أنّ فيه أحكاما خاصّة بالنسبة إلى النفقة و الإرث و الاستمتاع، و قدر الاستمتاع مبيّنان على توافقهما في العقد.

فالزواج الموقّت عقد زواج بين الرّجل و المرأة بمهر معيّن إلى أجل معيّن و بحول الأجل أو بهبة الزّوج المدّة الباقية للزوجة تنحلّ العقد و تنفسخ النكاح، و هذان فيه بمنزلة الطلاق في الزواج الدائم.

و يجب فيه أن تتوفّر جميع الشرائط الشرعيّة في الزواج الدائم مع فقدان جميع الموانع الشرعيّة في الدائم من النسب و السبب، و الرضاع، و الإحصان، و العدّة، و غير ذلك من الأحكام و الشرائط و الموانع المذكورة في الكتاب الفقهيّة.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١١٨

- و لا بأس بذكر بعض ما قال به العالمين: العلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائي في تفسيره القيّم «الميزان» في تفسير سورة النساء ج ٤، و في سورة المؤمنون ج ١٥. و العلاّمة الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء في كتابه المبارك «أصل الشيعة و أصولها».

قال العلاّمة الطباطبائي في تفسير قوله تعالى:

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ... [سورة النساء: ٢٤]. في الميزان ج ٤، ص ٢٧١:

«و المراد بالاستمتاع المذكور في الآية المتعة بلا شكّ، فإنّ الآية مدنيّة نازلة في سورة النساء في الأوّل من عهد النبيّ (ص) بعد الهجرة على ما يشهد به معظم آياتها، و هذا النكاح أعني نكاح المتعة كانت دائرة بينهم معمولة عندهم في هذه البرهة من الزمان من غير شكّ- و قد أطبقت الأخبار على تسلم ذلك- سواء كان الإسلام هو المشرع لذلك أو لم يكن فأصل وجوده بينهم بمرئى من النّبي و مسمع منه لا شكّ فيه، و كان اسمه هذا الإسم و لا يعبر عنه إلاّ بهذا اللفظ فلا مناص من كون قوله: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ محمولا عليه مفهوما منه هذا المعنى كما أن سائر السنن و العادات و الرسوم الدائرة بينهم في عهد النزول بأسمائها المعروفة المعهودة كلما نزلت آية متعرضة لحكم متعلّق بشيءٍ من تلك الأسماءِ بإمضاءِ أو رد أوامر و نهي لم يكن يد من حمل الأسماءِ الواردة فيها على معانيها المسماة بها من غير أن تحمل على معانيها اللغوية الأصلية.**

و قال خلال بحثه الروائي «بحث آخر روائي» ج ٤، ص ٢٩٨، بعد ذكر بعض الروايات:

هذه عدّة من الروايات الواردة في أمر متعة النساء، و الناظر المتأمل الباحث يرى ما فيها (أي في الروايات في الروايات الواردة حول متعة النساء) من التباين و التضارب، و لا يتحصّل للباحث في مضامينها غير أنّ عمر بن الخطاب أيّام خلافته حرّمها و نهى عنها لرأي رآه في قصص عمرو بن حريث، و ربيعة ابن أميّة بن خلف الجمحي، و أمّا حديث النسخ بالكتاب أو السنّة فقد عرفت عدم رجوعهما إلى محصّل، على أنّ بعض الروايات يدفع البعض في جميع مضامينها إلاّ في أنّ عمر بن الخطاب هو الناهي عنها المجري للمنع، المقرّر حرمة العمل، و حدّ الرجم لمن فعل - هذا أوّلا -.

و أنّها كانت سنة معمولا بها في زمن النّبيّ في الجملة بتجويز منه صلّى اللّه عليه و آله -

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١١٩

الأمر الخامس الّذي ذهب إليه بعض العلماء.

- و سلّم: إمّا إمضاء و إمّا تأسيسا، و قد عمل بها من أصحابه من لا يتوهّم في حقّه السفاح كجابر بن عبد اللّه، و عبد اللّه بن مسعود، و الزّبير بن العوام، و أسماء بنت أبي بكر، و قد ولدت بها عبد اللّه بن الزبير - هذا ثانيا -.

و أنّ في الصّحابة و التابعين من كان يرى إباحتها كابن مسعود و جابر و عمرو بن حريث و غيرهم، و مجاهد و السدي و سعيد بن جبير و غيرهم - و هذا ثالثا -.

و هذا الإختلاف الفاحش بين الروايات هو المفضي للعلماء من الجمهور بعد الخلاف فيها من حيث أصل الجواز و الحرمة أوّلا، إلى الخلاف في نحو حرمتها و كيفيّة منعها ثانيا، و ذهابهم فيها إلى أقوال مختلفة عجيبة ربّما أنهي إلى خمسة عشر قولا». (انتهى كلام العلاّمة الطباطبائي).

و قال العلاّمة الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء قدس سرّه في كتابه «أصل الشيعة و أصولها» ص ١٩٦ تحت العنوان: (زواج المتعة):

إنّ من ضروريّات مذهب الإسلام الّتي لا ينكرها من له أدنى إلمام بشرائع هذا الدين الحنيف - أنّ المتعة - بمعنى العقد إلى أجل مسمّى، و قد شرعها رسول اللّه (ص) و أباحها و عمل بها جماعة من الصحابة في حياته، بل و بعد وفاته، و قد اتّفق المفسّرون أنّ جماعة من عظماء الصحابة، كعبد اللّه بن عباس، و جابر بن عبد اللّه الأنصاري، و عمران بن الحصين، و ابن مسعود، و أبيّ بن كعب و غيرهم، كانوا يفتون بإباحتها و يقرءون الآية المتقدّمة هكذا:

«فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى».

و ممّا ينبغي القطع به أن ليس مرادهم التحريف في كتابه جلّ شأنه و النقص منه (معاذ اللّه) بل المراد بيان معنى الآية على نحو التفسير الّذي أخذوه من الصادع بالوحي و من أنزل عليه ذلك الكتاب الّذي لا ريب فيه».

و إن شئت الإطلاع أكثر من هذا فراجع «تفسير الميزان» ج ١٥، ص ١٢ من طبع البيروت - سورة المؤمنون الآية ٥ في بحثه الروائي، و أيضا كتاب «أصل الشيعة و أصولها ص ١٩٦ العنوان: الزواج المتعة.

و أيضا راجع الأحاديث الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السّلام في الزواج الموقّت (المتعة): (بحار الأنوار) ج ١٠٣، ص ٣١٢، و (الوسائل الشيعة) ج ١٤، كتاب النكاح، أبواب المتعة، و جامع أحاديث الشيعة ج ٢١، ص ١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۲۰

كذلك الأركان من عالم الطّبيعة أربعة، و بنكاح العالم العلوي لهذه الأربعة يوجد اللّه ما يتولّد (فيها) منهما.

و اختلفوا في ذلك على ستّة مذاهب:

فطائفة زعمت أنّ كلّ واحد من هذه الأربعة أصل في نفسه.

و قالت طائفة: ركن النّار هو الأصل فما كثف منه كان هواء، و ما كثف من الهواء كان ماءا، و ما كثف من الماء كان ترابا.

و قالت طائفة: ركن الهواء هو الأصل، فما سخف منه كان نارا، و ما كثف منه كان ماءا.

و قالت طائفة: ركن الماء هو الأصل. و قالت طائفة: ركن التّراب هو الأصل.

و قالت طائفة: الأصل أمر خامس ليس واحد من هذه الأربعة و هذا هو الّذي جعلناه بمنزلة ملك اليمين، فعمّت شريعتنا في النكاح أتمّ المذاهب ليندرج فيها جميع المذاهب.

و هذا المذهب بالأصل الخامس هو الصحيح عندنا، و هو المسمّى بالطبيعة، فإنّ الطّبيعة معقول واحد عنها ظهر ركن النّار و جميع الأركان، فيقال: ركن النّار من الطبيعة ما هو عينها، و لا يصح أن تكون المجموع الّذي هو عين الأربعة، فان بعض الأركان منافر للآخر بالكلّيّة و بعضها منافر لغيره بأمر واحد، كالنّار و الماء متنافران من جميع الوجوه و الهواء و التّراب كذلك، و لهذا رتّبها اللّه في الوجود ترتيبا حكيما لأجل الاستحالات فلو جعل المنافر مجاورا لمنافره لما استحال إليه، و تعطلت الحكمة، فجعل الهواء يلي ركن النّار، و الجامع بينهما الحرارة، و جعل الماء يلي الهواء، و الجامع بينهما الرّطوبة، و جعل التّراب يلي الماء و الجامع بينهما البرودة، فالمحيل أب و المستحيل أمّ، و الاستحالة نكاح، و الّذي استحال إليها ابن، فالمتكلّم أب، و السّامع أمّ، و التكلّم نكاح، و الموجود من ذلك في فهم السّامع ابن.

فكلّ أب علويّ فإنّه مؤثّر، و كلّ أمّ سفليّة فإنّها مؤثّر فيها، و كلّ نسبة بينهما معيّنة نكاح و توجّه، و كلّ نتيجة إن، و من هنا يفهم قول المتكلّم لمن يريد قيامه: قم! فيقوم

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۲۱

المراد بالقيام، عن أثر لفظة قم، فإن لم يقم السّامع و هو أمّ بلا شكّ فهو عقيم و إذا كان عقيما فليس بأمّ في تلك الحالة.

(النكاح المعنوي بين العقل و النّفس)

و هذا الباب إنّما يختص بالأمّهات، فأول الآباء العلويّة معلوم، و أوّل الأمّهات السّفليّة شيئية المعدوم الممكن، و أوّل نكاح القصد بالأمر، و أول ابن وجود عين تلك الشيئيّة الّتي ذكرنا، فهذا أب سارى الأبوة، و تلك أمّ سارية الأمومة، و ذلك النكاح سار في كلّ شيء و النّتيجة دائمة، لا تنقطع في حقّ كلّ ظاهر العين، فهذا يسمّى عندنا:

النكاح السّاري في جميع الذراري، يقول اللّه تعالى في الدّليل على ما قلناه:

(إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [سورة النحل: ۴۰].

و لنا فيه كتاب شريف، منيع الحمى، البصير فيه أعمى، فكيف من حلّ به العمى فلو رأيت تفصيل هذا المقام، و توجهات هذه الأسماء الإلهيّة الأعلام، لرأيت أمرا عظيما، و شاهدت مقاما هائلا جسيما، فلقد تنزّه العارفون باللّه و بصنعه الجميل.

يا وليّ! و بعد أن أشرت إلى فهمك الثاقب و نظرك الصائب بالأب الأول السّاري و هو الإسم الجامع الأعظم الّذي تتبعه جميع الأسماء في رفعه و نصبه و خفضه و السّاري حكمه.

و الأمّ الأوليّة الآخريّة السّارية في نسبة الأنوثة في جميع الأبناء، فلنشرع في الآباء الّذين هم أسباب موضوعة بالوضع

الإلهي، و الأمهات و اتصالهما بالنكاح المعنوي و الحسّي المشروع حتّى يكون الأبناء أبناء حلال، إلى أن أصل إلى التناسل الإنساني و هو آخر نوع تكوّن و أوّل مبدع بالقصد تعيّن، فنقول:

إن العقل الأول الّذي هو أول مبدع خلق، هو القلم الأعلى و لم يكن ثمّ محدث سواه، و كان مؤثّرا فيه بما أحدث اللّه فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه كانبعاث حواء من آدم في عالم الأجرام، ليكون ذلك اللوح موضعا و محلا لما يكتب فيه ذلك القلم الأعلى الإلهي و تخطيط الحروف الموضوعة للدّلالة على ما جعلها الحقّ تعالى أدلّة عليه، فكان اللوح المحفوظ أوّل موجود انبعاثيّ، و قد ورد في الشّرع:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۱۲۲

إن أوّل ما خلق اللّه القلم، ثمّ خلق اللوح، و قال للقلم: اكتب قال القلم: و ما أكتب؟ قال اللّه (له): اكتب و أنا أملي عليك (۵٤).

---

(۵٤) قوله: و قد ورد في الشّرع: إنّ أوّل ما خلق اللّه القلم.

روى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام، عن الصادق (ع) قال:

أوّل ما خلق اللّه القلم، فقال له اكتب فكتب ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة. ج ۲، ص ۱۹۸ في أوّل سورة سبأ.

و روى أيضا في أوّل سورة القلم ج ۲، ص ۳۷۹، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عبد الرحمن (الرّحيم) القصير، عن أبي عبد اللّه (ع)، قال: إن اللّه خلق القلم من شجرة في الجنّة يقال لها الخلد، ثمّ قال لنهر في الجنّة: كن مدادا فجمد النهر، و كان أشدّ بياضا من الثلج و أحلى من الشهد، ثمّ قال للقلم: أكتب قال: و ما أكتب يا ربّ، قال: أكتب ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم في رقّ أشدّ بياضا من الفضّة و أصفى من الياقوت، ثمّ طواه و جعله في ركن العرش، ثمّ ختم على فم القلم فلم ينطق بعد و لا ينطق أبدا، فهو الكتاب المكنون الّذي منه النّسخ كلّها. الخبر.

و روى الصدوق (رض) في معاني الأخبار ص ۲۲، باب حروف المقطّعة، الحديث ۱، بإسناده عن سفيان بن السعيد الثوري عن الباقر (ع) قال:

و امّا «ن» فهو نهر في الجنّة، قال اللّه عزّ و جلّ: أجمد، فجمد فصار مدادا، ثمّ قال عزّ و جلّ للقلم: أكتب، فسطر القلم في اللّوح المحفوظ ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمداد من نور، و القلم قلم من نور، و اللّوح لوح من نور، إلى أن قال (ع): فنون ملك يؤدي إلى القلم و هو ملك، و القلم يؤدّي إلى اللّوح و هو ملك، و اللّوح يؤدّي إلى إسرافيل، و إسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل، و ميكائيل يؤدّي إلى جبرئيل، و جبرئيل يؤدّي إلى الأنبياء و الرسل صلوات اللّه عليهم.

و في مسند ابن حنبل ج ۵، ص ۳۱۷، بإسناده عن عبادة قال: سمعت النّبي (ص) يقول:

أوّل ما خلق اللّه تبارك و تعالى القلم، ثمّ قال له: أكتب، قال: و ما أكتب؟ قال: فاكتب ما يكون و ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة.

و في سنن أبي داود ج ٤، ص ۲۲۵، الحديث ٤۷۰۰، بإسناده عن عبادة بن صامت-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۱۲۳

فخطّ القلم في اللوح ما يلي عليه الحق و هو علمه في خلقه الّذي يخلق إلى يوم القيامة.

فكان بين القلم و اللوح نكاح معنوي معقول، و أثر حسّي مشهود، و من هنا كان العمل بالحروف المرقومة عندنا، و كان ما أودع في اللوح من الأثر مثل الماء الدافق الحاصل في رحم الأنثى، و ما ظهر من تلك الكتابة من المعاني المودعة في تلك الحروف الجرمية بمنزلة أرواح الأولاد المودعة في أجسامهم، فافهم، و اللّه يقول الحقّ و هو يهدي السبيل.

و جعل الحقّ في هذا اللوح العاقل عن اللّه ما أوحى به إليه، المسبّح بحمده الّذي لا يفقه تسبيحه إلاّ من أعلمه اللّه به و فتح سمعه لما يورده كما فتح سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و من حضر من أصحابه لإدراك تسبيح الحصى في كفّه الطّاهرة الطّيّبة صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و إنّما قلنا: فتح سمعه، إذ كان الحصى ما زال مذ خلقه اللّه مسبّحا بحمده، فكان خرق العادة في الإدراك السّمعي لا فيه.

ثمّ أوجد فيه صفتين: صفة علم، و صفة عمل، فبصفة العمل تظهر صور العالم عنه كما تظهر صورة التّابوت للعين عند عمل النجّار، فبها يعطي الصّور، و الصّور على قسمين: صور ظاهرة حسّيّة و هي الأجرام و ما يتّصل بها حسّا، كالأشكال و الألوان، (و الأكوان)، و صور باطنة معنويّة غير محسوسة و هي ما فيها من العلوم و المعارف و الإرادات و بتينك الصفتين ظهر ما ظهر من الصّور، فالصّفة العلاّمة أب، فإنّها المؤثّرة، و الصّفة العاملة أمّ، فإنّها المؤثّر فيها، و عنها ظهرت الصّور الّتي ذكرناها.

- قال: سمعت رسول اللّه (ص) يقول:

إنّ أوّل ما خلق اللّه القلم، فقال له: اكتب، قال: يا ربّ و ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيء حتّى تقوم السّاعة.

و في جامع الترمذي ج ٤، ص ٤٥٨، الحديث ٢١٥٥، بإسناده عن عبادة بن الصامت، قال إني سمعت رسول اللّه (ص) يقول:

انّ أوّل ما خلق اللّه القلم، قال له اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: أكتب القدر ما كان و ما هو كائن إلى الأبد.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٢٤

فإنّ النجّار المهندس إذا كان عالما و لا يحسن العمل، فيلقي ما عنده على سمع من يحسن عمل النجارة، و هذا الإلقاء نكاح، فكلام المهندس أب، و قبول السّامع أمّ، ثمّ يصير علم السّامع أبا (ثانيا) و جوارحه أمّا، و إن شئت قلت: فالمهندس أب، و الصّانع الّذي هو النّجار أمّ، من حيث ما هو مصغ لما يلقي إليه المهندس، فإذا أثّر فيه، فقد أنزل ما في قوته في نفس النّجار، و الصّورة التي ظهرت للنّجار في باطنه ممّا ألقى إليه المهندس، و حصلت في وجود خياله قائمة ظاهرة له بمنزلة الولد الّذي ولّد له فهمه عن المهندس، ثمّ عمل النّجار فهو أب في الخشب الّذي هو أمّ النّجارة بالآلات الّتي يقع بها النّكاح و إنزاله الماء الّذي هو أثر كلّ ضربة بالقدوم أو قطع بالمنشار، و كلّ قطع و فصل و جمع في القطع المنجورة لإنشاء الصّورة فظهر التّابوت الّذي هو بمنزلة الولد المولود الخارج للحسّ.

فهكذا فلتفهم الحقائق في ترتيب الآباء و الأمهات و الأبناء و كيفيّة الإنتاج، فكلّ أب ليس عنده صفة العمل فليس هو أب من ذلك الوجه حتّى أنّه لو كان عالما و منع آلة التوصيل بالكلام أو الإشارة ليقع الإفهام و هو غير عامل لم يكن أبا من جميع الوجوه و كان أمّا لما حصل في نفسه من العلوم غير أنّ الجنين لم يخلق فيه الرّوح في بطن أمّه، أو مات في بطن أمّه فأحالته طبيعة الأم إلى أن تصرّف، و لم يظهر له عين، فافهم.

و بعد أن عرفت الأب الثّاني من الممكنات و أنّه أمّ ثانية للقلم الأعلى، كان ممّا ألقى إليها من الإلقاء الأقدس الرّوحاني: الطّبيعة و (الهباء) الهواء فكان أوّل أمّ ولدت توأمين، فأوّل ما ألقت الطّبيعة ثمّ تبعتها بالهباء، فالطّبيعة و الهباء أخ و أخت لأب واحد و أمّ واحدة، فأنكح الطّبيعة الهباء فولد بينهما صورة الجسم الكلّي و هو أوّل جسم ظهر، فكان الطّبيعة الأب، فإن لها الأثر، و كان الهباء الأمّ، فإن فيها ظهر الأثر و كانت النّتيجة الجسم.
ثمّ نزل التّوالد في العالم إلى التّراب على ترتيب مخصوص ذكرنا في كتابنا المسمّى «بعقلة المستوفز»، و فيه طول لا يسعه هذا الباب فانّ الغرض الاختصار.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٢٥

(نظريّة نهاية الأركان قبال نظريّة المركز)

و نحن لا نقول بالمركز، و إنّما نقول بنهاية الأركان و إنّ الأعظم يجذب الأصغر و لهذا نرى البخار و النّار يطلبان العلو، و الحجر و ما أشبه يطلب السّفل فاختلفت الجهات، و ذلك على الاستقامة من الإثنين، أعني طالب العلو و السّفل، فإنّ القائل بالمركز يقول: إنّه أمر معقول دقيق تطلبه الأركان.
و لولا التّراب لدار به الماء، و لولا الماء لدار به الهواء، و لولا الهواء لدار به النّار، و لو كان كما قال، لكنّا نرى البخار يطلب السّفل، و الحسّ يشهد بخلاف ذلك، و قد بيّنا هذا الفصل في كتاب المركز لنا و هو جزء لطيف.
فإذا ذكرناه في بعض كتبنا إنّما نسوقه على جهة مثال النقطة من الأكرة الّتي عنها يحدث المحيط لما لنا في ذلك من الغرض المتعلّق بالمعارف الإلهيّة و النّسب لكون الخطوط الخارجة من النقطة إلى المحيط على السّواء لتساوي النّسب حتّى لا يقع هناك تفاضل، فإنّه لو وقع تفاضل أدّى إلى نقص المفصول، و الأمر ليس كذلك، و جعلناه محل العنصر الأعظم، تنبيها على أن الأعظم يحكم على الأقل، و ذكرناه مشارا إليه في «عقلة المستوفز».
و لمّا أدار اللّه هذه الأفلاك العلويّة، و أوجد الأيّام بالفلك الأوّل و عيّنه بالفلك الثّاني الّذي فيه الكواكب الثّابتة للأبصار، ثمّ أوجد الأركان ترابا و ماءا و هواء و نارا، ثمّ سوّى السّموات سبعا طباقا و فتقها أي فصل كلّ سماء على حدة بعد ما كانت رتقا، إذ كانت دخانا، و فتق الأرض إلى سبع أرضين: سماء أولى لأرض أولى، و ثانية لثالثة إلى سبع، و خلق الجواري الخنّس خمسة: في كلّ سماء، كوكب، و خلق القمر، و خلق أيضا الشّمس.
فحدث الليل و النّهار بخلق الشّمس في اليوم، و قد كان اليوم موجودا فجعل النّصف من هذا اليوم لأهل الأرض نهارا و هو من طلوع الشّمس إلى غروبها، و جعل النصف الآخر ليلا و هو من غروب الشّمس إلى طلوعها، و اليوم عبارة عن المجموع،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٢٦

و لهذا خلق السّماوات و الأرض في ستّة أيّام، فإنّ الأيّام كانت موجودة بوجود حركة فلك البروج، و هي الأيام المعروفة عندنا لا غير، فما قال اللّه: خلق العرش و الكرسيّ، و إنّما قال:
خَلَقَ السَّماٰواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ [سورة يونس: ٣].
فإذا دار فلك البروج دورة واحدة فذلك هو اليوم الّذي خلق اللّه فيه السّماوات و الأرض، ثمّ أحدث اللّه اللّيل و النّهار عند وجود الشّمس لا الأيّام.

و أمّا ما يطرأ فيها من الزّيادة و النّقصان أعني في اللّيل و النّهار لا في السّاعات، فإنّها أربع و عشرون ساعة، و ذلك لحلول الشّمس في منطقة البروج و هي حمائلية بالنّسبة إلينا فيها ميل، فيطول النّهار إذا كانت الشّمس في المنازل العالية حيث كانت، و إذا حلّت الشّمس في المنازل النازلة قصر النّهار حيث كانت، و إنّما قلنا: حيث كانت، فإنّه إذا طال الليل عندنا طال النّهار عند غيرنا، فتكون الشّمس في المنازل العالية بالنّسبة إليهم و في المنازل النازلة بالنّسبة إلينا، فإذا قصر النّهار عندنا طال الليل عندهم لما ذكرناه، و اليوم هو اليوم بعينه أربع و عشرون ساعة لا يزيد و لا ينقص و لا يطول و لا يقصر في موضع الاعتدال فهذا هو حقيقة اليوم، ثمّ قد سمّي النّهار وحده يوما بحكم الاصطلاح فافهم.

(جعل الزمان الّذي هو الليل و النهار)

و قد جعل اللّه هذا الزمان الّذي هو الليل و النّهار يوما، و الزّمان هو اليوم، و الليل و النهار موجودان في الزّمان، جعلهما أبا و أمّا لما يحدث اللّه فيهما، كما قال:

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهٰارَ [سورة الأعراف: ٥٤].

كمثل قوله في آدم:

فَلَمّٰا تَغَشّٰاهٰا حَمَلَتْ [سورة الأعراف: ١٨٩].

فإذا غشي اللّيل النّهار كان اللّيل أبا و كان النّهار أمّا، و صار كلّ ما يحدث اللّه في النّهار بمنزلة الأولاد الّتي تلد المرأة، و إذا غشي النّهار اللّيل، كان النّهار أبا و كان اللّيل

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٢٧

أمّا و كان ما يحدث اللّه من الشّئون في اللّيل بمنزلة الأولاد الّتي تلد الأمّ، و قد بيّنا هذا الفصل في «كتاب الشأن»، لنا تكلمنا فيه على قوله تعالى:

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [سورة الرحمن: ٢٩].

و سيأتي إن شاء اللّه في هذا الكتاب، إن ذكرنا اللّه به من معرفة الأيّام طرفا شافيا.

و كذلك قال تعالى:

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهٰارِ وَ يُولِجُ النَّهٰارَ فِي اللَّيْلِ [سورة الحج: ٦١].

فزاد بيانا في التناكح و أبان سبحانه بقوله:

وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهٰارَ [سورة يس: ٣٧].

أنّ اللّيل أمّ له، و أنّ النّهار متولّد عنه كما ينسلخ المولود من أمّه إذ خرج منها، و الحيّة من جلدها، فيظهر مولدا في عالم آخر غير العالم الّذي يحويه اللّيل، و الأب هو اليوم الّذي ذكرناه، و قد بيّنا ذلك في كتاب «الزّمان» لنا، و معرفة الدّهر.

فهذا اللّيل و النّهار أبوان بوجه، و أمّان بوجه، و ما يحدث اللّه فيهما في عالم الأركان من المولّدات عند تصريفهما يسمّون أولاد اللّيل و النّهار كما قررناه.

و لمّا أنشأ اللّه أجرام العالم كلّه القابل للتّكوين فيه، جعل من حدّ ما يلي مقعّر السّماء الدّنيا إلى باطن الأرض، عالم الطبيعة و الاستحالات و ظهور الأعيان الّتي تحدث عند الاستحالات و جعلها بمنزلة الأمّ، و جعل من مقعّر فلك السّماء الدّنيا إلى آخر الأفلاك بمنزلة الأب، و قدّر فيها منازل، و زيّنها بالأنوار الثابتة و السّابحة، فالسّابحة تقطع في الثّابتة، و الثّابتة و السّابحة تقطع في الفلك المحيط بتقدير العزيز، بدليل أنّه روئي في بعض الأهرام الّتي بديار مصر مكتوبا بقلم

يذكر في ذلك التاريخ الأهرام أنها بنيت و النسر في الأسد، و لا شكّ أنّه الآن في الجدى، كذا ندركه، فدل على أنّ الكواكب الثابتة تقطع في فلك البروج الأطلس، و اللّه يقول في القمر:

وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنٰاهُ مَنٰازِلَ [سورة يس: ٣٩].

و قال في الكواكب:

كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [سورة يس: ٤٠].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٢٨

و قال تعالى:

وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا (و قد قرئ لا مستقرّ لها).

و ليس بين القراءتين تنافر، ثمّ قال:

ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [سورة يس: ٣٩].

ينظر إلى قوله في القمر: «إنّه قدّره منازل»، و قال:

لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهٰا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللَّيْلُ سٰابِقُ النَّهٰارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [سورة يس: ٤٠].

أي في شيء مستدير.

و جعل لهذه الأنوار المسمّاة بالكواكب أشعة متصلة بالأركان، تقوم اتّصالاتها بها مقام نكاح الآباء للأمهات فيحدث اللّه تعالى عند اتّصال تلك الشعاعات النوريّة في الأركان أربعة من عالم الطّبيعة ما يتكوّن فيها ممّا نشاهده حسّا، فهذه الأركان لها بمنزلة الأربعة النسوة في شرعنا و كما لا يكون نكاح شرعي عندنا حلالا إلاّ بعقد شرعي، كذلك أوحى في كلّ سماء أمرها فكان من ذلك الوحي تنزل الأمر بينهنّ، كما قال تعالى:

يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ [سورة الطلاق: ١٢].

يعني الأمر الإلهي.

و في هذا التنزيل أسرار عظيمة تقرب ممّا نشير إليه في هذا الباب، و قد روى عن ابن عباس أنّه قال في تفسير هذه الآية:

«لو فسّرتها على ما سمعت من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، لقلتم إنّي كافر» (٥٥).

---

(٥٥) قوله: روى عن ابن عباس.

أخرج أبي جعفر محمّد بن جرير الطبري المتوفّى سنة ٣١٠ ه‍ في تفسيره «جامع - [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٢٩

و في رواية: لرجمتموني. و إنها من أسرار أي القرآن، قال تعالى:

خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ. ثمّ قال: يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ، ثمّ تمّم و أبان فقال:

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [سورة الطلاق: ١٢].

و هو الّذي أشرنا إليه بصفة العمل الّذي ذكرناه آنفا من إيجاد اللّه صفة العلم و العمل في الأب الثّاني، فإنّ القدرة للإيجاد

و هو العمل، ثمّ تمّم في الأخبار فقال:

وَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً [سورة الطلاق: ١٢].

و قد أشرنا إليه بصفة العلم الّتي أعطاها اللّه للأب الثّاني الّذي هو النّفس الكلّيّة

- البيان» ج ٢٨، ص ٩٩، في سورة الطلاق في تفسير الآية:

اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ.

باسناده عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، و كفركم تكذيبكم بها.

و روى أيضا في تفسيرها باسناده عن سعيد بن جبير، قال: قال رجل لابن عباس:

اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ. الآية، فقال ابن عباس: ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر.

و عنه ابن كثير في تفسيره ج ٤، ص ٦٣٣ في سورة الطلاق.

و أخرج السيوطي أيضا الحديث الثاني في تفسيره الدّر المنثور ج ٨، ص ٢٠٩، في سورة الطلاق، و رواه أيضا المراغي في تفسيره ج ٢٨، ص ١٥١.

و في تفسير روح البيان ج ١٠، ص ٤٧ في سورة الطلاق: قال الشيخ نجم الدّين في تأويلاته: و في هذه الآية الكريمة غوامض من أسرار القرآن مكنونة، و يدلّ عليه قول ابن عباس رضي اللّه عنهما لمّا سئل عن هذه الآية، و قال لو فسرتها لقطعوا حلقومي و رجموني.

و المعنى الّذي أشار إليه رضي اللّه عنه ممّا لا يعبر عنه و لا يشار إليه و لكن يذاق.

قال الجليل السيّد حيدر الآملي (المؤلّف) في كتابه «جامع الأسرار» ص ٥٤:

قيل: انّه كان على جبل «عرفات» يوم «عرفة»، فرفع عصاه، و قال بأعلى صوته:

«يا قوم! لو فسّرت هذه الآية كما سمعت من رسول اللّه (ص) لرجمتموني» و قال: و معلوم أنّه لو قال معناه على الوجه الّذي هو منقول عنه لرجموه و قتلوه، فراجع.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٣٠

المنبعثة فهو الْعَلِيمُ سبحانه ممّا يوجد القدير على إيجاد ما يريد إيجاده، لا مانع له، فجعل الأمر ينزل بين السّماء و الأرض، كالولد يظهر بين الأبوين.

و أمّا اتّصال الأشعة النوريّة الكوكبيّة، عن الحركة الفلكيّة السّماويّة بالأركان الأربعة الّتي هي أم المولدات في الحين الواحد لكلّ معا جعله الحقّ مثالا للعارفين في نكاح أهل الجنّة في الجنّة جميع نسائهم و جواريهم في الآن الواحد نكاحا حسيّة، كما أن هذه الاتصالات حسيّة فينكح الرّجل في الجنّة جميع من عنده من المنكوحات إذا اشتهى ذلك في الآن الواحد نكاحا جسميّا محسوسا بإيلاج وجود لذّة خاصّة بكلّ امرأة من غير تقدّم و لا تأخّر، و هذا هو النّعيم الدّائم و الاقتدار الإلهي، و العقل يعجز عن إدراك هذه الحقيقة من حيث فكره، و إنّما يدرك هذا بقوّة أخرى إلهيّة في قلب من يشاء من عباده، كما انّ الإنسان في الجنّة في «سوق الصّور إذا اشترى صورة دخل فيها، كما تتشكّل الرّوح هنا عندنا و إن كان جسما، و لكن أعطاه اللّه هذه القدرة على ذلك و اللّه على كلّ شيء قدير، و حديث سوق الجنّة (٥٦) ذكره أبو

عيسى التّرمذي في

---

(٥٦) قوله: و حديث سوق الجنّة.

أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح ج ٤، كتاب صفة الجنّة، باب ١٥، الحديث ٢٥٥٠، ص ٦٨٦، بإسناده عن عليّ (ع) قال: قال رسول اللّه (ص): إنّ في الجنّة لسوقا ما فيها شراء و لا بيع إلاّ الصّور من الرّجال و النساء، فإذا اشتهى الرّجل صورة دخل فيها.

و ذكره في كنز العمّال ج ١٤، ص ٤٧٩، الحديث ٣٩٣٣٧.

و أخرج الدارمي في سننه ج ٢، باب ١١٦ من كتاب الرقاق، الحديث ٢٨٤١، ص ٤٣٦، بإسناده عن أنس، عن النّبي (ص) قال:

إنّ في الجنّة لسوقا، قالوا: و ما هي؟ قال: كثبان من مسك يخرجون إليها فيجمعون فيها، فيبعث اللّه عليهم ريحا فتدخل بيوتهم، فيقول لهم أهلوهم: لقد ازددتم بعدنا حسنا، و يقولون لأهليهم مثل ذلك.

و في مسلم ج ٤، كتاب الجنّة، باب ٥، الحديث ١٣، ص ٢١٧٨، بإسناده عن أنس بن مالك: أنّ رسول اللّه (ص) قال:

إنّ في الجنّة لسوقا، يأتونها كلّ جمعة فتهبّ ريح الشمال فتحثوا في وجوههم و ثيابهم،-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٣١

مصنفه، فانظر هناك».

فإذا اتّصلت الأشعّة النوريّة في الأركان الأربعة، ظهرت المولّدات عن هذا النكاح الّذي قدّره العزيز العليم، فصارت المولّدات بين آباء و هي الأفلاك و الأنوار العلويّة، و بين أمّهات و هي الأركان الطبيعيّة السّفليّة، و صارت الأشعة المتّصلة من الأنوار بالأركان كالنكاح، و حركات الأفلاك و سباحات الأنوار بمنزلة حركة المجامع، و كان حركات الأركان بمنزلة المخاض للمرأة. لاستخراج الزّبد الّذي يخرج بالمخض، و هو ما يظهر من المولّدات في هذا الأركان للعين من صورة المعادن و النّبات و الحيوان و نوع الجنّ و الإنس، فسبحان القادر على ما يشاء لا إله إلاّ هو ربّ كلّ شيء و مليكه، قال

- فيزدادون حسنا و جمالا، فيرجعون إلى أهليهم و قد ازدادوا حسنا و جمالا. فيقول لهم أهلوهم: و اللّه! لقد ازددتم بعدنا حسنا و جمالا، فيقولون: و أنتم، و اللّه! لقد ازددتم بعدنا حسنا و جمالا.

و في مسند ابن حنبل ج ١، ص ١٥٦، بإسناده عن عليّ (ع)، قال: قال رسول اللّه (ص): إنّ في الجنّة سوقا ما فيها بيع و لا شراء إلاّ الصّور من النساء و الرجال، فإذا اشتهى الرّجل صورة دخل فيها، و إن فيها لمجمعا للحور العين، يرفعن أصواتا لم ير الخلائق مثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، و نحن الراضيات فلا نسخط، و نحن الناعمات فلا نبؤس، فطوبى لمن كان لنا و كنّا له.

ذكره الغزالي في إحياء العلوم ج ٤، ص ٥٤١.

و الفيض الكاشاني في المحجة البيضاء ج ٨ ص ٣٧٤.

روى صاحب كتاب جامع الأخبار (المنسوب إلى الشيخ الصدوق و الشيخ محمد بن محمد الشعيري) في الفصل ١٣٧ في صفة الجنّة و

نعيمها، عن أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

إنّ في الجنّة سوقا ما فيها شرى و لا بيع إلاّ الصّور من الرّجال و النساء، من اشتهى صورة دخل فيها، و إنّ فيها مجمع حور العين يرفعن أصواتهنّ بصوت لم يسمع الخلائق بمثله: نحن النّاعمات فلا نبأس أبدا، و نحن الطاعمات فلا نجوع أبدا، و نحن الكاسيات فلا نعرى أبدا، و نحن الخالدات فلا نموت أبدا، و نحن الراضيات فلا نسخط أبدا، و نحن المقيمات فلا نظعن أبدا، فطوبى لمن كنّا له و كان لنا، نحن خيرات حسان، أزواجنا أقوام كرام.

عنه البحار ج ٨، ص ١٤٨، الحديث ٧٦.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٣٢

تعالى:

أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوٰالِدَيْكَ [سورة لقمان: ١٤].

(في بيان الشكر للّه سبحانه و للوالدين)

فقد تبين لك أيّها الولي! آباؤك و أمّهاتك من هم إلى أقرب أب لك، و هو الّذي ظهر عينك به، و أمّك، كذلك القريبة إليك إلى الأب الأوّل و هو الجد الأعلى إلى ما بينهما من الآباء و الأمهات، فشكرهم الّذي يسرّون به و يفرحون بالثناء عليهم هو أن تنسبهم إلى مالكهم و موجدهم و تسلب الفعل عنهم و تلحقه بمستحقه الّذي هو خالق كلّ شيء، فإذا فعلت هذا فقد أدخلت سرورا على آبائك بفعلك ذلك، و إدخال هذا السّرور عليهم هو عين برّك بهم و شكرك إيّاهم، و إذا لم تفعل هذا و نسيت اللّه فيهم فما شكرتهم و لا امتثلت أمر اللّه في شكرهم، فإنّه تعالى قال:

أَنِ اشْكُرْ لِي، فقدّم نفسه ليعرفك أنّه السّبب الأوّل و الأولى، ثمّ عطف و قال:

وَ لِوٰالِدَيْكَ، و هي الأسباب الّتي أوجدك اللّه عندها لتنسبها إليه سبحانه و يكون لها عليك فضل التقدّم بالوجود خاصّة لا فضل التأثير، لأنّه في الحقيقة لا أثر لها و إن كانت أسبابا لوجود الآثار، فبهذا القدر صح لها الفضل و طلب منك الشكر لها، و أنزلها الحق لك و عندك منزلته في التقدّم عليك لا في الأثر ليكون الثّناء بالتقدّم و التأثير للّه تعالى و بالتقدّم و التوقّف للوالدين و لكن على ما شرطناه:

فلا تشرك بعبادة ربّك أحدا.

فإذا أثنيت على اللّه تعالى و قلت: ربّنا و ربّ آبائنا العلويات و أمهاتنا السفليات فلا فرق أن أقولها أنا، أو يقولها جميع بني آدم من البشر، فلم نخاطب شخصا بعينه حتّى نسوق آباءه و أمّهاته من آدم و حواء إلى زمانه، و إنّما القصد هذا النشوء الإنساني، فكنت مترجما عن كلّ مولود بهذا التحميد من عالم الأركان و عالم الطبيعة و الإنسان، ثمّ نرتقي في النيابة به عن كلّ مولود بين مؤثّر و مؤثّر فيه، فنحمده بكل لسان، و نتوجّه إليه بكل وجه فيكون الجزاء لنا من عند اللّه من ذلك المقام الكلّ.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٣٣

(مخاطب السّلام في الصّلاة)

كما قال لي بعض مشيختي: إذا قلت: السّلام علينا و على عباد اللّه الصّالحين، أو قلت: السّلام عليكم، إذا سلمت في

طريقك على أحد، فأحضر في قلبك كلّ صالح من عباده في الأرض و السّماء، و ميّت و حيي، فإنّه من ذلك المقام يردّ عليك، فلا يبقى ملك مقرب، و لا روح مطهر، يبلغه سلامك إلّا و يردّ عليك، و هذا دعاء فيستجاب فيك فتفلح، و من لم يبلغه سلامك من عباد اللّه المهيّمين في جلاله المشتغلين به، المستفرغين فيه، و أنت قد سلّمت عليهم بهذا الشمول فإنّ اللّه ينوب عنهم في الردّ عليك، و كفى بهذا شرفا بحقّك حيث يسلّم عليك الحقّ، فليته لم يسمع أحدا ممّن سلّمت عليه حتّى ينوب عن الجميع في الرّد عليك، فإنّه بك أشرف.

قال تعالى تشريفا في حقّ يحيى عليه السّلام:

وَ سَلاٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا [سورة مريم: ۱۵].

و هذا سلام فضيلة و أخبار، فكيف بسلام واجب، ناب الحقّ مناب من أجاب عنه؟ و جزاء الفرائض أعظم من جزاء الفضائل في حقّ من قيل فيه:

و سلام عليه يوم ولد.

فيجمع له بين الفضيلتين.

و قد وردت صلاة اللّه علينا ابتداء، و ما وصل إليّ هل ورد السّلام ابتداء، كما وردت الصّلاة أم لا؟ فمن روى في ذلك شيئا و تحققه فقد جعلت أمانة في عنقه أن يلحقه في هذا الموضع إلى جانب صلاة اللّه علينا في هذا الباب ليكون بشرى للمؤمنين، و شرفا لكتابي هذا، و اللّه المعين و الموق لا ربّ غيره.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۳۴

(في بيان الآباء و الأمّهات الطبيعيين)

و أمّا الآباء الطبيعيون و الأمّهات فلم نذكرهم فلنذكر الأمر الكلّ (الكلّي) من ذلك و هم أبوان و أمّان، فالأبوان هما الفاعلان، و الأمان هما المنفعلان و ما يحدث عنهما هو المنفعل عنهما، فالحرارة و البرودة فاعلان، و الرّطوبة و اليبوسة منفعلان، فنكحت الحرارة اليبوسة فأنتجا ركن النّار، و نكحت الحرارة الرّطوبة فأنتجا ركن الهواء، ثمّ نكح البرودة الرّطوبة فأنتجا ركن الماء، و نكح البرودة اليبوسة فأنتجا ركن التّراب.

فحصلت في الأبناء حقائق الآباء و الأمّهات، فكانت النّار حارّة يابسة، فحرارتها من (جهة الأب) جهته، و يبوستها من جهة الأمّ، و كان الماء باردا رطبا، فبرودته من جهة الأب، و رطوبته من جهة الأمّ، و كانت الأرض باردة يابسة، فبرودتها من جهة الأب، و يبوستها من جهة الأمّ، فالحرارة و البرودة من العلم، و الرّطوبة و اليبوسة من الإرادة، هذا حدّ تعلّقها في وجودها من العلم الإلهي، و ما يتولّد عنهما من القدرة، ثمّ يقع التّوالد في هذه الأركان من كونها أمّهات لآباء الأنوار العلويّة لا من كونها آباء، و إن كانت الأبوّة فيها موجودة.

فقد عرفناك أن الأبوّة و البنوّة من الإضافات و النسب، فالأب ابن لأب هو ابن له، و الإبن أب لابن هو أب له، و كذلك باب النّسب فانظر فيه، و اللّه الموفق لا ربّ غيره.

و لمّا كانت اليبوسة منفعلة عن الحرارة و كانت الرّطوبة منفعلة عن البرودة، قلنا في الرّطوبة و اليبوسة، إنّهما منفعلان، و جعلناهما بمنزلة الأمّ الأركان، و لمّا كانت الحرارة و البرودة فاعلين، جعلناهما بمنزلة الأب للأركان.

و لمّا كانت الصنعة تستدعي صانعا و لا بدّ و المنفعل يطلب الفاعل بذاته، فإنّه منفعل بذاته، و لو لم يكن منفعلا لذاته

لما قيل الانفعال و الأثر، و كان مؤثّرا فيه، بخلاف الفاعل فإنّه يفعل بالاختيار إن شاء فعل فيسمّى فاعلا، و إن شاء ترك، و ليس ذلك للمنفعل، و لهذه الحقيقة ذكر تعالى و هو من فصاحة القرآن و إيجازه:

لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ [سورة الأنعام: ٥٩].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٣٥

فذكر المنفعل و لم يذكر: و لا حارّ و لا بارد، لما كانت الرّطوبة و اليبوسة عند العلماء بالطبيعة، تطلب الحرارة و البرودة، اللّتين هما منفعلتان عنهما كما تطلب الصّنعة الصّانع، لذلك ذكرهما دون ذكر الأصل و إن كان الكلّ في الكتاب المبين، فلقد حبى اللّه سيّدنا محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعلوم ما نالها أحد سواه، كما قال:

فعلمت علم الأوّلين و الآخرين، في حديث الضرب باليد «٥٧».

فالعلم الإلهي هو أصل العلوم كلّها، و إليه ترجع، و قد استوفينا ما يستحقه هذا الباب على غاية الإيجاز و الاختصار، فإن الطول فيه إنّما هو بذكر الكيفيات، و أمّا الأصول فقد ذكرناها و مهّدناها.

و اللّه يقول الحقّ و هو يهدي السبيل.

هذا آخر الأبواب المنتخبة من الفتوحات، و آخر كلام الشّيخ في هذا الباب.

[خطبة مولانا أمير المؤمنين على عليه السلام]

و هذا البحث و إن طال، لا بدّ من التّمسّك و الاستشهاد في مجموع ذلك بكلام مولانا و سيّدنا الإمام المعصوم وارث الأنبياء في المعارف و العلوم أسد اللّه الغالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام، فإنّ كلامه حجّة عند الكلّ، كما أنّ كلام الشيخ أيضا عند البعض، و لا يلزم من تقدّم كلام الشيخ على كلامه فضيلة و لا من تأخّر كلامه عنه نقيصة، لأنّ التّقدّم بالذّات و الشّرف، أفضل من التّقدم بالزّمان و المكان، كما أنّ القرآن أشرف الكتب الإلهيّة و هو آخر كلامه تعالى و آخر كتب الأنبياء بأجمعهم، و مع ذلك و هو أفضل من الكلّ، و كذلك نبيّنا (ص) بالنّسبة إلى الأنبياء و الرّسل فافهم.

و أيضا قد سبق من كلام أمير المؤمنين عليه السّلام قبل هذا كثيرا في موضع الاحتياج و ليس بآخره، كلامه من جميع الوجوه بل للمناسبة بالمقام، و البحث الّذي يقع في ذلك الوقت.

فمن خطبته عليه السّلام لا بدّ من ذكر الخطبتين في هذا المكان:

الأولى من غير شرح له و الأخرى مع شرح له، لأنّه في غاية البلاغة و الفصاحة

---

(٥٧) قوله: حديث الضرب باليد.

أقول: مرّ تحقيقه و إخراجه في تعليقنا الرقم ٣٠، فراجع.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٣٦

و بغير الشّرح لا يحصل من فائدة طائلة، و قد ذكرنا بعضه في أوّل المقدمة في هذا البحث، و واعدنا هناك أنّه نذكره هنا بالتّمام، و الوفاء بالعهد ضروريّ.

و

أمّا الخطبة الأولى

فهي هذه و هي في غاية الغرابة، و من أجل ذلك ما ورد ذكرنا في نهج البلاغة الّذي جمعه السيّد الحسيب النّسب الرّضي الموسوي رحمه اللّه عليه لأنّها كانت فوق طوره و ستعرفها إن شاء اللّه، و اللّه أعلم و أحكم.

هذه خطبة مولانا و سيّدنا أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام و هي الاولى من الخطبتين المذكورتين و هي الّتي ما نقلناها من كتاب الخطب للجلودي و هو عبد العزيز خطيب البصرة (٥٨).

---

(٥٨) قوله: من كتاب الخطب للجلودي.

أقول: الجلودي هو أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى بن عيسى الأزديّ البصريّ الجلوديّ، ثقة، إماميّ، شيخ البصرة.

ذكره الشيخ الطوسي (ره) في رجاله في من لم يرو عن الأئمّة (ع)، الرقم ٦٧، ص ٤٨٧ و قال: عبد العزيز بن يحيى الجلودي أبو أحمد، بصري ثقة.

و ذكره أيضا في كتابه الفهرس باب عبد العزيز الرقم ٥٣٦ ص ١٤٥ و قال: يكنّى أبا أحمد من أهل البصرة إماميّ المذهب، له كتب ...

و ذكره النجاشي في كتابه «الفهرس» المشتهر برجال النجاشي، الرقم ٦٤٠، ص ٢٤٠، و قال: عبد العزيز أحمد بن عيسى الجلوديّ الأزديّ البصريّ أبو أحمد شيخ البصرة و أخباريّها و كان عيسى الجلوديّ من أصحاب أبي جعفر عليه السّلام (الإمام الجواد عليه السّلام) و له كتب، قد ذكرها الناس، منها ... كتاب خطبه عليه السّلام.

و ذكره العلامّة الحلّي في كتابه «إيضاح الاشتباه» ص ٢٤٤، الرقم ٤٩٣، و قال: وجدت بخط السيّد السعيد صفيّ الدّين محمّد بن معد الموسوي ما صورته: رأيت على مقتل الحسين عليه السّلام الّذي صنّفه أبو أحمد الجلوديّ رحمه اللّه ما هذا حكايته: توفي أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى بن عيسى الجلودي رحمه اللّه يوم الإثنين لسبعة عشر ليلة خلت من ذي الحجّة، سنة اثنين و ثلاثين و ثلاثمائة، و دفن رحمه اللّه في اليوم الثامن عشر و هو يوم الغدير، و غسّله ابن الغسّال أبو الحسن، و صلّى عليه أبو جعفر العلوي و دفن بحضرة منه.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٣٧

روى عن عبد العزيز خطيب البصرة إنه قال: سئل علي عليه الصّلاة و السّلام (٥٩):

- و ذكره السيّد بن الطاوس (ره) في كتابه «محاسبة النفس» ص ٤١ في: فصل فيما يروي عن مولانا علي عليه السّلام، و قال: كتاب خطب مولانا عليّ رضي اللّه عنه، و هو نسخة عتيقة نقلها بخطّه.

أقول: ذكرنا ترجمة الرّجل في كتابنا في «الرّجال» تفصيلا مع ذكر طبقته و مشايخه و من روى عنه.

و ذكره ابن النديم في كتابه: «الفهرست» ص ١٢٨، آخر المقالة الثالثة من الفن الأوّل، و قال: الجلودي، و هو أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي، من أهل البصرة، أخباري، صاحب سير و روايات، و توفي بعد الثلاثين و ثلاثمئة و عونه أيضا في آخر المقالة الخامسة من الفنّ الخامس ص ٢٤٦، و قال: من أكابر الشيعة الاماميّة، و الرواة للآثار و السير ... إلخ، فراجع.

(۵۹) قوله: سئل عليّ عليه الصّلاة و السّلام:

رواها أيضا قطب الدّين سعيد بن هبة اللّه الرّاوندي المتوفي في العالم ۵۷۳ ه‍ ق، و مدفنه في الصّحن الجديد (الكبير) بحرم السيّدة الجليلة المعصومة (ع) بقم- في كتابه: «قصص الأنبياء» في ذكر آدم عليه السّلام فصل ۱، ح ۱، ص ۳۵، مسندا و قال: أخبرني الشيخ عليّ بن علي بن عبد الصمد، عن أبيه، أخبرنا السيّد أبو البركات عليّ بن الحسين الجوزي، أخبرنا الشيخ أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه، أخبرنا أبي و محمّد بن الحسن ابن أحمد بن الوليد، قالا: أخبرنا سعد بن عبد اللّه، أخبرنا محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، أخبرنا الحسن بن محبوب، عن عمرو بن أبي المقدام، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: سئل أمير المؤمنين عليه الصّلاة و السّلام هل كان في الأرض خلق من خلق اللّه تعالى يعبدون اللّه قبل آدم عليه السّلام و ذريّته؟ فقال: نعم. الحديث.

عنه البحار ج ۵۷، ص ۳۲۲، الحديث ۵.

و روى قسما من هذه الخطبة أيضا الشيخ الجليل الصدوق في كتابه (علل الشرائع) باب ۹۶ علّة الطبائع و الشهوات و المحبات ح ۱، ص ۱۰۴، بسند آخر، و سنشير إلى نقله و سنده في موضع روايته، و أوردنا موارد اختلاف نقل الراوندي و الصدوق، في المتن بين الهلالين.

و روى هذا القسم أيضا علي بن إبراهيم القمي (ره) في تفسيره بسند آخر له و سنشير إليه أيضا في موضع روايته، و بما أنّ في نقله يوجد الإختلاف الكثير بالنسبة إلى نقل-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۳۸

هل كان في الأرض خلق من خلق اللّه تعالى (يعبدون اللّه) قبل آدم و ذريّته؟ (فقال:

نعم قد كان للّه ...) قال: فصعد المنبر فحمد اللّه و أثنى عليه، و صلّى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، ثمّ قال:

قد كان للّه في السّماوات و الأرض ممّن خلق، خلق، (خلق من خلق اللّه) يقدّسون اللّه و يسبّحونه و يعظّمونه (بالليل) اللّيل و النّهار لا يفترون.

ثمّ إنّ اللّه خلق (فانّ اللّه عزّ و جلّ لمّا خلق) الأرضين (خلقها) قبل السّماوات.

ثمّ استوى على عرشه لتدبير الأمور.

(ثمّ) فخلق الملائكة روحانيّين، لهم أجنحة يطيرون بها حيث (يشاء) شاء اللّه، ثمّ أسكنهم فيما بين أطباق السّماوات يقدّسونه اللّيل و النّهار، و اصطفى منهم إسرافيل و ميكائيل و جبرئيل.

ثمّ خلق عزّ و جلّ (في الأرض) الجنّ (روحانيّين) لهم أجنحة، فجعلهم (فخلقهم) دون خلق الملائكة، و أخفضهم (حفظهم) أن يبلغوا مبلغ الملائكة في الطّيران و غير ذلك، فأسكنهم فيما بين أطباق الأرضين السّبع و علا فوقهنّ، يقدّسون اللّه اللّيل و النّهار لا يفترون.

ثمّ خلق خلقا دونهم، لهم أبدان و أرواح بغير أجنحة، (يأكلون و يشربون نسنان أشباه خلقهم) نسناس عليهم أشباه النّاس و ليسوا بناس (بإنس) و أسكنهم أوسط الأرض على ظهرها مع الجنّ، يقدّسون اللّه اللّيل و النّهار (لا يفترون).

(قال:) و كانت الجنّ تطير إلى السّماء، فتلقي الملائكة في السّماوات، فيسلمون عليهم و يستخبرونهم، (و يزورونهم) و يستريحون إليهم و يتعلّمون منهم الخير، (الخير).

ثمّ إنّ طائفة من الجنّ و النّاس (الّذين خلقهم اللّه و أسكنهم أوساط الأرض مع الجنّ) تمرّدوا و عتوا (عن أمر اللّه) و مرحوا و شيطنوا، و بغوا في الأرض (بغير الحقّ، و علا بعضهم على بعض في العتوّ على اللّه تعالى حتّى سفكوا الدّماء

فيما بينهم) و أظهروا

- الخطيب عبد العزيز الّذي نقله السيّد المؤلف قدّس سرّه، سنورده بتمامه في ذلك الموضع إن شاء اللّه مزيدا للفائدة، فلاحظ.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٣٩

الفساد في الأرض و جحدوا ربوبيّته تعالى.

(قال:) و أقامت الطائفة المطيعون لأمر اللّه من الجنّ على رضوان اللّه و طاعته و تجنبوا (و باينوا) الطائفتين من الجنّ و النسناس (اللّذين عتوا عن أمر اللّه) فحط اللّه أجنحة الطائفة من الجنّ الّذين عتوا عن أمر اللّه و تمرّدوا فكانوا لا يقدرون على الطيران إلى السّماء و لا على لقاء الملائكة، فاقعدتهم (و إلى ملاقاة الملائكة لما ارتكبوا) الذّنوب و المعاصي و أقامتهم عليها عن الطيران.

(قال:) و كانت الطّائفة المطيعة لأمر اللّه من الجنّ تطير إلى السّماء (اللّيل و النّهار) على ما كانت عليه، و كان إبليس (- و اسمه الحارث- يظهر للملائكة أنّه من الطّائفة المطيعة) من الطائفة الّذين عابوا على الطائفتين من الجنّ و النسناس المعاصين، و كان ممّن يصعد إلى السّماء، لا يحجب عنها لاجتهاده في الطّاعة للّه و لطعنه على أهل المعاصي من الجنّ و النسناس، و كان في عداد الملائكة، معروفا بذلك لطاعته و عبادته، فكانوا كذلك ما شاء اللّه.

ثمّ بدا اللّه فخلق خلقا على خلاف خلق الملائكة، و (على) خلاف خلق الجنّ و النسناس، فخلق خلقا يدبّون كما يدبّ الهوام في الأرض، يأكلون و يشربون كما تأكل الأنعام من مراعي الأرض، و هم (كلّهم) ذكران ليس فيهم أناث، و لم يجعل اللّه لهم شهوة (النساء) و لا حبا و لا حرضا في المال، و لا طول الأمل، و لا لذّة عيش، لا يلبسهم اللّيل و لا يغشاهم النّهار، (و ليسوا ببهائم و لا هوام) و لباسهم ورق الشجر، و ورودهم (و شربهم من) العيون الغزار و الأودية الكبار.

(ثمّ أراد اللّه أن يفرّقهم) ففرّقهم فرقتين بعد سواء، فأسكن إحدى الفرقتين من (فجعل فرقة) خلف مطلع الشّمس من وراء البحر، و كوّن لهم مدينة أنشأها لهم تسمّى «باجرشا» (جابرسا) طولها اثنا عشر ألف فرسخ (في اثنى عشر ألف فرسخ) و كوّن عليها سور حديد (لهم سورا من حديد) يقطع الأرض إلى السّماء، ثمّ أسكنهم فيها.

و أسكن الفرقة الاخرى من خلف مغرف الشّمس و من وراء البحر، و كوّن لهم مدينة أنشأها لهم تسمّى باجلقا (جابلقا) طولها إثنا عشر ألف فرسخ في اثنى عشر

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٤٠

ألف فرسخ، و كوّن لهم سور حديد (سورا من حديد) يقطع الأرض إلى السّماء، فأسكن الفرقة الأخرى فيها، لا يعلم أهل باجرشا (جابرسا) بأهل أهل جابلقا (بموضع أهل جابلقا)، و لا يعلم أهل باجلقا بموضع أهل باجرشا، و لا يعلم (بهم أهل) أوسط الأرض من الجنّ و النّساس من مكانهما، و لا يعلم أهل مدينتين بموضع أهل أوسط الأرض من الجنّ و النّساس.

فكانت الشّمس تطلع على أهل أوسط الأرض من الجنّ و النّسناس دون المدينة الّتي في ناحية المشرق و هي تجري

فتمرّ على أهل أوسط الأرض من الجنّ فينتفعون بحرّها و يستضيئون بنورها، ثمّ تغرب في عين حامية (حمئة) تجري دون المدينة الّتي ممّا تلي المعرب، فلا يعلم بها أهل باجرشا إذا اطلعت، (لأنها تطلع من دون جابرسا، و تغرب من دون جابلقا)، و لا يعلم بها أهل باجلقا إذا غربت.

قال: فقلنا: يا أمير المؤمنين فكيف يبصرون و يذهبون و يجيئون، (و يحيون)؟

و كيف يأكلون و يشربون؟، و ليس تطلع عليهم الشّمس؟.

فقال صلوات اللّه عليه: إنّهم يستضيئون بشعاع نور اللّه فهم في أشدّ ضوء من نور الشّمس في ضحاها لا يعرفون، (و لا يرون أن اللّه تعالى خلق) شمسا و لا قمرا و لا نجوما و لا كواكب و لا خلق خلقا غيرهم، (و لا يعرفون شيئا غيره).

فقيل: يا أمير المؤمنين! فأين إبليس عنهم؟

قال: ما (لا) يعرفون إبليس، و لا سمعوا بذكره، و لا يرون انّ اللّه خلقه، لا يعرفون إلاّ اللّه وحده لا شريك له، لم يكتسب أحد منهم خطيئة قطّ، و لم يعرفوا بها، (و لم يقترف إثما) لا يهرمون و لا يسقمون و لا يموتون (يعبدون اللّه) إلى يوم القيامة لا يفترون، اللّيل و النّهار عندهم سواء.

ثمّ قال عليه السّلام (٦٠): لمّا أحبّ أن يخلق خلقا بيده، و ذلك بعد ما مضى للجنّ

---

(٦٠) قوله: قال علي (ع): لمّا أحبّ.

روى من هذا الموضع الصدوق في العلل و علي بن إبراهيم القمي في التفسير إلى آخر-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٤١

- الخطبة كما أشرنا بهما سابقا.

قال الصدوق في كتابه العلل، باب ٩٦، الحديث ١، ص ١٠٤: حدّثنا محمّد بن الحسن قال: حدّثنا محمّد بن الحسن الصفّار، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن أبي المقدام، عن جابر، عن أبي جعفر (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع): انّ اللّه تبارك و تعالى لمّا أحبّ الحديث، و لمّا كان اختلاف النسخة أو النقل في النقل الصدوق مع نقل الخطيب و السيّد المؤلف، قليلا جدا، اكتفينا بالإشارة في بين الهلالين، إلى مواضع الاختلاف.

و رواه أيضا القمي في تفسيره ج ١ في سورة البقرة ذيل الآية ٣٠:

وَ إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً [البقرة: ٣٠].

بسند آخر كما يلي:

حدثني أبي، عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن (أبي) مقدام، عن ثابت الحذاء، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن آبائه (ع)، عن أمير المؤمنين (ع) قال:

انّ اللّه تبارك و تعالى أراد أن يخلق خلقا بيده، و ذلك بعد ما مضى من الجن و النسناس في الأرض سبعة آلاف سنة و كان من شأنه خلق آدم

كشط عن أطباق السّموات، قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ و النسناس، فلمّا رأوا ما يعملون فيها من المعاصي و سفك الدّماء و الفساد في الأرض بغير الحق، عظم ذلك عليهم و غضبوا و تأسّفوا على أهل الأرض و لم يملكوا غضبهم فقالوا: ربّنا أنت العزيز القادر الجبّار القاهر العظيم الشأن، و هذا خلقك الضيف الذليل يتقلبون في قبضتك، و يعيشون برزقك، و يستمتعون بعافيتك، و هم يعصون بمثل هذه الذّنوب العظام لا تأسّف عليهم، و لا تغضب و لا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم و ترى، و قد عظم ذلك علينا و أكبرناه فيك، قال: فلمّا سمع ذلك من الملائكة: «قال إنّي جاعل في الأرض خليفة» يكون حجّة في أرضي على خلقي، فقالت الملائكة: «سبحانك أ تجعل فيها من يفسد فيها» كما أفسد بنو الجانّ و يسفكون الدّماء، كما سفك بنو الجانّ، و يتحاسدون و يتباغضون، فاجعل ذلك الخليفة منّا فإنّا لا نتحاسد، و لا نتباغض، و لا نسفك الدّماء و نسبح بحمدك و نقدّس لك، قال جلّ و عزّ: **«إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» إنّي أريد أن أخلق خلقا بيدي، و اجعل من ذرّيّته أنبياء، و مرسلين،-**

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٤٢

- و عبادا صالحين، و أئمّة مهتدين، أجعلهم خلفاء على خلقي في أرضي ينهون عن معصيتي، و ينذرونهم من عذابي، و يهدونهم إلى طاعتي، و يسلكون بهم طريق سبيلي، و أجعلهم لي حجّة عليهم (عذرا و نذرا) و أبيد النسناس من أرضي و اطهّرها منهم، و أنقل مردة الجن العصاة من بريّتي و خلفي و خيرتي، و اسكنهم في الهواء في اقطار الأرض فلا يجاورون نسل خلقي، و أجعل بين الجن و بين خلقي حجابا فلا يرى نسل خلقي الجنّ، و لا يجالسونهم و لا يخالطونهم، فمن عصاني من نسل خلقي الّذين اصطفيتهم و أسكنهم مساكن العصاة و أوردتهم مواردهم و لا أبالي.

قال: فقالت الملائكة: يا ربّنا افعل ما شئت «لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا انّك أنت العليم الحكيم» قال: فباعدهم اللّه من العرش مسيرة خمسمائة عام، قال: فلاذوا بالعرش و أشاروا بالأصابع، فنظر الربّ جلّ جلاله إليهم، و نزلت الرّحمة فوضع لهم البيت المعمور، فقال: طوفوا به، و دعوا العرش فإنّه لي رضا، فطافوا به و هو البيت الّذي يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون أبدا، فوضع اللّه البيت المعمور توبة لأهل السّماء، و وضع الكعبة توبة لأهل الأرض، فقال اللّه تبارك و تعالى:

إِنِّي خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ [سورة الحجر: ٢٨- ٢٩].

قال: و كان ذلك من اللّه تعالى في آدم قبل أن يخلقه و احتجاجا منه عليهم.

قال: فاغترف ربّنا عزّ و جلّ بيمينه من الماء العذب الفرات، و كلتا يديه يمين، فصلصلها في كفّه حتّى جمدت، فقال لها: منك أخلق النبيّين و المرسلين و عبادي الصالحين و الأئمّة المهتدين و الدعاة إلى الجنّة و أتباعهم إلى يوم القيامة، و لا أبالي و لا أسأل عمّا أفعل و هم يسألون.

ثمّ اغترف غرفة اخرى من الماء المالح الأجاج فصلصلها في كفّه فجمدت، ثمّ قال لها:

منك اخلق الجبارين و الفراعنة و العتاة و اخوان الشياطين و الدّعاة إلى النار إلى يوم القيامة و أشياعهم، و لا أبالي و أسأل عمّا أفعل و هم يسألون.

قال: و شرطه في ذلك البداء فيهم، و لم يشترط في أصحاب اليمين، ثمّ خلط المائين جميعا في كفّه فصلصلها ثمّ (كفأهما) كفهما قدام عرشه و هما سلالة من طين ثمّ أمر اللّه الملائكة الأربعة الشمال و الجنوب و الصّبا و الدّبور ان يجولوا على هذه السلالة من الطين فأمروها-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۱۴۳

و النسناس (في الأرض (ع) سبعة آلاف سنة.

قال: فلمّا كان من شأن أن يخلق آدم (ع) للّذي أراد من التدبير و التقدير ممّا (لما (ع) فيما (ق)) هو مكونة و مكيفة في السّماوات و الأرض، و علمه بما (لما (ع)) أراد ذلك كلّه سابق كشف (كشط (ع)) عن أطباق السّماوات.

ثمّ قال الملائكة: أنظر إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ و النسناس، هل ترضون أعمالهم و طاعتهم لي، فاطّلعت الملائكة على أهل الأرض من الجنّ و النسناس، فلمّا راوا ما يعملون فيها من المعاصي و سفك الدّماء و الفساد في الأرض بغير الحقّ، أغضبهم ذلك (عظم ذلك عليهم (ع) أعظموا ذلك (ق)) و غضبوا اللّه، و تأسفوا (أسفوا (ع ق)) على أهل الأرض و لم يملكوا غضبهم ان قالوا: يا ربّنا أنت العزيز الجبّار (القاهر القادر العظم الشأن) القادر المطعم الرّازق، هذا (هؤلاء كلّهم) خلقك الضعيف الذّليل في أرضك، (كلّهم) ينقلبون (في قبضتك) و يعيشون برزقك، و يستمتعون (يتمتّعون) بعافيتك و هم يعصونك بمثل هذه الذّنوب العظام، لا تأسف و لا تغضب و لا تنتقم لنفسك بما تسمع منهم و ترى و قد عظم ذلك علينا و أكبرنا (فيك).

فلمّا سمع اللّه جل جلاله ذلك من الملائكة (مقالة الملائكة) قال: إنّي جاعل في

- (فأبدوها) و أنشئوها ثمّ انزوها (أبروها) و جزوّها و فصّلوها، و أجروا فيها الطبائع الأربعة الرّيح و الدّم و المرّة و البلغم، فجالت الملائكة عليها و هي الشمال و الجنوب و الصبا و الدبور و اجروا فيها الطبائع الأربعة، فالريح في الطبائع الأربعة من البدن من ناحية الشمال، و البلغم في الطبائع الأربعة من ناحية الصبا، و المرّة في الطبائع الأربعة من ناحية الدبور، و الدّم في الطبائع الأربعة من ناحية الجنوب.

قال: فاستقلّت النّسمة و كمل البدن، فلزمه من ناحية الريح حبّ النساء و طول الأمل و الحرص، و لزمه من ناحية البلغم حبّ الطعام و الشراب و البرّ و الحلم و الرفق، و لزمه من ناحية المرّة الحبّ و الغضب و السفه و الشيطنة و التحير و التمرّد و العجلة، و لزمه من ناحية الدّم حبّ الفساد و اللّذّات و ركوب المحارم و الشّهوات، قال أبو جعفر (ع): وجدنا هذا في كتاب أمير المؤمنين (ع).

و عنه البحار ج ۱۱، ص ۱۰۳، الحديث ۱۰.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۱۴۴

الأرض خليفة لي (عليهم) أعلمه فيكون (حجّتي على خلقي في الأرض) حجّة لي في أرضي و خليفتي.

فقالت الملائكة: سبحانك (ربّنا) أ تجعل فيها من يفسد فيها مع هؤلاء و يسفك الدماء و نحن نسبّح بحمدك و نقدّس لك فاجعله منا، (فإنّا لا نفسد في الأرض و لا نفسك الدماء).

قال اللّه جلّ جلاله: يا ملائكتي إنّي أعلم ما لا تعلمون، إنّي أريد أن أخلق خلقا بيدي، أجعل من ذريّته أنبياء مرسلين و عبادا صالحين و أئمّة مهتدين، أجعلهم خلفاء (خلفائي) على خلقي في أرضي ينهونهم عن (المعاصي) معصيتي و ينذرونهم عذابي و يهدونهم إلى طاعتي، و يسلكون بهم طريق سبيلي، و أجعلهم حجّة لي عذرا و نذرا، و أبير النسناس (و انفي الشياطين) من أرضي و أطهّرها منهم.

و أنقل مردة (الجنّ) العصاة عن بريّتي و خلقي و خيرتي.

فأسكنهم في الهواء و (في) اقطار الأرض، و لا أجاور (لا يجاورون) نسل خلقي، و اجعل بين الجنّ و بين خلقي حجابا، فلا يرون نسل خلقي، و أحبس الجنّ فلا يجالسونهم (و لا يؤانسونهم) و لا يخالطونهم و لا يبهجون ببهجتهم، فمن عصاني من نسل خلقي الّذين اصطفيتهم لنفسي أسكنتهم مسكن العصاة، و أوردتهم مواردهم و لا أبالي.

(فأسكنهم في الهواء من أقطار الأرض و في الفيافي، فلا يراهم خلق، و لا يرون شخصهم، و لا يجالسونهم، و لا يخالطونهم، و لا يؤاكلونهم، و لا يشاربونهم، و انفرّ مردة الجنّ العصاة عن نسل بريّتي و خلقي و خيرتي، فلا يجاورون خلقي، و أجعل بين خلقي و بين الجانّ حجابا، فلا يرى خلقي شخص الجنّ، و لا يجالسونهم، لا يشاربونهم، و لا يتهجّمون تهجّمهم، و من عصاني من نسل خلقي الّذي عظمته و اصطفيته لغيبي أسكنهم مساكن العصاة، و أوردهم موردهم و لا أبالي (ق)).

فقالت الملائكة): ربّنا افعل ما شئت، فلا علم لنا إلاّ ما علّمتنا انّك أنت العليم الحكيم.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٤٥

فقال اللّه جلّ جلاله للملائكة:

إِنِّي خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ [سورة الحجر: ٢٨-٢٩].

قال: و كان ذلك من اللّه تقدمة إلى الملائكة من قبل أن يخلقه احتجاجا عليهم.

(قال: و كان ذلك من اللّه تقدمة للملائكة قبل أن يخلقه احتجاجا منه عليهم، و ما كان اللّه ليغيّر ما بقوم إلاّ بعد الحجّة عذرا أو نذرا، فأمر تبارك و تعالى ملكا من الملائكة، فاغترف غرفة بيمينه، فصلصلها في كفّه فجمدت، فقال اللّه عزّ و جلّ: منك أخلق (ق)) «٦١».

قال فاغترف الجبّار تبارك و تعالى غرفة بيمينه من الماء العذاب الفرات و كلتا يديه يمين فصلصلها في كفّه فجمدت، ثمّ قال لها: منك أخلق النبيّين و المرسلين و عبادي الصّالحين و الأئمة المهتدين الدّعاة إلى الجنّة و أتباعهم إلى يوم القيامة، و لا أبالي و لا أسأل عمّا أفعل و هم يسألون، يعني بذلك خلقه أنّه يسألهم، ثمّ اغترف اللّه تعالى بكفّه الأخرى غرفة من الماء الملح (المالح الأجاج) فصلصلها في كفّه فجمدت، ثمّ قال لها منك أخلق خلقي الجبّارين و الفراعنة و العتاة و إخوان الشّياطين و أئمّة الكفر الدّعاة إلى النّار إلى يوم القيامة و أتباعهم و لا أسأل و لا أبالي عمّا أفعل و هم يسألون.

(قال:) و اشترط (و شرط) في ذلك البداء له و لم يشترط في أصحاب اليمنى البداء فيهم ثمّ خلط المائتين في كفيه جميعا فصلصلها جميعا ثمّ كفّاهما (ألقاهما) قدام عرشه و هما بلة سلالة من طين.

ثمّ أمر الملائكة الأربعة، الشمال و الدبور و الصبا و الجنوب، أن جولّوا على هذه (الثلاثة السلالة) البلة من الطين و اثيروها (ابرؤها) و انسموها، ثمّ جزءوها و فصّلوها و اجروؤا فيها (إليها) الطبائع:. الرّيح و البلغم و المرّة و الدّم، فجالت الملائكة عليها الشمال و الدبور و الصبا و الجنوب، و اجروا فيها الطبائع الأربع، فالرّيح من الطبائع

---

(٦١) قوله: منك أخلق.

إلى هنا ما رواه قطب الدّين الراوندي من الخطبة.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١۴۶

الأربع في البدن من ناحية الشمال، و البلغم من الطبائع الأربع في البدن من ناحية الصّبا، و المرّة من الطبائع الأربع في البدن من ناحية الدبور، و الدّم من الطبائع الأربع في البدن من ناحية الجنوب، قال: فاستقلت النّسمة و كمل البدن، فلزمه من ناحية الرّيح حبّ الجاه (الحياة) و طول الأمل و الحرص، و لزمه من ناحية البلغم حبّ الطعام و الشّراب و اللبس (اللين) و الحلم و الرّفق، و لزمه من ناحية المرّة: (التجبر) الغضب و السّفه و الشّيطنة و التمرّد و الجبن و العجلة، و لزمه من ناحية الدّم شهوة النّساء (اللّذات) و ركوب المحارم و الشّهوات، (قال عمرو أخبرني جابر، أنّ أبا جعفر (ع) قال: وجدناه في كتاب من كتب عليّ عليه السّلام).

هذا آخر الخطبة المنسوبة عليه الصّلوات و السّلام.

و الأغراض من نقلها كثيرة، أحسنها أنّها شاهدة على التّرتيب المتقدّم للعالم الّذي هو الإيجاد من الأسفل إلى الأعلى دون العكس، و تقديم الأجسام على الأرواح، و الأخرى أنّها شاهدة أنّ هناك عالم فيه أقوام ليس لهم علم بأنّ اللّه خلق آدم أو إبليس أو خلق السّموات و الأرض، و هذه الأغراض شريفة جدا، فإنّ كلامه كما قلناه حجّة على الكلّ عقلا و نقلا و كشفا و يوافق هذا كلّه ما قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله في الأقوال المتقدّمة، و هو قوله مروي عن ابن عباس رضي اللّه عنه انّه قال:

إنّ اللّه تعالى أرضا بيضاء مسيرة الشّمس فيها ثلثون يوما هي مثل أيّام الدّنيا ثلثين مرّة مشحونة خلقا لا يعلمون انّ اللّه خلق السّماوات و الأرض، و لا يعلمون أنّ اللّه خلق آدم و إبليس (٦٢).

---

(٦٢) قوله: إنّ للّه تعالى أرضا.

راجع في أمثال هذا الحديث: بصائر الدّرجات لأبي جعفر محمّد بن الحسن الصفّار المتوفّى ٢٩٠ ه‍ ق، ج ١٠، باب ١٤ في الأئمة، انّ الخلق الّذي خلف المشرق و المغرب يعرفونهم و يؤتونهم و يبرءون من أعدائهم، توجد فيه الأحاديث كثيرة، و أيضا راجع البحار ج ٥٧، كتاب السّماء و العالم، باب العوالم.

و روى الكليني في الروضة من الكافي، باب حديث القباب، الحديث ٣٠١، ص ٢٣١، - [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١۴٧

- بإسناده عن أبي عبد اللّه (ع) قال:

و للّه قباب كثيرة، ألا انّ خلف مغربكم هذا تسعة و ثلاثون مغربا أرضا بيضاء مملوّة خلقا يستضيئون بنوره، لم يعصوا اللّه عزّ و جلّ طرفة عين، ما يدرون خلق آدم أم لم يخلق، الحديث، فراجع.

و روى المجلسي في البحار ج ٥٧، باب العوالم، الحديث ٤٦، ص ٣٤٩، عن الكفعمي و البرسي، بإسنادهما عن الكاظم موسى بن جعفر عليهما السّلام عن آبائه (ع) عن النّبي (ص) أنّه قال له جبرئيل: و الّذي بعثك بالحقّ نبيّا إنّ خلف المغرب أرضا بيضاء فيها خلق من خلق اللّه يعبدونه و لا يعصونه، و قد تمزّقت لحومهم و وجوههم من البكاء، فأوحى اللّه إليهم: لم تبكون و لم تعصوني طرفة عين؟ قال: نخشى أن يغضب اللّه علينا و يعذبنا بالنّار، قال علي عليه السّلام: قلت: يا رسول اللّه! ليس هناك إبليس أو أحد من بني آدم؟ فقال: و الّذي بعثني بالحقّ نبيّا ما يعلمون أنّ اللّه خلق آدم و لا إبليس، و لا يحصى عددهم إلاّ اللّه، و مسير الشمس في بلادهم أربعون يوما لا يأكلون و لا يشربون.

و أخرج السيوطي في تفسيره الدّر المنثور ج ٧، ص ٦٦٣، في سورة النجم في الآية:

و أنّ عليه النشأة الأخرى ٤٧، عن النّبي (ص) قال: فان للّه تعالى وراء المغرب أرضا بيضاء بياضها و نورها مسيرة الشمس أربعين يوما فيها خلق من خلق اللّه لم يعصوا اللّه طرفة عين، قيل: يا نبيّ اللّه فأين إبليس عنهم؟ قال: لا يدرون خلق إبليس أم لم يخلق.

و أخرج الهندي في كنز العمال ج ١٠، ص ٣٦٨، الحديث ٢٩٨٤٣: إنّ للّه تعالى أرضا من وراء أرضكم هذه بيضاء، نورها و بياضها مسيرة شمسكم هذه أربعين يوما فيها عباد للّه تعالى، لم يعصوه طرفة عين، ما يعلمون أن اللّه تعالى خلق الملائكة و لا آدم و لا إبليس هم قوم يقال لهم: الروحانيون خلقهم اللّه تعالى من ضوء نوره.

روى الصّفار في كتابه بصائر الدّرجات في الجزء العاشر باب ١٤، ص ٤٩٠، باسناده عن أبي عبد اللّه الصّادق عليه الصّلاة و السّلام قال: إنّ للّه مدينة خلف البحر سعتها مسيرة أربعين يوما فيها قوم لم يعصوا اللّه قطّ، و لا يعرفون إبليس و لا يعلمون خلق إبليس، نلقاهم في كل حين فيسألونا عمّا يحتاجون إليه، و يسألونا الدعاء فنعلّمهم، و يسألونا عن قائمنا حتّى يظهر، و فيهم عبادة و اجتهاد شديد، إلى أن قال: طعامهم التسبيح، الحديث.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۴۸

و كذلك قوله المرويّ عن أبي ذر «٦٣» المتقدّم ذكره:

«ما السّموات السّبع في الكرسي إلاّ كحلقة ملقاة بأرض فلاة، و فضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة».

و إلى هذا أشار الحق تعالى في قوله:

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لاٰ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمٰا وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [سورة البقرة: ٢٥٥].

و كذلك في قوله:

وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [سورة آل عمران: ١٣٣].

لأنّك إذا اعتبرت المؤمنين كلّها و اعتبرت لكلّ مؤمن جنّة عرضها السّموات و الأرض ظهر لك سعة هذه العوالم و الأراضي الّتي هي فيها هذه الجنّات، و ذلك تقدير العزيز العليم، و اللّه خالق كلّ شيء قدير، ليس كمثله شيء و هو السّميع البصير، نعم المولى و نعم النصير.

و إذا تحقّق هذا و فرغنا من الخطبة الأولى له، فلنشرع في الخطبة الثّانية مع شرحها كما شرطناه و هو هذا، و باللّه التّوفيق و العصمة و هو يقول الحقّ و هو يهدي السّبيل.

- جاء في مسائل عبد اللّه بن سلام رسول اللّه (ص): فأخبرني عن جبرئيل ما طعامه و شرابه؟ قال: طعامه التسبيح و شرابه التهليل، الحديث. راجع الاختصاص للمفيد (ره) ص ٤٥.

(٦٣) قوله: المروي عن أبي ذر.

رواه الصدوق عليه الرحمة في معاني الأخبار، باب معنى تحيّة المسجد ح ١، ص ٣٣٢، و رواه أيضا في الخصال أبواب العشرين و ما فوقه الحديث ١٣، ص ٥٢٣، و عنهما البحار ج ٧٧، ص ٧٠، باب ما أوصى به رسول اللّه (ص) إلى أبي ذر، الحديث ١.

و أخرجه أيضا السيوطي في تفسيره الدّر المنثور في البقرة في الآية الكرسي ج ٢، ص ١٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٤٩

[الخطبة الثّانية]

[متن الخطبة الثّانية]

و من خطبة له صلوات اللّه عليه، يذكر فيها ابتداء خلق السّماء و الأرض و خلق آدم عليه السّلام و ذرّيته ثمّ خلق الملائكة و إبليس و غيرها، و هي هذه:

الحمد للّه الّذي لا يبلغ مدحته القائلون و لا يحصى نعماءه العادّون و لا يؤدّي حقّه المجتهدون، الّذي لا يدركه بعد الهمم، و لا يناله غوص الفطن، الّذي ليس لصفته حدّ محدود، و لا نعت موجود، و لا وقت معدود، و لا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، و نشر الرّياح برحمته، و وتّد بالصّخور ميدان أرضه.

أوّل الدّين معرفته، و كمال معرفته التّصديق به، و كمال التّصديق به توحيده، و كمال توحيده الإخلاص له، و كمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، و شهادة كلّ موصوف أنّه غير الصّفة، فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنه، و من قرنه فقد ثنّاه، و من ثنّاه فقد جزّأه، و من جزّأه فقد جهله، و من جهله فقد أشار إليه، و من أشار إليه فقد حدّه، و من حدّه، فقد عدّه، و من قال: فيم؟، فقد ضمّنه، و من قال: علام؟، فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم.

مع كلّ شيء لا بمقارنة، و غير كلّ شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات و الآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحّد إذ لا سكن يستأنس به و لا يستوحش من فقده (لفقده).

(خلق العالم)

أنشأ الخلق إنشاء، و ابتدأه ابتداء، بلا رويّة أجالها، و لا تجربة استفادها، و لا حركة أحدثها، و لا همامة نفس اضطرب فيها. أحال الأشياء لأوقاتها، و لأم بين مختلفاتها، و عزّز غرائزها، و ألزمها أشباحها، عالما بها قبل ابتدائها، محيطا بحدودها و انتهائها، عارفا بقرائنها و أحنائها، ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء، و شقّ الأرجاء، و سكائك

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥٠

الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطما تيّاره، متراكما زخّاره. حمله على متن الرّيح العاصفة، و الزّعزع القاصفة، فأمرها بردّه، و سلّطها على شدّه، و قرنها إلى حدّه. الهواء من تحتها فتيق، و الماء من فوقها دقيق. ثمّ أنشأ سبحانه ريحا اعتقم مهبّها، و أدام مربّها، و أعصف مجراها، و أبعد منشاها، فأمرها بتصفيق الماء الزّخّار، و إثارة موج البحار، فمخضته مخض السّقاء، و عصفت به عصفها بالفضاء.

تردّ أوّله إلى آخره، و ساجيه إلى مائره، حتّى عبّ عبابه، و رمى بالزّبد ركامه، فرفعه في هواء منفتق، و جوّ منفهق، فسوّى منه سبع سموات، جعل سفلاهنّ موجا مكفوفا، و علياهنّ سقفا محفوظا، و سمكا مرفوعا، بغير عمد يدعمها، و لا دسار ينظمها. ثمّ زيّنها بزينة الكواكب، و ضياء الثواقب، و أجرى فيها سراجا مستطيرا، و قمرا منيرا في فلك دائر، و سقف سائر، و رقم مائر.

(خلق الملائكة)

ثمّ فتق ما بين السّموات العلاء، فملأهنّ أطوارا من ملائكته منهم سجود لا يركعون، و ركوع لا ينتصبون، و صافّون لا يتزايلون، و مسبّحون لا يشأمون، لا يغشاهم نوم العيون و لا سهو العقول، و لا فترة الأبدان، و لا غفلة النّسيان.

و منهم أمناء على وحيه، و ألسنة إلى رسله، و مختلفون بقضائه و أمره، و منهم الحفظة لعباده، و السّدنة لأبواب جنانه.

و منهم الثابتة في الأرضين السّفلى أقدامهم، و المارقة من السّماء العليا أعناقهم، و الخارجة من الأقطار أركانهم، و المناسبة لقوائم العرش أكتافهم. ناكسة دونه أبصارهم، متلفّعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم و بين من دونهم حجب العزّة، و أستار القدرة. لا يتوهّمون ربّهم بالتّصوير، و لا يجرون عليه صفات المصنوعين، و لا يحدّونه بالأماكن، و لا يشيرون إليه بالنّظائر.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥١

(صفة خلق آدم عليه السّلام)

ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض و سهلها، و عذبها و سبخها، تربة سنّها بالماء حتّى خلصت، و لاطها بالبلّة حتّى لزبت، فجبل منها صورة ذات أحناء و وصول، و أعضاء و فصول، أجمدها حتّى استمسكت، و أصلدها حتّى صلصلت لوقت معدود و أجل (أمد) معلوم، ثمّ نفخ فيها من روحه فمثلت إنسانا ذا أذهان يجيلها، و فكر يتصرّف بها، و جوارح يختدمها و أدوات يقلبها، و معرفة يفرق بها بين الحقّ و الباطل، و الأذواق و المشامّ، و الألوان و الأجناس، معجونا بطينة الألوان المختلفة، و الأشباه المؤتلفة، و الأضداد المتعادية، و الأخلاط المتباينة، من الحرّ و البرد، و البلّة و الجمود، و استأدى اللّه سبحانه و الملائكة وديعته لديهم، و عهد وصيّته إليهم، في الإذعان بالسّجود له، و الخنوع لتكرمته، فقال سبحانه:

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ [سورة البقرة: ٣٤].

و قبيله، اعترتهم الحميّة و غلبت عليهم (اعترته الحميّة، و غلبت عليه) الشّقوة، و تعزّز بخلقه النّار، و استوهن خلق الصّلصال، فأعطاه اللّه النّظرة استحقاقا للسّخطة، و استتماما للبليّة، و إنجازا للعدة، فقال:

فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ [سورة الحجر: ٣٨].

ثمّ اسكن سبحانه آدم دارا أرغد فيها عيشه، و آمن فيها محلّته، و حذّره إبليس و عداوته، فاغترّه عدوّه نفاسة عليه بدار المقام، و مرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكّه، و العزيمة بوهنه، و استبدل بالجذل و جلا، و بالاغترار ندما.

ثمّ بسط اللّه سبحانه له في توبته، و لقّاه كلمة رحمته، و وعده المردّ إلى جنّته، و أهبطه إلى دار البليّة، و تناسل الذّرّيّة.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥٢

(اختيار الأنبياء)

و اصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على أداء الوحي ميثاقهم، و على تبليغ الرّسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد اللّه إليهم فجهلوا حقّه، و اتّخذوا الأنداد معه، و اجتالتهم الشياطين عن معرفته، و اقتطعتم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، و واتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكّروهم منسيّ نعمته و يحتجّوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول، و يروهم آيات المقدرة، من سقف فوقهم مرفوع، و مهاد تحتهم موضوع و معايش تحييهم، و آجال تفنيهم، و أوصاب تهرمهم، و أحداث تتابع عليهم، و لم يخل اللّه سبحانه خلقه من نبيّ مرسل، أو كتاب منزل، أو حجّة لازمة، أو محجّة قائمة، رسل لا تقصّر بهم قلّة عددهم، و لا كثرة المكذّبين لهم، من سابق سمّي له من بعده، أو غابر عرّفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، و مضت الدّهور، و سلفت الآباء، و خلفت الأبناء.

(مبعث النّبيّ (ص))

إلى أن بعث اللّه سبحانه محمّدا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لإنجاز عدته، و إتمام نبوّته، مأخوذا على النّبيّين ميثاقه، مشهورة سماته، كريما ميلاده. و أهل الأرض يومئذ ملل متفرّقة، و أهواء منتشرة، و طرائق متشتّتة، بين مشبّه للّه بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره، فهداهم به من الضّلالة، و أنقذهم بمكانه من الجهالة.

ثمّ اختار سبحانه لمحمد صلّى اللّه عليه و آله، لقاءه، و رضي له ما عنده، و أكرمه عن دار الدّنيا، و رغب به عن مقام البلوي، فقبضه إليه كريما صلى اللّه عليه و آله، و خلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملا، بغير طريق واضح، و لا علم قائم.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥٣

(القرآن)

كتاب ربّكم فيكم، مبيّنا حلاله و حرامه، و فرائضه و فضائله، و ناسخه و منسوخه، و رخصه و عزائمه، و خاصّه و عامّه، و عبره و أمثاله، و مرسله و محدوده، و محكمه و متشابهه، مفسّرا مجمله، و مبيّنا غوامضه، بين مأخوذ ميثاق علمه، و موسّع على العباد في جهله، و بين مثبت في الكتاب فرضه، و معلوم في السّنّة نسخه، و واجب في السّنّة أخذه، و مرخّص في الكتاب تركه، و بين واجب بوقته، و زائل في مستقبله. و مباين بين محارمه، من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه، و بين مقبول في أدناه، و موسّع في أقصاه.

(الحجّ)

منها، و فرض عليكم حجّ بيته الحرام، الّذي جعله قبلة للأنام، يردونه ورود الأنعام، و يألهون إليه ولوه الحمام، (و) جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، و إذعانهم لعزّته، و اختار من خلقه سمّاعا أجابوا إليه دعوته، و صدّقوا كلمته، و وقفوا مواقف أنبيائه، و تشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه. يحرزون الأرباح في متجر عبادته، و يتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه و تعالى للإسلام علما، و للعابدين (للعائذين) حرما، فرض حقّه، و أوجب حجّه، و كتب عليكم وفادته، فقال سبحانه:

وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ [سورة آل عمران: ٩٧].

هذا آخر الخطبة الثانية، و الغرض من نقلها الّذي سبق في أوّلها، و غير ذلك، و هو أنّ هذه المقدّمات بأسرها محتوية على

بحث التطابق بين العالمين لتصحيح التّأويل الحقيقي على قاعدة المحقّقين، و هذه الخطبة شاملة لهذه الأبحاث بعد كلام الشيخ الأعظم، و كذلك على بحث آدم و الخليفة و ذكر إبليس و سجدته، و هذه الخطبة شاملة لهذه كلّها، و على بحث القرآن و تحقيقه و كيفيّة تأويله و تفسيره، و هذه الخطبة شاملة

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥۴

لهذه كلّها، و على بحث الملائكة و الجنّ و أنواعهم و أصنافهم، و هذه الخطبة شاملة لهذه كلّها، و على ذكر التّوبة و أقسامها، و هذه الخطبة شاملة لذلك كلّه، و كذلك الحج و تحقيقه و الكلّ مقصود.

و حيث إنّ ألفاظها و تركيبها في غاية الصّعوبة و لا يفهم منها شيء إلاّ بقوّة الشّرح، فلنشرع فيها من حيث الشّرح بالّذي شرحها الشيخ الكامل كمال الملّة و الدّين ميثم البحراني قدّس اللّه روحه العزيز «٦٤»، فانّ شرحه سبب الفهم و ستصيب فوائد كثيرة من أنفاسه الشّريفة، و قد كنّا واعدنا بهذا في أوّل الخطبة. فتقول: قال الشّارح رحمة اللّه عليه:

---

(٦٤) قوله: الشيخ الكامل ميثم البحراني.

كمال الدّين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، الحكيم المتألّه و الفقيه المحقق، فهو فقيه الحكماء و حكيم الفقهاء، المتوفى سنة ستمائة و تسع و سبعين، أو ستمائة و تسع و تسعين أو ما بينهما.

له ثلاثة شروح على نهج البلاغة: الكبير و المتوسط و الصغير، و الشرح المذكور في المتن شرحه الكبير «مصباح السالكين» و هو أدقّ شروح النهج كما أنّه أروعها، روى ابن ميثم عن الشيخ كمال الدّين علي بن سليمان البحراني، عن المحقق نصير الدّين الطوسي.

و روى عنه العلاّمة الحلّي، و السيّد الأجل عبد الكريم أحمد بن طاوس.

قيل: إنّ ابن ميثم تلمّذ على الخواجة المحقق نصير الدّين الطوسي في الحكمة و تلمّذ الطوسي على ابن ميثم في الفقه.

و السيّد السند مير صدر الدّين محمّد الشيرازي أكثر النقل عنه في حاشية شرح التجريد سيّما في مباحث الجواهر و الأعراض.

له مصنّفات: منها: المعراج السّماوي، و القواعد المرام في علم الكلام، و البحر الخضّم في الإلهيّات، و شرح المائة كلمة، و غيرها.

راجع في ترجمته: «أعيان الشيعة» ج ١٠، ص ١٩٧، «روضات الجنّات» ج ٧، ص ٢١٦، «أمل الآمل» ج ٢، ص ٣٣٢، «الكنى و الألقاب» ج ١، ص ٤٢٥، «رياض العلماء» ج ٥، ص ٢٢٦، «ريحانة الأدب» ج ٨ ص ٢٤٠، «مصادر نهج البلاغة» ج ١، ص ٢٢٣، «الذريعة» ج ١٤، ص ١٤٩.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥۵

[شرح الخطبة الثانية و فيها خمسة فصول]

اعلم أنّ هذه الخطبة مشتملة على مباحث عظيمة و نكت مهمّة على ترتيب طبيعيّ فلنعقد فيها خمسة فصول:

الفصل الأوّل

في تصديرها بذكر اللّه جلّ جلاله و تمجيده و الثّناء عليه بما هو أهله، و هو قوله:

الحمد للّه إلى قوله: و لا يستوحش لفقده.

(شرح المفردات)

فأقول: المدح و المديح: الثّناء الحسن، و المدحة: فعلة من المدح و هي الهيئة و الحالة الّتي ينبغي أن يكون المدح عليها،

و الإحصاء: إنهاء العدّ و الإحاطة بالمعدود، يقال: أحصيت الشّيء أي أنهيت عدّه، و هو من لواحق العدد، و لذلك نسبه إلى العادّين، و النّعماء: النّعمة، و هو اسم يقام مقام المصدر، و أدّيت حقّ فلان إذا قابلت إحسانه بإحسان مثله، و الإدراك: اللحوق و النيل و الإصابة و الوصول و الوجدان، و الهمّة: هي العزم الجازم و الإرادة، يقال: فلان بعيد الهمّة إذا كانت إرادته تتعلّق بعليّات الأمور دون محقّراتها، و الغوص: الحركة في عمق الشيء، من قولهم: غاص في الماء إذا ذهب في عمقه، و الفطن: جمع فطنة، و هي في اللّغة الفهم، و هو عند العلماء عبارة عن جودة استعداد الذّهن لتصوّر ما يريد عليه، و حدّ الشيء: منتهاه، و الحدّ المنع، و منه سمّى العلماء تعريف الشيء بأجزائه حدّا، لأنّه يمنع أن يدخل في المحدود ما ليس منه أو يخرج منه ما هو منه، و النّعت: الصّفة، و الأجل: المدّة المضروبة للشيء، و الفطرة: الشّق و الابتداع، قال ابن عبّاس: ما كنت أدري ما معنى قوله تعالى:

فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ [سورة الأنعام: ١٤].

حتّى جاءني أعرابيّان يختصمان على بئر فقال أحدهما: «أنا فطرتها» أي أبتدعتها (٦٥).

---

(٦٥) قوله: أنا فطرتها.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥٦

و الخلائق: جمع خليقة و هي إمّا بمعنى المخلوق، يقال: هم خليفة اللّه، و خلق اللّه، أي مخلوقة، أو بمعنى الطّبيعة لأنّ الخليقة هي الطّبيعة أيضا، و النشر البسط، و تد بالفتح:

أي ضرب الوتد في حائط أو في غيره، و الصخورة: الحجارة العظام، و الميدان: الحركة بتمايل، و هو الإسم من: ماد يمد ميدا، و منه غصن ميّاد: متمايل، و الدّين في أصل اللّغة يطلق على معان، منها العادة، و منها الإذلال، يقال: دان له، أي أذلّه و ملّكه، و منه:

بيت الحماسة دنّاهم كما دانوا، و منها المجازاة كقوله تعالى:

أَ إِنّٰا لَمَدِينُونَ [سورة الصافات: ٥٣].

أي مجزيّون، و المثل المشهور (٦٦) كما تدين تدان، و منها الطّاعة، يقال: دان له أي

- ذكره أبو عبيد المتوفى سنة ٢٢٤ في كتابه (غريب الحديث) ج ٤، ص ٣٧٣ باسناده عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما «فاطر السّموات و الأرض» حتّى أتاني أعرابيان يختصما في بئر، فقال أحدهما: «أنا فطرتها» أي أنا ابتدأتها.

و ذكر قريبا منه أيضا الطبري المتوفّى ٣١٠ في تفسيره (جامع البيان) ج ٧، ص ١٠١ في تفسير الآية المذكورة، باسناده عن ابن عباس.

و ذكره أيضا الطبرسي المتوفّى ٥٤٨ في تفسيره (مجمع البيان) في سورة الأنعام في الآية المذكورة، و فيه: قال: ما كنت أدري ما «فاطر السّموات و الأرض» أي ابتدأت حفرها».

و ذكره أيضا ابن الأثير المتوفّى ٦٠٦ في كتابه النهاية ج ٣، ص ٤٥٧.

(٦٦) قوله: و المثل المشهور:

قال الفراهيدي المتوفّى ١٧٥ ه في كتاب العين ج ٨، ص ٧٣: و في المثل: كما تدين تدان، أي كما تأتي يؤتي إليك، ذكره أيضا النيسابوري الميداني المتوفّى ٥١٨ ه في كتابه مجمع الأمثال ج ٢، ص ١٨٣، و قال: أي كما تجازي تجازى، يعني كما تعمل تجازى، إن كان حسنا فحسن و إن كان سيئا فسيّئ، و جاء المثال في كتاب فوائد اللآلي في مجمع الأمثال للشيخ إبراهيم الطرابلسي المتوفّى ١٣٠٧ ج ٢، ص ١٢٢، كما يلي:

كما تدين يا فتى تدان   فليك منك أبدا إحسان

قال ابن منظور المتوفى ٧١١ في لسان العرب:

قال خويلد بن نوفل الكلابي للحرث بن أبي شمر الغسّاني، و كان اغتصبه ابنته:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥٧

أطاعه كقول عمرو بن كلثوم:

عصينا الملك فينا أن تدينا.

و يطلق في العرف الشّرعي على الشرائع الصادرة بواسطة الرّسل عليهم السّلام، و قرنه: أي جعل له قرينا، و المقارنة الاجتماع، مأخوذ من قرن الثّور و غيره، و منه القرن للمثل في السنّ، و كذلك القرن من النّاس و أهل الزّمان الواحد، قال:

إذا ذهب القرن الّذي أنت فيهم   و خلّفت في قرن فأنت غريب

«٦٧» و المزايلة: المفارقة و هي مفاعلة من الطّرفين، و المتوحّد بالأمر: المنفرد به عمّن يشاركه فيه، و السّكن بفتح الكاف: كلّ ما سكنت إليه، و الاستيناس بالشيء: ميل الطبع إليه و سكونه، و كذلك التأنس، و منه الأنيس و هو المونس، و الاستيحاش ضدّ الاستيناس و هو نفرة الطّبع، بسبب فقد المؤانس.

و اعلم أنّا نفتقر في بيان نظام كلامه عليه السّلام في هذا الفصل إلى تقديم مقدّمة:

(في معنى الصّفة و أقسامها)

فنقول: الصّفة أمر يعتبره العقل لأمر آخر، و لا يمكن أن يعقل إلاّ باعتباره معه، و لا يلزم من تصوّر العقل شيئا لشيء أن يكون ذلك المتصوّر موجودا لذلك الشيء في نفس الأمر، بيان ذلك ما قيل في رسم المضاف: إنّه الأمر الّذي تعقّل ماهيّته بالقياس إلى غيره و ليس له وجود سوى معقوليّته بالقياس إلى ذلك الغير.

-

يا أيّها الملك المخوف، أما ترى ليلا و صبحا كيف يختلفان؟

هل تستطيع الشمس أن تأتي بها ليلا، و هل لك بالمليك يدان؟

يا حار، أيقن أنّ ملكك زائل و اعلم بأنّ كما تدين تدان

إلى أن قال:

و الدّين: الطاعة، و قد دنته و دنت له أي أطعته، قال عمرو بن كلثوم:

و أياما لنا غرّا كراما عصينا الملك فيها ان ندينا

(٦٧) قوله: قال: إذا ذهب.

ذكر الشعر ابن منظور في لسان العرب في مادّة: قرن، فراجع.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥٨

و الصّفة تنقسم باعتبار العقل إلى حقيقيّة و إضافيّة و سلبيّة، و ذلك لأنّ نسبة العقل للصّفة إلى غيرها، إمّا أن يعقل معها نسبته من المنسوب إليه، أو لا يعقل، فإن كان الأوّل فهو المضاف الحقيقي، و حقيقته أنّه المعقول بالقياس إلى غير يكون بإزائه يعقل له إليه نسبة، و لا يكون له وجود سوى معقوليّته بالقياس إليه، لكونه تعالى خالقا و رازقا و ربّا، فإنّ حقيقة هذه الصّفات هي كونها معقولة بالقياس إلى مخلوقيّة و مرزوقيّة و مربوبيّة موازية.

و إن كان الثّاني فالمنسوب إليه إمّا أن يكون موجودا للمضاف أو ليس بموجود له، و الأوّل هو الصّفات الحقيقيّة، لكونه تعالى حيّا، فإنّه أمر يعقل بالقياس إلى صحّة العلم و القدرة له، و ليس بإزاء أمر يعقل منه نسبة إليه، و الثّاني هو الصّفات السّلبيّة، لكونه تعالى ليس بجسم و لا بعرض و غيرهما، فإنّها أمور تعقل له بالقياس إلى أمور غير موجودة له تعالى.

ثمّ نقول: إنّه لا يلزم من اتّصاف ذاته سبحانه بهذه الأنواع الثّلاثة من الصّفات تركيب و لا كثرة في ذاته، لأنّها اعتبارات

عقليّة تحدثها عقولنا المقايسة إلى الغير، و لم يلزم ذلك أن تكون موجودة في نفس الأمر و إن لم تعقل، و لمّا كان دأب العقلاء أن يصفوا خالقهم سبحانه بما هو أشرف طرفي النّقيض لما تقرّر في عقولهم من أعظميّته و مناسبة أشرف الطرفين للأعظميّة كان ما وصف به تعالى من الصّفات الحقيقيّة و الإضافيّة و السّلبيّة كلها كذلك.

(في تقدّم الصّفات السلبيّة الصفات على الثبوتيّة)

إذا عرفت ما قلناه فاعلم أنّه عليه السّلام شرع أوّلا في الاعتبارات السلبيّة و قدّمها على الثبوتيّة لدقيقة، و هي أنّه قد ثبت في علم السّلوك إلى اللّه أنّ التوحيد المحقّق و الإخلاص المطلق لا يتقرّر إلاّ بنقض كلّ ما عداه عنه و تنزيهه عن كلّ لاحق له و طرحه عن عن درجة الاعتبار و هو المسمّى في عرف المجرّدين و أهل العرفان بمقام التخلية و النقض و التّفريق، و ما لا يتحقّق الشيء إلاّ به كان اعتباره مقدّما على اعتباره،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٥٩

و لهذا التّرتيب كان أجلّ كلمة نطق بها في التوحيد (قولنا): لا إله إلاّ اللّه، إذ كان الجزء الأوّل منها مشتملا على سلب كلّ ما عدا الحقّ سبحانه، مستلزما لغسل درن كلّ شبهة لخاطر سواه، و هو مقام التنزيه و التخلية، حتّى إذا انزاح كلّ ثان عن محلّ عرفانه استعدّ بجوده للتخلية بنور وجوده و هو ما اشتمل عليه الجزء الثّاني من هذه الكلمة.

و لمّا بيّنا أنّه عليه السّلام كان لسان العارفين و الفاتح لإغلاق الطّريق إلى الواحد الحقّ تعالى و المعلّم و المرشد لكيفيّة السّلوك، و كانت الأوهام البشريّة حاكمة بمثليّته تعالى لمدركاتها، و العقول قاصرة عن إدراك حقيقته و الواصل إلى ساحل عزّته و المتّزه له عمّا لا يجوز عليه إذ ما أمكن وجوده نادرا، لم يكن للأوهام الواصفة له تعالى بما لا يجوز عليه معارض في أكثر الخلق، بل كانت جارية على حكمها قائدة لعقولها إلى تلك الأحكام الباطلة كالمشبّهة و نحوهم، لا جرم بدأ عليه السّلام بذكر السلب إذ كان تقديمه مستلزما لغسل درن الحكم الوهميّ في حقّه تعالى عن لوح الخيال و الذّكر، حتّى إذا أورد عقب ذلك ذكره تعالى بما هو أهله ورد على ألواح صافية من كدر الباطل فانتقشت بالحقّ كما قال: فصادف قلبا خاليا فتمكّنا.

ثمّ إنّه عليه السّلام بدأ بتقديم حمد اللّه تعالى على الكلّ هاهنا و في سائر خطبه جريا على العادة في افتتاح الخطب و تصديرها، و سرّ ذلك تأديب الخلق بلزوم الثناء على اللّه تعالى، و الاعتراف بنعمته عند افتتاح كلّ خطاب لاستلزام ذلك ملاحظة حضرة الجلال و الالتفات إليها عامّة الأحوال، و قد بيّنا أنّ الحمد يفيد معنى الشّكر، و يفيد ما هو أعمّ من ذلك و هو التّعظيم المطلق و بجميع أقسامه مراد هاهنا لكون الكلام في معرض التمجيد المطلق.

(عدم إمكان ثنائه تعالى بما هو عليه)

قوله: الّذي لا يبلغ مدحته القائلون.

أقول: أراد تنزيهه تعالى عن اطّلاع العقول البشريّة على كيفيّة مدحه سبحانه كما هي.

و بيان هذا الحكم أنّ الثّناء الحسن على الشيء إنّما يكون كما هو إذا كان ثناء عليه

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦٠

بما هو كذلك في نفس الأمر، و ذلك غير ممكن في حقّ الواجب الوجود سبحانه إلاّ بتعقّل حقيقته و ما لها من صفات الجلال و نعوت الكمال كما هي، و عقول البشر قاصرة عن هذا المقام، فالقول و إن صدر عن المادحين بصورة المدح المتعارف بينهم و على ما هود دأبهم من و صفة تعالى بما هو أشرف من طرفي النقيض فليس بكمال مدحه في نفس

الأمر لعدم اطّلاعهم على ما به يكون المدح الحقّ في حقّه تعالى و إن تصوّر بصورة المدح الحقّ و أشار إلى تأديب الخلق و تنبيههم على بطلان ما تحكّم به أوهامهم في حقّه تعالى من الصّفات و أنّه ليس الأمر كما حكمت به إذ قال في موضع آخر، و قد سأله بعضهم عن التّوحيد فقال:

(في معنى التوحيد)

«التّوحيد أن لا تتوهّمه». [نهج البلاغة (فيض)، الحكمة: ٤٦٢، (صبحي): ٤٧٠].

فجعل التّوحيد عبارة عن سلب الحكم الوهميّ في حقّه تعالى، فاستلزم ذلك أنّ من أجرى عليه حكما وهميّا فليس بموحّد له على الحقيقة، و من هذا قال في موضع آخر إذا سئل عن التّوحيد و الحقيقة الكلّيّة:

محو الموهوم مع صحو المعلوم (٦٨).

---

(٦٨) قوله: محو الموهوم مع صحو المعلوم.

قال السيّد المؤلّف في كتابه العزيز «جامع الأسرار» ص ٢٨:

أنّه مرويّ عن كميل أنّه سأل أمير المؤمنين عليّا (ع) عن «الحقيقة» بقوله:

«ما الحقيقة؟» فقال عليه السّلام له: «مالك و الحقيقة؟» يعني: من أنت و السئوال عن الحقيقة، و لست بأهلها، فقال كميل: «أو لست صاحب سرّك؟» قال: «بلى و لكن يرشح عليك ما يطفح منّي» يعني نعم، أنت صاحب سرّي و من أخصّ تلامذتي، و لكن لست بأهل لمثل هذا السّرّ و الاطّلاع عليه، لأنّه «شرح عليك ما يطفح منّي» و يضرّك و يضرّني لأنّ ظرفك لا يحتمل فوق قدرك، و أنا مأمور بوضع الشيء موضعه.

فقال كميل: «أو مثلك يخيب سائلا»؟-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦١

لأنّ الموهومات هي الّتي صارت في معرفته تعالى حاجبة و مانعة عن انكشاف وجه المعلوم الّذي هو الحقّ تعالى و صحويّته المعبّر عنها بالكشف التّامّ، لقوله عليه السّلام: سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر (٦٩).

- فشرع الإمام بعد ذلك في بيانه و قال:

«الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة» فقال كميل: «زدني فيه بيانا» قال عليه السّلام: «صحوا الموهوم مع المعلوم» قال: «زدني فيه بيانا» قال عليه السّلام: «هتك السرّ الغلبة الستر» قال: «زدني فيه بيانا» قال عليه السّلام: نور شرق من صبح الأزل، فيلوح على هياكل التوحيد آثاره، قال: «زدني فيه بيانا» قال عليه السّلام: «أطف السراج، فقد طلع الصبح».

الجدير بالذكر: قوله: و من هذا قال في موضع آخر إلى قوله تعالى: **فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ. لا يوجد في النسخة المطبوعة لشرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني.**

(٦٩) قوله: سترون ربّكم.

لفظ الحديث كما يلي: عن جرير قال: خرج علينا رسول اللّه (ص) ليلة البدر. فقال:

«إنّكم سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر، لا تضامّون في رؤيته».

راجع صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصّلاة، باب ٣٦٩ (من أدرك ركعة من العصر)، الحديث ٥٢٣، ج ١، ص ٢٩١. و أيضا ج ٩، ص ٧٩٦، باب ١٢١٨، كتاب التوحيد، باب قول اللّه تعالى: **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نٰاضِرَةٌ**.

و صحيح مسلم ج ١، ص ٤٣٩، باب فضل صلاتي الصبح و الغصر، الحديث ٢١١ و ٢١٢. و سنن ابن ماجة ج ١، باب فيما أنكرت الجهمية، الحديث ١٧٧، ص ٦٣، و مسند ابن حنبل ج ٤، ص ٢٦٠ و ٢٦٥.

و ذكره أيضا الصدوق ابن بابويه القمي في كتابه معاني الأخبار، باب معنى قول النّبي (ص): من كنت مولاه فعليّ مولاه، ص ٧٢، و قال: قال النّبيّ (ص): «إنّكم ترون ربّكم كما ترون القمر في ليلة البدر لا تضامون في رؤيته».

و عنه بحار الأنوار ج ٣٧، ص ٢٣٠.

انظر أيّها القارئ العزيز الكريم و المنصف، و تأمّل في ما يقال في هذا الحديث و تفسيره في مدرسة أهل البيت (ع) و ما يقال فيه في المدرسة الأشاعرة. هيهات أين التراب و ربّ-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦٢

المشار إليه في القرآن:

فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [سورة ق: ٢٢].

و إلى هذا النحو أشار الإمام محمّد بن علي الباقر عليهما السّلام مخاطبا:

و هل سمّي عالما قادرا إلاّ لأنّه وهب العلم للعلماء، و القدرة للقادرين، فكلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم، و الباري تعالى واهب الحياة و مقدّر الموت، و لعلّ النمل الصغار تتوهّم أنّ للّه تعالى زبانيين كمالها.

فإنّها تتصوّر أنّ عدمها نقصان لمن لا يكونان له (٧٠).

- الأرباب و الماء و السراب و الظلمة و النور و الضّلالة و الهداية، اللّهمّ نوّر قلوبنا بنور الثقلين بمحمّد (ص) حبيبك و عترته الأطهار (ع).

(٧٠) قوله: و إلى هذا أشار الإمام محمّد بن علي الباقر (ع).

ذكره السيّد المؤلف في كتابه «جامع الأسرار» ص ١٤٢، و في «رسالة نقد النقود» المطبوعة منضما إلى «جامع الأسرار» ص ٦٤٢، نقلا عن المولى الأعظم نصير الدّين المحقّق الطوسي في «رسالة العلم».

و ذكره أيضا المولى المجلسي في «بحار الأنوار» ج ٦٩، ص ٢٩٢. و ذكره أيضا في المحقّق الميردامادي في «الرواشح» ص ١٣٣، و ذكره أيضا صدر المتألّهين في تفسيره ج ١، ص ٤٠. و ذكره الفيض أيضا في «علم اليقين» ج ص ٧٣.

فلكلّ حول الحديث المذكور بيان فراجع، و أمّا تمام الحديث على في «جامع الأسرار» كما يلي:

«هل سمّي عالما و قادرا إلاّ أنّه وهب العلم للعلماء و القدرة للقارين؟ و كلّ ما ميّزتموه في أوهامكم في أدقّ معانيكم (معانيه)، فهو مخلوق مصنوع مثلكم، مردود مصروف إليكم، و الباري تعالى واهب الحياة و مقدّر الموت، و لعلّ النمل الصّغار يتوهّم أنّ للّه تعالى زبانيتين كمالها،

فانّها تتصوّر أنّ عدمهما نقصان لمن لا يكونان له، هكذا حال العقلاء فيما يصفون اللّه تعالى به، (و إلى اللّه المفزع) سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون.

و في «الرواشح» بدل زبانيتين: زبانيين.

روى الصدوق (رض) في «التوحيد» باب ٧، الحديث ٦، ص ١٠٦، بإسناده عن- [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦٣

فهكذا شأن الخلق فيما يصفون به بآرائهم، فإنّ أوهامها حاكمة له بكلّ ما يعدّونه كمالا في حقّهم ما لم تقو عقولهم على ردّ بعض تلك الأحكام الوهميّة، و لولا رادع الشرع كقوله عليه السّلام:

تفكّروا في الخلق و لا تتفكّروا في الخالق (٧١).

- عبد الرّحمن ابن أبي نجران، قال: سألت أبا جعفر الثاني الجواد (ع)، عن التوحيد، فقلت: أ توهّم شيئا، فقال: «نعم غير معقول و لا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، لا يشبهه شيء، و لا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام و هو خلاف ما يعقل و خلاف ما يتصوّر في الأوهام، إنّما يتوهّم شيء غير معقول و لا محدود».

و قال الصادق (ع): من زعم أنّه يعرف اللّه بتوهّم القلوب فهو مشرك. تحف العقول ص ٣٢٨.

(٧١) قوله: تفكّروا في الخلق.

روى الشيخ الجليل الأقدم الصدوق المتوفّى ٣٨١ ه‍ ق، في أماليه، المجلس الخامس و الستّون، الحديث ٣، ص ٣٤٠، بإسناده عن مولانا الصّادق (ع)، قال: إيّاكم و التفكّر في اللّه، فإنّ التفكّر في اللّه لا يزيد إلاّ تيها إنّ اللّه عزّ و جلّ لا تدركه الأبصار و لا يوصف بمقدار.

و عنه في بحار الأنوار ج ٣، ص ٢٥٩، الحديث ٤.

و أخرج جلال الدّين السيوطي المتوفّى ٩١١ ه‍ ق، في تفسيره «الدّر المنثور» في سورة النجم في قوله تعالى: **وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ الآية ٤٢، ج ٧، ص ٦٦٣، عن بعض أئمّة الكوفة، عن رسول اللّه (ص)، قال: «تفكّروا في خلق اللّه، و لا تفكّروا في اللّه».**

و أيضا روي عن ابن عباس قال: دخل علينا رسول اللّه (ص) و نحن في المسجد حلق حلق، فقال لنا: فيم أنتم؟ قلنا: نتفكّر في الشمس كيف طلعت، و كيف غربت؟ قال:

«أحسنتم كونوا هكذا تفكّروا في المخلوق و لا تفكروا في الخالق، الحديث.

و عنه المجلسي في البحار ج ٥٧، ص ٣٤٨، الحديث ٤٣ و ٤٤.

و روى الكليني في اصول الكافي ج ١، باب النهي عن الكلام في الكيفيّة، ص ٩٢- ٩٣، الحديث ١، بإسناده عن أبي بصير قال: قال الباقر (ع):

تكلّموا في خلق اللّه و لا تتكلّموا في اللّه، فإنّ الكلام في اللّه لا يزداد صاحبه إلاّ تحيّرا.

و الحديث ٢، بإسناده عن سليمان بن خالد قال، قال الصادق (ع): إنّ اللّه عزّ و جلّ-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦٤

لصرّحوا بكثير من تلك الأحكام في حقّه سبحانه و تعالى عمّا يصفون.

و يحتمل أن يكون المراد: تنزيهه تعالى عن بلوغ العقول و الأوهام تمام الثناء الحسن عليه و إحصانه، أي أنّ العبد كان كلّما بلغ مرتبة من مراتب المدح و الثناء كان ورائها أطوار من استحقاق الثناء و التعظيم أعلى، كما أشار إليه سيّد المرسلين صلّى اللّه عليه و آله بقوله:

«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (٧٢).

- يقول: **وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ [سورة النجم: ٤٣]، فإذا انتهى الكلام إلى اللّه فأمسكوا.**

و في الحديث الخامس: قال الصادق (ص):

من نظر في اللّه كيف هو؟ هلك.

و في الحديث السابع، بإسناده عن محمّد بن مسلم، عن الباقر (ع) قال:

إيّاكم و التفكّر في اللّه و لكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه.

و في (الجامع الصغير) للسيوطي ج ١، ص ٥١٤، الأحاديث ٣٣٤٥- ٣٣٤٨، عن النبيّ (ص):

تفكّروا في كلّ شيء و لا تفكروا في ذات اللّه تعالى.

تفكّروا في الخلق و لا تفكّروا في الخالق، فإنّكم لا تقدرون قدره.

تفكروا في خلق اللّه، و لا تفكّروا في اللّه فتهلكوا.

تفكّروا في آلاء اللّه و لا تفكّروا في اللّه.

أخرجها أيضا في كنز العمّال ج ٣، ص ١٠٦، الأحاديث ٤- ٨ و ٥٧، فراجع.

(٧٢) قوله: لا أحصي ثناء عليك.

رواه ثقة الإسلام الكليني في الفروع من الكافي ج ٣، ص ٣٢٤، الحديث ١٢، «باب السجود و التسبيح و الدعاء ...»، عن مولانا الباقر (ع) قال:

كان رسول اللّه (ص) و هو ساجد باك يقول:

«سجد لك سوادي و خيالي و آمن بك فؤادي، أبوء إليك بالنعم و أعترف لك بالذّنب العظيم، عملت سوءا، و ظلمت نفسي، فاغفر لي إنّه لا يغفر الذنب العظيم إلاّ أنت، أعوذ بعفوك من عقوبتك، و أعوذ برضاك من سخطك، و أعوذ برحمتك من نقمتك، و أعوذ بك-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦٥

و في تخصيصه عليه السّلام: القائلين، دون المادحين بالذّكر نوع لطف، فإنّ القائل لمّا كان أعمّ من المادح، و كان سلب العامّ مستلزما لسلب الخاصّ من غير عكس كان ذكر القائلين أبلغ في التنزيه، إذ التقدير: لا واحد من القائلين ببالغ مدحه اللّه سبحانه.

(الإنسان لا يتمكّن حصر نعم اللّه تعالى)

قوله: «و لا يحصى نعماءه العادّون».

أقول: المراد أنّ جزئيّات نعم اللّه و أفرادها لا يحيط بها حصر الإنسان و عدّة لكثرتها، و بيان هذا الحكم بالنّقل و العقل:

أمّا النقل فقوله تعالى:

وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاٰ تُحْصُوهٰا [سورة إبراهيم: ٣٤].

و هذه الآية هي منشأ هذا الحكم و مصدره.

و أمّا العقل، فلأنّ نعم اللّه تعالى على العبد، منها ظاهرة، و منها باطنة، كما قال تعالى:

وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظٰاهِرَةً وَ بٰاطِنَةً [سورة لقمان: ٢٠].

و يكفينا في صدق هذا الحكم، التّنبيه على بعض جزئيّات نعم اللّه تعالى على العبد، فنقول: إنّ من جملة نعمه تعالى على الإنسان أن أكرمه بملائكته و جعله مسجودا لهم و مخدوما، و جعلهم في ذلك على مراتب، فلنذكر أقربهم إليه و أخصّهم به، و هم الملائكة الّذين يتولّون إصلاح بدنه و القيام بمهمّاته و حوائجه و إن كانوا في ذلك أيضا على مراتب، فجعل سبحانه لهم رئيسا هو له كالوزير النّاصح المشفق، من شأنه تمييز الأصلح و الأنفع له و الأمر به، و جعل بين يدي ذلك الوزير ملكا آخر هو كالحاجب له و المتصرّف بين يديه، من شأنه تمييز صداقة الأصدقاء للملك من عداوة الأعداء له، و جعل لذلك الحاجب ملكا خازنا يضبط عنه ما يتعرّفه من الأمور ليطالعها الوزير

- منك لا أبلغ مدحك و الثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أستغفرك و أتوب إليك».

و روى مثله مع تفاوت يسير، عن مولانا الصادق (ع)، ليذكر في سجدة صلاة أقيمت يوم الجمعة، ذكره الشيخ الطائفة الطوسي في «مصباح المتهجّد» ص ٣١٥، «باب ما جاء في فضل يوم الجمعة ... ٤٢٣/٣٥»، و راجع في هذا الدعاء تعليقتنا الرقم ٢٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦٦

عند الحاجة، ثمّ جعل بين يديه ملكين آخرين: أحدهما ملك الغضب و هو كصاحب الشرطة موكّل بالخصومات و الغلبة و البطش و الانتقام، و الثاني ملك اللذّة و المتولّي لمشتهيات الإنسان بالطلب و الأمر باستحضار، و بين يديه ملائكة اخرى تسعى في تحصيل ما يأمر به و يطلبه، ثمّ جعل سبحانه وراء هؤلاء سبعة أخرى من الملائكة دأبهم إصلاح غذاء الإنسان، فالأوّل موكّل بجذب الغذاء إلى داخل المعدّة إذ الغذاء لا يدخل بنفسه، فإنّ الإنسان لو وضع اللقمة في فيه و لم يكن لها جاذب لم تدخل، و الثاني موكّل بحفظه في المعدة إلى تمام نضجه و حصول الغرض منه، و الثالث موكّل بطبخه و تنضيجه، و الرّابع موكّل بتفريق صفوته و خلاصته في البدن سدّا لبدل ما يتحلّل منه، و الخامس موكّل بالزّيادة في أقطار الجسم على التناسب الطّبيعي بما يوصله إليه الرّابع فهما كالباني و المناول، و السّادس موكّل بفصل صورة الدّم من الغذاء، و السّابع الّذي يتولّى دفع الفضلة الغير المنتفع بها عن المعدة.

ثمّ وكّل تعالى خمسة أخرى في خدمته شأنهم أن يوردوا عليه الأخبار من خارج، و جعل لكلّ واحد منهم طريقا خاصّا و فعلا خاصّا به، و جعل لهم رئيسا يبعثهم و يرجعون إليه بما عملوه، و جعل لذلك الرئيس خازنا كاتبا يضبط عنه ما يصل إليه من تلك الأخبار، ثمّ جعل بين هذا الخازن و بين الخازن الأوّل ملكا قويّا على التصرف و الحركة سريع الانتقال بحيث ينتقل في اللحظة الواحدة من المشرق إلى المغرب و من تخوم الأرض إلى السّماء العليا قادرا على التصرّفات العجيبة، و جعله مؤتمرا للوزير تارة و للحاجب أخرى، و هو موكّل بتفتيش الخزانتين و مراجعة الخازنين بإذن الوزير و

واسطة الحاجب إذا أراد استعلام أمر من تلك الأمور، فهذه هي الملائكة الّتي خصّ اللّه تعالى بها بدنه، و جعلها أقرب الملائكة المتصرّفين في خدمته إليه.

ثمّ إنّ وراء هؤلاء أطوارا أخر من الملائكة الأرضيّة الملائكة الموكّلين بأنواع الحيوانات الّتي ينتفع بها الإنسان و بها تكون مسخّرة له، و أنواع النبات و المعادن و العناصر الأربعة و الملائكة السّماويّة الّتي لا يعلم عددهم إلاّ اللّه سبحانه و تعالى كما قال:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦٧

(وَ مٰا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّٰ هُوَ) [سورة المدّثّر: ٣٣].

فإنّ كلّ واحد منها موكّل بفعل خاصّ و له مقام خاصّ لا يتعدّاه و لا يتجاوزه كما قال تعالى حكاية عنهم:

وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ [سورة الصّافات: ١٦٤].

و هم بأسرهم متحرّكون بمصالح الإنسان و منافعه من أوّل حياته إلى حين وفاته بإذن المدبّر الحكيم، دع ما سوى الملائكة من ساير الموجودات في هذا العالم المشتملة على منافعه و ما أفاض عليه من القوّة العقليّة الّتي هي سبب الخيرات الباقية و النعم الدائمة الّتي لا تنقطع موادّها و لا يتناهى تعدادها فإنّ كلّ ذلك في الحقيقة نعم إلهيّة ربانيّة للعبد بحيث لو اختل شيء منها لاختلّت منفعته من تلك الجهة، و معلوم أنّه لو قطع وقته أجمع بالنظر إلى آثار رحمة اللّه تعالى في نوع من هذه النعم لانتهى دونها فكره و قصر عنها إحصاؤه و حصره، و هو مع ذلك كلّه غافل عن شكر اللّه، جاهل بمعرفة اللّه، مصرّ على معصية اللّه، فحقّ أن يقول سبحانه و تعالى بعد تنبيه له على ضرب نعمه و الامتنان بها عليه:

وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاٰ تُحْصُوهٰا، إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ كَفّٰارٌ [سورة إبراهيم: ٣٤].

ظلوم لنفسه بمعصية اللّه معتاد للكفر بآلاء اللّه.

قُتِلَ الْإِنْسٰانُ مٰا أَكْفَرَهُ [سورة عبس: ١٧].

إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ [سورة الزّخرف: ١٥].

فسبحان الّذي لا تحصى نعماؤه و لا تستقصى آلاؤه.

و غاية هذا الحكم تنبيه الغافلين من مراقد الطبيعة على لزوم شكر اللّه سبحانه، و الاعتراف بنعمه المستلزم لدوام إخطاره بالبال.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦٨

(في أنّ شكر النعمة نعمة منه تعالى)

قوله: و لا يؤدّي حقّه المجتهدون.

أقول: هذا الحكم ظاهر الصدق من وجهين:

أحدهما، أنّه لمّا كان أداء حقّ النعمة هو مقابلة الإحسان بجزاء مثله، و ثبت في الكلمة السّابقة أنّ نعم اللّه سبحانه لا تحصى، لزم من ذلك أنّه لا يمكن مقابلتها بمثل.

الثاني، أنّ كلّ ما نتعاطاه من أفعالنا الاختياريّة مستندا إلى جوارحنا و قدرتنا و إرادتنا و ساير أسباب حركاتنا، و هي بأسرها مستندة إلى جوده و مستفادة من نعمته.

و كذلك ما يصدر عنّا من الشكر و الحمد و سائر العبادات نعمة منه أ فتقابل (فتقابل) نعمة بنعمة، و روى أنّ هذا الخاطر خطر لداود و كذلك لموسى عليهما السّلام فقال:

يا ربّ كيف أشكرك و أنا لا أستطيع أن أشكرك إلاّ بنعمة ثانية من نعمك.

و في رواية أخرى:

و شكر ذلك نعمة أخرى توجب عليّ الشكر لك فأوحى اللّه تعالى إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني و في خبر: إذا عرفت أن النعم منّي رضيت منك بذلك شكرا «٧٣».

---

(٧٣) قوله: رضيت منك بذلك شكرا.

رواه الراوندي في كتابه قصص الأنبياء في ذكر موسى بن عمران (ع)، الفصل الخامس، الحديث ١٧٨، ص ١٦١، بإسناده عن الصادق (ع)، قال: أوحى اللّه تعالى إلى موسى (ع):

يا موسى اشكرني حقّ شكري، فقال: يا ربّ كيف أشكرك حقّ شكرك، و ليس من شكر أشكرك به إلاّ و أنت أنعمت به عليّ؟ فقال: يا موسى شكرتني حقّ شكري حين علمت أنّ ذلك منّي.

و عنه البحار ج ٧١، ص ٥١، الحديث ٧٥، و ج ١٣، ص ٣٥١، الحديث ٤١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٦٩

فأمّا ما يقال في العرف: من أنّ فلانا مؤدّ لحقّ اللّه تعالى، فليس المراد منه جزاء النعمة، بل لمّا كانت المطلوبات للّه تعالى من التكاليف الشرعيّة و العقليّة تسمّي حقوقا له لا جرم سمّي المجتهد في الامتثال مؤدّيا لحقّ اللّه، و ذلك الأداء في الحقيقة من أعظم نعمه تعالى على عبده، إذ كان الامتثال و سائر أسباب السلوك الموصل إلى اللّه تعالى كلّها مستندة إلى جوده و عنايته، و إليه الإشارة بقوله تعالى:

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ [سورة الحجرات: ١٧].

و ما كان في الحقيقة نعمة للّه لا يكون أداء لنعمة اللّه و جزاء لها و إن أطلق ذلك في العرف إذ كان من شأن الحقّ المفهوم المتعارف بين الخلق استلزامه وجوب الجزاء و الأداء ليسارعوا إلى الإتيان به رغبة و رهبة فيحصل المقصود من التكليف حتّى لو لم يعتقدوا أنّه حقّ للّه بل هو مجرّد نفع خالص لهم لم يهتمّوا به غاية الاهتمام إذ كانت غايته غير متصوّرة لهم كما هي، و قلّما تهتمّ النّفوس بأمر لا تتصوّر غايته و منفعته خصوصا مع المشقّة اللاّزمة في تحمّله إلاّ بباعث قاهر من خارج.

قوله: الّذي لا يدركه بعد الهمم و لا يناله غوص الفطن.

(في انّ الواجب ليس بمركب و ما ليس بمركب ليس بمدرك الحقيقة)

أقول: إسناد الغوص هاهنا إلى الفطن على سبيل الاستعارة.

إذ الحقيقة إسناده إلى الحيوان بالنسبة إلى الماء مستلزم لتشبيه المعقولات بالماء، و وجه الاستعارة هاهنا أنّ صفات الجلال و نعوت الكمال لمّا كانت في عدم تناهيها و الوقوف على حقائقها و أغوارها نسبة (تشبه) البحر الخضم الّذي لا يصل السائح له إلى ساحل، و لا ينتهي الغائض فيه إلى قرار، و كان السائح لذلك البحر و الخائض في تيّاره هي الفطن الثاقبة، لا جرم كانت الفطنة شبيهة بالغائص في البحر فأسند الغوص إليها، و في معناه الغوص في الفكر و الغوص في النوم، و يقرب منه إسناد الإدراك إلى بعد الهمم إذ كان الإدراك حقيقة في لحوق جسم لجسم آخر.

و إضافة الغوص إلى الفطن، و البعد إلى الهمم، إضافة لمعنى الصّفة بلفظ المصدر إلى

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٧٠

الموصوف، و التقدير: لا تناله الفطن الغائصة، و لا تدركه الهمم البعيدة، و وجه الحسن في هذه الإضافة و تقديم الصفة: أنّ المقصود لمّا كان هو المبالغة في عدم إصابة ذاته تعالى بالفطنة من حيث هي ذات غوص، و بالهمّة من حيث هي بعيدة، كانت تلك الحيثيّة مقصودة بالقصد الأوّل، و قد بيّنا أنّ البلاغة تقتضي تقديم الأهمّ و المقصو الأوّل على ما ليس كذلك، و برهان هذا المطلوب ظاهر، فإنّ حقيقته تعالى لمّا كانت بريّة عن جهات التركيبات، عريّة عن اختلاف الجهات، منزهة عن تكثر المتكثّرات، و كانت الأشياء إنّما تعلم بما هي من جهة حدودها المؤلّفة من أجزائها، فإذن صدق أنّ واجب الوجود ليس بمركب و ما ليس بمركّب ليس بمدرك الحقيقة، و صدق أنّ واجب الوجود ليس بمدرك الحقيقة فلا تدركه همّة و إن بعدت، و لا تناله فطنة و إن اشتدّت، فكلّ سائح في بحار جلاله غريق، فكلّ مدّع للوصول فبأنوار كبريائه حريق، لا إله إلاّ هو سبحانه و تعالى عمّا يقولون علوّا كبيرا.

قوله: الّذي ليس لصفته حدّ محدود و لا نعت موجود.

أقول: المراد ليس لمطلق ما تعتبره عقولنا له من الصّفات السلبيّة و الإضافيّة نهاية معقولة تقف عندها فيكون حدّا له، و ليس لمطلق ما يوصف به أيضا وصف موجود يجمعه فيكون نعتا له و منحصرا فيه.

قال أبو الحسن الكيدريّ رحمه اللّه (٧٤):

---

(٧٤) قوله: أبو الحسن الكيدري.

هو: أبو الحسن (أبو الحسين) قطب الدّين محمّد بن الحسين بن الحسن، الكيدريّ (الكيذري) البيهقي النيشابوري، كان من علماء القرن السادس الهجري، المنقول بعض أقواله في الفقه في الكتب الفقهيّة ک«المختلف» و «المسالك» و «كشف اللثام» و غيرها.

و له مصنّفات، منها: «حدائق الحقائق في تفسير دقائق أحسن الخلائق» (في شرح نهج البلاغة)، و «الإصباح» (في فقه الإماميّة)، و أنوار العقول من أشعار وصيّ الرسول (ص) و غيرها.

و قد أكثر المجلسي (طاب ثراه) في البحار النقل من شرحه على نهج البلاغة و بعض-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٧١

و يمكن أن يؤوّل قوله: حدّ محدود، على ما يؤوّل به كلام العرب: و لا يرى الضبّ بها ينحجر، أي ليس بها ضبّ

فينحجر حتّى يكون المراد أنّه ليس له صفة فتحدّ، إذ هو تعالى واحد من كلّ وجه، منزّه عن الكثرة بوجه مّا فيمتنع أن يكون له صفة تزيد على ذاته كما في سائر الممكنات.

و صفاته المعلومة ليست من ذلك في شيء، إنّما هي نسب و إضافات لا يوجب وصفه بها كثرة في ذاته.

قال: و ممّا يؤكّد هذا التّأويل قوله بعد ذلك:

فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنه، و هذا التّأويل حسن و هو راجع إلى ما ذكرناه في المعنى، و أمّا وصفه الحدّ بكونه محدودا فللمبالغة على طريقة قولهم: شعر شاعر، و على هذا التأويل يكون قوله: و لا نعت موجود، سلبا للنعت عن ذاته سبحانه، إذ التقدير ليس له صفة تحدّ و لا نعت، و قيل: معنى قوله: ليس لصفته حدّ، أي ليس لها غاية بالنسبة إلى متعلّقاتها كالعلم بالنسبة إلى المعلومات، و القدرة إلى المقدورات.

قوله: و لا وقت معدود و لا أجل ممدود.

أقول: وصف الوقت بكونه معدودا لقوله تعالى:

فِي أَيّٰامٍ مَعْدُودٰاتٍ [سورة البقرة: ۲۰۳].

و كقوله:

وَ مٰا نُؤَخِّرُهُ إِلاّٰ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ [سورة هود: ۱۰٤].

و هو المعلوم الداخل في الإحصاء و العدّ، و ذلك أنّ العدّ لا يتعلّق بالوقت الواحد من حيث هو واحد، فإنّه من تلك الحيثيّة ليس معدودا بل مبدأ للعدد، و إنّما يتعلّق به من

- نظراته الفقهيّة.

راجع «الغدير» ج ٤، ص ۱۸۷، و «رجال السيّد بحر العلوم» ج ۳، ص ۲٤۰، و «مصادر نهج البلاغة» ج ۱، ص ۲۰۹، و «رياض العلماء» ج ٥، ص ٤٥۱، و «فوائد الرضويّة» ص ٤۹۳، و «روضات الجنّات» ص ۲۹٥، ج ٦، و ريحانة الأدب ج ٤، ص ٤۷۳.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۷۲

حيث إنّه داخل في الأوقات الكثيرة الموجودة في الزّمان، إمّا بالفرض أو بالفعل الّتي يلحق جملتها عند اعتبار التفصيل كونها معدودة إذ يقال: هذا الفرد معدود في هذه الجملة، أي داخل في عدّها و مراده في هذين الحكمين: نفي نسبة ذاته و ما يلحقها إلى الكون في الزّمان، و أن يكون ذات أجل ينتهي إليه فينقطع وجودها بانتهائه، و بيان ذلك من وجهين:

أحدهما، أنّ الزّمان من لواحق الحركة الّتي هي من لواحق الجسم، فلمّا كان الباري سبحانه منزّها عن الجسميّة استحال أن يكون في زمان.

الثّاني أنّه تعالى إن أوجد الزّمان و هو في الزّمان لزم كون الزمان متقدّما على نفسه و إن أوجده بدون أن يكون فيه كان غنيّا في وجوده عنه فهو المطلوب فإذن صدق هذين السلبين في حقّه معلوم، و قد حصل في هذه القرائن الأربع السجع المتوازي مع نوع من التجنيس.

قوله: الّذي فطر الخلائق بقدرته و نشر الرّياح برحمته و وتد بالصخور ميدان أرضه.

(في بيان معنى الفطر و الإنفطار)

أقول: لمّا قدّم الصفات السلبيّة شرع في الصفات الثبوتيّة و هذه الاعتبارات الثلاثة موجودة في القرآن الكريم،

أمّا الأوّل

فقوله تعالى:

الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [سورة الإسراء: ٥١].

و أمّا الثاني

فقوله تعالى:

وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ [سورة الفرقان: ٤٨].

و أمّا الثالث

فقوله تعالى:

وَ أَلْقىٰ فِي الْأَرْضِ رَوٰاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ [سورة لقمان: ١٠].

و قوله:

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهٰاداً وَ الْجِبٰالَ أَوْتٰاداً [سورة النبأ: ٦- ٧].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٧٣

أمّا المراد بقوله: فطر الخلائق بقدرته، فاعتباره من حيث استناد المخلوقات إلى قدرته و وجودها (عنها)، و لمّا كانت حقيقة الفطر الشقّ في الأجسام كانت نسبته هاهنا إلى الخلق استعارة.

و للإمام فخر الدّين الرّازي «٧٥» في بيان الاستعادة في أمثال هذا الموضع بحث لطيف، قال:

«و ذلك أنّ المخلوق «٧٦» قبل دخوله في الوجود كان معدوما محضا، و العقل يتصوّر من العدم ظلمة متّصلة لا انفراج فيها و لا شقّ، فإذا أخرجه الموجد المبدع من العدم إلى الوجود فكأنّه بحسب التخيّل و التوهّم شقّ ذلك العدم و فطره و أخرج ذلك الموجود منه».

قلت: إلّا أنّ ذلك الشقّ و الفطر على هذا التقدير لا يكون للموجود المخرج بل للعدم الّذي خرج هذا الموجود منه، اللّهمّ إلّا على تقدير حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه حتّى يكون التقدير الّذي فطر عدم الخلائق، و هو استعمال شائع في العرف و العربيّة كثيرا، و حسنه بين النّاس ظاهر، و مثله:

---

(٧٥) قوله: فخر الدّين الرّازي.

الرّجل هو محمّد بن عمر بن حسين بن حسن بن علي، المعروف بالإمام فخر الرّازي الخطيب، و يقال له: ابن الخطيب الرّيّ أيضا، و كان اشعريّ الكلام و شافعي الفقه.

له كتب كثيرة، منها: مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير، ولد في مدينة ري في اليوم الخامس و العشرين من شهر المبارك رمضان سنة ٥٤٤ أو سنة ٥٤٣ ه و توفّي في مدينة هرات في اليوم الإثنين، الأوّل من شهر شوّال المكرّم (يوم الفطر) سنة ٦٠٦ ه و دفن فيها.

(٧٦) قوله: قال: و ذلك أنّ المخلوق.

ذكره الإمام فخر الدين الرّازي في تفسيره الكبير ج ۱۳، ص ۸۸ في سورة الأنعام الآية:

(إِنَّ اللّهَ فٰالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوىٰ) [الأنعام: ۹۵].

مع تفاوت يسير في اللّفظ.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۷۴

فٰالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوىٰ [سورة الأنعام: ۹۵].

على قول بعض المفسّرين كما سنبيّنه.

و قال ابن الأنباري «۷۷»:

لمّا كان أصل الفطر شقّ الشيء عند ابتدائه، فقوله: فطر الخلائق، أي خلقهم

---

(۷۷) قوله: ابن الأنباري.

هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمّد بن بشّار البغدادي الملقب بابن الأنباري و يقال له أحيانا: ابن الأنباري الأوّل لكي لا يشتبه مع كمال الدّين أبو البركات عبد الرحمن بن محمّد المعروف بابن الأنباري الّذي يقال له أحيانا: ابن الأنباري الثاني المتوفّى ۵۷۷.

كانت ولادته سنة مائتين و إحدى و سبعين، و توفّي سنة ثلاثمائة و ثمان و عشرين، و دفن في داره.

كان من أكابر الأدباء و النحويّين و اللغويّين، قيل: إنّه كان يحفظ مائة و عشرين تفسيرا للقرآن الكريم بأسانيدها، و ثلاثمائة ألف بين شاهدا في القرآن المجيد، و كان يضرب به المثل في حضور البديهة و سرعة الجواب.

و أملى كتبا كثيرة، منها: «غريب الحديث»، و «شرح المفضّلات»، و غيرهما، و له كتاب في القرآن المعروف ب‍ «المشمل» نقل عنه المجلسي رحمة اللّه عليه في بحار الأنوار كثيرا.

طبقته في الحديث:

روى عنه محمد بن التّمار، و أبو العباس، و علي بن مالك النحوي، و الطالقاني، و الحسن ابن علي النحوي.

و روى عن: أبيه، و حميد بن محمّد بن حميد، و محمّد بن يونس، و أحمد بن يحيى، و أحمد ابن عبيد، و محمّد بن علي بن عمر، و محمّد بن أحمد الطائي.

هذا ما وجدته في أسناد أحاديث الشيعة الإماميّة.

و هو روى عن عدّة أخرى أيضا كما روى عنه الدار قطني في سننه كثيرا، و ان أردت معرفة من رووا عنه و من روى عنهم من السنّة فراجع أسناد سنن الدار قطني.

راجع في ترجمته: «الفهرست للنديم» ص ۸۲ «و شذرات الذهب» ج ۲، ص ۳۱۵، و «روضات الجنات» ج ۷، ص ۳۰۹، و «الكنى و الألقاب» ج ۱، ص ۲۱۳، و «ريحانة الأدب» ج ۷، ص ۳۹۵.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۷۵

و أنشأهم بالتركيب و التأليف الّذي سبيله أن يحصل فيه الشقّ و التأليف عند ضمّ بعض الأشياء إلى بعض، ثمّ إنّ الفطر

كما يكون شقّ إصلاح كقوله تعالى:

فاطِرِ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ [سورة الأنعام: ١٤].

كذلك يكون شقّ إفساد كقوله تعالى:

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ [سورة الانفطار: ١].

هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ [سورة الملك: ٣].

و أمّا قوله: و نشر الرّياح برحمته، فبيانه أنّ نشر الرّياح و بسطها لمّا كان سببا عظيما من أسباب بقاء أنواع الحيوان و النّبات و استعدادات الأمزجة للصحّة و النموّ و غيرها حتّى قال كثير من الأطبّاء: إنّها تستحيل روحا حيوانيّا، و كانت عناية اللّه سبحانه و تعالى و عموم رحمته شاملة لهذا العالم و هي مستند كلّ موجود لا جرم كان نشرها برحمته، و من أظهر آثار الرّحمة الإلهيّة بنشر الرّياح حملها للسحاب المترع بالماء و إثارتها على وفق الحكمة ليصيب الأرض الميتة فينبت بها الزرع و يملأ الضريح كما قال سبحانه:

وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ [سورة النمل: ٦٣].

و قال:

يُرْسِلَ الرِّيٰاحَ مُبَشِّرٰاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ [سورة الرّوم: ٤٦].

و قال:

وَ أَرْسَلْنَا الرِّيٰاحَ لَوٰاقِحَ فَأَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَيْنٰاكُمُوهُ [سورة الحجر: ٢٢].

و المراد تنبيه الغافلين على ضروب نعم اللّه بذكر هذه النعمة الجليلة ليستديموها بدوام شكره و المواظبة على طاعته، كما قال تعالى:

وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ [سورة البقرة: ٢٣١].

و قوله:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٧٦

ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحٰانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا وَ مٰا كُنّٰا لَهُ مُقْرِنِينَ [سورة الزخرف: ١٣].

قال بعض الفضلاء: إنّ بعض العرب يستعمل الرّيح في العذاب، و الرّياح في الرّحمة، و كذلك نزل القرآن الكريم قال تعالى:

بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [سورة الحاقة: ٦].

و قال: الرِّيحَ الْعَقِيمَ [سورة الذاريات: ٤١].

و قال: يرسل الرّياح مبشرات، و الرياح لواقع، و أمثاله.

قوله: «و وتد بالصخور ميدان أرضه».

(في بيان المراد من أوتاد الأرض و المقصود من الوتد)

أقول: المراد نسبة نظام الأرض إلى قدرته سبحانه، و

هاهنا بحثان

: **البحث الأوّل**

في أنّ قول القائل: وتدت كذا بكذا معناه جعلته وتدا له، و الموتود هاهنا في الحقيقة إنّما هو الأرض، و قد جعل الموتود هنا هو ميدان الأرض و هو عرض من الأعراض لا يتصوّر جعل الجبل وتدا له، إلاّ أنّا نقول: لمّا كان الميدان، علّة حاملة على إيجاد الجبال و إيتاد الأرض بها كان الاهتمام به أشدّ، فلذلك قدّمه و أضافه إضافة الصفة إلى الموصوف، و إن كان التقدير: و وتد بالصخور أرضه المائدة.

البحث الثّاني [و فيه خمسة أوجه]

، أنّ تعليل وجود الجبال بميدان الأرض ورد هاهنا و في القرآن الكريم في مواضع: كقوله تعالى:

وَ أَلْقىٰ فِي الْأَرْضِ رَوٰاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ [النحل: ١٥].

و كقوله: وَ الْجِبٰالَ أَوْتٰاداً [النبأ: ٧].

و لا بدّ من البحث عن وجه هذا التعليل، و فيه خمسة أوجه:

الوجه الأوّل

، قال المفسّرون (٧٨) في معنى هذه الآيات: إنّ السفينة إذا ألقيت على

(٧٨) قوله: قال المفسّرون.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٧٧

وجه الماء فانّها تميل من جانب إلى جان و تتحرّك، فإذا وضعت الأجرام الثقيلة فيها استقرّت على وجه الماء و سكنت، قالوا فكذلك لمّا خلق اللّه تعالى الأرض على وجه الماء اضطربت و مادت، فخلق اللّه عليها الجبال و وتدها بها فاستقرّت على وجه الماء بسبب ثقل الجبال.

قال الإمام فخر الدّين: و يتوجّه على هذا الكلام أن يقال: لا شكّ أنّ الأرض أثقل من الماء، و الأثقل يغوص فيه و لا يبقى طافيا عليه، و إذا لم يبق كذلك امتنع أن يقال:

إنّها تميد و تميل بخلاف السفينة إذ كانت مركّبة من الأخشاب، و داخلها مجوّف مملوء من الهواء فلذلك تبقى طافية على الماء فلا جرم تميل و تضطرب إلى أن ترسي بالأجرام الثقيلة فإذن الفرق ظاهر.

الوجه الثّاني

ما ذكره هو قال: إنّه قد ثبت بالدلائل اليقينيّة أنّ الأرض كرة، و ثبت أيضا أنّ هذه الجبال على سطح الأرض جارية مجرى خشونات و تضريسات حاصلة على وجه الكرة، فإذا ثبت هذا فلو فرضنا أنّ هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الأرض كرة حقيقيّة خالية عن الخشونات و التضريسات لصارت بحيث تتحرّك بالاستدارة بأدنى سبب، لأنّ الجرم البسيط المستدير يجب كونه متحرّكا على نفسه و إن لم يجب ذلك عقلا إلاّ أنّها تصير بأدنى سبب تتحرّك على هذا الوجه، أمّا إذا حصل على سطح كرة الأرض هذه الجبال فكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة، فكلّ واحد من هذه الجبال إنّما يتوجّه بطبعه إلى مركز العالم و توجّه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم و قوّته الشديدة يكون

جاريا مجرى الوتد الّذي يمنع كرة الأرض من الاستدارة و كان تخليق هذه الجبال على الأرض كالأوتاد المعدودة في الكرة المانعة من الحركة المستديرة.

الوجه الثالث

، ان نقول: لما كانت فائدة الوتد أن يحفظ الموتود في بعض المواضع

- راجع فيما قال به في الوجه الأوّل و الوجه الثاني «تفسير الكبير» للإمام الفخر الرّازي ج ٢٠، ص ٨ و ٩ في سورة النحل الآية:

وَ أَلْقىٰ فِي الْأَرْضِ رَوٰاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ [سورة النحل: ١٥].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٧٨

عن الحركة و الاضطراب حتّى يكون قارًا ساكنا، و كان من لوازم ذلك السكون في بعض الأشياء صحّة الاستقرار على ذلك الشيء و التصرّف عليه و كان من فائدة وجود الجبال و التّضريسات الموجودة في وجه الأرض أن لا تكون مغمورة بالماء ليحصل للحيوان الاستقرار و التصرّف عليها، لا جرم كان بين الأوتاد و الجبال الخارجة من الماء في الأرض اشتراك في كونهما مستلزمين لصحّة الاستقرار مانعين من عدمه، لا جرم حسنت استعارة نسبة الإيتاد إلى الصخور و الجبال.

و أمّا إشعاره بالميدان، فلأن الحيوان كما يكون صادقا عليه أنّه غير مستقرّ على الأرض بسبب انغمارها في الماء لو لم توجد الجبال، كذلك يصدق على الأرض انها غير مستقرّة تحته، و مضطربة بالنّسبة إليه، فثبت حينئذ أنّه لولا وجود الجبال في سطح الأرض لكانت مضطربة و مائدة بالنّسبة إلى الحيوان لعدم تمكّنه من الاستقرار عليها.

الوجه الرّابع

، قال بعض العلماء: إنّه يحتمل أن تكون الإشارة بالصخور إلى الأنبياء و الأولياء و العلماء، و بالأرض إلى الدّنيا.

و أمّا وجه التّجوّز بالصخور عن الأنبياء و الأولياء و العلماء، فلأنّ الصخور و الجبال لمّا كانت على غاية من الثبات و الاستقرار، مانعة لما يكون تحتها من الحركة و الاضطراب، عاصمة لما يلتجئ إليها من الحيوان عمّا يوجب له الهرب، فيسكن بذلك اضطرابه و قلقلته، أشبهت الأوتاد من بعض هذه الجهات.

ثمّ لمّا كانت الأنبياء و العلماء هم السبب في انتظام أمور الدنيا و عدم اضطراب أحوال أهلها كانوا كالأوتاد للأرض، فلا جرم صحّت استعارة لفظ الصخور لهم، و لذلك يحسن في العرف أن يقال: فلان جبل منيع يأوى إليه كلّ ملهوف، إذا كان يرجع إليه في المهمّات و الحوائج، و العلماء أوتاد اللّه في الأرض.

الوجه الخامس

، أن المقصود من جعل الجبال كالأوتاد في الأرض أن يهتدي بها على طرقها و المقاصد فيها، فلا تميد جهاتها المشتبهة بأهلها و لا تميل بهم فيتيهون فيها عن طرقهم و مقاصدهم، و باللّه التّوفيق.

و باقي أقواله عليه السّلام إلى قوله:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٧٩

ثمّ أنشأ الخلق إنشاء.

و شرحها في التوحيد و التنزيه و المعارف و التحقيق، و ذلك يطول مع انّه قد سبق في قولنا و قول غيرنا كثيرا، فترجع من هذا المكان إلى قوله: ثمّ أنشأ، و نقول ما هو المراد منه و هو هذا:

الفصل الثاني في نسبة إيجاد العالم إلى قدرة اللّه تعالى جملة و تفصيلا، و في كيفيّة ذلك و هو اقتصاص في معرض المدح

قوله: أنشأ الخلق إنشاء، و ابتدأه ابتداء، بلا رويّة أجالها، و لا تجربة استفادها، إلى قوله: و لا يحدّونه بالأماكن، و لا يشيرون إليه بالنّظائر.

(شرح ألفاظ الخطبة)

أقول: لم أجد لأهل اللغة فرقا بين الإنشاء و الابتداء، و هو الإيجاد الّذي لم يسبق بمثله، إلاّ أنّه يمكن أن يفرق هاهنا بينهما صونا لكلامه عليه السّلام عن التّكرار بأن يقال: المفهوم من الإنشاء هو الإيجاد الّذي لم يسبق غير الموجد الموجد إليه، و المفهوم من الابتداء هو الإيجاد الّذي لم يقع من الموجد قبل، و الرّوية: الفكر، و همامة النّفس اهتمامها بالأمور و من روى همامة نفس، فالمراد ترديد العزوم مأخوذ من الهمهمة و هي ترديد الصّوت الخفيّ، و روى أيضا همّة نفس، و الإحالة: التحويل و النقل و التّغيير و الانقلاب من حال إلى آخر، و روى أجال بالجيم، و روى أيضا أجّل أي وقّت، و الملائمة: الجمع. و الغرائز: جمع غريزة و هي الطّبيعة الّتي طبع عليها الإنسان كأنّها غرّزت فيه، و السنخ الأصل، و روى أشباحها جمع شبح و هو الشّخص، و القرائن جمع قرينة، و هي ما يقترن بالشّيء، و الأحناء: جمع حنو، و هي النّاحية، و الأجواء: جمع جوّ و هو الفضاء الواسع. و فتقها: شقّها و الأرجاء جمع رجاء مقصور، و هو النّاحية و السكائك جمع سكاكة كذوابة و ذوائب، و هي الفضاء ما بين السّماء و الأرض، و كلّ

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٨٠

مكان خال فهو هواء و أجار أي أجرى و من روى، أحار أي أدار و جمع. و تلاطم الماء:

تراد أمواجه، و ضرب بعضها بعضا. و الزّخّار: مبالغة في الزاخر و هو الممتلي. و متن كلّ شيء: ما صلب منه و اشتد. و عصف الرّيح: شدّة جريانها. و ريح زعزع: تحرّك الأشياء بقوّة و تزعزعها. و الرّيح العاصفة: الشديدة كأنّها لشدّتها تكسّر الأشياء و تقصفها. و سلّطها أي جعل لها سلاطة و هي القهر. و الفتيق: المنفتق. و الدفيق:

المندفق. و الاعتقام: الشدّ و العقد. و اعتقم أيضا (الأرض) مهبّها: أي جعله خاليا لا نبت به، من قولهم: عقمت الرّحم إذا لم يقدر بها ولد، و روى بغير تاء أي جعلها عقيمة لا تلقح شجرا و لا سحابا. و المربّ: المجمع. و العصف: الجري بشدّة و قوّة.

و الصفق و التصفيق: الضرب المترادّ المصوّت. و إثارة الموج: رفعه و هيّجه، و أصل البحر: الماء المتّسع الغمر، و ربّما خصّص في العرف بالمالح. و تموّج البحر: اضطرابه، و موجه: ما ارتفع منه حال هيجانه و حركته. و المخض: التحريك.

السقاء: وعاء اللبن و الماء أيضا. و المائر: المتحرّك. و العباب بالضمّ: معظم الماء، و عبّ أي علا و تدفّق.

و الركام: الماء المتراكم. و المنفهق: الواسع. و التسوية: التعديل. و المكفوف: الممنوع من السقوط (الجوهري). و السقف اسم للسماء. و سمك البيت: سقفه، و السموك: الارتفاع.

و العمد: جمع كثرة لعمود البيت، و دعامة البيت: عموده و ما يمنعه من السقوط.

و الدسار: كلّ شيء أدخلته في شيء لشدّة كمسمار و حبل و نحوهما. و المستطير: المنتشر.

و الفلك: من أسماء السماء، قيل: مأخوذ من فلكة المغزل في الاستدارة. و الرّقيم: اسم للفلك أيضا و اشتقاقه من الرقم و هو الكتابة و النّقش لأنّ الكواكب به تشبه الرّقوم.

و الأطوار: الحالات المختلفة و الأنواع المتباينة. قال الكسائي: أصل الملائك: مئالك بتقديم الهمزة من الألوك و هي الرّسالة، ثمّ قلّبت و قدّمت اللام، و قيل: ملأك ثمّ تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقيل: ملك فلمّا جمعوه ردّوها إليه، فقالوا ملائكة و ملائك.

و السأم: الملال. و السدنة: جمع سادن و هو الخازن. و مرق السّهم من الرمية إذا خرج من الجانب الأخر. و القطر: النّاحية.

و الركن: الجانب. و تلفع بثوبه: التحف به.

و النظائر: الأمثال.

و لنرجع إلى المعنى فنقول:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٨١

أنشأ الخلق إنشاء و ابتداء ابتداء، يشير إلى كيفيّة إيجاد الخلق على الجملة عن قدرة اللّه تعالى بعد أن ينبّه على أصل الإيجاد بقوله: فطر الخلائق بقدرته، فإنّ الباري تعالى لمّا لم يكن مسبوقا بغيره لا جرم صدق الإنشاء منه، و لمّا لم يكن العالم موجودا قبل وجوده لا جرم صدق ابتداؤه له.

(في بيان انّ إيجاد العالم كان بلا تفكّر و لا حركة)

قوله: بلا رويّة أجالها و لا تجربة استفادها و لا حركة أحدثها و لا همامة نفس اضطرب فيها.

أقول: لمّا كانت هذه الكيفيّات الأربع من شرائط علوم النّاس و أفعالهم التي لا يمكن حصولها إلاّ بها، أراد تنزيه اللّه سبحانه عن أن يكون إيجاده للعالم موقوفا على شيء منها.

أمّا الرويّة و الفكر فلمّا كانت عبارة عن حركة القوّة المفكّرة في تحصيل مبادئ المطالب و الانتقال منها إليها أو عن تلك القوّة أيضا نفسها كان ذلك في حقّ اللّه تعالى محالا لوجهين:

أحدهما انّ القوّة المفكرة من خواصّ نوع الإنسان.

الثاني أن فائدتها تحصيل المطالب المجهولة و الجهل على اللّه محال.

و أمّا التجربة فلمّا كانت عبارة عن حكم العقل بأمر على أمر بواسطة مشاهدات متكرّرة معدّة لليقين بسبب انضمامه قياس خفيّ إليها، و هو أنّه لو كان هذا الأمر اتّفاقيّا لما كان دائما و لا أكثريّا، كان توقف فعل اللّه تعالى على استفادة الأحكام منها محالا لوجهين:

أحدهما أنّها مركّبة من مقتضى الحسّ و العقل، و ذلك أنّ الحسّ بعد مشاهدة وقوع الإسهال مثلا عقيب شرب الدّواء مرّة و مرّة ينتزع العقل منها حكما كليّا بأنّ ذلك الدواء مسهل، و معلوم أنّ اجتماع الحسّ و العقل من خواصّ نوع الإنسان.

الثاني انّ التجربة إنّما تفيد علما لم يكن، فالمحتاج إلى التجربة لاستفادة العلم بها

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٨٢

ناقص بذاته مستكمل بها و المستكمل بالغير محتاج إليه فيكون ممكنا على ما مرّ و ذلك على اللّه محال.

و أمّا الحركة فقد عرفت أنّها من خواصّ الأجسام، و الباري سبحانه منزّه عن الجسميّة فيمتنع صدق المتحرّك عليه و إن

صدق أنّه محرّك الكلّ، لأنّ المتحرّك ما قامت به الحركة، و المحرّك أعم من ذلك.
و أمّا الهمامة أو الهمّة، فلمّا كانت مأخوذة من الاهتمام، و حقيقته الميل النفساني الجازم إلى فعل الشيء مع التألّم و الغمّ بسبب فقده كان ذلك في حقّ اللّه تعالى محالا لوجهين:
أحدهما، أنّ الميل النفساني من خواصّ الإنسان طلبا لجلب المنفعة، و الباري سبحانه منزّه عن الميول النفسانيّة و جلب المنافع.
الثاني، أنّه مستلزم للتألّم المطلوب، و التألّم على اللّه تعالى محال، و إذ ليس إيجاده تعالى للعالم على أحد الأنحاء المذكورة، فهو إذن بمحض الاختراع و الإبداع البرئ من الحاجة إلى أمر خارج ذاته المقدّسة:
بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [سورة البقرة: ١١٧].
و اعلم أنّه عليه السّلام أردف كلا من هذه الأمور بما هو كيفيّة في وجوده، فأردف الرّويّة بالإحالة و التجربة بالاستفادة و الحركة بالإحداث و الهمامة بالاضطراب لتنتفي الكيفيّة بانتفاء ما هي عن ذاته المقدّسة، و باللّه التوفيق.
قوله: أجال الأشياء لأوقاتها و لاءم بين مختلفاتها، و غرّز غرائزها و ألزمها أشباحها.
أقول: لمّا نبّه على نسبة إيجاد العالم إلى اللّه تعالى جملة، أشار بعده إلى أنّ ترتيبه و ما هو عليه من بديع الصنع و الحكمة كان مفصّلا في علمه وفق حكمته البالغة قبل إيجاده.
و المراد بقوله: أجال الأشياء لأوقاتها: الإشارة إلى ربط كلّ ذي وقت بوقته بحسب ما كتب في اللوح المحفوظ بالقلم الإلهي بحيث لا يتأخّر متقدّم و لا يتقدّم متأخّر

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٨٣

منها، و معنى الإجالة نقل كلّ منها إلى وقته، و تحويله من العدم و الإمكان الصرف إلى مدّته المضروبة لوجوده، و اللّام في لأوقاتها لام التعليل أي لأجل أوقاتها إذ كلّ وقت يستحق بحسب قدرة اللّه و علمه أن يكون فيه ما لا يكون في غيره، و على النسخة الأخرى فمعنى تأجيلها جعل أوقاتها آجالا لها لا تتقدّم عليها و لا تتأخر عنها كما قال:
فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ [سورة الأعراف: ٣٤].
و نبّه بقوله: و لأم بين مختلفاتها، على كمال قدرة اللّه تعالى، و بيان ذلك في صورتين:
إحديهما أنّ العناصر الأربعة متضادّة الكيفيّات، ثمّ إنّها إذا اجتمعت بقدرة اللّه تعالى و على وفق حكمته حتّى انكسرت صورة كلّ واحد منها بالآخرة و هو المسمّى بالتفاعل حصلت كيفيّة متوسّطة بين الأضداد متشابهة و هي المزاج فامتزاج اللطف بالكثيف على ما بينهما تضادّ الكيفيّات و غاية البعد بقدرته التّامّة من أعظم الدلائل الدّالّة على كمالها.
الثّانية، أنّ الملائمة بين الأرواح اللطيفة و النفوس المجرّدة الّتي لا حاجة بها في قوامها في الوجود إلى مادّة أصلا و بين هذه الأبدان المظلمة الكثيفة و اختصاص كلّ نفس ببدن منها و تدبيره و استعماله فيما يعود إليها من المصالح على النظام الأقصد و الطريق الأرشد ممّا يشهد بكمال قدرته و لطيف حكمته.
و قوله: و غرّز غرائزها، إشارة إلى ركز القوى الجسمانيّة النفسانيّة فيما هي قوى له، و خلق كلّ ذي طبيعة على خلقه و مقتضى قواه الّتي غرزت فيه من لوازمه و خواصّه مثلا كقوّة التعجب و الضحك للإنسان، و قوّة الشجاعة للأسد و الجبن للأرنب، و المكر للثعلب و غير ذلك، و عبّر عن إيجادها فيها بالغرز و هو الرّكز، استعارة لما يعقل من المشابهة بينها و بين العود الّذي يركز في الأرض من جهة المبدأ و من جهة الغاية، و ذلك أنّ اللّه سبحانه لمّا غرّز هذه الغرائز في محالّها

و أصولها و كانت الغاية من ذلك ما يحصل منها من الآثار الموافقة لمصلحة العالم أشبه ذلك غرر الإنسان العود في الأرض لغاية أن يثمر ثمرة منتفعا بها.

و قوله: و ألزمها أسناخها، إشارة إلى أنّها لا تفارق أصولها و لا يمكن زوالها عنها لأنّ اللاّزم هذا شأنه، و من روى أشباحها بالشين المعجمة فالمراد أنّ ما غرّز في الأشخاص

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۸۴

من اللوازم و الغرائز لا تفارقها، سواء كانت تلك الغرائز من لوازم الشخص كالذكاء و الفطنة بالنسبة إلى بعض النّاس و البلادة و الغفلة لآخر أو من لوازم المهيّات و طباعها لوجود المهيّات في أشخاصها، هذا إن قلنا: إنّ الضمير في قوله: و ألزمها عائد إلى الغرائز، أمّا ان قلنا انّه عايد إلى الأشياء كان المراد أنّ اللّه سبحانه لمّا أجال الأشياء لأوقاتها و لائم بين مختلفاتها و غرّز غرائزها في علمه و قضائه ألزمها بعد كونه كلّية أشخاصها الجزئيّة الّتي وجدت فيها.

لا يقال: إنّ لوازم المهيّات مقتضى المهيّات فكيف يمكن نسبة إلزامها لأصولها إلى قدرة اللّه تعالى.

لأنّا نقول: المستند إلى مهيّة الملزوم ليس إلاّ مهيّة لازمة، و امّا وجوده له فبقدرة اللّه تعالى، فيكون معنى إلزامها لأصولها إيجادها في أصولها تبعا لإيجاد أصولها على تقدير وجودها.

قوله: عالما بها قبل ابتدائها، محيطا بحدودها و انتهائها، عارفا بقرائنها و أحنائها.

(في إحاطة علمه تعالى بالأشياء)

أقول: المنصوبات الثلاثة و هي قوله: عالما و عارفا و محيطا، منصوبة على الحال، و العامل فيها قوله: ألزمها إعمالا للأقرب، و الأحوال الثلاثة مفسّرة لمثلها عقيب الأفعال الثلاثة الأول إذ كانت صالحة لأن تكون أحوالا عنها.

و المراد في القضيّة الأولى إثبات الأفعال الأربعة له حال كونه عالما بالأشياء قبل إيجادها، حاضرة في علمه بالفعل كلّيها و جزئيّها.

و في القضيّة الثانية نسبة تلك الأفعال إليه حال إحاطة علمه بحدودها و حقائقها المميزة لبعضها عن بعض، و إنّ كلاّ منته بحدّه واقف عنده و هو نهايته و غايته، و يحتمل أن يريد بانتهائها انتهاء كلّ ممكن إلى سببه و انتهاء الكلّ في سلسلة الحاجة إلى اللّه.

و في القضيّة الثالثة نسبه الأفعال إلى قدرته حال علمه بما يقترن بالأشياء من لوازمها و عوارضها، و علمه بكلّ شيء يقترن بشيء آخر على وجه التركيب أو

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۸۵

المجاورة كاقتران بعض العناصر ببعض في أحيازها الطبيعيّة على التّرتيب الطبيعي و علمه بأحنائها و جوانبها الّتي بها تنتهي و تقارن غيرها.

(في بيان تعداد أسماء اللّه الحسنى)

و بيان هذه الأحكام له تعالى ببيان أنّه عالم بكلّ المعلومات من الكلّيات و الجزئيّات، و ذلك ممّا علم في العلم الإلهي.

فإن قلت: إطلاق اسم العارف على اللّه تعالى لا يجوز لقول النّبي صلّى اللّه عليه و آله: إنّ للّه تسعة و تسعين اسما (۷۹) من أحصاها دخل الجنّة. و إجماع علماء النقل على أنّ

(٧٩) قوله: لقول النبيّ (ص): إنّ للّه (تعالى) تسعة و تسعين اسما.

روى الصدوق رحمه اللّه في «التوحيد» ص ١٩٤، الحديث ٨ باب أسماء اللّه تعالى، بإسناده عن عليّ بن أبي طالب (ع)، قال: قال رسول اللّه (ص):

إنّ للّه تبارك و تعالى تسعة و تسعين اسما مائة إلاّ واحدا، من أحصاها دخل الجنّة.

الحديث.

و أخرج مثله السيوطي في «جامع الصغير» ج ١، الحديث ٢٣٥٣، ص ٣٥٨.

و مسلم أيضا في «صحيحه» ج ٤، ص ٢٠٦٣، الحديث ٦، باب ٣ من كتاب الذكر، و أيضا البخاري في «صحيحه» في كتاب التوحيد، باب ١٢٠٦، الحديث ٢١٩٤، ص ٧٨٤، و في كتاب الشروط باب ٦٠٦، الحديث ٩٣٥، ص ٣٨٤، ج ٤.

و أخرجه أيضا ابن ماجة ج ٢، باب ١٠، كتاب الدعاء، الحديث ٣٨٦٠، ص ١٢٦٩، و أيضا روى الصدوق (رض) في «التوحيد» ص ١٩٥، الحديث ٩، بإسناده عن عليّ بن أبي طالب (ع) قال: قال رسول اللّه (ص):

للّه عزّ و جلّ تسعة و تسعون اسما، من دعا بها استجاب له، و من أحصاها دخل الجنّة.

و روى أيضا في ص ٢١٩، الحديث ١١، بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه (ص):

إنّ للّه تبارك و تعالى تسعة و تسعين اسما مائة إلاّ واحدا، إنّه وتر، يحبّ الوتر، من أحصاها دخل الجنّة. الحديث.-[.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ١٨٦

- و أخرج مثله أيضا مسلم في صحيحه ج ٤، ص ٢٠٦٣، ذيل حديث ٦، و أخرج أيضا في ص ٢٠٦٢، الحديث ٥، باسناده عن أبي هريرة، عن النبيّ (ص) قال:

للّه تسعة و تسعون اسما، من حفظها دخل الجنّة، و إنّ اللّه وتر يحبّ الوتر.

و أخرجه أيضا ابن ماجة ج ٢، ص ١٢٦٩، الحديث ٣٨٦١.

و أخرج قريب منه السيوطي ج ١، الحديث ٢٣٥٤ و الحديث ٢٣٦٩.

و أخرج السيوطي ص ٣٦٠، الحديث ٢٣٦٦:

إنّ للّه عزّ و جلّ تسعة و تسعين اسما، مائة غير واحدة، إنّه وتر يحبّ الوتر، و ما من عبد يدعو بها إلاّ وجبت له الجنّة.

و فيه أيضا الحديث ٢٣٧٠:

إنّ للّه تعالى مائة اسم غير اسم من دعا بها استجاب اللّه له.

و روى الكليني في اصول الكافي ج ١، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء، ص ١١٤، الحديث ٢، بإسناده عن هشام بن الحكم عن الصادق (ع) قال:

للّه تسعة و تسعون اسما فلو كان الإسم هو المسمّى لكان كلّ اسم منها إلها، و لكنّ اللّه معنى يدلّ عليه بهذه الأسماء و كلّها غيره، الحديث.

أقول: و قد ورد هذا العدد (تسعة و تسعون) في رحمة اللّه تعالى و خلقه، و في عذاب الكافر في قبره أيضا، و بما أنّ الوقوف على هذه

الروايات له مدخليّة في معنى الحديث و تفسيره، لا بأس بذكر جملة منها في المقام:

ألف- أخرج عين القضاة في كتابه تمهيدات ص ۳۴۵:

قال رسول اللّه (ص): إنّ للّه تسعة و تسعين خلقا من تخلّق بها دخل الجنّة.

و في حديث إنّ للّه تعالى مائة خلق و سبعة عشر خلقا من أتاه بخلق منها دخل الجنّة.

أخرجه السيوطي في جامع الصغير، ص ۳۶۰، ج ۱، و العسقلاني في كتابه المطالب العالية ج ۲، ص ۳۸۹، الحديث ۲۵۴۴.

ب- أخرج ابن ماجة في ج ۲، كتاب الزهد، باب ۳۵، الحديث ۴۲۹۳، ص ۱۴۳۰، بإسناده عن النبيّ (ص) قال:

إنّ للّه مائة رحمة، قسم منها رحمة بين جميع الخلائق، فيها يتراحمون، و بها يتعاطفون، و بها تعطف الوحش على أولادها، و أخّر تسعة و تسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۱۸۷

- و في حديث بعده:

خلق اللّه عزّ و جلّ يوم خلق السماوات و الأرض مائة رحمة، فجعل في الأرض منها رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها و البهائم بعضها على بعض، و الطّير، و أخّر تسعة و تسعين إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها اللّه بهذه الرّحمة.

و أخرج مسلم أيضا في ج ۴، ص ۲۱۰۸، الحديث ۲۰ و ۲۱، كتاب التوبة قريب منهما، و الحاكم أيضا في المستدرك ج ۱، ص ۱۴، و الغزالي في إحياء علوم الدين، ج ۴، ص ۵۴۴، فراجع.

ج- روى الكليني في الكافي ج ۳، ص ۱۳۶، الحديث ۷، باب المسألة في القبر، بإسناده عن بشير الدهّان عن الصادق (ع) قال: يجيء الملكان منكر و نكير إلى الميّت حين يدفن، أصواتهما كالرّعد القاصف و أبصارهما كالبرق الخاطف يخطّان (يخدّان) الأرض بأنيابهما و يطأن (يطئان) في شعورهما، إلى أن قال: و إذا كان الرّجل كافرا دخلا عليه و أقيم الشيطان بين يديه، عيناه من نحاس، فيقولان له: من ربّك؟ و ما دينك؟ و ما تقول في هذا الرّجل الّذي قد خرج من بين ظهرانيكم؟ فيقول: لا أدري، فيخلّيان بينه و بين الشيطان، فيسلّط عليه في قبره تسعة و تسعون تنّينا لو أنّ تنّينا واحدا منها نفخ في الأرض ما أنبتت شجرا أبدا و يفتح له باب إلى النّار و يرى مقعده منها.

و أخرج قريب منه السيوطي في تفسيره الدرّ المنثور، ج ۵، ص ۶۰۸، ذيل الآية الكريمة: **وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً** [سورة طه: ۱۲۴].

عن النبيّ (ص) قال:

هل تدرون فيما أنزلت: فانّ له معيشة ضنكا، قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: عذاب الكافر في قبره، يسلّط عليه تسعة و تسعون تنّينا ... هل تدرون ما التّنّين؟ تسعة و تسعون حيّة، لكلّ حيّة سبعة رؤوس، يخدشونه و يلسعونه و ينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون.

قال الغزالي في إحياء العلوم ج ۴، ص ۵۰۰، ذيل الحديث:

و لا ينبغي أن يتعجّب من هذا العدد على الخصوص، فانّ أعداد هذه الحيّات و العقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر و الرياء و الحسد و الغل و الحقد و سائر الصفات، فانّ لها اصولا معدودة، ثمّ تتشعّب منها فروع معدودة، ثمّ تنقسم فروعها إلى أقسام، و تلك الصفات بأعيانها هي المهلكات و هي بأعيانها تنقلب عقارب و حيّات (في تلك النشأة).-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٨٨

هذا الإسم ليس منها.

قلت: الأشبه أنّ أسماء اللّه تعالى تزيد على التسعة و التسعين لوجهين: أحدهما قول النّبي صلّى اللّه عليه و آله (٨٠):

- قال المولى الفيض في كتابه علم اليقين ج ٢، ص ٨٨١:

قيل: لمّا كان للّه سبحانه تسعة و تسعون اسما من أحصاها دخل الجنّة، و له تسعة و تسعون رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة، و الكافر لم يعرف اللّه بشيء من تلك الأسماء جعل له في مقابلة كلّ اسم و رحمة تنّين تنهشه في قبره.

و راجع في هذا أيضا كتاب الأربعين للشيخ البهائي، ذيل الحديث التاسع و الثلاثون.

و في علم اليقين أيضا ج ١، ص ١٠٢:

قال بعض أهل المعرفة: إحصاؤها أن يجعلها أسماء لنفسه بتحصيل معانيها فيها بقدر الإمكان، و هذا كقوله (ص):

تخلّقوا بأخلاق اللّه، و إلاّ فلو أنّ أحدا أحصى ألف ألف اسم من أسمائه العظام بمجرّد اللّسان من غير أن تنطبع في طبعه، و ينتقش في نفسه تلك المعاني المدلول عليها بتلك الأسامي. **وَ مَثَلُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ اَلَّذِي يَنْعِقُ بِمٰا لاٰ يَسْمَعُ إِلاّٰ دُعٰاءً وَ نِدٰاءً، أراد بذلك أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور يناسبها على الجملة و يشاركها في الإسم و إن لم يماثلها مماثلة تامّة.**

(٨٠) قوله: قول النبيّ (ص):

روى السيّد ابن طاوس رحمه اللّه تعالى في «مهج الدعوات» ص ١٦٩، بإسناده عن الباقر (ع)، عن آبائه، عن جدّه رسول اللّه (ص) دعاء طويلا من دعا به كان في حرز اللّه سبحانه، و منه:

اللّهمّ إنّي أسألك بكلّ اسم هو لك سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تصلّي على محمّد و أن تجعل القرآن ربيع قلبي و نور بصري و جلاء حزني و ذهاب همّي. الدعاء عنه البحار ج ٨٦ ص ٣٢٤، الحديث ٦٩.

كما جاءت نفس العبارة في «حرز الكامل» للإمام السجّاد عليّ بن الحسين (ع) الّذي أورده أيضا السيّد ابن طاوس في المهج مرسلا ص ١٤، و فيه: «و أنزلته في كتابك» بدل «أو». عنه البحار ج ٨٦ ص ٣١١، الحديث ٦٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٨٩

أسئلك بكلّ اسم سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك.

فإنّ هذا صرح في أنّه استأثر ببعض الأسماء.

الثاني، أنّه صلّى اللّه عليه و آله قال في رمضان:

إنّه اسم من أسماء اللّه تعالى «٨١».

و كذلك كان الصحابة يقولون: فلان أوتي الاسم الأعظم و كان ذلك ينسب إلى بعض الأنبياء و الأولياء و ذلك يدلّ على أنّه خارج من التسعة و التسعين، فإذا كان

- و أيضا رواه شيخ الطائفة الطوسي في «مصباح المتهجّد» ص ۳۱۵، في دعاء صلاة في يوم الجمعة عن الصادق (ع). و أيضا مثله في دعاء يوم الأربعاء، عن أبي الحسن الكاظم (ع)، ذكره الطوسي في المصباح ص ۵۰۹، و عنه البحار ج ۹۰، ص ۲۰۱، الحديث ۳۲.

و أيضا روى المجلسي في البحار ج ۹۵، ص ۲۷۹، الحديث ۱، نقلا عن «دعوات الراوندي» عن النبيّ (ص) قال:

ما أصاب أحدا همّ و لا حزن فقال:- ذكره الدعاء المذكور- إلاّ أذهب اللّه همّه، و أنزل مكانه فرحا.

روى هذه الحديث الأخير أيضا أحمد بن حنبل في مسنده ج ۱، ص ۳۹۱، و الحاكم في «المستدرك» ج ۱، ص ۵۰۹، و الهندي في «كنز العمّال» ج ۲، ص ۱۲۳، و ابن كثير في تفسيره ج ۲، ص ۴۴۱ في سورة الأعراف الآية ۱۸۰. و السيوطي في «الدرّ المنثور» ج ۳، ص ۶۱۶ في تلك السورة و نفس الآية.

(۸۱) قوله: قال في رمضان: إنّه اسم من أسماء اللّه تعالى.

رواه الكليني في الفروع من الكافي ج ۴، باب في النهي عن قول رمضان بلا شهر، ص ۶۹، الحديث ۲، بإسناده عن سعد (مسعدة)، عن الباقر عليه السّلام، قال: كنّا عنده ثمانية رجال فذكرنا رمضان فقال:

لا تقولوا: هذا رمضان، و لا: ذهب رمضان، و لا: جاء رمضان، فإنّ رمضان اسم من أسماء اللّه عزّ و جلّ لا يجيء و لا يذهب، و إنّما يجيء و يذهب الزّائل، و لكن قولوا: شهر رمضان، فإنّ الشهر مضاف الإسم و الإسم اللّه عزّ و جلّ ذكره و هو الشهر الّذي انزل فيه القرآن جعله مثلا وعيدا.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌۲، ص ۱۹۰

كذلك كان كلّ الكلام في قوله صلّى اللّه عليه و آله: إنّ للّه تسعة و تسعين اسما من أحصاها دخل الجنّة، قضيّة واحدة معناها الإخبار بأنّ من أسماء للّه تعالى تسعة و تسعين من أحصاها يدخل الجنّة، و يكون تخصيصها بالذكر لاختصاصها بمزيد شرف لا يكون لباقي الأسماء و هي كونها مثلا جامعة لأنواع من المعاني المنبئة عن الكمال بحيث لا يكون لغيرها لا لنفي أن يكون للّه تعالى اسم غيرها، و إذا كان كذلك جاز أن يكون العارف من تلك الأسماء.

لا يقال: إنّ الإسم الأعظم غير داخل فيها لاشتهارها و اختصاص معرفته بالأنبياء، و إذا كان كذلك فكيف يصدق عليها أنّها أشرف الأسماء.

لأنّا نقول: يحتمل أن يكون خارجا منها و يكون شرفها حاصلا بالنسبة إلى باقي الأسماء الّتي هي غيره، و يحتمل أن يكون داخلا فيها إلاّ أنّا لا نعرفه بعينه و يكون ما يختصّ به النبيّ أو الوليّ إنّما هو تعيينه منها.

(في كيفيّة الخلق و تفصيل إيجاده و الإشارة إلى مباديه)

قوله: ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء (و شقّ الأرجاء، و سكائك الهواء) إلى قوله:

فسوّى منه سبع سموات.

أقول: لمّا أشار عليه السّلام في الفصل المتقدّم إلى نسبة خلق العالم إلى قدرة اللّه تعالى على سبيل الإجمال، شرع بعده في تفصيل الخلق و كيفيّة إيجاده و الإشارة إلى مباديه و لذلك حسن إيراد ثمّ هاهنا،

و في هذا الفصل أبحاث

البحث الأوّل:

، اعلم أنّ خلاصة ما يفهم من هذا الفصل أنّ اللّه قدّر أحيازا و أمكنة أجرى فيها الماء الموصوف و خلق ريحا قويّة على ضبطه و حفظه، حمله عليها و أمرها بضبطه، و يفهم من قوله: الهواء من تحتها فتيق و الماء من فوقها دفيق.

أنّ تلك الأحياز و الأمكنة تحتها، و أنّها أمرت بحفظه و ضبطه لتوصّله إلى تلك الأحياز، و ربّما فهم منه أنّ تلك الأحياز تحتها للماء و هي سطح الريح الحاوي له، و أنّ تحت تلك الريح فضاء آخرا واسعا و هي محفوظة بقدرة اللّه تعالى، كما ورد في الخبر:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٩١

ثمّ خلق سبحانه ريحا آخرا لأجل تموّج ذلك الماء فأرسلها و عقد مهبّها. أي أرسلها بمقدار مخصوص على وفق الحكمة و المصلحة الّتي أرادها بإجرائها و لم يرسلها مطلقا، و من روى بالتّاء فالمراد أنّه أخلى مهبّها عن العوائق أو أنّه أرسلها بحيث لا يعرف مهبّها و أدام حركتها و ملازمتها لتحريك الماء و أعصف جريانها و أبعد مبتداهما، ثمّ سلّطها على تموّج ذلك الماء فلمّا عبّ عبابه و قذف بالزبد رفع تعالى ذلك الزّبد في الفضاء و كوّن منه السّماوات العلى.

البحث الثّاني

، أنّ هذه الإشارة وردت في القرآن الكريم فإنّه أشير فيه إلى أنّ السماوات تكوّنت من الدّخان، كقوله تعالى:

ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ وَ هِيَ دُخٰانٌ [سورة فصّلت: ١١].

و المراد بخار الماء، كذلك وردت في أقوال كثيرة:

(في نقل أقوال الحكماء في خلق السّموات و الأرض)

الأوّل

، ما روى عن الباقر محمّد بن علي عليه السّلام قال: لمّا أراد اللّه سبحانه و تعالى أن يخلق السّماء أمر الرّياح فضربن البحر حتّى أزبد فخرج من ذلك الموج، و الزّبد دخان ساطع من وسطه من غير نار فخلق اللّه منه السّماء (٨٢).

---

(٨٢) قوله: لمّا أراد اللّه سبحانه.

في تفسير العيّاشي في سورة آل عمران ج ١، ص ١٨٦، الحديث ٩١: عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر (ع) قال: كان اللّه تبارك و تعالى كما وصف نفسه، و كان عرشه على الماء، و الماء على الهواء، و الهواء لا يجري، و لم يكن غير الماء خلف، و الماء يومئذ عذب فرات، فلمّا أراد أن يخلق الأرض أمر الرّياح الأربع فضربن الماء صار موجا، ثمّ أزبد زبدة واحدة فجمعه في موضع البيت، فأمر اللّه فصار جبلا من زبد، ثمّ دحى الأرض من تحته ثمّ قال: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبٰارَكاً وَ هُدىً لِلْعٰالَمِينَ. عنه البحار ج ٥٧، ص ٨٦، الحديث ٧١.**

و في الروضة من الكافي ص ٩٤، الحديث ٦٧، بإسناده عن باقر العلوم أبي جعفر (ع)-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٩٢

الثاني

، ما نقل أنّه جاء في السفر الأوّل من التّوراة (٨٣):

- في حديث قال: (إنّ اللّه تبارك و تعالى) كان إذ لا شيء غيره و خلق الشيء الّذي جميع الأشياء منه و هو الماء الّذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كلّ شيء إلى الماء، و لم يجعل للماء نسبا يضاف إليه، و خلق الرّيح من الماء، ثمّ سلّط الريح على الماء فشقّقت الرّيح متن الماء حتّى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الزّبد أرضا بيضاء نقيّة ليس فيها صدع و لا ثقب و لا صعود و لا هبوط و لا شجرة، ثمّ طواها فوضعها فوق الماء، ثمّ خلق اللّه النّار من الماء فشققت النّار متن الماء حتّى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء اللّه أن يثور، فخلق من ذلك الدّخان سماء صافية نقيّة ليس فيها صدع و لا ثقب، و ذلك قوله: **السَّمٰاءُ بَنٰاهٰا. رَفَعَ سَمْكَهٰا فَسَوّٰاهٰا. وَ أَغْطَشَ لَيْلَهٰا وَ أَخْرَجَ ضُحٰاهٰا [النازعات: ٢٧- ٢٩]. الحديث.**

عنه البحار ج ٥٧، ص ٩٦، الحديث ٨١.

و أخرج السيوطي في «الدرّ المنثور» ج ١، ص ١٠٧ في تفسير سورة البقرة في الآية **ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ فَسَوّٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ** [البقرة: ٢٩]، **نقلا عن كتاب «الردّ على الجهميّة» عن عبد اللّه بن عمر قال: لمّا أراد اللّه أن يخلق الأشياء إذ كان عرشه على الماء، و إذا لا أرض و لا سماء، خلق الرّيح فسلطها على الماء حتّى اضطربت أمواجه و أثار ركامه، فأخرج من الماء دخانا و طينا و زبدا، فأمر الدّخان فعلا و سما و نما، فخلق من السماوات، و خلق من الطّين الأرضين، و خلق من الزبد الجبال.**

(٨٣) قوله: جاء في السفر الأوّل من التوراة.

جاء في التوراة (المطبوع باللّغة العربية عندنا) التكوين الأوّل (الأصحاح الأوّل):

«و كان الأرض خربة و خالية و على وجه الغمر ظلمة، و روح اللّه يرفّ على وجه المياه.

و قال اللّه ليكن نور فكان نور. إلى أن قال:

و قال اللّه ليكن جلد في وسط المياه. و ليكن فاصلا بين مياه و مياه، فعمل اللّه الجلد و فصل بين المياه التي تحت الجلد و المياه التي فوق الجلد و كان كذلك و دعا اللّه سماء. إلى أن قال:

«و قال اللّه لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد و لتظهر اليابسة، و كان كذلك و دعا اللّه اليابسة أرضا.

أخرج الإمام الرّازي المتوفّى ٦٠٦ في تفسيره في سورة القلم ج ٣٠، ص ٧٨، و أيضا-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ١٩٣

- نظام الدين الحسن بن محمّد بن الحسين القمّي النيسابوريّ المتوفّى ٧٣٨ ه في تفسير «غرائب القرآن» في سورة القلم ج ٢٩، ص ١٨:

أوّل ما خلق اللّه جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فذابت و تسخّنت، فارتفع منها دخان و زبد، فخلق من الدّخان السماء و من الزّبد الأرض.

و روى فرات الكوفيّ (و هو من معاصري ثقة الإسلام الكلينيّ و كان من الأعلام في زمان الغيبة الصغرى) في تفسيره في سورة هود ص ١٨٣، بإسناده عن (الإمام) الحسن بن عليّ بن أبي طالب (ع)، قال:

شهدت أبي عند عمر بن الخطّاب و عنده كعب الأحبار، و كان رجلا قد قرأ التوراة و كتب الأنبياء (ع)، فقال له عمر: يا كعب: من كان أعلم

بني إسرائيل بعد موسى بن عمران بن يوشع بن نون و كان وصيّ موسى بن عمران بعده، و كذلك كلّ نبيّ خلا من قبل موسى بن عمران و من بعده كان له وصيّ يقوم في امّته من بعده ... إلى أن قال: فقال (عمر): يا كعب: فمن ترى وصيّ نبيّنا؟ قال كعب: معروف في جميع كتب الأنبياء و الكتب المنزلة من السّماء «عليّ أخو النبيّ العربي (صه يعينه على أمره يؤازره على من ناواه، له زوجة مباركة و له منها ابنان يقتلهما أمّته من بعده، و يحسد وصيّه كما حسدت الأمم أوصياء أنبيائها، فيدفعونه عن حقّه و يقتلون ولده من بعده كحذو (كحسد) الأمم الماضية، إلى أن قال: فلمّا دخل عليّ بن أبي طالب (ع)، فقال كعب: يا أبا الحسن: أخبرني عن قول اللّه عزّ و جلّ:

وَ كٰانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمٰاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [سورة هود: ٧].

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام: نعم، كان عرشه على الماء حين لا أرض مدحيّة، و لا سماء مبنيّة ... إلى أن قال: ثمّ بدأ يخلق فضرب بزارخ (بأمواج) البحور فثار منها مثل الدّخان كأعظم ما يكون من خلق اللّه، فبنى بها سماء رتقا، ثمّ دحى الأرض من موضع الكعبة و هي وسط الأرض ... إلى أن قال: فقال كعب: عليّ بن أبي طالب (ع) وصيّ الأنبياء، و محمّد خاتم الأنبياء (ص)، و عليّ خاتم الأوصياء، و ليس على الأرض اليوم منفوسة إلّا و عليّ بن أبي طالب أعلم منه، و اللّه ما ذكر من خلق الإنس و الجنّ و السّماء و الأرض و الملائكة شيئا إلّا و قد قرأته في التوراة كما قرأ. و عنه البحار ج ٥٧، ص ٩٠، الحديث ٧٩.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٩٤

أنّ مبدأ الخلق جوهر خلقه اللّه، ثمّ نظر إليه نظر الهيبة فذابت أجزاؤه فصارت ماء فثار من الماء بخارا كالدّخان فخلق منه السّماوات، و ظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر، فخلق منه الأرض، ثمّ أرساها بالجبال.

و في رواية أخرى فخلق منه أرض مكّة ثمّ بسط الأرض من تحت الكعبة و لذلك تسمّى مكّة أمّ القرى (٨٤).

- و روى المجلسي في البحار ج ١٥، ص ٣٦، عن الشيخ أبو الحسن البكريّ في كتابه المسمّى بكتاب الأنوار، عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام في حديث، قال:

كان اللّه و لا شيء معه، فأوّل ما خلق نور حبيبه محمّد صلّى اللّه عليه و آله، ... إلى أن قال: ثمّ خلق من نور محمّد (ص) جوهرة، و قسّمها قسمين، فنظر إلى القسم الأوّل بعين الهيبة فصار ماء عذبا، و نظر إلى القسم الثاني بعين الشّفقة فخلق منها العرش فاستوى على وجه الماء، فخلق الكرسيّ من نور العرش، و خلق من نور الكرسيّ اللّوح، و خلق من نور اللّوح القلم. إلى أن قال: ثمّ نظر إلى باقي الجوهرة بعين الهيبة فذابت، فخلق من دخانها السّماوات، و من زبدها الأرضين، الحديث.

(٨٤) قوله: و في رواية اخرى.

روى الشيخ الصدوق (رض) في «علل الشرائع» ص ٥٩٣ ح ٤٤، و أيضا في «عيون أخبار الرّضا (ع)» ج ١، ص ٢٤٠، الباب ٢٤، الحديث ١، بإسناده عن عبد اللّه بن أحمد ابن عامر الطائيّ، عن عليّ بن موسى الرّضا (ع)، عن آبائه، عن الحسين بن عليّ (ع)، قال:

كان عليّ بن أبي طالب (ع) بالكوفة في الجامع إذ قام إليه رجل من أهل الشّام فقال: يا أمير المؤمنين انّي أسألك عن أشياء، فقال: سل تفقّها، و لا تسأل تعنّتا، فأحدق النّاس بأبصارهم، فقال: أخبرني عن أوّل ما خلق اللّه تعالى؟ فقال (ع): خلق النور، قال: فممّ خلقت السّماوات؟ قال (ع): من بخار الماء، قال: فممّ خلقت الأرض؟ قال (ع): من زبد الماء، قال: فممّ خلقت الجبال؟ قال (ع): من الأمواج، قال: فلم سمّيت مكّة امّ القرى؟

قال (ع): لأنّ الأرض دحيت من تحتها. إلى أن قال: و سأله عن أوّل بقعة بسطت من الأرض أيّام الطّوفان؟ فقال له (ع): موضع الكعبة، و كانت زبرجدة خضراء. الحديث، و الحديث طويل، فراجع.

و في «البحار» ج ٥٧، ص ٢٩، الحديث ٤، عن «شرح نهج البلاغة» للكيدري من-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٩٥

الثالث

، نقل عن كعب ما يقرب من ذلك قال «٨٥»:

إنّ اللّه خلق ياقوتة خضراء ثمّ نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثمّ خلق الرّيح فجعل الماء على متنها، ثمّ وضع العرش على الماء، كما قال تعالى:

وَ كٰانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمٰاءِ [سورة هود: ٧].

الرّابع

، ما نقل عن تاليس الملطي «٨٦»، و كان من مشاهير الحكماء القدماء فإنّه نقل عنه، بعد أن وحّد الصانع الأوّل للعالم و نزّهه أنّه قال:

لكنّه أبدع العنصر الّذي فيه صور الموجودات و المعلومات كلّها و سمّاه المبدع الأوّل، ثمّ نقل عنه أنّ ذلك العنصر هو الماء، قال: و منه أنواع الجواهر كلّها من السّماء و الأرض و ما بينهما و هو علّة كلّ مبدع و علّة كلّ مركب من العنصر الجسماني، فذكر:

أن من جمود الماء تكوّنت الأرض، و من انحلاله تكوّن الهواء، و من صفوته تكوّنت النّار، و من الدّخان و الأبخرة تكوّنت السّماء.

و قيل: إنّه أخذت ذلك من التّوراة.

الخامس

، ما وجدته في كتاب سلينوس (بلينوس) الحكيم الّذي سمّاه الجامع لعلل الأشياء قريبا من هذه الإشارة و ذلك أنّه قال:

إنّ الخالق تبارك و تعالى كان قبل الخلق و أراد أن يخلق الخلق، فقال: ليكن كذا و كذا، فكان ما أراد بكلمته، فأوّل الحدث كلمة اللّه المطاعة الّتي كانت بها الحركة، ثمّ قال بعده: إنّ أوّل ما حدث بعد كلام اللّه تعالى الفعل، فدلّ بالفعل على الحركة، و دلّ بالحركة على الحرارة، ثمّ لمّا نقصت الحرارة جاء

علماء القرن السّادس، نفس الخبر الذي نقل في المتن.

و أيضا في «البحار» ج ٥٧، ص ٢٠٧، ح ١٦٠، عن تفسير «الدرّ المنثور»، عن ابن عبّاس حديث في معناه، فراجع.

(٨٥) قوله: نقل عن كعب.

نقله الفخر الرّازي في تفسيره الكبير ج ١٧، ص ١٨٧ في سورة هود في الآية: **وَ كٰانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمٰاءِ [الآية: ٧]. [.....]**

(٨٦) قوله: ما نقل عن تاليس الملطيّ.

راجع «الملل و النّحل» للشهرستانيّ ص ٦١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٩٦

السكون عند فنائها، فدلّ بالسكون على البرد.

ثمّ ذكر بعد ذلك: أنّ طبائع العناصر الأربعة إنّما كانت من هاتين القوّتين أعني الحرّ و البرد، قال: و ذلك أنّ الحرارة حدث منها اللين، و من البرودة اليبس، فكانت أربع قوى مفردات فامتزج بعضها ببعض، فحدث من امتزاجها الطبائع الأربع و كانت هذه الكيفيّات قائمة بأنفسها غير مركّبة فمن امتزاج الحرارة و اليبس حصلت النّار، و من الرطوبة و البرودة حدث الماء و من الحرارة و الرطوبة حدث الهواء و من امتزاج البرد و اليبس حصلت الأرض.

ثمّ قال: إنّ الحرارة لمّا حرّكت طبيعة الماء و الأرض تحرّك الماء للطفه عن ثقل الأرض، و أثقلت ما أصابه من الحر فصار بخارا لطيفا هوائيّا رقيقا روحانيّا، و هو أوّل دخان طلع من أسفل الماء و امتزج بالهواء فسما إلى العلو لخفّته و لطافته، و بلغ الغاية في صعوده على قدر قوّته و نفرته من الحرارة فكان منه الفلك الأعلى و هو فلك زحل، ثمّ حرّكت النّار الماء أيضا فطلع منه دخان هو أقلّ لطفا ممّا صعد أوّلا و أضعف، فلمّا صار بخارا سما إلى العلو بجوهره و لطافته و لم يبلغ فلك زحل لعلّة لطافته عمّا قبله فكان منه الفلك الثاني و هو فلك المشتري، (و هكذا) بيّن في طلوع الدخان مرّة و مرّة، و تكون الأفلاك الخمسة الباقية عنه.

فهذه الإشارات كلّها متطابقة على أنّ الماء هو الأصل الّذي تكوّنت عنه السّماوات و الأرض و ذلك مطابق لكلامه عليه السّلام.

البحث الثّالث

، قوله: و أدام مربّها.

قال قطب الدّين الرّاوندي (٨٧): أي أدام جمع الريح للماء و تسويتها له. قلت: تقرير

---

(٨٧) قوله: قال قطب الدين الرّاونديّ.

هو الشيخ أبو الحسين سعيد بن هبة اللّه بن الحسن الراوندي، كان من تلامذة صاحب تفسير «مجمع البيان» الطبرسيّ، و كان من تلامذته: ابن شهر آشوب صاحب «المناقب»، و له تصانيف منها: «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة»، و من مآخذ شرح قطب الدين-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٩٧

ذلك أنّ الماء لمّا كان مقرّ الريح الّذي انتهت إليه و عملت في تحريكه كان ذلك هو مربّها أي الموضع الّذي لزمته و أقامت به، فقوله: و أدام مربّها أي أدام حركة الماء و اضطرابه و مخضه و هو محلّ إربابها، و يحتمل أن يكون قد استعمل اسم الموضع استعمال المصدر، و التقدير: أدام إربابها أي ملازمتها لتحريك الماء، و أيضا فيحتمل أن يكون قد شبّهها في كونها سببا للآثار الخيريّة، و في كثرتها و قوّتها بالديمة فكان محلّها و مقرّها الّذي يصل إليه و يقيم به، قد أدامه اللّه أي سقاه اللّه ديمة.

و قوله: و أبعد منشأها، قال: أي أبعد ارتفاعها.

قلت: المنشأ محلّ النّشوء و هو الموضع الّذي أنشأها منه فلا يفهم منه الارتفاع اللّهم إلاّ على تقدير استعماله لموضع الإنشاء استعمال المصدر أي بلغ بإنشائها غاية بعيدة، و الأقرب أنّه يشير إلى أنّها نشأت من مبدأ بعيد و لا يمكن الوقوف على أوّله و هو قدرة الحقّ سبحانه وجوده.

و قوله: و أمرها.

قال رحمه اللّه: أمر الموكّلين بها من الملائكة بضرب الماء بعضه بعضا، و تحريكه لمخض اللبن للزّبد و أطلق الأمر عليها مجازا، لأنّ الحكيم لا يأمر الجماد.

قلت: (بل) حمله على أمر الريح أولى لأنّ في التقدير الّذي ذكره يكون التجوّز في لفظ الأمر لعدم القول المخصوص هناك فيحمل على قهر ملائكتها و في نسبته إلى الرّيح أيضا (مجاز) إذا أريد ملائكتها، أمّا إذا حملناه على ظاهره كان التجوّز في لفظ الأمر دون النسبة فكان أولى.

و قوله: مخض السقاء و عصفها بالفضاء.

أي و مثل مخض السقاء و مثل عصفها، فحذف المضاف الّذي هو صفة المصدر و أقام

- الكيدري و ابن أبي الحديد و ابن ميثم البحراني و غيرها من شروح نهج البلاغة، و نقل عنه المجلسيّ في البحار أيضا، راجع «البحار» ج ۱۰۵، ص ۲۳۵، و «الذريعة» ج ۱٤، ص ۱۲۶، و «أعيان الشيعة» ج ۷، ص ۲۳۹ و ص ۲۶۰، و غيرها من الكتب التراجم.

و قد تقدّم أيضا ترجمته في تعليقتنا الرّقم ۵۹.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌۲، ص ۱۹۸

المضاف إليه مقامه فلذلك نصبه نصب المصادر.

و اعلم أنّ اللاّم في قوله: بتصفيق الماء، للمعهود السّابق في قوله: ماء متلاطما لأنّ المائين واحد، و مثل هذا التكرار جاز في الكلام الفصيح كقوله تعالى:

كَمٰا أَرْسَلْنٰا إِلىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ [سورة المزّمّل: ۱۵- ۱۶].

فان قلت: إنّ الأجزاء و الأرجاء و سكائك الهواء أمور عدميّة فكيف يصحّ نسبتها إلى الإنشاء عن القدرة؟

قلت: إنّ هذه الأشياء عبارة عن الخلاء و الأحياز، و الخلاف في أنّ الخلاء و الحيّز و المكان هل هي أمور وجوديّة أو عدميّة مشهور، فإن كانت وجوديّة كانت نسبتها إلى القدرة ظاهرة، و يكون معنى فتقها و شقّ العدم عنها كما مرّ في قوله: فطر الخلائق بقدرته، و إن كانت عدميّة كان معنى فتقها و شقّها و نسبتها إلى القدرة تقديرها و جعلها أحيازا للماء و مقرّا له لأنّه لمّا كان تمييزها عن مطلق الهواء و الخلاء بإيجاد اللّه فيها الماء صار تعيّنها له بسبب قدرته تعالى فيصحّ نسبتها إلى إنشائه فكأنّه سبحانه شقّها و فتقها بحصول الجسم فيها.

روى أنّ زرارة و هشاما «۸۸» اختلفا في الهواء أهو مخلوق أم لا؟ فرفع بعض موالي الصادق جعفر بن محمّد عليه السّلام إليه ذلك و قال له: إنّي متحيّر و أرى أصحابنا يختلفون فيه، فقال عليه السّلام: ليس هذا بخلاف يؤدّي إلى الكفر و

الضلال.

و اعلم، أنّه عليه السّلام إنّما أعرض عن بيان ذلك لأنّ أولياء اللّه الموكّلين بإيضاح سبيله (سبله) و تثبيت خلقه على صراط المستقيم لا يلتفتون بالذّات إلاّ إلى أحد أمرين:

أحدهما ما يؤدّي إلى الهدى أداء ظاهرا واضحا.

---

(٨٨) قوله: روى أنّ زرارة و هشاما.

روى المجلسيّ رحمه اللّه في البحار ج ٥٧، ص ١٨٢ و ج ٥٩، ص ٣٤١، الحديث ٨ عن شرح نهج البلاغة لمحمّد بن الحسين الكيدري أيضا.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ١٩٩

و الثّاني ما يصرف عن الضّلال و يردّ إلى سواء السبيل، و بيان أنّ الهواء مخلوق أو غير مخلوق لا يفيد كثير فائدة في أمر المعاد فلا يكون الجهل به ممّا يضرّ في ذلك فكان ترك بيانه و الإشتغال بما هو أهمّ منه أولى.

[البحث الرابع]

(في بيان ما تكوّنت منه السّماء)

البحث الرابع، أنّ القرآن الكريم نطق بأنّ السّماء تكوّنت من الدّخان و كلامه عليه السّلام ناطق بأنّها تكوّنت من الزبد، و ما ورد في الخبر:

أنّ ذلك الزّبد هو الّذي تكوّنت منه الأرض، فلا بدّ من بيان وجه الجمع بين هذه الإشارات فنقول:

وجه الجمع بين كلامه عليه السّلام، و بين لفظ القرآن الكريم ما ذكره الباقر عليه السّلام و هو قوله:

فخرج من ذلك الموج و الزبد دخان ساطع من وسطه من غير نار فخلق منه السّماء.

و لا شكّ أنّ القرآن الكريم لا يريد بلفظ الدّخان حقيقته، لأنّ ذلك إنّما يكون عن النّار، و اتّفق المفسّرون على أنّ هذا الدّخان لم يكن عن نار بل عن تنفّس الماء و تبخيره بسبب تموّجه، فهو إذن استعارة للبخار الصاعد من الماء و إذا كان كذلك فنقول:

إنّ كلامه عليه السّلام، مطابق للفظ القرآن الكريم و ذلك أنّ الزّبد بخار يتصاعد على وجه الماء عن حرارة حركته إلاّ أنّه ما دامت الكثافة غالبة عليه و هو باق على وجه الماء لم ينفصل فإنّه يخصّ باسم الزبد و ما لطف و غلبت عليه الأجزاء الهوائيّة فانفصل خصّ باسم البخار، و إذا كان الزبد بخارا و البخار هو المراد بالدخان في القرآن الكريم كان مقصده و مقصد القرآن واحد فكان البخار المنفصل هو الّذي تكوّنت عنه السّماوات و الّذي لم ينفصل هو الّذي تكوّنت عنه الأرض و هو الزّبد.

و أمّا وجه المشابهة بين الدّخان و البخار الّذي صحّت لأجله استعارة لفظه فهو

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٠٠

أمران:

أحدهما حسّي و هو الصّورة المشاهدة من الدّخان و البخار حتّى لا يكاد يفرق بينهما في الحسّ البصري.

و الثاني معنوي و هو كون البخار أجزاء مائيّة خالطت الهواء بسبب لطافتها عن حرارة الحركة كما أنّ الدّخان كذلك و لكن عن حرارة النّار، فانّ الدّخان أيضا أجزاء مائيّة انفصلت من جرم المحترق بسبب لطافتها عن حرّ النّار فكان الإختلاف بينهما ليس إلاّ بالسّبب، فلذلك صحّ استعارة اسم أحدهما للآخر و باللّه التوفيق.

[البحث الخامس]

(في أنّ الماء أصل في تكوين الخلق و بيان جواهر الفرد)

البحث الخامس، قال المتكلّمون:

إنّ هذه (الظواهر) من القرآن، و كلام عليّ عليه السّلام لمّا دلّت على ما دلّت عليه من كون الماء أصلا تكوّنت عنه السّموات و الأرض و غير ذلك، و ثبت أنّ التّرتيب المذكور في المخلوقات أمر ممكن في نفسه، و ثبت أنّ الباري تعالى فاعل مختار قادر على جميع الممكنات، ثمّ لم يقم عندنا دليل عقلي يمنع من اجراء هذه الظواهر على ما دلّت عليه بظاهرها، وجب علينا القول بمقتضى تلك الظواهر، و لا حاجة بنا إلى التأويل.

لا يقال: إنّ جمهور المتكلّمين متّفقون على إثبات جوهر الفرد و أنّ الأجسام مركّبة عنه، فبعضهم يقول:

إن الجواهر كانت ثابتة في عدمها و الفاعل المختار كساها صفة التأليف و الوجود.

و بعضهم و إن منع ثبوتها في العدم إلاّ أنّه يقول:

إنّ اللّه تعالى يوجد أوّلا تلك الجواهر، ثمّ يؤلّف بينها فيوجد منها الأجسام، فكيف يقال: إنّ السّموات و الأرض تكوّنت من الماء، لأنّا نقول: هذا ظاهر لأنّه يجوز أن يخلق اللّه تعالى أوّل الأجسام من تلك الجواهر، ثمّ تكوّن باقي الأجسام عن الأجسام الأول.

و أمّا الحكماء فلمّا لم يكن الترتيب الّذي اقتضته هذه الظواهر في تكوين الأجسام

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٠١

موافقا لمقتضى أدلّتهم لتأخّر وجودها العناصر عندهم عن وجود السّموات، لا جرم عدل بعضهم إلى تأويلهما توفيقا بينها و بين مقتضى أدلّتهم و ذكروا من التأويل وجهين:

(في أنّ العالم عالمان: عالم الأمر و عالم الخلق)

الوجه الأوّل

، قالوا: العالم عالمان: عالم يسمّى عالم الأمر و هو عالم الملائكة الروحانيّة و المجرّدات، و عالم يسمّى عالم الخلق و هو عالم الجسمانيّة و على ذلك حملوا قوله تعالى:

(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ) [سورة الأعراف: ٥٤].

ثمّ قالوا: ما من موجود في عالم الجسمانيّات إلاّ و له نسبة إلى عالم الرّوحانيّات، و هو مثال له بوجه مّا و لولا ذلك لأنسدّ طريق التّرقي إلى العالم الروحانيّ و تعذّر السفر إلى الحضرة الإلهيّة.

ثمّ كان من بحثهم أن بيّنوا أنّ قدرة اللّه سبحانه ترجع إلى كون ذاته عالمة بالكلّ علما هو مبدأ الكلّ مبدئيّة بالذّات غير مأخوذة عن شيء و لا متوقفة على وجود شيء، ثمّ لمّا دلّ دليلهم على أنّ رتبة صدور عالم الأمر أعلى في الوجود و أسبق نسبته إلى قدرة المبدع الأول من عالم الخلق إذ كان صدور عالم الخلق إنّما هو بواسطة عالم الأمر كان اعتبار إيجاد

عالم الأمر عن القدرة أمرا أوّلا و إيجاد عالم الخلق عنها أمرا ثانيا متأخّرا عنه، فعند ذلك قالوا: إنّ الّذي أشار إليه عليه السّلام هاهنا موافق لما أصّلناه و مناسب له، و ذلك أنّه أشار بالأجواء و الأرجاء و سكائك الهواء إلى سلسلة وجود الملائكة المسمّاة بالعقول الفعّالة على مراتبها متنازلة، و بإنشائها إلى إيجادها، و بفتقها و شقّها إلى وجودها، و بالماء المتلاطم المتراكم إلى الكمالات الّتي وجبت عنه سبحانه، و بإجرائه فيها إلى إفاضته على كلّ واحد منها ما استحقّه بواسطة ما قبله، و بالرّيح العاصف إلى الأمر الأوّل الّذي أشرنا إليه عن القدرة.

و أمّا وجه المناسبة بين هذه الأمور و بين ما ذكره، فأمّا في التعبير عن العقول بالأرجاء و الأجواء و السّكائك فمن جهة أنّها قابلة للفيض و الكمالات عن مبدئها الأوّل كما أنّ الأرجاء و الأجواء و سكائك الهواء قابلة للماء عمّا يخرج عنه من سحاب

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۰۲

أو ينبوع، و أمّا في تشبيه الفيض بالماء فلأنّه لمّا لم يكن بحيث يتوقّف إلاّ على تمام القابل فحيث وجد سأل بطبعه إليه كذلك، كذلك الفيض الإلهي لا يتوقّف صدوره عن واهبة إلاّ على تمام القابل لكون الفاعل تامّ الفاعليّة في ذاته، و لأنّ الماء لمّا كان به قوام كلّ حيّ جسمانيّ في عالم الكون، كذلك الفيض الإلهيّ هو مبدأ قوام كلّ موجود قالوا:

و مثل هذا التشبيه جاء في القرآن الكريم، قال جمهور المفسّرين و منهم ابن عبّاس رضي اللّه عنه في قوله تعالى:

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها [سورة الرّعد: ۱۷].

إنّ المراد بالماء هو العلم، و بالأودية قلوب العباد، و بإنزاله إفاضته على القلوب، و بقوله: فسالت أودية بقدرها: أن كلّ قلب منها يصل إليه مقدار ما يستحقّه و يقبله.

قالوا: و ذلك أنّ اللّه سبحانه أنزل من سماء الكبرياء و الجلالة و الإحسان ماء بيان القرآن و علومه على قلوب العباد، لأنّ القلوب يستقرّ فيها أنوار علوم القرآن كما أنّ الأودية تستقرّ فيها المياه النازلة من السّماء، و كما أنّ كلّ وادي فانّما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته و ضيقه، فكذلك هاهنا كلّ قلب إنّما يحصل فيه من أنوار علم القرآن ما يليق بذلك القلب من طهارته و خبثه و قوّة فهمه و بصره و تمام التشبيه في الآية مذكور في التفاسير.

و أمّا تشبيه الأمر الأول بالرّيح العاصفة فلأنّ وقوعه لمّا كان دفعة غير منسوب إلى زمان يتوقّف عليه كان أنسب ما يشبه به من الأجسام في السّرعة و النفوذ و هو الرّيح العاصف لكونها أسرع الأجسام حركة، و لذلك أكّدها بوصف العصف تقريرا للسرعة التّامة.

(وَ ما أَمْرُنا إِلاّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) [سورة القمر: ۵۰].

و بوصف الزعزعة و القصب تحقيقا للقوّة الغالبة و الشدّة الشديدة، و أمّا أمره لها (بردّه) و تسليطها على شدّة فلأنّه لمّا صوّرها بصورة الريح شاع أن يقال: أنّه أمرها و هو عبارة عن نسبة ذلك الأمر إلى ذاته تعالى النّسبة الّتي تحدثها عقولنا الضعيفة، و فائدة الرّد و الشدّ هاهنا هو ضبط أمره سبحانه على وفق حكمته الكمالات الفائضة عنه على كلّ مورد مورد بحسب نوعه المستلزم لردّه عمّن ليس له ذلك الكمال المعيّن،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۰۳

و أمّا قرنها إلى حدّه، فإشارة إلى احاطة أمره سبحانه بما لتلك القوابل من الكمالات الفائضة و اشتماله عليها.

و قوله: الهواء من تحتها فتيق، إشارة إلى قبول القوابل المذكورة، و الماء من فوقها دفيق إشارة إلى ما يحمله أمر اللّه من

الفيض المذكور، و يلقيه على تلك القوابل، و كلّ ذلك بترتيب عقليّ لأزمان تلحقه فيعقل فيه التراخي.
و أمّا الريح الثانية، فأشار بها عليه السّلام إلى الأمر الثاني، و وصفها باعتقام مهبّها، إشارة إلى عقد ذلك الأمر و إيقاعه على وفق الحكمة الإلهيّة، و إلى عدم مانع لجريان ذلك الأمر، و بإدامة مربّها إلى إفاضة مقارّ ذلك الأمر فكأنّه شبّه الفيض الصادر بهذا الأمر على هيولات الأجسام الفلكيّة بالديمة الهاطلة على الأماكن الّتي يجتمع بها و يقيم، أو أراد أنّ المحالّ القابلة لذلك الأمر المستلزمة له ذاتيّة دائمة، و أشار بعصف مجراها إلى سرعة ذلك الأمر كما وصف به الريح الأولى، و يبعد منشأها إلى عدم أوليّة مبدائية، و بأمره لهذا الريح إلى نسبة ذلك الأمر إلى ذاته كما مرّ، و بتصفيق الماء الزخار و آثاره أمواج البحار إلى نسبة فيضان صور الأفلاك و كمالاتها إلى أمره سبحانه بواسطة تلك الكمالات الفعليّة للملائكة و أنّها غير مستقلّة بإيجاد شيء بل على شرائط بعضها لبعض و لغيرها، و بالبخار إلى تلك الملائكة و بمخضها له مخض السقاء و عصفها به كعصفها بالفضاء و ترديد بعضه على بعض و إلى قوّة أمر اللّه عليها و تصريفها على حسب علمه بنظام الكلّ و تقدير ما لكلّ فلك من الكمالات في ذات كلّ مبدأ من تلك المبادئ.
و قوله: حتّى عبّ عبابه، إشارة إلى بلوغ الكمالات لتلك الملائكة الحاصلة لها بالفعل عن أمر اللّه إلى رتبه أن يعطي بواسطتها الفيض لغيرها، و كذلك قوله: و رمى بالزبد ركامه، إشارة إلى إعطاء صور الأفلاك و كمالاتها بواسطتها، و لمّا كانت صور الأفلاك محتاجة في قيامها في الوجود إلى الهيولى كانت نسبتها إلى الملائكة المجرّدة نسبة أخسّ إلى أشرف فبالحريّ أن أطلق عليها اسم الزبد، و لأنّ هذه الصورة حاصلة عن تلك الكمالات العقليّة و فائضة عليها كما أنّ الزّبد منفصل عن الماء و مكوّن عنه فتشابها. و أمّا رفعه في هواء منفتق، و جوّ منفهق، فإشارة إلى إلحاق صور

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٢٠٤

الأفلاك بموادّها المستعدّة أو إلى تخصيص وجود الأفلاك باحيازها و رفعها إليها.
و قوله: فسوّى عنه سبع سماوات، إشارة إلى كمال الأفلاك بما هي عليه من الوضع و التعديل و الترتيب، و أمّا تخصيصه بالسّبع فلأنّ الفلكين الباقيين في الشريعة معروفان باسمين آخرين و هما العرش و الكرسي، ثمّ قالوا: و إلى هذا أشار الحكماء السابقون أيضا، فإنّ مراد تاليس الملطي بالعنصر الأوّل هو المبدع الأوّل و كونه هو الماء، لأنّ المبدع الأوّل واسطة في باقي الموجودات و فيه صورها و عنه تفاض كمالاتها كما أنّ بالماء قوام كلّ حيّ عنصري و بواسطته تكوّن و كذلك سرّ ما جاء في التّوراة، فانّ المراد بالجوهر المخلوق للّه أوّلا هو المبدع الأوّل و كونه تعالى نظر إليه نظر الهيبة، و ذوبان أجزائه إشارة إلى صدور الفيض عنه بأمر اللّه سبحانه و قدرته، و الزّبد الّذي تكوّنت منه الأرض و الدّخان الّذي تكوّنت منه السّماوات إشارة إلى كمالات السّماوات و الأرض و صورها الصادرة عن كمالات عللها صدور البخار و الزبد عن الماء و كلّ هذا تجوّزات و استعارات يلاحظ في تفاوت حسنها قرب المناسبة و بعدها.

الوجه الثاني

، قالوا: يحتمل أن يكون مراده بالريح الأولى هو العقل الأوّل فإنّه الحامل للفيض الإلهيّ إلى ما بعده و هو المحيط بصور الموجودات، و يؤيّد ذلك قوله:
الهواء من تحتها فتيق و الماء من فوقها دفيق.
فانّ الهواء إشارة إلى القوابل بعده و بواسطته، و بالماء إشارة إلى الفيض الصادر عن الأوّل سبحانه، فإنّ التدفّق لمّا كان مستلزما لسرعة حركة الماء و جريانه عبّر به عن الفيض الّذي لا توقّف فيه، و بالريح الثانية عن العقل الثاني، فإنّه هو

الواسطة في إفاضة أنوار اللّه سبحانه على ما بعده من العقول الّتي بواسطتها تصدر السّموات السّبع، و وصف الريحين بالعصف، و القصف إشارة إلى ما يخصّ هذين المبدئين من القدرة.
و أمره للريح الثانية بتصفيق الماء الزخّار و إثارة موج البحار إشارة إلى تحريك العقل الثاني للعقول الّتي بعده إلى إفاضة كمالات الأفلاك بأمر اللّه تعالى، و باقي التأويل كما في التأويل الأوّل.
قوله: جعل سفلاهنّ موجا مكفوفا، إلى قوله: و سقف سائر، و رقيم مائر.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٠٥

أقول:
هاهنا أبحاث.
البحث الأوّل
- هذا الكلام يجري مجرى الشرح و التفسير لقوله: فسوّى، لأنّ التسوية عبارة عن التعديل و الوضع و الهيئة الّتي عليها السّماوات بما فيهنّ، و الغرض بهذا التفصيل تنبيه الأذهان الغافلة عن حكمة الصانع سبحانه في ملكوت السّماوات و بدائع صنعه و ضروب نعمه ليتذكّروا نعمة ربّهم فيواظبوا على عبادته و حمده على تمام ذلك الإحسان كما قال تعالى:
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحٰانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا وَ مٰا كُنّٰا لَهُ مُقْرِنِينَ [سورة الزخرف: ١٣].
فإنّ كلّ هذه نعم على العباد و هي إن كان فيها ما يبعد عن الأذهان الضعيفة كونه نعمه على العباد كحركات السّماوات مثلا، فإنّي أحسب أنّ كثيرا من الغافلين يقولون:
و ما فائدة حركة السّماء في حقّنا لكنّه إذا انتبهت أذهانهم لذلك علمت أنّه لولا تلك الحركة لم يحصل شيء من المركّبات في هذا العالم أصلا فلم يكن العبد في نفسه فضلا عمّا يجري عليه من النعم الخارجة عنه، إلاّ أنّ تلك الحركة قد تستلزم نعمة هي أقرب إلى العبد من غيرها كالاستضاءة بنور الكواكب و الاهتداء بها في ظلمات البرّ و البحر و إعدادها الأبدان للصحّة و نحو ذلك، و قد يستلزم نعما أخرى إلى أن يتّصل بالعبد كإعدادها الأرض مثلا لحصول المركّبات الّتي منها قوام حياة العبد.
(في عظمة شأن السّموات)
و اعلم أنّ اللّه سبحانه ذكر أمر السّماوات في كتابه في مواضع كثيرة، و لا شكّ أنّ إكثاره من ذكرها دليل عظيم شأنها و على أنّ له سبحانه فيها أسرارا لا تصل إليها عقول البشر.
إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ قوله عليه السّلام:
و علياهنّ سقفا محفوظا، كقوله تعالى:
وَ جَعَلْنَا السَّمٰاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً [سورة الأنبياء: ٣٢].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٠٦

و قوله تعالى: وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ [سورة الحجر: ١٧].
و قوله تعالى: وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ مٰارِدٍ [سورة الصافات: ٧].
و قوله (ع): و سمكا مرفوعا بغير عمد يدعمها، و لا دسار ينظمها.

كقوله تعالى:

خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا [سورة لقمان: ١٠].

و قوله تعالى: وَ يُمْسِكُ السَّمٰاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ [سورة الحج: ٦٥].

و قوله (ع): ثمّ زيّنها بزينة الكواكب و ضياء الثّواقب.

كقوله تعالى: إِنّٰا زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِزِينَةٍ الْكَوٰاكِبِ [سورة الصّافات: ٦].

و قوله عليه السّلام: و أجرى فيها سراجا مستطيرا و قمرا منيرا.

كقوله تعالى: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرٰاجاً [سورة نوح: ١٦].

البحث الثاني - في هذا الفصل استعارات

: الأولى

قوله: جعل سفلاهنّ موجا مكفوفا، استعار لفظ الموج للسّماء (للسمكة) لما بينهما من المشابهة في العلوّ و الارتفاع و ما يتوهّم من اللون، و قال بعض الشارحين:

أراد أنّها كانت في الأولى موجا ثمّ عقدها و كفّها أي منعها من السقوط.

الثانية

، قوله: سقفا محفوظا استعار لفظ السقف من البيت للسماء في الأصل لما بينهما من المشابهة في الارتفاع و الإحاطة، ثمّ كثر ذلك الاستعمال حتّى صار اسما من أسماء السّماء و يحتمل أن لا يكون منقولا، و أراد بقوله محفوظا، أي من الشيطان.

قال ابن عبّاس رضي اللّه عنه (٨٩):

---

(٨٩) قوله: قال ابن عبّاس رضي اللّه عنه.

روى ابن بابويه الصّدوق (رض) في كتابه «الأمالي» المجلس الثامن و الأربعون، الحديث ١، ص ٢٣٥، بإسناده عن أبي عبد اللّه الإمام الصادق (ع) في حديث طويل، قال:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٠٧

كانت الشياطين لا تحجب عن السّماوات و كانوا يدخلونها و يختبرون أخبارها فلمّا ولد عيسى عليه السّلام منعوا من ثلاث سماوات، فلمّا ولد محمّد صلّى اللّه عليه و آله منعوا من السّماوات كلّها فما منهم أحد استرق السمع إلاّ رمى بشهاب فذلك معنى قوله تعالى:

وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ إِلاّٰ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ مُبِينٌ [سورة الحجر: ١٧- ١٨].

و سنشير إلى سرّ ذلك إنشاء اللّه تعالى.

قوله: «بغير عمد يدعمها و لا دسار ينتظمها».

أقول: لمّا كان مقتضى قدرة العبد و غايتها إذا تمكّن من بناء بيت و إنشاء سقف، أنّه لا بدّ له من أساطين و عمد يقوم عليها ذلك السقف و روابط تشدّ بعضه إلى بعض و كانت قدرة الحقّ سبحانه و تعالى أجل و أعلى من الحاجة إلى أمثال ذلك، أراد أن يشير إلى عظمته سبحانه و قوّة قهره بسلب صفات المخلوقين عنه و شرائط آثارهم عن قدرته.

و المعنى أنّ هذه الأجرام العظيمة بقيت واقعة في الجوّ العالي و يستحيل أن يكون وقوفها هناك لذواتها، لأنّ الأجسام متساوية في الجسميّة فلو وجب حصول جسم في حيّز لوجب حصول كلّ جسم في ذلك الحيّز، و لأنّ الأحياز و الخلاء متشابه فلا اختصاص فيه لموضوع دون آخر و لا يجوز أن يقال: إنّها معلّقة بجسم آخر و إلاّ لكان الكلام في وقوف ذلك الجسم في الجوّ كالكلام في أوّل و يلزم التسلسل فلم يبق إلاّ أن

- كان إبليس (لعنه الله) يخترق السّماوات السّبع، فلمّا ولد عيسى (ع) حجب عن ثلاث سماوات و كان يخترق أربع سماوات، فلمّا ولد رسول اللّه (ص) حجب عن السّبع كلّها و رميت الشياطين بالنجوم، الحديث. عنه البحار ج ١٥، ص ٢٥٧، الحديث ٩.

و رواه أيضا البيضاوي المتوفّى (٤٦٧ ه‍ ق) في تفسيره، في سورة الحجر الآية ١٧، ج ٢، ص ٣٧٤، عن ابن عبّاس مع تفاوت يسير. و أيضا أخرجه عن ابن عبّاس النيسابوري في تفسيره «غرائب القرآن» المطبوع بهامش تفسير الطبري، تفسير الطبري ج ١٤، ص ١١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٠٨

يقال: إنّ وقوفها بقدرة الصانع الحكيم القادر المختار.

و إن قلت: قوله تعالى: تَرَوْنَها، يفهم منه أنّ هناك عمد و لكنّها غير مرئيّة لنا و ذلك ينافي سلبه عليه السّلام للعمد مطلقا.

قلت: الجواب عنه من وجوه «٩٠»:

أحدها، أنّه يحتمل أن يكون قوله: ترونها كلاما مستأنفا و التقدير بغير عمد و أنتم ترونها كذلك.

الثّاني، يحتمل أن يكون في الكلام تقديم و تأخير كما نقل عن الحسن البصري أنّه قال: التقدير ترونها بغير عمد.

الثالث، و هو الألطف ما ذكره الإمام فخر الدّين رحمه اللّه فقال: إنّ العماد هو ما يعمد عليه و السّماوات متعمدة و قائمة على قدرة اللّه تعالى فكانت هي العمد الّتي لا ترى و ذلك لا ينافي كلامه عليه السّلام.

الرابع، و هو الأحقّ ما ذكرته و هو أنّه قد ثبت في أصول الفقه: أنّ تخصيص الشيء بحكم لا يدلّ على أنّ حكم غيره بخلاف ذلك الحكم، فتخصيص العمد المرئيّة للسّماوات بالسلب لا يستلزم ثبوت العمد غير المرئيّة لها.

الثالثة الثواقب

، استعارة في الأصل للشهب عن الأجسام الّتي تثقب جسما آخر و تنفذ فيه، و وجه المشابهة الّتي لأجلها سمّي الشهاب ثاقبا لأنّه يثقب بنوره الهواء كما يثقب جسم آخر (جسما) لكنّه لكثرة الاستعمال فيه صار إطلاقه عليه حقيقة أو قريبا منها.

الرابعة، قوله: سراجا مستطيرا

، استعارة للشّمس و وجه المشابهة أنّ السّراج القويّ المستطير لمّا كان من شأنه أن يضيئ ما حوله و ينتشر في جميع نواحي البيت و يهتدي به من الظلمة، كذلك الشّمس مضيئة لهذا العالم و يهتدي بها المتصرّف فيه.

(٩٠) قوله: الجواب عنه من وجوه.

انظر في تلك الوجوه «التفسير الكبير» للفخر الرّازي في سورة الرّعد الآية ٢، ج ١٨، ص ٢٣٢.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٠٩

الخامسة، قوله: رقيم

، استعارة أصليّة للفلك تشبيها له باللوح المرقوم فيه، ثمّ كثر استعمال هذا اللفظ في الفلك حتّى صار اسما من أسمائه.

[البحث الثالث]

(في تشبيه العالم ببيت واحد)

البحث الثالث، اعلم أنّ هذه الاستعارات تستلزم ملاحظة أخرى و هو تشبيه هذا العالم بأسره ببيت واحد، فالسّماء كقبة خضراء نصبت على الأرض و جعلت سقفا محفوظا محجوبا عن أن تصل إليه مردة الشياطين كما تحمي غرف البيت بالسهام و الحراب عن مردة اللصوص، ثمّ هو مع غاية علوّه و ارتفاعه غير محمول بعمد تدعمه و لا منظوم بدسار يشدّه، بل بقدرة صانعه و مبدعه، ثمّ إنّ تلك القبّة متزيّنة بالكواكب و ضيائها الّذي هو أحسن الزّينة و أكملها، فلو لم يحصل صور الكواكب في الفلك لبقي سطحا مظلما، فلمّا خلق اللّه تعالى هذه الكواكب المشرقة في سطحه لا جرم استنار و زاد بذلك النّور و الضّوء، كما قال ابن عباس في قوله:

بِزِينَةٍ الْكَوٰاكِبِ [سورة الصّافات: ٦].

أي بضوءها.

و أنت إذا تأمّلت هذه الكواكب المشرقة المضيئة في سطح الفلك وجدتها عند النظر إليها كجواهر مرصوصة في سطح من زمرّد على أوضاع اقتضتها الحكمة أو كما قال:

و كأنّ أجرام النجوم لوامعا   درر نثرن على بساط أزرق

ثمّ جعل من جملتها كوكبين هما أعظم الكواكب جرما و أشدّها إشراقا و أتمّها ضياء، و مع اشتمالهما على تمام الحسن و الزينة جعل أحدهما ضياء للنّهار و الآخر ضياء للّيل، ثمّ لم يجعل ذلك السقف ساكنا بل جعله متحرّكا ليكون أثر صنعه فيه أظهر و صنع حكمته فيه أبدع و لم يجعل ذلك السقف طبقا واحدا بل طباقا أسكن في كلّ طبق ملاء من

جنوده و خواصّ ملكه الّذين ضربت بينهم و بين من دونهم حجب العزّة و أستار القدرة فلا يستطيع أحد أن ينظر إليهم فضلا عن أن يشبّه بمالكهم و خالقهم سبحانه و تعالى عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا، هذا هو الحكمة الظاهرة الّتي يتنبّه لها من له أدنى فطنة، فيحصل منها عبرة شاملة لأصناف الخلق بحيث إذا لاحظوا مع جزئي من

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢١٠

جزئيّات آثار هذه القدرة أيّ أثر كان استعظم و استحسن من أيّ ملك فرض من ملوك الدنيا لم يكن بينهما من المناسبة إلّا خيال ضعيف، فإنّ أيّ ملك فرض إذا همّ بوضع بنيان و بالغ في تحسينه و ترويق سقوفه، و ترصيعها بأنواع الجواهر، و تزيينه بالأوضاع المعجبة لأبناء نوعه، و بذل فيه جهده، و استفرغ فيه فكره، لم يكن غايته إلّا أن يلحظ ممّا عمله نسبة خياليّة بعيدة إلى ظاهر هذا الصنع العجيب و التّرتيب اللطيف، هذا مع اشتمل عليه من الحكم الخفيّة و الأسرار الإلهيّة الّتي تعجز القوى البشريّة عن إدراكها، و يحتاج فيما لاح منها إلى لطف قريحة و توقّد ذهن.

فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [سورة يس: ٨٣].

فانظر أيّها المستبصر بعين بصيرتك المناسبة بين بيتك الّذي تبنيه و هذا البيت العظيم، و قس سراجك إلى سراجه و زينتك إلى زينته ثمّ لاحظ مع ذلك أنّه إنّما خلقه لك و لأبناء نوعك ليكون فيه و منه قوام حياتكم و وجودكم و لتستدلّوا بملكوت ما خلق على كمال قدرته و حكمته لترجعوا بذلك إلى حضرته طاهرين من الرجس متشبّهين بسكّان سقف هذا البيت و غرفه، لا أنّ له حاجة إليه فإنّه الغنيّ المطلق الّذي لا حاجة به إلى شيء، و العجب من الإنسان أنّه ربّما رأى خطّا حسنا أو ترويقا على حائط فلا يزال يتعجّب من حسنه و حذق صانعه، ثمّ يرى هذا الصنع العجيب و الإبداع اللطيف فلا يدهشه عظمة صانعه و قدرته و لا يحيّره جلال مبدعه و حكمته.

[البحث الرابع]

(في تطابق الشرع و البرهان في انّ تعداد الأفلاك تسع)

البحث الرابع، الشرع و البرهان قد تطابقا على أنّ هاهنا تسع أفلاك بعضها فوق بعض، فمنها سبع سماوات ثمّ الكرسي و العرش بعبارة النّاموس الإلهي، ثمّ أكثرها يشتمل على الكواكب و هي أجرام نورانيّة مستديرة مصمتة مركوزة في اجرام الأفلاك.

فأوّل الأفلاك ممّا يلينا ليس فيه من الكواكب إلّا القمر، و ليس في الثاني إلّا عطارد، و ليس في الثالث إلّا الزّهرة، و ليس في الرابع إلّا الشّمس، و ليس في الخامس إلّا المريخ، و ليس في السادس إلّا المشتري و ليس في السابع إلّا زحل، و هذه هي المسمّاة

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢١١

بالكواكب السبعة السيّارة، و ما سواها من الكواكب فيشتمل عليها الفلك الثّامن، و أمّا التّاسع فخال عن الكواكب أو إن كان فليس بمدرك لنا، ثمّ قد دلّ البرهان على أنّ الأفلاك هي المتحرّكة بما فيها من الكواكب و أنّ تلك الحركة دوريّة و كان كلامه عليه السّلام مطابقا لذلك حيث قال:

في فلك دائر، و سقف سائر، و رقيم مائر.

(في أنّ النّظام الموجود نظام أتمّ و أحسن)

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ اللّه سبحانه خلق الموجودات كلّها على أتمّ أنحاء الوجود و أكمله فجميع الموجودات من الأفلاك و مقاديرها و أعدادها و حركاتها المختلفة هيئاتها، و هيئة الأرض و ما عليها من حيوان و نبات و معدن و نحوه إنّما وجد على الوجه الّذي وجد عليه لحصول النظام الكلّي للعالم و لو كان بخلاف ما عليه لكان شرّا و ناقصا، فخلق الأفلاك و الكواكب و ما هي عليه من الحركات و الأوضاع و جعلها أسبابا لحدوث الحوادث في عالم الكون و الفساد بواسطة كيفيّات تحدثها فيها من حرارة و برودة و رطوبة و يبوسة يوجب ذلك امتزاج بعضها ببعض امتزاجات مختلفة و مستعدّة لقبول صور مختلفة من حيوان و نبات و معدن، و أظهر الكواكب تأثيرا هو الشمس و القمر، فإنّ بحركة الشمس اليوميّة يحصل النهار و الليل، فالنّهار هو زمان طلوعها يكون زمان التكسب و الطلب للمعاش الّذي به يحصل قوام الحياة و يكون سببا إلى السعادة الأخرويّة، ثمّ إنّها في مدّة حركتها اليوميّة لا تزال تدور فتغشى جهة بعد جهة حتّى تنتهي إلى المغرب و قد أخذت كلّ جهة من الجهات حظّا من الإشراق و الاستعداد به.

و أمّا الليل و هو زمان غروبها فإنّ فيها هدوء الخلق و قرارهم الّذي به تحصل الراحة و انبعاث القوّة الهاضمة و تنفيذ الغذاء إلى الأعضاء كما قال تعالى:

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً [سورة يونس: ٦٧].

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً [سورة النبأ: ١٠- ١١].

ثمّ كانت الشمس من جهة ضوئها كسراج (يرفع) يرتفع لأهل كلّ بيت بمقدار

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌٢، ص ٢١٢

حاجتهم ثمّ يرفع عنهم فصار النّور و الظلمة على تضادّهما متظاهرين على ما فيه مصلحة هذا العالم.

و أمّا بحسب حركاتها الجنوبيّة و الشماليّة فقد جعل سبحانه ذلك سببا لإقامة الفصول الأربعة ففي الشتاء تغور الحرارة و النبات فيتولّد منها موادّ البحار و يكثر السحاب و الأمطار و يقوى أبدان الحيوانات بسبب احتقان الحرارة الغريزيّة في البواطن، و في الربيع تتحرّك الطبائع و تظهر الموادّ المتولّدة في الشتاء فيطلع النبات و ينوّر الشجر و يهيج الحيوان للفساد، و في الصيف يحتدم الهواء و تنحلّ فضول الأبدان و يجفّ وجه الأرض و يتهيّأ للبناء و العمارة، و في الخريف يظهر اليبس و البرد فينتقل فيه الأبدان على التدريج إلى الشتاء فإنّه لو وقع الانتقال دفعة لهلكت و فسدت.

و أمّا القمر فإنّ بحركته تحصل الشهور و الأعوام كما قال سبحانه:

لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ [سورة يونس: ٥].

فيتمكّن العبد بالحساب من ترتيب معاشه بالزراعة و الحراثة و إعداد مهمّات الشتاء و الصيف، و باختلاف حاله في زيادته و نقصانه يختلف أحوال الرطوبات في هذا العالم، فلو أنّه سبحانه خلق الأفلاك دون الكواكب لكان إن خلقها مظلمة لم يحصل ما ذكرنا من اختلاف الفصول و الحرّ و البرد، فلم يتمّ في هذا العالم ما كانت أسبابا فيه من الاستعدادات و لم يتميّز لنا «فصل عن فصل» قصد عن قصد كما قال تعالى:

وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [سورة النحل: ١٦].

و قوله:

وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ [سورة الأنعام: ٩٧].

و ان خلقها مضيئة تشابه أثرها في الأمكنة و الأزمنة، بل خلق فيها الكواكب و لم يخلقها ساكنة و إلّا لأفرط أثرها في

موضع بعينه فيفسد استعداده و يخلوا موضع آخر عن التأثيرات، و لمّا تميّزت فصول السّنة، و لمّا حصل البرد المحتاج إليه و الحرّ المحتاج إليه فلم يتمّ نشوء النبات و الحيوان، و على الجملة فالنظام الكلّي لا يحصل إلاّ فهو أكمل

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢١٣

أنحاء الوجود، كلّ ذلك يدلّ على كمال رحمة اللّه بخلقه و شمول عنايته لهم، إذ كان جميع ما ذكرناه من المنافع الحاصلة في هذا العالم مستندة إلى علوّ تدبيره و كمال حكمته كما قال تعالى:

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [سورة إبراهيم: ٣٣- ٣٤].

لا يقال: السئوال على ما ذكرتم من وجهين:

أحدهما، أنّ الترتيب الّذي ذكرتموه في تخصيص كلّ فلك ببعض الكواكب يشكل بقوله تعالى:

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ [سورة الصافات: ٦].

و قوله تعالى:

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ [سورة الملك: ٥].

الثاني، أنّ الشهب الثواقب الّتي جعلت رجوما للشياطين على ما نطق به القرآن الكريم، إمّا أن يكون من الكواكب الّتي زيّنت بها السّماء أو لا تكون، و الأوّل باطل، لأنّ هذه الشهب تبطل بالانقضاض و تضمحلّ فكان يلزم من ذلك على مرور الزمان فناء الكواكب و نقصان أعدادها، و معلوم أنّه لم يوجد ذلك النقصان ألبتة. و الثاني أنّه يشكل بقوله تعالى:

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ [سورة الملك: ٥].

فإنّه نصّ على كون الشهب الّتي جعلت رجوما للشياطين هي تلك المصابيح و الكواكب الّتي زيّنت بها السّماء.

لأنّا نجيب عن الأوّل: بأنّه لا تنافي بين ظاهر الآية و بين ما ذكرناه، و ذلك أنّ السّماء الدّنيا لمّا كانت لا تحجب ضوء الكواكب و كانت أوهام الخلق حاكمة عند النظر إلى السماء و مشاهدة الكواكب بكونها مزيّنة بها لا جرم صحّ قوله تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢١٤

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ.

لأنّ الزّينة با إنّما هي بالنسبة إلى أوهام الخلق للسّماء الدنيا.

و عن الثاني أنّا نقول: هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية.

فأمّا قوله:

زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ.

فنقول: كلّ مضيء حصل في الجوّ العالي أو في السّماء فهو مصباح لأهل الأرض إلاّ أنّ تلك المصابيح، منها باقية على طول الزمان و هي الثوابت، و منها متغيّرة و هي الشهب الّتي يحدثها اللّه تعالى و يجعلها رجوما للشياطين و يصدق عليها أنّها زينة للسّماء أيضا بالنسبة إلى أوهامنا و باللّه التوفيق.

قوله: ثمّ فتق ما بين السّماوات العلى إلى قوله: و لا يشيرون إليه بالنظائر. و فيه أبحاث:

البحث الأوّل، هذا الفصل أيضا من تمام التفسير لقوله:

«فسوّى منه سبع سماوات».

إذ كان ما أشار إليه هاهنا من فتق السّماوات إلى طبقاتها و إسكان كلّ طبقة منها ملاء معينا من ملائكته هو من تمام التسوية و التعديل لعالم السّماوات.

فإن قلت: لم أخّر ذكر فتق السّماوات و إسكان الملائكة لها عن ذكر إجراء الشّمس و القمر فيها و تزيينها بالكواكب، و معلوم أنّ فتقها متقدّم على اختصاص بعضها ببعض الكواكب.

قلت: إنّ إشارته عليه السّلام إلى تسوية السّماوات إشارة جميلة فكانّه قدّر أولا أنّ اللّه خلق السّماوات كرة واحدة كما عليه بعض المفسّرين لقوله تعالى:

أَنَّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ كٰانَتٰا رَتْقاً [سورة الأنبياء: ٣٠].

ثمّ ذكر علياهنّ و سفلاهنّ لجريانهما مجرى السطحين الداخل و الخارج لتلك الكرة، ثمّ أشار إلى بعض كمالاتها و هي الكواكب و الشمس و لقمر جملة، ثمّ بعد ذلك أراد التفصيل فأشار إلى تفصيلها و تمييز بعضها عن بعض بالفتق، و إسكان كلّ واحدة منهنّ

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌٢، ص ٢١٥

ملاء معيّنا من الملائكة ثمّ عقّب ذلك بتفصيل الملائكة، و لا شكّ أنّ تقديم الإجمال في الذكر و تعقيبه بالتفصيل أولى في الفصاحة و البلاغة في الخطابة من العكس.

إذا عرفت ذلك فنقول: قوله عليه السّلام:

ثمّ فتق ما بين السّماوات العلى كقوله تعالى:

أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ كٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا [سورة الأنبياء: ٣٠].

و قوله:

«فملأهنّ أطوارا من ملائكته منهم سجود لا يركعون».

كقوله تعالى:

وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ [سورة الرعد: ١٥].

و قوله:

وَ لَهُ يَسْجُدُونَ. [سورة الأعراف: ٢٠٦].

و نحوه و قوله: و صافّون لا يتزايلون، كقوله تعالى:

وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الصّٰافُّونَ [سورة الصّافات: ١٦٥].

وَ الصّٰافّٰاتِ صَفًّا [سورة الصّافات: ١].

و قوله: و مسبّحون لا يسأمون، كقوله تعالى:

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ هُمْ لاٰ يَسْأَمُونَ [سورة فصّلت: ٣٨].

و قوله: و لا فترة الأبدان، كقوله تعالى:

لاٰ يَفْتُرُونَ [سورة الأنبياء: ٢٠].

قوله: و منهم أمناء على وحيه، كقوله تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ [سورة الشعراء: ١٩٤].

و قوله: و ألسنة إلى رسله، كقوله تعالى:

جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً [سورة فاطر: ١].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢١٦

و قوله: مختلفون بقضائه و أمره، كقوله:

تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ [سورة القدر: ٤].

و قوله تعالى:

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ [سورة النحل: ٢].

و قوله: و منهم الحفظة لعباده، كقوله تعالى:

يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً [سورة الأنعام: ٦١].

و قوله:

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ [سورة الانفطار: ١٠].

و قوله:

لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ [سورة الرعد: ١١].

و قوله: و السدنة لأبواب جنانه، كقوله تعالى:

وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها [سورة الزمر: ٧١- ٧٣].

و قوله: و المناسبة لقوائم العرش أكتافهم، كقوله تعالى:

وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ [سورة الحاقة: ١٧].

و قوله: بأجنحتهم كقوله تعالى:

أُولِي أَجْنِحَةٍ [سورة فاطر: ١].

(تفصيل الأقوال في تفسير الآية: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ ...)

البحث الثاني، اعلم، أنّ للنّاس في تفسير قوله:

أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما [سورة الأنبياء: ٣٠].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢١٧

أقوالا «٩١»: أحدها، قال ابن عبّاس (٩٢) و الضحّاك و عطاء و قتادة:

---

(٩١) قوله: أقوالا.

راجع في تفصيل تلك الأقوال و مصادرها: تفسير «جامع البيان» للطبري ج ١٧، ص ١٣ في سورة الأنبياء، و تفسير «غرائب القرآن»

للنيسابوري في هامشه ص ١٧، و «تفسير الكبير» للفخر الرّازي ج ٢٢، ص ١٦٢، و تفسير «مجمع البيان» ج ٧، ص ٧٢ في تفسير الآية المذكورة في سورة الأنبياء.

(٩٢) قوله: ابن عبّاس.

ابن عبّاس هو عبد اللّه بن عبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم بن مناف القرشيّ الهاشميّ، ابن عمّ رسول اللّه (ص)، ولد قبل الهجرة في الشّعب بثلاث سنين، و توفّى بالطائف سنة ٦٨ ه وصفه الرسول الخاتم (ص) بترجمان القرآن، و فارس القرآن، و حبر الامّة.

(الإتقان ج ١، ص ٢٣٣، الذريعة ج ٤، ص ٢٣٣).

كان ابن عبّاس من خواصّ تلاميذ الإمام أمير المؤمنين عليّ (ع) في التفسير. (حلية الأولياء ج ١، ص ٣١٦).

قال ابن عبّاس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب، (التفسير و المفسّرون ج ١، ص ٩٠) قال رسول اللّه (ص) فيه: اللّهمّ فقّهه في الدّين و انتشر منه.

سفينة البحار ج ٢، ص ١٥٤.

و قال (ص): اللّهمّ علّمه التأويل و فقّهه في الدّين. (مروج الذهب ج ٣، ص ١٣١، الإتقان ج ٤، ص ٢٣٤، البرهان في علوم القرآن ج ٢، ص ١٥٠، الإصابة ج ٢، ص ٣٣١).

و قال (ص): لكلّ شي فارس، و فارس القرآن عبد اللّه بن عبّاس. سفينة البحار ج ١، ص ١٥٠.

و قال (ص): اللّهمّ علّمه الحكمة و تأويل الكتاب. (تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٥٠، حوادث سنة ٦٠- ٨٠ ه).

و قال ابن عبّاس: عليّ علم علما علّمه رسول اللّه (ص)، علّمه اللّه، فعلم النبيّ من علم اللّه، و علم عليّ بن علم النبيّ، و علمي من علم عليّ (ع)، و ما علمي و علم أصحاب محمّد (ص) في علم عليّ إلّا كقطرة في سبعة أبحر. (سفينة البحار ج ٢، ص ٤١٤).

و هو أوّل من انتخبه أمير المؤمنين (ع) في قضيّة الحكمين في الصفّين. فهرس النجاشي ص ٢٤٢.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٢١٨

- و كان من أصحاب رسول اللّه (ص) و أمير المؤمنين (ع). (رجال الشيخ).

و كان محبّا لعليّ (ع) و تلميذه، حاله في الجلالة و الإخلاص لأمير المؤمنين (ع) أشهر من أن يخفى. (الخلاصة للعلامة و سفينة البحار (عبس)).

و هناك بعض الأحاديث رواها ابن عبّاس أو مرتبطة به، لا بأس بذكر بعضها:

ألف- روى الصدوق (ره) في «الخصال» باب (الخلفاء و الأئمّة بعد النبيّ (ص) اثنا عشر (ع)) الحديث ٤١، بإسناده عن سليم بن قيس الهلاليّ، قال: سمعت عبد اللّه بن جعفر الطيّار يقول: كنّا عند معاوية أنا و الحسن و الحسين و عبد اللّه بن عبّاس و عمر بن أبي سلمة، و اسامة بن زيد، فجرى بيني و بين معاوية كلام، فقلت لمعاوية: سمعت رسول اللّه (ص) يقول: أنا أولى بالمؤمنين من انفسهم، ثمّ أخي عليّ بن أبي طالب (ع) أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا استشهد عليّ فالحسن بن عليّ أولى بالمؤمنين من انفسهم، ثمّ ابنه الحسين بعده أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا استشهد فابنه عليّ بن الحسين الأكبر أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثمّ ابني محمّد بن عليّ الباقر أولى بالمؤمنين من أنفسهم، و ستدركه يا حسين، ثمّ تكمله اثنى عشر إماما تسعة من ولد الحسين رضى اللّه عنه، قال:

عبد اللّه بن جعفر: ثمّ استشهدت الحسن، و الحسين، و عبد اللّه بن عبّاس، و عمر بن أبي سلمة، و اسامة بن زيد، فشهدوا لي عند معاوية، قال: سليم بن قيس الهلاليّ: و قد سمعت ذلك من سلمان، و أبي ذرّ، و المقداد، و ذكروا أنّهم سمعوا ذلك من رسول اللّه (ص).

ب- روى الكشّي في رجاله الرقم ١٥، ص ٥٤، بإسناده عن ابن عبّاس، انه قال عند موته: اللّهمّ انّي أحي على ما حي عليه عليّ بن أبي طالب، و أموت على ما مات عليّ بن أبي طالب.

ج- روى المفيد (رض) في الإرشاد، باب ذكر الإمام بعد أمير المؤمنين (ع)، بإسناده عن أبي إسحاق السبيعي و غيره، قالوا: خطب الحسن بن عليّ (ع) في صبيحة اللّيلة التي قبض فيها أمير المؤمنين (ع)، (إلى أن قال): ثمّ جلس فقام عبد اللّه بن عبّاس رحمه اللّه بين يديه فقال: معاشر الناس هذا ابن نبيّكم و وصيّ إمامكم، فبايعوه، فاستجاب له الناس.

الحديث.

د- روى كاتب الواقديّ في طبقاته (الطبقات الكبرى ج ٢، ص ٢٤٣ و ٢٤٤)، عن ابن عبّاس قال: لما حضرت النبيّ (ص) الوفاة، و في البيت رجال فيهم عمر، فقال (ص):-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٢١٩

إنّ السماء و الأرض كانتا شيئا واحدا ملتزمتين ففصّل اللّه بينهما في الهواء.

الثاني، قال كعب: خلق اللّه السّماوات و الأرض بعضها على بعض ثمّ خلق ريحا توسّطها ففتحها بها.

الثالث، قال مجاهد و السّدى: كانت السّماوات طبقة واحدة ففتقها و جعلها سبع سماوات و كذلك الأرض.

الرابع، قال عكرمة و عطيّة و ابن عبّاس برواية أخرى عنه:

إنّ معنى كون السّماء رتقا أنّها كانت لا تمطر، و كانت الأرض رتقا أي لا تنبت نباتا، ففتق اللّه السّماء بالمطر و الأرض بالنبات، و يؤيّد ذلك قوله تعالى بعد ذلك:

وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ [سورة الأنبياء: ٣٠].

و نظيره قوله تعالى:

فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ [سورة القمر: ١١].

و قوله:

وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ [سورة الطارق: ١٢].

و قوله تعالى:

أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا [سورة عبس: ٢٥- ٢٧].

الخامس، قال بعض الفضلاء: إنّ معنى قوله كانتا رتقا أي كانت أمورا كلّية في علم اللّه تعالى و في اللوح المحفوظ، و قوله: ففتقناهما إشارة إلى تشخّصاتها في الوجود

- «هلمّ أكتب لكم كتابا لن تضلّوا بعده»، فقال عمر: إنّ النبيّ قد غلبه الوجع! و عندكم القرآن، حسبنا كتاب اللّه»، الحديث.

و روى أيضا في خبر آخر عن سعيد بن جبير قال: كأنّي أنظر إلى دموع ابن عبّاس على خدّه كأنّها نظام اللّؤلؤ، و كان يقول: يوم الخميس و ما يوم الخميس! قال النبيّ (ص):

«ائتوني بالكتف و الدّواة أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده أبدا»، فقالوا: إنّما يهجر النبيّ!

راجع قاموس الرجال أيضا، ج ٦، ص ٤٩١. ژ

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٢٠

الخارجي و تمييز بعضها عن بعض، و هذا القول مناسب للأقوال الثلاثة الأول، و يصلح تحقيقا لها، و يحمل الريح الّتي ذكرها كعب على أمر اللّه تعالى استعارة لما بينهما من المشابهة في السرعة.

السّادس، قال بعضهم: إنّ معنى الرّتق في هذه الآية هو انطباق دائرة معدّل النّهار على فلك البروج، ثمّ إنّ الفتق بعد ذلك عبارة عن ظهور الميل، قالوا: و ممّا يناسب ذلك قول ابن عباس و عكرمة، فإنّهم لمّا قالوا: إنّ معنى كون السّماء رتقا أنّها لا تمطر، و معنى كون الأرض رتقا أنّها لا تنبت، كان الفتق و الرتق بالمعنى الّذي ذكرناه إشارة إلى أسباب ما ذكروه، إذ انطباق الدائرتين و هو الرتق يوجب خراب العالم السفلى و عدم المطر، و ظهور الميل الّذي هو الفتق يوجب وجود الفصول و ظهور المطر و النبات و سائر أنواع المركبات.

إذا عرفت (ذلك) هذا فاعلم، أن قوله عليه السّلام:

«ثمّ فتق ما بين السّموات العلى».

موافق للأقوال الثلاثة الأولى مع القول الخامس، و التحقيق به أليق، و أمّا القول السّادس فهو بعيد المناسبة لقوله عليه السّلام، و بيان ذلك: أنّ قوله: ثمّ فتق ما بين السّموات العلى إنّما هو في معرض بيان كيفيّة تخليق العالم الأعلى، و لذلك أردفه و عقّبه بالفاء في قوله:

«فملأهنّ أطوارا من ملائكته».

و الرتق و الفتق في هذا القول متأخّر عن كلام الأجرام العلويّة بما فيها و ما يتعلّق بها و لا يقبل تقدّم ظهور الميل بوجه مّا على وجود الملائكة السّماويّة و إسكانها أطباق السّماوات و باللّه التوفيق.

(في بيان أنواع الملائكة و أصنافها)

البحث الثالث،

الملائكة على أنواع كثيرة و مراتب متفاوتة

، فالمرتبة الأولى، الملائكة المقربون

كما قال تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٢١

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [سورة النساء: ١٧٢].

الثانية، الملائكة الحاملون للعرش

، كقوله:

الَّذينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ [سورة غافر: ٧].

و قوله:

وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ [سورة الحاقة: ١٧].

الثّالثة، الحافّون حول العرش

، كما قال تعالى:

وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ [سورة الزمر: ٧٥].

و قوله:

وَ مَنْ حَوْلَهُ [سورة غافر: ٧].

الرّابعة، ملائكة السّموات و الكرسي

. **الخامسة، ملائكة العناصر**

. **السادسة، الملائكة الموكّلون بالمركّبات**

من المعدن و النبات و الحيوان.

السابعة، الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون

، كما قال تعالى:

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ [سورة الانفطار: ١٠].

و يدخل فيهم المعقّبات المشار إليه بقوله تعالى:

لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ [سورة الرعد: ١١].

الثامنة، ملائكة الجنّة و خزنتها

، كما قال تعالى:

وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ [سورة الزمر: ٧٣].

التّاسعة، ملائكة النار

، كما قال تعالى:

عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ [سورة التحريم: ٦].

و قال:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٢٢

عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ [سورة المدثر: ٣٠].

و قال:

وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً [سورة المدثر: ٣١].

إذا عرفت ذلك، فنقول: اتّفق الكلّ على أنّ الملائكة ليس عبارة عن أشخاص جسمانيّة كثيفة تجيء و تذهب كالناس و البهائم بل القول المحصّل فيها قولان:

الأوّل، هو قول المتكلّمين: إنّها أجسام نورانيّة إلهيّة خيّرة سعيدة قادرة على التصرّفات السريعة، و الأفعال الشاقّة، ذوات

عقول و أفهام، و بعضها أقرب عند اللّه من البعض و أكمل درجة، كما قال تعالى حكاية عنهم:

وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ [سورة الصافات: ١٦٤].

و القول الثاني، قول غيرهم و هي: أنّها ليست بأجسام لكنّ منها ما هو مجرّد عن الجسميّة، و عن تدبير الأجسام، و منها من له الأمر الأوّل دون الثاني، و منها من ليس بمجرّد بل جسمانيّ حالّ في الأجسام و قائم بها و لهم في تنزيل المراتب المذكورة على قولهم تفصيل.

أمّا المقرّبون فإشارة إلى الذوات المقدّسة عن الجسميّة و الجهة، و عن حاجتها إلى القيام بها و عن تدبيرها.

و أمّا حملة العرش فالأرواح الموكّلة بتدبير العرش، و قيل هم الثمانية المذكورة في القرآن الكريم:

وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمٰانِيَةٌ [سورة الحاقة: ١٧].

و هم رؤساء الملائكة المدبّرين للكرسي و السّماوات السبع، و ذلك أنّ هذه الأجرام لها كالأبدان فهي بأبدانها أشخاص حاملون للعرش فوقهم.

و أمّا الحافّون حول العرش فقيل: هم صفوف و أقربهم إلى العرش هي الأرواح الحاملة للكرسي، و الموكّلة و المتصرّفة فيه.

و أمّا ملائكة السّماوات، فالأرواح الموكّلة بها و المتصرفة (المتعرّفة) فيها بالتحريك الإدارة (الإرادة) بإذن اللّه عزّ و جلّ، و كذلك ملائكة العناصر و الجبال و البحار

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٢٣

و البراري و القفار و سائر المركّبات من المعدن و النبات و الحيوان المسخر كلّ منها لفعله المخصوص على اختلاف مراتبها.

و أمّا الملائكة الحافظون الكرام الكاتبون فلهم فيها أقوال:

أحدها، قال بعضهم: إنّ اللّه تعالى خلط الطبائع المتضادّة و ممزّج بين العناصر المتنافرة حتّى استعدّ ذلك الممزج بسبب ذلك الامتزاج لقبول النّفس المدبّرة و القوى الحسيّة و المحرّكة.

فالمراد بتلك الحفظة الّتي أرسلها اللّه، هي تلك النفوس و القوى الّتي تحفظ تلك الطبائع المقهورة على امتزاجاتها و هي الضابطة على أنفسها أعمالها، و المكتوب في ألواحها صور ما تفعله لتشهد به على أنفسها يوم القيامة كما قال تعالى:

قٰالُوا شَهِدْنٰا عَلىٰ أَنْفُسِنٰا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا وَ شَهِدُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كٰانُوا كٰافِرِينَ [سورة الأنعام: ١٣٠].

و هي المعقّبات من بين يدي الإنسان و من خلفه الحافظون له من أمر اللّه، و قيل:

الحفظة للعباد غير الحفظة على العباد و الكاتبين لأعمالهم، و سنشير إلى ذلك.

الثاني، قال بعض القدماء: إنّ هذه النفوس البشريّة و الأرواح الإنسانيّة مختلفة بجواهرها، فبعضها خيّرة و بعضها شريرة، و كذا القول في البلادة، و الزكاء و الفجور و العفّة و الحريّة و الهذالة و الشرف و الدناءة و غيرها من الهيئات، و لكلّ طائفة من هذه الأرواح السفليّة روح سماويّ هو لها كالأب المشفق و السيّد الرحيم يعينها على مهمّاتها في يقظتها و مناماتها، تارة على سبيل الرؤيا و أخرى على سبيل الإلهامات، و هي مبدء لما يحدث فيها من خير و شرّ، و تعرف تلك المبادئ في مصطلحهم بالطباع التامّ، يعني أنّ تلك الأرواح الفلكيّة في تلك الطباع و الأخلاق تامّة كاملة بالنسبة إلى هذه الأرواح السفليّة و هي الحافظة لها و عليها كما قال تعالى:

فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرٰامٍ بَرَرَةٍ [سورة عبس: ١٣- ١٦].

الثالث، قول بعضهم: إنّ للنفوس المتعلقة بهذه الأجساد مشاكلة و مشابهة مع

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٢٤

النفوس المفارقة عن الأجساد فيكون لتلك المفارقة ميل إلى النفوس الّتي لم تفارق فيكون لها تعلّق أيضا بوجه مّا بهذه الأبدان بسبب ما بينها و بين نفوسها من المشابهة و الموافقة فتصير معاونة لهذه النفوس على مقتضى طباعها، و شاهدة عليها كما قال تعالى:

مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّٰ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [سورة ق: ١٨].

وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ [سورة ق: ٢١].

و أمّا ملائكة الجنّة، فاعلم أنّ الجنان المذكورة في القرآن ثمان (٩٣)، و هي: جَنَّةِ النَّعِيمِ [سورة الشعراء: ٨٥]،

---

(٩٣) قوله: انّ الجنان المذكورة في القرآن ثمان ... إلخ.

أقول: كما أنّ للجنّة مراتب و درجات ثمان المعبّر عنها بالأبواب تارة و بالدرجات أخرى، و كذلك لجهنّم و الجحيم أيضا مراتب سبعة يعبّر عنها أيضا بالأبواب و الدّركات كما أنّ التعبير عن صاحب الجنّة أعني الملائكة الموكّلين بها بخازن و عن صاحب الجحيم بمالك، قرآنيّ.

و ليعلم أنّ تعبير الأبواب و هكذا الأسماء كما سنذكرها ليس تعبيرا اعتباريّا صرفا بل كل اسم و باب مقام و رتبة و لكلّ مرتبة أهل و صاحب من الواردين و الواصلين على مراتب الإيمان و الإخلاص و التوحيد، و كذلك مراتب الكفر و الشرك و الشقاوة بالنسبة إلى دركات الجحيم.

و نشير إلى الآيات الكريمة:

أمّا أنّ للجنّة و الجحيم أبواب فيدلّ عليها قوله تعالى:

جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوٰابُ [سورة ص: ٥٠].

و قوله تعالى:

وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهٰا سَبْعَةُ أَبْوٰابٍ لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [سورة الحجر: ٤٤]، و آيات أخر فراجع القرآن.

و أمّا أنّ اسم صاحب الجنّة خازن، و انّ اسم صاحب الجحيم مالك فيدل عليه قوله تعالى:

وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهٰا خٰالِدِينَ [سورة الزّمر: ٧٣].-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٢٥

- و قوله تعالى:

وَ نٰادَوْا يٰا مٰالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنٰا رَبُّكَ قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ [سورة الزخرف: ٧٧].

و لا يخفى أنّ في القرآن تعبير الخازن عن صاحب جهنّم أيضا موجود و يدلّ عليه قوله تعالى:

وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيٰاتِ رَبِّكُمْ [سورة الزّمر: ٧١].

و أمّا التعبير عن مراتب الجنّة بالدّرجات توجد في عدّة آيات، منها:

وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصّٰالِحٰاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجٰاتُ الْعُلىٰ جَنّٰاتُ عَدْنٍ [سورة طه: ٧٥- ٧٦].

و أمّا التعبير بالدّرك عن مراتب الجحيم، لقوله تعالى:

إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّٰارِ [سورة النساء: ١٤٥].

أمّا درجات الجنّة و أسمائها فهي ثمانية كما أنّ أبوابها ثمانية، فهي: جنّة النعيم- جنّة عرضها كعرض السّماء و الأرض- جنّة عدن- جنّة المأوى- جنّة السّلام- جنّة الفردوس- جنّة عالية- جنّة الذّات.

ألف: جنّة النعيم: و هي مقام للمقرّبين و الخليل (ع) طلبها من ربّه و قال في قوله تعالى:

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ وَ اجْعَلْ لِي لِسٰانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ [سورة الشعراء: ٨٣- ٨٥].

و أمّا المقرّبين في قوله تعالى:

فَأَمّٰا إِنْ كٰانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَ رَيْحٰانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ [سورة الواقعة: ٨٩].

ب- جنّة عرضها كعرض السّماء و الأرض:

وَ سٰارِعُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ [سورة آل عمران: ١٣٣].

و قوله تعالى:

سٰابِقُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهٰا كَعَرْضِ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ [سورة الحديد: ٢١].

ج- جنّة عدن: قوله تعالى:

وَعَدَ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ مَسٰاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّٰاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اللّٰهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [سورة التوبة: ٧٢].-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٢٦

- و قوله تعالى:

إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لاٰ يُظْلَمُونَ شَيْئاً جَنّٰاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمٰنُ عِبٰادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كٰانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا [سورة مريم: ٦٠- ٦١].

و أمّا عباد الرّحمن فقد ذكر سبحانه و تعالى أوصافهم في القرآن في سورة الفرقان:

وَ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِيٰاماً [الآيتان: ٦٣- ٦٤].

و قوله تعالى:

وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ [سورة ص: ۵۰].

د- جنّة المأوى:

وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى [سورة النجم: ۱۳- ۱۵].

هـ- جنّة السّلام:

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ [ق: ۳۹].

لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ [سورة الأنعام: ۱۲۷].

و- جنّة الفردوس:

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ [سورة المؤمنون: ۱۱].

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً [سورة الكهف: ۱۰۷].

ز- جنّة عالية:

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ [سورة الحاقّة: ۲۲].

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ لِسَعْيِها راضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ [سورة الغاشية: ۸- ۱۰].

ح- جنّة الذّات:

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي [سورة الفجر: ۲۷- ۳۰].

اعلم نوّرك اللّه بأنوار كتابه انّ لكل مقام من مقامات الجنّة و أهلها و شرايط إحرازها بيان ليس المقام محلّه و لعلّ اللّه تعالى يحدث بعد ذلك أمرا.- [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۲۷

- أمّا الأحاديث، منها:

الخصال للصّدوق رحمه اللّه باب الثمانية، ص ۴۰۷، الحديث ۶، بإسناده عن الصادق (ع)، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ (ع) قال:

إنّ للجنّة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيّون و الصدّيقون. و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون، و خمسة أبواب يدخل منها شيعتنا و محبّونا، فلا أزال واقفا على الصّراط أدعو و أقول: ربّ سلّم شيعتي و محبّي و أنصاري و من تولاّني في الدّنيا، فإذا النّداء من بطنان العرش قد أجيبت دعوتك و شفّعت، في شيعتك و يشفع كلّ رجل من شيعتي و من تولاّني و نصرني و حارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألف من جيرانه و أقربائه. و باب يدخل منه سائر المسلمين ممّن شهد أن لا إله إلاّ اللّه و لم يكن في قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت.

و منها:

و في المصدر أيضا ص ۴۰۱، الحديث ۷:

بإسناده عن جابر الجعفي عن الباقر (ع) قال:

أحسنوا الظنّ باللّه، و اعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب عرض كلّ باب منها مسيرة أربعين سنة.

و أمّا أسماء دركات جهنّم و أبوابها و هي سبعة أبواب:

المهين، الحريق، السعير، الواصب، النكر، الصعد، الحميم. و لكلّ أهل، و لواردها ذنب، أو أشدّ، أعني أنّ الوارد من كلّ باب، صاحب مرتبة و درك من الجحيم و صاحب مرتبة من الكفر أو الشرك و الشقاوة و النفاق، و هذا يستفاد من الآيات و الأحاديث، و للتفصيل مقام آخر. و نذكر هاهنا من الكتاب بعض الآيات و من الأحاديث حديثين فقط كما فعلنا في بيان مراتب الجنّة.

ألف- عذاب مهين- عذاب الهون، أشار به تعالى في كتابه في آيات، منها:

فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ [سورة الأحقاف: ۲۰].

و منها:

وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۲۲۸

- [سورة آل عمران: ۱۷۸].

و منها:

وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهٰا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ [سورة لقمان: ٦].

ب- عذاب الحريق، و فيه آيات، منها:

لَقَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيٰاءُ سَنَكْتُبُ مٰا قٰالُوا وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِيٰاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيقِ [سورة آل عمران: ۱۸۱].

و منها:

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذٰابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذٰابُ الْحَرِيقِ [سورة البروج: ۱۰].

ج- عذاب السّعير، و فيه أيضا آيات، منها:

وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ الشَّيْطٰانُ يَدْعُوهُمْ إِلىٰ عَذٰابِ السَّعِيرِ [سورة لقمان: ۲۱].

و منها:

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحٰابِ السَّعِيرِ [سورة الملك: ۱۱].

و منها:

بَلْ كَذَّبُوا بِالسّٰاعَةِ وَ أَعْتَدْنٰا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسّٰاعَةِ سَعِيراً [سورة الفرقان: ۱۱].

د- عذاب الواصب في قوله تعالى:

وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ مٰارِدٍ لاٰ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلىٰ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جٰانِبٍ دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ وٰاصِبٌ

[سورة الصّافّات: ٧- ٩].

هـ- عذاب النكر: ففي قوله تعالى:

أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذٰاباً نُكْراً [سورة الكهف: ٨٧].

و- عذاب الصّعد، ففي قوله تعالى:

وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذٰاباً صَعَداً [سورة الجن: ١٧].

ز- عذاب الحميم، في قوله تعالى:

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتٰابِ وَ بِمٰا أَرْسَلْنٰا بِهِ رُسُلَنٰا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلاٰلُ فِي أَعْنٰاقِهِمْ وَ السَّلاٰسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النّٰارِ يُسْجَرُونَ [سورة غافر: ٧٢].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٢٩

و جَنّٰاتُ الْفِرْدَوْسِ [سورة الكهف: ١٠٧]، و

- و في قوله تعالى:

خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلىٰ سَوٰاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذٰابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [سورة الدّخان: ٤٩].

أمّا الدّركات السّبعة لجهنّم في الأحاديث نورد هاهنا حديثين أيضا كما فعلنا في نقل الحديث في درجات الجنّة:

١- في كتاب الخصال ص ٣٥٢، باب السّبعة، الحديث ٣٣:

قال الصّادق (ع):

إنّ من العلماء من يحبّ أن يخزن علمه و لا يؤخذ عنه، فذاك في الدّرك الأوّل من النّار.

و من العلماء من إذا وعظ أنف، و إذا وعظ عنف، فذاك في الدّرك الثّاني من النّار.

و من العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة و الشرف، و لا يرى له في المساكين وضعا، فذاك في الدّرك الثّالث من النّار.

و من العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة و السّلاطين، فان ردّ عليه شيء من قوله أو قصّر في شيء من أمره غضب، فذاك في الدّرك الرّابع من النّار.

و من العلماء من يطلب أحاديث اليهود و النصارى ليغزّر به و يكثّر به حديثه، و ذاك في الدّرك الخامس من النّار.

و من العلماء من يضع نفسه للفتيا و يقول: سلوني ... إلخ، و لعلّه لا يصيب حرفا واحدا و اللّه لا يحبّ المتكلّفين، فذاك في الدّرك السّادس من النّار.

و من العلماء من يتّخذ علمه مروءة و عقلا، فذاك في الدّرك السّابع من النّار.

٢- في الخصال أيضا، باب السّبعة، ص ٣٦١، الحديث ٥١:

عن الصّادق (ع)، عن أبيه، عن جدّه (ع) قال:

للنّار سبعة أبواب: باب يدخل منه فرعون و هامان و قارون، و باب يدخل منه المشركون و الكفّار ممّن لم يؤمن باللّه طرفة عين، و باب

يدخل منه بنو اميّة هو لهم خاصّة لا يزاحمهم فيه أحد، و هو باب لظى، و هو باب سقر، و هو باب الهاوية تهوي بهم سبعين خريقا، و كلّما هوى بهم سبعين خريقا فار بهم فورة قذف بهم في أعلاها سبعين خريقا، ثمّ تهوي بهم كذلك سبعين خريقا، فلا يزالون هكذا خالدين مخلّدين، و باب يدخل منه مبغضونا و محاربونا و خاذلونا، و أنّه لأعظم الأبواب و أشدّها حرّا. الحديث.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣٠

جَنَّةُ الْخُلْدِ [سورة الفرقان: ١٥]، و جَنَّةُ الْمَأْوىٰ [سورة النجم: ١٥]، و جَنَّاتِ عَدْنٍ [سورة مريم: ٦١ و في سور كثيرة]، و دارُ السَّلاٰمِ [سورة الأنعام: ١٢٧]، و دارُ الْقَرارِ [سورة غافر: ٣٩]، و جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماٰواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [سورة آل عمران: ١٣٣]، و من وراء الكلّ عرش الرّحمن ذي الجلال و الإكرام.

(سكّان الجنان و خزّانها)

إذا عرفت ذلك، فاعلم، أنّ لهذه الجنان سكّانا و خزّانا من الملائكة.

أمّا السّكان، فهم الّذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته و لا يستحسرون، يسبحون اللّيل و النّهار لا يفترون، و هم الّذين «٩٤» يتلقّون عباد اللّه الصالحين، بالشّفقة و البشارة بالجنّة، و ذلك أنّ الإنسان الطائع إذا أكملت طاعته و بلغ النهاية في الصورة الإنسانيّة و استحقّ بأعماله الصالحة و ما اكتسبه من الأفعال الزكيّة صورة ملكيّة، و رتبة سماويّة تلقّيه الملائكة الطيّبون بالرأفة و الرّحمة و الشفقة، و تقبّلوه بالروح و الرّيحان، و قبلوه كما تقبل القوابل و الرايات أولاد الملوك بفاخر أمور الدّنيا و طيّبات روائحها من مناديل السندس و الإستبرق، و بالفرح و السرور، و مرّوا به إلى الجنّة فيعاين من البهجة و السرور ما لا عين رأت (٩٥)، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب

---

(٩٤) قوله: فهم الّذين.

اقتباس من القرآن الحكيم، سورة الأنبياء، الآية ١٩- ٢٠:

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ لاٰ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ لاٰ يَفْتُرُونَ.

(٩٥) قوله: ما لا عين رأت.

هذه العبارة مقتبسة من حديث قدسيّ ورد في بيان درجة بعض المؤمنين و منزلتهم في الجنّة يوم القيامة، و هذا لوجود بعض الأعمال و الأوصاف عند هؤلاء المؤمنين الذين يوجب وصولهم إلى هذه الدرجة، و لا بأس هنا بذكر قسم من تلك الأعمال التّي سينال-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣١

- صاحبها تلك المكانة في الجنان:

منها، أنّها أجر لمن أحبّه اللّه سبحانه و إكرامه له، روي هذا عن رسول اللّه (ص) في حديث في زواج فاطمة (ع)، قال رسول اللّه (ص) في

ذلك الحديث:

«يا عليّ إنّ اللّه إذا أحبّ عبدا أكرمه بما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر، فقال عليّ: يا ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ، فقال النبيّ (ص) آمين آمين». بحار الأنوار ج ١٠٤، ص ٨٨، الحديث ٥٣، و دلائل الإمامة لأبي جعفر الطبري، ص ١٣، و مسند فاطمة (ع)، ص ١٧٩.

منها، أنّها ثواب زيارة قبر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) ذكره المجلسي في البحار ج ١٠٠، ص ١٢٠، الحديث ٢٢، نقلا عن كتاب «فرحة الغري»، بإسناده عن الباقر (ع)، عن آبائه، عن رسول اللّه (ص)، قال:

«يا عليّ! ... و من زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجّة بعد حجّة الإسلام، و خرج من ذنوبه حتّى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته امّه، فأبشر و بشّر أولياءك و محبّيك من النعيم و قرّة العين بما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر».

منها، أنّها أجر كلّ من استشهد في الجهاد، روي هذا عن الرضا (ع)، عن آبائه (ع)، عن أمير المؤمنين (ع)، عن رسول اللّه (ص)، قال:

«و إذا زال (فإذا ازيل) الشهيد عن فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتّى يبعث اللّه عزّ و جلّ زوجته من الحور العين فتبشّره بما أعدّ اللّه له من الكرامة، فإذا وصل إلى الأرض تقول له: مرحبا بالروح الطيّبة الّتي أخرجت من البدن الطيّب، أبشر فإنّ لك ما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر، و يقول اللّه عزّ و جلّ: أنا خليفته في أهله، و من أرضاهم فقد أرضاني، و من أسخطهم فقد أسخطني»، الحديث. بحار الأنوار ج ١٠٠، ص ١٢، الحديث ٢٧، و صحيفة الإمام الرضا (ع)، ص ٩١، الحديث ٢٧.

منها، أنّها ثواب الصدقة في رجب ابتغاء وجه اللّه تعالى، رواه الصّدوق في «الأمالي»، ص ٤٣٥، الحديث ١، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع)، قال:

«من تصدّق بصدقة في رجب ابتغاء وجه اللّه، أكرمه اللّه يوم القيامة في الجنّة من الثواب بما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر».

منها، أنّها أجر من يصلّي يوم الخميس ركعتين، رواه السيد الجليل ابن طاوس المتوفّى -

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣٢

- ٦٦٤ ه في كتابه «جمال الأسبوع» ص ٧٨، عن رسول اللّه (ص)، قال:

«من صلّى يوم الخميس ركعتين، يقرأ في الركعة الاولى الحمد مرّة و ثلاثمائة مرّة قل هو اللّه أحد، و في الركعة الثانية الحمد مرّة و مائتي مرّة (و يأتي مرّة) قل هو اللّه أحد، بنى اللّه له ألف ألف مدينة في جنّة فردوس، و ما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلوب المخلوقين»، الحديث. بحار الأنوار ج ٩٠، ص ٣١٢، الحديث ٤٢.

منها أنّها ثواب قراءة الدعاء المعروف بدعاء يستشير، ذكره السيد الجليل ابن طاوس في كتابه «مهج الدعوات» ص ١٢٢، أوّله: بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، الحمد للّه الّذي لا إله إلّا هو الملك الحقّ المبين المدبّر بلا وزير و لا خلق من عباده يستشير ... الدعاء، رواه السيد الجليل المذكور، بإسناده عن مولانا أمير المؤمنين (ع)، عن رسول اللّه (ص)، قال:

«و من دعا به ثلاث مرّات لا يسأل اللّه عزّ و جلّ اسمه شيئا من الخير في الدنيا و الآخرة إلّا أعطاه سؤله بهذا الدّعاء، و منحه إيّاه بابن آدم و ينجّيه اللّه عزّ و جلّ من عذاب القبر، و يصرف اللّه عزّ و جلّ عنه ضيق الصّدر، فإذا كان يوم القيامة، وافى صاحب هذا الدّعاء على نجيبه من

درّة بيضاء فيقوم بين يدي ربّ العالمين، و يأمر اللّه عزّ و جلّ له بالكرامة كلّها، و يقول اللّه تبارك و تعالى: عبدي تبوّأ من الجنّة حيث تشاء، مع ما له عند اللّه عزّ و جلّ من المزيد و الكرامة ما لا عين رأت و لا اذن سمعت، و لا خطر على قلوب المخلوقين و لا ألسنة الواصفين». بحار الأنوار ج ٨٦ ص ٣٣٠، الحديث ٧١.

منها، أنّها ثواب قطرة من الدّمع الّتي ذرفت من العين من خشية اللّه تعالى، رواه الصّدوق (رض) في كتابه «ثواب الأعمال» ص ٣٤٤، الحديث ١، بإسناده عن ابن عبّاس، عن رسول اللّه (ص) في حديث طويل، قال:

«و من ذرفت عيناه من خشية اللّه كان له بكلّ قطرة من دموعه مثل جبل احد يكون في ميزانه، و كان له من الأجر بكلّ قطرة عين من الجنّة، على حافّتيها من المدائن و القصور ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر». راجع أيضا «الأمالي» للصّدوق (رض)، ص ٣٥١.

منها، أنّها منزلة لمحبّي عليّ (ع) يوم القيامة في الجنّة، و رواه المجلسي في «البحار» ج ٤١، ص ١٧٠، الحديث ٧، عن الراوندي في «الخرائج»، بإسناده عن ابن عبّاس، عن النبيّ (ص) قال مخاطبا لعليّ (ع):-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣٣

بشر، و يبقى معهم عالما دراكا ما شاء ربّك عطاء غير مجذوذ، و يتّصل بإخوانه المؤمنين في الدنيا أخباره و أحواله، و يتراءى لهم في مناماتهم بالبشارة و السعادة و حسن المنقلب، و إذا كان يوم القيامة الكبرى عرجت به ملائكة الرحمة إلى جنان النعيم و السرور المقيم لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى في غرف من فوقها غرف

- «أبشر فانّ لك و لمحبّيك و لشيعتك ما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر».

منها، أنّها ثواب من صام من رجب أربعة عشر يوما، رواه الصّدوق (رض) في «الأمالي»، بإسناده عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ (ص) قال:

«و من صام من رجب أربعة عشر يوما أعطاه اللّه من الثواب ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر من قصور الجنان الّتي بنيت بالدرّ و الياقوت».

بحار الأنوار ج ٨ ص ١٧٠، الحديث ١١٣.

منها، أنّها ثواب نفس من أنفاس مولانا أمير المؤمنين ليلة بيتوتته على فراش رسول اللّه (ص)، رواه المجلسي عن التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع)، عن النبيّ (ص)، قال في الحديث:

«فيقولون: يا أخا رسول اللّه: تجعل لنا بإزاء ظلامتنا قبله ثواب نفس من أنفاسك ليلة بيتوتتك على فراش محمّد (ص)، فيقول عليّ (ع): قد وهبت ذلك لكم، فيقول اللّه عزّ و جلّ: فانظروا يا عبادي الآن إلى ما نلتموه من عليّ، فداء لصاحبه من ظلاماتكم، و يظهر لهم ثواب نفس واحد في الجنان من عجائب قصورها و خيراتها، فيكون ذلك ما يرضي اللّه به خصماء أولئك المؤمنين، ثمّ يريهم بعد ذلك من الدرجات و المنازل ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر على بال بشر». الحديث. بحار الأنوار ج ٨ ص ٦٠.

و منها، أنّها منزلة للعباد الصالحين في الجنّة، روي هذا عن النبيّ (ص)، قال:

«قال اللّه تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر». رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير في سورة السجدة، باب ٤٤٣، الحديث ١٢٠٣، ج ٦، ص ٤٨١، و رواه الحنبلي في مسنده ج ٢، ص ٣١٣ و ص ٤٣٨، و رواه مسلم في

صحيحه، كتاب الجنّة، ج ٤، ص ٢١٧٤، الحديث ٢ و ٣ و ٤ و ٥. انظر في هذا الحديث أيضا تعليقنا الرقم ٦٥ في الجزء الأوّل من تفسير المحيط الأعظم ص ٣٠٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣٤

مبنيّة، تجري من تحتهم الأنهار، وَآخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ [سورة يونس: ١٠].

قال بعض حكماء الإسلام: إنّ تلك الملائكة المتلقّية له بالروح و الريحان هي روحانيّات الزهرة و المشتري و كأنّ القائل يقول: إنّ النفوس الإنسانيّة السعيدة إذا فارقت أبدانها و حملت القوّة المتوهّمة معها و الهيئات المتخيّلة الّتي حصلت من الوعد الكريم في دار الدنيا من الجنان و الحدائق و الأنهار و الأثمار و الحور العين و الكأس المعين و اللؤلؤ و المرجان و الولدان و الغلمان فإنّه يفاض عليها بحسب استعدادها و طهارتها و رجاء ثواب الآخرة، صورة عقليّة في غاية البهاء و الزينة مناسبة لما كانت متخيّلة من الأمور المذكورة مناسبة مّا، و لما كان لهذين الكوكبين أثر تامّ في إعداد النفوس للمتخيّلات البهيّة الحسنة، و للفرح و السرور كما ينسب في المشهور إلى روحانيتهما من الأفعال الحسنة نسب تلقّي الإنسان بعد المفارقة بالرأفة و الرّحمة و الشفقة إلى روحانيتهما، و اللّه أعلم.

أمّا الخزنة للجنان، فيشبه أن يكون هم السكّان لها أيضا باعتبار آخر، و ذلك أنّه لما كان الخازن هو المتولّي لأحوال أبواب الخزانة بفتحها و تفريق ما فيها على مستحقيها بإذن ربّ الخزانة و مالكها، و غلقها و منعها عن غير مستحقّها و كانت الملائكة هم المتولّون لإفاضة الكمالات و تفريق ضروب الإحسان و النعم على مستحقّيها و حفظها و منعها من غير مستحقّيها و المستعدّين بالطاعة لها بإذن اللّه و حكمته لا جرم صدق أنّهم خزّان الجنان بهذا الإعتبار، و هم الّذين يدخلون على المؤمنين من كلّ باب:

سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّٰارِ [سورة الرّعد: ٢٤].

قال بعض الفضلاء: إنّ العبد إذا راض نفسه حتّى استكمل مراتب القوّة النظريّة، و مراتب القوّة العمليّة فإنّه يستعدّ بكلّ مرتبة من تلك المراتب لكمال خاص يفاض عليه من اللّه تعالى و تأتيه الملائكة فيدخلون عليه من كلّ باب من تلك الأبواب بالسّلام و التحيّة و الإكرام ثمّ إنّ الرضاء بقضاء اللّه من خير و شرّ، باب عظيم من تلك الأبواب فالملك الّذي يدخل على الإنسان منه برضاء اللّه كما قال تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣٥

رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ [سورة المائدة: ١١٩].

هو رضوان خازن الجنان و اللّه أعلم.

و أمّا ملائكة النّار، فقال بعض الفضلاء: هي تسعة عشر نوعا من الزبانية لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ [سورة التحريم: ٦]، و هم الخمسة الّذين ذكرنا أنّهم يوردون عليه الأخبار من خارج، و رئيسهم و الخازنان و الحاجب و الملك المتصرّف بين يديه بإذن ربّه، و ملكا الغضب و الشّهوة، و السبعة الموكّلون بأمر الغذاء، و ذلك أنّه إذا كان يوم الطامّة الكبرى و كان الإنسان ممّن طغى و آثر الحياة الدّنيا حتّى كانت الجحيم هي المأوى كانت أولئك التسعة عشر من الزبانية هم الناقلين له إلى الهاوية بسبب ما استكثر من المشتهيات، و اقترف من السيّئات، و أعرض عن قوله تعالى:

وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّٰ مٰا سَعىٰ وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمَّ يُجْزٰاهُ الْجَزٰاءَ الْأَوْفىٰ وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ [سورة النجم: ٣٩-

[٤١].

و اعلم وفّقك اللّه أنّ هؤلاء الّذين ذكر هذا القائل، أنّهم ملائكة النّار ربّما كانوا أيضا مع إنسان آخر من ملائكة الجنان، و ذلك إذا استخدمهم ذلك الإنسان في دار الدنيا على وفق أوامر اللّه، و أوفقهم على طاعة اللّه دون أن يطلب منهم فوق ما خلقوا لأجله و أمروا به من طاعته، و يعبر بهم إلى معصية اللّه و ارتكاب نواهيه و محارمه و باللّه التوفيق.

البحث الرابع، أنّه عليه السّلام ذكر من الملائكة أنواعا و أشار بالسجود و الركوع و الصفّ و التسبيح إلى تفاوت مراتبهم في العبادة و الخضوع (الخشوع)، و ذلك أنّ اللّه سبحانه قد خصّ كلاّ منهم بمرتبة معيّنة من الكمال في العلم و القدرة لا يصل إليها من دونه، و كلّ من كانت نعمة اللّه عليه أكمل و أتمّ كانت عبادته أعلى و طاعته أوفى ثمّ إنّ السجود و الركوع و الصفّ و التسبيح عبادات متعارفة بين الخلق و متفاوتة في استلزام كمال الخضوع و الخشوع، و لا يمكن حملها على ظواهرها المفهومة منها لأنّ وضع الجبهة على الأرض و انحناء الظهر و الوقوف في خطّ واحد و حركة اللسان بالتسبيح أمور مبنيّة على وجود هذه الآلات الّتي هي خاصّة ببعض الحيوانات فبالحريّ أن يحمل تفاوت المراتب المذكورة لهم على تفاوت كمالاتهم في الخضوع و الخشوع

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٢٣٦

لكبرياء اللّه و عظمته إطلاقا للفظ الملزوم على لازمه على أنّ السجود في اللغة هو الانقياد و الخضوع كما مرّ.

إذا عرفت ذلك، فنقول: يحتمل أن يكون قوله عليه السّلام: منهم سجود، إشارة إلى مرتبة الملائكة المقربين لأنّ درجتهم أكمل درجات الملائكة فكانت نسبة عبادتهم و خضوعهم إلى خضوع من دونهم كنسبة خضوع السجود إلى خضوع الركوع.

فإن قلت: إنّه قد تقدّم أنّ الملائكة المقربين مبرّؤون عن تدبير الأجسام و التعلّق بها فكيف يستقيم أن يكونوا من سكّان السّماوات و من الأطوار الّذين ملئت بهم.

قلت: إنّ علاقة الشّيء بالشيء و إضافته إليه يكفي فيها أدنى مناسبة بينهما، و المناسبة هاهنا حاصلة بين الأجرام السماويّة و بين هذا الطور من الملائكة و هي مناسبة العلّة للمعلول أو الشرط للمشروط، فكما جاز أن ينسب الباري جلّ جلاله إلى الإختصاص بالعرش و الإستواء عليه في لفظ القرآن الكريم مع تنزيهه تعالى و تقدّسه عن هذا الظّاهر، و لم يجز في الحكمة أن يكشف للخلق من عظمة الحقّ سبحانه أكثر من هذا القدر، فكذلك جاز أن ينسب الملائكة المقربون إلى الكون في السّماوات بطريق الأولى و ان تنزّهوا عن الأجسام و تدبيرها، لأنّ عليّا عليه السّلام قاصد مقصد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قصد القرآن الكريم و ناطق به، فليس له أن يفصح بما تنبوا عنه الأفهام، و باللّه التوفيق.

و قوله: و ركوع، يشبه أن يكون إشارة إلى حملة العرش إذ كانوا أكمل ممّن دونهم فكانت نسبة عبادتهم إلى عبادة من دونهم كنسبة خضوع الركوع إلى خضوع الصفّ.

قوله: و صافّون، يحتمل أن يكون إشارة إلى الملائكة الحافّين من حول العرش.

قيل: إنّهم يقفون صفوفا لأداء العبادة كما أخبر تعالى عنهم:

وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ [سورة الصّافات: ١٦٥].

و تحقيق ذلك، أنّ لكلّ واحد منهم مرتبة معيّنة و درجة معيّنة من الكمال يخصّه و تلك الدرجات باقية غير متغيّرة و ذلك يشبه الصفوف.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣٧

و ممّا يؤيّد القول بأنّهم الحافّون حول العرش ما جاء في الخبر «٩٦»:

أنّ حول العرش سبعين ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل و التكبير، و من ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلاّ و هو يسبّح.

قوله: و مسبّحون، يحتمل أن يكون المراد بهم الصّافون و غيرهم من الملائكة، و الواو العاطفة و إن اقتضت المغايرة إلاّ أنّ المغايرة حاصلة، إذ هم من حيث هم صافّون غيرهم من حيث هم مسبّحون، و تعدّد هذه الاعتبارات يسوّغ تعديد الأقسام بحسبها، و عطف بعضها على بعض، و يؤيّد ذلك الجمع بين كونهم صافّين و بين كونهم مسبّحين في قوله تعالى:

وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ [سورة الصافات: ١٦٥].

و يحتمل أن يريد نوعا و أنواعا أخر من ملائكة السّماوات، فأمّا سلب الركوع عن السّاجدين، و سلب الانتصاب عن الراكعين، و سلب المزائلة عن الصافّين، و سلب السأم عن المسبّحين، فإشارة إلى كمال في مراتبهم المعيّنة، كلّ بالنّسبة إلى من هو دونه، و تأكيد لها بعدم النقصانات اللاحقة فإنّ الركوع و إن كان عبادة إلاّ أنّه نقصان بالنّسبة إلى السّجود، و الانتصاب نقصان في درجة الراكع بالنّسبة إلى ركوعه، و كذلك التزايل انفصال عن مرتبة الصفّ و نقص فيها، و كذلك السأم في التسبيح نقصان فيه و إعراض عن الجهة المقصودة به و أيضا فالسأم و الملال عبارة عن إعراض النفس عن الشيء بسبب كلال بعض القوى الطبيعيّة عن أفعالها، و ذلك غير متصوّر في حقّ الملائكة السّماويّة. و أمّا سلب غشيان النوم عنهم في قوله لا يغشاهم نوم العيون فهو ظاهر الصّدق:

و بيانه أنّ غشيان النوم لهم مستلزم لصحّة النوم عليهم و اللاّزم باطل في حقّهم فالملزوم مثله، أمّا الملازمة فظاهرة، و أمّا بطلان اللازم فلأنّ النوم عبارة عن تعطيل

---

(٩٦) قوله: ما جاء في الخبر- لم أجد هذا الخبر بعد ما بحثت في كتب التفسير و الحديث من الشيعة و السنّة.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣٨

الحواس الظاهرة عن أفعالها لعدم انصباب الروح النفساني إليها و رجوعها بعد الكلال و الضعف، و الملائكة السّماويّة منزّهون عن هذه الأنساب و الآلات، فوجب أن يكون النوم غير صحيح في حقّهم فوجب أن لا يغشاهم، و أمّا سلب سهو العقول و غفلة النسيان.

فاعلم أنّ الغفلة عبارة عن عدم التفطن للشيء و عدم تعقّله بالفعل، و هي أعمّ من السّهو و النسيان، و كالجنس لهما.

بيان ذلك أنّ السّهو هو الغفلة عن الشيء مع بقاء صورته، أو معناه في الخيال، أو الذكر بسبب اشتغال النّفس و التفاتها إلى بعض مهمّاتها، و أمّا النسيان فهو الغفلة عنه مع انمحاء صورته، أو معناه عن إحدى الخزانتين بالكلّيّة، و لذلك يحتاج النّاسي للشيء إلى تجشّم كسب جديد و كلفة في تحصيله ثانيا، و لهذا يظهر الفرق بين الغفلة و السّهو و النّسيان.

و إذا عرفت ذلك ظهر أنّ هذه الأمور الثلاثة من لواحق القوى الإنسانيّة، فوجب أن تكون مسلوبة عن الملائكة السّماويّة لسلب معروضاتها عنهم، و لمّا ذكر سهو العقول و نفاه عنهم أردفه بسلب ما هو أعمّ منه و هو الغفلة لاستلزام سلبها سلب النسيان، و قد كان ذلك كافيا في سلب النسيان إلاّ أنّه أضاف الغفلة إليه ليتأكّد سلبه بسلبها.

و أمّا قوله: و لا فترة الأبدان، فلأنّ الفترة هي وقوف الأعضاء البدنيّة عن العمل و قصورها بسبب الخلل الأرواح البدنيّة و ضعفها و رجوعها للاستراحة، و كلّ ذلك من توابع المزاج الحيواني فلا جرم صدق سلبها عنهم.

قوله: و منهم أمناء على وحيه و ألسنة رسله مختلفون بقضائه و أمره.

يشبه أن يكون هذا القسم داخلا في الأقسام السابقة من الملائكة، و إنّما ذكره ثانيا باعتبار وصف الأمانة على الوحي و الرّسالة، و الإختلاف بالأمر إلى الأنبياء عليهم السّلام و غيرهم، لأنّ من جملة الملائكة المرسلين جبرئيل عليه السّلام و هو من الملائكة المقرّبين.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٣٩

و اعلم لمّا ثبت أنّ الوحي و سائر الإضافات (الإفاضات) من اللّه تعالى على عباده إنّما هو بواسطة الملائكة، كما علمت كيفيّة ذلك، لا جرم صدق أنّ منهم أمناء على وحيه و ألسنة إلى رسله إذ كان الأمين هو الحافظ لما كلّف بحفظه على ما هو عليه ليؤدّيه إلى مستحقّه.

و إفاضة الوحي النازل بواسطة الملائكة محفوظة نازلة كما هي مبرّاة عن الخلل الصّادرة عن سهو لعدم معروضات السهو هناك، أو عن عمد لعدم الدّاعي إليه، و لقوله تعالى:

يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ [سورة النحل: ٥٠].

و أمّا كونهم ألسنة إلى رسله، فهي استعارة حسنة، إذ يقال: فلان لسان قومه، أي المفصح عن أحوالهم و المخاطب عنهم فيطلق عليه اسم اللسان لكونه مفصحا عمّا في النفس، و لمّا كانت الملائكة وسائط بين الحقّ سبحانه، و بين رسله في تأدية خطابه الكريم إليهم لا جرم حسن استعارة هذا اللفظ لهم لمكان المشابهة.

و المراد هاهنا بالاختلاف: «التّردد بأمر اللّه» و ما قضى به مرّة بعد أخرى، و بالقضاء: الأمور المقضيّة إذ يقال: هذا قضاء اللّه أي مقضي اللّه، و لا يراد به المصدر فانّ معنى ذلك هو سطر ما كان و ما يكون في اللوح المحفوظ بالعلم الإلهي، و ذلك أمر قد فرغ منه، كما قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

جفّ القلم بما هو كائن (٩٧).

---

(٩٧) قوله: جفّ القلم بما هو كائن.

ورد الحديث بألفاظ مختلفة نشير إلى بعضها فيما يلي:

روى القمّي (رض) في تفسيره ج ٢، ص ٢١٠، في سورة فاطر الآية ٤٥: **وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِما كَسَبُوا، بإسناده عن السكوني، عن الإمام الصادق (ع)، عن أبيه الإمام الباقر (ع)، قال: قال رسول اللّه (ص):**

«سبق العلم، و جفّ القلم، و مضى القضاء، و تمّ القدر»، الحديث. و رواه أيضا الصدوق (رض) في «التوحيد» باب المشيّة و الإرادة، الحديث ١٣، ص ٣٤٣، بإسناده عن معاذ بن-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٤٠

- جبل، عن النبيّ (ص)، و بإسناده عن عبد اللّه بن عمر، عن النبيّ (ص) الحديث ١٠، ص ٣٤٠.

و روى أيضا عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال:

«الصّمت شعار المحقّقين بحقائق ما سبق و جفّ القلم به». مصباح الشريعة، الباب السابع و العشرون.

و أخرج النسائي في سننه، باب النهي عن التبتّل، ج ٦، ص ٥٩، بإسناده عن أبي سلمة، عن النبيّ (ص)، قال: «جفّ القلم بما أنت لاق».

و أخرج ابن ماجة في سننه ج ١، باب في القدر، ص ٣٥، الحديث ٨٩، بإسناده عن جابر، عن رسول اللّه (ص) قال: «ما قدّر لنفس شيء إلاّ هي كائنة».

و في الحديث ٩١، بإسناده عن سراقة بن جعشم، قال: قلت: يا رسول اللّه! العمل فيما جفّ القلم و جرت به المقادير أم في أمر مستقبل؟ قال: «بل فيما جفّ به القلم و جرت به المقادير، و كلّ ميسّر لما خلق له».

و أخرج الترمذي في «الجامع» ج ٤، ص ٦٦٧، الحديث ٢٥١٦، بإسناده عن ابن عبّاس، عن النبيّ (ص) قال:

«و اعلم أنّ الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه اللّه لك، و لو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلاّ بشيء قد كتبه اللّه على:، رفعت الأقلام و جفّت الصّحف».

و أخرج ابن داود في سننه ج ٢، باب ما جاء في العزل، ص ٢٥٢، الحديث ٣/ ٢١٧٢، عن أبا سعيد الخدري، عن النبيّ (ص) قال: «ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلاّ و هي كائنة».

و أخرج ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ١٧٦ و ص ١٩٦، بإسناده عن عبد اللّه بن عمر، عن النبيّ (ص) قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق خلقه في ظلمة، ثمّ ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى و من أخطأه ضلّ فلذلك أقول: جفّ القلم على علم اللّه عزّ و جلّ».

أقول: و هناك أحاديث أخرى لها مناسبة و علاقة للمقام وردت في تفسير «القلم» نأتي بطرف منها في ما يلي:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٤١

- روى القمّي (رض) في تفسيره في سورة القلم ج ٢، ص ٣٧٩، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: إنّ اللّه خلق القلم من شجرة في الجنّة يقال لها الخلد، ثمّ قال لنهر في الجنّة كن مدادا فجمد النهر، و كان أشدّ بياضا من الثلج و أحلى من الشّهد، ثمّ قال للقلم: اكتب، قال: و ما أكتب يا ربّ، قال: اكتب ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم في رقّ أشدّ بياضا من الفضّة و أصفى من الياقوت، ثمّ طواه فجعله في ركن العرش، ثمّ ختم على فم القلم فلم ينطق بعد و لا ينطق أبدا، فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلّها.

و روى الصدوق (رض) في «العلل» في حديث بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال:

«و أمّا (نون) فكان نهرا في الجنّة أشدّ بياضا من الثلج و أحلى من العسل، قال اللّه تعالى له:

كن مدادا فكان مدادا، ثمّ أخذ شجرة فغرسها بيده، ثمّ قال: و اليد القوّة و ليس بحيث تذهب إليه المشبهة، ثمّ قال لها كوني فلما، ثمّ قال له:

اكتب فقال له: يا ربّ و ما أكتب، قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، ففعل ذلك، ثمّ ختم و قال: لا تنطق إلى يوم الوقت المعلوم».

علل الشرائع، باب ۱٤۱، الحديث ۲، ص ٤۰۲.

و روي أيضا في «معاني الأخبار» في حديث بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوري، عن الإمام الباقر (ع) قال: «و أمّا (نون) فهو نهر في الجنّة قال اللّه عزّ و جلّ: (أجمد) فجمد فصار مدادا، ثمّ قال عزّ و جلّ للقلم: (اكتب) فسطر القلم في اللّوح المحفوظ ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمداد مداد من نور، و القلم قلم من نور، و اللّوح لوح من نور. و قال سفيان: فقلت له: يا ابن رسول اللّه: بيّن لي أمر اللّوح و القلم و المداد فضل بيان، و علّمني ممّا علّمك اللّه، فقال: يا ابن سعيد لولا أنّك أهل للجواب ما أجبتك، فنون ملك يؤدّي إلى القلم و هو ملك، و القلم يؤدّي إلى اللّوح و هو ملك، و اللّوح يؤدّي إلى إسرافيل، و إسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل، و ميكائيل يؤدّي إلى جبرئيل، و جبرئيل يؤدّي إلى الأنبياء و الرّسل صلوات اللّه عليهم، قال: ثمّ قال لي: قم يا سفيان فلا آمن عليك». معاني الأخبار، باب معاني الحروف المقطّعة، الحديث ۱، ص ۲۳.

و روي أيضا فيه بإسناده عن ابراهيم الكرخيّ أنّه سأل الإمام الباقر (ع)، عن اللّوح و القلم، فقال (ع): «هما ملكان». معاني الأخبار، ص ۳۹، الحديث ۱، باب معنى اللّوح و القلم.

و روي أيضا في أماليه المجلس الثاني و الخمسون، ص ۲٦۱، الحديث ۲، بإسناده عن-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲٤۲

- الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين (ع) في (حديث) قال: «و أمّا النّون، فنون و القلم و ما يسطرون، فالقلم قلم من نور و كتاب من نور في كتاب من نور في لوح محفوظ يشهده المقرّبون و كفى باللّه شهيدا، الحديث.

(أقول: لا يخفى على المتأمّل المحقّق أنّ هذه الأحاديث تفسّر بعضها بعضا، فلهذا نذكر هنا بعضها مع بعض، فلا تغفل).

و في «الدّر المنثور» ج ۸ ص ۲٤۱، في سورة القلم، عن معاوية بن قرّة، عن أبيه، قال:

قال رسول اللّه (ص): «**ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ قال: لوح من نور، و قلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة**».

و فيه أيضا عن ابن عبّاس، قال: قال رسول اللّه (ص): «إنّ أوّل ما خلق اللّه القلم و الحوت، قال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: كلّ شيء إلى يوم القيامة، ثمّ قرأ **ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ فالنون الحوت و القلم القلم**».

و فيه أيضا عن عبادة بن الصّامت، (قال:) سمعت رسول اللّه (ص) يقول: «إنّ أوّل ما خلق اللّه القلم، فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد»، الجامع الصحيح للترمذي ج ٥، ص ٤۲٤، الحديث ۳۳۱۹، من كتاب تفسير القرآن، باب ٦۷ في تفسير سورة «ن».

و في «الدرّ المنثور» أيضا عن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللّه (ص) يقول: «إنّ أوّل شيء خلق اللّه القلم، ثمّ خلق النون، و هي الدّواة، ثمّ قال له: اكتب، قال و ما أكتب؟ قال: ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة، و ذلك قوله: **ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ، ثمّ ختم على في القلم فلم ينطق، و لا ينطق إلى يوم القيامة، ثمّ خلق اللّه العقل، فقال، و عزّتي لأكملنّك فيمن أحببت و لأنقصنّك فيمن أبغضت**».

هذا و في المقام روايات أخرى لا بأس بذكرها، و هي هذه:

روى الكليني (رض) في الكافي ج ٥، باب الإجمال في الطّلب، الحديث ٩، ص ٨١ بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: «كان أمير المؤمنين (ع) كثيرا ما يقول: «اعلموا علما يقينا، أنّ اللّه عزّ و جلّ لم يجعل للعبد و ان اشتدّ جهده و عظمت حيلته و كثرت مكابدته أن يسبق ما سمّي له في الذّكر الحكيم، و لم يحلّ من العبد في ضعفه و قلّة حيلته أن يبلغ ما سمّي له في الذّكر الحكيم»، الحديث. راجع أيضا «نهج البلاغة» الحكمة ٢٧٣، و «تحف العقول» ص ١٥٥، و «التهذيب» ج ٦، باب المكاسب، الحديث ٤، ص ٣٢٢.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۴۳

- و روى الصدوق (رض) في «التوحيد» باب القضاء، الحديث ٣، ص ١٦٥، بإسناده عن عبد الملك بن عنترة الشّيبانيّ، عن أبيه، عن جدّه، قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، قال (ع): «بحر عميق فلا تلجه»، قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال (ع): «سرّ اللّه فلا تكلّفه (تتكلّفه)»، قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال أمير المؤمنين (ع): «أمّا إذا أبيت فإنّي سائلك، أخبرني أ كانت رحمة اللّه للعباد قبل أعمال العباد، أم كانت أعمال العباد قبل رحمة اللّه؟»، قال: فقال الرّجل: بل كانت رحمة اللّه قبل أعمال العباد، فقال أمير المؤمنين (ع): قوموا فسلّموا على أخيكم فقد أسلم و قد كان كافرا، الحديث.

و فيه أيضا بإسناده عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين (ع) في القدر: «ألا إنّ القدر سرّ من سرّ اللّه، و ستر من ستر اللّه، و حرز من حرز اللّه، مرفوع في حجاب اللّه، مطويّ عن خلق اللّه، مختوم بخاتم اللّه، سابق في علم اللّه، وضع اللّه العباد عن علمه، و رفعه فوق شهاداتهم و مبلغ عقولهم لأنّهم لا ينالونه بحقيقة الربّانيّة و لا بقدرة الصمدانيّة و لا بعظمة النورانيّة و لا بعزّة الوحدانيّة، لأنّه بحر زاخر خالص للّه تعالى، عمقه ما بين السّماء و الأرض، عرضه ما بين المشرق و المغرب، أسود كاللّيل الدّامس، كثير الحيّات و الحيتان، يعلو مرّة و يسفل اخرى، في قعره شمس تضيئ، لا ينبغي أن يطلع إليها إلاّ اللّه الواحد الفرد، فمن تطلّع إليها فقد ضادّ اللّه عزّ و جلّ في حكمه و نازعه في سلطانه، و كشف عن ستره و سرّه، و باء بغضب من اللّه و مأواه جهنّم و بئس المصير. التوحيد، ص ٣٨٣، الحديث ٣٢.

و هناك بعض الآيات القرآنية نذكرها مزيدا للفائدة و تطبيقا بين الأحاديث المذكورة و بين هذه الآيات، فهي هذه:

إِنّٰا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ [سورة القمر: ۴۹- ۵۰].

وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [سورة القمر: ۵۳].

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [سورة الحجر: ۲۱].

مٰا خَلْقُكُمْ وَ لاٰ بَعْثُكُمْ إِلاّٰ كَنَفْسٍ وٰاحِدَةٍ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ [سورة لقمان: ۲۸].

وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَيْبِ لاٰ يَعْلَمُهٰا إِلاّٰ هُوَ وَ يَعْلَمُ مٰا فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مٰا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاّٰ يَعْلَمُهٰا وَ لاٰ حَبَّةٍ فِي ظُلُمٰاتِ الْأَرْضِ وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ [سورة الأنعام: ۵۹]. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۴۴

فإن قلت: كيف يصحّ أن يكون هذا القسم داخلا في السجود، لأنّ من كان أبدا ساجدا كيف يتصوّر أن يكون مع ذلك متردّدا في الرسالة و النزول و الصعود مختلفا بالأوامر و النّواهي إلى الرّسل عليهم السّلام.

قلت: إنّا بيّنا أنّه ليس المراد بسجود الملائكة هو وضع الجبهة على الأرض بالكيفيّة الّتي نحن عليها، و إنّما هو عبارة عن

كمال عبوديّتهم للّه تعالى و خضوعهم تحت قهر قدرته و ذلّتهم برقّ الإمكان و الحاجة تحت ملك وجوب وجوده، و معلوم انّه ليس بين السجود بهذا المعنى و بين تردّدهم بأوامر اللّه تعالى و اختلافهم بقضائه على وفق مشيّته و أمره منافاة، بل كلّ ذلك من كمال عبوديّتهم و خضوعهم لعزّته و اعترافهم بكمال عظمته.

قوله: و منهم الحفظة لعباده.

فاعلم، أنّ في هذا القسم مطلوبين: أحدهما ما الحفظة؟ و الثّاني ما المراد منهم؟

ثمّ الحفظة، منهم حفظة للعباد، كما قال تعالى:

لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ [سورة الرعد: ١١].

وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ [سورة يس: ١٢].

وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهٰا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا كُلٌّ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ [سورة هود: ٦].

مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهٰا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ [سورة الحديد: ٢٢].

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ [سورة الأعراف: ٣٤].

فتأمّل أيّها القارئ العزيز أنّ هذه كلّها تشتمل على الأمور التكوينيّة و غيرها ممّا هو مرتبط بالإنسان من الأفعال و الأرزاق و غيرهما، و هذا معنى: «فكلّ ميسّر لما خلق له»، فراجع تعليقنا ٦٩ في الجزء الأوّل، و لا ينافي هذا كلّه بأن يصدر أعمالنا و أفكارنا باختيارنا.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٤٥

و منهم حفظة على العباد، كما قال تعالى:

وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً [سورة الأنعام: ٦١].

و المراد من الأوّلين حفظ العباد بأمر اللّه تعالى من الآفات الّتي تعرض لهم، و من الآخرين ضبط الأعمال و الأقوال من الطاعات و المعاصي كما قال:

كِرٰاماً كٰاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مٰا تَفْعَلُونَ [سورة الانفطار: ١١- ١٢].

و كقوله:

مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [سورة ق: ١٨].

قال ابن عبّاس (٩٨):

---

(٩٨) قوله: قال ابن عبّاس: إنّ مع كلّ انسان ملكين ... إلخ.

روى الكليني (رض) في «الأصول من الكافي» ج ٢، ص ٤٢٩، باب من يهمّ بالحسنة أو السيّئة، الحديث ٤، بإسناده عن الصادق (ع) قال: قال

رسول اللّه (ص): «أربع من كنّ فيه لم يهلك على اللّه بعدهنّ الاّ هالك: يهمّ العبد بالحسنة فيعملها فإن هو لم يعملها كتب اللّه له حسنة بحسن نيّته و إن هو عملها كتب اللّه له عشرا، و يهمّ بالسيّئة أن يعملها فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء و إن هو عملها اجّل سبع ساعات، و قال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات و هو صاحب الشمال: لا تعجل عسى أن يتبعها بحسنة تمحوها، فإنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: **إِنَّ الْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئٰاتِ [سورة هود: ١١٥].**

أو الاستغفار فإن هو قال: أستغفر اللّه الّذي لا إله إلاّ هو، عالم الغيب و الشّهادة العزيز الحكيم، الغفور الرّحيم، ذو الجلال و الإكرام و أتوب إليه، لم يكتب عليه شيء و إن مضت سبع ساعات و لم يتبعها بحسنة و استغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات: اكتب على الشقيّ المحروم.

و روى الطبرسي (رض) في «جوامع الجامع» في سورة ق الآية ١٨:

مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّٰ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ.

عن النبيّ الخاتم (ص) قال:

كاتب الحسنات على يمين الرّجل، و كاتب السيّئات على يساره، و صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا، و إذا عمل سيّئة قال صاحب-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢۴۶

إنّ مع كلّ إنسان ملكين أحدهما على يمينه و الآخر على يساره، فإذا تكلّم الإنسان بحسنة كتبها من على يمينه، و إذا تكلّم بسيّئة قال من على اليمين لمن على اليسار: انتظر لعلّه يتوب منها، فإن لم يتب كتب عليه.

قال المفسرون: فائدة ذلك انّ المكلف إذا علم أنّ الملائكة موكلون به يحضرون عليه أعماله و يكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في موقف القيامة، كان ذلك أزجر له عن القبائح.

و اعلم، أنّه يحتمل أن يكون التعدّد المذكور في الحفظة تعدّدا بحسب الذوات، و يحتمل أن يكون بحسب الإعتبار.

قال بعض من زعم أنّ الحفظة للعباد هي القوى (الّتي أرسلها اللّه تعالى من سماء جوده على الأبدان البشريّة:

يحتمل أن يكون الحفظة على العباد هي مبادئ تلك القوى)، و يكون معنى كتبة السيّئات و الحسنات و ضبطهما على العباد إمّا باعتبار ما يصدر و يتعدّد عن العبد من السيّئات و الحسنات في علم تلك المبادئ، أو يكون معناها كتبة صور الأفعال الخيريّة و الشريّة إلى العبد بقلم الإفاضة في لوح نفسه بحسب استعدادها لذلك. قال: و يشبه أن تكون إشارة ابن عباس رضي اللّه عنه، بانتظار ملك اليسار كاتب السيّئات توبة العبد إلى أنّه ما دامت السيّئة حالة غير ممكنة من جوهر نفس العبد، فإنّ رحمة اللّه تعالى تسعة فإذا تاب من تلك السيّئة لم تكتب في لوح نفسه، و إن لم يتب حتّى صارت

-اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعلّه يسبّح و يستغفر.

و روى قريبا منه السيوطي في «الدرّ المنثور» في تفسير الآية المذكورة عن ابن عبّاس (رض)، ج ٧، ص ٥٩٤.

و أخرج البغوي في «معالم التنزيل» ج ٥، ص ٢١٤ في تفسير الآية المذكورة، بإسناده عن أبي أمامة، عن النبيّ الخاتم (ص) قال:

كاتب الحسنات على يمين الرّجل، و كاتب السيّئات على يسار الرّجل، و كاتب الحسنات أمير على كاتب السيّئات، فإذا عمل حسنة كتبها

صاحب اليمين عشرا، و إذا عمل سيّئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٤٧

ملكة راسخة في نفسه كتب و عذّب بها يوم تقوم الساعة.

قال: و يحتمل أن يكون الحفظة على العباد هم بأعيانهم من الحفظة لهم، فإنّ النّفس تحفظ في جوهرها ما يفعله من خير و شرّ و تحصّيه يوم البعث على نفسها إذا زالت عنها الغواشي البدنيّة و تجده مصورّا مفصّلا لا يغيب عنها منه شيء كما قال تعالى:

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهٰا وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً [سورة آل عمران: ٣٠].

و كما قال تعالى:

وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ كِتٰاباً يَلْقٰاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتٰابَكَ كَفىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [سورة الإسراء: ١٣- ١٤].

و كما قال تعالى:

إِذٰا بُعْثِرَ مٰا فِي الْقُبُورِ وَ حُصِّلَ مٰا فِي الصُّدُورِ [سورة العاديات: ٩- ١٠].

و قال: و أمّا معنى كونهم من ملائكة السّماء فلأن أصلهم من ملائكة السّماء، ثمّ أرسلوا إلى الأرض، و اللّه أعلم.

و أمّا السّدنة لأبواب جنانه: فقد عرفت ما قيل فيهم.

قوله: فمنهم الثابتة في الأرضين السّفلى أقدامهم، المارقة من العليا أعناقهم، و الخارجة من الأركان أقطارهم (من الأقطار أركانهم) و المناسبة لقوائم العرش أكتافهم:

فاعلم أنّ هذه الأوصاف وردت في صفة الملائكة الحاملين للعرش في كثير من الأخبار، فيشبه أن يكونوا هم المقصودون بها هاهنا، و روى عن ميسرة أنّه قال:

أرجلهم في الأرض السفلى، و رؤوسهم قد خرقت العرش و هم خشوع لا يرفعون طرفهم، و هم أشدّ خوفا من أهل السّماء السّابعة، و أهل السّماء السّابعة أشدّ خوفا من أهل السّماء السّادسة، و هكذا إلى سماء الدنيا (٩٩).

---

(٩٩) قوله: و روي عن ميسرة ... الخ.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٤٨

- أخرجه السيوطي في تفسيره «الدرّ المنثور» في سورة غافر الآية ٧، ج ٧، ص ٢٧٦، وردت الأحاديث الكثيرة في حملة العرش لا بأس بذكر بعضها هنا مزيدا للفائدة:

روى الصدوق (رض) في «الخصال» باب الثمانية، الحديث ٤، ص ٤٠٧، بإسناده عن الصادق (ع) قال: إنّ حملة العرش ثمانية، لكلّ واحد

منهم ثمانية أعين، كلّ عين طباق الدنيا.

و روى أيضا بإسناده في المصدر نفسه، الحديث ٥، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: إنّ حملة العرش ثمانية، أحدهم على صورة ابن آدم يسترزق اللّه لولد آدم، و الثاني على صورة الدّيك يسترزق اللّه للطير، و الثالث على صورة الأسد يسترزق اللّه للسّباع، و الرابع على صورة الثور يسترزق اللّه للبهائم، و نكّس الثور رأسه منذ عبد بنو إسرائيل العجل، فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية.

و قريب منه رواه القمّي في تفسيره ج ١، ص ٨٥ و فيه بدل الدّيك: النّسر، و عنه البحار ج ٥٨، ص ٢١، الحديث ٣٨.

و أخرج السيوطي في «الدرّ المنثور» ج ٧، ص ٢٧٥ قريبا منه، عن مكحول، عن رسول اللّه (ص)، إلاّ أنّ فيه أيضا عوض الدّيك: النّسر، و لا توجد فيه الجملة الأخيرة:

فإذا كان ... إلخ.

و أخرج أيضا فيه عن وهب، قال: حملة العرش أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيّدوا بأربعة آخرين، الحديث.

و روى الصدوق (رض) في «معاني الأخبار» باب معنى العرش، الحديث ١، ص ٢٩، بإسناده عن الصادق (ع) قال: العرش في وجه هو جملة الخلق و الكرسيّ دعاؤه، و في وجه آخر العرش هو العلم الّذي أطلع اللّه عليه أنبياءه و رسله و حججه، و الكرسيّ هو العلم الّذي لم يطلع (اللّه) عليه أحدا من أنبيائه و رسوله (و رسله) و حججه (ع).

و في تفسير القمّي في تفسير سورة الحاقّة الآية ١٧:

وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمٰانِيَةٌ.

قال: حملة العرش ثمانية، أربعة من الأوّلين، و أربعة من الآخرين، فأمّا الأربعة من الأوّلين: فنوح، و إبراهيم، و موسى، و عيسى (ع)، و أمّا الأربعة من الآخرين: فمحمّد (ص)، و عليّ، و الحسن، و الحسين، و معنى «يحملون العرش» يعني العلم. راجع ج ٢، ص ٣٨٤.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٢٤٩

- و بحار الأنوار ج ٥٨، ص ٢٧، الحديث ٤٣.

و في اصول الكافي، باب العرش و الكرسيّ، ج ١، ص ١٢٩، الحديث ١، روى بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) في حديث: قال: إنّ العرش خلقه اللّه تعالى من أنوار أربعة: نور أحمر منه احمرّت الحمرة، و نور أخضر منه اخضرّت الخضرة، و نور أصفر منه اصفرّت الصفرة، و نور أبيض منه ابيضّ البياض و هو العلم الّذي حمّله اللّه الحملة، و ذلك نور من عظمته فبعظمته و نوره أبصر قلوب المؤمنين، الحديث.

و أيضا فيه الحديث ٢، بإسناده عن أبي الحسن الرضا (ع) قال: العرش ليس هو اللّه، و العرش اسم علم و قدرة، و عرش فيه كلّ شي‏ء، الحديث.

قال صدر المتألّهين في كتابه «شرح اصول الكافي) (ج ٣، ص ٣٣٦، ط ج) في شرح هذا الحديث: و أمّا اختلاف ألوانها من الحمرة و الخضرة و الصفرة و البياض، كما وصفه (ع) فذلك: لأنّ كلّ ما يوجد في المعاليل من الذات و الصفة لا بدّ أن يكون في عللها الفعّالة ما هو بإزائه لكن هناك على وجه يليق بها، إذ نسبة المجعول إلى الجاعل نسبة الظلّ إلى ذي ظلّ ... فتلك الأنوار الأربعة لمّا كانت أسبابا فعّالة لهذه العناصر، فلها صفات هي اصول الصفات التي توجد لهذه العناصر، فالنور الأحمر يناسب من العناصر النار و من الأخلاط الأربعة الدّم و منه احمرّ كلّ حمرة في هذا العالم، و النور الأخضر يناسب الأرض و السوداء و منه اخضرّ كلّ ذي خضرة، و النور الأصفر يناسب الهواء و الصفراء و منه

اصفرّ كلّ أصفر، و النور الأبيض يناسب الماء و البلغم و منه ابيضّ كلّ أبيض.

قوله (ع): و هو العلم الذي حمله اللّه الحملة و ذلك نور من عظمته، قد سبق: أنّ القلب الانسانيّ الذي هو في العالم الصغير الانساني بإزاء العرش، و قد قال في ص ٣٣٥: المراد بعرش الربّ: القلب الانسانيّ الذي هو محلّ معرفة اللّه و حامل علمه و عند الاستكمال يصير عين المعرفة و العلم، كما رآه الحكماء: إنّ النفس الانسانيّة المسمّاة بالقلب في عرف الشريعة تصير عقلا محضا و نورا صرفا.

و أيضا في الحديث ٦، بإسناده عن الامام الصادق (ع) قال: حملة العرش- و العرش: العلم- ثمانية: أربعة منّا و أربعة ممّن شاء اللّه.

و أيضا فيه الحديث ٧، بإسناده عن الامام الصادق (ع) قال في الآية الكريمة:

وَ كٰانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمٰاءِ [هود: ٣٨].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٥٠

و عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

لا تتفكروا في عظمة ربّكم و لكن تفكّروا فيما خلق من الملائكة فانّ خلقا منهم يقال له إسرافيل من زوايا العرش على كاهله، و قدماه في الأرض السفلى، و قد مرق رأسه من سبع سماوات، و أنّه ليتضاءل من عظمة اللّه حتّى يصير كأنّه الوصع (١٠٠).

- إنّ اللّه حمّل دينه و علمه الماء قبل أن يكون أرض، أو سماء، أو جنّ، أو إنس، أو شمس، أو قمر، فلمّا أراد اللّه أن يخلق الخلق نثرهم بين يديه فقال لهم: من ربّكم؟ فأوّل من نطق:

رسول اللّه (ص) و أمير المؤمنين (ع) و الأئمّة صلوات اللّه عليهم، فقالوا: أنت ربّنا، فحملهم العلم و الدّين، ثمّ قال للملائكة: هؤلاء حملة ديني و علمي و امنائي في خلقي و هم المسؤولون، الحديث.

أقول: المتحصّل من هذه الأحاديث هو أنّ الحاملون للعرش طائفتان: طائفة يحملون العرش لأجل أن يعملوا في العالم و هم: المدبّرات الأمر و غيرهم، و أمّا الطائفة الثانية يحملون حقيقة العرش- و هو العلم- و هم الأنبياء و الرسول الخاتم (ص) و الأئمّة المعصومون (ع)، فيكون قبلهم هو عرش الرّحمن كما جاء في الحديث:

«قلب المؤمن عرش الرّحمن».

و جاء في الحديث القدسيّ:

«لم يسعني سمائي و لا أرضي، و وسعني قلب عبدي المؤمن».

و روي أيضا:

«القلب حرم اللّه، و لا تسكن في حرم اللّه غير اللّه».

و لعلّه نظرا إلى هذه الأحاديث و نظيرها، قال الصدوق (رحمة اللّه عليه):

اعتقادنا في العرض أنّه جملة جميع الخلق، و العرش في وجه آخر هو العلم ... و أمّا العرش الذي هو جملة جمع الخلق فحملته ثمانية من الملائكة، لكلّ واحد ثماني أعين، كلّ عين طباق الدّنيا، ... و أمّا العرش الذي هو العلم فحملته أربعة من الأوّلين و أربعة من الآخرين ... هكذا

روي بالأسانيد الصحيحة عن الأئمّة (ع) في العرش و حملته.

بحار الأنوار ج ٥٨، ص ٧.

(١٠٠) قوله: لا تتفكّروا في عظمة ربّكم ... إلخ.

راجع «الدرّ المنثور» ج ٧، ص ٢٧٦، سورة غافر الآية ٧، و فيه:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٥١

و الوصع طائر صغير.

و عن ابن عباس أيضا انّه قال: لمّا خلق اللّه تعالى حملة العرش قال لهم: احملوا عرشي فلم يطيقوا، فقال لهم: قولوا: لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه، فلمّا قالوا ذلك استقلّ عرش ربّنا فنفذت أقدامهم في الأرض السابعة على متن الثرى فلم تستقرّ فكتب في قدم كلّ ملك منهم اسما من أسمائه فاستقرت أقدامهم (١٠١).

- عن ابن عبّاس (رض)، انّ رسول اللّه (ص) خرج على أصحابه فقال: «ما جمعكم، قالوا: اجتمعنا نذكر ربّنا، و نتفكّر في عظمته، فقال: لن تدركوا التفكّر في عظمته، ألا أخبركم ببعض عظمة ربّكم؟ قيل: بلى يا رسول اللّه، قال: إنّ ملكا من حملة العرش يقال له إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السّفلى، و مرق رأسه من السماء السابعة في مثله من خليقة ربّكم تعالى. راجع أيضا تعليقنا الرقم ٧١.

(١٠١) قوله: لمّا خلق اللّه تعالى حملة العرش.

روي في التفسير المنسوب إلى الامام العسكريّ (ع)، ص ١٤٦، الحديث ٧٣، في سورة البقرة الآية ٢٢: **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً،**

عن النبيّ (ص) قال:

«إنّ اللّه عزّ و جلّ لمّا خلق العرش خلق له ثلاثمائة و ستّين ألف ركن، و خلق عند كلّ ركن ثلاثمائة و ستّين ألف ملك، لو أذن اللّه تعالى لأصغرهم التقم (فالتقم) السّماوات السّبع و الأرضين السّبع ما كان ذلك بين لهواته إلاّ كالرّملة في المفازة الفضفاضة.

فقال اللّه تعالى لهم: يا عبادي احملوا عرشي هذا، فتعاطوه فلم يطيقوا حمله و لا تحريكه.

فخلق اللّه تعالى مع كلّ واحد منهم واحدا، فلم يقدروا أن يزعزعوه.

فخلق اللّه عزّ و جلّ مع كلّ واحد منهم عشرة، فلم يقدروا أن يحرّكوه.

فخلق اللّه تعالى بعدد كلّ واحد منهم مثل جماعتهم، فلم يقدروا أن يحرّكوه، فقال اللّه عزّ و جلّ لجميعهم: خلّوه عليّ امسكه بقدرتي، فخلّوه فأمسكه اللّه عزّ و جلّ بقدرته، ثمّ قال لثمانية منهم: احملوه أنتم، فقالوا: (يا) ربّنا لم نطقه نحن و هذا الخلق الكثير و الجمّ الغفير، فكيف نطيقه الآن دونهم؟ فقال اللّه عزّ و جلّ: إنّي (لأنّي) أنا اللّه المقرّب للبعيد، و المذلّل للعنيد (للعبيد)، و المخفّف للشّديد، و المسهّل للعسير، أفعل ما أشاء و أحكم ما أريد، اعلمكم-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٥٢

و وجه هذا الخبر أنّ وجودهم و بقائهم و حولهم و قوّتهم الّتي بها هم (على) ما هم إنّما هو من حوله و قوّته و هيبته،

فلو أنّه سبحانه خلقهم و قال لهم: احملوا عرشي و لم تكن لهم استعانة و لا مدد بحول اللّه و قوّته و معونته لم ينتهضوا بحمل ذرّة من ذرّات مبدعاته و مكوّناته فضلا عن تدبير العرش الّذي هو أعظم الأجرام الموجودة في العالم.

إذا عرفت ذلك فنقول:

أمّا من قال بأنّ الملائكة أجسام كان حمل صفاتهم المذكورة في هذه الأخبار في كلامه عليه السّلام على ظاهرها أمرا ممكنا (و انّه) و اللّه تعالى قادر على جميع الممكنات.

و أمّا من نزّههم عن الجسميّة فقال: إنّ اللّه سبحانه لمّا خلق الملائكة السّماويّة مسخّرين لأجرام السّماوات مدبّرين لعالمنا عالم الكون و الفساد و أسبابا لما يحدث فيه كانوا محيطين بإذن اللّه علما بما في السّماوات و الأرض، فلا جرم كان منهم من ثبت في تخوم الأرض السفلى أقدام إدراكاتهم الّتي ثبتت و استقرّت باسم اللّه الأعظم و علمه الأعزّ الأكرم و نفذت في بواطن (الوجودات) الموجودات خبرا، و مرقت من السّماء العليا أعناق عقولهم، و خرجت من أقطارها أركان قواهم العقليّة.

و قوله: المناسبة لقوائم العرش أكتافهم.

يريد أنّهم مشبّهون و مناسبون لقوائم العرش في بقائهم و ثباتهم عن التزايل (الزائل) من تحته أبدا إلى ما شاء اللّه.

- كلمات تقولونها يخفّف بها عليكم، قالوا: و ما هي يا ربّنا؟ قال: تقولون: (بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، و لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم، و صلّى اللّه على محمّد و آله الطّيّبين).

فقالوها، فحملوه، و خفّ على كواهلهم كشعرة نابتة على كاهل رجل جلد قويّ، فقال اللّه عزّ و جلّ لسائر تلك الأملاك: خلّوا على هؤلاء الثمانية عرشي ليحملوه، و طوفوا أنتم حوله، و سبّحوني و مجّدوني و قدّسوني، فانّي أنا اللّه القادر على ما رأيتم و على كلّ شيء قدير. روى عنه البحار ج ٥٨، ص ٣٣، الحديث ٥٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٥٣

فإن قلت: فهل هناك قوائم غير الحاملين للعرش الّذي أشار إليهم، و تكون هذه الطائفة من الملائكة مناسبة لتلك القوائم أم لا؟.

قلت: قد جاء في الخبر أنّ العرش له قوائم، روى عن جعفر بن محمد الصّادق عن أبيه عليهما السّلام، عن جدّه صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال:

إنّ بين القائمة من قوائم العرش و القائمة الأخرى خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام «١٠٢».

قال بعض المحققين: إنّ هناك قوائم ثمان قد فوّض اللّه تعالى إلى كلّ ملك من الملائكة الثمانية الحاملين للعرش تدبير قائمة منها و حملها و وكّله بها.

إذا عرفت ذلك فنقول:

يحتمل أن يكون قد أشار عليه السّلام بقوله مناسبة لقوائم العرش أكتافهم إلى اثبات قوائم العرش و اثبات مناسبة لاكتاف هؤلاء الملائكة مع تلك القوائم، و وجه المناسبة أنّ الكتف لمّا كان محلّ القوّة و الشدّة استعاره عليه السّلام هاهنا للقوّة

و القدرة الّتي يخصّ كلّ ملك من تلك الملائكة، و بها يريد (يدبّر) تلك القوائم من العرش.
و لا شكّ أنّ بين كلّ قائمة من تلك القوائم، و بين كلّ قدرة من تلك القدر مناسبة مّا، لأجلها خصّ اللّه سبحانه ذلك الملك بحمل تلك القائمة و ذلك معنى قوله المناسبة لقوائم العرش أكتافهم، و يحتمل أن يكون كما استعار لهم لهم لفظ الأقدام استعار لهم أيضا لفظ الأكتاف ثمّ شبّه قيامهم بأمر اللّه في حملهم للعرش بقيام الأساطين الّتي يبني عليها

---

(۱۰۲) قوله: قد جاء في الخبر.

رواه المجلسيّ في البحار ج ۵۸، ص ۳۴، الحديث ۵۴، نقلا عن كتاب «روضة الواعظين» للشيخ محمّد بن الحسن بن عليّ بن أحمد بن عليّ الفتّال النيسابوريّ الواعظ الشهيد، استشهد (قدّس سرّه) بيد أبي المحاسن عبد الرّزاق رئيس نيسابور في سنة ۵۰۸ ه كان من جملة مشايخه: الشيخ الطوسيّ و ابن بابويه القمّيّ، و من جملة تلامذته:

ابن شهر آشوب و الشيخ منتخب الدّين و القطب الرّاونديّ.

و رواه أيضا نقلا عن «بيان التنزيل» لابن شهر آشوب، ص ۳۶، الحديث ۶۱.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۵۴

الواحد منّا عرشه فهم مناسبون و مشابهون لقوائم العرش الّتي يبني عليها من غير أن يكون هناك تعرّض لإثبات قوائم بل ما يشبه القوائم.
قوله: ناكسة دونه أبصارهم متلفعون تحته بأجنحتهم.
الضميران في دونه و تحته راجعان إلى العرش و قد جاء في الخبر عن وهب ابن منبّه قال: إنّ لكلّ ملك من حملة العرش و من حوله أربعة أجنحة، أمّا جناحان فعلى وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق، و أمّا جناحان فيهفوا بهما ليس كلام إلّا التسبيح و التحميد «۱۰۳».
و كنّى عليه السّلام بنكس أبصارهم عن كمال خشيتهم للّه تعالى و اعترافهم بقصور أبصار عقولهم عن إدراك ما وراء كمالاتهم المقدّرة لهم و ضعفها عن قبول ما (عمّا) لا يحتمله من أنوار اللّه و عظمته المشاهدة في خلق عرشه و ما فوقهم من مبدعاته، فإنّ شعاع أبصارهم منته واقف دون حجب عزّة اللّه.
و عن يزيد الرّقاشيّ (۱۰۴): أنّ للّه تعالى ملائكة حول العرش يسمّون المخلخلين

---

(۱۰۳) قوله: جاء في الخبر عن وهب.

أخرجه السيوطيّ في الدرّ المنثور ج ۷، ص ۲۷۵، عن أبو الشيخ، عن وهب.

و راجع أيضا البحار ج ۵۹، ص ۱۴۴، باب ۲۳ حقيقة الملائكة و صفاتهم و شؤونهم، توجد فيه الأخبار الكثيرة في معناه.

(۱۰۴) قوله: و عن يزيد الرّقاشيّ.

أمّا ما قال، ما عثرت عليه، و أمّا الرّجل نفسه فهو: يزيد بن أبان الرّقاشيّ البصريّ أبو عمر، الزّاهد العابد.

راجع «الجرح و التعديل» ج ٩، ص ٢٥١، و «ميزان الاعتدال» ج ٤، ص ٤١٨، و «تاريخ الإسلام» للذهبي الجزء (حوادث و وفيّات ١٢١- ١٤٠ ه) ص ٣٠٢، و «تهذيب التهذيب» ج ١١، ص ٣٠٨، و راجع في ضبط الرّقاشيّ «تنقيح المقال» للمامقاني، في ترجمة محمّد بن درياب الرّقاشيّ ج ٣، ص ١١٥.

كان رجلا صالحا، صاحب العبادة، و كان أحد الوعّاظ البكّائين، و من كبار الخائفين، قال ابن عديّ: «له أحاديث صالحة عن أنس و غيره، و أرجو أنّه لا بأس به لرواية الثقات-[.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٥٥

- عنه»، و قال ابن حيان: «كان من خيار عباد اللّه، من البكّائين باللّيل، لكنّه غفل عن حفظ الحديث شغلا بالعبادة»، و ضعّفه بعض، و لعلّه بسبب رواياته في مدح أهل البيت (ع)، و لا بأس بذكر بعض ما رواه فيهم عليهم آلاف التحيّة و السّلام:

روى أبو عمر و محمّد بن عمر الكشّي- في رجاله ص ٤٦، الرقم ١٢، في ترجمة البراء ابن عازب- عن عبد اللّه بن ابراهيم، عن أبي مريم الأنصاريّ، عن المنهال بن عمرو، عن زر بن (ذر بن) حبيش، قال: خرج عليّ بن أبي طالب (ع) من القصر، فاستقبله ركبان متقلّدون بالسيوف عليهم العمائم، فقالوا: السّلام عليك يا أمير المؤمنين و رحمة اللّه و بركاته، السّلام عليك يا مولانا، فقال عليّ (ع) من هاهنا من أصحاب رسول اللّه (ص)؟ فقام خالد بن يزيد أبو أيوب، و خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، و قيس بن سعد بن عبادة، و عبد اللّه بن بديل بن ورقاء، فشهدوا جميعا أنّهم سمعوا رسول اللّه (ص) يقول يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» فقال عليّ لأنس بن مالك، و البراء بن عازب: ما منعكما أن تقوما فتشهدا، فقد سمعتما كما سمع القوم؟ ثمّ قال اللّهمّ إن كانت كتماها معاندة فابتلهما، فعمى البراء بن عازب، و برص قدما أنس بن مالك، فحلف أنس بن مالك أن لا يكتم منقبة لعليّ ابن أبي طالب و لا فضلا أبدا.

نقلنا هذا الحديث لكي يكون مطلعا للأحاديث التالية المنقولة عن أنس بن مالك.

روى الشيخ الصدوق (ره) في «معاني الأخبار» باب معنى الشمس و القمر، ص ١١٥، الحديث ٣، عن أبو عليّ أحمد بن أبي جعفر البيهقيّ، عن عليّ بن جعفر المدينيّ، عن أبي جعفر المحاربيّ، عن ظهير بن صالح العمريّ، عن يحيى بن تميم، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن يزيد الرّقاشيّ، عن أنس بن مالك قال: صلّى بنا رسول اللّه (ص) صلاة الفجر، فلمّا انتقل من صلاته أقبل علينا بوجهه الكريم فقال: «يا معشر الناس من افتقد الشمس فليستمسك بالقمر، و من افتقد القمر فليستمسك بالزّهرة، و من افتقد الزّهرة فليستمسك بالفرقدين»، قيل: يا رسول اللّه ما الشمس و القمر و الزّهرة و الفرقدان؟ قال: «أنا الشمس، و عليّ القمر، و فاطمة الزّهرة، و الحسن و الحسين الفرقدان، و كتاب اللّه لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض». عنه البحار ج ٢٤، ص ٧٤، الحديث ١٠، قال المجلسي في ذيله:

قوله: و كتاب اللّه لعلّ تقديره: معهم كتاب اللّه، أو هو مبتدأ و لا يفترقان خبره.

و روى الشيخ الأجلّ محمّد بن ابراهيم بن جعفر النعمانيّ في كتابه «الغيبة» (باب ما-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٥٦

تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة يميدون كأنّما تنفضهم (تنقضهم) الرّياح من خشية اللّه تعالى فيقول لهم الرّبّ جلّ جلاله:

ما الّذي يخفيكم؟ فيقولون: ربّنا لو أنّ أهل الأرض اطّلعوا من عزّتك و عظمتك على ما اطّلعنا عليه، ما ساغوا طعاما و لا شرابا، و لا انبسطوا في فرشهم و لخرجوا إلى الصحراء يخورون كما يخور الثّور.

و اعلم، أنّه لمّا كان الجناح من الطائر و الإنسان عبارة عن محلّ القوّة و القدرة و البطش صحّ أن يستعار للملائكة على سبيل الكناية عن كمالهم في قدرتهم و قوّتهم الّتي يطيرون في بيداء جلال اللّه و عظمته، و تصدر بواسطتهم كمالات ما دونهم من مخلوقات اللّه، و صحّ أن توصف تلك الأجنحة بالقلّة و الكثرة في آحادهم، و يكون ذلك كناية عن تفاوت مراتبهم و زيادة كمال بعضهم على بعض، و لمّا استعار لفظ الأجنحة استلزام ذلك أن يكون قد شبّههم بالطائر ذي الجناح، ثمّ لمّا كان الطائر عند قبض جناحه يشبه المتلفّع بثوبه و الملتحف به و كانت أجنحة الملائكة الّتي هي عبارة عن كمالهم في قدرهم و علومهم مقبوضة قاصرة عن التعلّق بمثل مقدورات اللّه و مبدعاته، واقفة دون جلاله و عظمته في صنعه، لا جرم أشبه ذلك قبض الأجنحة

- روي أنّ الأئمّة اثنا عشر إماما) ص ۷۵ و ۷۶: عن عبد السّلام بن هاشم البزّاز، عن عبد اللّه بن اميّة مولى بني مجاشع، عن يزيد الرّقاشيّ، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه (ص) لن يزال (يزل) هذا الأمر قائما إلى اثنى عشر قيّما (خليفة كلّهم) من قريش.

و روى شيخ الطائفة الطوسيّ (ره) في أماليه ج ۱۱، ص ۳۱٤، عن أبو منصور السكّري، عن جدّه عليّ بن عمر، عن العبّاس بن يوسف السكليّ، عن عبيد اللّه بن هشام، عن محمّد بن مصعب القرقساني، عن الهيثم بن حمّاد، عن يزيد الرّقاشيّ، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول اللّه (ص) في حديث:

«معاشر الناس مالي إذا ذكر آل ابراهيم (ع) تهلّلت وجوهكم، و إذا ذكر آل محمّد (ص) كأنّما يفقأ في وجوهكم حبّ الزمان، فو الذي بعثني بالحقّ نبيّا، لو جاء أحدكم يوم القيامة بأعمال كأمثال الجبال و لم يجيء بولاية عليّ ابن أبي طالب لأكبّه اللّه عزّ و جلّ في النّار». عنه البحار ج ۲۷، ص ۱۷۱، الحديث ۱۲، و مستدرك الوسائل ج ۱، ص ۱۵۵، الحديث ۱۷/۲٤۲ ط ج.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۲۵۷

المشبّه للتلفّع بالثوب، فاستعار عليه السّلام لفظ التلفّع أيضا و كنّى به عن كمال خضوعهم و انقهارهم تحت سلطان اللّه و قوّته و المشاهدة في صورة عرشه.

فإن قلت: إنّك بيّنت أنّ المراد بالركوع هم حملة العرش فكيف يستقيم مع ذلك أن يقال: إنّ هذا القسم هم حملة العرش أيضا، فإنّ من كان أقدامهم في تخوم الأرضين، و أعناقهم خارجة من السّماوات السّبع، و من الكرسي و العرش، كيف يكون مع ذلك راكعا؟

قلت: الجواب عنه قد سبق في قوله: و منهم أمناء على وحيه، فإن الرّكوع أيضا المقصود منه الخشوع لعزّ اللّه و عظمته و ذلك غير مناف للأوصاف المذكورة هاهنا، و باللّه التوفيق.

قوله: مضروبة بينهم و بين من دونهم حجب العزّة و أستار القدرة.

إشارة إلى أنّ الآلات البشريّة قاصرة عن إدراكهم و الوصول إليهم، و ذلك لتنزّههم عن الجسميّة و الجهة و قربهم من عزّة مبدعهم الأوّل جلّ جلاله، و بعد القوى الإنسانيّة عن الوقوف على أطوارهم المختلفة و مراتبهم المتفاوتة، و إذا كان

الحال في الملك العظيم من ملوك الدنيا إذا بلغ في التّعزز و التعظيم إلى حيث لا يراه إلاّ أجلاّء خواصّه، و كان الحال أيضا في بعض خواصّه كذلك كالوزير و الحاجب و النديم، فإنّهم لا يصل إليهم كلّ النّاس بل لا يصل إليهم إلاّ من كانت له إليهم وسيلة تامّة و علاقة قويّة، و كان منشأ ذلك إنّما هو عظمة الملك و هيبته و قربهم منه، فكان الحائل بينهم و بين غيرهم إنّما هو حجب عزّة الملك و أستار قدرته و قهره، فكيف الحال في جبّار الجبابرة، و مالك الدنيا و الآخرة، و حال ملائكته المقرّبين و من يليهم من حملة العرش الروحانيّين، فبالحريّ أن ينسب عدم وصول قوانا الضعيفة إليهم و إدراكها لمراتبهم إلى حجب عزّة اللّه و عظمته لهم و كمال ملكه و تمام قدرته و ما أهلّهم له من قربه و مطالعة أنوار كبريائه عزّ سلطانه و (لا إله إلاّ هو) و لا إله غيره.

قوله: و لا يتوهّمون ربّهم بالتصوير.

إشارة إلى تنزيههم عن الإدراكات الوهميّة و الخياليّة في حقّ مبدعهم عزّ سلطانه، إذ كان الوهم إنّما يتعلّق بالأمور المحسوسة ذات الصور و الأحياز و المحالّ الجسمانيّة

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۵۸

فالوهم و إن أرسل طرفه إلى قبلة وجوب الوجود و بالغ في تقليب حدقته فلن يرجع إلاّ بمعنى جزئيّ يتعلّق بمحسوس حتّى أنّه لا يقدر نفسه و لا يدركها إلاّ ذات مقدار و حجم، و لمّا كان الوهم من خواصّ المزاج الحيوانيّ لا جرم سلب التوهّم عن الطور من الملائكة لعدم قوّة الوهم هناك، فإنّ هذه القوّة لمّا كانت موجودة للإنسان لا جرم كان يرى ربّه في جهة و يشير إليه متحيّزا ذا مقدار و صورة، و لذلك وردت الكتب الإلهيّة و النواميس الشرعيّة مشحونة بصفات التجسيم كالعين و اليد، و الإصبع و الإستواء على العرش و نحو ذلك خطابا للخلق بما تدركه أوهامهم و توطينا لهم و إيناسا، حتّى أنّ الشارع لو أخذ في مبدأ الأمر بيّن لهم أنّ الصانع الحكيم ليس داخل العالم و لا خارجه و لا في جهة من الجهات و ليس بجسم و لا عرض لاشتدّ نفار أكثرهم من قبول ذلك و عظم إنكارهم له، فإنّ الوهم في طبيعته لا يثبت موجودا بهذه الصفة و لا يتصوّره، و من شأنه أن ينكر ما لا تصوّر فكان منكرا لهذا القسم من الموجودات و الخطابات الشرعيّة و إن وردت بصفات التجسيم إلاّ أنّ الألفاظ الموهمة لذلك لمّا كانت قابلة للتأويل محتملة له، كانت وافية بالمقاصد، إذ العاميّ المغمور في ظلمات الجهل يحمله على ظاهره و يحصل بذلك تقييده عن تشتّت اعتقاده، و ذو البصيرة المترقّي عن تلك الدرجة يحمله على ما يحتمله عقله من التأويل، و كذلك حال من هو أعلى منه، و النّاس في ذلك على مراتب فكان إيرادها حسنا و حكمة.

قوله: و لا يجرون عليه صفات المصنوعين.

أقول: إجراء صفات المصنوعين عليه إنّما يكون بمناسبته، و مماثلته مع مصنوعاته و مكوّناته، و كلّ ذلك بقياس من الوهم و محاكاة من المتخيّلة له بصورة المصنوع، فكان الوهم يحكم أوّلا بكون الباري عزّ سلطانه مثلا لمصنوعاته التّي يتعلّق إدراكه بها من المتحيّزات و ما يقوم بها و يخيّله بصورة منها ثمّ يساعده العقل في مقدّمة أخرى هي أنّ حكم الشيء حكم مثله فيجري حينئذ عليه صفات مصنوعاته التّي حكم بمثليّته لها، و لمّا كانت الملائكة السّماويّة منزّهين عن الوهم و الخيال، لا جرم وجب تنزيههم عن أن يجروا عليه صفات مصنوعاته، سبحانه و تعالى عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا.

و كذلك قوله: و لا يحدّونه بالأماكن و لا يشيرون إليه بالنظائر.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٥٩

فإنّ الحاكم بحدّه في مكان و تحيّزه فيه و المشير إليه بالمثل المتصورّ له بالقياس إلى نظير يشاكله و يشابهه، إنّما هو الوهم و الخيال، و لمّا عرفت انّهما يخصّان للحيوان العنصري لا جرم كانت هذه الأحكام مسلوبة عن الملائكة السماويّة مطلقا و باللّه التوفيق.

الفصل الثالث في كيفيّة خلق آدم عليه السّلام

قوله: ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض و سهلها إلى قوله: و تناسل الذريّة.

(شرح ألفاظ الخطبة)

أقول: الحزن من الأرض: ما غلظ منها و اشتدّ كالجبل، و السهل: ما لان، و عذبها:

ما طاب منها و استعدّ للنبات و الزرع، و السّبح: ما ملح منها، و المسنون: الطين الرطب في قول ابن عبّاس، و عن ابن السكيت عن أبي عمر: أنّه المتغير، و قول ابن عبّاس أنسب إلى كلام عليّ عليه السّلام، لأنّ قوله: و سنّها بالماء حتّى لزبت، أي أنّه خلّطها بالماء حتّى صارت طينا رطبا يلتصق، و صلصلت: قال بعضهم: الصلصال هو المنتن من قولهم: صلّ اللحم و أصلّ إذا أنتن، و قيل: هو الطين اليابس الّذي يصلصل و هو غير مطبوخ، و إذا طبخ فهو فخار، و قيل: إذا توهّمت في صوته مدّا فهو صليل، و إذا توهّمت فيه ترجيعا فهو صلصلة، و لاطها بالبلّة أي خلّطها بالرطوبة و مزّجها بها، و البلّة بالكسرة: النداوة، و بالفتح واحدة البلّ، و اللازب: اللاصق، و أصل الباء الميم، و جبل: أي خلق، و الأحناء: جمع حنو و هي الجوانب، و الوصول: جمع كثرة للوصول و هي المفاصل و جمع القلّة أوصال، و أعضاء جمع عضو بالكسر و الضمّ، كاليد و الرجل للحيوان، و أصلدها: أي جعلها صلدا و هي الصلبة المساء، و الذّهن: في اللغة الفطنة و الحفظ، و في الإصطلاح العلمي عبارة عن القوى المدركة من العقل و الحس الباطن، و الفكر: جمع فكرة و هي قوّة للنفس بها تحصل الإدراكات العقليّة، و يشبه أن يكون أصل الإنسان: أنس و هو الأنيس، و الألف و النون في أصل لحوقها له للتثنية، و ذلك لأنّ الأنس أمر نسبيّ لا يتحقّق إلاّ بين شيئين فصاعدا، و لمّا كان كلّ واحد من النّاس

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٦٠

يأنس بصاحبه قيل إنسان، ثمّ كثر استعماله مثنّى فأجريت على النون وجوه الإعراب، و المساءة: الغم، و الجوارح: الأعضاء: و الاختدام و الاستخدام بمعنى، و الإداوة: جمع أدات، و أصلها الواو و لذلك ردّت في الجمع، و الاستيداء: طلب الأداء، و الخنوع:

الخضوع، و اشتقاق: إبليس من الأبلاس و هو اليأس و البعد، لبعده من رحمة اللّه.

و الحميّة الأنفة. و اعترتهم: أي غشيتهم. و الوهن: الضعف، و النظرة بفتح النون و كسر الظاء: الإمهال. و السخط: الغضب، و اغترّه أي استغفله، و نفست عليه بالأمر نفاسة:

إذا لم تره مستحقّا له، و العزيمة: الاهتمام بالشيء، و الجذل: السرور، و الإهباط:

الإنزال.

إذا عرفت هذا فنقول: للنّاس في هذه القصّة طريقان:

الطريق الأول، أنّ جمهور المسلمين و المفسرين و المتكلمين حملوا هذه القصّة على ظاهرها ثمّ ذكروا فيها أبحاثا:

[البحث الأوّل]

(في بيان تكرّر قصّة آدم و الملائكة و إبليس في القرآن)

البحث الأوّل: أنّ هذه قد كرّرها سبحانه في كتابه الكريم في سبع سور، و هي:

سورة البقرة، و الأعراف، و الحجر، و سورة بني إسرائيل، و الكهف، و طه، و سورة ص، و ذلك (لمن) لما يشتمل عليه من تذكير الخلق و تنبيههم من مراقد الطبيعة التي جذبهم إليها إبليس، و التحذير من فتنته و فتنة جنوده، و الجذب إلى جناب اللّه و مطالعة أنوار كبريائه كما قال تعالى:

يٰا بَنِي آدَمَ لاٰ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰانُ كَمٰا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ [سورة الأعراف: ۲۷].

فقوله عليه السّلام: تربة كقوله تعالى:

خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ [سورة آل عمران: ۵۹].

و قوله: سنّها بالماء، كقوله تعالى:

مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [سورة الحجر: ۲۶].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌۲، ص ۲۶۱

و قوله: لاطها بالبلّة حتّى لزبت كقوله تعالى:

مِنْ طِينٍ لاٰزِبٍ [سورة الصافات: ۱۱].

و قوله: حتّى صلصلت، كقوله تعالى:

مِنْ صَلْصٰالٍ [سورة الحجر: ۲۸].

و قوله: ثمّ نفخ فيه من روحه، كقوله:

وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي [سورة الحجر: ۲۹].

و قوله:

وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ [سورة السجدة: ۹].

و قوله: ذا أذهان يجيلها، و فكر يتصرّف فيها، و جوارح يختدمها، كقوله تعالى:

وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَةَ [سورة النحل: ۷۸].

قوله: و استأدى اللّه سبحانه الملائكة وديعته لديهم، و عهد وصيّته إليهم، كقوله تعالى:

فَسَجَدَ الْمَلاٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاّٰ إِبْلِيسَ [سورة الحجر: ۳۰- ۳۱].

و قوله: اعترته الحميّة إلى قوله تعزّز بخلقة النار، و استهون خلق الصلصال، كقوله تعالى حكاية عن إبليس:

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [سورة الأعراف: ۱۲].

و قوله: فأعطاه اللّه النظرة، حذف قبله، تقديره: فسأل النظرة، و ذلك قوله:

فَأَنْظِرْنِي [سورة ص: ۷۹]. فأعطاه اللّه النظرة إلى يوم الوقت المعلوم.

كقوله تعالى:

قٰالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ [سورة ص: ۸۰- ۸۱].

و قوله: ثمّ أسكن سبحانه آدم دارا أرغد فيها عيشه، كقوله تعالى:

وَ قُلنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما [سورة البقرة: ٣٥].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٦٢

و قوله: و حذّره إبليس و عداوته، كقوله:

فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى [سورة طه: ١١٧].

و قوله: فاغترّه إبليس نفاسة عليه بدار المقام و مرافقة الأبرار، كقوله:

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ [سورة طه: ١٢٠].

و قوله:

فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ [سورة الأعراف: ٢٢].

و قوله: فباع اليقين بشكّه و العزيمة بوهنه، كقوله تعالى:

فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [سورة طه: ١١٥].

و قوله: و استبدل بالجذل و جلا و بالاغترار ندما، كقوله تعالى:

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ [سورة الأعراف: ٢٣].

و قوله: ثمّ بسط اللّه في توبته و لقاء كلمة رحمته، كقوله تعالى:

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ [سورة البقرة: ٣٧].

و قوله: و وعده المردّة إلى جنته ذلك الوعد، في قوله تعالى:

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى [سورة طه: ١٢٣].

و قوله: فاهبطه إلى دار البليّة، كقوله تعالى:

اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً [سورة طه: ١٢٣].

[البحث الثاني]

(في خلقة آدم من تراب)

البحث الثاني: أن اللّه تعالى أشار في مواضع من كتابه الكريم إلى خلق آدم من تراب، فقال:

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ [سورة آل عمران: ٥٩].

و قال في موضع آخر:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٦٣

و قال في موضع آخر:

إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ [سورة ص: ٧١].

و قال في موضع آخر:

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [سورة الحجر: ٢٦].

قال المتكلّمون:

و إنّما خلقه اللّه على هذا الوجه، إما لمحض المشيئة، أو لما فيه من دلالة الملائكة على كمال قدرته و عجيب صنعته، لأنّ خلق الإنسان في هذه المراتب أعجب عندهم من خلقه من جنسهم.

إذا عرفت ذلك، فاعلم أنّ كلامه عليه السّلام هاهنا يجري مجرى (الترتيب) التفسير لهذه الآيات (١٠٥).

---

(١٠٥) قوله: أنّ كلامه عليه السّلام هاهنا يجري مجرى التفسير لهذه الآيات.

أقول: لمّا قال اللّه سبحانه:

وَ لاٰ حَبَّةٍ فِي ظُلُمٰاتِ الْأَرْضِ وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ [سورة الأنعام: ٥٩].

و قال:

وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ [سورة يس: ١٢].

و قال:

قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ [سورة الرعد: ٤٣].

و قال:

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتٰابٍ مَكْنُونٍ لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ [سورة الواقعة: ٧٧- ٧٩].

و قال:

إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [سورة الأحزاب: ٣٣].-

---

- و قال النبيّ (ص) حينما نزلت آية التطهير فدعا فاطمة و حسنا و حسينا و عبّاس (ع)، فجللّهم بكساء:

اللّهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا. (راجع تعليقنا ١٥٦ ص ٥٠٢ في الجزء الأول من التفسير المحيط الأعظم).

و لمّا كان أهل البيت عليهم السّلام و هم عترة النبيّ (ص) دائما مع القرآن و القرآن معهم.

تشريعا و تكوينا، جعلا حقيقيّا و اعتباريا من قبل اللّه سبحانه و تعالى- لما قال رسول الخاتم (ص):

إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه عزّ و جلّ و عترتي أهل بيتي، ألا و هما الخليفتان من بعدي، و لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. (راجع تعليقنا ١١٢ ص ٤٣٤ في الجزء الأول من تفسير المحيط الأعظم).

فإذن يكون كل كلام صدر منهم عليهم السّلام تفسيرا للقرآن الكريم و بيانا له، و أيضا يكون الإنسان الكامل صورة كاملة من القرآن، و الإنسان الكامل هو الإمام المبين و الولي المطلق و هو القطب في العالم و قلبه كما قال علي أمير المؤمنين عليه السّلام:

و انّما أنا قطب الرّحا تدور عليّ و أنا بمكاني. نهج البلاغة خ ١١٩.

و قال:

انّ محلّي منها محلّ القطب من الرّحا، ينحدر عنّي السيل، و لا يرقى إليّ الطّير.

نهج البلاغة خ ٣.

و كما جاء في مناظرة هشام بن الحكم مع عمرو بن عبيد أبي مروان، قال هشام عند الإمام الصادق عليه السّلام: قلت له: يا أبا مروان فاللّه تبارك و تعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماما (أي القلب) يصحّح لها الصحيح و يتيقّن به ما شكّ فيه، و يترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم و شكّهم و اختلافهم، لا يقيم لهم إماما يردّون إليه شكّهم و حيرتهم، و يقيم لك إماما لجوارحك تردّ إليه حيرتك و شكّك؟! فضحك أبو عبد اللّه (ع) و قال: يا هشام من علّمك هذا؟ قال: شيء أخذته منك و آلفته، فقال عليه السّلام:

هذا و اللّه مكتوب في صحف إبراهيم و موسى. اصول الكافي ج ١، ص ١٦٩، الحديث ٣.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٦٥

فإنّه أشار أوّلا إلى كونه من تراب بقوله:

«ثمّ جمع سبحانه من سهل الأرض و حزنها و عذبها و سبخها تربة»، و نحو ذلك ما روي عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال (١٠٦):

- يعني ان كون الإمام الحقيقي الّذي جعل من قبل اللّه تعالى إماما على الخلق هو قلب العالم بين الناس و ما جاء في كلام اللّه سبحانه و تعالى في صحف إبراهيم و موسى عليهما السّلام، اضافة على انه عليه السّلام أيّد قول هشام بأن الإمام قلب بالنّسبة إلى العالم فالعالم حيّ بحياة الإمام فلو عدم الإمام عن العالم انعدم العالم.

فالإنسان الكامل هو خليفة اللّه في أرضه و هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى و الصفات العليا و هو الّذي يتخلّق بأخلاق اللّه سبحانه و تعالى، بما أنّ شأن الخلافة تقتضي ذلك كلّه.

على أنّ العالم كلّه ظاهره و باطنه أيضا تفصيل و فرقان للقرآن، فإذن العالم و الإنسان و القرآن شيء واحد و لكن في صور مختلفة.

(١٠٦) قوله: ما روي عن رسول اللّه (ص).

رواه ابن داود في سننه ج ٤، ص ٢٢٢، الحديث ٤٦٩٣ باب في القدر، و رواه أيضا ابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ٤٠٠ و ٤٠٦، و البيهقي في السنن الكبرى ج ٩، كتاب السير باب مبتدأ الخلق ص ٣.

و روى قطب الدّين الراوندي في كتابه قصص القرآن في ذكر أبينا آدم (ع) الفصل ٢، الحديث ٢، ص ٤١، باسناده عن حبة العرني عن أمير المؤمنين (ع): إنّ اللّه خلق آدم صلوات اللّه عليه من أديم الأرض، فمنه السّباخ، و المالح، و الطيّب، و من ذريّته الصالح، و الطالح.

و روي في تفسير الفرات ص ١٨٦، الحديث ٢٣٥، باسناده عن الحسن عليه السّلام فيما سأل كعب الأحبار أمير المؤمنين (ع) قال: (لما أراد اللّه تعالى خلق آدم) بعث اللّه جبرئيل عليه السّلام، فأخذ من أديم الأرض قبضة فعجنه بالماء العذب و المالح، و ركب فيه الطبائع قبل أن ينفخ فيه الرّوح، فخلقه من أديم الأرض، الحديث. عنه بحار الأنوار ج ٦٣، ص ١٩٧، الحديث ٨.

و روى الصفّار في بصائر الدرجات باب ٩، ج ١٠، ص ١٧، باسناده عن الإمام علي ابن الحسين زين العابدين عليه السّلام قال:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٦٦

إنّ اللّه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر و الأبيض و

الأسود و بين ذلك، السهل و الحزن و الخبيث و الطيّب.

و اعلم، أنّ جمهور المفسّرين على أنّ الإنسان في قوله تعالى:

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ [سورة المؤمنون: ١٢].

هو أبونا آدم عليه السّلام، و نقل عن محمّد بن عليّ الباقر عليه السّلام أنّه قال:

- إنّ اللّه بعث جبرئيل إلى الجنّة فأتاه بطينة من طينتها (طينها)، و بعث ملك الموت إلى الأرض فجاءه بطينة من طينتها، فجمع الطينتين ثمّ قسّمها نصفين، فجعلنا من خير القسمين، و جعل شيعتنا من طينتنا، فما كان من شيعتنا ممّا يرغب بهم عنه (عنهم) من الأعمال القبيحة فذاك ممّا خالطهم من الطينة الخبيثة و مصيرها إلى الجنّة، و ما كان في عدوّنا من برّ و صلاة و من الأعمال الحسنة فذاك لما خالطهم طينتنا الطيّبة و مصيرهم إلى النار.

و روى الصدوق في علل الشرائع باب ٢٤٠، ص ١، ص ٤٨٩، باسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام قال في حديث:

إنّ اللّه تعالى لمّا كان متفردا بالوحدانيّة ابتدأ الأشياء لا من شيء، فأجرى الماء العذب على الأرض طيبة طاهرة سبعة أيّام بلياليها، ثمّ نضب الماء عنها فقبض قبضة من صفوة ذلك الطين و هي طينة أهل البيت، ثمّ قبض قبضة من أسفل ذلك الطين و هي طينة شيعتنا، ثمّ اصطفا لنفسه. إلى أن قال: و لكن اللّه تعالى أجرى الماء المالح على أرض ملعونة سبعة أيّام و لياليها، ثمّ نضب الماء عنها، ثمّ قبض قبضة و هي طينة ملعونة من حمأ مسنون، و هي طينة خبال و هي طينة أعدائنا ... إلى أن قال: و لكن اللّه تبارك و تعالى جمع الطينتين:

طينتكم و طينتهم و عركها عرك الأديم و مزجها بالمائين، فما رأيت من أخيك المؤمن من شرّ ... فليس من جوهريته و لا من إيمانه، إنّما هو بمسحة الناصب اجترح هذه السيّئات ...

و ما رأيت من الناصب من حسن وجهه و حسن خلق ... فليس من جوهريّته، إنّما تلك الأفاعيل من مسحة الإيمان اكتسبها و هو اكتساب مسحة الإيمان.

راجع أيضا في هذا تعليقنا الرقم ١٧ و ١٨ و ١٩ من هذا الجزء.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٦٧

قد انقضى قبل آدم الّذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر «١٠٧».

قال بعض العلماء: و هذا لا ينافي حدوث العالم، فانّه كيف كان لا بدّ من الانتهاء إلى إنسان هو أوّل النّاس، فأمّا أنّ ذلك الإنسان هو أبونا آدم فلا طريق إلى إثباته إلاّ من جهة السّمع.

[البحث الثالث]

(في حقيقة سجود الملائكة لآدم (ع))

البحث الثالث: أجمع المسلمون على أنّ سجود الملائكة لآدم لم يكن سجوده عبادة، لأنّ العبادة لغير اللّه كفر، ثمّ اختلفوا على ثلاثة أقوال:

الأوّل، أنّ ذلك السجود كان للّه و كان آدم كالقبلة، و كما يحسن أن يقال: سجدوا لآدم، كذلك يحسن أن يقال: سجدوا للقبلة بدليل قول حسّان بن ثابت (١٠٨):

(١٠٧) قوله: و نقل عن محمّد بن عليّ الباقر عليه السّلام.

رواه الصدوق (رضي) في «التوحيد» باب ذكر عظمة اللّه جلّ جلاله الحديث ٢، ص ٢٧٧، و أيضا رواه في «الخصال» باب ما بعد الألف الحديث ٥٤، ص ٦٥٢.

روي فيهما باسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: إنّ اللّه عزّ و جلّ إذا أفنى هذا الخلق و هذا العالم و سكن أهل الجنّة الجنّة، و أهل النّار النّار، جدّد اللّه عالما غير هذا العالم، و جدّد خلقا (عالما) من غير فحولة و لا إناث يعبدونه و يوحّدونه، و خلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم، و سماء غير هذه السّماء و تظلّهم، لعلّك ترى ان اللّه عزّ و جلّ إنّما خلق هذا العالم الواحد، و ترى أنّ اللّه عزّ و جلّ لم يخلق بشرا غيركم، بل و اللّه لقد خلق اللّه تبارك و تعالى ألف ألف عام و ألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم و أولئك الآدميّين.

(١٠٨) قوله: حسّان بن ثابت.

الرجل هو أبو الوليد حسّان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، أبو الحسام، شاعر رسول اللّه (ص)، و من أصحاب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و له ديوان، و كان بيته أحد بيوتات الشعر، قال دعبل و المبرّد:

أعرق النّاس كانوا في الشعر آل حسّان فمنهم يعدّون ستّة في نسق كلّهم شاعر: سعيد-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٦٨

-ابن عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام.

انّ العرب قد اجتمعت على أنّ حسّان أشعر أهل المدن و انّه فضل الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار، و شاعر النبيّ في أيّامه صلّى اللّه عليه و آله، و شاعر اليمن، كلّها في الإسلام.

الغدير ج ٢، ص ٦٣.

كان رسول اللّه (ص) يضع لحسّان منبرا في المسجد يقوم عليه قياما و يفاخر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و يقول رسول اللّه (ص): إنّ اللّه يؤيّد حسّان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول اللّه (ص).

و قال النبيّ (ص) له: إنّ روح القدس معك ما هاجيتهم. المستدرك للحاكم ج ٣، ص ٤٨٧.

و في رجال الكشي ص ١٨١، الرقم ٨٤، روي عن الإمام الباقر عليه السّلام قال لكميت بن زيد الأسدي: و اللّه يا كميت لو ان عندنا مالا لأعطيناك منه، و لكن لك ما قال رسول اللّه (ص) لحسّان: لا يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا.

كان من الأنصار و متقدّما في الإسلام، ولد قبل مولد النبيّ القدسيّ (ص) بثمان سنين، و عاش في الجاهليّة ستّين سنة، و في الإسلام ستين سنة، و دعا له النبيّ (ص): «اللّهم أيّده بروح القدس». و توفي سنة أربع و خمسين. تاريخ الإسلام للذهبي (٤١ هـ ٦٠ هـ) ص ١٩٤، المعارف لابن قتيبة ص ٣١٢، الغدير ج ٢، ص ٦٥.

له أشعار في بيان ما وقع يوم الغدير، أنشدها يوم الغدير بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، رواها سليم بن قيس الهلالي التابعي في كتابه ص ١٨٨، و الشيخ الصدوق (رضي) في (أماليه) المجلس الرابع و الثمانون الحديث ٣، ص ٤٦٠، باسناده عن أبي سعيد الخدري و

ذكرها العلاّمة الأميني في (الغدير) ج ۲، ص ۳۹ و ۳٤، نقلا عن كتاب (مرقاة الشعر) للحافظ المرزباني محمّد بن عمران الخراساني المتوفّى ۳۷۸ باسناده عن أبي سعيد الخدري، و أمّا الأبيات فهي:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم بخمّ و أسمع بالنبيّ مناديا

و قد جاءه جبريل عن أمر ربّه بأنّك معصوم فلا تك وانيا

و بلّغهم ما أنزل اللّه ربّهم إليك و لا تخش هناك الأعاديا

فقام به إذ ذاك رافع كفّه بكفّ عليّ معلن الصوت عاليا

-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲٦۹

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرف عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن

أليس أوّل من صلّى لقبلتكم و أعرف النّاس بالآيات و السّنن «۱۰۹»

فقوله: صلّى لقبلتكم، نصّ على المقصود.

الثاني، أنّ السجود كان لآدم تعظيما له و تحيّة كالسّلام منهم عليه، و قد كانت الأمم

- فقال:

فمن مولاكم و وليّكم (نبيّكم)؟ فقالوا و لم يبدوا هناك تعاميا:

إلهك مولانا و أنت وليّنا (نبيّنا) و لن تجدن فينا لك اليوم عاصيا

فقال له: قم يا عليّ فإنّني رضيتك من بعدي إماما و هاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليّه فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعا اللّهمّ وال وليّه و كن للّذي عادى عليّا معاديا

فيا ربّ أنصر ناصريه لنصرهم إمام هدى كالبدر يجلو الدياجيا

فانظر أيّها القارئ العزيز انّ هذه الأبيات الّتي قرئت عند رسول اللّه (ص) تفسير ظاهر للآيات المرتبطة و لما قال النبيّ في الغدير، أي المراد من: «بلّغ ما أنزل» و المراد من «مولاه» هو الولاية بمعنى الامامة و الخلافة.

(١٠٩) قوله: ما كنت أحسب.

الأبيات في بيان أنّ أوّل من أسلم و آمن و صلّى و ركع مع رسول اللّه (ص) عليّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام، كما ورد فيه الأحاديث الكثيرة، و هناك خلاف في قائلها و شاعرها، قيل: هو حسّان بن ثابت كما في المتن، و قيل: هو ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب، و قيل: هو أبو سليمان بن حرب، و تمام الأبيات كما يلي:

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرف عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن

أليس أوّل من صلّى لقبلتهم؟ و أعلم النّاس بالآيات و السنن؟

و آخر الناس عهدا بالنبيّ؟ و من جبريل عون له في الغسل و الكفن؟

من فيه ما فيهم ما تمترون به؟ و ليس في القوم ما فيه من الحسن

ماذا الّذي ردّكم عنه؟ فنعلمه ها إنّ بيعتكم من أوّل الفتن

راجع (الغدير) ج ٣، ص ٢٣١، و راجع كتاب سليم بن قيس الهلالي ص ٢٨، و فيه الأبيات المذكورة منسوبة إلى العباس بن عبد المطلب و في لفظها أيضا تفاوت يسير.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٧٠

السّالفة تفعل ذلك كما يحيّى المسلمون بعضهم بعضا، و عن صهيب «١١٠»: أنّ معاذا رضي اللّه عنه لمّا قدم من اليمن يجد للنّبي صلّى اللّه عليه و آله، فقال له:

يا معاذ ما هذا؟ فقال: رأيت اليهود تسجد لعظمائها و علماءها، و رأيت النصارى تسجد لقسّيسيها و بطارقتها، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: تحيّة الأنبياء، فقال صلّى اللّه عليه و آله: كذبوا على أنبيائهم.

الثالث، أنّ السجود في أصل اللغة عبارة عن الانقياد و الخضوع كما قال الشاعر:

ترى الأكم فيها سجّدا للحوافر «١١١»، أي أن تلك الجبال الصغار كانت مذلّلة لحوافر الخيل، و منه قوله تعالى:

وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدٰانِ [سورة الرحمن: ٦].

و القول الثاني هو مقتضى كلامه عليه السّلام إذ فسّر السجود به فقال: «و الخضوع لتكرمته» و الخنوع لتكرمته، و باللّه التوفيق.

[البحث الرابع]

(في أنّ الملائكة المأمورين بالسجود من هم؟)

البحث الرابع: اختلفوا: في الملائكة الّذين أمروا بالسّجود لآدم، فاستعظم بعضهم

---

(١١٠) قوله: عن صهيب.

ذكره الفخر الرازي في تفسير ج ٢، ص ٢١٣ في قوله تعالى:

وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ [سورة البقرة: ٣٤].

و قريب منه رواه ابن ماجة باسناده عن عبد اللّه بن أبي أوفى في (سننه) كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة الحديث ١٨٥٣، ص ٥٩٥.

و أيضا رواه ابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ٣٨١.

(١١١) قوله: كما قال الشاعر.

تمام الشعر:

بجمع تظلّ البلق في حجراته ترى الأكم فيها سجّدا للحوافر

راجع البحار الحديث ٥، ص ٢٦٥.

الأكم و الأكم جمع الأكمة: التلّ أو الموضع الّذي يكون أكثر ارتفاعا ممّا حوله. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۷۱

سجود ملائكة السماء له، و قالوا: المأمورون بذلك هم الملائكة الّذين أهبطوا مع إبليس إلى الأرض، قالوا: و ذلك أنّ اللّه تعالى لمّا خلق السّماوات و الأرض، و خلق الملائكة أهبط منهم ملأ إلى الأرض يسمّون بالجنّ رأسهم إبليس، و أسكنهم إيّاها و كانوا أخفّ الملائكة عبادة، فأعجب إبليس بنفسه، و تداخله الكبر فأطلع اللّه عزّ و جلّ على ما انطوى عليه، فقال له و لجنده:

إِنِّي خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ [سورة ص: ٧٢].

و قال بعضهم: إنّ المأمورين بالسجود لآدم هم كلّ الملائكة بدليل قوله تعالى:

فَسَجَدَ الْمَلاٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [سورة ص: ٧٣].

فأكّد جمعهم بأكمل وجوه التأكيد.

[البحث الخامس]

(في أنّ إبليس أهو من الملائكة أم لا؟)

البحث الخامس: أكثر المتكلّمين لا سيّما المعتزلة على أنّ إبليس لم يكن من الملائكة، و قال جمهور المفسّرين و منهم ابن عبّاس: إنّه كان من ملائكة الأرض الّذين أهبطوا قبل آدم.

حجّة الأوّلين قوله تعالى:

إِلاَّ إِبْلِيسَ كٰانَ مِنَ الْجِنِّ [سورة الكهف: ٥٠].

و الجنّ لم يكونوا من الملائكة بدليل قوله تعالى للملائكة:

أَ هٰؤُلاٰءِ إِيّٰاكُمْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ [سورة سبأ: ٤٠].

و قول الملائكة:

سُبْحٰانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنٰا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ [سورة سبأ: ٤١].

و احتجّ من قال إنّه منهم باستثناء إبليس من الملائكة في غير موضع من القرآن الكريم، و الاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، و ذلك يدلّ على أنّ إبليس من الملائكة.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٧٢

و أجابوا عن حجّة الأوّلين من وجهين:

أحدهما المعارضة بقوله تعالى:

وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً [سورة الصافات: ١٥٨].

و ذلك الجعل هو قول قريش: الملائكة بنات اللّه بدليل قوله تعالى:

وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً [سورة الزخرف: ١٩].

فهذه الآية تدلّ على أنّ الملائكة من الجنّ.

الثاني، أنّ كون إبليس من الجنّ لا ينافي كونه من الملائكة لأنّ الملائكة يصدق عليهم اسم الجنّ لأنّ الجنّ مأخوذ من الاجتنان و هو الاستتار، و منه سمّي الجنين لاستتاره في بطن أمّه، و منه (المجنون) الجنون لاستتار العقل فيه، و الملائكة مستترون عن الأعين فوجب جواز إطلاق لفظ الجنّ عليهم.

و اعلم، أنّ الخلاف لفظيّ فإنّه إذا ثبت أنّ الملائكة الّذين أهبطوا إلى الأرض قبل آدم هم المسمّون بالجنّ، و إبليس من الجنّ، ثبت أنّ إبليس من الملائكة، و ليس النّزاع في أنّه من ملائكة الأرض أو من ملائكة السّماء، بل في كونه من الملائكة مطلقا، فإذن ليس بينهم خلاف في المعنى.

[البحث السّادس]

(في بيان سبب عداوة إبليس لآدم)

البحث السّادس: اختلفوا في سبب عداوة إبليس لآدم فقال بعضهم: إنّه الحسد، و ذلك أنّ إبليس لمّا رأى ما أكرم اللّه به آدم من إسجاد الملائكة و تعليمه ما لم يطّلع عليه الملائكة حسده و عاداه.

و قال آخرون: إنّ السبب تباين أصليهما و لمنافرة الأصلين أثر قويّ في منافرة الفرعين، قالوا: و تباين أصليهما هو منشأ القياس الفاسد من إبليس حين أمر بالسّجود، و ذلك قوله:

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [سورة الأعراف: ١٢].

و كأنّه في خطابه يقول: إنّ آدم جسمانيّ كثيف و أنا روحانيّ لطيف، و الجسمانيّ أدون

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٧٣

حالا من الرّوحاني، و الأدون كيف يليق أن يكون مسجودا للأعلى.

و أيضا فإنّ أصل آدم من صلصال من حماء مسنون، و الصلصال في غاية الدناءة، و أصلي من أشرف العناصر، و إذا كان أصلي خيرا من أصله وجب أن أكون خيرا منه و أشرف، و الأشرف يقبح أن يؤمر بالسّجود للأدون.

قالوا: فكان ذلك قياسا منه، فأوّل من قاس هو إبليس، فأجابه اللّه تعالى جوابا على سبيل التنبيه دون التّصريح بقوله:

اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً [سورة الأعراف: ١٨].

قال بعض الفضلاء: و تقريره أنّ الّذي قاله تعالى نصّ بحكم الحكمة الإلهيّة و القدرة الرّبانيّة، و الّذي قاله إبليس قياس، و من عارض النصّ بالقياس كان مرجوما ملعونا.

[البحث السّابع]

(في احتجاج الأشاعرة بخلق الكفر في الكافرين و جوابهم)

البحث السّابع: احتجّت الأشعريّة على أنّه تعالى قدير خلق الكفر في الكافرين، من هذه القصّة بوجهين:

أحدهما، أنّه تعالى أنظر إبليس مع أنّه يعلم أنّه إنّما قصده إغواء بني آدم، و لو أهلكه استراحوا و عدم الشرّ الحاصل منه و من ذرّيته.

الثاني، أنّه قال: اغويتني، فنسب الإغواء إلى اللّه تعالى، مع أنه تعالى لم ينكر عليه هذا الكلام و هذا تصريح في أنّه تعالى يفعل الإغواء.

أجابت المعتزلة عن الأوّل: بأنّ اللّه تعالى خلق آدم و ذرّيته قادرين على رفع إبليس عن أنفسهم، فهم الّذين اختاروا الكفر و الفساد، أقصى ما في الباب أن يقال: إنّ الاحتراز عن القبيح حال عدم إبليس أسهل منه حال وجوده إلاّ أنّ على هذا التقدير تصير وسوسته سببا لزيادة المشقّة في أداء الطّاعات فيزداد المكلف بتكلفها ثوابا كما قال عليه السّلام:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٧٤

«أفضل الأعمال أحمزها أي أشقّها» «١١٢».

و ذلك لا يمنع الحكيم من فعله، كما أنّ إنزال المشاقّ و الآلام و إنزال المتشابهات صار سببا لزيادة الشبهات، و مع ذلك لم يمتنع فعلها من اللّه تعالى، و هذا الوجه قريب من قوله عليه السّلام: استتماما للبليّة.

و عن الثاني أنّ المراد من قوله: بما أغويتني أي بما خيّبتني من رحمتك، و قيل: معنى إضافة غوايته إلى اللّه تعالى، أنّ اللّه تعالى لمّا أمره بالسّجود لآدم عصى و غوى فكان الباري هو الأصل في حصول الإغواء له فلذلك نسبه إليه، و احتجّ أيضا من جواز الخطاء على الأنبياء عليهم السّلام من هذه القصّة، بقوله تعالى:

وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى [سورة طه: ١٢١].

و أجاب من أوجب عصمتهم من حين الولادة بأنّه لمّا دلّ الدّليل على وجوب عصمتهم وجب صرف هذا اللفظ و نحوه على ترك الأولى و هو في حقّهم سيّئة و معصية، و إن كان في حقّ غيرهم حسنة، كما قيل:

حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

و من أوجب عصمتهم من حين الرّسالة فله أن يحمل هذه المعصية على ما قبل الرّسالة، و المسألة مستقصاة في الكلام.

(١١٢) قوله: (ع) أفضل الأعمال.

قال ابن الأثير في (النّهاية) في مادّة حمز: في حديث ابن عباس:

«سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أيّ الأعمال أفضل؟ فقال: أحمزها» و عبّر المجلسي (ره) في البحار ج ٨٢، ص ٢٢٨ عن الخبر المذكور. الخبر المشهود بين الخاصّة و العامّة.

و هناك خبر آخر مرويّ عن النبيّ (ص) انه قال:

«أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس».

ذكر الغزالي في (إحياء علوم الدّين) ج ٤، ص ٤١٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٧٥

[البحث الثامن]

(في معنى تلقّي آدم كلمات ربّه و تفصيل الأقوال فيه)

البحث الثامن: قال القفّال: أصل التلقّي في قوله:

فَتَلَقّٰى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰاتٍ [سورة البقرة: ٣٧].

و قوله عليه السّلام: و لقّاه كلمة رحمته، هو التعرّض للقادم (للقاء) وضع (ثمّ يوضع في) موضع الاستقبال للمسيء و الجاني (للشّيء الجائي) (ثمّ يوضع) ثمّ وضع موضع القبول و الأخذ، قال اللّه تعالى:

وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ [سورة النمل: ٦].

أي تلقّنه «١١٣»، و يقال: تلقينا الحجاج أي استقبلناهم، (و يقال:) تلقّيت هذه الكلمة من فلان أي أخذتها منه، و إذا كان هذا أصل الكلمة و كان من: تلقي رجلا فتلاقيا، لقي كل واحد منهما صاحبه و أضيف بالاجتماع (فأضيف الاجتماع إليهما معا فصلح (صلح) أن يشتركا في الوصف بذلك، (فيقال:) كلّ ما تلقّيته فقد تلقّاك، فجاز أن يقال: تلقى آدم من ربّه كلمات، أي أخذها و وعاها و استقبلها بالقبول، و لقاء اللّه إيّاها أي أرسلها إليه و واجهه.

---

(١١٣) قوله: تلقّنه.

قوله تعالى: **لَتُلَقَّى أي لتلقّن و لتعطي و لتؤتاه.**

لقن الكلام، و تلقّن الكلام من فلان: أخذه مشافهة و فهمه. و تلقّن الشيء و الكلام: فهمه و تمكّن منه. و لقّنه الكلام: فهّمه إياه مشافهة. و لقّنه الكلام: ألقاه إليه ليعيده.

و في (المصباح المنير): لقن الرّجل فهو لقن، من باب تعب فهمه، و يعدّي بالتّضعيف إلى ثان فيقال: لقّنته الشيء فتلقّنه: إذا أخذه من فيك مشافهة.

لقى يلقى لقاء، لقى فلانا: استقبله، صادفه، رآه. لاقى لقاء و ملاقاة الرّجل: صادفه و قابله. تلقى الشيء بمعنى لقيه أي استقبله.

و في (المصباح المنير): كلّ شيء استقبل شيئا أو صادفه: فقد لقيه. و ألقيت إليه القول، و بالقول أبلغته و ألقيته عليه، بمعنى أمليته و هو كالتعليم.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٧٦

ثمّ ذكر المفسّرون في ذلك الكلمات أقوالا (١١٤):

(١١٤) قوله: ثمّ ذكر المفسّرون.

انظر في ألفاظ هذا الفصل و الأقوال المنقولة في (تفسير الكبير) للفخر الرازي ج ٣، ص ١٩، في الآية: **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [سورة البقرة: ٣٧].**

و صححنا ألفاظ الفصل أيضا به، و راجع أيضا في تفسير الآية المذكورة و بيان المراد من الكلمات الّتي تلقّاها آدم عليه السّلام ربّه، (الدّر المنثور) و (تفسير ابن كثير) و (معالم التنزيل) و (جامع البيان) للطبري، و تفسير (البرهان) و (نور الثقلين) و (الميزان) و غيرها من التفاسير، و بحار الأنوار ج ١١، أبواب قصص آدم باب ٣ و ٤، و لأجل المزيد في الفائدة نذكر في المقام بعض الأحاديث الواردة في تفسير «الكلمات» عن بعض كتب الأحاديث و التفاسير الرّوائيّة.

١- روى العياشي في تفسيره ج ١، ص ٤٠، الحديث ٢٤، باسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: قال رسول اللّه (ص): إنّ اللّه حين أهبط آدم إلى الأرض أمره أن يحرث بيده فيأكل من كدّه بعد الجنّة و نعيمها، فلبث يجأر و يبكي على الجنّة مائتي سنة، ثمّ إنّه سجد للّه سجدة فلم يرفع رأسه ثلاثة أيّام و لياليها، ثمّ قال: أي ربّ ألم تخلقني؟ فقال اللّه:

قد فعلت، فقال: ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: قد فعلت، قال: ألم تسكنّي جنّتك؟ قال: قد فعلت، قال: ألم تسبق لي رحمتك غضبك؟ قال اللّه: قد فعلت فهل صبرت أو شكرت؟ قال آدم: «لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي إنّك أنت الغفور الرّحيم»، فرحمه اللّه بذلك و تاب عليه انّه هو التّواب الرّحيم.

٢- روى الصدوق (ره) في (معاني الأخبار) ص ١٢٦، الحديث ١، باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، و هو أنّه قال:

«يا ربّ أسألك بحقّ محمّد و عليّ و فاطمة و الحسن و الحسين إلاّ تبت عليّ» فتاب اللّه عليه إنّه هو التّواب الرّحيم. و رواه أيضا في (كمال الدّين) ج ٢، باب ٣٣، الحديث ٥٥، ص ٢٨.

٣- أخرج السيوطي في (الدّر المنثور) و قال: أخرج ابن النجّار عن ابن عباس قال:

سألت رسول اللّه (ص) عن الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه قال: سأل بحقّ محمّد، و عليّ، و فاطمة، و الحسن، و الحسين، إلاّ تبت عليّ فتاب عليه.

٤- روى الكليني في (الرّوضة) ص ٣٠٤، الحديث ٤٧٢، باسناده عن أحدهما عليهما-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٧٧

الأوّل، روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي اللّه عنه:

انّ آدم عليه السّلام قال: يا ربّ ألم تخلقني بيدك بلا واسطة؟
قال: بلى، (قال: يا ربّ ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: بلى،) قال: ألم تسكنّي جنّتك؟ قال: بلى، قال: ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: إن تبت و أصلحت أ تردّني إلى الجنّة؟ قال: نعم، و هو قوله تعالى: فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰاتٍ.
الثاني، قال النخعي: أتيت ابن عباس، فقلت: ما الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه؟
قال: علّم اللّه تعالى آدم و حوّاء أمر الحجّ و الكلمات الّتي يقال فيه فحجّا، فلمّا فرغا أوحى اللّه تعالى إليهما: «إنّي قد قبلت توبتكما».
الثالث، قال مجاهد و قتادة و في إحدى الروايتين عنهما: هي قوله:
رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ [سورة الأعراف: ٢٣].
الرّابع، قال سعد بن جبير عن ابن عبّاس رضي اللّه عنهم: إنّها قوله:
لا إله إلاّ أنت سبحانك و بحمدك عملت سوءا و ظلمت نفسي فاغفر لي إنّك خير الغافرين.
لا إله إلاّ أنت سبحانك و بحمدك عملت سوءا و ظلمت نفسي فارحمني إنّك أرحم الرّاحمين، لا إله إلاّ أنت سبحانك و بحمدك عملت سوءا و ظلمت نفسي فتب عليّ إنّك أنّ

- السّلام في قول اللّه عزّ و جلّ:
فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰاتٍ.
قال: لا إله إلاّ أنت سبحانك، اللّهم و بحمدك عملت سوءا، و ظلمت نفسي، فاغفر لي و أنت خير الغافرين، لا إله إلاّ أنت سبحانك اللّهم و بحمدك عملت سوءا و ظلمت نفسي فاغفر لي و ارحمني و أنت أرحم الراحمين، لا إله إلاّ أنت سبحانك اللّهم و بحمدك عملت سوءا و ظلمت نفسي فتب عليّ انّك أنت التّواب الرّحيم.
و روي قريب منه في حديث طويل على بن إبراهيم قمّي في تفسير ج ۱، ص ٤٤.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٧٨

التّواب الرّحيم.
الخامس، قول عائشة: لمّا أراد اللّه تعالى أن يتوب على آدم طاف بالبيت سبعا، و البيت حينئذ ربوة حمراء، فلمّا صلّى ركعتين استقبل (القبلة) البيت، و قال: اللّهم إنّك تعلم سرّي و علانيتي فاقبل معذرتي، و تعلم حاجتي فاعطني سؤلي، و تعلم ما في نفسي، فاغفر لي ذنوبي، اللّهمّ إنّي أسألك إيمانا تباشر به قلبي، و يقينا صادقا حتّى أعلم أنّه لن يصيبني إلاّ ما كتبت لي، و أرضني بما قسمت لي.
فأوحى اللّه تعالى إليه: يا آدم قد غفرت لك ذنبك، و لن يأتيني أحد من ذرّيّتك فيدعوني بمثل ما دعوتني به إلاّ قد غفرت ذنوبه و كشفت همومه، و نزعت الفقر من بين عينيه و جاءته الدّنيا و هو لا يريدها.
البحث التّاسع: في حقيقة التّوبة.
قال الإمام الغزالي رحمة اللّه عليه «١١٥»: التوبة عبارة عن معنى مركّب من ثلاثة أمور مترتبة: علم، ثمّ حال، ثمّ ترك.

أمّا العلم فأن يعلم العبد ضرر الذّنوب و كونه حجابا بينه و بين اللّه تعالى، و قيدا يمنعه من دخول الجنّة، فإذا علم ذلك بيقين غالب على قلبه فإنّ ذلك يوجب له تألّما نفسانيّا بسبب فوات الخير العظيم المطلوب لكلّ عاقل، فيسمّى تألمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه و مطلوبه ندما، فإذا غلب هذا الألم على القلب أوجب له القصد إلى أمرين: أحدهما ترك الذنوب الّتي كان ملابسا لها أولا، و الثاني العزم على ترك الذنب المفوّت لمطلوبه في المستقبل إلى آخر العمر فهذه حقيقتها، و ينشأ من ذلك تلافي ما فات بالجبر و القضاء و إن كان قابلا للجبر.

و العلم هو الأصل في إظهار هذه الخيرات، فإنّ القلب إذا أيقن بأنّ الذنوب كالسّموم المهلكة، و الحجب الحائلة بينه و بين محبوبه فلا بدّ أن يتمّ نور ذلك اليقين

---

(١١٥) قوله: قال الإمام الغزالي.

راجع احياء علوم الدين كتاب التوبة الركن الأوّل ج ٤، ص ٨ و تفسير الكبير للرازي ج ٣، ص ٢٠، و (المحجة البيضاء) للفيض الكاشاني ج ٧، ص ٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٧٩

فتشتعل فيه نيران الندم فيتألّم به القلب، و حينئذ ينبعث من تلك النار طلب الانتهاض للتدارك، فالعلم و الندم و القصد المتعلّق بالترك في الحال، و الاستقبال، و التلافي للماضي، ثلاثة معان مترتّبة يطلق اسم التّوبة على مجموعها، و ربّما أطلق اسم التوبة على الندم وحده، و جعل العلم كالباعث، و الترك كالثمرة المتأخّرة، و لهذا الإعتبار قال صلّى اللّه عليه و آله:

«الندم توبة» «١١٦»، إذ الندم مستلزم لعلم أوجبه و لعزم يتبعه.

و

أمّا وجوبها فمن وجهين

: **أحدهما، أنّ التوبة مرضاة للرحمن**

مسخطة للشيطان، مفتّحة لأبواب الجنان معدّة لإشراق شموس المعارف الإلهيّة على ألواح النّفوس، مستلزمة للمواهب الربّانيّة من الملك القدّوس.

الثاني، الأوامر الواردة بها في القرآن الكريم

: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً [سورة التحريم: ٨].

و الوعد الصادق على فعلها:

---

(١١٦) قوله: قال (ص) الندم توبة.

رواه الصدوق (ره) في (عيون أخبار الرضا) الحديث ١، ص ١٣٧، الحديث ٣٥، باب ١١، و رواه ابن شعبة في (تحف العقول) ص ٥٥، و

أخرجه ابن ماجة ج ٢، ص ١٤٢٠، الحديث ٤٢٥٢، و الحاكم في (المستدرك) ج ٤، ص ٢٤٣.

قال الإمام زين العابدين عليه السّلام في الدعا الحادي و الثلاثين في الصحيفة السّجاديّة:

«اللّهمّ إن يكن الندم توبة إليك فأنا أندم النادمين».

و أيضا قال في الدعاء الثامن و الثلاثين:

فصلّ على محمّد و آله، و اجعل ندامتي على ما وقعت فيه من الزلّات، و عزمي على ترك ما يعرض لي من السيّئات، توبة توجب لي محبّتك يا محبّ التوابين.

و روى الصدوق (ره) في الخصال ص ١٦، الحديث ٥٨ باسناده عن الإمام الباقر (ع) قال: كفى بالندم توبة. عنه البحار ج ٦، ص ٢٠، الحديث ٩.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٨٠

عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ [سورة التحريم: ٨].

و الوعد الحتم على تركها:

وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [سورة الحجرات: ١١].

و نحوه ممّا يدلّ على وجوبها.

فأمّا قبولها فمن وجهين:

أحدهما، قوله تعالى:

وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ [سورة الشورى: ٢٥].

و قوله تعالى:

غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ [سورة غافر: ٣].

الثاني، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله «١١٧»:

«أفرح بالتّوبة من العبد المذنب».

و الفرح وراء القبول فهو دليل على القبول.

و قال صلّى اللّه عليه و آله:

---

(١١٧) قوله: قال رسول اللّه (ص).

أخرجه مسلم في صحيحه كتاب التوبة باب ١، الحديث ١ إلى ٨ ج ٤، ص ٢١٠٤، باسناده عن النبيّ (ص) قال: قال اللّه عزّ و جلّ: أنا عند ظنّ عبدي بي، و أنا معه حيث يذكرني، و اللّه! للّه أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالّته بالفلاة. و أخرجه أيضا ابن ماجة ج ٢، ص ١٤١٩.

و روى الكليني (ره) في (اصول الكافي) ج ٢، باب التوبة ص ٤٣٥، الحديث ٨ باسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام، قال: إنّ اللّه تعالى أشدّ فرحا بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته و زاده في ليلة ظلماء فوجدها.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٢٨١

«لو عملتم الخطايا إلى (حتّى) السّماء ثمّ ندمتم عليها لتاب اللّه عليكم» «(١١٨)».

البحث العاشر: فيما عساه يبقى من المقاصد المشكلة في هذه القصّة

: الأوّل: الوديعة و الوصيّة

التّي استأداها اللّه سبحانه من الملائكة في قوله عليه السّلام:

«و استأدى اللّه سبحانه الملائكة وديعته لديهم».

إشارة إلى قوله تعالى:

فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ [سورة الحجر: ٢٩].

فكان تعالى قد عهد إليهم بهذا القول و أوصاهم بمقتضاه ثمّ استأداه منهم بما ذكره عليه السّلام في قوله تعالى:

اسْجُدُوا لِآدَمَ [سورة البقرة: ٣٤].

الثاني، قوله: «فاغتره» إبليس

، فالاغترار طلب الغرّة من آدم و التماسها منه بالوسوسة التّي ألقاها إليه كما سنبيّن معنى الوسوسة إنشاء اللّه.

الثالث، قوله: «دار المقام»

، هي جنّة الخلد و مرافقة الأبرار، إشارة إلى مصاحبة الملائكة: فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ [سورة القمر: ٥٥].

الرّابع، قوله: فباع اليقين بشكّه

، للشارحين.

فيه أقوال: أنّ معيشة آدم كانت في الجنّة على حال يعملها يقينا:

أولّها، و ما كان يعلم كيف معاشه في الدنيا إذا انتقل إليها و لا حاله بعد مفارقة

---

(١١٨) قوله: قال رسول اللّه (ص).

أخرجه ابن في سننه ج ٢، ص ١٤١٩، الحديث ٤٢٤٨ باسناده عن النبيّ (ص) قال:

لو أخطأتم حتّى تبلغ خطاياكم السّماء، ثمّ تبتم لتاب عليكم.

روى الصدوق (رض) في (أمالي) المجلس الحادي عشر الحديث ٣، ص ٤٥، (في حديث طويل) باسناده عن النبيّ (ص) قال:

يغفر اللّه لك و إن كانت مثل الأرضين السبع و بحارها و رمالها و أشجارها و ما فيها من الخلق، يغفر اللّه لك ذنوبك و إن كانت مثل السّماوات و نجومها و مثل العرش و الكرسي.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٢٨٢

الجنّة، ثمّ إنّ إبليس شكّكه في صدق مقاله: «إنّي لكما لمن الناصحين»، فنسي ما كان عنده يقينا ممّا هو فيه من الخير الدائم و شكّ في نصح إبليس فكأنّه باع اليقين بالشكّ بمتابعته، و هي استعارة حسنة على سبيل الكناية عن استيعاض

آدم الشكّ عن اليقين.

الثّاني، قالوا: لمّا أخبره اللّه تعالى عن عداوة إبليس له تيقّن ذلك فلمّا وسوس له إبليس شكّ في نصحه فكأنّه باع يقين عداوته بالشكّ (في ذلك).

الثالث، قول من نزّه آدم عليه السّلام، هاهنا مثل قديم للعرب لمن عمل عملا لا يفيده و ترك ما ينبغي له أن يفعله، تمثّل به أمير المؤمنين عليه السّلام هاهنا و لم يرد أنّ آدم عليه السّلام شك في أمر اللّه تعالى.

الرابع، قوله: «و العزيمة بوهنه». قال ابن عبّاس في قوله تعالى:

وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [سورة طه: ١١٥].

(أي لم نجده) حفظا لما أمر اللّه به.

و قال قتادة: صبرا. و قال ضحاك: صريمة أمر «١١٩».

و حاصل هذه الأقوال يعود إلى أنّه لم يكن له قوّة على حفظ أوامر (ما أمر) اللّه، فكأنه باع العزم الّذي كان ينبغي له، و القوّة التّي كان ينبغي أن يحتفظ بها عن متابعة إبليس بالضعف و الوهن عن تحمّل ما أمر اللّه به.

الخامس، قوله: «دار البليّة»، هي دار الدنيا

، إذ كانت دار المحنة و الابتلاء بمقاساة إبليس و مجاهدته.

---

(١١٩) قوله: و قال ضحاك.

راجع في الأقوال المذكورة: (مجمع البيان) سورة طه الآية ١١٥، و الدر المنثور، و معالم التنزيل ج ٤، ص ٣٤، في الآية المذكورة، و تفسير الطبري جامع البيان ج ١٦، ص ١٦١، أيضا فيها.

الصريمة: إحكام الأمر و إبرامه و العزيمة فيه، و جمعها: الصرائم.

قال ابن منظور في لسان العرب: الصريمة: إحكامك أمرا و عزمك عليه، و يقال: فلان ماضي الصريمة و العزيمة، قال أبو الهيثم: الصريمة و العزيمة واحد.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٨٣

و سجن الصّالحين، كما قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«الدّنيا سجن المؤمن و جنّة الكافر» «١٢٠».

(في بيان التحذير عن المعاصي في قصة آدم و إبليس)

و اعلم، أنّ في هذه القصّة تحذيرا عظيما عن المعاصي، و ذلك من وجوه:

أحدها، أنّ من تصوّر ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزّلّة كان على و جل شديد من المعاصي.

قال الشاعر:

يا ناظرا نورا بعيني راقد (راغد) و مشاهدا للأمر غير مشاهد

تصل الذنوب إلى الذنوب و ترتجي درك الجنان و نيل فوز (نور) العابد

أنسيت أنّ اللّه أخرج آدما منها إلى الدّنيا بذنب واحد

و عن فتح الموصلي انّه قال: كنّا قوما من أهل الجنّة فسبانا إبليس إلى الدنيا فليس لنا إلاّ الهمّ و الحزن حتّى نردّ إلى الدّار التّي أخرجنا منها.

و ثانيها، التحذير عن الاستكبار و الحسد و الحرص، عن قتادة في قوله تعالى:

أَبىٰ وَ اسْتَكْبَرَ [سورة البقرة: ٣٤].

قال: حسد عدوّ اللّه إبليس آدم على ما أعطاه اللّه تعالى من الكرامة فقال: أنا ناريّ و هذا طيني ثمّ ألقى الحرص و الحسد في قلب ابن آدم حتّى حمله على ارتكاب المنهي عنه.

و ثالثها، انّه تعالى بيّن العداوة الشديدة بين ذرّيّة آدم و إبليس، و هذا تنبيه عظيم

---

(١٢٠) قوله: الدّنيا سجن المؤمن.

الحديث معروف عند الشيعة و السنّة، و نقلوه في كتبهم منها:

معاني الأخبار للصدوق باب معنى الموت ص ٢٨٨، الحديث ٣، و صحيح مسلم ج ٤، كتاب الزّهد الحديث ١، ص ٢٢٧٢.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٨٤

على وجوب الحذر منه و من ذريّته كما قال:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [سورة يس: ٦٠].

و أمثال ذلك في هذا الباب كثيرة فاطلب من مظانّها و اللّه المستعان و عليه التكلان.

هذا آخر الطريق الأوّل من الطريقين المذكورين الموعودين في هذا، و الطريق الثاني منهما هو الطريق من حيث التأويل لهذه القصّة، و قد تركناه بأسره لاستغنائنا عنه، لأنّ كلّ يمكن في (من) هذا المقام من التأويل، سيجيء من تأويلنا في موضعه إن شاء اللّه، و الأولى أن يحمل آدم فيما ذكره هاهنا في هذه القصّة على مطلق النوع الإنساني.

و إذا تقرّر هذا فلنرجع إلى المتن مرّة أخرى، و نقول ما قال فيه الشارح قدّس اللّه سرّه.

فقوله: ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض و سهلها و عذبها و سبخها تربة سنّها بالماء حتّى خلصت، و لاطها بالبلّة حتّى لزبت، إشارة إلى أصل امتزاج العناصر، و إنّما خصّ هذين العنصرين و هما الأرض و الماء دون الباقيين لأنّهما الأصل في تكوّن الأعضاء المشاهدة الّتي تدور عليها صورة الإنسان المحسوسة.

و قوله: «حتّى خلصت و حتّى لزبت».

إشارة إلى بلوغها في الاستعداد الغاية الّتي معها تفاض صورة ما يتكوّن منها.

و قوله: «فجبل منها صورة ذات أحناء و وصول و أعضاء و فصول».

إشارة إلى خلق الصّورة الإنسانيّة و إفاضتها بكمال أعضائها و مفاصلها و ما تقوم به صورة.

و قوله: «منها»، الضمير راجع إلى التربة و يفهم من ظاهر اللفظ أنّ الصورة الإنسانيّة هي المفاضة على كمال استعداد التربة من غير واسطة انتقالات أخر في أطوار الخلقة، و إنّما يتمّ ذلك إذا حملنا آدم على أوّل شخص يكون من هذا النوع فأمّا

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۸۵

إذا حملنا على مطلق النوع كان المراد أنّه جبل منها الصّورة الإنسانيّة بوسائط من صور ترددت في أطوار الخلقة كما قال تعالى:

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ [سورة المؤمنون: ۱۲- ۱۳].

فالصورة الإنسانيّة جبلت من النطفة المتولّدة من فضل الهضم الرابع المتولّد من الأغذية، و هي إمّا حيوانيّة أو نباتيّة، و الحيوانيّة تنتهي إلى النباتيّة، و النباتيّة إنّما تتولّد من صفو الأرض و الماء و هي التربة المستعدة للإنبات و ليس في ذلك مخالفة للظاهر، فانّ تلك التربة بعد أن تواردت عليها أطوار الخلقة و أدوار الفطرة صارت منيّا فصدق عليها ان الصّورة الإنسانيّة جبلت منها.

و قوله: «أجمدها حتّى استمسكت و أصلدها حتّى صلصلت».

الضمير في الجملتين راجع إلى الصّورة و ما يتعلّق بها من الأعضاء فالإجماد لغاية الاستمساك راجع إلى بعضها كاللحم و الأعصاب و العروق و أشباهها، و الأصداد لغايته راجع الى بعض آخر كالعظام و الأسنان، و إسناد ذلك إلى المدبّر الحكيم سبحانه لأنّه العلّة الأولى و إن كان هناك لهذه الآثار أسباب قريبة طبيعيّة كالحارّ الغريزي فإنّه المستعدّ لتحريك الموادّ و يتبعه البرد ليسكنه عند الكمالات من الخلق، و كالرطوبة فإنّها هي الّتي تتخلق و تتشكل و يتبعها اليبوسة لحفظ الأشكال و إفادة التماسك.

و قوله: «لوقت معدود و أجل معلوم (و أمد معلوم).

يحتمل أن يراد به أن لكلّ مرتبة من مراتب تركيب بدن الإنسان و انتقاله في أدوار الخلقة وقتا معدودا يقع فيه و أجلا معلوما يتمّ به، و يحتمل أن يراد بالوقت المعدود و الأجل المعلوم الوقت الّذي يعلم اللّه سبحانه انحلال هذا التركيب فيه كما قال تعالى:

وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ [سورة هود: ۱۰۴].

قوله: «ثمّ نفخ فيها من روحه».

أقول: الضمير المؤنّث راجع إلى الصورة، و قد علمت أنّ هذه الإشارة جارية في القرآن الكريم كما قال تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۸۶

فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ [سورة الحجر: ۲۹].

و المراد بالتسوية إفاضة تمام إعداد البدن و تهيئته لقبول النقش، و المراد بالنفخ هاهنا هو إفاضة النفس عليه عند كمال ذلك الاستعداد، و استعمال النفخ هاهنا استعارة حسنة فإنّ النفخ له صورة و هو إخراج الهواء من فم النافخ إلى المنفوخ فيه ليشتعل فيه النار.

و لمّا كانت حقيقة النفخ ممتنعة في حقّ اللّه تعالى وجب العدول إلى حمل لفظه على ما يشبهه، و لمّا كان اشتعال نور النفس في فتيلة البدن عن الجود الإلهيّ المعطي لكلّ قابل ما يستحقّه بحسب محاكاة خيالنا الضعيف ما نشاهد من اشتعال النار في المحل القابل لها عن صورة النفخ، لا جرم حسن التعبير و التجوّز بلفظ النفخ عن إفاضة الجود الإلهيّ للنفس على البدن لما كان لمشابهته المتخيّلة و إن كان الأمر أجلّ ممّا عندنا و أعلى.

و أمّا نسبة الرّوح إلى اللّه.

(في المراد من الرّوح في الآية: نفخت)

فاعلم

أنّ الروح يحتمل أن يراد به أحد ثلاثة معان

: **الأوّل جبرئيل عليه السّلام و هو روح اللّه الأمين**

، و نسبته إليه ظاهرة، و أمّا نسبته النفخ إلى اللّه حينئذ فلكونه العلّة الأولى، و جبرئيل واسطة جعله اللّه تعالى مبدأ في هذا اللفظ لنفخ النفس في صورة آدم منه.

الثّاني، جود اللّه و نعمته و فيضه

الصّادر على آدم و غيره و إنّما كان ذلك روحا لأنّه مبدأ كلّ حياة فهو الروح الكلّيّة الّتي بها قوام كلّ وجود، و نسبته إليه ظاهرة، و تكون من هاهنا للتبعيض.

الثالث، أن يراد بالروح النّفس الإنسانيّة

و تكون من زايدة، و إنّما نسب إليه دون ساير مصنوعاته اللطيفة لما علمت انّ الروح منزّه عن الجهة و المكان و في قوّته العلم بجميع الأشياء و الإطلاع عليها، و هذه مضاهاة و مناسبة بوجه مّا مع العلّة الّتي ليست حاصلة لما عدا هذا الجوهر ممّا هو جسم أو جسمانيّ، فلذلك شرّفها بالإضافة إليه.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٨٧

(في قوى الإنسان باطنيّة و ظاهريّة)

و قوله: «فمثلت إنسانا».

إشارة إلى الصّورة المجبولة، و فيه لطيفة و هي أنّها إنّما كانت إنسانا بنفخ الروح فيها، و لذلك رتّب صيرورتها إنسانا بالفاء على نفخ الروح فيها.

و قوله: «ذا أذهان يجليها»، إشارة إلى ما للإنسان من القوى الباطنة المدركة و المتصرّفة، و معنى إجالتها تحريكها و بعثها في انتزاع الصّور الجزئيّة كما للحسّ المشترك، أو المعاني الجزئيّة كما للوهم.

و قوله: «و فكر يتصرّف بها».

إشارة إلى القوى المفكّرة في آحاد النوع الإنساني و تصرّفها في تفتيش الخزانتين و تركيب بعض مودوعاتها ببعض و تحليلها.

و قوله: «و جوارح يختدمها».

إشارة إلى عامّة الأعضاء الّتي بيّنا أنّها كلّها خدم للنفس، و الأدوات الّتي تقبّلها (تقلّبها) من تلك الأدوات يشبه ان يختص

بالأيدي كقوله تعالى:

فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلىٰ مٰا أَنْفَقَ فِيهٰا [سورة الكهف: ٤٢].

و يمكن أن يكون أعمّ من ذلك كالبصر و القلب لقوله عليه السّلام:

«يا مقلّب القلوب و الأبصار» (١٢١). فيصدق عليها اسم التقليب.

(١٢١) قوله: يا مقلّب القلوب.

روى السيّد الجليل ابن طاوس في كتابه (فلاح السائل) في ذكر ما يقرأ في نوافل الزّوال ص ١٢٨، باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: اقرأ في صلاة الزوال ...

إلى أن قال عليه السّلام: فإذا فرغت قلت (فقل) سبع مرّات: اللّهم مقلّب القلوب و الأبصار، ثبت قلبي على دينك و دين نبيّك، و لا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، و هب لي من-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٨٨

-لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب، و أجرني من النّار برحمتك. عنه البحار ج ٨٧ ص ٥٧، الحديث ١١.

هذا ما يقرأ بعد الفراغ عن نوافل الصلاة الظهر، و أمّا ما يقال له: دعاء الغريق فهو ما يلي:

روى الصدوق (ره) في (كمال الدّين) باب ٣٤، ج ٢، ص ٢٠، الحديث ٥٠، باسناده عن عبد اللّه بن سنان، عن الإمام الصادق عليه السّلام، قال: شبهة سيصيبكم فتبقون بلا علم يرى، و إمام هدى، و لا ينجو منها إلاّ من دعا بدعاء الغريق، قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: «يا اللّه يا رحمن يا رحيم، يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»، فقلت: «يا مقلّب القلوب و الأبصار ثبّت قلبي على دينك» فقال: إنّ اللّه عزّ و جلّ مقلّب القلوب و الأبصار و لكن قل كما أقول: يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك.

أقول: نستفيد من هذا الحديث توقيفيّة الأدعية الّتي رويت قراء تها في الأوقات أو الحالات أو الأمكنة الخاصّة، أي يجب أن نلتزم في القراءة بالألفاظ المأثورة بلا زيادة و نقصان.

تلاحظ الآيات التالية أنّها تبيّن لنا: انّه سبحانه و تعالى مقلّب القلوب و الأبصار إلى الهداية تارة و إلى الظلالة أخرى و تبيّن أيضا إنّه تعالى لما ذا يقلّب القلوب و كيف يقلّب.

و معنى تقليبه تعالى الإنسان للظلالة: عدم هدايته بالهداية الرحيميّة، أي سلبه الهداية الرّحيميّة الّتي تختصّ للمؤمنين و المتّقين، و لمن اهتدى إلى هدايته الرحمانيّة الّتي تشمل الناس قاطبة، و هذا يعني إغلاق أبواب الهداية الثانويّة الكفائيّة و الوهبيّة في وجه من يريد عدم هدايته، و سلب توفيق وصوله إليها.

و أمّا الآيات فهي:

إِنّٰا هَدَيْنٰاهُ السَّبِيلَ إِمّٰا شٰاكِراً وَ إِمّٰا كَفُوراً [سورة الإنسان: ٣].

فَرِيقاً هَدىٰ وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاٰلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيٰاطِينَ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ

[سورة الأعراف: ٣٠].

وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [سورة العنكبوت: ٦٩].

فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً [سورة الأنعام: ١٢٥].-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٨٩

و قوله: «و معرفة يفرق بها بين الحقّ و الباطل».

إشارة إلى استعداد النفس لدرك المعقولات الثانية المسمّى عقلا بالملكة بحسب مالها من المعارف الأولى، أعني البديهيّات فإنّ الحقّ و الباطل أمور كلّيّة و ليس للقوى البدنيّة في إدراك الأمور الكلّيّة حظّ، و يحتمل أن يشير بالمعرفة إلى القوّة الاستعداديّة الأولى للإنسان المسمّاة عقلا هيولانيّا.

و قوله: «و الأذواق و المشام و الألوان و الأجناس».

نبّه هاهنا على ثلاثة أمور:

أحدها أنّ للإنسان آلة بها يدرك المذوقات، و أخرى بها يدرك المشمومات، و أخرى بها يدرك الألوان، و قد بيّنا ذلك.

الثاني، نبّه على أنت النّفس مدركة للجزئيّات بواسطة هذه القوى، إذ عدّها في نسق ما تتصرّف فيه النفس و تفرّق بينه و بين غيره.

الثالث، انّه أخّر قوله: «الأجناس»، تنبيها على أنّ النفس تنتزع الأمور الكلّيّة من تصفّح الجزئيّات فإنّ الأجناس أمور كلّيّة و النفس بعد إدراك الجزئيّات و تصفّحها تتنبّه لمشاركات بينها و مباينات فتنتزع منها تصوّرات كلّيّة و تصديقات كلّيّة، و كأنّه عنى بالأجناس هاهنا الأمور الكلّيّة مطلقا لا بعضها كما هو في الإصطلاح العلمي.

و قوله: «معجونا بطينة الألوان المختلفة».

النصب على الحال من قوله إنسانا أو الصفة له، و المراد الإشارة إلى أنّ اختلاف

- وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ [سورة الأنعام: ١١٠].

أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً [سورة الجاثية: ٢٣].

إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ النّٰاسَ شَيْئاً وَ لٰكِنَّ النّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [سورة يونس: ٤٤].

رَبَّنٰا لاٰ تُزِغْ قُلُوبَنٰا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنٰا وَ هَبْ لَنٰا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّٰابُ [سورة آل عمران: ٨].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٩٠

أبدان النوع بعضها من بعض بالألوان، بسبب قوّة استعداداتها لذلك كما قال (ص):

فجاء منهم الأحمر و الأبيض و الأسود، كما سبق.

و طينة الألوان: أصلها، و عجنه بها: مزجه بها، و تهيّئه و إعداده لقبولها على اختلافها، و كذلك الحال في البدن الواحد فانّه ليس لجملة أجزائه لون واحد، فإنّ امتزاج بعض الأعضاء يقتضي أن يكون أبيض كالعظام و الأسنان، و بعضها أحمر كالدم، و بعضها أسود كالحدقة و الشعر، و كذلك اختلاف الأشخاص في الصّفات المكنّى بها عن الاختلاف الواردة في تمام الخبر من قوله:

«و السهل و الحزن و الخبيث و الطيّب».

يرجع إلى أنّ الأرض لمّا كانت أكثر العناصر شركة في هذه الأبدان كان لاختلاف بقاعها أثر تامّ في تفاوت الامتزاج لقبول الأخلاق بالسّهو و الحزونة و الخبيث و الطيّب.

و قوله: «و الأشباه المؤتلفة و الأضداد المتعادية و الأخلاط المتباينة من الحرّ و البرد و البلّة و الجمود (و المساءة و السرور)».

أمّا الأشباه المؤتلفة فكالعظام و الأسنان و أشباهها فإنّها أجسام متشابهة ائتلف بعضها مع بعض، و بها قامت الصورة البدنيّة و امتزجت بطينتها، و أمّا الأضداد المتعادية فكالكيفيّات الأربع الّتي ذكرها عليه السّلام، و هي الحرارة و البرودة و الرطوبة الّتي هي البلّة، و اليبس الّذي هو الجمود، و عبّر عنه بلازمه و هو الجمود على ان الجمود في اللغة هو اليبس أيضا، و أمّا الأخلاط المتباينة فهي الأخلاط الأربعة، كما عرفت من الدم و البلغم و الصّفراء و السوداء، و أمّا المساءة و السرور فهي من الكيفيّات النفسانيّة و ماهيّة كلّ منهما ظاهرة.

(في سبب السرور في الإنسان)

و أمّا أسبابها فاعلم، انّ للسرور سببا جسمانيّا معدّا و هو كون حامله الّذي هو الروح النّفساني على كمال أحواله في الكمّيّة لأنّ زيادة الجوهر في الكم يوجب زيادة

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۹۱

القوّة في الكيفيّة و هي ان يكون معتدلا في اللطافة و الغلظ، و أن يكون شديد الصفا.

و أمّا السبب الفاعلي له فالأصل فيه تخيّل الكمال كالعلم و القدرة و الإحساس بالمحسوسات الملائمة و التمكّن من تحصيل المرادات و القهر و الاستيلاء على الغير و الخروج عن المؤلم و تذكر الملذّات. و أمّا أسباب الغم فمقابلات هذه، أمّا السّبب المعدّ الجسمانيّ فهو إمّا قلّة الروح كما للناقهين و المنهوكين بالأمراض و (الشيوخ) و المشايخ، و أمّا غلظه (غلظة) فكما للسوداويين، و أمّا رقّته (رقّة) فكما للنساء، و أمّا الفاعلي فمقابل أسباب السرور، و قد يشتدّ كلّ منهما بعد الأسباب المذكورة بتكرّره فيصير السرور أو الغمّ ملكة، و يسمّى صاحبه مفراحا أو مخرانا، و مقصوده عليه السّلام التنبيه على أنّ طبيعة الإنسان فيها قوّة قبول و استعداد لهذه الكفيّات و أمثالها، و تلك القوّة هي المراد بطينة المساءة و السّرور، و الفرق بينها و بين الاستعداد أنّ القوّة تكون على الضدّين و الاستعداد لا يكون إلّا لأحدهما.

قوله: «و استأدى اللّه سبحانه الملائكة وديعته لديهم، و عهد وصيّته إليهم إلى قوله:

إلّا إبليس».

أقول: لمّا كان الّذي يشير إليه كلّ إنسان بقوله أنا هو النّفس الناطقة كان آدم عندهم عبارة عن النّفس الناطقة ثمّ قالوا: المراد بالملائكة الّذين أمروا بالسّجود لآدم هي القوى البدنيّة الّتي أمرت بالخضوع و الخشوع لتكرمة النّفس العاقلة، و الانقياد تحت حكمها و هو الأمر الّذي لأجله خلقوا، أمّا عهد اللّه لديهم و وصيّته إليهم فهو المشار إليه بقوله تعالى:

إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنِّي خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ [سورة ص: ٧٢].

و الخطاب هاهنا خطاب الحكمة الإلهيّة بالقضاء الأزلي قبل الوجود و الاستيذاء لذلك العهد و تلك الوصيّة هو طلب المأمور به أوّلا من الانقياد، و الخضوع من تلك القوى بعد الوجود على ألسنة الرّسل عليهم السّلام بالوحي المنزل و هو قوله:

«فاسجدوا لآدم»، و قوله: «فسجدوا»، إشارة إلى القوى المطيعة لنفوسها العاقلة في أشخاص عباد اللّه الصّالحين، قوله: «إلاّ إبليس» و قبيله إشارة إلى الوهم و سائر

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٩٢

القوى التابعة له في معارضة العقل في أشخاص الكفار و الفاسقين عن أوامر اللّه سبحانه، و قد عرفت أنّ الوهم رئيس القوى البدنيّة فهي إذن عند معارضته للعقل و متابعتها له جنود إبليس و قبيله.

و أمّا قوله: «اعترته الحميّة، و غلبت عليه الشّقوة، و تعزّز بخلقة النّار و استوهن خلق الصلصال».

فقالوا: إنّ المراد بكون إبليس و قبيله (جنوده) خلقوا من نار، أنّ الأرواح الحاملة لهذه القوى كما عرفت أجسام لطيفة تتكوّن عن لطافة الأخلاط و هي حارّة جدّا (حدّا) مائلة إلى (في) الإفراط، و النّاريّة و الهوائيّة عليها أغلب و تولّدها عنهما أسهل و هي آخر أجزاء البدن، و كذلك القلب الّذي هو منبعها فكانت تلك الأرواح كالأبدان لهذه القوى، فكذلك نسب إبليس إلى النار فقال تعالى حكاية عنه:

خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ [سورة الأعراف: ١٢].

و قال:

وَ الْجَانَّ خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نٰارِ السَّمُومِ [سورة الحجر: ٢٧].

أي قدّرنا قبل وجوده أن تكون الناريّة و الهوائيّة على وجود أغلب.

و قال بعضهم أنّه لمّا كانت النّار ألطف العناصر و كانت هذه القوى و أرواحها ألطف الأمور الجسمانيّة، و تكوّنها عن ألطف الأخلاط كانت نسبتها إلى النّار أولى من سائر العناصر لمكان المشابهة في اللطافة، فجاز أن يطلق على أصله أنّه نار.

(في بيان سبب استكبار إبليس عن السجود)

لا يقال: إذا كان آدم هو النفس الناطقة فما معنى قول إبليس و خلقته من طين.

لأنّا نقول: كما صدق أن إبليس مخلوق من نار بمعنى أنّ الغالب على الروح الحامل له هو عنصر النار كذلك يصدق أنّ آدم من طين بمعنى أنّ الغالب على بدنه الأرضيّة، و أيضا فإنّ الوهم لا يدرك إلاّ المعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوسات فلا يصدق حكمه و مساعدته إلاّ فيما كان محسوسا، و لمّا ثبت أنّ النفس جوهر مجرّد لم يكن إعتقاد

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٩٣

إبليس أنّ الإنسان شيء غير هذا البدن المتكوّن عن الطين، إذا ثبت ذلك فنقول:

اعتراء الحميّة و التعزّز بالانتساب إلى عنصر النار نسبة مجازيّة، إذا العادة جارية بأن يأنف الإنسان من الأصل الناقص و أن يفتخر و يتعزّز بالأصل الشريف و الانتساب إليه، فكان لسان حال إبليس و القوى المتابعة له يقول على جهة الاستنكار و الاستكبار: أ أسجد لبشر خلقته من صلصال من حماء مسنون، و أنا مخلوق من النّار الّتي هي أشرف العناصر، قالوا: و

لمّا علم اللّه ذلك من حال إبليس لعنه و طرده و أخرجه من الجنّة، و ذلك قوله تعالى:
فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ [سورة الحجر: ۳۴- ۳۵].
قالوا: و ذلك انّك علمت أنّ الجنّة تعود إلى معارف الحقّ سبحانه، و الابتهاج بمطالعة أنوار كبريائه، و درجات الجنّة هي المراتب الّتي ينتقل العقل فيها في مقامات السلوك إلى حظائر القدس و مجاورة الملاء الأعلى، و علمت أنّ حال الوهم قاصر عن الانتقال على تلك المراتب فطرده و لعنه و تحريم الجنّة عليه يعود إلى تكوينه على الطبيعة الّتي هو عليها القاصرة عن إدراك العلوم الكلّيّة الّتي هي ثمار الجنّة و قطوفها و القضاء عليه بذلك قالوا: و ممّا ينبّه على ذلك قوله:
رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [سورة الحجر: ۳۹- ۴۰].
أي بما خلقتني على هذه الجبلّة لا اهتدي لدخول الجنّة و لا أتمكّن منها لأجذبنّهم إلى المشتهيات و تزيين الملذّات الجاذبة لهم عن عبادتك حتّى لا يهتدوا إلى الجنّة الّتي لأجلها خلقتهم و لا يلتفتوا إليها إلّا من عصمته منّي و جعلت له سلطانا على قهري و غلبتي و هم عبادك المخلصون أي النفوس الكاملة المطهّرة عن متابعة قواها المسلّط على قهر شياطينها و قهرها و كذلك قوله:
قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ [سورة الحجر: ۳۶].
فإنّه لمّا كان البعث الأوّل هو مفارقة النّفوس لأبدانها و انبعاثها إلى عالمها و كانت طبيعة الوهم قاضية بمحبّة البقاء في دار الدنيا إذ لا حظّ له في غيرها أحسن من لسان

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۲۹۴

حاله أنّ يقول: «ربّ انظرني إلى يوم يبعثون».
و قوله: فأعطاه اللّه النظرة، لمّا كان الوهم باقيا في البدن هو و جنوده إلى يوم البعث حسن من لسان الحكمة الإلهيّة أن يقول إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم و ذلك معنى إعطائه النظرة، قوله: «استحقاقا السخطة، و استتماما للبليّة، و إنجازا للعدة».
فقد عرفت أنّ البليّة نصب على المفعول له، ثمّ إنّ إفساد (فساد) الوهم و ابتلاء الخلق به و الشرّ الصادر عنه أمور داخلة في القضاء الإلهي بالعرض فيصدق عليه أنّه مراد و أنّ الإنظار و الإمهال له و كذلك استحقاق السخطة و إنجاز العدة، و اطلاق لفظ السخطة استعارة فإنّ السخط لمّا كان عبارة عن حالة للإنسان يستلزم وجود مغضوب عليه غير مرضيّ بأفعاله، و كان حال إبليس في إنظار اللّه إيّاه و فسوقه عن أمر ربّه مستلزما لإعراض اللّه سبحانه عنه و عمّن عصاه بمتابعته كان هناك نوع مشابهة، فحسن لأجلها إطلاق لفظ السخطة أمّا العدة فتعود إلى قضاء الحكمة الإلهيّة ببقاء الوهم إلى يوم البعث، و إنجازها يعود إلى موافقة القدر لذلك القضاء، و قال بعضهم: إنّه لمّا كان هاهنا صورة مطرودة و مبعّد و ملعون حسن إطلاق (لفظ) السخطة و استحقاقها و انّه إنّما انظر لأجلها و هو ترشيح للاستعارة.
قوله: «ثمّ أسكن اللّه سبحانه آدم دارا أرغد فيها عيشه، و آمن فيها محلّته و حذّره إبليس و عداوته».

(في طهارة الإنسان بالفطرة)

أقول: الدار الّتي أسكن فيها آدم هي الجنّة و الإشارة هاهنا إلى (أنّ) الإنسان من أوّل زمان إفاضة القوّة العاقلة عليه إلى حين استرجاعها مادام مراعيا لأوامر الحقّ سبحانه غير منحرف عن فطرته الأصليّة و لا معرض عن عبادته و لا ملتفت إلى

غيره فإنّه في الجنّة و إن كانت الجنّة على مراتب كما قال تعالى:

لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ [سورة الزمر: ٢٠].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٩٥

و لذلك قال صلّى اللّه عليه و آله:

كلّ مولود يولد على الفطرة و إنّما أبواه هما اللذان يهوّدانه و ينصّرانه «١٢٢».

إذ كانت نفسه قبل الجواذب الخارجيّة عن القبلة الحقيقيّة غير مدنّسة بشيء من الإعتقادات الفاسدة و الهيئات الرديئة، و ان كانت المرتبة السامية و الغرفة العالية إنّما تنال بعد المفارقة، و استصحاب النّفس لأكمل زاد، و أمّا إرغاد العيش فيعود إلى ابتهاجه بالمعقولات و المعارف الكلّيّة و أمان المحلّة أمان مكانه في الجنّة أن يعرض له خوف أو حزن مادام فيها، و أمّا تحذيره من إبليس و عدواته فظاهر من الأوامر الشرعيّة و لسان الوحي ناطق كما قال تعالى:

إِنَّ هٰذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ [سورة طه: ١١٧].

---

(١٢٢) قوله: كلّ مولود يولد.

حديث معروف عند الفريقين، أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) ج ٦، ص ٢٠٢، باب الولد يتبع أبويه الكفر، و ذكره أيضا السّيوطي في (الجامع الصغير) ج ٢٨٧٢، الحديث ٦٣٥٧.

و روى الصدوق (ره) في (التوحيد) باب فطرة اللّه الحديث ٩، ص ٣٣٠، بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام، قال: سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ:

حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ [سورة الحج: ٣١].

و عن الحنفيّة، فقال: هي الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها لا تبديل لخلق اللّه، و قال:

«فطرهم اللّه على المعرفة»، قال زرارة: و سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ:

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ.

قال: أخرج من ظهر آدم ذرّيّته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذرّ فعرّفهم و أراهم صنعه، و لولا ذلك لم يعرف أحد ربّه، و قال: قال رسول اللّه (ص) «كلّ مولود يولد على الفطرة».

يعني على المعرفة بأنّ اللّه عزّ و جلّ خالقه، فذلك قوله:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ [سورة لقمان: ٢٥- و سورة الزمر: ٣٨]. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٢٩٦

(في بيان وجه عداوة إبليس مع آدم (ع))

و وجه العداوة ظاهر ممّا قلنا، فإنّ النفس لمّا كانت من عالم المجرّدات و كان الوهم بطبعة منكرا لهذا القسم من الممكنات كان منكرا لما تأمر به النّفس من الأمور الكلّيّة الّتي لا حظّ له في إدراكها و ذلك من مقتضيات العداوة، و لأنّ نظام أمر النفس و مصلحتها لا يتمّ إلاّ بقهر الوهم و القوى البدنيّة عن مقتضيات طباعها و تمام مطالب القوى لا يحصل

إلاّ بانقهار النفس فكانت بينهما مجاذبة طبيعية و عداوة أصليّة إذ لا معنى للمعاداة إلاّ المجانبة لما يتصوّر كونه موذيا.

قوله: «فاغترّه عدوّه نفاسة عليه بدار المقام و مرافقة الأبرار».

أقول: يقال: إنّ اللّه تعالى لمّا حذّره إبليس و عداوته كان قد نهاه عن أكل شجرة يقال أنها شجرة البرّ، و أعلمه أنّه إن أكل منها كان ظالما لنفسه مستحقّا لسخط اللّه عليه، و ذلك قوله تعالى:

وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونٰا مِنَ الظّٰالِمِينَ [سورة البقرة: ۳۵].

قالوا: و تلك الشجرة هي الشجرة الخبيثة الّتي اجتثّت من فوق الأرض مالها من قرار و هي عائدة إلى المشتهيات الدنيويّة الفانية و اللذّات البدنيّة الخارجة عن المحدودات في أوامر اللّه، و تناولها هو العبور فيها إلى طرف الإفراط عن وسط القانون العدل.

و أمّا كونها شجرة البرّ فقالوا: إنّ البرّ لمّا كان هو قوام الأبدان و عليه الاعتماد في أنواع المطعومات و الملاذ البدنيّة حسن أن يعبّر به عنها، فيقال: هي شجرة البرّ كناية عن الفرع بالأصل.

فأمّا اغترار إبليس له فاعلم، أنّ حقيقة الغرور هو سكون النّفس إلى ما يوافق الهوى و يميل إليه بالطبع عن شبهة و خدعة من إبليس، فاغتراره يعود إلى استغفال النفس بالوسوسة الّتي حكى اللّه تعالى عنها بقوله:

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطٰانُ قٰالَ يٰا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لاٰ يَبْلىٰ [سورة طه: ۱۲۰].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۲۹۷

(في بيان حقيقة الوسوسة)

و لنبحث عن حقيقة الوسوسة فنقول:

انّ الفعل إنّما يصدر عن الإنسان بواسطة أمور مترتبة ترتيبا طبيعيًا، أولّها تصوّر كون الفعل ملائما و هو المسمّى بالداعي، ثمّ إنّ ذلك الشعور يترتّب عليه ميل النفس إلى الفعل المسمّى ذلك الميل إرادة فيترتّب على ذلك الميل حركة القوّة النزوعيّة المحرّكة للقوّة المسمّاة القدرة المحرّكة للعضل إلى الفعل.

إذا عرفت ذلك فنقول:

صدور الفعل عن مجموع القدرة و الإرادة أمر واجب فليس للشّيطان فيه مدخل، و وجود الميل عن تصوّر كونه نافعا و خيرا أمر لازم فلا مدخل للشّيطان أيضا فيه فلم يبق له مدخل إلاّ في إلقاء ما يتوهّم كونه نافعا أو لذيذا إلى النفس ممّا يخالف أمر اللّه سبحانه فذلك الالتقاء في الحقيقة هو الوسوسة و هو عين ما حكى اللّه سبحانه عنه بقوله:

وَ مٰا كٰانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي [سورة إبراهيم: ۲۲].

(في بيان سبب متابعة الشيطان)

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ متابعة إبليس يعود إلى انقياد النفس لجذب الوهم و القوى البدنيّة الّتي هي الشيطان عن الوجهة المقصودة و القبلة الحقيقيّة، و هي عبادة الحقّ سبحانه، و فتنتها لها بتزيين ما حرّم اللّه عليها، فأمّا ما يقال: إنّ إبليس لم يكن له تمكن من دخول الجنّة، و إنّما توسّل بالحيّة و دخل في فمها إلى الجنّة حتّى تمكّن من الوسوسة لآدم عليه السّلام و اغتراره، فقالوا:

المراد بالحيّة هي القوّة المتخيّلة، و ذلك أنّ الوهم إنّما يتمكّن من التصرف و بعث القوى المحرّكة كالشهوة و الغضب الّتي هي جنوده و شياطينه على طلب الملاذ البدنيّة و الشهوات الحسيّة الدنيّة، و جذب النّفس إليها بتصوير كونها لذيذة نافعة بواسطة

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٢٩٨

القوّة المتخيّلة، و وجه تشبيهها بالحيّة أنّ الحيّة لمّا كانت لطيفة سريعة الحركة تتمكّن من الدخول في المنافذ الضيّقة و تقدر على التصرّف الكثير، و هي مع ذلك سبب من أسباب الهلاك بما تحمله من السمّ و كانت المتخيّلة في سرعة حركاتها و قدرتها على التصرّف السريع، و الإدراك ألطف من سائر القوى، و هي الواسطة بين النفس و الوهم، كانت بما اشتملت عليه من تحمّل كيد إبليس و إلقاء الوسوسة بواسطتها إلى النفس سببا قويّا للهلاك السرمد و العذاب المؤبّد، لا جرم كان أشبه ما يشبه به الحيّة لما بينهما من المناسبة فحسن إطلاق لفظ الحيّة عليها.

قوله: «نفاسة عليه»، ترشيح للاستعارة لأنّه لمّا كان جذب الوهم للنفس إلى الجنّة السافلة مانعا لها من الكرامة بدار المقامة و مستنزلا لها عن درجة مرافقة الملأ الأعلى، و كان ذلك أعظم ما تنفس به كما قال تعالى:

وَ فِي ذٰلِكَ فَلْيَتَنٰافَسِ الْمُتَنٰافِسُونَ [سورة المطفّفين: ٢٦].

و عرفت أنّ ذلك الجذب عن صورة معاداة كما سبق و كان من لوازم المعاداة النفاسة على العدوّ بكلّ ما يعدّ كمالا له لا جرم حسن اطلاق النفاسة هاهنا ترشيحا لاستعارة العداوة، (و النصب على المفعول له).

قوله: «فباع اليقين بشكّه و العزيمة بوهنه».

أي لمّا حصلت الوسوسة و الاغترار لآدم فانقاد لها كان قد بدّل ما تيقّنه و من أنّ شجرة الخلد و الملك الّذي لا يبلي هو نور الحقّ و البقاء في جنّته و دوام مطالعة كبريائه بالشكّ فيه بواسطة وسوسة إبليس، و ذلك أنّ الأمور الموعودة من متابع الآخرة و ما أعدّه اللّه لعباده الصالحين أمور خفيت حقائقها على أكثر البصائر البشريّة، و إنّما الغاية في تشويقهم إليها أن يمثّل لهم بما هو مشاهد لهم من اللذّات البدنيّة الحاضرة فترى كثيرا منهم لا يخطر بباله أن يكون في الجنّة أمر زائد على هذه اللّذات فهو يجتهد في تحصيلها، إذ لا يتصوّر وراءها أكثر منها، ثمّ إن صدق بها على سبيل الجملة تصديقا للوعد الكريم فإنّه لا يتصوّر كثير تفاوت بين الموعود به و الحاضر، بحيث يرجّح ذلك التفاوت عنده ترك الحاضر لما وعد به، بل يكون ميل طبعه إلى الحاضر، و توهّم كونه أنفع و أولى به أغلب عليه، و أن تيقّن بأصل عقله أنّ الأولى به و أنفع له و الأبقى هو

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٢٩٩

متاع الآخرة، فتارة يطرأ على ذلك اليقين غفلة عنه و نسيان له بسبب الاشتغال باللّذات الحاضرة و الانهماك فيها، و ذلك معنى قوله تعالى: فَنَسِيَ.

و تارة لا تحصل الغفلة الكلّيّة بل يكون الوهم المذكور قويّا فيعارض ذلك اليقين بحيث يوجب في مقابلته شبهة و شكّا، و ذلك معنى قوله عليه السّلام: فباع اليقين بشكّه، و لا منافاة بين قوله تعالى: فَنَسِيَ، و بين الشكّ هاهنا.

و قوله: و العزيمة بوهنه، أي تعوّض من العزم و التصميم الّذي كان ينبغي له في طاعة الحقّ سبحانه بالضعف و التعاجز عن تحمّله كما قال تعالى:

وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [سورة طه: ١١٥].

و اطلاق لفظ البيع هاهنا استعارة حسنة إذ كان مدار البيع على استعاضة شيء بشيء سواء كان المستعاض أجلّ أو أنقص، و مثله قوله تعالى:
أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا بِالْآخِرَةِ [سورة البقرة: ٨٦].
فَمٰا رَبِحَتْ تِجٰارَتُهُمْ وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ [سورة البقرة: ١٦].
و قوله: «فاستبدل بالجذل و جلا»، و بالاغترار ندما، إلى قوله: «و تناسل الذّرّيّة».
فيه تقديم و تأخير، و تقديره: و العزيمة بوهنه، فأهبطه اللّه إلى دار البليّة و تناسل الذريّة، فاستبدل بالجذل و جلا و بالاغترار ندما، ثمّ أناب إلى اللّه فبسط له في توبته و لقاه كلمة رحمته و وعده المردّ إلى جنّته، و ذلك لأنّ الإهباط عقيب الزلّة، و استبدال الجذل بالوجل بعد الإهباط من الجنّة، و الإخراج منها، و قد ورد القرآن الكريم بهذا النظم في سورة البقرة، و هو قوله:
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰانُ عَنْهٰا فَأَخْرَجَهُمٰا مِمّٰا كٰانٰا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا [سورة البقرة: ٣٦].
ثمّ قال عقيبه:
فَتَلَقّٰى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰاتٍ فَتٰابَ عَلَيْهِ [سورة البقرة: ٣٧].
و ورد أيضا على النظم الّذي ذكره عليه السّلام في سورة طه و ذلك قوله:
وَ عَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ ثُمَّ اجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَتٰابَ عَلَيْهِ وَ هَدىٰ قٰالَ اهْبِطٰا [سورة طه: ١٢١- ١٢٣].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٠٠

فقدم الاجتباء و التوبة على الإهباط و كلاهما حسن، قالوا: و معنى الإهباط له هو انزاله عن دار كرامته و استحقاق إفاضة نعيم الجنّة، و ذلك أنّ النفس الناطقة إذا أعرضت عن جناب الحق سبحانه، و التفتت إلى متابعة الشياطين و أبناء الجنّ و موافقة إبليس بعدت عن رحمة اللّه و تسوّد لوحها عن قبول الأنوار الإلهيّة، و امّا دار البليّة و تناسل الذريّة، فإشارة إلى الدنيا، فإنّ الإنسان إذا التفت بوجهه إليها، و أقبل بكلّيه عليها هبط من أعلى علّيّين إلى أسفل سافلين، و لم يزل ممنوّا ببلاء (على) أثر إذ لا يقدّم في كلّ لحظة و وقت فوت مطلوب أو فقد محبوب يطلب ما لا يدرك، و يجد ما لا يطلب و كفى بانقطاعه عن اللّه تعالى بالتفاته إليها بلاء و أعظم به شفاء إذ كان سبب البعد عن رحمته و الطرد عن أبواب جنّته.
فإن قلت: لم ذكر تناسل الذريّة في معرض الإهانة لآدم مع أنّه في الحقيقة من الأمور الخيريّة المندرجة في سلك العناية الإلهيّة، فإنّ به بقاء النوع و دوام الإفاضة.
قلت: إنّه و إن كان كذلك إلاّ أنّه لا نسبة له في الحقيقة إلى الخير الّذي كان في الجنّة، فإنّ تناسل الذريّة خير إضافيّ عرضيّ بالنسبة إلى الكمال الّذي يحصل لأبناء النوع و ذريّته.
ثمّ النسبة إن حصلت فنسبة (أخص) أخسّ إلى أشرف، فإنّ إنزاله و إهباطه عن استحقاق تلك المراتب السامية و الإفاضات العالية إلى هذه المرتبة الّتي يشارك فيها البهيمة و سائر أنواع الحشرات نقصان عظيم و خسران مبين.
قوله: «و استبدل بالجذل و جلا، و بالاغترار ندما.
ظاهر، فإنّ المقبل بوجهه على عباده الحقّ سبحانه المستشرق لأنوار كبريائه المعرض عمّا سواه أبدا مسرور مبتهج فإذا أعرض عمّا يوجب السرور و الفرج و التفت إلى خسائس الأمور بسبب شيطان قاده إليها و زيّنها لعينه فانكشف عنه سرّ اللّه و بدت سوأته للناظرين بعين العاقبة من عباد اللّه الصالحين، ثمّ أخذت بصبعه العناية الإلهيّة و تداركته الرحمة

الربّانيّة فانتبه من رقدة الغافلين في مراقد الطبيعة فرأى السلاسل و الأغلال قد أحاطت به و شاهد الجحيم مسعّرة عن جنبتي الصراط المستقيم، و تذكّر قوله تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۰۱

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏ وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ [سورة طه: ۱۲۳- ۱۲٤].

فلا بدّ و أن يصبح و جلا قلقا يقلّب كفّيه حسرة و ندما و جلا ممّا يلحقه من سخط اللّه نادما على ما فرّط في جنب اللّه.

و قوله: «ثمّ بسط اللّه سبحانه له في توبته، و لقّاه كلمة رحمته».

فالمراد الإشارة إلى أنّ الجود الإلهي لا بخل فيه، و لا منع من جهته، و إنّما النقصان من جنبه (جهة) القابل و عدم استعداده فإذا استعدّت النفس لتدارك رحمة اللّه و جذبتها العناية الإلهيّة من ورطات الهلاك الأبدي فأيّدتها بالمعونة على إبليس و جنوده و بصّرتها بمفاتح أفعاله (بمقابح أحواله) و ما يدعوا إليه، فأخذت في مقاومته و الترصّد لدفع مكائده، فذلك هو معنى إنابتها و توبتها، و أمّا كلمة رحمة اللّه الّتي لقّاها آدم فتعود إلى السوانح الإلهيّة الّتي (تنسخ) تسنخ للعبد فتكون سببا لجذبه عن مهاوي الهلاك و توجيهه عن الجنّة السافلة إلى القبلة الحقيقيّة و إمداده بالملائكة حالا فحالا و رفعه في مدارج الجلال الّتي هي درجات الجنّة.

و قوله: «و وعده المردّ إلى جنّته».

إشارة إلى وعد القضاء الإلهيّ الناطق عنه لسان الوحي الكريم:

فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏ [سورة طه: ۱۲۳].

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ [سورة التحريم: ۸].

و كذلك سائر أنواع وعد التائبين فهذا ما يتعلّق بهذه القصّة من التاويل، و باللّه العصمة و التوفيق.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۰۲

الفصل الرابع في بعث الأنبياء و الرّسل من ذريّته و الكتب النازلة عليهم من اللّه تعالى

قوله: «و اصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، و على تبليغ الرّسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد اللّه إليهم فجهلوا حقّه، و اتّخذوا الأنداد معه، و اجتالهم الشياطين عن معرفته، و اقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، و واتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكّرونهم منسيّ نعمته، و يحتجّوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول، و يروهم آيات (المقدرة) القدرة (المقدّرة): من سقف فوقهم مرفوع، و مهاد تحتهم موضوع، و معايش تحييهم، و آجال تفنيهم، و أوصاب تهرمهم، و أحداث تتابع عليهم، و لم يخل اللّه سبحانه خلقه من نبيّ مرسل، أو كتاب منزل، أو حجّة لازمة، أو محجة قائمة: رسل لا تقصّر بهم قلّة عددهم، و لا كثرة المكذّبين لهم: من سابق سمّي له من بعده أو غابر عرّفه من قبله: على ذلك نسلت القرون، و مضت الدهور، و سلفت الآباء، و خلفت الأبناء.

إلى أن بعث اللّه سبحانه محمّدا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، لإنجاز عدته، و تمام (إتمام) نبوّته، مأخوذا على النبيّين ميثاقه، مشهورة سماته، كريما ميلاده، و أهل الأرض يومئذ ملل متفرّقة، و أهواء منتشرة، و طرائق متشتّتة، بين مشبّه للّه

بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره، فهداهم به من الضّلالة، و أنقذهم بمكانه من الجهالة، ثمّ اختار سبحانه لمحمّد صلّى اللّه عليه و آله لقاءه، و رضي له ما عنده، و أكرمه عن دار الدنيا، و رغب به عن مقام (مقارنة) البلوى فقبضه إليه كريما صلّى اللّه عليه و آله، و خلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملا، بغير طريق واضح، و لا علم قائم، كتاب ربّكم فيكم: مبيّنا حلاله و حرامه، و فرائضه و فضائله، و ناسخه و منسوخه،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۰۳

و رخصه و عزائمه، و خاصّه و عامّه، و عبره و أمثاله، و مرسله و محدوده، و محكمه و متشابهه، مفسّرا مجمله (جمله) و مبيّنا غوامضه، بين مأخوذ ميثاق علمه، و موسّع على العباد في جهله، و بين مثبت في الكتاب فرضه، و معلوم في السّنّة نسخه، و واجب في السّنّة أخذه، و مرخّص في الكتاب تركه، و بين واجب بوقته، و زائل في مستقبلة، و مباين بين محارمه، من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه، و بين مقبول في أدناه، موسّع في أقصاه.

(في شرح ألفاظ الفصل الرّابع من الخطبة)

أقول: الإصطفاء: الاستخلاص، و الأنداد: الأمثال، و اجتالتهم، أي أدارتهم و اجتذبتهم، و واتر، أي أرسل وترا بعد وتر، أي واحدا بعد آخر، و الفطرة الخلقة، و المهاد الفراش، و الأوصاب الأمراض، و الأحداث المصائب و تخصيصها بذلك عرفيّ، و الحجّة ما يحجّ به الإنسان غيره أي يغلبه به، و المحجّة جادّة الطريق، و الغابر الباقي و الماضي أيضا و هو من الأضداد، و القرن الأمّة، و نسلت أي درجت و مضت مأخوذ من نسل ريش الطائر و نسل الوبر إذ وقع، و العدة الوعد، و إنجازها قضاؤها، و السمة:

العلامة، و ميلاد الرجل محلّ ولادته من الزمان أو المكان، و الملحد العادل عن الاستقامة على الحقّ، و النسخ في اللغة الإزالة، و الرخصة التساهل في الأمر، و العزيمة الهمّة، و هذه الألفاظ الثلاثة مخصوصة في العرف بصورة (على معان) أخرى كما نذكره، و أرصدت له كذا أي هيّأته له، و هاهنا أبحاث:

البحث الأوّل: الضمير في ولده راجع إلى آدم عليه السّلام، ثمّ إن كانت الإشارة بآدم إلى النوع الإنساني فنسبة الولادة إليه في العرف ظاهرة صادقة، فإنّ كلّ أشخاص نوع هم أبناء ذلك النوع في اصطلاح أهل التأويل، و كذلك إن كان المراد به أوّل شخص وجد.

و اعلم أنّ اصطفاء اللّه للأنبياء يعود إلى إفاضة الكمال النبويّ عليهم بحسب ما

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۰۴

و هبت لهم العناية الإلهيّة من القبول و الاستعداد، و أخذه على الوحي ميثاقهم و على تبليغ الرسالة أمانتهم هو حكم الحكمة الإلهيّة عليهم بالقوّة على ما كلّفوا به من ضبط الوحي في ألواح قواهم و جذب سائر النفوس الناقصة إلى جناب عزّة بحسب ما أفاضهم من القوّة على ذلك الاستعداد له و ما منحهم من الكمال الّذي يقتدرون معه على تكميل الناقصين من أبناء نوعهم، و لمّا كانت صورة العهد و أخذ الأمانة في العرف أن يوعز إلى الإنسان بأمر و يؤكّد عليه القيام به بالإيمان و إشهاد الحقّ سبحانه، و كان الحكم الإلهي جاريا بإرسال النفوس الإنسانيّة إلى هذا العالم و كان مراد العناية الإلهيّة من ذلك البعث أن يظهر ما في قوّة كلّ نفس من كمال أو تكميل إلى الفعل، و كان ذلك لا يتمّ إلّا بواسطة بعضها للبعض، كان الوجه الّذي بعثت عليه مشابها للعهد و الميثاق المأخوذ و الأمانة المودعة كلّ لما في قوّته و ما أعدّ له فحسن إطلاق هذه الألفاظ و استعارتها هاهنا.

(في بيان سبب إرسال الرّسل و آثارهم في الإنسان)

قوله: «لمّا بدّل أكثر خلق اللّه عهده إليهم فجهلوا حقّه و اتّخذوا الأنداد معه و اجتالتهم الشياطين عن معرفته و اقتطعتهم عن عبادته إلى آخره».

إشارة إلى وجه الحكمة الإلهيّة في وجود الأنبياء عليهم السّلام و لوازمه و هي شرطيّة متصلة قدّم فيها التالي لتعلّق ذكر الأنبياء عليهم السّلام بذكر آدم، و التقدير لمّا بدّل أكثر فخلق اللّه عهده إليهم اصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم فبعثهم في الخلق، و ذلك العهد هو المشار إليه بقوله تعالى:

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [سورة الأعراف: ۱۷۲].

قال ابن عبّاس:

لمّا خلق اللّه آدم مسح على ظهره فأخرج منه كلّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فقال:

أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قٰالُوا بَلىٰ [سورة الأعراف: ۱۷۲].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۰۵

فنودي يومئذ: حفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة «۱۲۳».

و اعلم، أنّ أخذ الذرّية يعود إلى إحاطة اللوح المحفوظ بما يكون من وجود النوع الإنساني بأشخاصه، و انتقاشه بذلك عن قلم القضاء الإلهي، و لمّا كان بالإنسان تمام العالمين في الوجود الخارجي فكذلك هو في التقدير القضائي المطابق له، و به يكون تمام التقدير و جفاف القلم، و امّا إشهادهم على أنفسهم فيعود إلى إنطاق إمكانهم بلسان الحاجة إليه و أنّه الإله المطلق الّذي لا إله غيره، و امّا بيان ملازمة الشرطيّة فلأنّه لمّا كان الغالب على الخلق حبّ الدنيا، و الإعراض عن مقتضى الفطرة الأصليّة الّتي فطرهم عليها، و الالتفات عن القبلة الحقيقيّة الّتي أمروا بالتوجّه إليها، و ذلك بحسب ما ركّب فيهم من القوى البدنيّة المتنازعة إلى كمالاتها لا جرم كان من شأن كونهم على هذا التركيب المخصوص أن يبدّل أكثرهم عهد اللّه سبحانه إليهم من الدوام على عبادته و الاستقامة على صراطه المستقيم، و عدم الانقياد لعبادة الشيطان، كما قال سبحانه:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ [سورة يس: ۶۰].

و أن يجهلوا حقّه للغفلة بحاضر لذّاتهم عمّا يستحقّه من دوام الشكر، و أن يتخذوا الأنداد معه لنسيانهم العهد القديم، و أن يجتذبهم عن معرفته الّتي هي ألذّ ثمار الجنّة، و أن تقطعهم عن عبادته الّتي هي المرقاة إلى اقتطاف تلك الثّمرة، و لمّا كان من شأنهم ذلك وجب في الحكمة الإلهيّة أن يختصّ صنفا منهم بكمال أشرف يقتدر معه أبناء ذلك الصنف على ضبط الجوانب المتجاذبة، و على تكميل الناقصين ممّن دونهم، و هم صنف الأنبياء عليهم السّلام (و الغاية منهم ما أشار إليه) بقوله: «ليستأدوهم ميثاق فطرته»، أي ليبعثوهم على أداء ما خلقوا لأجله و فطروا عليه من الإقرار بالعبوديّة للّه، و يجذبوهم عمّا التفتوا إليه من اتّباع الشّهوات الباطلة (الباطنة) و اقتناء اللّذات الوهميّة الزائلة، و ذلك البعث و الجذب تارة يكون بتذكيرهم نعم اللّه الجسميّة و تنبيههم على شكر ما أولاهم به من مننه العظيمة، و تارة يكون بالترغيب فيما عنده (عقده) سبحانه

(١٢٣) قوله: فنودي يومئذ.

انظر تعليقتنا الرقم: ٩٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٠٦

ممّا أعدّه لأوليائه الأبرار، و تارة بالترهيب ممّا أعدّه لأعدائه الظالمين من عذاب النار، و تارة بالتنفير عن خسائس هذه الدار، و بيان وجوه الاستهانة بها و الاستحقار، و إلى ذلك أشار بقوله: «و يذكّروهم منسيّ نعمته».

و لا بدّ للمجادلة و المخاطبة من احتجاج مقنع و مقحم فيحتجّوا عليهم بتبليغ رسالات ربّهم و إنذارهم لقاء يومهم الّذي يوعدون، و يثيروا (يشيروا) لهم وجوه الأدلّة على وحدانيّة المبدع الأوّل، و تفرّده باستحقاق العبادة، و هو المراد بدفائن العقول و كنوزها، و استعمال الدفائن هاهنا استعارة لطيفة فإنّه لمّا كانت جواهر العقول و نتائج الأفكار موجودة في النفوس بالقوّة أشبهت الدفائن، فحسن استعارة لفظ الدفينة لها، و لمّا كانت الأنبياء هم الأصل في استخراج تلك الجواهر لإعداد النفوس لإظهارها حسنت إضافة إثارتها إليهم، و كذلك ليرشدهم إلى تحصيل مقدّمات تلك الأدلّة و البراهين و موادّها و هي آيات القدرة الإلهيّة و آثارها من سقف فوقهم محفوظ مرفوع مشتمل على بدائع الصنع و غرائب الحكم، و مهاد تحتهم موضوع، فيه ينتشرون و عليه يتصرفون، و معايش بها يكون قوام حياتهم الدنيا، و بلاغا لمدّة بقائهم لما خلقوا له، و آجال مقدّرة بها يكون فناؤهم و رجوعهم إلى بارئهم، و أعظم بالأجل آية رادعة و تقديرا جاذبا إلى اللّه تعالى، و لذلك قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

أكثروا من ذكرها ذم اللّذات «١٢٤».

إلى غير ذلك من الأمراض الّتي تضعف قواهم و تهرمهم، و المصائب الّتي تتتابع

---

(١٢٤) قوله: أكثروا ذكرها ذم.

رواه الصدوق في (عيون أخبار الرضا (ع)) بإسناده عن الإمام الرضا عليه السّلام عن رسول اللّه (ص)، ج ٢، ص ٧٠، الحديث ٣٢٥، و أخرجه أيضا ابن ماجة في سننه ج ٢، باب ذكر الموت الحديث ٤٢٥٨، ص ١٤٢٢، و الحاكم في المستدرك ج ٤، ص ٣٢١، و السيوطي في الجامع الصغير ج ١، ص ٢٠٧، الحديث ١٣٩٦.

و روى القاضي النعمان في دعائم الإسلام ج ١، ص ٢٢١، بإسناده عن النّبي (ص) أنّه قال: أكثروا من ذكرها ذم اللّذات، فقيل: يا رسول اللّه و ما هاذم اللّذات؟ قال: الموت، فإنّ أكيس المؤمنين أكثرهم للموت ذكرا و أشدّهم له استعدادا

.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٠٧

عليهم فإنّ كلّ هذه الآثار موادّ احتجاج الأنبياء على الخلق لينبّهوهم بصدورها عن العزيز الجبار عزّ سلطانه، على انّه هو الملك المطلق الّذي له الخلق و الأمر، و ليقرّروا في أذهانهم صورة ما نسوه من العهد المأخوذ عليهم في الفطرة الأصليّة من أنّه سبحانه هو الواحد الحقّ المتفرّد باستحقاق العبادة، و إلى ذلك أشار القرآن الكريم:

وَ جَعَلْنَا السَّمٰاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آيٰاتِهٰا مُعْرِضُونَ [سورة الأنبياء: ٣٢].

و قوله:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها [سورة البقرة: ١٦٤] و قوله تعالى:

وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [سورة الذّاريات: ٤٧- ٤٩].

إلى غير ذلك من الآيات الدّالة على احتجاج الخالق سبحانه على خلقه بألسنة رسله و تراجمة وحيه، و جذبهم بهذه الألطاف إلى القرب من ساحل عزّته و الوصول إلى حضرة قدسه سبحانه و تعالى عمّا يشركون، وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [سورة إبراهيم: ٣٤].

(في أنّ اللّه سبحانه لم يخل أمّة من نبيّ مرسل)

قوله: «و لم يخل اللّه سبحانه خلقه إلى قوله: و خلقت الأبناء».

أقول: المقصود الإشارة إلى بيان عناية اللّه سبحانه بالخلق حيث لم يخل أمّة منهم من نبيّ مرسل يجذبهم إلى جناب عزّته كما قال تعالى:

وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ [سورة فاطر: ٢٤].

أو (و) كتاب منزل يدعوهم إلى عبادته و يذكّرهم فيه منسيّ عهده و يتلى عليهم فيه أخبار الماضين و العبر اللاحقة للأوّلين و يحتجّ عليهم فيه بالحجج البالغة، و الدلائل

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٠٨

القاطعة، و يوضح لهم فيه أمور نظامهم و ينبّههم على مبدئهم و معادهم، و الانفصال هاهنا انفصال مانع من الخلوّ كما هو مصرّح به.

قوله: «رسل لا تقصّر بهم قلّة عددهم، و لا كثرة المكذّبين لهم».

أي هم رسل كذلك، و المراد الإشارة إلى أنّهم و إن كانوا قليلي العدد بالنسبة إلى كثرة الخلق، و كان عدد المكذّبين لهم كثيرا كما هو المعلوم من أنّ كلّ نبيّ بعث إلى أمّة فلا بدّ فيهم فرقة تنابذه و تعانده، و تكذّب مقالة فإنّ ذلك لا يوليهم قصورا عن أداء ما كلّفوا القيام به من حمل الخلق على ما يكرهون ممّا هو مصلحة لهم في معاشهم و معادهم، بل يقوم أحدهم وحده و يدعوا إلى طاعة بارئه و يتحمّل أعباء المشقة التّامّة في مجاهدة أعداء الدّين، و ينشر دعوته في أطراف الأرض بحسب العناية الأزليّة و الحكمة الإلهيّة، و تبقى آثارها محفوظة و سنتها قائمة إلى أن تقتضي الحكمة وجود شخص آخر منهم يقوم ذلك المقام، رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [سورة النساء: ١٦٥].

قوله: «من سابق سمّي من بعده». تفصيل (تفضيل) للأنبياء، و «من» هاهنا للتمييز و التبيين، و المراد أنّ السّابق منهم قد اطلعه اللّه تعالى على العلم بوجود اللاحق له بعده فبعضهم كالمقدّمة لتصديق البعض كعيسى عليه السّلام حيث قال:

وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ [سورة الصف: ٦].

و بين لاحق سمّاه من قبله كمحمّد صلّى اللّه عليه و آله، و على ذلك أي على هذه الوتيرة و الأسلوب و النظام الإلهي، مضت الأمم و سلفت الآباء و خلفتهم (خلفت) الأبناء.

قوله: «إلى أن بعث اللّه سبحانه محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم» إلى قوله: «من الجهالة».

و اعلم أنّه عليه السّلام ساق هذه الخطبة من لدن آدم إلى أن انتهى إلى محمّد صلّى اللّه عليه و آله كما هو الترتيب الطبيعي إذ هو الغاية من طينة النبوّة و خاتم النبيّين كما

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۰۹

نطق به القرآن الكريم:

مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَ خٰاتَمَ النَّبِيِّينَ [سورة الأحزاب: ٤٠].

ثمّ شرع بعد ذلك في التنبيه على كيفيّة اهتداء الخلق به و انتظام أمورهم في معاشهم و معادهم بوجوده، كلّ ذلك استدراج لأذهان السامعين و تمهيد لما يريد أن يقرّره عليهم من مصالح دينيّة أو دنيويّة فأشار إلى أنّه الغاية من طينة النبوّة و تمام لها بقوله:

إلى أن بعث محمّدا صلّى اللّه عليه و آله لإنجاذ عدته لخلقه على ألسنة رسله السابقين بوجوده و إتمام نبوّته صلّى اللّه عليه و آله.

قوله: «مأخوذا على النبيّين ميثاقه».

المراد بأخذ ميثاقه عليهم ما ذكر و قرّر في فطرتهم من الاعتراف بحقيّة نبوّته صلّى اللّه عليه و آله تصديقه فيما سيجيء به، إذ كان ذلك من تمام عبادة الحقّ سبحانه، فبعث صلّى اللّه عليه و آله حال ما كان ذلك الميثاق مأخوذا على الأنبياء و من عداهم، و حال ما كانت إمارات ظهوره و البشارة بمقدّمة مشهورة بينهم مع زكاء أصله و كرم مادّة حملته و شرف وقت سمح به، ثمّ أراد أن يزيد بعثة محمّد صلّى اللّه عليه و آله تعظيما، و يبيّن فضيلة شرعه و كيفيّة انتفاع الخلق به فقال: و أهل الأرض يومئذ ملل متفرقة و أهواء (منتشرة) متشتّتة، و الواو في قوله: «و أهل الأرض» للحال (أيضا)، و موضع الجملة نصب، و قوله: «و أهواء»، خبر مبتدأ محذوف، تقديره أهوائهم أهواء متفرّقة، و كذلك قوله: «و طوائف» أي و طوائفهم طرائق متشتّتة، أي بعثه و حال أهل الأرض يوم بعثه ما ذكر من تفرّق الأديان و انتشار الآراء و اختلافها و تشتّت الطرق و المذاهب.

(في بيان أحوال الأمم السابقة على نبيّنا (ص))

و اعلم أنّ الخلق عند مقدم محمّد صلّى اللّه عليه و آله إمّا من عليه اسم الشرائع أو غيرهم، أمّا الأوّلون فاليهود و النصارى و الصائبة و المجوس، و قد كانت أديانهم

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۱۰

اضمحلّت من أيديهم، و إنّما بقوا متشبهين بأهل الملل، و قد كان الغالب عليهم دين التشبيه و مذهب التجسيم كما حكى القرآن الكريم عنهم:

وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصٰارىٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ [سورة المائدة: ١٨].

وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَ قٰالَتِ النَّصٰارىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ [سورة التوبة: ٣٠].

وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا [سورة المائدة: ٦٤].

و المجوس أثبتوا أصلين أسندوا إلى أحدهما الخير، و إلى الثاني الشرّ، ثمّ زعموا أنّه جرت بينهما محاربة ثمّ إنّ الملائكة

توسطت و أصلحت بينهما على أن يكون العالم السفلى للشرير مدّة سبعة آلاف سنة إلى غير ذلك من هذيانهم و خطبهم.

و أمّا غيرهم من أهل الأهواء المنتشرة و الطوائف المتشتّتة فهم على أصناف شتّى، فمنهم العرب أهل مكّة و غيرهم، و قد كان منهم معطّلة و منهم محصّلة نوع تحصيل، أمّا المعطّلة فصنف منهم أنكروا الخالق و البعث و الإعادة، و قالوا بالطبع المحيي، و الدهر (المفني) المهلك، و هم الّذين حكى القرآن عنهم:

وَ قٰالُوا مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا الدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ [سورة الجاثية: ٢٤].

و قصروا الحياة و الموت على تحلّل الطبائع المحسوسة و تركبها، فالجامع هو الطبع و المهلك هو الدهر، وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ [سورة الجاثية: ٢٤].

و صنف منهم أقرّوا بالخالق و ابتداء الخلق عنه و أنكروا البعث و الإعادة و هم المحكيّ عنهم في القرآن الكريم، وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا [سورة يس: ٧٨- ٧٩].

و صنف منهم اعترفوا بالخالق و نوع من الإعادة لكنّهم عبدوا الأصنام و زعموا أنّها شفعاؤهم عند اللّه كما قال:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣١١

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللهِ [سورة يونس: ١٨].

و من هؤلاء قبيلة ثقيف و هم أصحاب اللات بالطائف و قريش و بنو كنانه، و غيرهم أصحاب العزّى، و منهم من كان يجعل الأصنام على صور الملائكة و يتوجّه بها إلى الملائكة، و منهم من كان يعبد الملائكة، كما قال تعالى:

بَلْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ [سورة سبأ: ٤١].

و امّا المحصّلة فقد كانوا في الجاهليّة على ثلاثة أنواع من العلوم:

أحدها علم الأنساب و التواريخ و الأديان، و الثاني علم تعبير الرؤيا، و الثالث علم الأنواء، و ذلك بما يتولاّه الكهنة و القافة منهم، و عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله (١٢٥):

---

(١٢٥) قوله: عن النبيّ (ص): مطرنا بنوء.

روى الصدوق في (معاني الأخبار) باب معنى الأنواء، الحديث ١، ص ٣٢٦، بإسناده عن الإمام الباقر (ع): ثلاثة من عمل الجاهليّة: الفخر بالأنساب، و الطعن في الأحساب، و الاستسقاء بالأنواء.

و نقل ذيله باسناده عن أبي عبيد، أنّه قال: سمعت عدّة من أهل العلم يقولون:

إنّ الأنواء ثمانية و عشرون نجما معروفة المطالع في أزمنة السّنة، كلّها من الصيف و الشتاء و الربيع و الخريف، يسقط منها في كلّ ثلاث عشر ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر و يطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته و كلاهما معلوم مسمّى، و انقضاء هذه الثمانية و العشرين كلّها مع انقضاء السنة، ثمّ يرجع الأمر إلى النجم الأوّل مع استئناف السّنة المقبلة و كانت العرب في الجاهليّة إذا سقط يكون عند ذلك إلى النجم الّذي يسقط حينئذ فيقولون: مطرنا بنوء الثريّا و الدبران و السماك و ما كان من هذه النجوم، فعلى هذا فهذه هي الأنواء، واحدها (نوء) و إنّما سمّي نوءا لأنّه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق بالطلوع و هو ينوء نوءا، و ذلك النهوض هو النوء فسمّي النّجم به و كذلك كلّ ناهض ينتقل بإبطاء فإنّه ينوء عند نهوضه، قال تبارك و تعالى:

لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ [سورة القصص: ٧٦].

راجع أيضا في هذا الحديث و حول موضوع النوء الكتب التفاسير سورة الواقعة الآية:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٣١٢

من قال: مطرنا بنوء كذا فقد كفر بما أنزل على محمّد (ص).

و من غير العرب البراهمة من أهل الهند، و مدار مقالتهم على التحسين و التقبيح العقليّين و الرجوع في كلّ الأحكام إلى العقل و إنكار الشرائع و انتسابهم إلى رجل منهم يقال له براهام.

و منهم أصحاب البددة، و البدّ عندهم شخص في هذا العالم لا يولد و لا ينكح و لا يطعم و لا يشرب و لا يهرم و لا يموت.

و منهم أهل الفكرة و هم أهل العلم، منهم بالفلك و أحكام النجوم، و منهم أصحاب الروحانيّات الّذين أثبتوا وسائط روحانيّة تأتيهم بالرسالة من عند اللّه في صورة البشر من غير كتاب فتأمرهم و تنهاهم، و منهم عبدة الكواكب، و منهم عبدة الشمس، و منهم عبدة القمر، و هؤلاء يرجعون بالآخرة إلى عبادة الأصنام إذ لا يستمرّ لهم طريقة إلّا بشخص حاضر ينظرون إليه و يرجعون إليه في مهمّاتهم، و لهذا كان أصحاب الروحانيات و الكواكب يتّخذون (يأخذون) أصناما على صورها فكان الأصل في وضع الأصنام ذلك، إذ يبعد ممّن له أدنى فطنة أن يعمل خشبا بيده ثمّ يتّخذه إلها إلّا أنّ الخلق لمّا عكفوا عليها و ربطوا حوائجهم بها من غير إذن شرعي و لا حجّة و لا برهان من اللّه تعالى كان عكوفهم ذلك و عبادتهم لها إثباتا لإلهيّتها، و وراء ذلك من أصناف الآراء الباطلة و المذاهب الفاسدة أكثر من أن تحصى و هي مذكورة في الكتب

- وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ [سورة الواقعة: ٨٢].

خاصّة التفاسير الروائيّة و المجمع البيان للطبرسي و تفسير علي بن إبراهيم القمي، و أيضا بحار الأنوار ج ٥٨، باب في النهي عن الاستمطار بالأنواء ص ٣١٢.

و أخرج السيوطي في الدّر المنثور نقلا عن البخاري و مسلم و أبو داود و النسائي و غيرهم من زيد الخالد الجهني، قال: صلّى بنا رسول اللّه (ص) صلاة الصبح زمن الحديبيّة في أثر سماء، فلمّا أقبل علينا فقال: «ألم تسمعوا ما قال ربّكم في هذه الآية: ما أنعمت على عبادي نعمة إلّا أصبح فريق منهم بها كافرين، فأمّا من آمن بي و حمدني على سقياي فذلك الذّي آمن بي، و كفر بالكواكب، و أمّا من قال: مطرنا بنوء كذا و كذا، فذلك الذّي آمن بالكوكب و كفر بي» ج ٨ ص ٣١، سورة الواقعة الآية: ٨٢.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٣١٣

المصنّفة في هذا الفنّ «١٢٦».

و إذا عرفت ذلك ظهر معنى قوله عليه السّلام: من «مشبّه للّه بخلقه» كالبقيّة من أصحاب الملل السابقة، فانّهم و إن أثبتوا صانعا إلّا أنّ أذهانهم مكيّفة بكيفيّة بعض مصنوعاته في نفس الأمر من الجسميّة و توابعها، و من ملحد في اسمه كالّذين

عدلوا عن الحقّ عن أسمائه بتحريفها عمّا هي عليه إلى أسماء اشتقّوها لأوثانهم و زادوا فيها و نقصوا كاشتقاقهم اللاّت من اللّه، و العزّى من العزيز و مناة من المنّان، و هذا التأويل مذهب ابن عبّاس، و منهم من فسّر الملحدين في أسماء اللّه تعالى بالكاذبين في أسمائه، و على هذا كلّ من سمّي اح بما لم يسمّ به نفسه (ذهنه) و لم ينطق به (كتاب) و لا ورد فيه إذن شرعيّ فهو ملحد في أسمائه.

و قوله: «و من مشير إلى غيره». كالدهريّة و غيرهم من عبدة الأصنام، و الانفصال هاهنا لمنع الخلوّ أيضا، فلمّا اقتضت العناية بعثته صلّى اللّه عليه و آله ليهتدوا سبيل الحقّ و يفيئوا من ضلالهم القديم إلى سلوك الصراط المستقيم، و لينقذهم ببركة نوره من ظلمات الجهل إلى أنوار اليقين، فقام بالدعوة إلى سبيل ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة و المجادلة بالّتي هي أحسن، فجلى اللّه بنوره صداء قلوب الخلق، و أزهق باطل الشيطان بما جاء به من الحقّ و الصدق و انطلقت الألسن بذكر اللّه و استنارت البصائر بمعرفة اللّه و كمل به دينه في أقصى بلاد العالم، و أتمّ به نعمته على كافّة عباده، كما قال تعالى:

اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً [سورة المائدة: ٣].

أحبّ اللّه سبحانه لقاءه كما أحبّ هو لقاء اللّه كما قال صلّى اللّه عليه و آله:

من أحبّ لقاء اللّه أحبّ اللّه لقاءه (١٢٧).

---

(١٢٦) قوله: الكتب المصنّفة في هذا الفنّ.

راجع (الملل و النحل) ج ٢، ص ٢٣٢ إلى ٢٦٥.

(١٢٧) قوله: من أحبّ لقاء اللّه.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣١٤

و رضي له ما عنده من الكرامة التامّة، و النعمة العامّة في جواره الأمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فأكرمه عن دار الدنيا، و رغب به عن مجاورة البلوى و مقام الأذى فقبضه (اللّه) إليه عند انتهاء أجله كريما عن أدناس الذنوب طاهرا في ولادته الجسمانيّة و الرّوحانيّة صلّى اللّه عليه و آله، ما برق بارق و ذرّ شارق.

قوله: «و خلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملا بغير طريق واضح، و لا علم قائم».

أقول: لما كان هذا الشّخص الّذي هو النّبيّ صلّى اللّه عليه و آله ليس ممّا يتكوّن وجود مثله في كلّ وقت لما أنّ المادّة الّتي تقبل كمال مثله إنّما يقع في قليل من الأمزجة وجب إذن أن يشرع للنّاس بعده في أمورهم سنّة باقية بإذن اللّه و أمره و وحيه و إنزاله الروح القدس عليه، و واجب أن يكون قد دبّر لبقاء ما يسنّه و يشرعه في أمور المصالح الإنسانيّة تدبيرا، و الغاية من ذلك التدبير هو بقاء الخلق و استمرارهم على معرفة الصانع المعبود و دوام ذكره و ذكر المعاد، و حسم وقوع النسيان فيه مع انقراض القرآن الّذي يلي النبيّ و من بعده، فواجب إذن أن يأتيهم بكتاب من عند اللّه و يكون وافيا بالمطالب الإلهيّة و الأذكار الجاذبة إلى اللّه سبحانه و لإخطاره بالبال في كلّ حال

- روى الصدوق في (معاني الأخبار) ص ۲۳٦، بإسناده عن الصادق عليه السّلام سئله بعض أصحابه عن الحديث المذكور و قال له: أصلحك اللّه، من أحبّ لقاء اللّه أحبّ اللّه لقاءه، و من أبغض لقاء اللّه أبغض اللّه لقاءه؟

قال (ع): نعم، فقال: فو اللّه إنّا لنكره الموت، فقال (ع): ليس ذلك حيث تذهب، إنّما ذلك عند المعاينة إذا رأى ما يحبّ فليس شيء أحبّ إليه من أن يتقدّم و اللّه يحبّ لقاءه و هو يحبّ لقاء اللّه حينئذ، و إذا رأى ما يكره فليس شيء أبغض إليه من لقاء اللّه و اللّه عزّ و جلّ يبغض لقاءه.

و روي الحديث أيضا في (مصباح الشريعة) الباب الثالث و الثمانون في ذكر الموت عن الصّادق عليه السّلام عن النبيّ (ص).

و راجع أيضا مسند أحمد بن حنبل الحديث ۳، ص ۱۰۷، و ج ٤، ص ۲٥۹. و صحيح مسلم ج ٤، ص ٥٠٦٥، الحديث ١٥ و ١٦ و ١٧، و كنز العمّال ج ١٥، ص ٥٦٥، الحديث ٤٢١٩٦.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۱٥

مشتملا على أنواع من الوعد على طاعة اللّه و رسوله بجزيل الثواب عند المصير إليه، و الوعيد على معصيته بعظيم العقاب عند القدوم عليه، و لا بدّ أن يعظّم أمره و يسنّ على الخلق تكراره و حفظه، أو (بحثه) بعضه، و دراسته و تعلّمه و تعليمه و تفهّم معانيه و مقاصده ليدوم به التذكّر للّه سبحانه، و الملأ الأعلى من ملائكته، ثمّ يسنّ عليهم أفعالا و أعمالا تتكرّر في أوقات مخصوصة تتقارب و يتلوا بعضها بعضا مشفوعة بألفاظ تقال و نيّات تنوي في الخيال ليحصل بها دوام تذكّر المعبود الأوّل و ينتفع بها في أمر المعاد و إلّا فلا فائدة فيها، و هذه الأفعال كالعبادات الخمس المفروضة على النّاس و ما يلحقها من الوظائف و لمّا بدأ عليه السّلام هاهنا بذكر الكتاب العزيز لكونه مشتملا على ذكر سائر ما جاء به الرّسول (ص) إمّا مطابقة أو التزاما و في بسط قوانينيّة الكلّيّة بحسب السنّة النبويّة وفاء بجميع المطالب الإلهيّة، فنحن نبدأ بذكر شرفه و وظائفه و شرائط تلاوته و نؤخّر الكلام في باقي العبادات إلى مواضعها.

(في بيان فضيلة القرآن)

البحث الثاني: في فضيلة الكتاب،

أمّا الفضيلة فمن وجوه

الأوّل، قوله تعالى:

: وَ هٰذٰا ذِكْرٌ مُبٰارَكٌ أَنْزَلْنٰاهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [سورة الأنبياء: ٥٠].

كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ مُبٰارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيٰاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰابِ [سورة ص: ۲۹].

و قوله:

وَ مٰا كٰانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ [سورة يونس: ۳۷].

الثاني، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

: من قرأ القرآن ثمّ رأى أنّ أحدا أوتي أفضل ممّا أوتي فقد استصغر ما (عظمه) عظّم

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۱٦

اللّه تعالى «۱۲۸».

الثالث، قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

: ما من شفيع أفضل منزلة عند اللّه تعالى يوم القيامة من القرآن، لا نبيّ و لا ملك، و لا غيره (١٢٩).

---

(١٢٨) قوله: من قرأ القرآن.

راجع أحياء علوم الدّين للغزالي ج ١، ص ٢٧٢، كتاب آداب القرآن الباب الأوّل.

و روى ثقة الإسلام الكليني في الكافي ج ٢، باب فضل حامل القرآن ص ٦٠٤، الحديث ٥، باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام عن النبيّ (ص) قال:

«و من أوتي القرآن فظنّ أن أحدا من النّاس أوتي أفضل ممّا أوتي فقد عظّم ما حقّر اللّه، و حقّر ما عظّم اللّه».

و روي أيضا في التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمّد العسكري (ع) عن رسول اللّه (ص) قال: «ما أنعم اللّه عزّ و جلّ على عبد بعد الإيمان أفضل من العلم بكتاب اللّه و المعرفة بتأويله، و من جعل له في ذلك حظّا، ثمّ ظنّ أنّ أحدا- لم يفعل به ما فعل به- قد فضّل عليه فقد حقّر نعم اللّه عليه». ص ١٥، الحديث ١، باب فضل القرآن.

و روى الصدوق في معاني الأخبار ص ٢٧٩ عن النبيّ (ص) قال:

أنّ من أعطي القرآن فظنّ أنّ أحدا أعطي أكثر ممّا أعطي فقد عظّم صغيرا و صغّر كبيرا، فلا ينبغي لحامل القرآن أن يرى أنّ أحدا من أهل الأرض أغني منه و لو ملك الدّنيا برحبها.

و أخرج الهندي في كنز العمّال ج ١، ص ٥٢٥، الحديث ٢٣٥٠:

من قرأ القرآن فرأى أن من خلق اللّه أعطي أفضل ممّا أعطي فقد صغّر ما عظّم اللّه، و عظّم اللّه ما صغّر اللّه، لا ينبغي لحامل القرآن أن يحدّ فيمن يحدّ و لا يجهل فيمن يجهل و لكن يعفو و يصفح لعزّ القرآن.

(١٢٩) قوله: ما من شفيع أفضل.

ذكره الغزالي في إحياء العلوم ج ١، باب فضيلة القرآن ص ٢٧٣.

و روى الكليني في الكافي ج ٢، ص ٦٠١، الحديث ١١، (كتاب فصل القرآن) بإسناده عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال: «يجيء القرآن يوم القيامة في أحسن منظور-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٣١٧

و يلوح لك من سرّ هذه الإشارة أنّ ذلك انّما هو في حقّ من تدبّره، و سلك المنهج (النهج) المطلوب منه المشتمل عليه، و وصل (به) إلى جناب اللّه في جوار الملائكة المقرّبين، و لا غاية من الشفاعة إلّا الوصول إلى نيل الرّضوان من المشفوع، و علمت أنّ تمام رضوان اللّه بغير سلوك الطريق المشتمل عليها الكتاب العزيز لا يحصل، و لا ينفع فيه شفاعة شافع كما قال تعالى:

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ [سورة المدّثّر: ٤٨- ٤٩].

الرابع، قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

: «لو كان القرآن في إهاب لما مسّته النار» «١٣٠».

-إليه صورة فيمرّ بالمسلمين فيقولون: هذا الرّجل منّا، فيجاوزهم إلى النّبيّين فيقولون:
هو منّا، فيجاوزهم إلى الملائكة المقرّبين فيقولون هو منّا حتّى ينتهي إلى ربّ العزّة عزّ و جلّ فيقول: يا ربّ فلان بن فلان أظمأت هواجره و أسهرت ليلة في دار الدّنيا، و فلان بن فلان لم أظمأ هو أجره و لم أسهر ليله، فيقول تبارك و تعالى: أدخلهم الجنّة على منازلهم فيقوم فيتّبعونه، فيقول للمؤمن: اقرأ و أرقه، قال: فيقرأ و يرقي حتّى يبلغ كلّ رجل منهم منزلته التّي هي له فينزلها».

و أخرج الدارمي في سننه باب فصل القرآن ج ۲، ص ٥۲۳، الحديث ۳۳۱۲، بإسناده عن ابن عمر قال: يجيء القرآن يشفع لصاحبه يقول: يا ربّ لكل عامل عملة من عمله، و إنّي كنت أمنعه اللّذة و النوم، فأكرمه، فيقال: أبسط يمينك فيملأ من رضوان اللّه، ثمّ يقال:
أبسط شمالك فيملأ من رضوان اللّه، و يكسي كسوة الكرامة، و يحلّى حلية الكرامة، و يلبس تاج الكرامة.

(۱۳۰) قوله: لو كان القرآن في إهاب.

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ١٥٥، و الطبرسي في مجمع البيان في الفن السادس من المقدمة.

و الغزالي في احياء العلوم ج ۱، ص ۲۷۳، و أخرج الدارمي أيضا باسناده عن رسول اللّه (ص) قال: لو جعل القرآن في إهاب ثمّ ألقى في النار ما احترق. ج ۲، ص ٥۲۲، الحديث ۳۳۱۰، و راجع كنز العمّال ج ۱، ص، الحديث ۲ و ۳ و ۲۲۰٤ و ۲۳۱۳.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۱۸

و المراد أيّ ظرف وعاه و تدبّره و سلك طريقه لم تمسّه النار، أمّا نار الآخرة فظاهر، و أمّا نار الدنيا فلأنّ الواصلين من أولياء اللّه الكاملين في قوّتهم النظريّة و العمليّة يبلغون حدّا تنفعل العناصر عن نفوسهم فتتصرّف فيها كتصرّفها في أبدانها فلا يكون لها في أبدانهم تأثير، و قد عرفت أسباب ذلك في المقدمات.

الخامس، قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

: أفضل عبادة أمّتي (قراءة) القرآن، و أهل القرآن هم أهل اللّه و خاصّته «۱۳۱»، و المقصود مع شرائطه التّي سنذكرها.

(في بيان وظائف القارئ للقرآن)

البحث الثالث: في وظائفه، أمّا مداومة الكتاب بالتلاوة و الدرس فيحتاج إلى وظائف و إلاّ لم ينتفع بها كما قال أنس:
ربّ تال للقرآن و القرآن يلعنه «۱۳۲».

---

(۱۳۱) قوله: أفضل عبادة أمّتي.

ذكره الغزالي في إحياء العلوم ج ۱، ص ۲۷۳. و في البحار ج ۹۳، ص ۳۰۰، الحديث ۳۷، نقلا عن (الدعوات) للراوندي، قال رسول اللّه (ص):
أفضل عبادة أمّتي بعد قراءة القرآن الدعاء، الحديث.

و روى الكليني، بإسناده عن الزّهري قال: قلت لعليّ بن الحسين (ع) أيّ الأعمال أفضل؟ قال: الحالّ المرتحل، قلت: و ما الحالّ المرتحل؟ قال: فتح القرآن و ختمه، كلّما جاء بأوّله ارتحل في آخره. الكافي ج ۱، ص ٦۰٥، الحديث ۷.

(۱۳۲) قوله: ربّ تال للقرآن.

ذكره الغزالي في إحياء العلوم ج ۱، ص ۲۷٤. و رواه مؤلّف جامع الأخبار في الفصل ۲۳ في القراءة عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السّلام ص ۱۳۰، الحديث ٦/۲٥٥.

و في البحار ج ۹۲، ص ۱۸٥، الحديث ۲٤ عن (أسرار الصلاة) للشهيد الثاني، عن النّبي (ص) قال: كم من قارئ للقرآن و القرآن يلعنه، راجع أسرار الصّلاة، الخاتمة البحث الأوّل ص ۱۸٥.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۳۱۹

و الّذي ينبغي أن يوظّف في ذلك [و هي أمور عشرة]

ما لخّصه الإمام أبو حامد الغزّالي في كتاب الإحياء «۱۳۳» فإنّه لا مزيد عليه و هي أمور عشرة:

الأوّل، أن يتصوّر الإنسان حال سماعه للتلاوة عظمة كلام اللّه سبحانه

و إفاضة كماله و لطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام الخلق في إيصال معاني كلامه إلى أذهانهم، و كيف تجلّت لهم الحقائق الإلهيّة في طيّ حروف و أصوات هي صفات البشر؟ إذ يعجز البشر عن الوصول إلى مدارج الجلال و نعوت الكمال إلّا بوسيلة، و لولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش و لا ثرى، و لتلاشي ما بينهما من عظمة سلطانه و سبحات نوره، فالصّموت و الحروف للحكمة جسد، و هي بالنسبة إليه نفس و روح، و لمّا كان شرف الأجساد و عزّتها بشرف أرواحها فكذلك شرف الحروف و الصّوت بشرف الحكمة الّتي فيها.

الثاني، التعظيم للمتكلّم

، و ينبغي أن يحضر في ذهن القاري عظمة المتكلّم، و يعلم أنّ ما يقرأه ليس بكلام البشر، و أنّ في تلاوة كلام اللّه غاية الخطر فإنه تعالى قال:

لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ [سورة الواقعة: ۷۹].

و كما أنّ ظاهر جلد المصحف و ورقه محروس عن ظاهر بشرة اللّامس الغير (المتطهر) المطهر، فكذلك باطن معناه كلمة عزّة و جلالة (بحكم عزّه و جلاله) محجوب عن باطن القلب (إذ لا) أن يستضيء بنوره إلّا إذا كان متطهّرا عن كلّ رجس، مستنيرا بنور التعظيم و التوقير عن ظلمة الشرك، و كما لا تصلح للمسّ جلد المصحف كلّ يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كلّ إنسان، و لا لحمل أنواره كلّ قلب، و لهذا (و لأجل هذا) الإجلال كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف يغشى عليه و يقول: هو

---

(۱۳۳) قوله: ما لخّصه الإمام أبو حامد الغزّالي.

راجع (إحياء العلوم) ج ۱، ص ۲۸۰ إلى ص ۲۸۸، الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة، و مفاتيح الغيب لصدر المتألهين ص ٥۸ و راجع أيضا الحجّة البيضاء) ج ۲، ص ۲۳٤، إلى ص ۲٥۰. و لا يخفى أنّ المؤلّف (البحراني) لخّص ما في إحياء العلوم و نقّحه و تصرّف في عباراته أحيانا فلا تفعل. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۳۲۰

كلام ربّي فيعظّم الكلام بتعظيم المتكلّم، و علمت أنّ عظمة المتكلّم لا تخطر في القلب بدون الفكر في صفات جلاله و نعوت كماله و أفعاله، و إذا خطر ببالك الكرسيّ و العرش و السّماوات و الأرضون و ما بنيهما، و علمت أنّ الخالق لجميعها و القادر عليها و الرّازق لها هو اللّه الواحد القهّار، و أنّ الكلّ في قبضته، و السّموات مطويّات بيمينه، و الكلّ سائر إليه و أنّه الذّي يقول: هؤلاء في الجنّة و لا أبالي فإنّك تستحضر من ذلك عظمة المتكلّم ثمّ عظمة الكلام.

الثالث، حضور القلب و ترك حديث النفس

، قيل في تفسير قوله:

يٰا يَحْيىٰ خُذِ الْكِتٰابَ بِقُوَّةٍ [سورة مريم: ۱۲].

أي بجدّ و اجتهاد، و أخذه بالجدّ أن يتجرّد عند قراءته بحذف جميع المشغلات و الهموم عنه، و هذه الوظيفة تحصل ممّا قبلها، فإنّ المعظم للكلام الّذي يتلوه يستبشر به و يستأنس إليه و لا يغفل عنه، فإنّ (في) القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي له أهلا، و كيف يطلب الأنس بالفكر في غيره و فيه بساتين العارفين، و رياض الأولياء، و ميادين أولي الألباب.

الرابع، التدبّر

و هو طور وراء حضور القلب فإنّ الإنسان قد لا يتفكّر في غير القرآن، و لكنّه يقتصر على سماع القرآن من نفسه هو لا يتدبّره، و المقصود من التلاوة التدبّر قال سبحانه:

أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا [سورة محمّد: ۲٤].

أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاٰفاً كَثِيراً [سورة النساء: ۸۲].

و قال:

وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً [سورة المزمّل: ٤].

لأنّ التّرتيل يمكّن الإنسان من تدبّر الباطن، و قال صلّى اللّه عليه و آله:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۳۲۱

لا خير في عبادة لا فقه فيها، و لا في قراءة لا تدبّر فيها «۱۳٤».

و إذا لم (يمكن) يكن التدبّر إلاّ بالترديد فليردّد، قال أبو ذر: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله ليلة يردّد قوله تعالى:

إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة المائدة: ۱۱۸].

الخامس، التفهّم

و هو أن يستوضح من كلّ آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات اللّه تعالى و أفعاله و أحوال أنبيائه و المكذّبين لهم و أحوال ملائكته و ذكر أوامره و زواجره و ذكر الجنّة و النّار و الوعد و الوعيد، فليتأمّل معاني هذه الأسماء و الصّفات لتنكشف له أسرارها، فتحتها دفائن الأسرار و كنوز الحقائق، و إلى ذلك أشار عليّ عليه السّلام بقوله: ما أسرّ إليّ رسول اللّه (ص) شيئا كتمه عن النّاس إلاّ أن يؤتي اللّه عزّ و جلّ عبدا فهما في كتابه فليكن حريصا على طلب ذلك الفهم (۱۳۵).

(١٣٤) قوله: لا خير في عبادة.

روى الصّدوق في (معاني الأخبار) باب معنى الفقيه حقّا الحديث ١، ص ٢٢٦، بإسناده عن الإمام أمير المؤمنين (ع) قال: ألا أخبركم بالفقيه حقّا؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين قال: من يقنّط الناس من رحمة اللّه، و لم يؤمنهم من عذاب، و لم يرخّص لهم في معاصي اللّه، و لم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره، ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقّه.

و رواه ابن شعبة في (تحف العقول) ص ٢٠٤، مع تفاوت يسير في بعض الكلمات، و أيضا رواه أبو نعيم في (حلية الأولياء) بإسناده عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ج ١، ص ٧٧، و الهندي في كنز العمّال ج ١٠ ص ٣٠٨، الحديث ٢٩٥٤٦.

(١٣٥) قوله: أشار عليّ (ع).

أخرج البخاري في (صحيحه) كتاب الجهاد باب ٨١٠ (فكاك الأسير) ج ٤، ص ٤٨٩، الحديث ١٢٢٤، بإسناده عن أبي جحيفة قال: قلت لعليّ رضي اللّه عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلاّ ما في كتاب اللّه، قال: لا و الّذي فلق الجنّة و برأ النّسمة ما أعلمه إلاّ فهما-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٣٢٢

- يعطيه اللّه رجلا في القرآن و ما في هذه الصحيفة، الحديث.

و رواه أيضا في كتاب العلم باب ٨٢، كتابه العلم الحديث ١٠٩، ج ١، ص ١١٨.

و أخرجه أيضا ابن حنبل في مسنده ج ١، ص ٧٩، و عبد السّلام الحرّاني المتوفّى ٦٥٣ في (المنتقى) ج ٢، ص ٣٩١١، الحديث ٢٩٠٦، باب ما جاء: لا يقتل مسلم بكافر.

ذكر المؤلف الجليل هذا الحديث في الجزء الأوّل من التفسير ص ٣٦١، فراجع، و أيضا ذكره في الأسرار ص ٢٨٢.

هنا تبصرة و ملاحظة و هي:

قال شارح البخاري بدر الدّين محمود العيني (في عمد القاري) في شرح الحديث المذكور ج، ص ١٦٠:

«قوله: «هل عندكم» الخطاب لعليّ رضي اللّه عنه و الجمع للتعظيم، أو لإرادته مع سائر أهل البيت، ... و إنّما سأله أبو جحيفة عن ذلك لأنّ الشيعة كانوا يزعمون أنّه عليه الصّلاة و السّلام خصّ أهل بيته لا سيّما عليّ بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه بأسرار من علم الوحي لم يذكرها لغيره»- إلى أن قال-: «قوله: «قال لا» أي لا كتاب، أي ليس عندنا كتاب غير كتاب اللّه تعالى». إلى أن قال:

«بيان استنباط الأحكام: الأوّل، قال ابن بطان فيه ما يقطع بدعة الشيعة و المدعين على عليّ رضي اللّه عنه أنّه الوصيّ و أنّه المخصوص بعلم من عند رسول اللّه عليه الصّلاة و السّلام لم يعرفه غيره.

هذا و قال الشارح الآخر شهاب الدّين أحمد القسطلاني في (إرشاد السّاري) ج ٥، ص ١٦٦ في شرح الحديث:

«قلت لعليّ رضي اللّه عنه هل عندكم» أهل البيت النبويّ «شيء من الوحي خصكّم به النبيّ (ص) دون غيركم كما تزعم الشيعة.

أقول: نذكر هنا بعض الأحاديث حتّى تلاحظ أيّها القارئ العزيز كيف يحرّفون الكلم عن مواضعه و يكتبون ما يريدون خلاف ما يقول الشيعة الّذين يتّبعون مدرسة أهل البيت أهل العصمة و الطهارة عملا بسنّة رسول اللّه الخاتم (ص) و اتباعا بقوله (ص) في حديث الثقلين و الغدير

و غيرهما.

فبملاحظة الأحاديث التالية يعلم أنّ الشيعة الإثنا عشريّة لا يقول في عليّ أمير المؤمنين-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۳۲۳

-عليه السّلام غير ما قال اللّه سبحانه و تعالى و رسوله الخاتم (ص) في حقّه و يعلم أيضا أنّ الشيعة هم أهل السنّة في الحقيقة. و أمّا الأحاديث و هي:

ألف-روى الصّدوق في الخصال ج ۲، ص ٦٤۳، الحديث ۲۳ باسناده عن عبد اللّه بن عمر، قال: قال رسول اللّه (ص) في مرضه الّذي توفّي فيه: ادعوا لي أخي فأرسلوا إلى عليّ (ع) فدخل فولّيا وجوههما إلى الحائط و ردّا عليهما ثوبا فأسرّ إليه و النّاس محتوشون وراء الباب، فخرج عليّ (ع) فقال له رجل من الناس: أسرّ إليك نبيّ اللّه شيئا؟ قال: نعم أسرّ إليّ ألف باب في كلّ باب ألف باب، قال وعيته؟ قال: نعم و عقلته.

ب-روى الصدوق في الخصال ج ۲، ص ٦٤۹، بإسناده عن أبي بصير، عن الإمام الصادق (ع) قال: كان في ذؤابة سيف رسول اللّه (ص) صحيفة صغيرة، فقلت لأبي عبد اللّه (ع): أيّ شيء كان في تلك الصحيفة قال: هي الأحرف الّتي يفتح كلّ حرف منها ألف حرف، قال أبو بصير: قال أبو عبد اللّه (ع) فما خرج منها إلاّ حرفان حتّى السّاعة.

ج-روى أبو نعيم المتوفى ٤۳۰ في (حلية الأولياء) ج ۱، ص ٦۸ باسناده عن عليّ أمير المؤمنين عليه السّلام قال: و اللّه ما نزلت آية إلاّ و قد علمت فيم أنزلت، و أين أنزلت، إنّ ربّي وهب لي قلبا عقولا، و لسانا سئولا.

هـ-هناك أحاديث كثيرة بعبارات مختلفة متواترة و بأسانيد متضافرة رواها الفريقان عن النّبي (ص) قال:

أنا مدينة العلم و عليّ بابها.

أنا مدينة الحكمة و عليّ بابها.

أنا دار الحكمة و عليّ بابها.

أنا ميزان العلم و عليّ كفّتاه.

أنا دار العلم و عليّ بابها.

أنا مدينة الفقه و عليّ بابها.

أنا المدينة و أنت الباب، و لا يؤتي المدينة إلاّ من بابها.

أنا مدينة العلم و علي بابها فمن أراد العلم فليأت بابه.

عليّ أخي و عليّ منّي و أنا من عليّ فهو باب علمي و وصيّتي.

و-و هناك روايات كثيرة تدلّ على الآيات التالية أي آية التطهير و آية أهل الذّكر و آية-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۳۲٤

و قال ابن مسعود:

من أراد علم الأوّلين و الآخرين فعليه بالقرآن (۱۳٦).

- المباهلة نزلت في عليّ و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام:

إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [سورة الأحزاب: ٣٣].

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [سورة النحل: ٤٣].

فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ [سورة آل عمران: ٦١].

راجع: صحيح الترمذي ج ٥، ص ٣١، الحديث ٣٢٥٨، و ص ٣٢٨، الحديث ٣٨٧٥، و ص ٣٦١، الحديث ٣٩٦٣، و تفسير ابن كثير ج ٣، ص ٤٨٤ و ٤٨٥، و تفسير الطبري الحديث ٢٢، ص ٧ و ٨ و الدّر المنثور ج ٥، ص ١٩٨.

و أيضا تفسير ابن كثير ج ٢، ص ٥٧٠، و روح المعاني ج ١٤، ص ١٣٤.

و أيضا صحيح مسلم ج ٢، ص ٣٦٠، و المستدرك للحاكم ج ٣، ص ١٥٠، و تفسير الطبري ج ٣، ص ٢٩٩، و تفسير ابن كثير ج ١، ص ٣٧٠، و الدّر المنثور ج ٢، ص ٣٨، و غيرها من التفاسير و جوامع الحديث.

فتبين من انّ عليّا (ع) بمنزلة نفس النّبي (ص) و انّه أهل الذكر الّذي يجب ان يتعلّم العلم و القرآن منه و انّه عليه السّلام المطهّر من قبل اللّه سبحانه و تعالى، و القرآن لا يمسّه إلاّ المطهرون، فعليّ (ع) و أهل البيت هم أهل القرآن، فإذن أهل البيت هم الذين يتمكنون ان يبيّنوا القرآن و يفسّروه.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «و لقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلّى اللّه عليه و آله، فقلت: يا رسول اللّه ما هذه الرنّة؟ فقال: «هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع، و ترى ما أرى إلاّ أنّك لست بنبيّ و لكنّك لوزير و إنّك لعلى خير». نهج البلاغة خطبة ١٩٢ صبحي صالح.

(١٣٦) قوله: من اراد علم الأوّلين.

روى فرات (من أعلام الغيبة الصغرى) في تفسيره ص ٦٧، الحديث ٣٨، بإسناده عن سليم بن قيس عن مولانا أمير المؤمنين عليه السّلام قال في حديث: و سلوني عن القرآن-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٢٥

و اعلم، أنّ أعظم علوم القرآن تحت أسماء اللّه تعالى و صفاته، و لم يدرك الخلق منها إلاّ بقدر أفهامهم، و إليه الإشارة بقوله:

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً [سورة الرعد: ١٧].

فالماء هو العلم أنزله من سماء جوده ففاضت أودية القلوب كلّ على حسب استعداده و إمكانه و إن كان وراء ما أدركوه أطوار أخرى لم يقفوا عليها، و كنوز لم يعثروا على أغوارها.

أمّا أفعاله تعالى، و ما أشار إليه من خلق السّماوات و الأرض و غيرها، فالّذي ينبغي أن يفهم التالي منها و هو صفات اللّه و جلاله لاستلزام الفعل الفاعل، فيستدلّ بعظمة فعله على عظمته ليلاحظ بالأخرة الفاعل دون الفعل، فيقرأ في المقام

الأوّل:

هٰذٰا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مٰا ذٰا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ [سورة لقمان: ١١].

و يقرأ في المقام الثاني:

كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ [سورة القصص: ٨٨].

فمن عرف الحقّ رآه في كلّ شيء، و من بلغ إلى حذف (حدّ) العرفان عن درجة الإعتبار لم ير معه غيره فإذا تلا قوله:

أَ فَرَأَيْتُمْ مٰا تُمْنُونَ [سورة الواقعة: ٥٨].

أَ فَرَأَيْتُمُ الْمٰاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ [سورة الواقعة: ٦٨].

أَ فَرَأَيْتُمُ النّٰارَ الَّتِي تُورُونَ [سورة الواقعة: ٧١].

- فإنّ في القرآن بيان كلّ شيء، فيه علم الأولين و الآخرين.

و في إحياء العلوم ج ١، ص ٢٨٣: قال ابن مسعود رضي اللّه عنه: من أراد علم الأوّلين و الآخرين فليثوّر القرآن.

قال ابن الأثير في النهاية في (ثور): و منه الحديث «من أراد العلم فليثوّر القرآن»، أي لينقّر عنه و يفكّر في معانيه و تفسيره و قراءته و منه حديث عبد اللّه: أثيروا القرآن فإنّ فيه علم الأوّلين و الآخرين.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٢٦

فلا ينبغي أن يقصّر نظره على النطفة و الماء و النّار، بل ينظر في المني و هو نطفة، ثمّ في كيفيّة انقسامها إلى اللحم و العظم و العصب و العروق و غيرها، ثمّ في كيفيّة أشكال أعضائها المختلفة من المستدير و الطويل و العريض و المستقيم و المنحني و الرّخوة و الصلب و الرقيق و الغليظ، و ما أودع في كلّ من القوّة و هيّأ (وهبا) له من المنفعة الّتي لو اختلّ شيء منها لا لاختلّ أمر البدن و مصالح الإنسان، فليتأمل في هذه العجائب و أمثالها ليترقّى فيها إلى عجيب قدرة اللّه تعالى و المبدأ الّذي صدرت عنه هذه الآثار، فلا يزال مشاهدا لكمال الصانع في كمال صنعه.

و أمّا أحوال الأنبياء عليهم السّلام، فليفهم من سماع كيفيّة تكذيبهم و قتل بعضهم صفة استغناء اللّه تعالى عنهم، و لو هلكوا بأجمعهم لم يتضرّر بذلك و لم يؤثّر في ملكه، فإذا سمع نصرتهم فليفهم أنّ ذلك بتأييد إلهيّ كما قال تعالى:

حَتّٰى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جٰاءَهُمْ نَصْرُنٰا فَنُجِّيَ مَنْ نَشٰاءُ [سورة يوسف: ١١٠].

و أمّا أحوال المكذّبين لهم كعاد و ثمود و كيفيّة إهلاكهم فلينبّه من سماعه لاستشعار الخوف من سطوة اللّه و نقمته و ليكن حظّه منه الإعتبار في نفسه، و أنّه إن غفل و أساء الأدب فربّما أدركته النقمة و نفذت فيه القضيّة حيث لا ينفع مال و لا بنون، و كذلك إذا سمع أحوال الجنّة و النّار فليحصل منهما على خوف و رجاء و ليتصوّر أنّه بقدر ما يبعد عن أحدهما يقرب من الآخر، و ليفهم منها و من سائر القرآن أنّ استقصاء ما هناك من الأسرار الإلهيّة غير ممكن لعدم نهايته، قال تعالى:

قُلْ لَوْ كٰانَ الْبَحْرُ مِدٰاداً لِكَلِمٰاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمٰاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنٰا بِمِثْلِهِ مَدَداً [سورة الكهف: ١٠٩].

و قال عليّ عليه السّلام:

لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب (١٣٧).

---

(١٣٧) قوله: لو شئت لأوقرت.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٢٧

فمن لم يتفهّم معاني القرآن في تلاوته و سماعه و لو في أدنى المراتب لدخل في قوله تعالى:

أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمىٰ أَبْصٰارَهُمْ أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا [سورة محمّد: ٢٣- ٢٤].

و تلك الأفعال هي الموانع الّتي سنذكرها.

السّادس، التخلّي عن موانع الفهم

فإنّ أكثر النّاس منعوا من فهم القرآن لأسباب و حجب أسدل لها الشيطان على قلوبهم فحجبت عن عجائب أسراره، قال صلّى اللّه عليه و آله:

لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت و معاني القرآن (١٣٨).

- قد مرّ الحديث في الجزء الأوّل من التفسير ص ٣٦٢ و ذكرنا هناك أيضا مصادره فراجع. و ذكره الغزالي في (إحياء العلوم) ص ٢٨٣.

رواه ابن شهر آشوب في المناقب ج ٢، ص ٤٣، و رواه السيّد الجليل النجفي المرعشي قدّس سرّه في (ملحقات الإحقاق) ج ٧، ص ٥٩٣ إلى ٥٩٥ عن عدّة من علماء السنّة و كتبهم فراجع.

(١٣٨) قوله: لولا أنّ الشياطين.

مرّ الحديث في الجزء الأوّل ص ٢٧٢ و ذكرنا مصادره هناك في الرقم ٤٩ فراجع، و نذكر هنا بعض الآيات و الأحاديث المناسبة:

ألف- قوله تعالى:

كَلاَّ بَلْ رٰانَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ [سورة المطففين: ١٤- ١٥].

ب- قوله تعالى:

كَلاَّ إِنَّ كِتٰابَ الْأَبْرٰارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا عِلِّيُّونَ كِتٰابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ [سورة المطففين: ١٨- ٢١].

ج- قوله تعالى:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٢٨

و معاني القرآن و أسراره من جملة الملكوت.

و الحجب المانعة

: **أوّلها، الإشتغال بتحقيق الحروف و إخراجها من مخارجها**

، و التشدّق (الشدق) بها عن ملاحظة المعنى، و قيل: إنّ المتولّي لحفظ ذلك شيطان و كل بالقرائة ليصرف عن معاني

كلام اللّه فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف، و يخيل (يحيل) إليهم أنّه لم يخرج من

- وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ [سورة الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

د- قوله تعالى:

كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ [سورة التكاثر: ٥- ٧].

ه- قوله تعالى:

وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [سورة الأنعام: ٧٥].

ز- روى الكليني في الكافي ج ٢، ص ٦٣، الحديث ٢، باب حقيقة الايمان و اليقين، باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: انّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب (في حديث آخر هو: حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري) في المسجد و هو يخفق و يهوي برأسه، مصفرا لونه، قد محف جسمه و غارت عيناه في رأسه، فقال له رسول اللّه (ص): كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول اللّه موقنا، فعجب رسول اللّه (ص) من قوله و قال: إنّ لكلّ يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟

فقال: إنّ يقيني يا رسول اللّه هو الّذي أحزنني و أسهر ليلي و أظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدّنيا و ما فيها حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي و قد نصب للحساب و حشر الخلائق لذلك و أنا فيهم و كأنّي أنظر إلى أهل النّار و هم فيها معذبون مصطرخون و كأنّي الآن أسمع زفير النّار، يدور في مسامعي، فقال رسول اللّه (ص) لأصحابه: هذا عبد نوّر اللّه قلبه بالإيمان، ثمّ قال له: ألزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع اللّه لي يا رسول اللّه أن أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول اللّه (ص) فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبيّ (ص) فاستشهد بعد تسعة نفرات و كان هو العاشر.

و راجع أيضا في شرح الحديث مفاتيح الغيب (لمؤلّفه صدر المتألهين) ص ١٨٨ و ٢١٠.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٢٩

مخرجه فيكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف، فمتى تنكشف له المعاني، و أعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعا لمثل هذا التلبس.

و ثانيها، أن يقلّد مذهبا سمعه

، أو تفسيرا ظاهرا نقل إليه عن ابن عباس، أو مجاهد، أو غيرهما فيحمل على التعصّب له من غير علم فيصير نظره موقوفا على مسموعه حتّى لو لاح له بعض الأسرار حمل عليه شيطان التقليد جهله، و لم يسوّغ له مخالفة آبائه و معلّميه في ترك ما هو عليه من الإعتقاد، و إلى مثل هذا أشارت الصوفيّة بقولهم: العلم حجاب، و عنوا بالعلم العقائد الّتي استمرّ عليها أكثر الناس بالتعليم و التقليد، أو بمجرّد كلمات جدليّة حرّرها المتعصّبون للمذاهب، و ألقوها إليهم لا العلم الحقيقيّ الّذي هو المشاهدة بأنوار البصيرة، ثمّ ذلك التقليد قد يكون باطلا كمن يحمل «الاستواء على العرش» على ظاهره فان خطر له في القدّوس أنّه المقدّس عن كلّ ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من استقرار ذلك الخاطر في

نفسه حتّى ينساق إلى كشف ثان و ثالث، و لكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره، و يجعله وسوسة، و قد يكون حقّا و يكون أيضا مانعا من الفهم لأنّ الحقّ الّذي كلّف الخلق طلبه، له مراتب و درجات و ظاهر و باطن، فجمود الطبع على ظاهره يمنع من الوصول إلى الباطن.

فإن قلت: كيف يجوز أن يتجاوز الإنسان المسموع، و قد قال (ص):

من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النّار (١٣٩).

---

(١٣٩) قوله: من فسّر القرآن.

ورد الحديث عن النبيّ الخاتم (ص) و الأئمة المعصومين عليهم السّلام بعبارات مختلفة، نذكرها ذيلا لمزيد الاستفادة و أهميّة الموضوع، فهي:

الصدوق باسناده عن النبيّ (ص) قال: من فسّر القرآن برأيه فقد افترى على اللّه الكذب. كمال الدّين باب ٢٤، الحديث ١، ص ٣٦٩.

روى الصدوق بإسناده عن الإمام السّجاد (ع) النبيّ الخاتم (ص) قال: من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار. التوحيد ص ٩٠، الحديث ٤، و سنن الترمذي ج ٥، ص ١٩٩، الحديث ٢٩٥٠ و ٢٩٥١.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٣٣٠

و في النهي عن ذلك آثار كثيرة.

قلت: الجواب عنه من وجوه:

الأوّل، أنّه معارض بقوله صلّى اللّه عليه و آله:

إنّ للقرآن ظهرا و بطنا و حدّا و مطلعا «١٤٠».

و بقول علي عليه السّلام:

- قال الصادق (ع):

من فسّر القرآن برأيه فأصاب لم يوجر، و ان اخطأ كان إثمه عليه. العياشي في تفسيره ج ١، ص ١٧، الحديث ٢.

قال الصادق (ع): من فسّر القرآن برأيه إن أصاب لم يوجر و إن أخطأ فهو أبعد من السّماء. المصدر الحديث ٤.

أيضا عن الإمام الصادق (ع) قال: من فسّر برأيه آية من كتاب اللّه فقد كفر. المصدر الحديث ٥، و جامع الأصول لابن الأثير ج ٢، ص ٣، الحديث ٤٦٩.

عن النبيّ (ص) قال: من فسّر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ. مجمع البيان ج ١، الفن الثالث من المقدمة ص ٨٠- و كنز العمال ج ٢، ص ١٦، الحديث ٢٩٥٧، و معالم التنزيل ج ١، ص ٢١.

عن النبيّ (ص) قال: من قال في القرآن بغير ما يعلم جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار. الترغيب و الترهيب ج، ص ١٢١، الحديث ٣.

عن النبيّ (ص) قال: من قال في كتاب اللّه برأيه فأصاب فقد أخطأ. التاج ج ٤، ص ٣٦، و جامع الأصول الجزري ج ٢، ص ٣، الحديث ٤٦٩،

و تفسير ابن كثير ج ١، ص ١٠.

و قد مرّ الحديث و بعض مصادره أيضا في الجزء الأوّل من هذا التفسير ص ٢٣٢ و رقم التعليقة ٢٣ فراجع، و انظر أيضا البحار ج ٩٢، ص ١٠٧ باب تفسير القرآن بالمرأى.

(١٤٠) قوله: إنّ للقرآن ظهرا و بطنا.

راجع الجزء الأوّل تعليقتنا الرقم ١٠ و ١١ ص ٢٠٣، و بحار الأنوار ج ٩٢، ص ٧٨، باب ٨ و ذكره أيضا الغزالي في إحياء العلوم ج ١، ص ٨٩ و ٢٨٩ [.....]

.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٣١

إلاّ أن يؤتي اللّه عبدا فهما في القرآن «١٤١».

و لو لم يكن سوى التّرجمة المنقولة فما فائدة ذلك الفهم.

الثاني، أنّه لو لم يكن غير المنقول لاشترط أن يكون مسموعا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، و ذلك ممّا لا يصادف إلاّ في بعض القرآن، و أمّا ما يقوله ابن عباس و ابن مسعود و غيرهما من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل و يقال هو تفسير بالرأي.

الثالث، أنّ الصّحابة و المفسّرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات، فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، و سماع ذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله محال فكيف يكون الكلّ مسموعا.

الرابع، أنّه عليه السّلام دعا لابن عبّاس فقال:

اللّهم فقّهه في الدّين، و علّمه التأويل «١٤٢».

فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل و محفوظا مثله فلا معنى لتخصيص ابن عباس بذلك.

الخامس، قوله تعالى:

لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ [سورة النساء: ٨٣].

فأثبت للعلماء استنباطا، و معلوم أنّه وراء المسموع فإذن الواجب أن يحمل النّهي عن التفسير بالرأي على أحد معنيين:

أحدهما، أن يكون للإنسان في الشّيء رأي و له إليه ميل بطبعه فيتأوّل القرآن على وفق رأيه حتّى لو لم يكن له ذلك الميل لما خطر ذلك التأويل له، و سواء كان الرأي مقصدا صحيحا أو غير صحيح، و ذلك كمن يدعوا إلى مجاهدة القلب القاسي، فيستدلّ على تصحيح غرضه من القرآن بقوله تعالى:

---

(١٤١) قوله: إلاّ أن يؤتي اللّه عبدا.

قد مرّ الحديث و البحث حوله في تعليقتنا الرقم ١٣٥ فراجع.

(١٤٢) قوله: اللّهم فقّهه في الدّين.

راجع تعليقتنا الرقم ٩٢.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٣٢

اذْهَبْ إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏ [سورة طه: ٢٤].

و يشير إلى أنّ قلبه هو المراد بفرعون كما يستعمله بعض الوعّاظ تحسينا للكلام و ترغيبا للمستمع و هو ممنوع.

الثاني، أن يتسرّع إلى تفسير القرآن بظاهر العربيّة من غير استظهار بالسّماع و النقل فيما يتعلّق بغرائب القرآن و ما فيها من الألفاظ المبهمة و ما يتعلّق به من الاختصار و الحذف و الإضمار و التقديم و التأخير و المجاز، فمن لم يحكم ظاهر التفسير و بادر إلى استنباط المعاني بمجرّد فهم العربيّة كثر غلطه و دخل في زمرة من يفسّر بالرأي، مثاله قوله تعالى:

وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها [سورة الإسراء: ٥٩].

فالناظر إلى ظاهر العربيّة ربّما يظنّ أنّ المراد أنّ الناقة كانت مبصرة و لم تكن عمياء، و المعنى: آية مبصرة، ثمّ لا يدري أنّهم إذا ظلموا غيرهم، و من ذلك المنقول المنقلب كقوله تعالى:

وَ طُورِ سِينِينَ [سورة التين: ٢].

أي و طور سينا، و كذلك باقي أجزاء البلاغة، فكلّ مكتف في التفسير بظاهر العربيّة من غير استظهار بالنقل فهو مفسّر برأيه، فهذا هو المنهيّ عنه دون التفهّم لأسرار المعاني، و ظاهر أنّ النقل لا يكفي فيه، و إنّما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر صفاء عقولهم، و شدّة استعدادهم له و للطلب و الفحص و التفهّم و ملاحظة الأسرار و العبر و يكون لكلّ واحد منهم جدّ في الترقي إلى درجة منه بعد الاشتراك في الظّاهر، و مثاله ما فهم بعض العارفين من قوله صلّى اللّه عليه و آله في سجوده:

أعوذ بعفوك من عقابك، و أعوذ برضاك من سخطك، (و أعوذ بمعافاتك من عقوبتك)، و أعوذ بك من منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك (١٤٣).

---

(١٤٣) قوله: أعوذ بعفوك من عقابك.

راجع في هذا تعليقتنا الرقم ٥٢ في الجزء الأوّل ص ٢٨١، و روى الكافي ج ٣،-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٣٣

و فوق ما يقول القائلون، انّه قيل له:

وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ [سورة العلق: ١٩].

فوجد القرب في السّجود فنظر إلى الصّفات فاستعاذ ببعضها من بعض، فانّ الرّضا و السّخط و صفان متضادّان ثمّ زاد قربه فاندرج القرب الأوّل فيه فرقي إلى الذّات، فقال: أعوذ بك منك، ثمّ زاد قربه بما استحيا به على سائر القرب فالتجأ إلى الثّناء، فأثنى بقوله:

لا أحصي ثناء عليك، ثمّ علم أنّ ذلك قصور، فقال: أنت كما أثنيت على نفسك، فهذه خواطر تسنح للعارفين، لا يفهم من تفسير الظاهر و ليس مناقضا له، و إنّما هو استكمال لما تحته من الأسرار.

الثالث، من الموانع أن يكون مبتلى من الدّنيا بهوى مطاع

فانّ ذلك سبب لظلمة القلب و كالصداء على المرآة فيمنع جليّة الحقّ أن يتجلّى فيه، و هو أعظم حجاب للقلب و به حجب الأكثرون، و كلّما كانت الشّهوات أكثر تراكما على القلب كان البعد عن أسرار اللّه أكثر، و لذلك قال صلّى اللّه عليه و آله:

الدّنيا و الآخرة ضرّتان بقدر ما تقرب من إحديهما تبعد من الأخرى (۱٤٤).

- ص ۳۲٤، الحديث ۱۲ بإسناده عن الإمام الباقر أبي جعفر عليه السّلام قال:

كان رسول اللّه (ص) عند عائشة ذات ليلة فقام يتنفّل فاستيقظت عائشة فضربت بيدها فلم تجده فظنّت أنّه قد قام إلى جاريتها فقامت تطوف عليه فوطئت عنقه (ص) و هو ساجد باك يقول:

سجد لك سوادي و خيالي، و آمن بك فؤادي، أبوء إليك بالنعم، و اعترف لك بالذنب العظيم، عملت سوءا و ظلمت نفسي فاغفر لي إنّه لا يغفر الذنب إلاّ أنت، أعوذ بعفوك من عقوبتك، و أعوذ برضاك من سخطك، و أعوذ برحمتك من نقمتك، و أعوذ بك منك لا أبلغ مدحك و الثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أستغفرك و أتوب إليك.

و قريب منه رواه ابن ماجة في سننه ج ۲، ص ۱۲٦۲، الحديث ۳۸٤۱. و راجع أمالي الطوسي ص ۱٥۸، ج ۱، و انظر تعليقتنا الرقم ۲۷ أيضا.

(۱٤٤) قوله: الدّنيا و الآخرة ضرّتان.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۳٤

السابع، يخصّص نفسه بكلّ خطاب في القرآن من أمر أو نهي

، أو وعد أو وعيد، و يقدّر أنّه هو المقصود به، كذلك إن سمع قصص الأوّلين و الأنبياء عليه السّلام علم أنّ السمر «۱٤٥» غير مقصود، و إنّما المقصود الإعتبار، فلا يعتقد أنّ كلّ خطاب خاصّ في القرآن فالمراد به الخصوص فإنّ القرآن و سائر الخطابات الشرعيّة و ارادة بإيّاك أعني و اسمعي يا جاره (۱٤٦)، و هي كلّها نور و هدى و رحمة للعالمين، و لذلك أمر الحقّ تعالى

- الصدوق بإسناده عن الإمام زين العابدين عليه السّلام قال: و اللّه ما الدّنيا و الآخرة إلاّ ككفتي الميزان فأيّهما رجع ذهب بالآخرة. الخصال ج ۱، ص ٦٤، الحديث ۹٥.

تحف العقول ص ۲۱۲ قال عليّ عليه السّلام: الدّنيا و الآخرة عدوّان متعاديان و سبيلان مختلفان، من أحبّ و والاها أبغض الآخرة و عاداها، مثلها مثل المشرق و المغرب و الماشي بينهما لا يزداد من أحدهما قربا إلاّ ازداد من الآخر بعدا.

في بحار الأنوار ج ۷۳، ص ۱۲۲ نقلا عن كتاب عيون الحكم لعليّ بن محمّد الواسطي، قال المسيح عليه السّلام: مثل الدّنيا و الآخرة كمثل رجل له صرّتان، إن أرضى إحداهما أسخت الأخرى.

(۱٤٥) قوله: السمر.

لسان العرب: سمر يسمر سمرا و سمرا: لم ينم. السمر: المسامرة، و هو الحديث بالليل، و السّمرة: الأحدوثة بالليل، و يقال: لا آتيك السّمر و

القمر أي مادام النّاس يسمرون في ليلة قمراء.

الراغب في المفردات: السّمر سواد اللّيل و منه قيل: لا آتيك السّمر و القمر، و قيل:

للحديث باللّيل السّمر و سمر فلان إذا تحدّث ليلا.

المنجد: قوم سمر: متسامرون. الوسيط: سمر سمرا: تحدّث مع جليسه ليلا.

(١٤٦) قوله: إيّاك أعني و اسمعي يا جاره.

مثل يضرب: لمن يتكلّم بكلام و يريد شيئا آخر و يقال:

لمن يتكلّم و ألقى الكلام إلى شخص و المخاطب في الحقيقة غير ذلك الشخص.

قال القميّ في تفسيره في سورة القصص في آية ٨٨ **وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ: المخاطبة للنبيّ و المعنى للنّاس و هو قول الصادق (ع): إنّ اللّه بعث نبيّه بإيّاك أعني و اسمعي يا جارة.**

ج ٢، ص ١٤٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٣٥

الكافّة بشكر نعمة الكتاب فقال:

وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ مٰا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتٰابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ [سورة البقرة: ٢٣١].

و إذ قدّر أنّه المقصود لم يتّخذ دراسة القرآن عملا بل قرأه كقراءة العبد كتاب مولاه الّذي كتبه إليه ليتدبّره و يعمل بمقتضاه كما قال حكيم:

هذا القرآن رسائل (وسائل) أتتنا من قبل ربّنا عزّ و جلّ بعهوده نتدبّرها في الصّلوات، و نقف عليها في الخلوات، و نعدّها (و ننفذها) في الطاعات بالسّنن المتّبعات.

الثامن، التأثّر

و هو أنّ يتأثّر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كلّ فهم حال و وجد يتصف به عند ما يوجّه نفسه في كلّ حالة إلى الجهة الّتي فهمها من خوف أو حزن أو رجاء أو غيره، فيستعدّ بذلك و ينفعل و يحصل له التأثّر و الخشية، و مهما قويت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإنّ التضييق غالب على العارفين فلا يرى ذكر المغفرة و الرّحمة إلاّ مقرونا بشروط يقصر العارف

- أوّل من قال ذلك سهل بن مالك الفزاريّ، حين ما خرج و يريد النعمان، فامّ رحله، فلم يجده و لكن رأى أخته و كانت عقيلة قومها و أجمل أهل دهرها، فقصد خطبتها و لم يدري كيف يعلنها، فجلس بفناء الخباء يوما و هي تسمع كلامه فقال:

يا أخت خير البدو و الحضاره   كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرّة معطارة إيّاك أعني و اسمعي يا جاره

و قيل أيضا:

يا نفس وعظي لك بالإشارة إيّاك أعني و اسمعي يا جاره

و نظيره في اللغة الفارسية:
در بتو ميگويم ديوار تو بشنو.
دختر بتو مى‌گويم عروس تو گوش كن.
سخن را روى با صاحبدلان است سخن خود را كجا شنيدى آنجا كه سخن ديگران را راجع: «مجمع الأمثال» للنيسابوري الميداني و «فرائد اللئال في مجمع الأمثال» للشيخ إبراهيم الطرابلسي، و «أمثال و حكم» دهخدا ج ١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٣٦

عن نيلها كقوله تعالى:
وَ إِنِّي لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً ثُمَّ اهْتَدىٰ [سورة طه: ٨٢].
فإنّه قرن المغفرة بهذه الشروط الأربعة، و كذلك قوله:
وَ الْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَفِي خُسْرٍ [سورة العصر: ١- ٢].
السّورة ذكر فيها أربعة شروط، و حيث أوجزه و اقتصر، ذكر شرطا واحدا جامعا للشرائط، فقال تعالى:
إِنَّ رَحْمَتَ اللّٰهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [سورة الأعراف: ٥٦].
إذ كان الإحسان جامعا لكلّ الشّرائط، و تأثر العبد بالتّلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوّة، فعند الوعيد يتضاءل من خشية اللّه، و عند الوعد يستبشر فرحا باللّه، و عند ذكر صفات اللّه و أسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله، و عند ذكر الكفّار في حقّ اللّه ما يمتنع عليه كالصحابة و الولد يغضّ صوته، و ينكسر في باطنه حياء من قبح أفعالهم، و يكبّر اللّه و يقدّسه عمّا يقول الظالمون، و عند ذكر الجنّة ينبعث بباطنه شوقا إليها، و عند ذكر النّار ترعد فرائصه خوفا منها و لمّا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لابن مسعود «١٤٧»:
اقرأ عليّ، قال: فافتتحت سورة النساء، فلمّا بلغت:

---

(١٤٧) قوله: قال رسول اللّه (ص) لابن مسعود.

أخرجه الغزالي في إحياء العلوم ج ١، ص ٢٨٠، و ص ٢٨٦، و رواه أيضا الشهيد الثاني في (أسرار الصّلاة) في وظائف القارئ في الرقم السادس ص ١٥٤.

و لفظ الحديث كما في الدّر المنثور في سورة النساء في تفسير الآية ٤١ فهو روى عن البخاري و الترمذي و النسائي و غيرهم، هكذا: قال ابن مسعود: قال لي رسول اللّه (ص): «اقرأ عليّ، قلت: يا رسول اللّه أقرأ عليك و عليك أنزل؟! قال: نعم، إنّي أحبّ أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء حتّى أتيت على هذه الآية: **فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً فقال حسبك الآن .. فإذا عيناه تذرفان».**

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٣٧

فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً [سورة النساء: ٤١].

رأيت عينيه تذر فان من الدمع، فقال لي: حسبك الآن.

و ذلك لاستغراق تلك الحالة بقلبه بالكلّيّة، و بالجملة فالقرآن إنّما يراد بهذه الأحوال و استجلابها إلى القلب و العمل بها، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم و لانت عليه (له) جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرؤونه «١٤٨».

و قال تعالى:

الَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً [سورة الأنفال: ٢].

و إلّا فالمؤونة في تحريك اللّسان خفيفة، قال بعضهم، (بعض القراء):

قرأت (القرآن) على شيخ لي، ثمّ رجعت اقرأ عليه ثانيا فانتهرني و قال: جعلت القراءة عملا، اذهب فاقرأه على اللّه تعالى، و انظر ماذا يأمرك، و ماذا يفهمك.

و مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «١٤٩» عن عشرين ألفا من الصّحابة لم يكن ليحفظ القرآن (منهم) غير ستّة، و اختلف منهم في إثنين، و كان أكثرهم يحفظ السورة و السورتين، و كان الّذي يحفظ البقرة و الأنعام من علمائهم.

---

(١٤٨) قوله: اقرءوا القرآن.

رواه الشهيد الثاني في أسرار الصّلاة ص ١٥٥ و الغزالي ج ١، ص ٢٨٦، و رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب ٦٠٦ باب اقرءوا القرآن الحديث ١٤٨٦، ج ٦، ص ٦٠٣- و رواه الدارمي ج ٢، ص ٥٣٤ باب إذا اختلفتم بالقرآن الحديث ٣٣٥٩، و ابن حنبل ج ٤، ص ٣١٣ و في روايتهم هكذا: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه

. (١٤٩) قوله: و مات رسول اللّه (ص).

راجع إحياء العلوم ج ١، ص ٢٨٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٣٨

كلّ ذلك من اشتغالهم (لاشتغالهم) بتفهّم معاني القرآن عن حفظه كلّه، و جاء إليه (ص) واحد ليعلّمه القرآن فانتهى إلى قوله تعالى:

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [سورة الزلزلة: ۷- ۸].

فقال: يكفيني هذا و انصرف، فقال رسول اللّه (ص) انصرف الرجل و هو فقيه «۱۵۰».

فالعزيز مثل تلك الحالة الّتي يمنّ اللّه تعالى بها على القلب عقيب تفهّم الآية، و أمّا التالي باللسان المعرض عن العمل فجدير بأن يكون المراد بقوله تعالى:

وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ [سورة طه: ١٢٤].

و إنّما حظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، و حظّ العقل تفسير المعاني، و حظّ القلب الاتّعاظ و التأثّر بالانزجار و الائتمار.

التاسع، الترقي

، و هو ان يوجّه قلبه و عقله إلى القبلة الحقيقيّة فيسمع الكلام من اللّه تعالى لا من نفسه.

و

درجات القراءة ثلاث

:

---

(۱۵۰) قوله: «و جاء إليه (ص) واحد.

رواه الغزالي في احياء العلوم ج ۱، ص ۲۸۷ و الشهيد الثاني في أسرار ص ۱۵۵، و في المستدرك للحاكم ج ۲، ص ۵۳۲، بإسناده عن عبد اللّه بن عمرو قال:

أتى رجل رسول اللّه (ص) فقال: أقرئني يا رسول اللّه، فقال له: اقرأ ثلاثا من ذوات الراء، فقال الرجل: كبرت سنّي و اشتدّ قلبي و غلظ لساني، قال: اقرأ ثلاثا من ذوات حم فقال مثل مقالته الأولى، فقال اقرأ ثلاثا من المسبحات فقال مثل مقالته، فقال الرجل يا رسول اللّه اقرئني سورة جامعة، فاقرأه رسول اللّه (ص) إذا زلزلت حتّى فرغ منها، فقال الرّجل: و الّذي بعثك بالحقّ لا أزيد عليه أبدا، ثمّ أدبر الرّجل، فقال رسول اللّه (ص): أفلح الرويجل، ثمّ ذكر ما يقيمه.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۳۳۹

أدناها ان يقدّر العبد كأنّه يقرأ على اللّه تعالى واقفا بين يديه

و هو ناظر إليه، و مستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السئوال و التضرّع و الابتهال.

الثانية، أن يشهد كأنّه يخاطبه بألطافه و يناجيه بإنعامه و إحسانه

، و هو في مقام الحياء و التعظيم لمنن اللّه و الإصغاء إليه و الفهم عنه.

الثالثة، أن يرى في الكلام المتكلّم، و في الكلمات الصّفات

، و لا ينظر إلى قلبه و لا إلى قراءته و لا إلى التعلّق بالإنعام من حيث هو منعم عليه بل يقصر الهمّ على المتكلّم، و يوقف فكره عليه و يستغرق في مشاهدته، هذه درجة المقرّبين، عنها أخير الصادق جعفر بن محمّد الباقر عليه السّلام فقال:

لقد تجلّى اللّه تعالى لخلقه في كلامه و لكنّهم لا يبصرون «١٥١».

و قال أيضا و قد سألوه عن حالة لحقته في الصّلاة (١٥٢) حتّى خرّ مغشيّا عليه، فلمّا أفاق

---

(١٥١) قوله: أخبر جعفر بن محمّد الصادق (ع).

قد مرّ الحديث في الجزء الأول ص ٢٠٧ و ذكرناه في تعليقتنا الرقم ١١ فراجع و ذكره الغزالي في احياء العلوم ج ١، ص ٢٨٧ و الشهيد الثاني في أسرار الصّلاة ص ١٥٧. [.....]

(١٥٢) قوله: و قال أيضا و قد سألوه عن حالة لحقته في الصّلاة.

رواه الغزالي في إحياء العلوم ج ١، ص ٢٨٧ و الشهيد الثاني في أسرار الصّلاة ص ١٥٧ و في (فلاح السائل) للسيّد ابن طاوس ص ١٠٧:

فقد روى انّ مولانا جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام كان يتلو القرآن في صلاته فغشي عليه فلما أفاق سئل ما الّذي أوجب ما انتهت حالك إليه؟ فقال: ما معناه: ما زلت اكرّر آيات القرآن حتّى بلغت إلى حال كأنّي سمعت مشافهة ممّن أنزلها على المكاشفة و العيان، و فيه أيضا ص ١٠٤:

فقد روى محمّد بن يعقوب الكليني ما معناه: أنّ مولانا زين العابدين و هو صاحب المقام المكين، كان إذا قال: مالك يوم الدّين يكرّرها في قراءته حتّى يظنّ من يراه أنّه قد أشرف على مماته، و ما لخوف منه يحذرون و لا الخنا عليهم و لكن هيبة هي ماهيا.

روى الكليني في الكافي ج ٢، ص ٦٠٢، الحديث ١٣ بإسناده عن الإمام زين العابدين-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٣٤٠

قيل له في ذلك فقال:

ما زلت (اردّد) اكرّر هذه الآية على قلبي حتّى سمعت (سمعتها) من المتكلّم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته.

ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة، و بهذا الترقّي يكون العبد ممتثلا لقوله تعالى:

فَفِرُّوا إِلَى اللهِ [سورة الذاريات: ٥٠].

و بمشاهدة المتكلّم دون ما عداه يكون ممتثلا لقوله تعالى:

وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ [سورة الذاريات: ٥١].

فإنّ رؤية غير اللّه معه شرك خفيّ لا مخلص منه إلّا برؤيته وحده.

العاشر، التبرّي

، و المراد به أن يبرأ من حوله و قوّته و لا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا و التزكية (فإذا تلا آيات الوعد و مدح الصالحين حذف نفسه عن درجة الإعتبار و شهد فيها الموقنين و الصّديقين، و يشوّق إلى أن يلحقه اللّه تعالى بهم)، و إذا تلا آيات المقت و الذمّ للمقصّرين شهد نفسه هناك و قدّر أنّه المخاطب خوفا و إشفاقا.

قيل ليوسف بن أسباط: إذا قرأت القرآن بما ذا تدعو، قال: بما ذا أدعو أستغفر اللّه عن تقصيري سبعين مرّة، و من رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان ذلك سبب قربه، فإنّ من شهد البعد في القرب لطف له بالخوف حتّى يسوقه إلى درجة أعلى في القرب، و من شهد القرب في البعد ردّه أمنه إلى درجة أدنى في البعد ممّا هو فيه، و مهما شاهد نفسه

بعين الرّضا صار محجوبا بنفسه، فإذا جاوز حدّ الالتفات إلى نفسه و لم يشاهد إلاّ اللّه في قراءته انكشف له الملكوت، و المكاشفات تابعة لحال المكاشف، فحيث يتلوا آيات الرجاء يغلب عليه استبشار و ينكشف له صورة الجنّة فيشاهدها كأنّه يراها، و إن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتّى يرى أنواع عذابها، و ذلك لأنّ

- علي بن الحسين عليه السّلام قال: لو مات من بين المشرق و المغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي، و كان عليه السّلام إذا قرأ **مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ يكرّرها حتّى كاد أن يموت.**

و روى مثله العياشي في تفسيره في سورة الحمد ص ٢٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٤١

كلام اللّه تعالى وارد باللطف و السهولة و الشدّة و العسف و الرّجاء و الخوف و ذلك بحسب أوصافه إذ منها الرّحمة و اللطف و الإنعام و البطش، فبحسب مشاهدة الكمالات و الصفات يتقلّب في اختلاف الحالات، و بحسب كلّ حالة منها يستعدّ لنوع من المكاشفة مناسب لتلك الحالة إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحدا و المسموع مختلف، إذ فيه كلام رضي، و كلام غضب، و كلام إنعام، و كلام انتقام، و كلام جبروت و تكبّر، و كلام جنّة و تعطّف.

فهذه هي وظائف التلاوة و لنرجع إلى المتن فنقول:

قوله: «و خلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملا بغير طريق واضح و لا علم قائم».

إشارة إلى وضح ما يجب وضعه في الحكمة الإلهيّة على ألسنة الرسل عليهم السّلام من العبادات الشرعيّة و القوانين الكلّيّة التي بها يبقى ذكر اللّه سبحانه محفوظا، و استعمال لفظ القائم هاهنا استعارة حسنة للآثار الباقية عن الأنبياء الّتي يهتدي بها الأوصياء و الأولياء الّذين يرجع إليهم الخلق.

قوله: «كتاب ربّكم»، عطف بيان لما في قوله: «ما خلّفت الأنبياء»، و لا ينبغي أن يفهم من «ما» شخص الكتاب حتّى يكون ما أتى به محمد (ص) من الكتاب هو عين ما أتت به الأنبياء السّابقون عليهم السّلام و شخصه فإنّ ذلك محال، بل المراد «بما» نوع ما خلفت الأنبياء في أممها من الحقّ، و ما جاء به محمّد (ص) شخص من أشخاص ذلك النوع، و بيان ذلك أنّ القوانين الكلّيّة الّتي اشتركت في الإتيان بها جميع الأنبياء عليهم السّلام من التوحيد و التنزيه للّه تعالى و أحوال البعث و القيامة و سائر القواعد الكلّيّة الّتي بها يكون النظام الكلّي للعالم كتحريم الكذب و الظلم و القتل و الزنا و غير ذلك ممّا لم يخالف فيه نبيّ نبيّا بمنزلة بماهيّة واحدة كلّيّة وجدت في أشخاص، و كما تعرض لبعض أشخاص الماهيّة عوارض لا تكون للشخص الآخر و بها يكون اختلاف بين الأشخاص بحسب الموادّ الّتي نشأت منها الصّور الشخصيّة، كذلك الكتب المنزلة على ألسنة الأنبياء عليهم السّلام بمنزلة أشخاص اشتملت على ماهيّة واحدة تختلف بحسب الزيادات و العوارض على تلك الماهيّة بحسب اختلاف الأمم

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٤٢

و الأوقات المشتملة على المصالح المختلفة باختلافها.

قوله: «مبيّنا»، منصوب على الحال و العامل خلّف و ذو الحال الفاعل و هو ضمير النبيّ صلّى اللّه عليه و آله.

قوله: «حلاله و حرامه، و فضائله و فرائضه»، إشارة إلى الأحكام الخمسة الشرعيّة الّتي يدور عليها علم الفقه، و هي الوجوب و الندب و الحظر و الكراهة و الإباحة، و عبّر بالحلال عن المباح و المكروه، و بالحرام عن المحظور، و بالفضائل عن المندوب، و بالفرائض عن الواجب، و بالنسخ عن رفع الحكم الثابت بالنصّ المتقدّم بحكم آخر مثله، فالناسخ هو الحكم الرافع كقوله:

فَاقْتُلوا الْمُشْرِكينَ [سورة التوبة: ٥].

و المنسوخ هو الحكم المرفوع، كقوله:

لاٰ إِكْرٰاهَ فِي الدِّينِ [سورة البقرة: ٢٥٦].

و بالرخص عمّا أذن في فعله مع قيام السبب المحرّم له لضرورة أو غيرها كقوله:

فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ [سورة البقرة: ١٧٣].

و بالغرائم عمّا كان من الأحكام الشرعيّة جاريا على وفق سببه الشرعي لقوله:

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ [سورة محمّد: ١٩].

و بالعام هاهنا عن اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد، كقوله تعالى:

وَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة النساء: ١٧٦].

و كقوله:

وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ حِجُّ الْبَيْتِ.

و بالخاصّ عمّا لم يتناول الجميع بالنسبة إلى ما يتناوله كقوله:

مَنِ اسْتَطٰاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً [سورة آل عمران: ٩٧].

و الخاصّ المطلق هو ما يمنع تصوّر مفهومه من وقوع الشركة فيه كما عرفته، و العبر

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٤٣

جمع عبرة و هي الإعتبار و اشتقاقها من العبور و هو انتقال الجسم من موضع إلى آخر، و لما كان الذّهن ينتقل من الشيء إلى غيره حسن إطلاق العبرة عليه، و أكثر ما يختصّ إطلاق العبرة بانتقال ذهن الإنسان من المصائب الواقعة بالغير أو (الأمور) المكروهة له إلى نفسه فيقدّرها كأنّها نازلة به فيحصل له بسبب ذلك انزعاج عن الدنيا و انتقال الذهن إلى ما ورائها من أمر المعاد و الرجوع إلى بارئه و يسمّى ذلك عبرة، و كذلك من المصائب اللاحقة له في نفسه المذكّرة له بجناب العزّة و الملفتة له بتكرارها عن دار البلوى و المحن، فينتقل ذهنه بسببها إلى أنّ الدنيا دار البوار و أنّ الآخرة هي دار القرار، و ذلك كقصّة أصحاب الفيل، و كقوله:

فَقٰالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكٰالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولىٰ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ [سورة النازعات: ٢٦].

و قوله تعالى:

وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ [سورة الذّاريات: ٢١].

و إن كان قد تستعمل العبرة في كلّ ما يفيد اعتبارا من طرف الإحسان أيضا، كقوله تعالى:

وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمّٰا فِي بُطُونِهٰا [سورة المؤمنون: ٢١].

و كقوله تعالى:

فِئَةٌ تُقٰاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ أُخْرىٰ كٰافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشٰاءُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصٰارِ [سورة آل عمران: ١٣].

فجعل سبحانه نصر المؤمنين على قلّتهم، و خذلان المشركين على كثرتهم، و مشاهدة المسلمين لكونهم مثليهم محلاّ مثليهم محلاّ للعبرة، إذ يحصل بذلك انتقال الذّهن من نعمه إلى أنّه الإله المطلق المستحقّ للعبادة، المتفرّد بالقدرة على ما يشاء أهل الرحمة و الجود و إفاضة تمام الوجود.

و أمّا الأمثال فظاهرة كقوله تعالى:

ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ [سورة النحل: ٧٥].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٤٤

و كقوله:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نٰاراً [سورة البقرة: ١٧].

و نحوه.

و أراد بالمرسل الألفاظ المطلقة المهملة و هي الألفاظ الّتي لا تمنع نفس مفهوماتها وقوع الشركة فيها لكنّها لم تبيّن فيها كميّة الحكم و مقداره، و لم تقيّد بقيد (يفيد) العموم و لا الخصوص و هي محتملة لهما كأسماء المجموع في النكرات، كقوله تعالى:

وَ عَلَى الْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ [سورة الأعراف: ٤٦].

و كان لمفرد المعرّف باللام أو المنكّر، كقوله:

وَ الْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَفِي خُسْرٍ [سورة العصر: ١- ٢].

و كقوله:

إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ [سورة الحجرات: ٦].

و قوله:

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ [سورة النساء: ٩٢].

فإنّ كلّ هذه الألفاظ يراد بها الطبيعة دون الكلّ أو البعض إلاّ بدليل منفصل، و الفرق بينها و بين العام، أنّ لكلّ شيء ماهيّة هو بها ما هو، و هي مغايرة لكلّ ما عداها فإنّ مفهوم الإنسان مثلا ليس إلاّ أنّه الإنسان، فأمّا أنّه واحد أو كثير، أو ليس أحدهما فمفهوم آخر مغاير لماهيّته.

إذا عرفت ذلك فاللفظ الدالّ على الحقيقة من حيث هي من غير دلالة على شيء آخر معها هو اللفظ المطلق و المهمل، و الدالّ معها على قيد العموم بحيث يفهم منه تعدّد الماهيّة و تكثرها في جميع مواردها فهو اللفظ العامّ، أو في بعض مواردها و هو الخاصّ، و إن كان العموم و الخصوص للمعاني، و أراد بالحدود المقيّد، كقوله تعالى في الكفّارة في موضع آخر:

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ [سورة النساء: ٩٢].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٤٥

و أمّا المحكم و المتشابه و المجمل و المبيّن فقد سبق بيانها في المقدّمة مثال المحكم قوله تعالى:

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ [سورة التوحيد: ١].

مثال المتشابه قوله:

الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ [سورة طه: ٥].

مثال المجمل، قوله تعالى:

إِلاَّ ما يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ [سورة المائدة: ١].

و قوله:

وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذٰلِكُمْ [سورة النساء: ٢٤].

مثال المبيّن، قوله بعد ذلك:

أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِكُمْ [سورة النساء: ٢٤].

و التفسير هو التبيين، و الغوامض دقائق المسائل، و إنّما أضاف هذه المعاني كلّها إلى الكتاب لاشتماله عليها و كونه مبدءا لها، و لمّا كانت محتاجة إلى البيان كان الرّسول (ص) هو المبيّن لها بسنّته الكريمة.

قوله: «بين مأخوذ ميثاق علمه، و موسّع على العباد في جهله» إلى آخره.

الضمائر تعود إلى الأحكام المذكورة المشتمل عليها الكتاب العزيز و ذكر عليه السّلام منها أنواعا:

أحدها، ما يجب تعلّمه و غير موسّع للخلق في جهله كوحدانيّة الصانع و أمر المعاد و العبادات الخمس و شرائطها.

و ثانيها، ما لا يتعيّن على كافّة الخلق كافّة الخلق العلم به، بل يعذّر بعضهم في الجهل و يوسّع لهم في تركه كالآيات المتشابهات، و كأوائل السور كقوله تعالى:

كهيعص، و حمعسق، و نحوها.

و ثالثها، ما هو مثبت في الكتاب فرضه معلوم في السنّة نسخه، و ذلك كقوله تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٤٦

وَ اللاَّتِي يَأْتِينَ الْفٰاحِشَةَ مِنْ نِسٰائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتّٰى يَتَوَفّٰاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً وَ الَّذٰانِ يَأْتِيٰانِهٰا مِنْكُمْ فَآذُوهُمٰا فَإِنْ تٰابٰا وَ أَصْلَحٰا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمٰا [سورة النساء: ١٥- ١٦].

فكانت الثيّب إذا زنت في بدو الإسلام تمسّك في البيوت إلى الممات، و البكر تؤذى بالكلام و نحوه بمقتضى هاتين الآيتين، ثمّ نسخ ذلك في حقّ الثيّب بالرجم، و في حقّ البكر بالجلد و التعذيب بحكم السنّة (١٥٣).

---

(١٥٣) قوله: ثمّ نسخ ذلك.

الفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال، و يشتدّ قبحه من الذنوب و المعاصي، و الفحش في اللّغة بمعنى الزّيادة و الكثرة، و التعدّي عمّا يعتاد، فكلّ شيء جاوز قدره و حدّه فهو فاحش.

تطلق الفاحشة في القرآن على الزنا كما في قوله تعالى:

وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنىٰ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً وَ سٰاءَ سَبِيلاً [سورة الإسراء: ٣٢].

و قوله تعالى:

وَ لاٰ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مٰا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاّٰ أَنْ يَأْتِينَ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ عٰاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ [سورة النساء: ١٩].

و تطلق على اللواط أيضا كما في قوله تعالى:

وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ [سورة النمل: ٥٤].

فالفاحشة تعمّ السحق و الزنا و اللواط.

و مفهوم **وَ نِسٰاءِكُمْ في الآية الكريمة غير ما يفهم من قولنا: من أزواجكم فالنساء غير الأزواج و إضافة «النساء» بـ «كم» لا تدلّ على اختصاصها بالأزواج كما تشهد عليه الآيات التالية:**

فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَكُمْ وَ نِسٰاءَنٰا وَ نِسٰاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنٰا وَ أَنْفُسَكُمْ [سورة آل عمران: ٦١].

قٰالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنٰاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسٰاءَهُمْ [سورة الأعراف: ١٢٧].

قٰالُوا اقْتُلُوا أَبْنٰاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسٰاءَهُمْ [سورة غافر: ٢٥].

يُذَبِّحُونَ أَبْنٰاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰاءَكُمْ [سورة البقرة: ٤٩].-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٤٧

- فليس المقصود في الآية المذكورة خصوص الأزواج و هذا ظاهر.

فظهور الآية - مع غض النظر عن الأحاديث و الأقوال و الفتاوي - في أنّ «اللاّتي» شاملة للمحصنة و غير المحصنة، و الثيّب و غيرها و ذات البعل و الباكرة، فتختصّ الآية الأولى للنسوة، و أمّا الآية الثانية فتشمل الرجال فقط، فهي ظاهرة في اللواط و إن لا يبعد شمولها للزنا أيضا.

فنقول: إنّ الآيتين المذكورتين تبيّنان وظيفة المسلمين في قبال الّذين ارتكبوا الفاحشة، و هذا هو الّذي حكمت به الآيتين و هذا الحكم باق مستمرّ إلى يوم القيامة لأنّه من ظهور الآيتين، و الظهور حجّة ما لم يكن هناك دليلا على خلافه، و ليعلم أنّ هذا الحكم من باب دفع المنكر و منع المرتكب، كما روى الطوسي بسند صحيح عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: جاء رجل إلى رسول اللّه (ص) فقال: إنّ أمّي لا تدفع يد لامس، فقال: فاحبسها، قال: قد فعلت، قال: فامنع من يدخل عليها، قال: قد فعلت، قال: قيّدها فإنك لا تبرّها بشيء أفضل من أن تمنعها من محارم اللّه عزّ و جلّ. الوسائل ج ١٨، ص ٤١٤ باب ٤٨ من أبواب حدّ الزنا.

و أمّا حكم القاضي - بعد أن سلّط عليهم - بالحد يعني الجلد أو القتل أو الرجم، امر آخر أجنبيّ عن هذا الحكم المستفاد من الآيتين و لا تداخل بينهما.

فالمخاطب بهذا الحكم يعني وجوب إمساك المرأة الّتي ارتكبت الفاحشة في البيت حتّى يفرّج اللّه عنها، و إيذاء الرجل المرتكب للفاحشة حتّى يتوب، المسلمون مطلقا يعني من يتعلّق بالمرتكب.

فحكم الحدّ يجب أن يجري بيد الحاكم و القاضي، و أمّا هذا الحكم فيجب أن يعمل به الزوج، أو الوليّ أو الأسرة قبل أن يطلع القاضي أو الحاكم على ارتكاب الشخص العاصي الفاحشة.

و أمّا السّبيل فيحصل إمّا بالتوبة النصوح الصادقة الّتي يؤمّن معها من ارتكاب الفاحشة مرّة ثانية، و إمّا بخروج المرأة عن قابليّة ارتكاب الفاحشة لكبر سنّها و نحوه، و إمّا بغير ذلك من الأسباب المؤمّنة من الارتكاب.

هذا ما يقتضيه ظهور الآيتين، فالآيتان اجنبيّتان عن موضوع النسخ تماما، و باقي الأبحاث المرتبطة موكول إلى الفقه.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۴۸

- و أمّا ما ورد من الرّوايات في أنّ الآية منسوخة فهي ضعاف لا يعتمد عليها فهي ما يلي:

ألف- روى الكليني محمّد بن يعقوب، عن علي بن محمّد، عن بعض أصحابه، عن آدم ابن إسحاق، عن عبد الرزّاق بن مهران، عن الحسين بن ميمون، عن محمّد بن سالم، عن أبي جعفر عليه السّلام قال:- الحديث طويل- (منه في تفسير السبيل) قال: و سورة النّور أنزلت بعد سورة النساء و تصديق ذلك أنّ اللّه عزّ و جلّ أنزل عليه في سورة النساء:

وَ اللاَّتِي يَأْتِينَ الْفٰاحِشَةَ مِنْ نِسٰائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتّٰى يَتَوَفّٰاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيلاً و السبيل الّذي قال اللّه عزّ و جلّ: سُورَةٌ أَنْزَلْنٰاهٰا وَ فَرَضْنٰاهٰا وَ أَنْزَلْنٰا فِيهٰا آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الزّٰانِيَةُ وَ الزّٰانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وٰاحِدٍ مِنْهُمٰا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لاٰ تَأْخُذْكُمْ بِهِمٰا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لْيَشْهَدْ عَذٰابَهُمٰا طٰائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [سورة النور: ۱ و ۲] اصول الكافي ج ۲، ص ۳۳.

و في سنده مع إرساله مجاهيل فلا يمكن الاعتماد عليه.

ب- ما رواه العياشي في تفسيره مرسلا، ج ۱، ص ۲۲۷ في تفسير الآية الحديث ۶۰ و ۶۱ عن جابر، عن أبي أبي جعفر (ع) في قول اللّه تعالى: **وَ اللاَّتِي يَأْتِينَ الْفٰاحِشَةَ مِنْ نِسٰائِكُمْ إلى سَبِيلاً قال: منسوخة و السبيل هو الحدود.**

و عن أبي بصير، عن أبي عبد اللّه عليه السّلام، قال: سألته عن هذه الآية **وَ اللاَّتِي يَأْتِينَ الْفٰاحِشَةَ مِنْ نِسٰائِكُمْ إلى سَبِيلاً [قال]: هذه منسوخة، قال: قلت: كيف كانت؟ قال: المرأة إذا فجرت فقام عليها أربعة شهود، أدخلت بيتا و لم تحدث و لم تكلّم و لم تجالس، و أوتيت فيه بطعامها و شرابها حتّى تموت، قلت: فقوله: أَوْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيلاً قال: السبيل الجلد و الرجم و الإمساك في البيوت، قال: قلت: قوله: وَ الَّذٰانِ يَأْتِيٰانِهٰا مِنْكُمْ؟ قال: يعني البكر إذا أتت الفاحشة الّتي أتتها هذه الثيّب، فَآذُوهُمٰا قال تحبس، فَإِنْ تٰابٰا وَ أَصْلَحٰا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمٰا إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ تَوّٰاباً رَحِيماً.**

و هذا الحديثان أيضا مرسلان كما هو ظاهر.

ج- ما رواه أبو عبد اللّه محمّد بن إبراهيم بن جعفر النعماني، عن أحمد بن محمّد بن سعيد ابن عقدة، عن أحمد بن يوسف بن يعقوب الجعفي، عن إسماعيل بن مهران، عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبيه، عن إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبد اللّه جعفر بن محمّد-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۴۹

و رابعها، ما هو بعكس ذلك أي مثبت في السنّة: أخذه مأذون في الكتاب في تركه، و ذلك كالتوجّه إلى بيت المقدّس في ابتداء الإسلام، فانّه كان ثابتا في السنّة ثمّ نسخ بقوله تعالى:

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاٰهاٰ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ حَيْثُ مٰا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [سورة البقرة: ١٤٤].

و كثبوت صلاة الخوف في القرآن حال القتال الرافع لجواز تأخيرها في السنّة إلى انجلاء القتال.

و خامسها، ما يجب لوقته و يزول في مستقبله كالحجّ الواجب في العمر مرّة، و كالنذور المقيّدة بوقت معيّن و أمثالها، فإنّ وجوبها تابع لوقتها المعيّن و لا يتكرّر بتكرّر أمثاله.

قوله: «و مباين بين محارمه»، عطف على المجرورات السابقة و الياء المفتوحة، و في معنى الكلام و تقديره لطف، فإنّ المحارم لمّا كانت هي محالّ الحكم المسمّى بالحرمة صار المعنى: و بين حكم مباين بين محالّة هو الحرمة.

و قوله: «من كبير أوعد عليه نيرانيه، أو صغير أرصد له غفرانه».

بيان لتلك المحالّ و إشارة إلى تفاوتها بالشدّة و الضعف في كونها مبعّدة عن رحمة اللّه على سبيل الجملة، فالأوّل كالقتل في قوله تعالى:

- الصادق عليه السّلام يقول: ... فكانت من شريعتهم في الجاهليّة أنّ المرأة إذا زنت حبست في بيت و أقيم بأودها حتّى يأتي الموت، و إذا زنى الرّجل نفوه عن مجالسهم و شتموه و آذوه و عيّروه و لم يكونوا يعرفون غير هذا.

قال اللّه تعالى في أوّل الإسلام: **وَ اللاّٰتِي يَأْتِينَ الْفٰاحِشَةَ - الآيتين.**

فلمّا كثر المسلمون، و قوي الإسلام، و استوحشوا أمور الجاهليّة، أنزل اللّه تعالى:

الزّٰانِيَةُ وَ الزّٰانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وٰاحِدٍ مِنْهُمٰا مِائَةَ جَلْدَةٍ إلى آخر الآية، فنسخت هذه الآية آية الحبس و الأذى. البحار ج ٩٣، ص ١.

في سند هذه الرواية أيضا مجهول و ضعيف و مردّد، فلا يعتمد عليها.

و اللّه العالم.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٥٠

وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ [سورة النساء: ٩٣].

و كذلك ساير الكبائر من الظلم و الزنا و غيرها، و الثاني، قال الفقهاء كالتطفيف بالحبّة، و سرقة باقة من بصل و نحو ذلك، و إرصاد الغفران بإزاء هذه و أمثالها في الكتاب العزيز كقوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ [سورة فصّلت: ٤٣].

للناس على ظلمهم.

و ساير آيات الوعد بالمغفرة، فإنّها إن كانت عامّة في كلّ الذنوب فالصغائر داخلة بطريق الأولى و إلاّ كانت محمولة على الصغائر، و سرّ أولويّتها بالغفران أنّها لا يكاد تكسب النّفس ملكة الإفراط و الجور إلاّ عن بعد بعيد و تكرار طويل بخلاف الكبائر، فإنّ الإقدام عليها في غالب الأحوال لا يقع إلاّ عن نفس مستعدّة للشرّ، بعيدة عن رحمة اللّه، و باللّه العصمة التوفيق.

الفصل الخامس: في الحجّ و ترتيبه و أركانه.

و هذا الفصل له طول و عرض، و هذا المقام غير محتاج إليه لأن غرضنا من نقل هذه الخطبة مع شرحها كما سبق ذكره، كان بيان إيجاد العالم و إيجاد آدم من الأسفل إلى الأعلى و بالعكس، و بيان الملائكة و الجنّ و كيفيّة السجود و التّرك و غير ذلك، ثمّ بيان الكتاب القرآني و ما اشتمل عليه من العلوم و الأسرار، استشهادا و إعضادا بقوله عليه السّلام، و قد حصل.

و أمّا الحجّ و أقسامه و ترتيبه، فسيجيء في موضعه من المقدّمة السادسة، و نفس التأويل أيضا إن شاء اللّه.

هذا آخر بحث العالم المعبّر عنه بالآفاق و ما يتعلّق به من كلامنا و كلام غيرنا من الأئمّة و المشايخ رضوان اللّه عليهم أجمعين، تارة من الأعلى إلى الأسفل و تارة من الأسفل إلى الأعلى، مضافا إلى بحث آدم و إبليس و الملك و الجنّ و الجنّة و النّار و غير ذلك من الأسرار، و حيث فرغنا من هذا بهذه الوجوه المختلفة و الاستشهادات المتنوّعة، نقطع هذا البحث عليه و نشرع في غيره و هو بحث الحروف و تطبيقها بالعالم إجمالا و تفصيلا كما شرطناه في أوّل الكتاب، و خصّصنا به المقدّمة الثالثة و هي هذه:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۵۱

المقدّمة الثالثة

في بيان الحروف الآفاقيّة الإلهيّة و تطبيقها بالحروف القرآنيّة مطابقا للحروف الأنفسيّة الإنسانيّة

اعلم، أنّ هذه المقدّمة مشتملة على بيان حروف اللّه الآفاقيّة و تطبيقها بحروف اللّه القرآنية، و بيان أنّ العالم على سبيل الإجمال واقع على ترتيبها، و بل الوجود مطلقا مع مظاهره العلويّة و السفليّة المعبّر عنها بالكتب و الصحف تارة، و بالآيات و الكلمات و الحرف أخرى، و الحقّ أنّه إذا ثبت أنّ الوجود كلّه كتاب اللّه الكبير المشتمل على حروفه و كلماته و آياته، لم يكن هذا البحث ضروريّا لأنّه يفهم منه المقصود، لكن لمّا تقرّر في الفهرست أن نبيّنه على سبيل التفصيل دون الإجمال، صار ضروريّا، و معلوم أنّ فائدة التفصيل أعظم من فائدة الإجمال، و عليه تقديم بحث الحروف على بحث الكلمات و الآيات، و هي أنّ الكلمات و الآيات مركّبان من الحروف، و تقديم البسائط على المركّبات أمر ضروريّ كتقديم أجزاء الكلّ على الكلّ، و هذا ترتيب طبيعيّ و قانون عقلي لا يجوز خلافه.

و إذا عرفت هذا،

(في أنّ حروف العالم عبارة عن الحقائق البسيطة من الأعيان) (في علم الحقّ سبحانه)

فاعلم، أنّ حروف العالم المعبّر عنه بالكتاب الكبير الآفاقي عبارة عن الحقائق البسيطة من الأعيان و الماهيّات الثابتة في علم الحقّ أزلا و أبدا المتقدّمة على المركبات،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۵۲

و المشخّصات المعبّرة عنهما بالكلمات و الآيات بالذّات و الشّرف دون الزّمان و المكان و يسمّيها العارف الشّئون الذّاتيّة و الكمالات الوجوديّة.

(في أنّه تعالى كلّ يوم في شأن)

«۱٤۵» المشار إليها في قوله تعالى:

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [سورة الرّحمن: ۲۹].

و معناه، أي كلّ يوم من أيّام الألوهيّة أو الرّبوبية أو الزمانيّة المقدرة من نقطة إلى نقطة هو في شأن من إظهار تلك الحروف الوجوديّة و الآيات و الكلمات المركبة منها،

---

(١٤٥) قوله تعالى: كلّ يوم هو في شأن.

قال البغوي في «معالم التنزيل» في تفسير الآية ج ٥، ص ٢٧٤:

قال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا: إنّ اللّه لا يقضي يوم السبت شيئا.

و قال مثله الطبرسي في مجمع البيان، في ذيل نفس الآية ج ٩، ص ٣٠٦.

قال الشيخ المفيد (ره) في «الارشاد» ص ٢١٨:

فروى عن عن الفرزدق أنّه قال: حججت بأمّي في سنّة ستّين، فبينما أنا أسوق بعيرها حين دخلت الحرم إذ لقيت الحسين (ع) خارجا من مكّة، معه أسيافه و تراسه، فقلت: لمن هذا القطار؟ فقيل: للحسين بن عليّ (ع) فأتيته فسلمت عليه، و قلت له أعطاك اللّه سؤلك و أملك فيما تحبّ بأبي و أمّي يا ابن رسول اللّه ما أعجلك عن الحجّ؟ قال: لو لم أعجل لأخذت، ثمّ قال لي: من أنت؟ قلت: رجل من العرب، فلا و اللّه ما فتّشني عن أكثر من ذلك.

ثمّ قال لي: أخبرني عن النّاس خلفك؟ فقلت: الخبير سألت، قلوب النّاس معك و أسيافهم عليك، و القضاء ينزل من السّماء و اللّه يفعل ما يشاء، قال: «صدقت للّه الأمر (من قبل و من بعد)، و كلّ يوم (ربّنا) هو في شأن، إن نزل القضاء بما نحبّ و نحمد اللّه على نعمائه، و هو المستعان على أداء الشكر، و إن حال القضاء دون الرجاء، فلم يبعد من كان الحقّ نيته، و التقوى سيرته. عنه البحار ج ٤٤، ص ٣٦٥.

راجع أيضا «كامل ابن أثير» ج ٤، ص ٤٠.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٥٣

و هذه الآية نزلت في معرض أنّ النّبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فرغ اللّه تعالى من أربع، من الخلق و الخلق، و الرزق و الأجل، فقالت اليهود فالآن ليس له شغل، و هذا أمر بالتعطيل، و إعتقاد فاسد عند التحقيق، فقال النّبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

نعم له شغل من غير اشتغال به و هو إيصال ما ثبت في القضاء إلى القدر. فنزل جبرئيل عليه السّلام بقوله تعالى:

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [سورة الرّحمن: ٢٩].

و شأنه ما ذكرناه، و هو إيصال القضاء الّذي هو الإجمال إلى القدر الّذي هو التفصيل، لقوله أيضا:

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ [سورة السجدة: ٥].

أي من العلويّات إلى السّفليّات، و من الرّوحانيّات إلى الجسمانيّات، أو من الملكوت إلى الملك، أو من الغيب إلى الشهادة، فإنّ الكلّ واحد كما قيل:

العين واحدة و الحكم مختلف و ذاك سرّ لأهل العلم ينكشف

فافهم جدا فإنّه دقيق.

و إلى الشؤون المذكورة أشار القوم في اصطلاحهم بقولهم:
الشؤون الذاتيّة اعتبار نقوش الأعيان و الحقائق في الذّات الأحديّة كالشجرة و أغصانها و أوراقها و أزهارها و ثمارها في النّواة مثلا و هي الّتي تظهر في الحضرة الواحديّة و تنفصل في الحضرة الأحديّة، و قسّموها أيضا أقساما و جعلوا هذا القسم من الحروف العاليات و الشئون الذاتيّات، لقولهم:
الحروف العاليات هي الحقائق الكامنة في ذاته المقدّسة، كالشجرة في النواة.
و معلوم أنّ الذّات الأحديّة أعلى العاليات و أعظم الموجودات و أشرفها و بل موجودها و منشئها، و إلى هذه الحروف و ثبوتها في الحضرة العلميّة، و العوالم الغيبيّة المعبّرة عنهما بالذّات الأحديّة، أشار العارف نظما و قال:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۵۴

كنّا حروفا عاليات لم نقل / متعلّقات في ذرى أعلى القلل

أنا أنت فيه و نحن أنت و أنت هو / و الكلّ في هو هو فسل عمّن وصل

«۱۵۵» و قد سبقت هذه في الخطبة للكتاب و غيرها من المواضع، و ما اتّفق لها شرح و لا بسط، و هذا الموضع أنسب من كلّ المواضع، لأنّه مخصوص ببحث الحروف، و حيث أن شرحها يحتاج إلى مقدّمة كلمة، تقدّم أوّلا تلك المقدّمة ثمّ نشرع فيها.
فنقول:

(في أنّ الوجود من حيث هو وجود واحد من جميع الجهات)

اعلم، أنّ أصول جميع المحققين من أرباب التوحيد كما سبق ذكرها غير مرّة، و هي أنّ الوجود من حيث هو وجود، واحد من جميع الجهات، و ليس فيه تكثر بوجه من الوجوه، و ذلك الوجود هو الحقّ تعالى جلّ ذكره و ليس لغيره وجود أصلا، لا ذهنا و لا خارجا، و قد أثبتوا هذا بالبراهين العقليّة و الدّلائل القطعيّة بعد أن شاهدوه بعين البصيرة كشفا و ذوقا، و هذا الوجود نظرا إلى إطلاقه و وحدته، و تجرّده و تنزّهه عن التقيّد و التعيّن سمّوه بالمطلق، و نظرا إلى تنزّله في هذه المراتب المذكورة و تقيّده بصور المظاهر المختلفة سمّوه بالمقيّد و مع إسقاط هذين القيدين أي الإطلاق و التقييد سمّوه بهو هو، لأنّه من حيث هو هو لا مطلق و لا مقيّد، لأنّ الإطلاق بالنّسبة إليه يوهم أنّه الإطلاق الّذي بإزاء التقييد، و التقييد بالتقييد الّذي هو بإزاء المطلق و ليس كذلك، لأنّ المراد بالإطلاق عليه عندهم سلب القيد مطلقا و بالتقييد إضافة المقيّدات إليه لقولهم:
التوحيد إسقاط الإضافات.

(١٥٥) قوله: كنّا حروفا.

الشاعر هو الشيخ الأكبر محيي الدّين العربي، راجع شرح فصوص الحكم للخوارزمي ج ١، ص ٣٨، كما ذكره أيضا صائن الدّين ابن التركة في «تمهيد القواعد» ص ١٣١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٥٥

(في انّ التوحيد إسقاط الإضافات)

و الإضافة أمر اعتباريّ نسبيّ لا وجود له في الخارج، فمرادهم حينئذ يكون الوجود من حيث هو وجود و اعتباره في عالمي الوحدة و الكثرة و حضرتي الإطلاق و التقييد و الوجوب و الإمكان و الذّات و الصّفة و الظهور و البطون، و إلّا الوجود من حيث هو هو منزّه عن جميع ذلك فضلا عن الإطلاق و عدم الإطلاق و التقييد و عدم التقييد، و كذلك الظهور و البطون و الأوّل و الآخر، لأنّ الأوّل اسم له بالنّسبة إلى الآخر، و الظّاهر بالنسبة إلى الباطن، و كذلك القديم بالنّسبة إلى الحادث، و الواجب بالنسبة إلى الممكن، و العالم إلى المعلوم، و القادر إلى المقدور، و هلمّ جرّا، و الحاصل انّه ليس له اسم عند التّحقيق و لا صفة و لا رسم و لا نعت و لا عين و لا فصل و أمثال ذلك من الاعتبارات، فإنّ الكلّ عند التحقيق إضافات معدومات، و نسب اعتباريات، و إلى هذا المعنى أشار الامام المعصوم سلطان الأولياء و الوصيّين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام في بعض خطبه و هي الّتي سبقت متنا و شرحا و هو قوله:

«أوّل الدّين معرفته و كمال معرفته التصديق به و كمال التصديق به توحيده و كمال توحيده الإخلاص له و كمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف و شهادة كلّ موصوف انّه غير الصفة، فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنه و من قرنه فقد ثنّاه و من ثنّاه فقد جزّأه و من جزّأه فقد جهله و من جهله فقد أشار إليه و من أشار إليه فقد حدّه و من حدّه فقد عدّه و من عدّه فقد أبطل أزله»، إلى قوله:

«مع كلّ شيء لا بمقارنة و غير كلّ شيء لا بمزايلة» (١٥٦).

(١٥٦) قوله: أوّل الدّين معرفته.

قطعة من خطبة الأولى في نهج البلاغة.

و أمّا قوله (ع) في ما نقله السيّد المؤلف: «و من عدّه فقد أبطل أزله» فلا يوجد في نسخ نهج البلاغة التي بأيدينا. و لكنّه منقول عنه عليه السّلام في حديث آخر، رواه الكليني في «الكافي» ج ١، ص ١٣٩، الحديث ٥ باب جوامع التوحيد، و عن مولانا عليّ بن موسى الرضا (ع) كما رواه الصدوق في «التوحيد»، باب التوحيد و نفي التشبيه الحديث ١٤،-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٥٦

فإنّ الكلّ إشارة إلى تنزيهه عن الأسماء و الصّفات و النّسب و الإضافات و التقييد و الإطلاق و أمثال ذلك.

(في أنّ ظهور الوجود المطلق لا يكون إلّا من حيث الإضافات)

و إذا عرفت هذا فاعلم أنّ ظهور هذا الوجود المطلق المقدس المنزّه عن جميع الاعتبارات ليس إلاّ من حيث النّسب و الإضافات السّاقطة عند التّوحيد الصّرف و التجرّد المحض، و تنزّله و تقيّده من عالم الوحدة إلى عالم الكثرة ليس إلاّ بذلك لقوله في الأوّل:

إِنَّ اللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ [العنكبوت: ٦].

و لقوله في الثاني:

كنت كنزا مخفيّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق (١٥٧).

- ص ٥٦.

و أمّا ما رواه الكليني باسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام عن أمير المؤمنين فهو كما يلي:

خطب أمير المؤمنين عليه السّلام النّاس بالكوفة فقال:

«الحمد للّه الملهم عباده حمده و فاطرهم على معرفة ربوبيّته، الدالّ على وجوده بخلقه، و بحدوث خلقه على أزله، و باشتباههم على أن لا شبه له، المستشهد بآياته على قدرته، الممتنعة من الصفات ذاته و من الأبصار رؤيته و من الأوهام الإحاطة به، إلى أن قال:

فمن وصف اللّه فقد حدّه و من حدّه فقد عدّه و من عدّه فقد أبطل أزله، و من قال: أين؟

فقد غيّاه، و من قال: علام؟ فقد أخلا منه، و من قال فيهم فقد ضمّنه.

و ما رواه الصدوق عن الإمام الرضا عليه السّلام أيضا قريب منه و إضافة فراجع.

(١٥٧) قوله: كنت كنزا مخفيّا.

رواه المجلسي في البحار ج ٨٧، ص ١٩٩، و ص ٣٤٥ فراجع، و انظر أيضا في هذا الحديث القدسي تعليقتنا الرقم ٧٧، ص ١٠٥ و ٣٢٤، ص ٤٠٥ في الجزء الأوّل.

أقول: الحديث يبيّن مقام الابتهاج و ذلك غير مقام الجلاء و الاستجلاء و الأحديّة بل -

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٥٧

و ترتيب ظهوره و نزوله من عالم الإطلاق و التجريد إلى عالم التقييد و التفصيل، و تعيّنه ترتيب ظهور الألف من عالم إطلاقه، و تجرّده إلى عالم التركيب و الترتيب، أعني كما ينسب هذا الوجود المطلق الواحد إلى كلّ واحد من المقيّدات الممكنة و يحصل بسببه ظهور و كثرة فكذلك الألف فانّه ينسب أيضا إلى كلّ واحد واحد من الحروف المقطّعة و يحصل بسببه ظهور و كثرة، فكما يحصل للألف بسبب تعيّن كلّ حروف من الحروف اسم و وصف مغاير لاسم آخر و وصف آخر، فكذلك الحقّ تعالى فإنّه يحصل به بسبب تعيّن كلّ موجود مشخّص اسم و وصف مغاير لاسم آخر و وصف آخر، لأنّ الألف مثلا كما يحصل له أسم الباء بالنسبة إلى الباء و اسم الجيم بالنسبة إلى الجيم و اسم الدّال بالنسبة إلى الدال، فكذلك الحقّ تعالى فانّه يحصل له اسم العالم بالنسبة إلى المعلوم و اسم القادر بالنسبة إلى المقدور و اسم الخالق بالنسبة إلى المخلوق، و كذلك جميع الأسماء و الصفات، و الوحدات و الكثرات:

وَ تِلْكَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا يَعْقِلُهٰا إِلاَّ الْعٰالِمُونَ [سورة العنكبوت: ٤٣].

و قد سبق ان العلم ماله تأثير في المعلوم بالنسبة إلى الواجب أو الممكن، و قد تقدّم أنّه تعالى عالم بالمعلومات الذّاتيّة أذلا و أبدا، فحينئذ ظهوره بصورة معلوم من المعلومات لا يكون إلاّ على الوجه الّذي كان عالما بذلك المعلوم، فظهوره بصور مفردات العالم و بسائطه الّتي هي مظاهره الأولّيّة العلويّة لا يكون إلاّ على الوجه الّذي كانت هي عليه، و هذه المفردات في الآفاق و الكتاب الإلهيّ تسمّي حروفا، و ظهوره بصور مركبات العالم و مشخّصاته الّتي هي مظاهره الثانية لا يكون إلاّ على الوجه الّذي كانت هي عليه، و هذه المركبات في الآفاق و الكتاب الإلهي تسمّى كلماتا، و ظهوره بصور كلّيّات العالم و أجناسه الّتي هي مظاهره الثالثة لا يكون إلاّ على الوجه الّذي

- هو فوق هذه المقامات، و شرحه يقتضي المقام الآخر، و اللّه العالم.

و قالت فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه (ص) في خطبتها الغرّاء الفدكيّة:

«ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها» ... إلى أن قالت:

«من غير حاجة منه إلى تكوينها، و لا فائدة له في تصويرها إلاّ تثبيتا لحكمته، و تنبيها على طاعته، و إظهارا لقدرته، و تعبّدا لبريّته، و إعزازا لدعوته.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٥٨

كانت هي عليه، و هذه الكلّيّات في الآفاق و الكتاب الإلهي يسمّى آياتا، و ظهوره بصورة الكلّ من حيث الكلّ يسمّى كتابا و مصحفا و غير ذلك من الأسماء لقولهم:

أحد بالذات كلّ بالأسماء «١٥٨».

و كذلك الألف المجرّد فإنّه أيضا يصير موسوما في كلّ مرتبة من مراتب ظهوره بأسماء من أسماء الحروف الّتي هي مظاهره حرفا كانت أو كلمة أو آية، لأنّ في الحقيقة ليس هناك إلاّ الألف و الكلّ هو مع تعيّن آخر علما كان أو عينا كما ستعرفه.

هذا من حيث العلم و الوجود العلمي، و أمّا من حيث العين و الوجود العيني فكذلك، لأنّ الوجود العلمي لا يوجد في العين إلاّ مطابقا للعلم، فإذا وجدت هذه المعلومات العلميّة في الخارج و حصل له الوجود الخارجي يصير موسوما باسم خارجي أيضا، فإنّه إذا ظهر بصورة العقلي صار متعينا به في الخارج و سمّى به و إذا ظهر بصورة النّفس صار متعيّنا به في الخارج و سمّي به، و كذلك الجسم الكلّ فانّه إذا ظهر بصورة الجسم المطلق صار متعيّنا به في الخارج و سمّي به، و قس على ذلك جميع الموجودات العلويّة و السفليّة لقوله تعالى:

هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة الحديد: ٣].

و لقوله:

أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‌ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ٥٣- ٥٤].

و لقول العارف:

تجلّى لي المحبوب من كلّ وجهة فشاهدته في كلّ معنى و صورة

(۱۵۹)

---

(۱۵۸) قوله: أحد بالذات.

قاله الشيخ الأكبر محيي الدّين العربي في فصوص الحكم الفص الإسماعيلي ص ۲۰۱ شرح القيصري، هذا كما قال صدر المتألهين: بسيط الحقيقة كلّ الأشياء

. (۱۵۹) قوله: تجلّى لي المحبوب، (شعر). [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۵۹

و كذلك الألف فإنّه إذا ظهر بصورة الباء صار متعيّنا به في الخارج و سمّي بالباء، و إذا ظهر بصورة الجيم صار متعيّنا به في الخارج و سمّي بالجيم، و إذا ظهر بصورة الدّال صار متعينا به و سمّي بالدّال و كذلك إلى آخر الحروف، و من هذا وقع العقل الأوّل بمثابة الباء في الوجود و النّفس الكلّيّة بمثابة الجيم، و الجسم الكلّي بمثابة الدّال إلى آخر الموجود و آخر الحروف، و قد سبق ترتيب ذلك غير مرّة في الدّائرة الوجوديّة و غيرها، و هذا هو المراد من هذا البحث في هذه المقدّمة إلى أن يتحقّق عندك أنّ ظهور الوجود الحقيقي أو الحقّ تعالى جل ذكره بصورة العالم أو الموجودات الممكنة بعينه ظهور الألف المجرّد بصور الحروف و تراكيبها كلّها، و هذا وضع إلهيّ و قانون ربّانيّ قد نطق به الأنبياء و الرّسل صلوات اللّه عليهم أجمعين.

(في أنّ الظهور و الإضافات لا بدّ له تعالى من حيث الكمال و الاقتضاءات الأسمائيّة)

و إذا عرفت هذا فاعلم انّه تعالى من حيث الذّات و الوجود و ان كان منزّها مستغنيا من نسبة هذه الإضافات و الظهور إليه لكن من حيث الكمالات الذّاتيّة و الاقتضاءات الأسمائيّة لا بدّ له من ذلك فانّه من هذه الحيثيّة عين الكلّ، فإنّ الكلّ لا يظهر في الكلّ إلاّ من حيث كلّيّته، و فيه قيل: ليس في الوجود سوى اللّه تعالى

- في شرح الخوارزمي لفصوص الحكم ج ۱، ص ۲۲۷:

تجلّى لي المحبوب من كلّ وجهة فشاهدته من كل عين و صورة

ذكره المؤلف الجليل في (نصّ النصوص) أيضا ص ۲۷۰ و ص ۴۵۹ مع بيت آخر:

فقال: كذلك الأمر لكنما إذا | تعيّنت الأشياء بي كنت نسختي

و هناك شعر آخر ذكره الخوارزمي ج ١، ص ٣٧٤:

تجلّى لي المحبوب خلف الستائر | و شرفني لطفا بكشف السرائر

فشاهدته في كلّ معنى و صورة | و عاينته في كلّ خاف و ظاهر

فخاطبته سرّ المقول حالتي | و أبصرته جهرا بعين البصائر

نظرت ببالي فأبصرت جهرة | جمال حبيبي في مرايا المظاهر

تبدّى جمال الحقّ في كلّ مظهر | و ليس له غير الجلال بساتر

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٦٠

و أسمائه و صفاته و أفعاله فالكلّ هو و به و منه و إليه «١٦٠».

كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [سورة القصص: ٨٨].

(في بيان نسبة الموجودات العلميّة و العينيّة إلى) (الفيض الأقدس و الفيض المقدّس)

ثمّ اعلم أنّ الوجودات العلميّة المذكورة منسوبة إلى الفيض الأقدس و القابليّة الصرفة الّتي ليست بجعل الجاعل، و

الموجودات العينيّة منسوبة إلى الفيض المقدّس الّذي هو إعطاء وجود كلّ موجود في الخارج بحسب وجوده العلمي الأزلي الذّاتي، و كلّ ذلك بوجه آخر منسوب إلى النفس الرحماني الّذي هو سبب إخراج هذه الموجودات من العلم إلى العين كإخراج الكلمات و الآيات و الحروف في النفس الإنساني على سطح الهواء.

و بيان ذلك و هو أنّ الكلمات الصّوريّة كما أنّ إخراجها من القوّة إلى الفعل موقوفة على النّفس الإنسانيّة بأسباب من المخارج حتّى يحصل له الوجود الخارجي في الهواء إن كانت روحانيّة، و في الألواح إن كانت جسمانيّة بقلم المعلوم و الدّواة المعلومة، فكذلك الكلمات الوجوديّة الإلهيّة فإنّ إخراجها من العلم إلى العين موقوفة على النفس الرّحماني بأسباب إلهيّة حتّى يحصل له الوجود الخارجي في العالم إن كانت روحانيّة، و إن كانت جسمانيّة بقلم العقل الأوّل و دواة النّفس الكليّة لقوله تعالى:

ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ [سورة القلم: ١].

لأنّه إشارة إلى هذا الترتيب الإلهي و القانون الربّاني، و أصل ذلك كلّه من علمه بذاته أزلا لأنّ أوّل التعيّن و التقيّد له في عالم الإطلاق و التجرّد هو من علمه بذاته لأنّه إذا صار عالما بذاته صارت ذاته معلوما له، و كلّ معلوم متعيّن فتتعيّن ذاته بذلك و من

---

(١٦٠) قوله: ليس في الوجود.

راجع الجزء الأوّل ص ٢٤٢ و تعليقتنا فيه الرقم ٣٩.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٦١

تعيّنه تعيّن الكلّ، و ذلك لأنّه لو لم يكن عالما بذاته لم يكن عالما بكمالاته و إذا لم يكن عالما بكمالاته لم يكن عالما بمعلوماته الذّاتيّة، لأنّ من جملة معلوماته ذاته و كمالاته، فلو لم يكن عالما بذاته و كمالاته الذاتيّة لم يتمكن من إبرازها في الخارج على الوجه الّذي هو عليه فلم يصدق حينئذ انه ظاهر أو باطن أو عالم أو قادر و ليس الحال كذلك، فمن علمه بذاته صار متعيّنا و صار عالما بالكلّ و من علمه بالكلّ صار عالما بظهوره بصورة الكلّ فظهر بصورة الكلّ مطابقا لعلمه به فصار الكلّ مظهرا له و صار هو ظاهر في الكلّ و صدق عليه انّه:

هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة الحديد: ٣].

و أمّا الظهور و الترتيب الوجودي في ذلك فكان بالنفس الرّحماني على الوجه المذكور، و إليه أشار القوم في اصطلاحهم بقولهم: النفس الرحمانيّ هو الوجود الإضافيّ الوحدانيّ الحقيقيّ المتكثّر بصور المعاني الّتي هي الأعيان و أحوالها في الحضرة الواحديّة، سمّي به تشبيها بنفس الإنسان المختلف بصوره الحروف مع كونه هواء ساذجا في نفسه و نظرا إلى الغاية الّتي هي ترويج الأسماء الداخلة تحت حيطة الإسم الرحمن عن كمونها و هو كمون الأشياء فيها و كونها بالقوّة كترويح الإنسان بالنفس، و حيث إنّ ظهور الحقّ تعالى بصور المظاهر كان منحصرا في الأسماء و الصفات و الأفعال و الأكوان قالوا: حجب الذات بالصفات و الصفات بالأفعال و الأفعال بالأكوان.

و قالوا:

جمالك في كلّ الحقائق سائر و ليس له إلاّ جلالك ساتر

تجلّيت للأكوان خلف ستورها فنمّت بما ضمّت عليه الستائر

«۱٦۱»

(۱٦۱) قوله: جمالك في كلّ الحقائق سائر، (شعر).

ذكره المؤلّف الجليل في «جامع الأسرار» ص ۱٥۲، و في «رسالة نقد النقود» ص ٦٦٦.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳٦۲

(في توقف انكشاف الأفعال على انكشاف الأكوان و هكذا)

و من هذا صار انكشاف الأفعال موقوفا على انكشاف الأكوان، و انكشاف الصّفات على انكشاف الأفعال، و انكشاف الذّات على انكشاف الصفات، فمن كشف له الأكوان على ما ينبغي، كشف له الأفعال على ما هي عليها، و من كشف له الأفعال على ما ينبغي كشف له الصّفات على ما هي عليها، و من كشف له الصّفات على ما ينبغي كشف له الذّات على ما هي عليها، و صار من العارفين الكاملين المحققين و قال بلسان الحال و القال:

لقد كنت دهرا قبل ان يكشف الغطا أخالك أنّي ذاكر لك شاكر

فلمّا أضاء اللّيل أصبحت شاهدا بأنّك مذكور و ذكر و ذاكر

«۱٦۲» رزقنا اللّه و إيّاكم الوصول إلى هذا المقام بمحمّد و آله الكرام.

و إذا تقرّر هذا و عرفت بعض أسرار الوجود و الحروف و تطبيق كلّ واحد منهما بالآخر فلنشرع في شرح الأبيات الموعودة الّتي سبقت في هذا المعنى، و نقول:

اعلم، أنّ قوله: «كنّا حروفا عاليات لم نقل»، إشارة إلى تعيّن الأشياء في علمه الذّاتي قبل تعيّنه في الخارج، و «عاليات»، إشارة إلى علوّها لثبوتهما في الذات و ليس أعلى من الذات شيء، «و لم نقل»، إشارة إلى الانتقال من العلم إلى العين، أي كنّا حروفا و بسائط أي حقايق و أعيانا في الحضرة الذاتيّة العلميّة أعني كنّا معلوما في الحضرة العلميّة و كان عالما بنا و بحقائقنا ...

قوله عليه السّلام:

«كان اللّه و لم يكن معه شيء» (۱٦۳).

(١٦٢) قوله: لقد كنت دهرا، (شعر).

ذكره المؤلف (في جامع الأسرار) ص ١٣٢، و الخوارزمي في (شرح فصوص الحكم) ج ١، ص ٣٦، و ج ٢، ص ٦٠٨.

(١٦٣) قوله: كان اللّه و لم يكن معه شيء.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٦٣

أي لم يكن في الخارج، و كذلك أمير المؤمنين عليه السّلام في قوله:

«ربّ إذ لا مربوب، و عالم إذ لا معلوم، و قادر إذ لا مقدور» «١٦٤».

و الكلّ إشارة إلى عدم الوجود.

و قوله: «متعلقات في ذرى أعلى القلل»: إشارة إلى ثبوتهم في الذات الّتي هي أعلى القلل الوجوديّة بالاتفاق، (و) حيث كنّا من معلوماته الذاتيّة الأزليّة الدّائمة صار إزالتنا علما و عينا من المستحيلات و إن لم يصدق عليه اسم القدم و الوجوب، لأنّه القديم بالذات و نحن القديم بالغير، و أنّه واجب بالذات و نحن واجب بالغير و مادام الواجب (الغير) باقيا لا بدّ و أن نكون نحن من الباقين معه، قال:

أنا أنت فيه و نحن أنت و أنت هو   و الكلّ في هو هو فسل عمّن وصل

(في بيان الوحدة المحضة و التوحيد و الصّرف)

و هذا إشارة إلى الوحدة المحضة لا الإثنينيّة المغايرة للتوحيد الصرف، لأنّ المغايرة بين الذات الأحديّة العلميّة و العينيّة ليس إلّا بالاعتبار و في الحقيقة ليس هناك مغايرة،

أ أنت أم أنا؟ هذا العين في العين   حاشاي حاشاي من إثبات إثنين

(١٦٥)

- قد مرّ الحديث في الجزء الأوّل ص ٣٥٢، راجع تعليقتنا فيه الرقم ٨٧ و ٨٨.

و راجع أيضا تعليقتنا الرقم ١٦ في هذا الجزء الثاني.

(١٦٤) قوله: ربّ إذ لا مربوب.

في نهج البلاغة خطبة ١٥٢، (صبحي صالح).

(١٦٥) قوله: أ أنت أم أنا؟ (شعر).

ذكر المؤلف في جامع الأسرار ص ١٣١، و ص ٦٧٦ بنفس اللفظ، و في نصّ النصوص ص ٣٥٧، و الشعر من الحلاج كما ذكره المؤلف في

ص ٣٦٤ مع بيت آخر هكذا:

بيني و بينك انّي ينازعني فارفع بفضلك انّي من البين

و في شرح فصوص الحكم للخوارزمي ج ١، ص ١٥٣، هكذا:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٣٦۴

لأن المغايرة الحقيقيّة بين الذّات و كمالاتها الذاتيّة مستحيلة و من دقّة هذا المعنى و لطافته قال:

«و الكلّ في هو هو فسل عمّن وصل»، أي الكلّ من حيث الكلّ ظاهر في الكلّ، فسل عمّن وصل إلى هذا المقام لأنّ كلّ عاقل يعرف أنّ الكلّ من حيث الكلّ لا يظهر إلاّ في الكلّ كما قيل:

الكلّ بالكلّ مربوط و ليس له عنه انفصال خذوا لما قلته عنّي

«١٦٦» و قولهم:

و كلّ مليح حسنه من جماله معار له بل حسن كلّ مليحة

«١٦٧» و ذلك لأنّ عند التوحيد الجمعي الحقيقي كما بيّناه مرارا لا يبقى للغير عين و لا أثر فكيف يتصوّر هناك المغايرة أصلا، و ليس في الوجود سوى اللّه تعالى و أسمائه و صفاته و أفعاله و الكلّ هو و به و منه و إليه، و إليه الإشارة أيضا، أي إلى التوحيد الحقيقي في

-

أ أنت أم أنا هذا في الهين حاشاك حاشاك من إثبات إثنين

بيني و بينك أنّي يزاحمني فارفع بلطفك أنّني من البين.

(١٦٦) قوله: الكلّ بالكلّ إلخ، (شعر).

الشاعر محيي الدّين قاله في فصوص الحكم، شرح القيصري ص ٩٣ الفصّ الآدمي، و تمام الشعر هكذا:

فالكلّ مفتقر ما الكلّ مستغن هذا الحقّ قد قلناه لا نكني

فإن ذكرت غنيّا لا افتقار به فقد علمت الّذي من قولنا نعني

فالكلّ بالكلّ مربوط و ليس له عنه انفكاك خذوا ما قلته عنّي

ذكره المؤلف الجليل في جامع الأسرار أيضا ص ٦٦٢ (رسالة نقد النقود).

(١٦٧) قوله: و كلّ مليح إلخ، (شعر).

ذكره الخوارزمي أيضا في شرحه للفصوص ج ١، ص ٣٥، و ج ٢، ص ٦٠٠.

الشاعر هو ابن الفارض في قصيدته (التائية الكبرى) راجع ديوان ابن الفارض ص ٥٦، و ذكره المؤلف الجليل أيضا في (نص النصوص) ص ٤٤٨ و راجع أيضا «مشارق الدراري» ص ٢٦٢.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٦٥

مقام الفناء و الطمس الكلّي، بقوله تعالى:

كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ [سورة القصص: ٨٨].

و قوله:

كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِكْرٰامِ [سورة الرّحمن: ٢٧].

فهذا سرّ لا يعرفه إلاّ الّذي وصل إليه وصولا حقيقيّا ذوقيّا كشفيّا لقولهم:

«من لم يذق لم يعرف».

و لهذا قال الشيخ قدّس اللّه سرّه «(١٦٨)»:

«و هذا لا يعرفه عقل بطريق نظر فكريّ، بل هذا الفنّ من الإدراك لا يكون إلاّ عن كشف إلهيّ، منه يعرف ما أصل صور

العالم القابلة لأرواحه».

و يكفى في هذا قوله تعالى:

هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة الحديد: ٣].

لأنّه يقوم بجواب الكلّ، و لا يعرفه أيضا إلاّ الواصل الحقيقي المستغرق في عين الجمع و الفرق لا في أحدهما، لأنّ له في هذا المقام الدرجة العليا و الغاية القصوى المعبر عنها ...

(في ان ظهور الوجود بصور الموجودات مثل ظهور الألف بصور الحروف)

و ليس الغرض هاهنا هذا البحث، لأنّ هذا البحث قد سبق مرارا و سيجيء مرارا، بل الغرض أن يتحقق عندك أن ظهور الوجود بصور الموجودات بعينه كظهور الألف بصور الحروف و المركبات، و إذا تحقّق هذا فرجع مرّة أخرى و نقول: اعلم أنّ تقييد الوجود المطلق بصور المقيّدات الّتي هي مظاهره بعينه كتقييد الألف المجرّد بصور الحروف المقيّدة الّتي هي مظاهره، و تنزله من حضرة الذّات إلى حضرة الأسماء

---

(١٦٨) قوله: قال الشيخ قدّس اللّه سرّه.

ذكره في فصوص الحكم، شرح القصيري ٦٩- و العفيفي ص ٦٩.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٦٦

و الصفات بعين كتنزّل الألف المجرّد إلى حضرة التعيّنات و التقيّدات، و بيان ذلك مفصلا و هو أنّ الألف كما إذا يعيّن بتعيّن و يقيّد بقيد من صور الحروف و تعيّناتها صار موسوما بذلك الإسم الّذي لذلك الحرف باء كان أو تاء، ثاء كان أو جيما، ليس من هذا في الحقيقة قدح في ذاته و لا نقص في إطلاقه لأنّه على وحدته الذّاتيّة المقتضية لتنزّهه و تجرّده فذلك الحقّ تعالى فإنه إذا ظهر بصورة مظهر أو تعيّن بتعيين موجود من صور الموجودات و تعيّناتها صار موسوما بذلك الإسم الّذي لذلك الموجود عقلا كان أو نفسا، روحا كان أو جسما، إنسانا أو ملكا فانّه ليس من هذا في الحقيقة قدح في ذاته و لا نقص في إطلاقه، و تصديق هذا بالنسبة إلى الحروف، و هو أنّه ليس في الحقيقة وجود الحروف إلاّ وجودا اعتباريا إضافيّا نسبيّا لا حقيقة له في نفس الأمر لأن الألف من حيث تنزّله من الإطلاق و التجرّد و إضافته إلى الغير ظهر بصورة الحروف من الباء و التّاء أو غير ذلك من الحروف حصل لتلك الحروف وجودا اعتباريّا اعتبار نسبة المجرّد إلى المقيّد و إلاّ في نفس الأمر الحروف معدومات موهومات موجودات بالنسبة و الإضافة و ليس لها وجودا حقيقيّا أصلا لأنّ الوجود الحقيقي للألف فقط و من هذا قيل:

ليس هناك حروف إلاّ و الألف معه صورة كان أو معنى، أمّا الصّورة فلأنّ الباء مثلا ألف مع قيد كما أن المقيّد مطلق مع قيد و كذلك الجيم و الميم و باقي الحروف لأنك إذا قلت باء أو قلت تاء وجدت الألف فيهما، و كذلك الميم و الجيم و النون فإنّ الياء و الواو فيهما يقومان مقام الألف كما لا يخفى على أهله.

و أمّا المعنى فلأن الألف صار بانخفاضه من الارتفاع و اعوجاجه من الاستقامة، فإذا زال الانخفاض و ارتفع الاعوجاج صار ألفا كما كان، فافهم جدا فانّه لطيف، و تعرف هذا من صورة الألف إذا سوّيت صورة من شمعة مثلا و غيرتها من

تلك الصورة إلى صورة اخرى، فإنّ الذّات و الحقيقة من تلك الشمعة لا تتغيّر أصلا و إن تغيّر صورتها و أوضاعها، و هذا المثال قريب إلى المادّة و الصورة و تغيير الصورة ساعة فساعة و بقاء المادة على قرارها.

و أمّا بالنسبة إلى الحقّ و ظهوره بصورة الخلق فهو أنّه ليس في الحقيقة وجود الخلق

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۶۷

إلّا وجوديّا اعتباريّا إضافيّا لا حقيقيّة له في الخارج لأن الوجود الخارجي الحقيقي ليس إلّا للحقّ، فالوجود المضاف الاعتباري هو الّذي يحصل بتنزّلات الحقّ في صور مظاهره أعني أنّ الحقّ تعالى إذا نزل من حضرة إطلاقه و تجرّده و تقيّد بصورة من الصور عقلا كان أو نفسا أو غيرهما من الموجودات حصل بذلك التنزّل لذلك الموجود وجود إضافيّ نسبيّ معدوم في الحقيقة موجود بالاعتبار بحيث لو أسقطت عنه تلك الإضافة لم يبق إلّا عدما صرفا لقولهم: التوحيد إسقاط الإضافات، فعند التحقيق ليس للخلق و لا للمظاهر وجود إلّا بالاعتبار و الإضافة و كلّ ما يكون وجود بالاعتبار و الإضافة لا يكون إلّا معدوما مضمحلاّ.

في معيّة الوجوديّة

فالوجود الحقيقي حينئذ لا يكون إلّا للحقّ و يكون له المعيّة معهم معيّة وجوديّة ذاتيّة لقوله:

وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ [سورة الحديد: ٤].

و لقوله:

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [سورة ق: ١٦].

في أنّ ليس في الوجود غيره تعالى و إن صورة العالم صورته سبحانه

و هذه المعيّة بعينه معيّة الألف مع الحروف صورة كان أو معنى أمّا الصورة فلأنّك إذا تحقّقت ان الوجود واحد و أنّه الحقّ تعالى و أنّه ليس في الوجود غيره تحققت أنّ صورة العالم بأسره صورته لقوله:

هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظّٰاهِرُ وَ الْبٰاطِنُ [سورة الحديد: ٣].

بحيث لو غاب عنها طرفة عين لم يبق له أثر لا ذهنا و لا خارجا، و هذا معنى قيّوميّته للأشياء بحكم قوله:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۶۸

لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [سورة البقرة: ٢٥٥].

و قد سبق في قول الشيخ الأعظم قدّس اللّه سره ما يعضد هذا تصريحا و هو قوله «١٦٩»:

ان العالم غيب لم يظهر قطّ و الحقّ تعالى ظاهر ما غاب قطّ و النّاس في هذه المسألة على عكس القول، فيقولون: العالم ظاهر و الحقّ تعالى غيب، فهم بهذا الإعتبار في مقتضى هذا التّنزّل كلّهم عبيد للسوى، و قد عافى اللّه بعض عبيده عن هذا الداء و الحمد للّه.

(في انّه تعالى حقيقة كلّ شيء كما هو سبحانه صورة كلّ شيء)

و أمّا المعنى فلأنّك إذا عرفت انّه ليس في الخارج حقيقة إلّا هو، عرفت انّه حقيقة كلّ شيء و باطنه كما هو صورة كلّ شيء و ظاهره لقوله:

أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلاٰ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصلت: ٥٣-٥٤].

و هذا شهود الأنبياء و الأولياء و الأقطاب و الكلّ كما بيّناه مرارا و ليس هناك مشهد أعظم من هذا المشهد في هذا الطريق، جعلنا اللّه الوصول إليه، و ليس وراء عبّادان قرية إشارة إلى هذا، و كذلك: «قاب قوسين أو أدنى»، و بناء على هذه القواعد، و كما لا يكون هناك حرف من الحروف إلاّ و يكون الألف معه صورة و معنى، فكذلك لا يكون هناك موجود من الموجودات إلاّ و يكون الحقّ تعالى معه صورة و معنى، و مثال معيّة الأولى بعينه مثال المداد مع كلّ حرف من حروف هذا الكتاب من غير تفاوت و نقصان لأنّ المداد بالنسبة إلى الحروف لا يكون أقرب إلى حرف من حرف آخر من حيث هو مداد، و مثال معيّة الثانية مثال البحر مع أمواجه لأنّ البحر من حيث هو بحر لا يكون أقرب إلى موج من موج فإنّ الكلّ بالنسبة إليه على سواء،

---

(١٦٩) قوله: انّ العالم غيب لم يظهر قطّ الخ.

ذكره المؤلّف أيضا في (جامع الأسرار) ص ١٦٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٦٩

و فيه قيل:

البحر بحر على ما كان من قدم انّ الحوادث أمواج و أنهار

«١٧٠» و هذه الأمثلة في غاية الحسن لأجل هذا المعنى، فاجعل قلبك إليها تظفر بأسراره كثيرة منها:

وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ [سورة العنكبوت: ٤٣].

و الغرض منها أن يتحقّق أن ظهور الحقّ بصورة العالم و الخلق بعينه كظهور الألف بصورة الحروف و أنّ الوجود أو العالم واقع على ترتيب الحروف حذو النعل بالنعل كما عرفت بعضها و ستعرف إن شاء اللّه البعض الآخر.

(في تفسير قوله (ص): ظهرت الموجودات من باء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

و إذا عرفت هذا فاعلم:

أنّ هذا البحث لا يتحقق على ما ينبغي إلاّ بعد تفسير قولهم:

بالباء ظهر الوجود و بالنقطة تميّز العابد عن المعبود «١٧١» و قول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

«ظهرت الموجودات من باء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» (١٧٢)

---

(١٧٠) قوله: البحر بحر، (شعر).

البيت منسوب إلى محيي الدّين العربي و تمامه هكذا:

البحر بحر على ما كان من قدم ... انّ الـحـوادث أمـواج و أنـهـار

لا يحجبنّك أشكال شياكلها ... عمّن تشكّل فيها فهي أستار

ذكره السيّد المؤلف في (جامع الأسرار) ص ١٦١ و ٢٠٧ و ٦٦٩.

[.....]

(١٧١) قوله: بالباء ظهر الوجود إلخ.

القائل هو محيي الدّين ابن عربي الشيخ الأكبر، قاله في الفتوحات ج ١، ص ١٠٢ و قد مرّ أيضا في الجزء الأول ص ٢١١.

(١٧٢) قوله: ظهرت الموجودات إلخ.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٧٠

و قول أمير المؤمنين عليه السّلام:

«أنا النقطة تحت الباء» «١٧٣».

لأنّ كلّ هذا إشارة إلى تنزل الحقّ و ظهوره بصورة الخلق، كتنزّل الألف و ظهوره بصورة الحروف لأنّ تعيّن الحقّ المطلق الّذي هو المعبود بصورة الخلق المقيّد الّذي هو العابد ليس إلّا بسبب النقطة التعيّنيّة الوجوديّة المسمّاة بالإمكان الّتي تحت الوجود البائي الأوّل الإمكاني المسمّى بالعقل الأوّل تارة و بالروح الأعظم أخرى المتميّز بها العابد الّذي هو العبد عن المعبود الّذي هو الرّبّ و كذلك الحروف، لأنّ تعيّن الألف المجرّد الّذي هو بمثابة الذّات بصورة الباء المقيّد ليس إلّا بسبب النقطة التعينيّة البائيّة الّتي تحت الباء التميّز بها الباء عن الألف أعني كما أنّ الألف إذا نزل من حضرة إطلاقه إلى حضرة تقيّده في صورة البائيّة الّتي هي أوّل مرتبة من مراتبه في عالم الكثرة لم يكن تميّزه منه إلّا بالنقطة البائيّة المتميّزة بها عن غيره من الحروف فكذلك الحقّ تعالى فإنّه إذا نزل من حضرة ذاته و مقام إطلاقه و صورة أحديته في صورة تعيّنه و تقيّده المعبّر عنها بصورة الإمكان في حضرة و احديّته لا يكون تميّز تلك الصورة المقيّدة عنه إلّا بالنقطة العنديّة الإمكانيّة الواقعة تحت تعيّنه المتميّزة بها عن غيره من الموجودات، و أوّل تلك الصورة المقيّدة تارة تسمّى بالعقل و تارة بالرّوح و تارة بالنور، و أمثال ذلك كما تسمّى الصّورة المقيّدة الحروفيّة تارة بالباء و تارة بالجيم، و تارة بالدّال إلى آخر الحروف، و لعظمة سرّ هذه الصورة المقيّدة الّتي هي بإزاء الباء في الحروف من الكتاب ورد عن النّبي عليه السّلام:

ظهرت الموجودات من باء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم.

لأنّ بسم اللّه الرّحمن الرّحيم على سبيل الإجمال شامل لجميع العالم و مراتبه العلويّة و السّفليّة، و الألف منها اختفى تحت الباء كما اختفى الحقّ جلّ جلاله في الحضرة

- قد مرّ في الجزء الأوّل ص ٢١٠، راجع تعليقتنا فيه الرقم ١٣.

(١٧٣) قوله: أنا النقطة تحت الباء.

قد مرّ الحديث في الجزء الأول ص ٢١١ و تعليقتنا فيه الرقم ١٤ فراجع.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٧١

الواحديّة و تحت التعيّن الأوّل المسمّى بالعقل و آدم و غير ذلك، و نظرا إلى هذا قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

و اللّه لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من باء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم «١٧٤».

و كذلك الشيخ أبو مدين المغربي في قوله:

«ما رأيت شيئا إلاّ و رأيت الباء مكتوبة عليه» «١٧٥».

و كذلك الشيخ العارف ابن الفارض المصري في قوله:

فلو كنت بي من نقطة الباء خفضة رفعت إلى ما لم تنله بحيلة

«١٧٦» و كذلك القول السابق من الشيخ الأعظم قدس اللّه سرّه:

بالباء ظهر الوجود و بالنقطة تميّز العابد عن المعبود.

و هذا المكان بالنسبة إلى هذه الكلمات و الأبحاث الّتي نحن في صدد إثباتها يحتاج إلى أقسام ثلاثة:

الأوّل، إلى تحقيق الباء و التعيّن الأوّل الّذي هو مظهره.

و الثاني إلى تحقيق النقطة و كيفيّة التميّز بها عن غيره.

و الثالث إلى تطبيق الحروف الآفاقيّة و الأنفسيّة بالحروف القرآنية كما شرطناه أوّلا.

(١٧٤) قوله: و اللّه لو شئت لأوقرت إلخ.

قد مرّ في تعليقتنا الرقم ١٣٧ فراجع.

(١٧٥) قوله: ما رأيت شيئا إلخ.

راجع الفتوحات المكيّة ج ١، ص ١٠٢ و مشارق الدراري ص ١٤٦.

(١٧٦) قوله: فلو كنت بي من نقطة إلخ، (شعر).

راجع «مشارق الدراري» ص ١٤٤.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٧٢

القسم الأوّل في تحقيق الباء و التعيّن الأوّل الذي هو مظهره

(في أنّ الباء صورة الوجود الظاهر كما أنّ الألف صورة الوجود الباطن)

اعلم، أنّ الباء باتفاق المحققين صورة الوجود الظاهر المتعيّن المضاف الممكن، كما أنّ الألف صورة الوجود الباطن العالم لمطلق الواجب بالذّات، و بسبب أنّ أوّل موجود أضيف إليه الوجود المطلق كان العقل الأوّل و الروح الأعظم بمثابة الباء إلى الألف سمّاه الشرع بالتعيّن الأوّل و الموجود الأوّل (١٧٧) و جعله واسطة التكوين و رابطة تعلّق

(١٧٧) قوله: سمّاه الشّرع بالتعيّن الأوّل و الموجود الأوّل.

وردت في هذا المجال الأحاديث الكثيرة لا بأس بذكر بعضها:

العيون للصدوق- بإسناده عن الرضا (ع) قال: قال رسول اللّه (ص) إنّ أوّل ما خلق اللّه عزّ و جلّ أرواحنا فأنطقها بتوحيد و تحميده ثمّ خلق الملائكة. البحار ٥٧، ص ٥٨، الحديث ٢٩-.

رياض الجنان لفضل اللّه الفارسي بإسناده إلى جابر الجعفيّ عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال:

«كان اللّه و لا شيء غيره (و) لا معلوم و لا مجهول، فأوّل ما ابتدأ من خلق خلقه أن خلق محمّد (ص) و خلقنا أهل البيت معه من نور عظمته». البحار ج ٥٧، ص ١٦٩، الحديث ١١٢.

و عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه (ص) «أوّل ما خلق اللّه نوري، ففتق منه نور علي، ثمّ خلق العرس و اللوح و الشمس و ضوء النهار و نور الأبصار و العقل و المعرفة».

البحار ج ٥٧، ص ١٧٠، الحديث ١١٧ أبو الحسن البكري (المتوفى ٩٥٣ بمصر و دفن بجانب قبر الشافعي)، في كتاب الأنوار قال: روي عن أمير المؤمنين أنّه قال:

«كان اللّه و لا شيء معه فأوّل ما خلق نور حبيبه محمّد (ص) قبل خلق الماء و العرش و الكرسي و السّماوات و الأرض و اللوح و القلم و الجنّة و النّار و الملائكة و آدم و حوّاء بأربعة و عشرين و أربعمائة ألف عام، فلمّا خلق اللّه تعالى نور نبيّنا محمّد (ص) بقي ألف عام بين يدي عزّ و جلّ واقفا يسبّحه و يحمده و الحقّ تبارك و تعالى ينظر إلى و يقول: يا عبدي أنت-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٧٣

-المراد و المريد، و أنت خيرتي من خلقي، و عزّتي و جلالي لولاك ما خلقت الأفلاك»، (الحديث طويل فراجع). البحار ج ٥٧، ص ١٩٩، الحديث ١٤٥.

الكافي للكليني بإسناده عن جابر بن زيد قال: قال لي أبو جعفر عليه السّلام:

«انّ اللّه أوّل ما خلق خلق محمّد و عترته الهداة المهتدين، فكانوا أشباح نور بين يدي اللّه، قلت: و ما الأشباح؟ قال: ظلّ النور، أبدان نورانيّة

بلا أرواح، و كان مؤيّدا بنور واحد و هي روح القدس. البحار ج ٥٧، ص ١٩٧، الحديث ١٤٤.

علل الشرائع و عيون أخبار الرضا (ع) للصدوق بإسناده عن أمير المؤمنين عليّ (ع) قال: قال رسول اللّه (ص): «أوّل ما خلق اللّه عزّ و جلّ خلق أرواحنا، فأنطقنا بتوحيد و تحميده، ثمّ خلق الملائكة فلمّا شاهدوا أرواحنا نورا واحدا استعظموا أمرنا، فسبّحنا لتعلم الملائكة أنّا خلق مخلوقون، و أنّه منزّه عن صفاتنا». البحار ج ١٨، ص ٣٤٥، الحديث ٥٦.

كنز الفوائد بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال:

لقد خلق اللّه تعالى ليلة القدر أوّل ما خلق الدّنيا، و لقد خلق فيها أول نبيّ يكون، و أوّل وصيّ يكون، و لقد قضي أن يكون في كلّ سنة ليلة يهبط فيها بتفسير الأمور إلى مثلها من السّنة المقبلة، فمن جحد ذلك فقد ردّ على اللّه تعالى علمه. البحار ج ٢٥، ص ٧٣، الحديث ٦٣، تفسير الفرات بإسناده عن أبي ذرّ الغفاري في حديث عن رسول اللّه (ص) قال: قالوا (الملائكة): يا نبي اللّه إذا رجعت إلى الأرض فاقرأ عليّ بن أبي طالب منّا السّلام، و أعلمه بأن قد طال شوقنا إليه، قلت: يا ملائكة ربّي هل تعرفوننا حق معرفتنا؟ فقالوا:

يا نبيّ اللّه و كيف لا نعرفكم و أنتم أوّل ما خلق اللّه؟ خلقكم أشباح نور من نور في نور، من سناء عزّه و من سناء ملكه، و من نور وجهه الكريم، و جعل لكم مقاعد في ملكوت سلطانه و عرشه على الماء قبل أن تكون السّماء مبنيّة و الأرض مدحيّة. البحار ج ٤٠، ص ٥٩.

التوحيد للصدوق- بإسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام قال:

فأوّل شيء خلقه من خلقه الشيء الّذي جميع الأشياء منه و هو الماء. البحار ج ٥٧، ص ٦٦، الحديث ٤٤.

العيون للصدوق، بإسناده عن الإمام الرضا (ع) عن آبائه (ع) قال: كان عليّ (ع) في جامع الكوفة إذ قال إليه رجل من أهل الشام فقال: أخبرني عن أوّل ما خلق اللّه، قال:

خلق النور. البحار ج ٥٧، ص ٧٣، الحديث ٤٩، تنبيه الخاطر للورّام، عن ابن عبّاس،-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٧٤

الوجود من الواجب إلى الممكن، و النقطة الواقعة تحت الباء عبارة عن صورة الممكن و تعيّنها و العين، و بسبب إنّها كانت علّة التميّز عن غيره و مركز التعيّن سمّاها الشرع نقطة، فكما أن الباء يتعيّن بها و يتميّز الألف، فكذلك الوجود المضاف يتعيّن بذات الممكن و يتميّز عن الوجود المطلق، و المراد بالألف عند التحقيق الحضرة الأحديّة المطلقة الّتي هي عبارة عن انتفاء تعدّد الصفات و الأسماء و النسب و التعيّنات عن الذّات المطلقة بعد اعتبارها في العلم، و بالباء الحضرة الواحديّة الّتي هي عبارة عن اعتبار الذّات من حيث انتشاء الأسماء و الصّفات و واحديتها بها مع تكثرها بالتعيّنات، و بالنقطة الرّبوبيّة الّتي هي عبارة عن الذّات من حيث صدور الأفعال و الكمالات عنها عينا أي إيجاد الموجودات و المخلوقات في الخارج بعد تعيينها في العلم.

- عن أمير المؤمنين (ع) قال:

«إنّ اللّه تعالى أوّل ما خلق الخلق خلق نورا ابتدعه من غير شيء. البحار ج ٥٧، ص ٩٠، الحديث ٧٨.

الكافي للكليني، بإسناده عن الإمام الباقر (ع) قال:

«كان (اللّه) إذ لا شيء غيره، و خلق الشيء الّذي جميع الأشياء منه و هو الماء الّذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كلّ شيء إلى الماء، و لم

يجعل للماء نسبا يضاف إليه. البحار ج ٥٧، ص ٩٦، الحديث ٨١ تفسير علي بن إبراهيم بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال:

أوّل ما خلق اللّه القلم، فقال له: «اكتب» فكتب ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة.

البحار ج ٥٧، ص ٣٦٦، الحديث ١.

و مثله في الدر المنثور عن ابن عباس و عن عبادة بن الصامت بحار ج ٥٧، ص ٣٧٠، و ص ٣٧١ و ٣٧٢- الحديث ١٣ و ٢١ و ٢٤ و ٢٨.

علل الشرائع للصدوق، بإسناده عن الصادق (ع) قال:

إنّ أوّل ما خلق اللّه عزّ و جلّ ما خلق منه كلّ شيء ... قال: الماء. بحار ج ٥، الحديث ٢٤٠، الحديث ٢٣.

و راجع أيضا في هذا الموضوع تعليقتنا في الجزء الأوّل الرقم ٧٣ و ٧٤ و ٧٥، ص ٣١٥.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٧٥

في بيان معنى العماء

ثمّ اعلم، أنّ جميع الإشارات المتقدّمة في صورة الباء و الحروف و المظاهر و غيرها كناية عن ظهور الحقّ بصورة الخلق في عالم العماء الّذي هو التعين الأوّل و المرتبة الثانية في الوجود. و عند البعض عن خفائه و كمونه في حضرة الذّات الّتي هي الحضرة الأحديّة، و الأوّل أقوى و أقرب إلى الحقّ، و سبب ذلك و هو الّذي ورد في الحديث النبوي انّه سئل عن مكان الربّ قبل أن يخلق الخلق فقال:

كان في عماء الحديث (١٧٨).

---

(١٧٨) قوله: كان في عماء.

أخرجه ابن ماجة في سننه المقدّمة باب ١٣، الحديث ١٨٢، ص ٦٤، بإسناده عن أبي رزين قال: قلت: يا رسول اللّه! أين كان ربّنا قبل أن خلقه؟ قال: «كان في عماء، ما تحته هواء، و ما فوقه هواء، و ما ثمّ خلق، عرشه على الماء».

أخرجه أيضا ابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ١١.

و رواه أيضا ابن أبي جمهور في عوالي اللئالي ج ١، ص ٥٤.

أقول: العماء هو برزخ بين المرتبتين، المرتبة العالية و المرتبة الدانية و له عناوين و مراحل مختلفة.

الصادر الأوّل عماء من وجه و مقام الأحدية أيضا عماء من وجه كما أنّ مقام الواحديّة أيضا عماء من وجه.

و يشير أيضا بالعماء إلى مقام الجمع كما يشر بالغماء إلى المقامات التفصيليّة، فأصبح العماء في المراتب السفليّة غماء.

و كما يعبّر عن الصادر الأوّل و هو حقيقة المحمّديّة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالهباء و بهذا يمكن أن يكون المقصود من العماء مقام الذات جلّت عظمته الّذي كان يعبّر عنه بعض مشايخنا رحمه اللّه بمقام الهاهوت و هو مقام غيب الغيوب و هو في حجاب مطلق.

راجع في بيان حقيقة العماء و تفسيره: مصباح الأنس ص ٧٤ و فصوص الحكم (شرح-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٧٦

- القيصري) ص ۱۱ و ۱۳ و ۳۸ و ۲۵٤.

قال ابن أبي جمهور في شرح الحديث: قال أهل الإشارة: أنّ مرتبة الأحديّة، هي مرتبة العمائية الّتي لا يلزمها شيء من الصفات و الأسماء و الأفعال، فهي مرتبة العماء المشار إليه في الحديث، و تلك المرتبة لا يمكن العلم بها، و لا وصول العقول إليها، لعدم الطريق الموصل، فلمّا تنزل من تلك المرتبة إلى مرتبة الوحدانية، الّتي هي مرتبة الصفات و الأسماء و الأفعال، ظهرت المسمّيات و الأفعال و حصل بواسطتها التمييز و المعرفة.

و قال القيصري في شرح الفصوص ص ۳۸: فأوّل ظهورها في صورة العقل الأوّل الّذي هو صورة إجماليّة للمرتبة العمائيّة المشار إليها في الحديث الصحيح (ذكر الحديث المذكور) و قال: و لذلك قال عليه السّلام: «أوّل ما خلق اللّه نوري» و أراد العقل كما أيّده بقوله: «أوّل ما خلق اللّه العقل» ثمّ في صورة باقي العقول و النفوس الناطقة الفلكيّة و غيرها و في صورة الطبيعة و الهيولى الكلّيّة و الصّورة الجسميّة البسيطة و المركبة بأجمعها، و يؤيّد ما ذكرنا قول أمير المؤمنين ولي اللّه في الأرضين قطب الموحدين علي بن أبي طالب عليه السّلام في خطبة كان يخطبها للناس: أنا نقطة باء بسم اللّه، أنا جنب اللّه الّذي فرطتم فيه، و أنا القلم، و أنا اللوح المحفوظ، و أنا العرش و أنا الكرسي، و أنا السّماوات السبع و الأرضون إلى أن صحا في أثناء الخطبة و ارتفع عنه حكم تجلّي الوحدة و رجع إلى عالم البشريّة و تجلّى له الحقّ بحكم الكثرة فشرع معتذرا فاقر بعبوديّته و انقهاره تحت أحكام الأسماء الإلهيّة، و كذلك قيل: الإنسان الكامل لا بدّ أن يسري في جميع الموجودات كسريان الحقّ فيها.

قال محيي الدّين بن عربي في الفتوحات المكّيّة ج ۲، ص ۷۰، ط ج.

فاعلم أيّها الولي الحميم، أنّ المحقق الواقف العارف بما تقتضيه الحضرة الإلهيّة من التقديس و التنزيه و نفي المماثلة و التشبيه، و لا يحجبه ما نطقت به الآيات و الأخبار في حقّ تعالى من أدوات التقييد بالزمان و الجهة و المكان كقوله عليه السّلام: أين اللّه؟ ... و قال تعالى في الظاهر:

أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمٰاءِ [سورة الملك: ١٦].

و قال:

وَ كٰانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً [سورة الأحزاب: ٤٠].

و

:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۳۷۷

- **الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ [سورة طه: ٥].**

وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ [سورة الحديد: ٤].

مٰا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاٰثَةٍ إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ [سورة المجادلة: ٧].

و «يفرح بتوبة عبده» و «يعجب من الشاب ليست له صبوة»، و ما أشبه ذلك من الأدوات اللفظيّة التشبيهيّة.

و قال أيضا في ج ۲، ص ۳٤۹، ط ج:

اعلم أنّ اللّه تعالى كان قبل أن يخلق الخلق و لا قبليّة زمان، و إنّما ذلك عبارة للتوصيل، تدل على نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع،

كان جلّ تعالى في عماء، ما تحته هواء و ما فوقه هواء، و هو أوّل مظهر إلى ظرفيه، سرى فيه النور الذاتي كما ظهر في قوله:

اللّهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ [سورة النور: ۳۵].

فلمّا انصبغ ذلك العماء بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيّمين الّذين هم فوق عالم الأجساد الطبيعيّة، و لا عرش و لا مخلوق تقدمهم، فلمّا أوجدهم تجلّى لهم، فصار لهم ذلك التجلّي غيبا، كان ذلك الغيب روحا لهم، أي لتلك الصور، و تجلّى لهم في اسمه الجميل، فهاموا في جلال جماله فهم لا يفيقون.

أقول: هناك أحاديث عن أهل البيت عليهم السّلام في نفي الأين و المكان عن اللّه سبحانه و تعالى و لا منافات بينها و بين الحديث المذكور بعد ما تبيّن المقصود منه. فأمّا الأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السّلام فنذكر هنا بعضها تيمّنا فهي ما يلي:

روى الكليني في الكافي ج ۱، ص ۹۰، الحديث ٦ بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال:

«قال رأس الجالوت لليهود: إن المسلمين يزعمون أنّ عليّا (ع) من أجدل النّاس و أعلمهم، اذهبوا بنا إليه لعليّ أسأله عن مسألة و أخطّئه فيها فأتاه فقال: يا أمير المؤمنين أنّي أريد أن أسألك عن مسألة، قال: سل عمّا شئت، قال: يا أمير المؤمنين متى كان ربّنا؟ قال له: يا يهوديّ إنّما يقال: متى كان لمن لم يكن، فكان متى كان، هو كائن بلا كينونيّة، كائن كان بلا كيف يكون، بلى يا يهوديّ ثمّ بلى يا يهوديّ كيف يكون له قبل؟! هو قبل القبل بلا غاية و لا منتهى غاية و لا غاية لها، انقطعت الغايات عنده، هو غاية كلّ غاية فقال: أشهد أنّ دينك الحقّ و أنّ ما خالفه باطل.

و روى الصدوق في «التوحيد» ص ۱۱۵، الحديث ۱٤ باب ما جاء في الرؤية، بإسناده-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۷۸

فإن نظرنا إلى اللغة و معنى العماء الّذي هو الغيم الرقيق الحايل بين السّماء و الأرض يكون المراد به الحضرة الواحديّة و التعيّن الأوّل الحايل بين أرض الكثرة الخلقيّة و سماء الأحديّة الذّاتيّة، و إن نظرنا إلى الإصطلاح و السئوال من لسان الأعرابي فيكون المراد به الحضرة الأحديّة، لأنّ المراد عن السئوال كان العلم بمكان خفائه قبل الظهور لأنّ الحقّ جلّ ذكره قبل الظهور لم يكن إلّا في الحضرة الأحديّة الّتي هي حضرة الذّات و مقام الإطلاق.

و عند المحقّقين ليس المراد بالقبل و البعد في مثل هذه المواضع القبليّة الزّمانيّة و البعديّة المكانيّة، لأنّ مثل هذا يليق بجنابه، و تقدّمه و تأخّره ليس إلّا بالذّات فقط كما هو معلوم لأهله و لا يلزم من هذا قدم العالم إن أردت بالعالم ما سوى اللّه تعالى، و إن أردت شيئا آخر فهناك أبحاث لا يليق بهذا المكان، و أمّا بحث العماء و الاختلاف فيه بين العلماء، فقد سبق في الفصل السابق على هذا البحث فانظر هناك «۱۷۹».

في بيان أسماء التعين الأوّل

(في المراد بالتعيّن الأوّل و بيان أسمائه)

و أمّا التعيّن الأوّل الّذي بإزاء الباء في الحروف فله بحسب كلّ كمال في ذاته أو

-عن أبي عبد اللّه الإمام الصادق عليه السّلام قال:

إنّ اللّه عظيم، رفيع، لا يقدر العباد على صفته، و لا يبلغون كنه عظمته، لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار و هو اللطيف الخبير، و لا يوصف

بكيف و لا أين و لا حيث، فكيف أصفه بكيف و هو الّذي كيّف الكيف حتّى صار كيفا، فعرفت الكيف بما كيّف لنا من الكيف، أم كيف أصفه بأين و هو الّذي أيّن الأين حتّى صار أينا، فعرفت الأين بما أيّن لنا من الأين، أم كيف أصفه بحيث و هو الّذي حيّث الحيث حتّى صار حيثا، فعرفت الحيث بما حيّث لنا من الحيث، فاللّه تبارك و تعالى داخل في كلّ مكان، و خارج من كلّ شيء، لا تدركه الأبصار، و هو يدرك الأبصار، لا إله إلاّ هو العليّ العظيم، و هو اللطيف الخبير. [.....]

(۱۷۹) قوله: فانظر هناك.

أشار به في الفصل التاسع (في العالم) و هو كل ما سوى اللّه سبحانه.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۷۹

موجود صدر عنه اسم مناسب لتلك الكمال أو لذلك الصدور و الوجود، و الباء أحد أسمائه، و الحكمة في ذلك انّه خليفة اللّه تعالى، و الخليفة يجب أن يكون له مناسبة بالمستخلف صورة و معنى و الحقّ تعالى له أسماء كثيرة بحسب كلّ كمال و صفة فيجب أن يكون خليفة كذلك، و الأسماء في الصورتين غير متناهية من حيث الجزئيّة لكن من حيث الكلّي كما ورد في الشرع بالنسبة إلى الحقّ تعالى: العليم القدير المريد المتكلّم إلى تمام المائة و الألف و السبعة و غير ذلك. فكذلك لهذا الخليفة فإنّ له أسماء كثيرة بحسب الجزئي غير متناهية لكن بحسب الكلّي سمّي بالبرزخ و العماء و التعيّن الأوّل و حقيقة الحقائق و غير ذلك، و حيث إنّ هذا المكان لا يحتمل مجموعها نذكر بعضها الّتي هي الأهم و الأولى:

(عناوين الخليفة)

فمنها، البرزخ الجامع و ذلك لجامعيّته بين الخلق و الخالق و الظاهر و الباطن و الوجوب و الإمكان، لأنّ هذا الموجود الأوّل الموسوم بالإنسان الكبير، و الروح الأعظم، له وجه إلى الحقّ و وجه إلى الخلق يستمدّ الفيض من الحقّ على حسب استعداده و يمدّ إلى ما تحته من المخلوقات، كما سبق ذكره عند بحث النبوّة و الولاية و أخذ الوحي و الإلهام من اللّه تعالى، و إيصالهما إلى الخلق، و كل برزخ هذا حالة أعني يكون فاصلا بين الشيئين أو بين العالمين و يكون لكلّ منهما له حظ و نصيب، و إليه الإشارة بقوله تعالى:

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيٰانِ بَيْنَهُمٰا بَرْزَخٌ لاٰ يَبْغِيٰانِ [سورة الرحمن: ۱۹- ۲۰].

و في قوله:

وَ مِنْ وَرٰائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ [سورة المؤمنون: ۱۰۰].

و في البرازخ أبحاث كثيرة لأنّها مبتدائيّة و منتهائيّة و ما بين المبدأ و المنتهى بحسب كلّ عالمين و ما بينهما ستعرفها إن شاء اللّه.

و منها الخليفة الأعظم، و ذلك لخلافة الحق و القيام بقضاء حوائج عبيده في العالمين صورة و معنى لقوله تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۸۰

وَ إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً [سورة البقرة: ۳۰].

و لقوله:

يٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّٰاسِ [سورة ص: ۲۶].

و قد تقدّم بحث الخلافة الكبرى و الصغرى بالنّسبة إلى الإنسان الكبير و الإنسان الصغير مبسوطا في المقدمة السابقة

على هذه المقدّمة فارجع إليها فإنه ليس من الأدب العود إلى ما سبق.

و منها حقيقة الحقائق، و ذلك لرجوع الحقائق كلّها و صدورها منها و قد سبق تحقيقها مبسوطا في الفصل السابق و تقسيمها إلى ثلاثة:

الأولى حقيقة مطلقة بالذّات، فعّالة مؤثرة بالذّات وجودها واجب لها من ذاتها و هو عينها غير زائد عليها، و هي حقيقة اللّه سبحانه.

و الثانية حقيقة منفعلة بالذّات مقيّدة متأثّرة سافلة قابلة مستفيدة للوجود من الحقيقة الواجبيّة بالفيض و التجلّي و هي حقيقة العالم و حقيقته ثلاثة هي أحديّة جمعيّة بين الإطلاق و التقييد و الفعل و التأثير و الانفعال و التأثر فهي مطلقة من وجه مقيّده من وجه آخر، فعّالة باعتبار، منفعلة باعتبار، و هذه الحقيقة أحديّة جمع الحقيقيين، و لها المرتبة الأوّليّة الكبرى و الآخريّة العظمى، فإن أردت تحقيق ذلك أبسط من هذا فاطلب من موضعه و السّلام.

و منها العقل الأوّل، لتعقّله الموجود و لتعقّله الأشياء كلّها إجمالا في نفسه و تفصيلا في المرتبة الثانية الّتي هي مرتبة النفس الكلّيّة، و لتعقّله ذاته على ما هي عليها من الإمكان و القبول لما يفيض عليه الفائض المطلق، و أمثال ذلك، و ورد (١٨٠):

---

(١٨٠) قوله: و ورد: أوّل ما خلق اللّه العقل.

روى محمّد بن يعقوب الكليني في اصول الكافي كتاب العقل و الجهل الحديث ١، ص ١٠، بإسناده عن محمّد بن مسلم، عن الباقر عليه السّلام قال:

لمّا خلق اللّه العقل استنطقه ثمّ قال له: أقبل، فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٨١

أوّل ما خلق اللّه العقل فقال له: أقبل فاقبل، و قال له: أدبر فأدبر فقال: ما خلقت خلقا أعزّ إليّ منك بك أعطي و بك آخذ و بك أثيب و بك أعاقب الحديث بتمامه.

و منها النور لإضاءته بنفسه و إضافته على غيره من الموجودات كالشمس مثلا فإنّها مضيئة بنفسها و مفيضة على غيرها من القمر و الكواكب و يصدّق ذلك قول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

أوّل ما خلق اللّه تعالى نوري (١٨١).

- و عزّتي و جلالي ما خلقت خلقا هو أحبّ إليّ منك و لا أكملتك إلاّ فيمن أحبّ، أما إنّي إيّاك آمر، و إيّاك أنهى، و إيّاك أعاقب، و إيّاك أثيب.

و قريب منه الحديث ٣٢، ص ٢٧ و الحديث ٢٦، ص ٢٦ و روى أيضا في ص ٢٠، الحديث ١٤، بإسناده عن سماعة بن مهران، قال: قال الصادق (ع):

إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق العقل و هو أوّل خلق من الروحانيّين عن يمين العرش من نوره، فقال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: أقبل، فأقبل، فقال اللّه

تبارك و تعالى: خلقتك خلقا عظيما و كرّمتك على جميع خلقي. الحديث.

و روى الصدوق (رضي) في الفقيه ج ٤، ص ٢٦٧، باب ١٧٦، باب النوادر بإسناده عن أمير المؤمنين عليّ (ع)، عن النّبي (ص) قال:

إنّ أوّل خلق خلقه اللّه عزّ و جلّ العقل فقال له: أقبل فاقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، فقال اللّه: و عزّتي و جلالي ما خلقت خلقا هو أحبّ إليّ منك بك آخذ، و بك أعطي، و بك أثيب، و بك أعاقب.

و أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء ج ٧، ص ٣١٨، بإسناده عن عائشة قالت: حدثني رسول اللّه (ص):

أنّ أوّل ما خلق اللّه سبحانه و تعالى العقل، فقال اقبل فاقبل، ثمّ قال: أدبر فأدبر، ثمّ قال: ما خلقت شيئا أحسن منك، بك آخذه و بك أعطي.

(١٨١) قوله: و يصدّق ذلك قول النّبي (ص): أوّل ما خلق اللّه تعالى نوري.

روى المجلسي رحمه اللّه في بحار الأنوار ج ١٥ ص ٢٣ الحديث ٤٤ عن كتاب لفضل اللّه ابن محمود الفارسي (المخطوط) بإسناده عن جابر بن عبد اللّه قال:

قال رسول اللّه (ص):-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٨٢

ثمّ قول اللّه تعالى:

اللّهُ نُورُ السَّماٰواٰتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاٰةٍ [سورة النور: ٣٥].

و منها القلم الأعلى، لإضافته العلوم و الحقائق على النفس الكلّيّة بالتخصيص و على ما دونها بالتّعميم.

ن وَ الْقَلَمِ وَ ماٰ يَسْطُرُونَ [سورة القلم: ١].

إشارة إلى هذا المعنى. و كذلك قوله عليه السّلام:

«أوّل ما خلق اللّه القلم فقال له: اكتب فكتب كلّ ما يجري إلى يوم القيمة و جفّ القلم بما هو كائن» «١٨٢».

إشارة إليه.

و منها الروح الأعظم، لإفاضته الحياة الحقيقيّة على الكلّ و استفاضته من الحقّ بغير الواسطة، وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي [سورة الحجر: ٢٩].

- أوّل ما خلق اللّه نوري، ابتدعه من نوره، و اشتقّه من جلال عظمته.

و أيضا في الحديث ٤٣ عن جابر بن عبد اللّه قال: قلت لرسول اللّه (ص): أوّل شيء خلق اللّه تعالى ما هو؟ فقال:

نور نبيّك يا جابر، خلقه اللّه ثمّ خلق منه كلّ خير.

و رواهما أيضا في ج ٢٥ ص ٢٢ الحديث ٣٦ و ٣٧.

و روى الكليني في أصول الكافي ج ١ ص ٤٤٢ الحديث ٩ بإسناده عن أحمد بن علي عن الصادق عليه السّلام قال:

إنّ اللّه كان إذ لا كان، فخلق الكان و المكان و خلق نور الأرض الّذي نوّرت منه الأنوار، و أجرى فيه من نوره الّذي نوّرت منه الأنوار و هو النّور الّذي خلق منه محمّدا و عليّا. الحديث.

راجع أيضا تعليقتنا الرقم ١٨٠، و في الجزء الأوّل الرقم ٧٣ و ٧٤ و ٧٥.

(١٨٢) قوله: جفّ القلم.

راجع تعليقتنا الرقم ٥٤ و ٩٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٨٣

إشارة إلى نفخه الروح الجزئي في الإنسان الصغير لأنّه كالأب بالنسبة إلى ذريّته الصوريّة و المعنويّة، لقول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

«كنت نبيّا و آدم بين الماء و الطّين» «١٨٣».

و لقول عارف أمّته فيه:

و إنّي و إن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوّتي

«١٨٤»

في ذكر عبارة الشيخ الأكبر في بيان التعيّن الأوّل

هذا ما عندي، فأمّا الشيخ الأعظم محيي الدّين ابن عربي قدّس اللّه سرّه قد أشار إلى هذا المعنى في «التدبيرات الإلهيّة» «١٨٥» و إلى اختلاف العلماء بحسب العبارة، و إلى الّذي سنخ له بحسب كلّ اسم و اصطلاح، و هو حسن بذكره، ثمّ نرجع إلى القسم الثاني، و هو قوله:

اعلم، نوّر اللّه بصيرتك أنّ أوّل موجود اخترعه اللّه تعالى، جوهر بسيط روحاني فرد غير متحيّز في مذهب قوم، و متحيّز في مذهب آخرين إرادة و اختيارا، و لو شاء سبحانه لاخترع موجودات متعدّدة دفعة واحدة خلافا لما يدّعيه بعض الفلاسفة (الناس) من أنّه: لا يصدر عن الواحد إلاّ الواحد (١٨٦)، و لو كان هذا، لكانت الإرادة

---

(١٨٣) قوله: كنت نبيّا و آدم.

راجع تعليقتنا الرقم ٤٥، في الجزء الأوّل ص ٢٦٧.

(١٨٤) قوله: و إنّي و إن كنت، (شعر).

ذكره السيّد المؤلف في نصّ النصوص أيضا ص ٤٩٨.

(١٨٥) قوله: في (التدبيرات الإلهيّة).

راجع (التدبيرات الإلهيّة في إصلاح المملكة الإنسانيّة) ص ١٢١ إلى ١٢٨، نقله المؤلف مع حذف بعض الكلمات و تغييرها و أشرنا إلى بعضها أحيانا.

(١٨٦) قوله: خلافا لما يدّعيه بعض الفلاسفة من أنّه لا يصدر عن الواحد إلاّ الواحد.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٨٤

- عنون هذه القاعدة - أي الواحد لا يصدر عنه إلاّ الواحد. الفلاسفة و بعض المتكلمين في كتبهم و هي قاعدة مشهورة و كأنّ مفهومها مسلّم عند الحكماء و لا ريب عندهم فيها، و لا شكّ أنّ تصوّر الصحيح من الوحدة و البساطة و ما قصد بها الحكماء، يوجب تصديقها و الأشكال أو الشبهات الّتي توجد في بعض الكلمات أحيانا نشأت من عدم تصورها و عدم تصور المراد منها صحيحا.

و لا بأس بذكر بعض ما قال بعض العرفاء أو الحكماء و المتكلمين حول هذه القاعدة هنا و ذكر بعض البراهين الّتي أقاموها على إثباتها بعد ما ذكروا أنّها أمر بديهيّ، و البراهين حولها من قبيل التنبيه، و أمّا البحث فيها تفصيلا يحتاج إلى كتابة رسالة مستقلة و مقام آخر، هذا و إليك بعض تلك العبارات.

ابن عربي في الفتوحات ج ٤، ص ١٥٥ ط ج:

وصل، كلّ خط يخرج من النقطة إلى المحيط، مساو لصاحبه و ينتهي إلى نقطة من المحيط، و النقطة في ذاتها ما تعدّدت و لا تزيدت مع كثرة الخطوط الخارجة منها إلى المحيط، و هي تقابل كل نقطة من المحيط بذاتها، إذ لو كان ما تقابل به نقطة من المحيط غير ما تقابل به نقطة أخرى لانقسمت و لم يصح أن تكون واحدة، و هي واحدة، فما قابلت النقط كلّها على كثرتها إلاّ بذاتها، فقد ظهرت الكثرة عن الواحد العين، و لم يتكثر هو في ذاته، فبطل من قال: «إنّه لا يصدر عن الواحد إلاّ واحد».

و قال أيضا في ج ١٠، ص ٣٩١ ط ج:

فلا أدري في العالم أجهل ممّن قال: «لا يصدر عن الواحد إلاّ واحد» مع قول صاحب هذا القول: بالعليّة، و معقوليّة كون الشيء علّة لشيء (هي) خلاف معقوليّة شيئيته، و النسب من جملة وجوه الجمع، فما أبعد صاحب هذا القول من الحقائق، و من معرفة من له الأسماء الحسنى، ألا ترى أهل الشرائع - و هم أهل الحقّ - يقولون: بنسبة الألوهة لهذا الموجد للممكن المألوه، و معقول الألوهة ما هو معقول الذات، فالأحديّة معقولة، لا تتمكّن العبارة عنها إلاّ بمجموع، مع كون العقل يعقلها و هي أحديّة المجموع و آحاده.

ألا ترى أنّ التجلّي الإلهي لا يصحّ في الأحديّة أصلا، و ما ثمّ غير الأحديّة، و ما يتعقل أثر عن واحد لا جمعيّة له، فيا ليت شعري كيف جهلت العقول ما هو أظهر من الشمس فيقول قائلهم: «ما مصدر عن الواحد إلاّ واحد» و يقول: «إنّ الحقّ واحد من جميع -

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٨٥

- الوجوه»، و هو يعلم أنّ النسب من بعض الوجوه و أنّ الصفات في مذهب الآخر من بعض الوجوه، فأين الواحد من جميع الوجوه؟

فلا أعلم من اللّه باللّه، حيث لم يفرض الوحدة إلاّ أحديّة المجموع و هي أحديّة الألوهة له تعالى فقال:

هُوَ اللهُ الَّذِي لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللهُ الَّذِي لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاٰمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبّٰارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحٰانَ اللهِ عَمّٰا يُشْرِكُونَ هُوَ اللهُ الْخٰالِقُ الْبٰارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ [سورة الحشر: ٢٢- ٢٤].

و هي تسعة و تسعون اسما، مائة إلاّ واحدا، و كلّ اسم واحد مدلوله ليس مدلول عين الإسم الآخر، و إن كان المسمّى بالكلّ واحدا، فما عرف اللّه إلاّ اللّه.

و قال ابن عربي في الفتوحات أيضا ج ١٣، ص ٦٦، ط ج و ج ٢، ص ١١٥ ط ق حين ما شرح معنى (القبضة) في قوله تعالى: **وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ** [سورة الزمر: ٦٧]:

فالقبضة على الحقيقة (هي) قوله تعالى:

وَ كٰانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً [سورة النساء: ١٢٦].

أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ٥٤].

و من أحاط بك فقد قبض عليك، لأنّه ليس لك منفذ مع وجود الإحاطة، و إلاّ فليست إحاطة، و ما هو محيط، و صورة ذلك أنّه ما من موجود سوى اللّه من الممكنات إلاّ و هو مرتبط بنسبة إلهيّة و حقيقة ربّانيّة تسمّى أسماءا حسنى، فكلّ ممكن في قبضة حقيقة إلهيّة، فالكلّ في القبضة. إلى أن قال: و من هنا وجد في العالم الأمور المبهمة، لأنّه ما من شيء في العالم إلاّ و أصله من حقيقة إلهيّة، و لهذا وصف الحقّ نفسه بما يقوم الدليل العقلي على تنزيهه عن ذلك .... إلى أن قال: فالعامّة في مقام التشبيه و هؤلاء أعني أصحاب الكشف في مقام التشبيه و التنزيه، و العقلاء في مقام التنزيه خاصّة، فجمع اللّه لأهل خاصّته بين الطرفين.

فمن لم يعرف القبضة هكذا فما «قدر اللّه حق قدره»-، فإنّه إن لم يقل العبد: ان اللّه «ليس كمثله شيء»- فما «قدر اللّه حق قدره» و إن لم يقل: «إنّ اللّه خلق آدم بيده» فما «قدر اللّه حق قدره». و أين الانقسام من عدم الانقسام، و أين المركّب من البسيط؟ فالكون يغاير مركّبه بسيطه، و عدده توحيد هو أحديّته، و الحقّ: عين تركيبه عين بسيطه، عين أحديّته عين كثرته، من غير مغايرة و لا اختلاف نسب، و إن اختلف الآثار فعن عين واحدة، و هذا-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٨٦

- لا يصح إلاّ في الحقّ تعالى، و لكن إذا نسبنا نحن بالعبارة فلا بدّ أن نغاير: كان كذا من نسبة كذا، و كذا من نسبة كذا، لا بدّ من ذلك للإفهام.

و هنا كلام للسيّد الجليل المؤلف قاله في جامع الأسرار و هو هذا:

و أمّا التوحيد الفعلي ... اعلم أنّ اللّه تعالى عبارة عن صدور الموجودات عنه، إجمالا و تفصيلا، غيبا و شهادة، من الأزل إلى الأبد، صدورا غير منقطع، لقوله تعالى:

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [سورة الرحمن: ٢٩].

و لقوله تعالى:

بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ [سورة ق: ١٥].

و بيان ذلك على حسب الترتيب هو أنّ اللّه تعالى لما أراد التنزّل من حضرة الذات إلى حضرة الأسماء و الصفات، و منها إلى حضرة الأكوان المعبّر عنها بالعالم، و الظهور بصورها (الثابتة) في قوله:

«كنت كنزا مخفيا، فأجببت أن أعرف، فخلقت الخلق».

ظهر أوّلا بصورة حقيقة كلّية و تعيّن بها و تقيّد بصورتها و هي حقيقة «الإنسان الكبير» المسمّى بآدم، لقول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«خلق اللّه تعالى آدم على صورته».

أعني «آدم الحقيقي» لا آدم الصّوريّ، و هذه الحقيقة لها أسماء كثيرة بحسب اعتباراتها، منها النور، لقوله (ص):

«أوّل ما خلق اللّه نوري».

و منها العقل لقوله:

«أوّل ما خلق اللّه العقل».

و منها القلم، لقوله:

«أوّل ما خلق اللّه القلم».

و منها الروح الأعظم، لقوله:

«أوّل ما خلق اللّه الروح».

و غير ذلك من الأسماء.

ثمّ بعد ذلك ظهر تعالى بصورة حقيقة أخرى، و هي هذا الإنسان المسماة ب«حواء-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۸۷

-الحقيقيّة» المخلوقة من ضلعه الأيسر لا الأيمن، لأنّ ضلعه الأيمن (مصروف) إلى اللّه تعالى لا غير، أعني (مصروفا) إلى الحقّ لا إلى الخلق، لقوله تعالى:

وَ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا لِيَسْكُنَ إِلَيْهٰا [سورة الأعراف: ۱۸۹].

و لها أيضا أسماء كثيرة منها النفس الكلّيّة، و اللوح المحفوظ و الكتاب المبين، و غير ذلك من الأسماء بحسب اعتباراتها أيضا.

ثمّ ظهر بواسطة هاتين الحقيقتين بصورة كلّ موجود في الوجود، علما كان أو عينا، بسيطا كان أو مركّبا، لطيفا كان أو كثيفا من العقول و النفوس و الأفلاك و الأجرام و العناصر و المواليد، لقوله تعالى:

وَ بَثَّ مِنْهُمٰا رِجٰالاً كَثِيراً وَ نِسٰاءً [سورة النساء: ۱].

و كذلك إلى ما لا يتناهي، أي و كذلك يظهر بصورة كلّ موجود بحسب الجزئيّات و الكلّيّات أيضا، إلى ما لا يتناهي. فليس في هذا العالم، أو في هذا الوجود، فاعل بالحقيقة إلاّ هو، و لا فعل إلاّ له:

أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبٰارَكَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِينَ [سورة الأعراف: ۵۴].

هذا على مذهب أهل التحقيق من أرباب التوحيد و أهل الباطن، و هاهنا دقيقة بل دقائق، بسبب اسناد الأفعال كلّها إلى اللّه تعالى، لأنّه (أي هذا الرأي) قريب إلى مذهب الأشعريّ، و لكن (عند التحقيق) ليس كذلك.

و أمّا على مذهب أهل الشريعة من أرباب الظاهر، فإنّه تعالى خلق أوّلا جوهرة، ثمّ نظر إليها، فذابت و صارت نصفين، فخلق من نصفها «عالم الأمر» و من نصفها «عالم الخلق»، لقوله تعالى:

أَنَّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ كٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا [سورة الأنبياء: ۳۰].

و خلق بعد تلك الجوهرة جواهر أخر، ثمّ الأجساد، ثمّ الأعراض، ثمّ الأفلاك، ثمّ الأجرام، ثمّ ابتداء الموجودات و إيجادها من العناصر، و ليس بين العبارتين فرق عند التحقيق.

و أمّا على مذهب الحكيم فإنّه يقول: أوّل شيء صدر من اللّه تعالى هو العقل الأوّل، ثمّ النفس الكلّيّة، ثمّ الأفلاك، ثمّ الأجرام إلى آخرها، و كلّ

ذلك عنده معلول له، و هو علّتها، أمّا بواسطة أو بغير واسطة، و كذلك كان في الأزل و (كذلك) يكون إلى الأبد، لأنّ انفكاك -[.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۸۸

- العلّة عن المعلول عنده محال، و المراد بذلك أنّ صدور الموجودات منه تعالى لا ينقطع أزلا و أبدا.

و ليس هاهنا أيضا إلاّ اختلاف العبارة، و إلاّ عند النظر الصحيح حاصله حاصل كلام المحققين، لأنّ «ظهر» و «خلق» و «صدر» ألفاظ متغايرة بمعنى واحد.

و بالجملة كلّهم قائلون بأنّ هذه الأفعال أفعال اللّه تعالى بلا خلاف و لكن غاية ما في الباب أنّ بعضهم قائلون بالواسطة، و بعضهم بعدمها، و على جميع التقادير ليس الفاعل فيها حقيقة إلاّ هو. جامع الأسرار ص ۱۴۴، و قال أيضا في نفس الكتاب ص ۴۸۱، نقلا عن المحقق الطوسي في الأشكال على قاعدة الواحد:

قوله قدّس سرّه: «قالت الفلاسفة: الواحد لا يصدر عنه إلاّ واحد، و كلّ شبهة لهم على هذه الدعوى (هي) في غاية الركاكة، و لذلك قالوا: لا يصدر عن البارئ تعالى بلا واسطة إلاّ عقل واحد، و العقل فيه كثرة، هي الوجوب و الإمكان و يعقّل الواجب و يعقّل ذاته، و لذلك صدر عنه عقل آخر و نفس و فلك مركّب من الهيولى و الصورة.

و يلزمهم أنّ أيّ موجودين فرضنا (وجودهما) في العالم كان أحدهما (ضرورة) علّة للآخر، بواسطة أو بغيرها، و أيضا: التكثّرات الّتي في العقل، إن كانت موجودة صادرة عن البارئ لزم صدورها عن الواحد، و إن صدرت عن غيره، لزم تعدّد الواجب، و إن لم تكن موجودة لم يكن تأثيرها في الموجودات معقولا.

كلمات بعض الحكماء في المقام:

قال الحكيم ميرداماد في القبسات ص ۳۵۱:

من أمّهات الأصول العقليّة، أنّ الواحد بما هو واحد لا يصدر عنه من تلك الحيثيّة الواحدة إلاّ واحدا، إذ ليس في طباع الكثرة بما هي كثرة أن تصدر عن علّة واحدة من حيثيّة واحدة، فلعلّ هذا الأصل بما تلوناه عليك في الضابط من فطريّات العقل الصريح، إذا كان القلب سليما و القريحة غير مؤفة راجع القبسات في بحثه حول هذه القاعدة ص ۳۵۱ إلى ص ۳۷۲.

قال قطب الدّين الشيرازي في شرح حكمة الإشراق ص ۳۱۴:

(فصل في انّ الواحد الحقيقي و هو الواحد من جميع الوجوه لا يصدر عنه من حيث هو-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۸۹

- كذلك أكثر من معلول واحد): و إن جاز صدور أكثر من ذلك باعتبارات و شرائط مختلفة مثل تعدد الآيات و القوابل و ما يجري مجراهما، و هذا الحكم قريب من الوضوح يكفي فيه مجرّد التنبيه، و إنّما يتوقف فيه من يغفل عن معنى الواحد الحقيقي و إليه أشار (المصنّف الشيخ الإشراق):

لا يجوز أن يحصل من نور الأنوار غير نور من الظلمات.

راجع حكمة الإشراق ص ۱۲۵ إلى ص ۱۴۸، المقالة الثانية. و ص ۳۱۴ إلى ص ۳۵۶ من شرح حكمة الإشراق.

قال صدر المتألّهين في تعليقته على شرح حكمة الإشراق ص ۳۱۴:

انّ الوجود البسيط الّذي لا تركيب فيه أصلا لا يكون علّة لشيئين بينهما معيّة في الوجود، لأنّ معنى كون البسيط علّة لشيء أنّ حقيقة البسيط عن علّة ذلك الشيء بحيث لا يمكن تحليلها إلى ذات و علّة، و لا إلى حيثيّتين باحديهما يتجوهر ذاته و بالأخرى يحصل شيئا آخر، كما أنّ لنا تسيئين بأحدهما نتجوهر و هو النطق و بالآخر نكتب و هو القدرة على الكتابة، فإذا كان المبدأ كذلك و صدر عنه شيئان ک أو ب يلزم منه الحال إذ لا شكّ أنّ مفهوم كون الشيء بحيث يجب عنه أغير مفهوم كونه بحيث يجب عنه ب، و أنّ معنى مصدر أغير معنى مصدر ب، لأنّ خصوصيّة كلّ معلول إنّما نشأت من خصوصيّة علّته المفيضة فإذا كان معلول خصوصيتين مختلفتين فلا بدّ أن يكون لعلّته أيضا خصوصيّتان مختلفتان، فيقوّم ذاته من معنيين مختلفين فلا يكون بسيطا هذا خلف، و هذه المقدمة قريب من الأوليّات عند من عرف الواحد الحقيقي.

فإنّ الموجود الأوّل واجب الوجود من جميع جهاته بلا كثرة، و أنّه أحديّ الذات، أحديّة الصفة و ان لا صفة له بالحقيقة الاّ وجوب الوجود و معاني سائر الصفات يرجع إليه و هو يرجع إلى ذاته فيكون أحديّ الفعل، لا فعل له إلاّ إفاضة نور الوجود على الأشياء على ترتيب الأشرف فالأشرف، فالكثرة إنّما جاءت بعد ذاته و بعد فيضه الأقدس بواسطة جهة نقصان الوجود و ضعف النوريّة و لزوم الإمكانات و شوب الظلمات.

قال السبزواري في أسرار الحكم ص ۱۷۴: ما أنكر هذه القاعدة إلاّ من يريد سدّ باب العقل.

قال المحقق الطوسي في شرح الإشارات ج ۳، ص ۱۲۲:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌۲، ص ۳۹۰

- انّ الواحد الحقيقيّ لا يوجب من حيث هو واحد إلاّ شيئا واحدا بالعدد و (كأن) هذا الحكم قريب من الوضوح و لذلك وسم (الشيخ الرئيس) الفصل بالتنبيه، و إنّما كثرت مدافعة الناس إيّاه لإغفالهم عن معنى الوحدة الحقيقيّة. راجع الإشارات ج ۳، ص ۱۲۳ و ص ۲۱۰ و ص ۲۴۳.

قال ابن فناري في مصباح الأنس بعد البحث في بيان وجوه القلب نقلا عن تفسير الفاتحة للقونوي ص ۲۹:

و تأنيسه، قولهم: الواحد من كلّ وجه لا يصدر عنه إلاّ الواحد، إذ لو صدر عنه اثنان لكان له علّتان، فهو مع كلّ علّتيه غيره مع الأخرى فهو اثنان و لو من جهتين.

لا يقال: فلا يصدر عنه واحد أيضا و إلاّ لكان له عليّة فهو معها غيره بدونها.

لأنّا نقول ليس المراد بالعليّة النسبة التي بين العلّة و المعلول، فإنّ النّسبة غير المنتسبين قطعا، بل المراد كونه بحيث يصدر عنه و أنّ من شأنه الصدور عنه و هذا عينه، و لذا لا يوجب اعتبار الغير و لا التعدّد من حيث هو هو بخلاف العلّتين، فإنّ تعدّهما قطعا باعتبار الغيرين.

فإن قلت: عدم إيجابه اعتبار الغير مسلّم أمّا عدم لزوم التعدّد فلا كما قلنا انّه بدون ذلك الشأن غيره معه.

قلت: المراد بالواحد من كلّ وجه مّا لا يعتبر معه غيره لا ما لا يعتبر صفته الذاتيّة أيضا كالواحدة و الوجوب الذاتيّين و غيرهما ... إلى أن قال:

ثمّ اعلم أنّ الأصل مسلّم عندنا لكن في تعريفهم (تفريعهم): انّ الواحد الصادر الأوّل عن الحق تعالى هو العقل الأوّل نعم ذكره الشيخ في

الرسالة المفصحة و هو لم لا يجوز أن يكون ذلك الواحد الصادر الأوّل عن ذات الحق هو الوجود العام كما هو عند المحققين و هو الفيض الذّاتي المعبّر عنه بالتجلّي الساري في حقايق الممكنات و الإمداد الإلهي المقتضي قوام العالم و هو الوجود المنبسط و الرقّ المنشور إلخ فراجع ص ۲۹ و ۳۰.

أقول: و أنت خبير أيّها القارئ العزيز إنّ الكلام نفس الكلام و لا خلاف بينهما، و العقل الأوّل في لسان الحكمة المتعالية شأن من شئون الصادر الأوّل و هو النور المحمّدي (ص) و له أسماء مختلفة كما ذكر بعضها ابن فتاري و هذا هو الّذي قال تبارك و تعالى:

وَ ما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ [سورة القمر: ۵۰].-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۹۱

قاصرة، و القدرة ناقصة، إذ وجود أشياء متعدّدة دفعة واحدة ممكن لنفسه غير ممتنع، و الممكن محلّ (تعلّق) القدرة، فإن ثبت أنّ أوّل موجود واحد فباختيار منه تعالى.

و عبّر أهل الحقائق عن هذا الموجود المشار إليه بعبارات مختلفة، لكلّ عبارة خصوصيّة و تحتها فوائد.

فمنهم من (عبّر) «بالمادّة الاولى»، و منهم من عبّر «بالعرش»، و منهم من عبّر «بالمعلّم الأوّل»، و منهم من عبّر «بالإمام المبين»، و منهم من عبّر «بمرآة الحقّ»، و أمثال ذلك، فلنذكر الآن تلك الأسماء بعباراتهم مع ما سنخ لنا من اللّه الجواد.

فنقول: امّا ما أطلق عليها (عليه) بعض المحققين من أهل المعاني، «المادّة الأولى»، فكان الأولى أن يطلق عليه الممدّ الأوّل في المحدثات لكنّهم سمّوه بالصّفة الّتي أوجدها اللّه تعالى لها، و هذا ليس ببعيد أن يسمّى الشيء بما قام به من الصفات، و إنّما عبّر عنه

- و إن شئت الاطلاع على أكثر من هذا حول هذه القاعدة المسلّمة الّتي لا ريب فيها فراجع الأسفار الأربعة لصدر المتألهين ج ۲، ص ۱۹۴ الفصل ۱۱ و ص ۲۰۴، الفصل ۱۳، و أيضا المجلد السابع الموقف التاسع ص ۱۹۳، إلى ص ۲۴۴، و أيضا المجلد الثامن ص ۶۰.

و راجع أيضا كتاب (أصل الأصول) (ملاّ نعيما طالقاني) ص ۸۰ إلى ص ۱۰۳ و أيضا انظر رسالة (اثبات واجب) (ملاّ رجبعلي تبريزي)- في كتاب (منتخباتي أز آثار حكماء إلهي) ج ص ۲۲۰، و لمعات إلهيّة للزنوزي ص ۱۶۵ و شرح المقاصد للتفتازاني ج ۲، ص ۹۱ إلى ۹۸.

و كتاب أثولوجيا لافلاطون ص ۷۳، و أساس التوحيد للآشتياني ص ۱۵، و التحصيل لبهمنيار ص ۵۳۱- و شوارق الإلهام في شرح تجريد الكلام للفيّاض ج ۱، ص ۲۰۵ المسألة الثانية من الفصل الثالث.

و نهاية الحكمة للسيّد الطباطبائي الفصل الرابع من المرحلة الثامنة ص ۱۶۵.

و تلخيص المحصل (نقد المحصل) ص ۲۳۷.

هذا و بناء على نظريّة المدرسة الحكمة المتعالية من أنّ الموجودات كلّها وجود ربطيّ، و الإضافة إشراقية، و أنّها جميعا على نحو المعاني الحرفيّة غير المستقلّة، فالموجد لها جميعا هو اللّه سبحانه و تعالى، لا تكون هذه الأمور و الأسباب المتوسّطة إلاّ عللا معدّة و ليست هي عللا موجدة بذاتها.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۹۲

بالمادّة الأولى، لأنّ اللّه تعالى خلق الأشياء على ضربين: منها ما خلق من غير واسطة سبب و جعله سببا لخلق شيء آخر و الإعتقاد الصحيح أنّه تعالى يخلق الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب خلافا لمخالفي أهل الحقّ، و الّذي يصحّ أنّ أوّل موجود مخلوق من غير سبب متقدّم، ثمّ صار سببا لغيره و مادّة له و متوقفا ذلك الغير عليه أي على العقل الأوّل الّذي تقدّم كتوقف الشبع على الأكل، و الريّ على الشرب عادة، و كتوقّف العالم على العلم و الحياة على الحيّ عقلا، و كتوقف الثواب على فعل الطاعة و العقاب على المعصية شرعا، فلمّا لحظوا هذا المعنى سمّوه بالمادّة الأولى و هو حسن و لا حرج عليهم في ذلك لا شرعا و لا عقلا.

و عبّر عنه بعضهم «بالعرش»، و الّذي حملهم على ذلك أنّه لمّا كان العرش محيطا بالعالم في قول، أو هو جملة العالم في قول آخر، و هو منبع إيجاد الأمر و النهي، و وجدوا هذا الموجود المذكور آنفا يشبه العرش من هذا الوجه أعني الإيجاد و الإحاطة فسمّوه بالعرش، فكما أنّ العرش محيط بالعالم و هو الفلك التاسع (في مذهب قوم) كذلك هذا الخليفة محيط بالعالم الإنساني، ألا ترى قوله تعالى:

عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ [سورة طه: ۵].

في معرض التمدّح فلو كان في المخلوقات أعظم منه لم يكن ذلك تمدّحا.

سرّ للخواص، لكن هاهنا سرّ نرمزه ليلتذّ به صاحبه إذا وقف عليه و قو قوله تعالى:

الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ [سورة طه: ۵].

و العرش المذكور في هذه الآية «مستوى الرّحمن» و هو محلّ الصفة و الخليفة الّذي سمّيناه عرشا حملا على هذا «مستوى اللّه» جلّ جلاله، فبين العرشين ما بين اللّه و الرّحمن و إن كان أيّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى، فلا خفاء عند أهل الأسرار فيما ذكرناه، و حدّ الاستواء من هذا العرش المرموز قوله صلّى اللّه عليه و آله:

«خلق اللّه تعالى آدم على صورته» «۱۸۷».

(۱۸۷) قوله: خلق اللّه الآدم على صورته.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۹۳

فالعرش الحامل للذّات، و المحمول عليه الصّفة (للصفة) فتحقّق أيّها العارف و نبّه أيّها الواقف و أنعم أيّها الوارث، و اللّه يقول الحقّ و هو يهدي السبيل.

و عبّر عنه بعضهم «بالمعلّم الأوّل»، و الّذي حملهم على ذلك انّه لما تحققت عندهم خلافته و انّه حامل الأمانة الأوّليّة (الإلهيّة) و نسبته من العالم الأصغر نسبة آدم من العالم الأكبر و قد قيل في آدم:

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمٰاءَ كُلَّهٰا، كذلك هذا الموجود، ثمّ خاطب الملائكة فقال:

أَنْبِئُونِي بِأَسْمٰاءِ هٰؤُلاٰءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ قٰالُوا سُبْحٰانَكَ لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِلاّٰ مٰا عَلَّمْتَنٰا [سورة البقرة: ۳۱- ۳۲].

فأمر الخليفة أن يعلّمهم ما لم يعلموا، فأمرهم اللّه سبحانه بالسجود لمعلّمهم، سجود أمر كسجود النّاس (إلى) الكعبة «۱۸۸»، و تشريف، لا سجود عبادة نعوذ باللّه لا أشرك به أحدا. و يكون (فيكون) في هذا العالم الإنساني ثمرة السجود

لا نفس السجود، و السجود إنّما هو التّواضع و الخضوع و الإقرار بالسبق و العجز و الشرف و التقدّم (له)، كتواضع التلميذ لمعلمه و إذا حصل موجود (في) مقام تتعلم منه الملائكة، فأحرى من دونهم، و كذلك (و ذلك) تشريف اللّه سبحانه، و دليل قاطع على ثبوت إرادته يختص برحمته من عبادة من يشاء.

سرّ للخواصّ، و هو حين أوقع الأسماء هل عاين المسمّيات أم لا و إلاّ كيف يصحّ إطلاق اسم من غير مسمّى، و هذا موضع نظر و فكر، و سرّ السجود هنا لا يمكن إيضاحه، و قد ذكرناه في مطالع الأنوار الإلهيّة، فأما هل عاين المسمّيات؟ فقد نبّه على

---

(۱۸۸) قوله: كسجود النّاس إلى الكعبة.

أقول: الكعبة قبلة النّاس و محور الأرض في الظاهر و في الصّلاة الصوريّة، و باطن الكعبة بيت المعمور و هو قبلة و كعبة لطواف ملائكة الأرض، و باطن بيت المعمور العرش و هو مطاف الملائكة العالين، و باطن العرش هو قلب الإنسان و باطن كل هذه و أصل العالم و قلب العالم و كعبة كل المخلوقات و الموجودات هو الإمام و الولي المطلق في كل عصر.

و سيأتي إنشاء اللّه في الجزء الثالث في التفسير في تعاليقنا شرحا تفصيليًا في هذا الموضوع فانتظر.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۹۴

ذلك بقوله: بأسماء هؤلاء، فالهاء للإشارة و التنبيه و لا تقع الإشارة إلاّ على حاضر، و إن كانت الإشارة في هذا الطريق نداء على رأس البعد و بوح (بوحا) بعين العلّة.

فنقول: إنّه عاين المسمّيات لكن على صورة مّا و ذلك أنّه عاينها في نفسه من حيث إنّه مجمع (مجموع) أسرار العالم و نسخته الصغرى و برنامجه الجامع لفوائده و هذه فائدة الإشارة بقوله تعالى: هٰؤُلاٰءِ حقّنا، و هو المطلوب و الغرض في هذا الكتاب.

و عبّر عنه بعضهم «بمرآة الحق و الحقيقة»، و الّذي حملهم على ذلك (أنهم) لمّا راؤها موضع تجلّي الحقائق و العلوم الإلهيّة و الحكم الرّبانيّة و أنّ الباطل لا سبيل له إليها إذ الباطل هو العدم المحض و لا يصح في العدم تجلّى و لا كشف فالحقّ كلّ ما ظهر في الوجود، و في إيراد الشّبهات المعارضة للأدلّة يتّضح ما أردنا.

سرّ للخواصّ السبب الموجود لكونه مرآة للحق قوله صلّى اللّه عليه و آله:

المؤمن مرآة المؤمن - و مرآة أخية على رواية (۱۸۹).

---

(۱۸۹) قوله: المؤمن مرآة المؤمن.

رواه ابن شعبة الحرّاني عن أمير المؤمنين (ع) في وصيّته لكميل بن زياد ص ۱۷۳:

قال (ع):

«يا كميل المؤمن مرآة المؤمن، لأنّه يتأمّلة فيسدّ فاقته و يجمل حالته.

روي مثله أيضا المجلسي في البحار ج ٢٦٩- ٢٧٧ عن «بشارة المصطفى» لمحمّد بن علي الطبري.

و أيضا روى المجلسي في البحار ج ٧٤، ص ٢٣٣ عن «نوادر الراوندي» بإسناده عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) عن آبائه (ع) قال: قال رسول اللّه (ص):

المؤمن مرآة لأخيه المؤمن، ينصحه إذا غاب عنه و يميط عنه ما يكره إذا شهد، و يوسّع له في المجلس.

و روى الكليني في الكافي ج ٢، ص ١٦٦ باب إخوة المؤمنين الحديث ٥، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال:

المسلم أخو المسلم، (و) هو عينه و مرآته و دليله، لا يخونه و لا يخدعه و لا يظلمه و لا يكذّبه و لا يغتابه.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٩٥

و الأخوّة هنا عبارة عن المثليّة اللغويّة في قوله تعالى:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [سورة الشورى: ١١].

و ذلك عند بروز هذا الموجود في أصفى ما يمكن و أجلى (ما) ظهر فيه الحقّ بذاته و صفاته المعنويّة لا النفسيّة و تجلّي له من حضرة الجود، و في هذا الظهور الكريم قال تعالى:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ [سورة التين: ٤].

فتأمّل هذه الإشارة فإنّها لباب المعرفة و ينبوع الحكمة.

و عبّر عنه بعضهم «بالإمام المبين» و هو «اللّوح المحفوظ» المعبّر عنه «بكلّ شيء» في قوله تعالى:

وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ [و هو اللوح المحفوظ].

مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ [سورة الأعراف: ١٤٥].

و هو «اللّوح المحفوظ»، و الّذي حملهم على ذلك قوله تعالى:

وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ [سورة يس: ١٢].

لأنّهم وجدوا (وجدنا) العالم كلّه أسفله و أعلاه مختصرا (محصى) في الإنسان فسمّوهم (فسمّيناه) «الإمام المبين» و أخذوه (و أخذناه) تنبيها من «الإمام المبين» الّذي عند اللّه تعالى، فهذا هو حظهم (حظّنا) و نصيبهم فتدبّره و تحقّقه.

سرّ للخواص قال اللّه تعالى:

- و أخرج أبي داود في سننه ج ٤، كتاب الأدب باب في الصيحة ص ٢٨٠، الحديث ٤٩١٨، بإسناده عن رسول اللّه (ص) قال:

«المؤمن مرآة المؤمن، و المؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، و يحوطه من ورائه».

و أخرج الترمذي في سننه ج ٤، كتاب البرّ باب ما جاء في شفقة المسلم ص ٣٢٥، الحدى ١٩٢٩، بإسناده عن رسول اللّه (ص) قال:

«إنّ أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى به أذى فليبطه عنه.

و راجع أيضا في الحديث المذكور تعليقتنا الرقم ٢٠.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٩٦

مٰا فَرَّطْنٰا فِي الْكِتٰابِ مِنْ شَيْءٍ [سورة الأنعام: ۳۸].

اعتباره هو الإنسان «من شيء»: يفصّل العالم بأسره الإمام على الحقيقة المبين: من كان كلّ شيء مأموما به و هذا لا يصحّ في موجود (ما) لم تصحّ له المثليّة اللغويّة الفرقانيّة، فإذا صحّت المثليّة صحّ وجود الإمام و إذا صحّ وجود الإمام بطلت الإمامة في حقّ غيره، لَوْ كٰانَ فِيهِمٰا آلِهَةٌ إِلاَّ اللّٰهُ لَفَسَدَتٰا [سورة الأنبياء: ۲۲].

فإذا نظرنا في هذا الإمام المبين نظرنا بما استوجب الإمامة فوجدناه أمانة بيده، فقرأنا:

إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمٰانٰاتِ إِلىٰ أَهْلِهٰا [سورة النساء: ۵۸].

فلاحت لنا مرآة الحقّ المتقدّمة فضربنا «الإمام المبين» (في) من المؤمن مرآة (أخيه، فخرج لنا واحد في الخارج فسمّاه بعضهم مرآة الحقّ، و بعضهم) إماما فالإمام الكتاب، و المرآة سنّته، (فالإمام كتابيّ و المرآة سنيّة).

و عبّر عنه بعضهم «بالمفيض»، و الّذي حملهم على ذلك أنّهم لما رأوا الأجسام بيوتا مظلمة و أقطارا سوداء مدلهمة (مدمهلة) فإذا غشيها نور الروح أضاءت فأشرقت كالأقطار إذا غشيها نور الشّمس، و بالضرورة يعلم أنّ النور الّذي في بغداد غير النور الّذي في مكّة، و النّور الّذي في موضع مّا غير النور الّذي في غيره، ثمّ نظرنا إلى السبب لوجود تلك الأنوار الّتي خلقها اللّه تعالى عنده لا به فوجدنا جسما كريّا نورانيّا يقال له الشّمس و كلّ موضع يقابلها من الأرض يخلق اللّه منه (فيه) نور يسمّى شمسا فكما تطلق على كلّ نور خلق في الأرض في مقابلة الشمس شمسا ليس يبعد، و لا يمنع أن يطلق على كلّ نور أضاء به الأبدان روحا، و كما يختلف قبول الأماكن لهذا النور لاختلافها فلا يكون قبول الأجسام الصقيلة للنور كقبول الأجسام الدّرنة كذلك يختلف قبول أماكن الأبدان لفيضان الروح لاختلافها فلا يكون قبول البهيمة (لفيضانه) كقبول الإنسان و لا قبول الإنسان، كقبول الملك فلو سمّينا الشمس بالمفيضة صدقنا، و حقيقة الإفاضة في الماء و هو مجاز في غيره، و نسبة هذه الأرواح عندهم إلى الرّوح الكلّي كنسبة ولاة الأمصار إلى الإمام، و لذلك يثابون إن عدلوا و يعاقبون إن

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۳۹۷

جاروا.

سرّ للخواصّ قال اللّه تعالى:

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا [سورة الزمر: ۶۹].

اعتبار الربوبيّة هنا سيادة المعلم الأوّل و تربيته و تأثير سببيّته و هو المرجوع إليه في قوله تعالى على طريق التنبيه:

يٰا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلىٰ رَبِّكِ [سورة الفجر: ۲۷- ۲۸].

و نور هذا الربّ المنبّه عليه هو الروح الحيوانيّ الّذي به يشترك البهيمة و الإنسان، فاعتبار الموت فيه بحجاب الغمام، و اعتبار النوم بغروب الشمس، و اعتبار الغفلة بالحجاب الهلاليّ ثمّ قد يغيب الإمام و يبقى الوزير بدله، يفيض على المملكة كالقمر ليلا، و ليس لفيضان الإمام فيض مادة الوزير، و فيضانه إن أفاض (فيّض) بالنظر إلى «النفس النباتيّة»، و هي الحجاب لمادة النفس المطمئنّة، و قد يغيبان أعني الإمام و الوزير فتبقى الفقهاء نجوم علوم الأحكام فلا يستطيعون إفاضة (لقهر) لقمر النّفس الحيوانيّة البهيميّة و النّفس السبعيّة و استيلاء سلطانها، فتأمل هذا السّرّ تبد لك (تدرك) الحكمة الإلهيّة.

و عبّر عنه بعضهم بمركز الدائرة، و الّذي حملهم على ذلك أنّهم لما نظروا إلى عدل هذا الخليفة في ملكه و استقامة

طريقته في هيأته (هباته) و أحكامه و قضاياه، سمّوه مركز دائرة الكون لوجود العدل به، و إنّما حملوه على مركز الكرة نظرا إلى كلّ خط يخرج من النقطة إلى المحيط مساويا لصاحبه رأوا ذلك غاية العدل، فسمّوه مركز الدائرة لهذا المعنى. سرّ للخواص، و ذلك أنّ نقطة الدائرة أصل في وجود المحيط و مهما قدّرت كرة وجودا أو تقديرا فلا بدّ أن يكون (تقدّر) لها نقطة هي مركزها و لا يلزم من وجود النقطة وجود المحيط، و وجود الفاعل من هذه الدائرة رأس الضابط، و لا دائرة في الوجود، كان اللّه و لم يكن معه شيء (١٩٠)، و فخذاه يداه المبسوطتان (١٩١) جودا

---

(١٩٠) قوله: كان اللّه و لم يكن معه شيء.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٣٩٨

و إيجادا، و الفخذ المختصّة بالنقطة يد الغيب و الملكوت الأعلى، و الفخذ المختصّة بالمحيط يد عالم الملك و الشهادة، فالواحد للأمر و الأخرى للخلق و اللّه بكلّ شيء محيط.

هذا آخر كلامه في هذا الباب، و كان الغرض من إيراده اطّلاعك على عظمة قدر هذا الموجود المعبّر عنه بالباء و الأسرار الّتي تحت ألقابه و أسمائه و صفاته، و هذه الوجوه و الأسرار و إن كانت كثيرة إلاّ بالنسبة إلى الوجوه الّتي سبقت من قوله أيضا قليلة و هو ما قال:

فلمّا وجد هذا الموجود الأوّل ظهر له من الوجوه إلى الحضرة الإلهيّة ثلاثمائة و ستّون وجها فأفاض الحقّ تعالى من علمه على قدر ما أوجده عليه من الاستعداد للقبول و كان قبوله ستّة و أربعين ألف ألف نوع و ستّمائة ألف نوع و ستّة ألف و خمسين ألف نوع، و قال:

و نونه الّتي هي الدّواة عبارة عمّا يحمله من ذاته من العلوم بطريق الإجمال فلا يظهر لها تفصيل إلاّ في النّفس الّتي هي اللوح فهو محل التحميل، و النفس محلّ التفصيل،

- راجع في هذا الحديث و مصادره تعليقتنا في الجزء الأوّل الرقم ٨٧ و ٨٨ ص ٣٥٢.

(١٩١) قوله: يداه مبسوطتان.

هذا في قوله تعالى:

وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ [سورة المائدة: ٦٤].

روى الصدوق في (التوحيد) باب ٢٥، الحديث ١، و في معاني الأخبار ص ١١١، الحديث ١٥، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال: في قول اللّه عزّ و جلّ: **وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ: لم يعنوا أنّه هكذا، و لكنّهم قالوا: قد فرغ من الأمر، فلا يزيد و لا ينقص، فقال اللّه جلّ جلاله تكذيبا لقولهم: غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ ألم تسمع اللّه عزّ و جلّ يقول:**

يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ [سورة الرّعد: ۳۹].

و في تفسير القمي قال القمي ذيل الآية المذكورة: قال: قالوا قد فرغ اللّه من الأمر لا يحدث اللّه غير ما قد قدّره في التقدير الأوّل، فردّ اللّه عليهم فقال: **بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ أي يقدّم و يؤخّر، و يزيد و ينقص، و له البداء و المشيّة. ج ۱، ص ۱۷۱.**

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۳۹۹

و هذا القلم له ثلاثمائة و ستّون سنا من حيث ما هو قلم، و ثلاثمائة و ستّون وجها من حيث ما هو عقل، و ثلاثمائة و ستّون لسانا من حيث ما هو روح مترجم عن اللّه تعالى، و يستمدّ كلّ سنّ من ثلاثمائة و ستّين بحرا و هي أصناف العلوم، و سمّيت بحرا لاتّساعها، و هذه البحور هي إجمال الكلمات الّتي لا تنفد لقوله جلّ ذكره:

وَ لَوْ أَنَّ مٰا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاٰمٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمٰاتُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [سورة لقمان: ۲۷].

و الكلّ إشارة إلى عظمة هذا الموجود و الأسرار الّتي تحته.

و إذا تقرّر هذا فاعلم، أنّ هاهنا لطائف و دقايق:

(إنّ القرآن صورة إجمال العالم)

الاولى منها، و هي أنّ اللّه تعالى حيث جعل العالم كلّه كالكتاب، و رتّبه على ترتيب الحروف و الكلمات و الآيات الّتي فيه ركّبها منها، و جعل الباء الّذي بعد الألف الّذي بمثابة الذّات جامعا لجميع الأسرار الّتي يتعلّق بهذا الكتاب لأنّه مظهر ذاته و منبع آياته و كلماته، جعل الكتاب القرآن صورة إجماله و تفصيله و أودع جميع ما في ضمنه من الأسرار و الحقائق في الباء الّذي في «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» نيابة عن الألف المنخفض فيه و عوضا عن طول الباء كما مرّ ذكره ليكون التطبيق صحيحا.

(ترتيب القرآن مطابق لترتيب العالم)

و الثانية، و هي أنّ اللّه تعالى حيث جعل ترتيب الكتاب القرآني على ترتيب الكتاب الآفاقي، فكما كان ابتداء الكتاب الآفاقي بالباء المشار إليه في الأقوال المتقدّمة، جعل ابتداء الكتاب القرآني كذلك بباء «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» ليكون قول من قال: ظهرت الموجودات من باء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم (۱۹۲)، صحيحا مطابقا.

---

(۱۹۲) قوله: ظهرت الموجودات إلخ.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۰۰

(اختفاء ذات الحقّ تعالى في باء الآفاق و هو الإنسان)

و الثالثة انّه كما اختفى ذاته الّتي بمثابة الألف في الباء الآفاقي الّذي هو الإنسان المعبّر عنه «بكلمة اللّه» تارة و بآياته تارة، لقوله:

وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ [سورة الذاريات: ٢١].

و في قوله:

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [سورة ق: ١٦].

و بما أشار إليه النبي عليه السّلام بقوله:

«خلق اللّه تعالى آدم على صورته» «١٩٣».

فكذلك اختفى الألف الّذي في الحروف بمثابة ذاته في الباء الّذي في بسم اللّه الرّحمن الرّحيم كما سبق ذكره في قولنا و قول غيرنا.

(تطابق القرآن مع العالم في الكلمات و الحروف و غيرهما)

و الرّابعة انّه كما جعل الكتاب الآفاقي جامعا للعدد المذكور في العلوم الحاصلة من القلم الّذي هو بمثابة الباء، جعل الكتاب القرآني جامعا لجميع ذلك من حيث آياته و كلماته و حروفه و شدّاته و مدّاته و فتحاته و ضمّاته و كسراته و أمثال ذلك كما سنبيّنه بعد هذا الكلام مفصّلا معدودا، أو للمعنى الّذي تحت كلّ واحد واحد منها على حسب التطابق الصّوري و المعنوي بين الكتابين، و بناء على هذا فقول من قال: «إنّ علوم جميع الكتب السّماويّة مندرجة تحت القرآن و جميع العلوم القرآنيّة مندرجة تحت المفصل من سورة و الّتي تحت المفصل من سورة مندرجة تحت حروفه المقطّعة الّتي في أوائل السّورة، و الّتي تحت الحروف المقطعة تحت الفاتحة و الّتي تحت الفاتحة تحت بسم

- قد مرّت الإشارة به في تعليقتنا الرقم ١٧٥ و في الجزء الأوّل ص ١٢٠ و رقم التعليقة ١٣- فراجع.

(١٩٣) قوله: خلق اللّه تعالى آدم على صورته.

راجع تعليقتنا الرقم ٢١ و ١٨٧. [.....]

اللّه الرّحمن الرّحيم و الّتي تحت بسم اللّه الرّحمن الرّحيم تحت بائها المذكور»: صحيح.

و يشهد بصحّته قول أمير المؤمنين عليه السّلام:

و اللّه لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من باء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم «١٩٤».

لأنّه العالم بالقرآن على ما هو عليه في نفس الأمر و لا يكون شهادة في هذا الباب أصحّ من شهادته بعد قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

ظهرت الموجودات من باء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم «١٩٥».

و هاهنا لطيفة و هي أن الباء إذا كان إشارة إلى التعيّن الأوّل، و جميع هذه الإشارات تكون متعلّقة به و بأسراره، فلو قال عوض سبعين ألف بعير: سبعين ألف ألف بعير لكان قليلا كما تقرّر في بيان الكلمات الحقيقيّة الإلهيّة، و عدم تناهيها صورة و معنى لقوله تعالى:

قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً [سورة الكهف: ١٠٩].

و معلوم أنّ الكلمات ليست مركّبة إلاّ من الحروف فإذا كانت الكلمات غير متناهية فالحروف بطريق الأولى، المراد بالحروف هاهنا و بالكلمات أيضا معناه، أو المركب منهما فإنّها غير متناهية أصلا و إلاّ بحسب الكلّيّات فالحروف و الكلمات متناهية ضرورة و إن كانت الضروريّات بعيد (بعيدة) عن أرباب العقول جدا، هذا مضى.

(في تعداد حروف القرآن و حركاته) (و أنّ تحت كل واحد منها علو و سرّ و باطن)

و أمّا عدد سور القرآن و آياته و كلماته و حروفه و ما يتعلّق بذلك من الشدّات

---

(١٩٤) قوله: و اللّه لو شئت لأوقرت إلخ.

راجع تعليقتنا الرقم ١٣٧.

(١٩٥) قوله: ظهرت الموجودات إلخ.

راجع تعليقتنا الرقم ١٧٢.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ۴٠٢

و المدّات و المطابقة للعلوم الصادرة من القلم المعلوم.

فاعلم، أنّ أكثر القرّاء ذهبوا إلى أنّ سور القرآن بأسرها مائة و أربعة عشر سورة، و إلى أنّ آياته ستّ (ستة) آلاف و ستمائة و ستّون آية، و إلى أنّ كلماته سبعة و سبعون ألفا و أربعمائة و سبع و ثلاثون كلمة، و إلى أنّ حروفه ثلاثمائة آلاف و اثنان و عشرون ألفا و ستمائة و سبعون حرفا، و إلى أن فتحاته ثلاثة و تسعون ألفا و مائتان و ثلاثة و أربعون فتحة، و إلى أن ضمّاته أربعون ألفا و ثمانية و أربع ضمّات، و إلى أنّ كسراته تسعة و ثلاثون ألفا و خمسمائة و ستة و ثمانون كسرة، و إلى أنّ تشديداته تسعة عشر ألفا و مائتان و ثلاثة و خمسون تشديدة، و إلى أنّ مدّاته ألف و سبعمائة و واحد و سبعون مدّة، و إلى أنّ همزاته ثلاثة آلاف و مائتان و ثلاث و سبعون همزة، و إلى أنّ ألفاته ثمانية و أربعون ألفا و ثمانمائة و اثنان و سبعون ألفا، و كذلك إلى آخر الحروف إلى أن ينتهي إلى ثمانية و عشرين حرفا، و المراد من ذلك أنك إذا نظرت إلى هذه الأعداد و نظرت إلى قول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

ما من آية إلاّ و لها ظهر و بطن و لكل حرف حدّ و لكل حد مطلع «١٩٦».

و نظرت إلى الّذي ورد في الباء الّذي هو حرف واحد منه و نظرت إلى الّذي قال:

«إنّ للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة أبطن».

عرفت أنّ هذه الأعداد و الأسرار الّتي تحتها موافق للعلوم المذكورة الصادرة من القلم المذكور الإلهي.

(في بيان الأسرار و الأقوال في الحروف المقطعة في أوائل السّور)

ثمّ اعلم يقينا أن الحروف لو لم تكن موضوعة على أسرار جمّة و حقائق عظيمة ما ابتدأ الحقّ تعالى كتابه بحرف واحد منها و ما جعله مشتملا على هذه الأسرار العظيمة

---

(۱۹۶) قوله: ما من آية إلّا و لها ظهر و بطن.

راجع تعليقتنا الرقم ۱۴۰.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۰۳

و لم يجعل أعظم أسرار القرآن بحث الحروف المقطعة منه بحيث إلى الآن ما اطلع عليها أحد على ما ينبغي إلّا بعض الرّاسخين من أخلص عباده، و الّذي جعل افتتاح كلامه و أقسم به بقوله:

الم ذٰلِكَ الْكِتٰابُ.

أيضا يدل على عظمة قدر تلك الحروف و جلالة شأنها و اختلاف العلماء و المفسّرين فيها و كذلك أرباب التّأويل يشهد بذلك.

و الّذي قيل أنّ الألف إشارة إلى الذّات الأحديّة و اللاّم إلى جبرئيل عليه السّلام، و الميم إلى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و الّذي هو الخاتم بحسب الصّورة، الكتاب القرآني و الكتاب الآفاقي و الفاتح لهما فهو أيضا عظيم جليل لأنّ الوجود يدور على هذه الثلاث في الحقيقة لأنّ جبرئيل جعله بمثابة العقل الفعال، و العقل الفعال و الذّات و العقل الكلّ أو العقل الأوّل إذا حقّق حقائقها و عرف معناها يقوم مقام جميع المعارف الداخلية تحت الوجود، و كذلك ما قيل في كهيعص و طه و يس و أخواتها فإنّ كلّ ذلك مشتمل على أسرار لا يمكن إفشائها، و الوجوه الّتي قد أوردها المفسّرون في تفاسيرهم في هذا الباب، و كذلك أرباب التأويل بأجمعها دالّة على عجزهم و عدم اطّلاعهم على شيء منها، فمنهم فخر الرّازي رحمة اللّه عليه فإنّه ذهب إلى أنّها اسم للسّور يعرف كلّ سورة بما افتتحت به. و قال غيره: أنّها أقسام أقسم اللّه تعالى لكونها مباني كتبه و معاني أسمائه و صفاته و أصول كلامه و كلماته، و قال بعضهم: أنّها مأخوذة من صفات اللّه عزّ و جلّ كقول ابن عبّاس رضي اللّه عنه في كهيعص: أنّ الكاف من كاف، و الهاء من هاد، و الياء من حكيم، و العين من عليم، و الصّاد من صادق، و الم معناه أنا اللّه أعلم.

و ذكر الواحدي البغدادي في تفسيره الموسوم بالوسيط في أوّل البقرة و هو قوله:

كثر اختلاف المفسرين في الحروف المقطعة في القرآن، فذهب بعضهم إلى أن اللّه لم يجعل لأحد سبيلا إلى إدراك معانيها و أنّها ممّا استأثر اللّه بعلمها، فنحن نؤمن بظاهرها و نكل علمها إلى اللّه. و قال أيضا: إنّ داود بن أبي هند قال: كنت أسأل الشعبي عن

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۰۴

فواتح السّور فقال: يا داود أنّ لكل كتاب سرّ، و أنّ سرّ القرآن في فواتح السّور فدعها و سل عمّا سوى ذلك.

و ذكر الطبرسي رحمة اللّه عليه في تفسيره عند بيان الم ذلك الكتاب و قال: اختلف النّاس في هذه الفواتح المفتتح بها السّور، فورد عن أهل البيت عليهم السّلام أنها من المشابهات الّتي استأثرها (استأثر اللّه) بعلمها و لا يعلم تأويلها غيره.

(في أنّ بسم اللّه الرّحمن الرّحيم مترتّبة على ترتيب العالم)

و قد سبق في تحقيق بسم اللّه الرّحمن الرّحيم أنّها مترتبة على ترتيب العالم أو بالعكس و أنّها مركّبة من تسعة عشر حرفا كما أنّ العالم مترتبة (مترتب) على تسعة عشر مرتبة كلّيّة مشتملة على جزئيّات غير متناهية و سبق أنّ أعظم الحروف فيها بعد الألف هو الباء الّذي بمثابة التعيّن الأوّل و أنّ النقطة تحته صورة الوجود الإمكاني لأنّه به يميّز عن

الواجب، و ذلك كلّه إشارة إلى الأسرار الّتي تحت الحروف على العموم، و تحت الباء على الخصوص و حيث نحن في بحث الباء، فقول العارف:

«ما رأيت شيئا إلاّ و رأيت الباء مكتوبة عليه» «۱۹۷».

نطلب تحقيقها و تأويلها بحسب هذا المقام فنقول:

كما أنّ المراد بالألف الوجود المطلق العام الحقيقي الواجبي، فالمراد بالباء الوجود الإضافي الاعتباري الإمكاني الوحداني، بذاته المضاف إلى كلّ ممكن، فقوله: ما رأيت شيئا إلاّ و رأيت الباء مكتوبة عليه، مراده به الإمكان اللاّزم لكلّ ممكن الّذي به يتميّز عن الواجب كالباء عن الألف بالنقطة التميّزية، و هذا في غاية الوضوح، و مع وضوحه في غاية الدقّة. و قول العارف:

(۱۹۷) قوله: ما رأيت شيئا إلخ.

قال الشيخ الأكبر ابن عربي في الفتوحات المكيّة ج ۱، ص ۱۰۲: و كان الشيخ أبو مدين رحمه اللّه يقول: ما رأيت إلخ.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۴۰۵

ففي كلّ شيء له آية   تدلّ على أنّه واحد

«۱۹۸» إشارة إلى الإمكان اللاّزم للممكن، فإنّ الآية الّتي في الممكن الدّالة على وحدة الصانع ليست إلاّ الإمكان لأنّ كلّ من عرف أنّ وجود الممكن بدون الواجب محال و أنّ وجود الواجبين في الوجود مستحيل، عرف أنّ كلّ موجود بذاته دالّ على وحدته.

و قول العارف أيضا:

«بالباء ظهر الوجود و بالنقطة تميّز العابد عن المعبود» «۱۹۹».

إشارة إلى هذا لأنّ المراد بالباء الموجود الأوّل الإمكاني المتميّز عن الواجب بالنقطة التّميزيّة الإمكانيّة، كما أنّ تميّز الباء من الألف في الحروف بواسطة النقطة البائيّة الواقعة تحته، و ستعرف هذا البحث أكثر من هذا، و قد سبق أيضا مبسوطا، و حيث فرغنا من هذا فلنشرع في النقطة و تحقيقها بعون اللّه و حسن توفيقه و هو هذا:

(۱۹۸) قوله: ففي كلّ شي إلخ شعر.

ذكره ابن عربي في الفتوحات ج ۱، ص ۱۸۴ و ج ۳، ص ۱۷۳ ط ج، و نسبه إلى أبي العتاهية، و هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد

بن كيسان، الشاعر العربي المشهور المتوفّى ٣١٠.

(١٩٩) قوله: بالباء ظهر الوجود إلخ.

القائل هو الشيخ الأكبر ابن عربي قاله في الفتوحات المكيّة ج ١، ص ١٠٢، و قد مرّ أيضا في تعليقتنا الرقم ١٧١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۴۰۶

القسم الثاني في تحقيق النقطة و كيفيّة التميّز بها في الصّورتين

اعلم، أنّ المراد بالنقطة الإمكانيّة الإضافيّة بلا خلاف. و أمّا التميّز في الصورتين، فالتميّز في صورة الحروف و هو أنّ الباء لا تتميّز عن الألف إلاّ بالنقطة و كذلك من جميع الحروف فتمييزه حينئذ لا يكون إلاّ بالنقطة الصّوريّة، فالنقطة تكون أصل بعينه و تميّزه من الغير.

و أمّا في صورة الموجودات و هو أنّ الموجود الأوّل الّذي بمثابة الباء في الترتيب الوجوديّ لا يتميّز عن الموجد الأوّل الحقّ إلاّ بالنّقطة الإمكانيّة المتميزة بها العبد عن الرّبّ، لأنّ الرّبّ الّذي هو المطلق إذا تقيّد بصورة العبد الّذي هو المقيّد ليس تقيّده إلاّ بالنّقطة الإمكانيّة الإضافيّة، فالنّقطة الإمكانيّة حينئذ سبب التميّز بين العبد و الرّبّ كما أنّ النّقطة الإضافيّة هي سبب التميّز بين الوجود المطلق و المقيّد و كلاهما واحد عند التحقيق، لأنّ المقيّد مطلق بقيد الإضافة المعبّر عنه بالنّقطة التميّزيّة و بالعكس، و من هذا قلنا: النّقطة هي النّقطة الإضافيّة النسبيّة بين المطلق و المقيّد أو العبد و الرّبّ، لأنّ عند اعتبار إسقاط هذه النّقطة لم يبق هناك تميّز بين المطلق و المقيّد و لا بين العبد و الرّبّ، لأنّ الحقيقة واحدة و هي الوجود من حيث هو الوجود، فالفارق ليس إلاّ التميّز المذكور بسبب النّقطة الإضافيّة النسبيّة و قد تقرّر هذا من قبل أن النّقطة التمييزيّة هي نقطة الإمكان الحاصل لكلّ ممكن بسبب الإضافة فلا تكون حينئذ النّقطة إلاّ الإمكان الفاصل بين الواجب و الممكن و المطلق و المقيّد بسبب الإضافة بين المضاف و المضاف إليه كنسبة كلّ قوّة و عضو إليك و وجوده فإنّه باق أزلا و أبدا كما قيل:

«الباقي باق في الأزل و الفاني فان لم يزل» (٢٠٠).

---

(٢٠٠) قوله: الباقي باق إلخ.

ذكره المؤلف أيضا في جامع الأسرار ص ٦٦٨، و في تعليقة ذلك الكتاب نسب المحقق-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۴۰۷

و ذلك فإنّه كذلك بعينه.

و من هذا ثبتت التوحيد بإسقاط تلك الإضافة لأنّ التوحيد صيرورة شيئين شيئا واحدا.

(في انّ الموجودات الممكنة إضافات هالكة)

و هاهنا قد أثبت وجود الممكن و وجود الواجب بسبب الإضافة فعند إسقاطها لا يكون الوجود إلاّ واحدا و هو وجود الحقّ تعالى جلّ ذكره، و كلّ شيء هالك إلاّ وجهه، هذا معناه، لأنّ عند إسقاط تلك الإضافة، الكلّ هالك زايل معدوم

مضمحلّ، لا يبقى غيره، له الحكم و إليه ترجعون، و إليه الإشارة أيضا:

كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِكْرٰامِ [سورة الرّحمن: ٢٧].

و قوله:

فَأَيْنَمٰا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ [سورة البقرة: ١١٥].

يقوم بجواب الكلّ. لأنّ تقديره: أينما توجّهوا ثمّ ذات اللّه و وجهه و وجوده، لأنّه محيط و المحيط هذا شأنه، و اللّه بكلّ شيء محيط. (اقتباس من الكتاب العزيز و في الكتاب تارة: إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ٥٤]، و أخرى: وَ كٰانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً [سورة النساء: ١٢٦].

و إذا عرفت هذا بهذه الوجوه كلّها،

(في تفسير قول علي (ع): أنا النقطة و: كنت وليا و آدم بين الماء و الطين)

فاعلم، أنّ قول أمير المؤمنين عليه السّلام:

- الكلام لابن العريف، و هو شيخ أبو عبد اللّه الغزّال الّذي هو من أساتذة الشيخ الأكبر، راجع الفتوحات ج ٣، ص ٣٨٥، و قد نقل الشيخ الأكبر كثيرا من المطالب عن ابن العريف في الفتوحات.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٠٨

أنا النّقطة تحت الباء «٢٠١».

إشارة إلى أنّ التميّز بين الموجود الأوّل الّذي هو بمثابة الباء و الموجد الّذي بمثابة الألف ليس إلاّ بسبب النّقطة الإمكانيّة اللاّزمة للحقيقة الإنسانيّة الّتي أنا أوّلها بحكم قولي:

«كنت وليا و آدم بين الماء و الطّين» «٢٠٢».

و بحكم قول الّذي أنا منه:

«كنت نبيّا و آدم بين الماء و الطين» «٢٠٣».

و ذلك لأنّ نوري و نور النبيّ نور واحد، لقوله عليه السّلام:

«أنا و عليّ من نور واحد» «٢٠٤».

و له اعتباران، اعتبار الظاهر و اعتبار الباطن، فبحسب الظاهر و هو مخصوص بالنبيّ و بحسب الباطن و هو مخصوص بي كالباء و النّقطة مثلا، فإنّ الباء في الحقيقة حرف واحد لكن عند الإعتبار حرف و نقطة، فكذلك نور النبوّة و نور الولاية كما سنشير بعد هذا الكلام إليهما و إلى أبحاثهما في الحقيقة، و قد أسند هذا القول بعض العارفين إلى الشبلي رحمة اللّه عليه، منهم الشيخ الأعظم محيي الدّين ابن عربي قدّس اللّه سرّه، و شارح القصيدة التائيّة، و غيرهم من العارفين، و ليس في الواقع كذلك لأنّ هذا قول أمير المؤمنين عليه السّلام، و هذا الكلام صدر منه على رأس المنبر بالكوفة بمجمع من الأعيان و الأشراف و المهاجرين و الأنصار، و هو في (من) خطبة طويلة موسومة بالخطبة الافتخاريّة مشهورة عند أربابها، و بعض ذلك قوله:

(٢٠١) قوله: أنا النقطة تحت الباء.

قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا ١٧٣ و في الجزء الأوّل ص ٢١١ رقم ١٤.

(٢٠٢) قوله: كنت وليّا- و كنت نبيّا.

راجع فيهما تعليقتنا الرقم ٤٦ و ٤٥ من الجزء الأوّل، ص ٢٦٧.

(٢٠٣) قوله: كنت وليّا- و كنت نبيّا.

راجع فيهما تعليقتنا الرقم ٤٦ و ٤٥ من الجزء الأوّل، ص ٢٦٧.

(٢٠٤) قوله: أنا و عليّ من نور واحد.

راجع فيه تعليقتنا في الجزء الأوّل، الرقم ١٥٩، ص ٥١٠.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٠٩

أنا وجه اللّه، أنا يد اللّه، أنا جنب اللّه، أنا القرآن الناطق، أنا البرهان الصادق، أنا الم ذلك الكتاب، أنا كهيعص، أنا طه و يس إلى قوله: أنا النقطة تحت الباء، أنا الممدوح في هل أتى «٢٠٥».

و أين الشبلي من هذا الكلام، و الحال أنّ الشبلي و الجنيد، و معروف الكرخي و أمثالهم مستغرقين في بحار معرفته و حقائقه، مستغرقين في تيّار علمه و حكمته و ليس نسبة خرقه الكلّ إلاّ إليه و أولاده و مريديه كما بيّناه مفصلا مسندا، لأنّ الخرقة الصوريّة لا تنسب إلاّ إلى ثلاثة أنفس، أوّلهم جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام و هو ولده، و ثانيهم كميل بن زياد النخعي رحمة اللّه عليه و هو تلميذه و مريده، و كان في خدمته سنين متتالية، و ثالثهم الحسن البصري و هو أيضا تلميذه و مريده، و كان في خدمته مدّة مديدة، أمّا الشبلي فهو كان مريدا للجنيد، و الجنيد مريدا لخاله السريّ السقطي، و السّري كان مريدا لمعروف الكرخي، و معروف الكرخي كان مريدا للإمام محمّد بن علي الجواد عليهم السّلام، فكيف يصدر منه هذا الكلام، و لا أظن أنّ الشبلي ينسب هذا إلى نفسه بل كان ناقلا عنه عليه السّلام في بعض مجالسه، و كان هناك جماعة من المتعصّبين أسقطوا الإسناد و النقل و نسبوا إليه تعصّبا و عداوة، و كم جرى مثل هذا و كم يجري و مع ذلك كلّه هذا الكلام من الشبلي لا يخلو من وجهين، إمّا أن يكون بالنسبة إلى مطلق الإنسان و مطلق الإمكان اللازم له، و إمّا إلى الكامل منهم فإن كان الأوّل فلا خصوصيّة للشبلي، و إن كان الثاني، فأمير المؤمنين عليه السّلام أكمل منه و أعظم بمراتب غير متناهية، و بل الجنيد و كثير من العارفين مثله، و على التقديرين نسبة هذا الكلام إلى أمير المؤمنين أنسب من نسبته إلى الشبلي، و مع ذلك نتمسّك بقول يقول (به) الأنبياء و المشايخ رضوان اللّه عليهم أجمعين.

أمّا الأنبياء فيكفي فيه قول نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله فإنّه أعظمهم و أكملهم و هو

(٢٠٥) قوله: أنا وجه اللّه إلخ.

قد فصّلنا القول في تلك الخطبة في الجزء الأوّل في تعليقتنا الرقم ١٩ و ٢٠ فراجع هناك، و أيضا راجع في: «أنا النقطة تحت الباء» عن أمير المؤمنين عليّ (ع)، تعليقتنا في الجزء الأوّل، الرقم ١٤، ص ٢١١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤١٠

قوله:

أوّل ما خلق اللّه تعالى نوري «٢٠٦».

و قوله:

أنا و علي من نور واحد «٢٠٧».

و قوله:

خلق اللّه تعالى روحي و روح علي بن أبي طالب قبل أن يخلق الخلق بألفي ألفي عام «٢٠٨».

و أمّا المشايخ فيكفي فيه قول الشيخ الكامل محيي الدّين ابن عربي قدّس اللّه سرّه فإنّه أشار إلى هذا بقوله في الفتوحات المكّيّة بقوله:

و كان وجوده من ذلك النور الإلهي و من الهبا و من الحقيقة الكلّيّة و في الهبا وجد عينه و عين العالم تجليه و أقرب النّاس إليه علي بن أبي طالب و أسرار الأنبياء أجمعين «٢٠٩».

و هذا البحث يحتاج إلى بحث غير هذا ليعلم الحقيقة.

فنقول:

في بيان أنّ النقطة مخصوصة بالوليّ المطلق

اعلم، أنّ الألف كما هو مخصوص بمرتبة الوجود المطلق و الذّات المجرد، و الباء

---

(٢٠٦) قوله: أوّل ما خلق اللّه نوري.

راجع تعليقتنا الرقم ١٧٧ و في الجزء الأوّل الرقم ٧٣، ص ٣١٥. [.....]

(٢٠٧) قوله: أنا و عليّ- خلق اللّه تعالى.

راجع تعليقتنا في الجزء الأوّل الرقم ١٩٥، ص ٥١٠.

(٢٠٨) قوله: أنا و عليّ- خلق اللّه تعالى.

راجع تعليقتنا في الجزء الأوّل الرقم ١٩٥، ص ٥١٠.

(٢٠٩) قوله: أقرب الناس إليه عليّ بن أبي طالب.

ذكر الشيخ الأكبر في الفتوحات المكيّة في الباب السادس ج ٢، ص ٢٢٧، ط ج.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤١١

بمرتبة النبيّ المطلق و خاتم الأنبياء، فالنقطة مخصوصة بالوليّ المطلق و خاتم الأولياء، لأنّ الباء كما لا يتعيّن إلّا بالنقطة

فكذلك النبوّة لا تتحقّق إلاّ بالولاية، فالنبوّة تكون في المرتبة البائيّة الأوّليّة و الولاية في المرتبة الثانية النقطيّة و بالعكس و لهذا قال خاتم الأنبياء:

«كنت نبيّا و آدم بين الماء و الطّين».

و قال خاتم الأولياء:

«كنت وليّا و آدم بين الماء و الطّين».

و كذلك لارتباط كلّ واحدة من النبوّة و الولاية قال خاتم النبوّة:

«خلق اللّه تعالى روحي و روح علي بن أبي طالب قبل أن يخلق الخلق بألفي ألفي عام».

و قال غيره من لسانه:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

و المراد بالكرم هاهنا العالم و بالشرف الشهود الأزل و بالمحبوب المحبوب الحقيقي، و هذا كلّه يشهد بسبق الأرواح على الأجسام و سبق بعض الأرواح على البعض، كسبق روح نبيّنا على روح الأنبياء و سبق روح عليّ على الأولياء و قد ذكر هذا المعنى بعينه الشيخ الأعظم محيي الدّين الأعرابي قدّس اللّه سرّه في فصوصه و فتوحاته، أمّا الفصوص فكقوله الّذي تقدّم مرارا «۲۱۰»:

فكلّ نبيّ من لدن آدم إلى آخر نبيّ ما منهم أحد يأخذ إلاّ من مشكاة خاتم النبيّين و إن تأخّر وجود طينته فإنّه بحقيقته موجود و هو قوله:

كنت نبيّا و آدم بين الماء و الطين.

و غيره من الأنبياء ما كان نبيّا إلاّ حين بعث، و كذلك خاتم الأولياء كان وليّا و آدم

---

(۲۱۰) قوله: أمّا الفصوص:

راجع شرح القيصري، الفص الشيثي، ص ۱۱۲.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۴۱۲

بين الماء و الطين، و غيره من الأولياء ما كان وليّا إلاّ بعد تحصيله شرايط الولاية من الأخلاق الإلهيّة و الاتّصاف بها من كون اللّه يسمّى بالولي الحميد، فخاتم الرّسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية نسبة الأنبياء و الرّسل معه فإنّه الوليّ الرسول النبيّ، و خاتم الأولياء الولي الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد للمراتب و هو حسنة من حسنات خاتم

الرّسل محمّد صلّى اللّه عليه و آله.

و هذا الكلام يشهد بشيئين:

(في أنّ الولاية أعظم من النبوّة و خاتم الأولياء وارث الأنبياء)

الأوّل ان الولاية أعظم من النبوّة و أسبق، لكن من حيث اعتبارهما في شجرة واحدة كما سبق ذكره لئلاّ يتوهّم أحد أنّ الولي أعظم من النّبيّ فإنّه ليس كذلك.

و الثّاني بأنّ خاتم الأولياء وارث لخاتم الأنبياء و حسنة من حسناته، و كلّ عاقل يعرف أن هذا المقام لا يليق إلاّ بأمير المؤمنين عليه السّلام لأنّه نفسه و خليفته و حسنة من حسناته المعبّر عنها بالخلافة كما سنبيّنه في المقدّمة السّادسة إن شاء اللّه من حيث العقل و النقل و الكشف.

(في أنّ الهباء أوّل موجود في العالم)

و أمّا الفتوحات فقد ذكر في الباب السادس في معرفة بدء الخلق الروحاني و هو أوّل موجود فيه و هو قوله في فصل منه: كان اللّه و لم يكن معه شيء، ثمّ أدرج فيه و هو الآن على ما كان لم يرجع إليه في إيجاد العالم صفه لم يكن عليها بل كان موصوفا لنفسه و مسمّى قبل خلقه بالأسماء الّتي يدعونه بها خلقه فلمّا أراد وجود العالم و بدأه على حدّ ما علمه بعلمه بنفسه انفعل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تجلّى من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلّيّة، انفعل عنها حقيقة تسمّى الهباء بمنزلة طرح لبنّاء الجصّ ليفتح فيها ما شاء من الأشكال و الصّور و هذا هو أوّل موجود في العالم و قد ذكر علي بن أبي طالب عليه السّلام و سهل بن عبد اللّه رحمه اللّه و غيرهما من أهل التحقيق، أهل

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۱۳

الكشف و الوجود، ثمّ إنّه سبحانه تجلّى بنوره إلى ذلك الهباء و يسمّونه أهل الأفكار الهيولى الكلّي، و العالم كلّه فيه بالقوّة و الصلاحيّة، فقبل منه كلّ شيء من ذلك الهباء على حسب قوّته و استعداده كما تقبل زوايا البيت نور السراج و على قدر قربه من ذلك النور يشتدّ ضوئه و قبوله، قال تعالى:

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكٰاةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ [سورة النور: ۳۵].

فشبّه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه تعالى قبولا في ذلك الهباء إلاّ حقيقة محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا المسماة بالعقل الأوّل (في المطبوع: المساة بالعقل) فكان سيّد العالم بأسره و أوّل ظاهر في الوجود فكان وجوده من ذلك النور الإلهيّ و من الهباء و من الحقيقة الكلّيّة و في الهباء وجد عينه و عين العالم تجلّيه و أقرب النّاس إليه علي بن أبي طالب و أسرار الأنبياء أجمعين.

و هذا الكلام برهان قاطع على صدق ما قلناه من أن قول علي عليه السّلام:

أنا النقطة تحت الباء.

لا يليق إلاّ به و ليس الشبلي في هذا المقام حتى ينسب مثل هذا الكلام إليه و يعرف هذا أيضا من بحث النبوّة و الولاية و الرّسالة في المقدمة الثالثة و أنّ الولاية المحمّديّة الأزليّة هي الولاية الحقيقيّة المخصوصة بعليّ بن أبي طالب عليه السّلام بقوله:

كنت وليّا و آدم بين الماء و الطين. بالإرث المعنوي و القرب الذّاتي هذا مضى، و ليس الغرض هاهنا هذا البحث لأنّ هذا البحث له موضع مخصوص به، فنرجع و نقول:

اعلم، انّه ورد عن أهل البيت عليهم السّلام أنّهم قالوا (۲۱۱):

---

(۲۱۱) قوله: جميع الأسرار القرآنيّة.

روى مير سيد شريف في رسالة له (المخطوطة) في شرح خطبة البيان عن عليّ (ع)، ص ۱۳: جميع أسرار اللّه تعالى في الكتب السّماويّة و جميع ما في الكتب السّماويّة في القرآن، و جميع ما في القرآن في فاتحة الكتاب، و جميع ما في فاتحة الكتاب في بسم اللّه، و جميع ما في بسم اللّه في الباء، و جميع ما في الباء في النقطة تحت الباء، و أنا النقطة تحت الباء.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۱۴

جميع الأسرار القرآنيّة تحت حروفه المفردة من حروف التهجي و جميع الأسرار الّتي تحت الحروف المفردة هي تحت الحروف المقطعة الّتي في أوائل السور، و جميع الأسرار الّتي في الحروف المقطعة هي تحت القسم الّتي في غير الحروف المقطعة، و جميع الأسرار الّتي تحت القسم هي تحت المفصل من السّور، و جميع الأسرار الّتي تحت المفصل هي تحت الفاتحة، و جميع الأسرار الّتي تحت الفاتحة هي تحت بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، و جميع الأسرار الّتي تحت بسم اللّه الرّحمن الرّحيم هي بائها المذكورة و جميع الأسرار الّتي تحت الباء هي تحت نقطتها. كما قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

العلم نقطة كثرها الجهّال «۲۱۲».

(في تطبيق العالم بالقرآن و الإنسان)

و إذا تقرّر هذا فعليك بالتطبيق بالكتاب الآفاقي فإنّك تجده مطابقا، و ذلك بأن

- كما روى الحديث: «العلم نقطة كثرتها الجاهلون» ص ۱٦.

قال الطبرسي في مجمع البيان في أوّل سورة البقرة:

و روت العامّة عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال:

إنّ لكلّ كتاب صفوة، و صفوة هذا الكتاب حرف التهجّي.

و روى الصدوق عليه الرحمة في (أماليه) ص ۱٤٨، الحديث ٢، المجلس ٣٣، و أيضا في كتابه «عيون أخبار الرضا» ج ۱، ص ٣٠۱، الحديث ٦٠، باب ٢٩ (في ما جاء عن الامام عليّ بن موسى (ع) من الأخبار المتفرقة)، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) قال:

إنّ بسم اللّه الرّحمن الرّحيم آية من فاتحة الكتاب، و هي سبع آيات تمامها «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم»، سمعت رسول اللّه (ص) يقول: إنّ اللّه عزّ و جلّ قال لي: يا محمّد:

وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ [سورة الفجر: ٨٧].

فأفرد الامتناع عليّ بفاتحة الكتاب، و جعلها بإزاء القرآن العظيم، و أنّ فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش، و أنّ اللّه عزّ و جلّ خصّ محمّدا (ص) و شرّفه بها و لم يشرك معه فيها أحدا من أنبيائه، الحديث.

(٢١٢) قوله: العلم نقطة إلخ.

رواه ابن أبي جمهور الأحسائي في (عوالي اللّئالي) ج ٤، ص ١٢٩، الحديث ٢٢٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤١٥

تعرف أنّ جميع الأسرار الإلهيّة الآفاقيّة تحت مفرداته من البسائط الّتي هي بمثابة الحروف و جميع الأسرار الّتي تحت مفرداته هي تحت مركباته منها الّتي هي بمثابة الكلمات و جميع ما في مركباته من الأسرار هي تحت كلّيّاته الّتي هي بمثابة الآيات و جميع ما في هذا المجموع و هو تحت عوالم الأرواح و النّفوس المجرّدة الّتي هي بمثابة المعاني من القرآن و جميع ما في هذه العوالم و هي تحت عوالم العقول و المفارقات العلويّة و جميع ما في هذه العوالم كلّها و هي تحت التعيّن الأوّل الّتي هي بمثابة الباء و جميع ما في التعيّن الأوّل و هي تحت حقيقته الّتي هو بها هو المعبّرة عنها بالنقطة و هي حقيقة الإنسان الكبير و النبيّ المطلق المنقسم إلى النبوّة المطلقة و الولاية المطلقة لأنّ هذه الحقيقة هي الّتي صارت سبب التميز بين الحقّ و الخلق و الواجب و الممكن و المطلق و المقيّد لقولهم:

بالباء ظهرت الوجود و بالنقطة تميّز العابد عن المعبود «٢١٣».

و هذه الحقيقة و النقطة هي المسماة بجميع ما ذكرناه من الأسماء كالمادّة و العرش و الروح و الخليفة و النّبيّ و الإمام و غير ذلك، و هذا كلّه ترتيب الكتاب من حيث الحروف و الآيات و الكلمات و ما يتعلّق بها.

فأمّا إن أردت كلمة تكون جامعة لهذه الأسرار كلّها كبسم اللّه الرّحمن الرّحيم في القرآن فعليك بالإنسان الصغير و ما اشتمل عليه صورة و معنى فإنّه جامع لجميع ذلك كما بيّناه غير مرّة، و نظرا إلى هذا قال الإمام المحقّ جعفر بن محمّد عليه السّلام و هو قوله:

إنّ الصّورة الإنسانيّة هي أكبر حجّة اللّه على خلقه و هي الكتاب الّذي كتبه بيده و هي الهيكل الّذي بناه بحكمته و هي مجموع صور العالمين، و هي المختصر من اللوح المحفوظ، و هي الشاهد على كلّ غائب و هي الحجّة على كلّ جاحد، و هي الطريق

---

(٢١٣) بالباء ظهر الوجود.

قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا ١٧١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤١٦

المستقيم إلى كلّ خير، و هي الصراط الممدود بين الجنّة و النّار (٢١٤).

---

(٢١٤) قوله: إنّ الصورة الإنسانية إلخ.

رواه أيضا ابن أبي جمهور الأحسائي في كتابه المجلى، ص ١٦٩، عن أمير المؤمنين (ع).

و قال تعالى:

يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [سورة ص: ۷۵].

روى الكليني (ره) في أصول الكافي ج ۱، ص ۲۰۷، (باب أنّ الآيات التي ذكرها الخ)، الحديث ۳، بإسناده عن الإمام أبي جعفر الباقر (ع) قال: كان أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه يقول: «ما للّه عزّ و جلّ آية هي أكبر منّي و لا للّه من نبإ أعظم منّي».

و روى السيد الجليل ابن طاوس في (إقبال الأعمال) ص ٦٤٦ في دعاء قرأ في كلّ يوم من شهر رجب، بإسناده عن الناحية المقدّسة في توقيع من الصاحب المنتظر (ع):

«اللّهمّ إنّي أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك (إلى أن قال): لا فرق بينك و بينها إلاّ أنّهم عبادك و خلقك، فتقها و رتقها بيدك بدؤها منك و عودها إليك»، الدعاء.

و رواه الشيخ الطوسي أيضا في مصباح المتهجّد في أعمال شهر رجب، ص ۸۰۳ بإسناده عن صاحب الزّمان أرواحنا له الفداء في التوقيع.

قال أمير المؤمنين (ع):

فإنّا صنائع ربّنا و النّاس بعد صنائع لنا. نهج البلاغة، الكتاب ۲۸ صبحي صالح.

و روى الصدوق في الخصال في حديث أربعمائة، ص ٦١٤، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) قال: إيّاكم و العلوّ فينا، قولوا إنّا عبيد و قولوا في فضلنا ما شئتم.

قال القيصري في مقدّماته على شرح الفصوص ص ٦١:

«و مرتبة الإنسان الكامل عبارة عن جمع جميع المراتب الإلهيّة و الكونيّة من العقول و النفوس الكلّيّة و الجزئيّة، و مراتب الطبيعة إلى آخر تنزّلات الوجود و يسمّى بالمرتبة العمائيّة أيضا، فهي مضاهية للمرتبة الإلهيّة و لا فرق بينهما إلاّ بالربوبيّة و المربوبيّة لذلك صار خليفة اللّه».

قال صدر المتألّهين في الأسفار الأربعة ج ۷، ص ۲۱:

تبصرة فافتح بصيرتك يا إنسان! بنور معارف القرآن، و انظر أوّليّة الرّحمن بآخريّة الرسول الهادي إلى عالم النور و الرضوان: و اعلم أنّ الباري وحدانيّ الذّات في أوّل الأوّلين و خليفة اللّه فردانيّ الذات في آخر الآخرين: **كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فاللّه سبحانه ربّ-**

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۱۷

و لا يقال: إنّ هذا مكرّر و قد مرّ ذكره مرارا، فإنّ في كلّ موضع له فائدة، و إن لم يفهم ذلك فاثبت للقرآن تكرار متكرّر فإنّه صادق لكن ليس كذلك فإن لكلّ لفظ في كلّ موضع خاصيّة و سرّ، كما قال النّبي صلّى اللّه عليه و آله:

ما من آية إلاّ و لها ظهر و بطن و لكلّ حرف حدّ و لكلّ حد مطلع «۲۱۵».

فحينئذ كلّ من يريد أن يطلع على أسرار الكتب السّماويّة بأسرها يجب عليه أن يطّلع على الكتاب القرآنيّ الجمعي الّذي هو الجامع للكلّ صورة و معنى، و كلّ من يريد أن يطّلع على الكتاب القرآني بطريق المذكور يجب عليه أن يطّلع على أسرار حروفه المفردة ثمّ على أسرار الحروف المقطعة، ثمّ على المفصّل منه، ثمّ على الفاتحة، ثمّ على بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، ثمّ على بائها، ثمّ على نقطتها مترتبا على التّرتيب السابق، فكذلك كلّ من يريد أن يطّلع على الكتاب الآفاقي و ما فيه من الأسرار يجب عليه أن يطّلع أوّلا على مفرداته و بسائطه و خواصّها و لوازمها، ثمّ على مركباته كذلك، ثمّ على كلّيّاته، ثمّ على مجرّداته من الأرواح، ثمّ على مفارقاته من العقول و عوالم القدسيّة، ثمّ على التّعيّن الأوّل الّذي هو بمثابة الباء من الكتاب القرآني، ثمّ على النّقطة التميزيّة لهذه الحقيقة المعبّرة عنها بحقيقة الإنسان الكبير، لأنّ كلّ من

يطّلع على هذه الحقيقة و هذه النّقطة و على الأسرار الّتي تحتها فهو كمن يطّلع على الوجود الحقيقي و ما في ضمنه من الأسرار و الحقائق.

- الأرض و السّماء، و هذه الخليفة مرآة يرى بها كل الأشياء، و يتجلّى فيها الحق بجميع الأسماء، و ينكشف بنور عينه عين المسمّى، «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» **النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فاعرفه أيّها السّالك إلى اللّه حتّى تعرف ربّك، قال تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ، و قال الرسول (ص): «من رآني فقد رأى الحقّ».**

(٢١٥) قوله: ما من آية إلاّ و لها الخ.

قد ذكرناه في تعليقتنا الرقم ١٤٠ و ١٩٦ فراجع.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤١٨

(في علم النبيّ (ص) و الولي (ع): بأسرار العالم و الإنسان و القرآن)

و لاطلاع نبيّنا صلّى اح عليه و آله هذه الحقيقة لها في الحقيقة هي حقيقته قال:

علّمت علم الأوّلين و الآخرين «٢١٦».

و كذلك قرينه و حبيبه أمير المؤمنين عليه السّلام الّذي قال:

سلوني عمّا دون العرش «٢١٧».

و قال:

---

(٢١٦) قوله: علّمت علم الأوّلين و الآخرين.

راجع في مصادر الحديث تعلقتنا الرقم ٣٩ من الجزء الأوّل، ص ٢٥٨.

إضافة عليها، روي في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع)، ص ١٥٢، في الآية:

فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ [سورة البقرة: ٢١]: (أي) من مثل محمّد (ص) رجل منكم لا يقرأ و لا يكتب و لم يدرس كتابا، و لا اختلف إلى عالم و لا تعلّم من أحد، و أنتم تعرفونه في أسفاره و حضره، بقي كذلك أربعين سنة ثمّ أوتي جوامع العلم (حتّى علم) علم الأوّلين و الآخرين.

(٢١٧) قوله: سلوني عمّا دون العرش.

روى الحديث بلفظه المجلسي في البحار ج ٨٢ ص ٢٥٤.

و روى الديلمي في كتابه (إرشاد القلوب) ص ٣٧٦:

إنّ يوما حضر الناس عند أمير المؤمنين (ع) و هو يخطب بالكوفة و يقول: سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي لا سئلت عن شيء دون العرش إلاّ أجبت فيه، لا يقولها بعدي إلاّ مدّع أو كذّاب مفتر، الحديث.

و روى الصدوق في كتابه (التوحيد) باب ٤٣، الحديث ١، ص ٣٠٤، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين (ع)، قال في حديث

طويل:

يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم، هذا لعاب رسول اللّه (ص)، هذا ما زقّني رسول اللّه (ص) زقّا زقّا، سلوني فإنّ عندي علم الأوّلين و الآخرين، الحديث.

و راجع أيضا تعليقتنا الرقم ۱۳۷ في الجزء الأوّل.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۱۹

لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا (۲۱۸).

---

(۲۱۸) قوله: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا.

هذا الحديث معروف رواه الفريقين عن أمير المؤمنين (ع).

رواه التفتازاني في (شرح المقاصد) ج ۵، ص ۲۱۲، في المبحث الثالث في أنّ الإيمان هل يزيد و ينقص؟

و رواه أيضا ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ج ۷، ص ۲۵۳، الخطبة ۱۱۲ في شرح قوله (ع): «و نؤمن به من عاين الغيوب»، و قال الشارح: و هذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو (ع) سيّدهم و رئيسهم، و لذلك قال: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا».

و رواه أيضا في شرح الخطبة ۱۸۶، ج ۱۰، ص ۱۴۲، و أيضا في شرح الحديث ۲۱۷، في بيان أحوال العارفين، ج ۱۱، ص ۲۰۲، و أيضا في شرح الخطبة ۲۲۵، ج ۱۳، ص ۸.

و رواه الخوارزمي المتوفّى ۵۶۸ ه في المناقب، الفصل ۲۴، الحديث ۳۹۵، ص ۳۷۴، بإسناده عن الجاحظ، عن أمير المؤمنين (ع).

و راجع أيضا في مصادر الحديث المذكور في كتب القوم يعني السنّة:

«ملحقات الاحقاق» للعلامة السيّد الجليل النجفي المرعشي نورّ اللّه مرقده ج ۷، ص ۶۰۵، الحديث ۱۹، و أيضا ج ۱۷، ص ۴۶۱.

و رواه المجلسي أيضا، عن الكيدري شارح نهج البلاغة، في بحار الأنوار ج ۶۷، ص ۳۲۱.

و رواه ابن شهر آشوب في المناقب ج ۱، ص ۳۸ و قال:

روى حنش (حبيش) الكناني أنّه سمع عليّا يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا، راجع في هذا الحديث تعليقتنا الرقم ۳۳، الجزء الأوّل، ص ۲۴۹.

و هناك حديث يضمّ هذان الحديثان المذكوران أيضا و لا بأس بذكره هنا مزيدا للفائدة، رواه السيّد الجليل المرعشي النجفي نورّ اللّه مرقده في إحقاق الحقّ ج ۵، ص ۴۷، الحديث ۶۹، نقلا عن العلاّمة المحدّث العارف الشيخ جمال الدين محمّد بن أحمد الحنفي الموصلي الشهير بابن حسنويه المتوفّى ۶۸۰. عن كتابه «در بحر المناقب» المخطوط.

و رواه أيضا المجلسي في البحار ج ۴۶، نقلا عن كتاب: فضائل ابن شاذان و عن كتاب الرّوضة.

قال مؤلّفوا هذه الكتب جميعا: و روى عن جماعة ثقاة، أنّه لمّا وردت حرّة بنت حليمة- [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۲۰

- السعديّة على الحجّاج بن يوسف الثقفيّ فمثلت بين يديه، قال لها: أنت حرّة بنت حليمة السعديّة؟ قالت له: فراسة من غير مؤمن! فقال لها: اللّه جاء بك فقد قيل عنك إنّك تفضّلين عليّا على أبي بكر، و عمر، و عثمان، فقالت: لقد كذّب الذي قال إنّي أفضّله على هؤلاء خاصّة، قال: و على من غير هؤلاء؟ قالت: أفضّله على آدم و نوح و إبراهيم، و موسى و داود و سليمان، و عيسى بن مريم، فقال لها: أقول لك أنّك تفضّلينه على الصّحابة و تزيدين عليهم سبعة من الأنبياء من أولي العزم من الرّسل؟ إن لم تأتيني ببيان ما قلت، ضربت عنقك، فقالت: ما أنا مفضّلته (فضّلته) على هؤلاء الأنبياء، و لكنّ اللّه عزّ و جلّ فضّله عليهم في القرآن بقوله عزّ و جلّ في حقّ آدم:

وَ عَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ [سورة طه: ۱۲۱].

و قال في حقّ عليّ:

وَ كٰانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً [سورة الإنسان: ۲۲].

فقال: أحسنت يا حرّة، فبما تفضّلينه على نوح و لوط؟ فقالت: اللّه عزّ و جلّ فضّله عليهما بقوله:

ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كٰانَتٰا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبٰادِنٰا صٰالِحَيْنِ فَخٰانَتٰاهُمٰا فَلَمْ يُغْنِيٰا عَنْهُمٰا مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلاَ النّٰارَ مَعَ الدّٰاخِلِينَ [سورة التحريم: ۱۰].

و عليّ بن أبي طالب كان ملاكه تحت سدرة المنتهى، زوجته بنت محمّد الزّهراء التي يرضى اللّه تعالى لرضاها و يسخط لسخطها.

فقال الحجّاج: أحسنت يا حرّة فبما تفضّلينه على أبي الأنبياء إبراهيم خيل اللّه؟ فقالت:

اللّه عزّ و جلّ فضّله بقوله:

وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتىٰ قٰالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قٰالَ بَلىٰ وَ لٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي [سورة البقرة: ۲۶۰].

و مولاي أمير المؤمنين قال قولا لا يختلف فيه أحد من المسلمين:

«لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا».

و هذه كلمة ما قالها أحد قبله و لا بعده فقال: أحسنت يا حرّة، فبما تفضّلينه على موسى كليم اللّه؟ قالت: يقول اللّه عزّ و جلّ:

فَخَرَجَ مِنْهٰا خٰائِفاً يَتَرَقَّبُ [سورة القصص: ۱۸].-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۲۱

- و علي بن أبي طالب (ع) بات على فراش رسول اللّه (ص) لم يخف حتّى أنزل اللّه في حقّه:

وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ [سورة البقرة: ۲۰۷].

قال الحجّاج: أحسنت يا حرّة، فبما تفضّلينه على داود و سليمان (ع)؟ قالت: اللّه تعالى فضّله عليهما بقوله عزّ و جلّ:

يٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّٰاسِ بِالْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ [سورة ص: ۲۶].

قال لها: في أيّ شيء كانت حكومته؟ قالت: في رجلين: رجل كان كرم، و الآخر له غنم، فنفشت الغنم بالكرم فرعته فاحتكما إلى داود (ع)، فقال: تباع الغنم و ينفق ثمنها على الكرم حتّى يعود إلى ما كان عليه، فقال له ولده: لا يا أبة بل يؤخذ من لبنها و صوفها، قال اللّه تعالى:

فَفَهَّمْناهٰا سُلَيْمٰانَ [الأنبياء: ٧٩].

و أنّ أمير المؤمنين عليّا (ع) قال:

«سلوني عمّا فوق العرش، سلوني عمّا تحت العرش، سلوني قبل أن تفقدوني».

و أنّه (ع) دخل على رسول اللّه (ص) يوم فتح خيبر فقال النبيّ (ص) للحاضرين:

«أفضلكم و أعلمكم و أقضاكم عليّ».

فقال ليها: أحسنت فبما تفضّلينه على سليمان؟ قالت: اللّه فضّله عليه بقوله تعالى:

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لاٰ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي [سورة ص: ٣٥].

و مولانا أمير المؤمنين عليّ (ع) قال:

«طلّقتك يا دنيا ثلاثا لا حاجة لي فيك».

فعند ذلك أنزل اللّه تعالى فيه:

تِلْكَ الدّٰارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهٰا لِلَّذِينَ لاٰ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ فَسٰاداً [سورة القصص: ٨٣].

فقال: أحسنت يا حرّة، فبما تفضّلينه على عيسى بن مريم (ع)؟

قالت: اللّه تعالى عزّ و جلّ فضّله بقوله تعالى:

وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ قٰالَ سُبْحٰانَكَ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِي وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُيُوبِ مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِي بِهِ [سورة المائدة: ١١٦].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٢٢

و هذه النّقطة هي الموسومة عندهم بعبّادان.

و في قولهم: ليس وراء عبّادان قرية، و هي الموسومة أيضا «بأو أدنى»، لأنّ بعد مرتبة قاب قوسين ليس إلاّ مرتبة «أو أدنى». (إشارة إلى الآية من القرآن الكريم السورة النّجم الآية ٩).

و كذلك بالمقام المحمود المشار إليه في قوله تعالى:

عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقٰاماً مَحْمُوداً [سورة الإسراء: ٧٩].

هذا أحسن الوجوه في هذا الباب و أكثرها ممّا سنح لنا من اللّه الجواد المطلق.

(في انّ الإنسان هو النقطة المركزيّة الّتي يدور عليها الوجود)

و وجه آخر و هو أن نفرض أو نسمّي هذه النقطة بالنّقطة المركزيّة الّتي هي واقعة بين دائرة المحيط، و عليها يدور الوجود الكلّي و إليها تنتهي خطوط الموجودات كلّها، و ليس تلك النّقطة في الحقيقة إلاّ الإنسان صغيرا كان أو كبيرا، لأنّه المركز الحقيقي و النّقطة الحقيقة و عليه يدور الوجود، و عليها دوران الكلّ و قد بسطنا الكلام فيه قبل هذا و ذلك لأنّ الوجود بالاتّفاق دوريّ لتقابل النقطة المبدئيّة بالنّقطة المنتهائيّة كما عرفته في الدائرة المتقدّمة من شكل العالم، و بيان «قاب قوسين أو أدنى» و يدلّ على ذلك قوله تعالى:

كَمٰا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [سورة الأعراف: ٢٩].

- فأخّر الحكومة إلى يوم القيامة.

و عليّ بن أبي طالب لمّا ادّعى النصيريّة فيه ما ادّعوه قتلهم و لم يؤخّر حكومتهم.

فهذه كانت فضائله لم تعدّ (تعدل) بفضائل غيره.

قال: أحسنت يا حرّة، خرجت من جوابك، و لو لا ذلك لكان ذلك، ثمّ أجازها و أعطاها و سرّحها سراحا حسنا رحمة اللّه عليها.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٢٣

و قوله:

كَمٰا بَدَأْنٰا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنٰا إِنّٰا كُنّٰا فٰاعِلِينَ [سورة الأنبياء: ١٠٤].

و الإنسان بين تلك الدوران (الدورتين) كالنقطة الواقعة بين المحيط و القطب الذّي يدور عليه الرّحى و يحكم بصدق هذا قوله تعالى لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله:

لولاك لما خلقت الأفلاك (٢١٩).

---

(٢١٩) قوله: لولاك لما خلقت الأفلاك.

راجع في هذا الحديث و مصادره تعليقتنا الرقم ١٦٧، ص ٥٤٨، الجزء الأوّل.

روى المجلسي رحمة اللّه عليه في البحار ج ٤٠، ص ١٨، الحديث ٣٦ نقلا عن العلاّمة الحلّيّ في كتابه كشف اليقين في الإمامة (اليقين في إمرة أمير المؤمنين، ص ١٥٧)، بإسناده عن ابن عبّاس في حديث طويل عن النبيّ (ص)، قال: قال لي الجليل سبحانه و تعالى:

يا محمّد و عزّتي و جلالي لولاك لما خلقت آدم، و لولا عيّ ما خلقت الجنّة، الحديث، فراجع.

و أيضا روى في البحار ج ٥٧، ص ١٩٨، عن أبي الحسن البكري أستاذ الشهيد الثاني، عن كتابه «الأنوار في مولد النبيّ (ص)»: عن أمير المؤمنين (ع) قال: فلمّا خلق اللّه تعالى نور نبيّنا محمّد (ص) بقي ألف عام ينظر إليه و يقول: يا عبدي أنت المراد و المريد، و أنت خيرتي من خلفي، و عزّتي و جلالي لولاك ما خلقت الأفلاك، من أحبّك أحببته و من أبغضك أبغضته، الحديث، فراجع الحديث و فيه توجد المعارف و العلوم الكثيرة.

أقول: أيّها القارئ العزيز: يجب أن يعلم أنّ الكتب الفلسفيّة يعني الحكمة المتعالية و الصحف العرفانيّة كلّها شرح لأمثال هذا الحديث، و يمكن أن يقال أنّ مثل كتاب شرح الفصوص للقيصري و ابن عربي مثلا شرح لواحد من هذا القبيل من الأحاديث، فأين العلماء و المحققون حتى يشرحون هذه الأحاديث الواردة عن أهل البيت (ع) التي فيها البحور المحيطة من العلوم التي لا نهاية لها.

روى العلاّمة المحدّث العارف الشيخ جمال الدين محمّد بن أحمد الحنفي الموصلي المتوفّى سنة ٦٨٠ في كتابه «در بحر المناقب» ص ٢٦٥ المخطوط، بإسناده عن النبيّ (ص) في حديث طويل، و فيه قال (ص):

فإنّي أفضل النبيّين، و وصيّي أفضل الوصيّين، و إنّ آدم (ع) لمّا رأى اسمي و اسم أخي عليّ و اسم فاطمة و الحسن و الحسين (ع) مكتوبا على

ساق العرش بالنور، قال: إلهي -

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٢٤

و قوله:

وَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً [سورة الجاثية: ١٣].

(في بيان مقام الفناء و الرّجوع و الخفاء و البطون، و الوصول إلى مقام الوحدة الصرفة)

و الكلام في هذه النّقطة و الباء كثير لا يحتمل هذا المقام لكلّ من ذلك، لكن هذا كلّه من حيث المبدأ و الظهور و الوجود و النزول و البروز، فبقى هناك حينئذ أبحاث بالنسبة إلى الفناء و الرجوع و الخفاء و البطون و الوصول إلى مقام الوحدة الصرفة و أمثال ذلك و أعظم دليل عليه قول الإمام الكامل الشيخ شرف الدّين ابن الفارض المصري رحمة اللّه عليه في قصيدة التائيّة و هو ما قال نظما من لسان المحبوب الحقيقي:

فلو كنت بي من نقطة الباء خفضة رفعت إلى ما لم تنله بحيلة

و بيان ذلك و هو انّ المحبوب الحقيقي يقول للمحبّ تعليما له و تنبيها على سلوك طريقه لو كنت معي دليلا متواضعا منخفضا كخفضة النقطة تحت الباء صرت مرفوعا إلى منيع جنابي و دفيع مآبي و نلت من الإرب ما لم تنله بجهد و حيلة، و قال عقيبه:

بحيث ترى أن لا ترى ما عدته و أنّ الّذي أعددته غير عدّة

«٢٢٠» يعني حصل لك هذه المرتبة بمكان تشاهد فيه انّ الّذي اعتبرته و عددته في عداد الوجود لا تراه أي لا تعتدّ به لسقوطه عن درجة الإعتبار و أنّ الّذي هيأته من العلوم و الأحوال و طينة عدّة يتوصّل بها إليّ هو ليس بعدّة و ذلك لأنّ المكاشف بحقيقة الغيب إذا انكشفت له قناع الرّيب لا يشاهد ما يوهمه من الوجود و الصّفات بأسرها

- خلقت خلقا هو أكرم عليك منّي، قال: يا آدم: لولا هذه الأسماء لما خلقت سماء مبنيّة و لا أرضا مدحيّة و لا ملكا مقرّبا و لا نبيّا مرسلا و لا خلقتك يا آدم، الحديث. فراجع:

إحقاق الحقّ ج ٩٥.

(٢٢٠) قوله: بحيث ترى أن لا ترى (شعر).

الشاعر هو ابن الفارض، راجع ديوانه ص ٧٣، و مشارق الدراري ص ١٤٤.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٢٥

إلّا ظلالا متلاشية من أشعة سطوع الشمس الحقيقة فكيف يبقى له رؤية اعتبار وجوده و عدّة صفاته، و هذا إشارة إلى فناء المحبّ في المحبوب بحيث لا يرى غيره حتى وجود نفسه، لقولهم:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب (٢٢١).

---

(٢٢١) قوله: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب.

تمام البيت:

فقلت و ما أذنبت قالت مجيبة   وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

ذكره القيصري في شرح الفصوص، الفصّ الإسماعيلي، ص ٢١١.

يعني توجّه العبد إلى وجود نفسه و رؤية وجوده في هذا المقام و المنزلة من المعرفة هو ذنب كبير و لا يقاس به أي ذنب لأنّه شرك في الوجود و غفلة عن الحق المحبوب، لو أراد أن لا يكون له ذنب يجب أن لا يرى الوجود إلّا له، إضافة بأنّ نفس وجود العبد حجاب لا بدّ منه و لا يرتفع هذا الحجاب قطّ.

قال مولانا في أشعاره في المثنويّ باللّغة الفارسيّة:

آي يكى آمد در يارى بزد   گفت يارش كيستى اى معتمد

گفت من، گفتش برو هنگام نيست   بر چنين خوانى مقام خام نيست

خام را جز آتش هجر و فراق   كي پر زكى وارهاند از نفاق

رفت آن مسکين و سالی در سفر در فراق دوست سوزيد أز شرر

پخته شد آن سوخته پس بازگشت باز گرد خانهٔ أنبار گشت

حلقه زد بر در بصد ترس و أدب تا بنجهد بي أدب لفظي ز لب

بانگ زد يارش که بر در کيست آن گفت بر در هم توی ای دلستان

گفت اکنون چون منی ای من درآ نيست گنجايی دو من را در سرا.

الدفتر الأوّل، ص ۱۵۱ (طبعة أمير كبير).

قال تعالى:

مٰا جَعَلَ اللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ [سورة الأحزاب: ٤].

روى الصدوق في التوحيد ص ۱۷۸، الحديث ۱۲، باب ۲۸، بإسناده عن الإمام الكاظم (ع) في حديث قال:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۲۶

و يشهد بذلك قول الناظم عقيبه:

فلم تهوني ما لم تكن فيّ فانيا و لم تفن ما لم تجتلى فيك صورتي

«۲۲۲» لأنّه أيضا إشارة إلى فناء السالك في التوحيد و الرجوع إلى ما كان في الأزل لقوله تعالى:

وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً [سورة مريم: ۹].

و تقديره أي لو كنت معنا الآن كما كنت في الأزل معدوما هالكا و ما احتجبت بالنّقطة الإمكانيّة التعيّنية الموجبة لتميّزك عن غيرك لحصل لك الوصول إلينا و البقاء بنا، و وصلت إلى مقام لم يكن الوصول إليه بحيلة و جدّ و اجتهاد، لأنّ مقام الّذي حصل لهم هذا المقام لم يكن كسيبا و لا اجتهاديّا بل كان لمحض عطائنا و سبق إنعامنا في حقهم بعد فنائهم فينا و رجوعهم إلينا لقولنا:

هٰذٰا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ [سورة ص: ۳۹].

و معلوم أنّ مقامات الأنبياء و الأولياء عليهم السّلام ليست كسبيّة و لا اجتهاديّة، و بالجملة هو الأمر بالفناء و الرّجوع إلى ما كان في الأزل، و قد قيل:

الفقر من يكون مع اللّه الآن كهو في الأزل.

«ليس بينه و بين خلقه حجاب غير خلقه».

و مثله أيضا في حديث آخر حدّثه عن أمير المؤمنين (ع) ص ۳۰۹، الحديث ۲، باب ۴۳، و روى أيضا في باب ۲ (باب التوحيد و نفي التشبيه) في حديث طويل، الحديث ۳، ص ۳۵، بإسناده عن الإمام أبي الحسن الرضا (ع)، قال:

«خلق اللّه الخلق حجاب بينه و بينهم»، الحديث.

و في حديث آخر رواه ص ۵۶، الحديث ۱۴، بإسناده عن أبي الحسن الرضا (ع)، قال:

«فالحجاب بينه و بين خلقه، لامتناعه ممّا يمكن في ذواتهم، و لإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته».

(۲۲۲) قوله: فلم تهوني (شعر).

الشاعر هو ابن الفارض، راجع ديوانه ص ۷۳، و مشارق الدراري ص ۵۰.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۲۷

و قد قال العارف الّذي وصل إلى هذا المقام في جواب قول سمع:

«كان اللّه و لم يكن معه شي»: «الآن كما كان» «۲۲۳».

لأنّه ما شاهد معه غيره و هذا من كمال الفناء فيه و البقاء به لقولهم من لسانه جلّ ذكره:

«و لم تفن ما لم يجتلي فيك صورتي».

لأنّ هذا قول دال على أنّ فناء السالك ليس إلاّ بتجلّياته الموجبة لإفنائه له و في هذا المقام قال المنصور:

بيني و بينك إنّي ينازعني فارفع بفضلك إنّي من البين

لأنه ليس حجاب السّالك إلاّ إنيّته الّتي يحجبه عن مطلوبه و مقصوده، و فيه قيل:

«الفقير لا يحتاج إلى شيء و لا يحتاج إليه شيء»

و هذا من فنائه عن وجوده و رجوعه إلى عدمه الأصل و سقوط وجوده عن درجة الإعتبار بالكلّي لأنّ الاحتياج من لوازم الوجود و ليس له وجود فلا يحتاج إلى شيء و لا يحتاج إليه شيء، لأنّه عدم صرف و لا شيء محض و لا يحتاج أحد إلى العدم أصلا، و إشارة سيّد المرسلين صلوات اللّه عليه و آله و سلّم في قوله:

الفقر سواد الوجه في الدارين (٢٢٤).

(٢٢٣) قوله: كان اللّه و لم يكن معه شيء.

قد مرّت الإشارة إلى هذه العبارة في تعليقتنا ١٩٠، و أيضا في الجزء الأوّل، ص ٣٥٢، الرقم ٧٨ و ٨٨.

(٢٢٤) قوله: الفقر سواد الوجه.

رواه ابن أبي جمهور في عوالي اللّئالي ج ١، ص ٤٠، الحديث ٤١.

و رواه أيضا المجلسي في البحار، نقلا عن العامّة ج ٧٢، ص ٣٠.

و رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ج ٣، ص ٥٣، بإسناده عن النبيّ (ص)، قال:

«كاد الفقر أن يكون كفرا، و كاد الحسد أن يغلب القدر».-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٢٨

كناية عن هذا المقام لان وجه الشيء ذاته و وجوده، و سواده عبارة عن فنائه و زواله لأنّ فناء و عدم يسمّى ظلمة و سوادا، و كلّ وجود و بقاء يسمّى نورا و ضياء، فكمال الفقر لا يكون إلّا في إفناء السّالك و الفقير نفسه و وجوده في الدارين أي دار الدّنيا و دار الآخرة أو ظاهر العالم و باطنه، أو عالم الغيب و الشهادة.

و إن تحققت عرفت أنّ النبيّ (ص) بمثل هذا الفقر افتخر على ساير الأنبياء و المرسلين لا الفقر الصوري الّذي يمكن هناك أفقر منه من حيث الصّورة و بل كان واقعا لأنّ في مكّة شرّفها اللّه، في ذلك الوقت كانوا أفقر منه أشخاصا كثيرة، و كلام ابن الفارض في القصيدة:

و جئت بوجه أبيض غير مسقط لجاهك في الداريك خاطب صفوتي

«٢٢٥» كناية عن هذا الأمر و تقديره أي و جئتني حال كونك غير مسقط لجاهك في دنياك و عقباك و حال خطبتك عروس حبّي و صلي بما ظننت صداقها و وسيلة عناقها من بياض وجهك في الدنيا و العقبى لاستغنائك بزخارف العلوم و الأحوال و الأخلاق و الأعمال التابع لوجودك الّذي هو أصل الحجاب و المنع عن مطلوبك ليس الأمر كما

زعمت و ظننت، لأنّك لا تصل إلى جناب عزّتي إلاّ بتذلّلك و خمولك و إسقاط قبولك و الفناء عن وجودك، و عقيب هذا جاء البيت المتقدّم:

فلو كنت بي من نقطة الباء خفضة رفعت إلى ما لم تنله بحيلة

- و مثله أيضا في نفس المصدر ص ١٠٩.

و روى الصدوق أيضا نفس هذا الحديث في (أماليه)، المجلس ٤٩، ص ٢٤٣، الحديث ٦، بإسناده عن الصادق (ع).

و في الجامع الصغير للسيوطي ج ٢، ص ٢٦٦، الحديث ٢١٩٩، و في حلية الأولياء ج ٨ ص ٢٥٣، عن النبيّ (ص) قال:

«كاد الفقر أن يكون كفرا، و كاد الحسد أن يكون سبق القدر».

(٢٢٥) قوله: و جئت بوجه أبيض (شعر).

قائله ابن الفارض، راجع ديوانه ص ٧٢، و مشارق الدراري ص ١٤٤.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٢٩

ليعرف أنّ المقصود منه هذا لا غير، و كلّ من يرجع إلى المبدأ الأصلي الّذي هو العدم على الوجه المذكور أعني الفناء و الهلاك و الطمس الكلّي بقوّة التوحيد الذّات و الكشف الحقيقي لا شكّ و لا خلاف أنّه يحصل له هذا المقام و يصل إلى مرتبة لم يمكن الوصول إليها أصلا لا بجدّ و لا اجتهاد و لا حيلة و لا سعي، ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء و اللّه ذو الفضل العظيم.

فعليك إذن بإسقاط النقطة الإمكانيّة الإضافيّة المشار إليها جميع هذه الإشارات ليحصل لك الفناء في اللّه و البقاء به و تكون من الواصلين المقرّبين و الكاملين المحققين، لأن عند التحقيق ليس هذا الفناء إلاّ عين البقاء، و لا هذا الإسقاط إلاّ عين الإثبات، لأنّ من فنى عن وجوده بقي بوجود الحقّ تعالى و من مات في سبيله صار حيّا بحياته، لقوله:

وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ [سورة آل عمران: ١٦٩- ١٧٠].

و لقوله:

و من قتلته فأنا ديته (٢٢٦).

(٢٢٦) قوله: و من قتلته فأنا ديته.

تمام الحديث كما يلي:

من طلبني وجدني، و من وجدني عرفني، و من عرفني أحبّني، و من أحبّني عشقني، و من عشقني عشقته، و من عشقته قتلته، و من قتلته فعليّ ديته، و من عليّ ديته فأنا ديته.

راجع «المنهج القوي» ج ٤، ص ٣٩٨.

روى الشهيد الثاني في «مسكّن الفؤاد» ص ٢٧، في خبار داود (ع):

يا داود! بلّغ (أبلغ) أهل الأرض: أنّي حبيب من أحبّني، و جليس من جالسني، و مونس من أنس بذكري، و صاحب لمن صاحبني، و مختار لمن اختارني، و مطيع لمن أطاعني، ما أحبّني أحد من خلقي عرفت ذلك من قلبه إلاّ أحببته حبّا لا يتقدّمه أحد من - [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٣٠

و لقوله:

أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكٰافِرِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ [سورة الأنعام: ١٢٢].

و لقول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

موتوا قبل أن تموتوا (٢٢٧).

- خلقي. (ما أحبّني أحد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلاّ قبلته لنفسي لا يتقدّمه أحد من خلقي) من طلبني وجدني، و من طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، و هلمّوا إلى كرامتي و مصاحبتي، و مجالستي، و مؤانستي، و آنسوا لي بي أو آنسكم، و أسارع إلى محبّتكم. عنه البحار ج ٧٠، الحديث ٢٨.

في «مصباح الشريعة و مفتاح الحقيقة» المنسوب بالإمام الصادق (ع)، باب ٩٦، قال:

حبّ اللّه إذا أضاء على سرّ عبده (عبد) أخلاه عن كلّ شاغل (و كلّ ذكر سوى اللّه ظلمة) إلى أن قال: و قال أمير المؤمنين (ع):

«حبّ اللّه نار لا يمرّ على شيء إلاّ احترق»، الحديث.

(٢٢٧) قوله: موتوا قبل أن تموتوا.

رواه المجلسي في البحار ج ٧٢، ص ٥٩، و عبّر عنه بالحديث المشهور و قال:

و قد ورد في الحديث المشهور: موتوا قبل أن تموتوا.

و ذكره أيضا صدر المتألّهين في تفسيره ج ٣، سورة البقرة في الآية ٥٤، ص ٣٩٩، و قال:

و في الحديث النبويّ على قائله و آله أشرف سلام اللّه: «موتوا قبل أن تموتوا»، و روي أنّه قال أيضا: «من أراد أن ينظر إلى ميّت يمشي فلينظر إليّ».

و رواه أيضا سعيد الدين سعيد الفرغاني في مشارق الدراري ص ۱۵۲.

قال أمير المؤمنين (ع) في وصف سالك الطريق إلى اللّه سبحانه:

«قد أحيا عقله و أمات نفسه، حتّى دقّ جليله، و لطف غليظه، و برق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، و سلك به السبيل، و تدافعته الأبواب إلى باب السّلامة، و دار الإقامة، و ثبت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن و الرّاحة، بما استعمل قلبه، و أرضى ربّه.

نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۰ صبحي الصالح.

قال سبحانه و تعالى:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۳۱

إشارة إلى هذا الموت و الفناء و بعده إلى الوصول و اللقاء.

و لقول العارف أيضا:

اقتلوني يا ثقاتي ، انّ حياتي في مماتي

و مماتي في حياتي

فإنّه أيضا إشارة إليه.

و حيث بلغ الكلام هذا المبلغ و ورد إذا تمّ الفقر فهو اللّه، و قد سبق الكلام في الفقر و الفقير، و الخبر الوارد فيهما، فلنشرع في تحقيق الفقر و سبب غنائه و بقائه به، و التوفيق بين الأخبار الواردة فيه.

(في بيان حقيقة الفقر و معناه)

فنقول: اعلم، أنّ الفقر هو عدم التمليك مطلقا حتّى عن وجوده، و كلّ شخص يحصل له هذا الفقر على ما ينبغي لا شكّ انّه يخرج من حكم الوجود الإضافي الإمكاني و إذا خرج من حكم الوجود الإضافي الإمكاني لا بدّ و أن يدخل في حكم الوجود الحقيقي الواجبي الكلّي، لأنّ الشّيء إذا جاوز حدّه انعكس ضدّه، و الوجود إمّا واجبيّ أو امكانيّ، و الاتّصاف بأحدهما ضروريّ، فافهم و حقق معنى قولهم:

إذا تمّ الفقر فهو اللّه.

و أعرف بالحقيقة أنّ افتخار النّبي عليه السّلام بالفقر لم يكن إلاّ بمثل هذا، و سبحاني ما شأني، ليس إلاّ في هذا المقام، و كذلك أنا الحقّ، و من مثلي، و هل في الدارين غيري، و ليس في جبّتي سوى اللّه، و أمثال ذلك، و الأخبار الواردة في الفقر

- يٰا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلىٰ رَبِّكِ رٰاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبٰادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي [الفجر: ۳۰].

و قال سبحانه:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ نَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ [القمر: ۵۵].

من مات في الدنيا و قامت قيامته الكبرى يكون مصداقا لما قال سبحانه في هاتين الآيتين في هذه النشأة الدنياويّة أيضا. و اللّه هو العالم.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ٤۳۲

ثلاثة:

الأولى، قوله: فخري «۲۲۸». و قد عرفت معناه.

و الثانية، قوله: الفقر سواد الوجه في الدارين «۲۲۹». و قد عرفت معناه.

و الثالثة، قوله: كاد الفقر أن يكون كفرا «۲۳۰». و هذا القول يطابق القولين، لأنّه إذا حصل الفقر الحقيقي للفقير الّذي هو عدم التمليك، لا شكّ أنّه يشاهد نفسه في مقام لم يكن له حاصلا ذلك المقام، و المقام الحاصل بعد الفقر الحقيقي كما سبق ليس إلّا مقام الاتّصاف بصفات اللّه و التخلّق بأخلاقه، و هذا المقام لا بدّ له من دعوى الرّبوبيّة إذا لم يكن الفقر ثابتا في مقامه، فذلك هو الكفر و لهذا قال: كاد، فأمّا إذا كان الفقير كاملا عارفا متمكّنا يعرف: أنّ الوجود المضاف إليه و ما يتعلّق به ليس إلّا للحقّ تعالى لا يدّعي هذا و لا يقول به، فلا يكون بالنسبة إليه كفر، و بل يكون موجبا للافتخار على جميع الأنبياء صورة و معنى لأنّه الآن في أغنى الغناء و أبقى البقاء، رزقنا اللّه و إيّاكم الوصول إليهما بحق محمّد و ولديهما و اللّه أعلم و أحكم و هو يقول الحقّ و هو يهدي السبيل، و سيجيء البحث في النّقطة و الباء أكثر من هذا عند تأويل بسم اللّه الرّحمن الرّحيم. و حيث عرفت هذا بقدر هذا المقام فلنشرع في تطبيق الحروف الآفاقيّة بالحروف القرآنيّة كما شرطناه و هو هذا:

---

(۲۲۸) قوله: الفقر فخري.

رواه ابن أبي جمهور في عوالي اللّئالي ج ۱، ص ۳۹، و قال:

و روي عنه (ص): «الفقر فخري و به أفتخر على سائر الأنبياء».

و رواه أيضا صاحب جامع الأخبار في الفصل السابع و الستّون في الفقراء.

و رواه أيضا أحمد بن فهد الحلّيّ في (عدّة الدّاعي) ص ۱۲۳، قال: قال نبيّنا (ص):

«الفقر فخري و به أفتخر».

انظر أيضا تعليقتنا الرقم ۱، ص ۱۹٥، الجزء الأوّل.

(۲۲۹) و (۲۳۰) قوله: الفقر سواد الوجه- و قوله: كاد الفقر ...

قد مرّ في الرّقم ۲۲٤.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ٤۳۳

القسم الثالث في تطبيق الحروف الآفاقيّة بالحروف القرآنيّة على سبيل التفصيل

اعلم، أنّ الحروف القرآنيّة كما هي منحصرة في ثمانية و عشرين حرفا، فكذلك الحروف الآفاقيّة فإنّها منحصرة في ثمانية و عشرين حرفا.

أمّا الحروف القرآنيّة فمعلومة مشهورة.

(في بيان المقصود من الحروف الآفاقيّة)

و أمّا الحروف الآفاقيّة و هي عبارة عن بسائط العالم و مفرداته ملكا و ملكوتا، أمّا الملك فالهيولى الأولى و الأفلاك التسعة و العناصر الأربعة فإنّها أربعة عشر حرفا، و أمّا الملكوت فبواطن هذه كلّها لأنّ لكلّ ظاهر باطن و لكلّ باطن ظاهر، و يشهد بذلك قوله تعالى:

فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [سورة يس: ٨٣].

فيكون المجموع ثمانية و عشرين حرفا، و كما ان الحروف الآفاقيّة منقسمة إلى الملك و الملكوت، فكذلك الحروف القرآنيّة، فإنّها منقسمة إلى الملك و الملكوت، لأنّ المنقوطة منها بحسب الملك لتعيّنها و تقيّدها بالنّقطة و الغير المنقوطة بحساب الملكوت لعدم تقييدها و تعيينها.

(في انّ تركيب الحاصل من الحروف القرآنيّة و أيضا الآفاقيّة لا تقبلان الحصر)

ثمّ اعلم أنّ تركيب الحاصل من الحروف القرآنيّة كما لا يقبل الحصر من حيث التفصيل، فكذلك التركيب الحاصل من الحروف الآفاقيّة فإنّها لا تقبل الحصر أيضا من حيث التّفصيل، و تركيب الحاصل من الأولى كالقرآن و الكتب السّماويّة و غير ذلك من الكتب و الصّحف تركيب إجماليّ غير تفصيليّ لانحصاره في سورة معدودة و آيات

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٣٤

و كلمات معيّنة، فكذلك التركيب الحاصل من الثانية فإنّها أيضا تركيب إجماليّ غير تفصيليّ لانحصاره في أربعة عشر عاما أو ثمانية و عشرين عاما، أو ثمانية عشر ألف عالم أو تسعة عشر عالم على إختلاف الآراء و تعبير العبارات، و نظرا إلى تركيب الجزئيّ الحاصل من الحروف القرآنيّ الغير القابل للانتهاء، قال:

وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [سورة لقمان: ٢٧].

و نظر إلى تركيب الجزئي الحاصل من الحروف الآفاقي الغير القابل للانتهاء، قال:

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ [سورة هود: ١٠٦- ١٠٨].

و الخلود فيهما دالّ على عدم تناهيهما و عدم تناهيهما يدلّ على عدم تناهي العالم و الممكنات كما قرّرناه مرارا.

و حيث تقرّر أنّ القرآن صورة إجمال العالم و تفصيله، و كلّ حكم يصدق على القرآن يصدق على الآفاق، و قد ثبت أنّ القرآن من حيث المعنى و التركيب الجزئيّة الحاصلة من حروفه غير متناهية، فثبت أنّ الآفاق المسمّى بالعالم أيضا كذلك خصوصا إذا شهد به العقل و النقل.

(في بيان مركّبات القرآن و الآفاق و حركاتهما)

ثمّ اعلم، أنّ مركّبات القرآن ثلاثة، سورة و آية و كلمة، إمّا اسم أو فعل أو حرف، فكذلك مركّبات الآفاق فإنّها أيضا ثلاثة، معدن و نبات و حيوان، أو ملك و إنس و جنّ، و حركات القرآن أيضا ثلاثة، ضمّة و فتحة و كسرة، فكذلك حركات الآفاق فإنّها أيضا ثلاثة، مستقيمة و أفقيّة و منكوسة، و المستقيمة مخصوصة بالإنسان، و الأفقيّة بالحيوان، و المنكوسة بالنبات، أو نصب و رفع و جرّ، فإنّها أيضا ثلاثة مقابلة للثلاثة الآفاقيّة حركات مبتدائيّة و حركات وسطيّة و حركات

منتهائيّة، هذا بالنّسبة

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٤٣٥

إلى مطلق التطابق بين الكتابين، و أمّا بالنسبة إلى بعض التطابق فقد عرفت من تطابق حروف «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» الّتي هي تسعة عشرة حرفا بمراتب العالم من حيث الكلّيّات الّتي هي تسعة عشرة مرتبة و هذا من حيث اعتبار حروفها المكتوبة، فأمّا من حيث اعتبار حروفها الملفوظة الّذي هو اثنين و عشرين حرفا فبإزاء اثنين و عشرين عالما أمّا التسعة عشرة فقد عرفتها، و أمّا الاثنين و العشرين فبانضمام العوالم الإلهيّة إليها الّتي هي الثلاثة من عالم الذات و عالم الصفات و عالم الأفعال و الملك و الملكوت و الجبروت بإزائها.

(في المراد من ستّة أيّام في خلق العالم)

و إن قلت: إنّكم بيّنتم في الخطبة إجمالا: أنّ الكتاب الآفاقي قد تمّ في ستّة أيّام متمسّكا بقول اللّه تعالى:

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماٰوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ [سورة هود: ٧].

و إنّ العالم المعبّر عنه بثمانية عشر ألف عالم هو أيضا من اقتضاء وضع العالم على ستّة أيّام الّتي هي عبارة عن المراتب الوجودي، و العالم على ثلاثة مراتب: العقول و النفوس و الأجسام، أو الملك و الملكوت و الجبروت، فيكون المجموع ثمانية عشر ألف عالم، و ما عرفنا معناه و لا مقصودكم منه، و ما الحكمة في الستّة، و لم لا يكون أكثر و أقلّ؟

قلنا: هذا في غاية السهولة، و قد سبق بيان ذلك من كلام صاحب اخوان الصفا و فيثاغورس الحكيم في خواص العالم و وقوعه على ترتيب العدد، و كذلك من كلام بعض الحكماء، و لكن ما نقنع به و نشرع فيه على ما ينبغي، و نقول فيه على ما هو عليه في نفس الأمر:

أمّا الأيّام الستّة و تخليق العالم عليها، بأنّ العالم فعل الحكيم الكامل و فعل الحكيم يجب أن يكون على أتمّ الوجوه من الإتقان و الإحكام، و الستّة عدد تامّ غير ناقص و لا زائد، فمن هذا وقع عليها.

و إن قلت: هناك الأعداد كثيرة و كلّه تامّ فأيّ خصوصيّة لستّة؟

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٤٣٦

قلنا: الخصوصيّة في ذلك و هي أنّه يجب فعل الحكيم أن يكون على أتمّ الوجوه و لم يكن من المراتب العدديّة التّامّة أقلّ من الستّة، الفعل الّذي يحصل بأقلّ شيء لا يجوز وقوعه بأكثر منه و إلاّ لا يكون منسوبا إلى الحكيم، و أمّا أنّ الستّة مرتبة تامّة،

(في بيان وقوع الموجودات على طبيعة العدد)

فاعلم، أنّ العدد كلّه على رأي أرباب هذا ألف من حيث الكلّي على أربعة أقسام، أزواج، و أفراد، و صحيح، و كسور، و مراتب الموجودات الّتي في العالم مناسبة لهذه الأعداد كطبيعة عالم الأرواح فإنّها يشبه الأفراد من العدد، و مراتب الموجودات في عالم الأجسام بطبيعة الأزواج أشبه و مراتب الموجودات الّتي في عالم الأفلاك بطبيعة الأعداد الصحيحة أشبه، و مراتب الموجودات الّتي في عالم الكون و الفساد، بطبيعة الكسور أشبه، و الغالب على ظنّي أنّ في هذا المكان بالنّسبة إلى بعض الأذهان يحتاج إلى بيان هذه المراتب من الأعداد أكثر من هذا.

فنقول: اعلم أنّ المراتب الأربعة من أقسام العدد من الزّوج و الفرد و الصحيح و الكسور بعضها تامّ و بعضها ناقص، أمّا الزّوج و الفرد فهما مستغنيان عن البيان لوجودهما و شهرتهما بين النّاس، و أمّا الصحيح و الكسور فبيانه على ما قال

صاحب الفنّ: و هو أنّ العدد على ثلاثة أقسام، زائد، و ناقص، و تامّ، أمّا الزائد فكلّ عدد يكون أجزاء كسوره أزيد من أصله المخرج منه مثل عدد إثنا عشر مثلا فإنّ كسوره الّتي يخرج منه نصف و ربع و ثلث و سدس، فالنصف ستّة و الربع ثلاثة و الثلث أربعة و السّدس اثنان، يكون المجموع المجموع خمسة عشر، فيكون أجزاء كسوره أزيد من الأصل، و بهذا الإعتبار يسمّى زايدا.

و أمّا الناقص فكلّ عدد يكون أجزاء كسوره أقلّ من أصله المخرج منه مثل عدد الأربع، فإن كسوره الّتي يخرج منه نصف و ربع، فالنّصف اثنان، و الربّع واحد، يكون المجموع ثلاثة، فيكون أجزاء كسوره أنقص من الأصل، و لهذا الإعتبار يسمّى ناقصا.

و أمّا التّامّ، فكلّ عدد يخرج أجزاء كسوره كأصله المخرج منه مثل عدد السّتّ،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۳۷

فإن كسوره الّتي يخرج منه نصف و ثلث و سدس، فالنّصف ثلاثة و الثلث اثنان، و السّدس واحد، فيكون المجموع ستّة، فيكون أجزاء كسوره مساوية للأصل المخرج منه و بهذا الإعتبار يسمّى تامّا، و بهذا السّبب خلق اللّه تعالى العالم في ستّة أيّام الّذي هو أقلّ العدد من الأعداد التّامّات، و قد سبق عليه ذلك أيضا و اللّه أعلم و أحكم، فالسّتّة من المراتب الأوّليّة المختصّة بالعقول و المجرّدات، و الستّة الوسطيّة من النّفوس و الأرواح، و الستّة الأخيرة من الأجسام، و المحسوس يكون ثمانية عشر ألف عالم، و أمثال ذلك من التطبيقات و هذا أيضا تطبيق بمفردات الحروف و مفردات العالم، و أمّا التطبيق ببعض مركباتها الّتي هي، أبجد، هوز، حطّي، كلمن، إلى آخرها، فذلك يحتاج إلى مقدّمات.

منها، ما سبق من كلام فيثاغورس الحكيم في طبيعة العدد و الحكمة المندرجه تحت كلّ عدد و قو قوله:

«اعلم، أنّ الموجودات واقعة بحسب طبيعة العدد، فمن عرف طبيعة العدد و أنواعه و خواصّه أمكنه أن يعرف كمّيّة أنواع الموجودات و أجناسها، و ما الحكمة في كمّيتها على ما هي عليه الآن، و لم لم يكن أكثر من ذلك و لا أقلّ منه و ذلك أنّ الباري جلّ و عزّ لمّا كان هو علّة الموجودات و خالق المخلوقات و هو واحد بالحقيقة، لم يكن من الحكمة أن يكون الأشياء واحدا من جميع الجهات بل وجب أن يكون واحدا بالهيولى كثيرا بالصّورة، و لم يكن من الحكمة أن يكون الأشياء كلّها ثنائيّة و لا ثلاثيّة و لا رباعيّة و لا أكثر من ذلك و لا أقل بل كان الأحكم و الأنفس أن يكون على ما هي عليه من الأعداد و المقادير و كان ذلك في غاية الحكمة، و ذلك أن الأشياء ما هي ثنائيّة و منها ثلاثيّة و رباعيّة و مخمّسات و مسدّسات و مسبّعات و معشرات و ما زاد على ذلك بالغا ما بلغ إلى قوله: و على هذا قد توغلت المسبعة في الكشف عن الموجودات السباعيّة و ظهر لهم منها أشياء عجيبة فشعفوا بها و اطنبوا في ذكرها و غفلوا عن ما سوى ذلك من المقادير.

و كذلك أيضا الثّنوية في الكشف عن الموجودات الثنائيّة فظهر لهم منها أشياء عجيبة فشعفوا بها و غفلوا عن ما سوى ذلك، و هكذا النصارى في التثليث و المثلّثات،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۳۸

و هكذا أيضا الطبيعيّون في الطبائع الأربع و المربعات من الأمور، و هكذا المخمّسة أطنبوا في الأمور المخمّسة، و أهل الهند أطنبوا في المتسعات من أمور العدد و المقادير.

فأمّا الحكماء الالهيّون قد أعطوا كلّ ذي حق حقّه حين قالوا: إنّ الموجودات بحسب طبيعة العدد يعني الأشياء الموجودة،

منها ما هو إثنين إثنين، و منها ثلاثة ثلاثة، و أربعة أربعة، و خمسة خمسة، هكذا بالغا ما بلغ، و من ذلك قالوا: إنّ الواحد أصل العدد و منشاه، من الواحد يألف العدد قليله و كثيره و أزواجه و أفراده و صحيحه و كسوره، فالواحد علّة العدد كما أنّ الباري جلّ ثناؤه علّة الموجودات و موجدها و مرتّبها و متقنها و مكملها، و كما أنّ الواحد لا جزء له و لا مثل و لا نظير و يعطي كلّ عدد اسمه و مقداره، كذلك الحقّ تعالى لا مثل له و لا جزء له و لا نظير، و أعطى الموجودات وجودها و اسمها و مقدارها، و كما أنّ ببقاء الواحد بقاء العدد و دوامها، كذلك ببقاء الباري جلّ ثناؤه بقاء الموجودات و دوامها، و كما أنّ بالواحد يقدر على كلّ عدد و مقدار، كذلك علم الباري بكلّ غائب و شاهد، و كما أنّ من تكرار الواحد نشأ العدد و تزايد، كذلك من فيض الباري وجوده العام نشأ الخلايق و نمّا، و كما أنّ الإثنين هو أوّل عدد نشأ من تكرار الواحد، كذلك العقل هو أوّل موجود فاض من جود الباري، و كما أنّ الثلاثة ترتّبت بعد الاثنين كذلك النّفس ترتبت بعد العقل، و كما أنّ الأربعة ترتبت بعد الثلاثة و كذلك الطبيعة ترتبت بعد النّفس، و كما أنّ الخمسة ترتبت بعد الأربعة كذلك الهيولى ترتبت بعد الطّبيعة، و كما أنّ السّتّة ترتبت بعد الخمسة كذلك الجسم ترتّبت بعد الهيولى، و كما أنّ السبعة ترتبت بعد السّتّة كذلك الفلك ترتّبت بعد الجسم، و كما أنّ الثمانية ترتّبت بعد السبعة كذلك الأركان ترتبت بعد الفلك ترتّبت بعد الجسم، و كما أن الثمانية ترتّب بعد السبعة، كذلك الأركان ترتبت بعد الفلك، و كما أن التسعة ترتبت بعد الثّمانية كذلك المولّدات تولّدت بعد الأركان و كما أنّ التّسعة آخر مرتبة الأعداد كذلك المولّدات آخر مرتبة الموجودات الكلّيّات و هي المعادن و النّبات و الحيوان، فالمعادن كالعشرات، و النّبات كالمائات، و الحيوان كالألوف و المراج كالآحاد.

و الغرض من هذا النّقل بعد أن سبق ذكره مرّة أنّ مركّبات الحروف المرتّبة على

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۴۳۹

ترتيب العالم وقعت كذلك، و ذلك أن تعرف أنّ الأنبياء عليهم السّلام حين فرغوا من وضع حروف التهجّي على ترتيب حروف العالم كما ذكرناه بوجوه مختلفة، شرعوا في تركيب يدلّ على ذلك التركيب أيضا على ترتيب العالم كلّه أعلاه و أسفله، و هو أبجد، هوّز، حطّى، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ظضغ، فإن أبجد ألف و باء و جيم و دال، فالألف واحد، و الباء اثنان، و الجيم ثلاث، و الدّال أربع، و يحصل بهذا الترتيب الثّنائي و الثلاثي و الرّباعي بعد المرتبة الأولى الّتي يتعلّق بالألف و ذلك مطابق للمراتب الأربع المذكورة في ترتيب العالم من الأمر و العقل و النفس و الطبيعة، و يحصل منه أيضا بعد مرتبة الآحاد مرتبة العشرات لأنّ أبجد على حساب الهندسة عشرة، و كذلك هوّز فإنّ الهاء خمسة بعد الأربعة المتقدّمة، و الواو ستّة و الزّاء سبعة، و يحصل منها التّرتيب الخماسي و السّداسي و السّباعي موافقا لما تقدّم من التّرتيب، و كذلك حطّى فإنّ الحاء ثمانية و الطّاء تسعة و الياء عشرة، يحصل منها الترتيب الثمني و التسعي و ينتهي إلى نهاية الآحاد الّتي هي العشرة، و إلى بداية العشرات الّتي هي التّسعة، و يخرج الترتيب صحيحا من الألف إلى الياء في مرتبة الآحاد الّتي هي العشرة لأنّ من أبجد إلى حطّى أيضا عشرة، ثمّ بعد ذلك فانظر إلى كلمن فانّهم إذا فرغوا من ترتيب الآحاد إلى العشرات شرعوا في ترتيب العشرات إلى المئات، لأنّ الكاف عشرين و اللاّم ثلاثين و الميم أربعين، و النّون خمسين، و هكذا إلى المائة، و الألف الّتي ليس فوقها غاية في العدد.

و إذا عرفت هذا فانظر إلى ترتيب العالم و تركيبه، فإنّه كذلك، و كذلك إلى آخر المراتب العدديّة المترتّبة على الترتيب اللاّزم لطبيعة الحروف من الباء إلى الغين.

و عند التحقيق الكلّ راجع إلى الواحد، أمّا في العدد فكما عرفته، و أمّا في الحروف فكما تحققته.

و أمّا في العالم فكما بيّناه مرارا، خصوصا الآن بأن مبدأ الكلّ المعبّر عنه بالعالم، من الواحد الحقّ تعالى جلّ ذكره، كما قيل:

كلّ شيء فيه معي كلّ شيء فتفطن و اصرف الذهن إلى

كثرة لا تتناهى عددا قد طوتها وحدة الواحد طي

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٤٠

و قد سبق ذكرها بين البيتين أيضا مع الأبحاث المذكورة، لكن حيث إنّ هذا الموضع موضعهما ذكرناهما قصدا لا نسيانا و لا سهوا بل بمقتضى ما قال العارف:

أعد ذكر نعمان أعد أنّ ذكره هو المسك ما كرّرته يتضرّع

و اللّه أعلم و أحكم و هو يقول الحقّ و هو يهدي السبيل.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٤١

المقدّمة الرّابعة في الكلمات الآفاقيّة الإلهيّة و تطبيقها بالكلمات القرآنيّة على سبيل الإجمال و التّفصيل

اعلم، أنّ الكلمات الآفاقيّة عند البعض عبارة عن المركّبات العنصريّة المسمّاة بالمواليد الثّلاثة الّتي هي المعدن و النّبات و الحيوان، و عند البعض عن مطلق الموجودات مركّبا كان أو بسيطا، أرواحا كان أو أجسادا، و الحقّ أنّ كلّ ما صدر من الدّواة الإلهيّة المعبّرة عنها بعالم الجبروت و سطر على صفحات الوجود الإضافيّ الإمكاني بالقلم الرّباني المعبّر عنه بالعقل الأوّل، لقوله تعالى:

ن وَ الْقَلَمِ وَ مٰا يَسْطُرُونَ [سورة القلم: ١].

فهو كلمة ربانيّة مسطورة على رقّ الكتاب الآفاقي و صفحاته، لقوله أيضا:

وَ الطُّورِ وَ كِتٰابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ [سورة الطور: ١- ٣].

و قد سبقت كيفيّة صدور هذه الكلمات من النّفس الرّحماني و بروزها في الجناب الإلهي صورة و معنى مع ذكر الدّواة و القلم و الألواح و غير ذلك.

(في معنى الكلمة الآفاقيّة و أقسامها)

و بيانه مرّة أخرى، و هو أنّ الكلمة عند هؤلاء القوم باتّفاق الأنبياء و الأولياء عليهم السّلام عبارة عن كلّ متعيّن من الموجودات الرّوحانيّة و الجسمانيّة كما ورد في اصطلاحهم في تقسيمها بقولهم: الكلمة تكني بها عن كلّ واحدة من

الماهيّات و الأعيان و الحقائق و الموجودات الخارجيّة، و في الجملة عن كلّ متعيّن و قد تخصّ المعقولات بين الماهيّات و الحقائق و الموجودات و الأعيان بالكلمة المعنويّة الغيبيّة،

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۴۲

و الخارجيّات بالكلمة الوجوديّة، و المجرّدات و المفارقات بالكلمة التّامّة.

و قد أشرنا إلى تفصيل ذلك أوضح من ذلك ممّا سنح لنا من اللّه الجواد، و هو أنّ الكلمات الإلهيّة إن صدرت من النّفس الرّحماني الّذي هو الإنسان الكبير، و أنفاسه في عالم الأمر، و عالم الجبروت المعبّر عنه بالعقول المجرّدة و النفوس القدسيّة تسمّى كلمة معنويّة عينيّة، و إن صدرت من النّفس الرّحماني في عالم الخلق و عالم الشّهادة بتوسط القلم الأعلى على صفحات الألواح الجسمانيّة باليدين المعبّرتين عنهما تارة بالأسماء الجلاليّة و الجماليّة لقوله تعالى:

خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [سورة ص: ۷۵].

و تارة بالسّماوات و الأرض لقوله:

وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ [سورة الزمر: ٦٧].

وَ السَّمٰاوٰاتُ مَطْوِيّٰاتٌ بِيَمِينِهِ [سورة الزمر: ٦٧].

تسمّى كلمة صوريّة شهاديّة كالكلمات الصّادرة من الإنسان الصغير، فإنّها صدرت من طريق الفم و اللّسان و المخارج و ظهرت في الهواء بالتنفس و حركات الشفتين تسمّى كلاما و قولا إنسانيا، و بقاؤها تكون ببقاء الهواء و التنفس و القائل و السامع.

و ان صدرت منه بواسطة اليد و الدّواة و القلم على صفحات الأوراق الخارجيّة و الألواح الصوريّة، تسمّى كلمة إنسانيّة، و تلك الأوراق و الألواح كتابا، و بقائها تكون ببقاء تلك الألواح و الأوراق.

و النفس الرّحماني كما سبق ذكره هو الوجود الإضافي الوحداني بحقيقته المتكثّر بصور المعاني الّتي هي الأعيان و أحوالها في الحضرة الواحديّة، يسمّى به تشبيها بنفس الإنسان المختلف بصور الحروف مع كونه هواء ساذجا في نفسه و نظرا إلى الغاية الّتي هي ترويج الأسماء الداخلة تحت حيطة الإسم الرّحمن عن كونها و سكونها و هو كون الأشياء فيها و كونها بالقوّة، كترويح الإنسان بالتّنفس، و نسبة هذا النّفس إلى الرّحمن دون غيره من الأسماء، و هي أنّ الموجود الأوّل المسمّى بالعقل الأوّل أو الإنسان

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۴۳

الكبير أو العرش و هو مظهر الرّحمن و محلّ استوائه لقوله تعالى:

الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ [سورة طه: ۵].

كما بيّناه مفصّلا و لهذا وقع في بسم اللّه الرّحمن الرّحيم بعد اسم اللّه و وقع بعده الرّحيم الّذي يختص بالإنسان الصغير الّذي بإزائه لأنّه مظهره و محلّ استوائه لقوله تعالى:

بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ [سورة التوبة: ۱۲۸].

لأنّ الوجود لا ينتظم إلّا بهذه الثلاث أعني اللّه و مظهره الّذي هو الرّوح الأعظم و الإنسان الكبير، و الرّحمن و مظهره الّذي هو العقل الأوّل معنى و العرش صورة، و الرّحيم و مظهره الّذي هو النفس الكليّة معنى و الإنسان الصغير صورة، و سرّ تعظيم بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و جميع ما سبق في تعظيمه و وصفه ليس إلّا لأجل هذا، و ستعرف تحقيق ذلك

عند تأويل بسم اللّه الرّحمن الرّحيم في أوّل الفاتحة، و المراد من ذلك كلّه أنّ الكلمة الصّادرة من النّفس الرّحماني في الآفاق لها اعتباران من حيث المعنى، و اعتبار من حيث الصورة، أمّا بالاعتبار الأوّل فسمّي كلمات اللّه المعنويّة، و أمّا بالاعتبار الثّاني فيسمّى كلمات اللّه الصوريّة، و هذه الكلمات هي المسمّاة بالكلمات الإلهيّة الّتي تبيد و لا تنفد لقوله:

قُلْ لَوْ كٰانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِمٰاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمٰاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنٰا بِمِثْلِهِ مَدَداً [سورة الكهف: ١٠٩].

و أنّ الكلمات الصادرة من النّفس الإنساني في الأنفس لها أيضا اعتباران:

الأوّل من حيث المعنى و هو المسمّاة بالقول و الكلام و القرآن و الحديث.

و الثّاني من حيث الصّورة و هو المسمّاة بالكتاب و الصّحف و أمثال ذلك، و إليه الإشارة بقوله:

وَ لاٰ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتٰابَ الْمُبْطِلُونَ [سورة العنكبوت: ٤٨].

و إذا عرفت هذه المقدّمات فاعلم

أنّ هاهنا أبحاث:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٤٣

البحث الأوّل في الدّواة و القلم الصّادرة منهما هذه الكلمات

اعلم، أنّه قد سبق أنّ الكتاب القرآني كما أنّ (أنّه) دواة و قلم و أوراق، فكذلك الكتاب الآفاقي فإنّ له أيضا دواة و قلم و أوراق.

أمّا الدّواة و القلم و الأوراق الّتي تتعلّق بالكتاب القرآني فتلك معلومة مشهورة.

و أمّا الدّواة و القلم و الأوراق الّتي تتعلّق بالكتاب الآفاقي فقد قلنا: إنّ الدواة فيه عبارة عن العقل الأوّل، و القلم عن النفس الكلّيّة المشار إليهما في قوله تعالى:

ن وَ الْقَلَمِ وَ مٰا يَسْطُرُونَ [سورة القلم: ١].

و في قوله:

اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسٰانَ مٰا لَمْ يَعْلَمْ [سورة العلق: ٣- ٥].

و الكلمات عن قوله تعالى: وَ مٰا يَسْطُرُونَ، لأنّ المراد به كلمات الموجودات و المخلوقات المسطورة على ألواح الكائنات، و الرّق الوجود الإضافي، و قد يقرّر أنّ هذا القلم له ثلاثمائة و ستّون سنا من حيث ما هو قلم، و ثلاثمائة و ستّون وجها من حيث ما هو عقل، و ثلاثمائة و ستّون لسانا من حيث ما هو روح مترجم عن اللّه تعالى، و يستمدّ كلّ سنّ من ثلاثمائة و ستّين بحرا، و هي أصناف العلوم، و سمّيت بحرا لاتّساعها، و هذه البحور هي إجمال الكلمات الّتي لا تنفد أبدا، و تقرّر أنّ الأوراق و الألواح عبارة عن الأجسام مطلقا، و تقرّر أنّ الكاتب الكبير في هذه الكتابة العقل الأوّل المشار إليه في حديث النبوي:

جفّ القلم بما هو كائن (٢٣١).

---

(٢٣١) قوله: المشار إليه في الحديث النبويّ: جفّ القلم بما هو كائن.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۴۴۵

- قد أخرج ابن حنبل في مسنده ج ۳۰۷، ص ۳۰۷، بإسناده عن ابن عبّاس قال: قال رسول اللّه (ص): ألا أعلّمك كلمات ينفعك اللّه بهنّ؟ فقلت: بلى، فقال:

احفظ اللّه يحفظك اللّه، احفظ اللّه تجده أمامك، تعرّف إليه في الرّخاء يعرفك في الشدّة، و إذا سألت فاسأل اللّه، و إذا استعنت فاستعن باللّه، قد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أنّ الخلق كلّهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه اللّه عليك لم يقدروا عليه، و أن أرادوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه اللّه عليك لم يقدروا عليه، و اعلم أنّ في الصّبر على ما تكره خيرا كثيرا، و أنّ النصر مع الصّبر، و أنّ الفرج مع الكرب، و أنّ مع العسر يسرا.

و أخرج مثله في ص ۳۰۳، إلّا إنّه فيه: فقد رفعت الأقلام و جفّت الكتب.

و أيضا مثله في ص ۲۹۲، و فيه: رفعت الأقلام و جفّت الصّحف.

و في جامع الترمذي أيضا ج ٤، ص ٦٦٧، الحديث ۲٥١٦ مثله، فراجع.

و في صحيح مسلم ج ٤، ص ۲۰٤۰، كتاب القدر، الحديث ۲٦٤٨، بإسناده عن جابر ابن عبد اللّه قال: جاء سراقة بن مالك، قال: يا رسول اللّه: بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أ فيما جفّت به الأقلام و جرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: لا، بل فيما جفّت به الأقلام و جرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكلّ ميسّر.

و في حديث بعده: كلّ عامر ميسّر لعمله.

و في حديث بعده: كلّ ميسّر لما خلق اللّه.

و ذكر الحديث ابن ماجة أيضا ج ١، المقدّمة، باب ١٠، ص ٣٥، الحديث ٩١.

و أخرج أيضا في الباب، الحديث ٧٨، بإسناده عن عليّ (ع)، عن النبيّ (ص)، قال:

ما منكم من أحد إلّا و قد كتب مقعده من الجنّة و مقعده من النّار، قيل: يا رسول اللّه:

أفلا نتّكل؟ قال: لا، اعملوا و لا تتّكلوا، فكلّ ميسّر لما خلق له، ثمّ قرأ:

فَأَمَّا مَنْ أَعْطىٰ وَ اتَّقىٰ وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرىٰ وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنىٰ وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرىٰ [سورة اللّيل: ٥- ١٠].

و روى الصدوق عليه الرّحمة في التوحيد، باب ٥٨ (باب السعادة و الشّقاوة)، الحديث ٣، ص ٣٥٦، بإسناده عن محمّد بن أبي عمير، قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر (ع) عن معنى قول رسول اللّه (ص): اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق اللّه؟ فقال: إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق الجنّ و الإنس ليعبدوه و لم يخلقهم ليعصوه، و ذلك قوله عزّ و جلّ:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۴۴۶

و كذلك المعلّم الأوّل في قوله:

اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ [سورة العلق:

۳- ۵].

و قيل من لسانه مترجما عنه:

قلمي و لوحي في الوجود يمده قلم الأزليّة و لوحه المحفوظ

و يديّ لمن اللّه اللّه في ملكوته ما شئت اجرى و الرّسوم حظوظ

و قد تقرّر أيضا أنّ لهذا الموجود الأوّل ثلاثمائة و ستّون وجها إلى الحضرة الإلهيّة قد أفاض الحقّ تعالى من علمه على قدر ما أوجده عليه من الاستعداد للقبوليّة، و كان قبوله ستّة و أربعين ألف ألف نوع و ستمائة ألف نوع و ستّة ألف و خمسين ألف نوع.

- وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ [سورة الذاريات: ۵۶].

فيسرّ كلاّ لما خلق له، فالويل لمن استحبّ العمى على الهدى.

و روى أيضا الصدوق في التوحيد، باب ٦٠ (باب القضاء و القدر)، ص ٣٧٦، الحديث ٢٢، بإسناده عن أحمد بن عبد اللّه الجويباري، عن الرضا (ع)، عن أبيه، عن آبائه (ع)، عن عليّ (ع)، قال: قال رسول اللّه (ص):

إنّ اللّه عزّ و جلّ قدّر المقادير و دبّر التدابير قبل أن يخلق آدم بألفي عام.

و رواه أيضا في عيون أخبار الرضا (ع)، باب ١١، ص ١٤٠، الحديث ٣٩.

و أيضا في التوحيد، باب ٥٥ (باب المشيّة و الإرادة)، ص ٣٤٣، الحديث ١٣، بإسناده عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول اللّه (ص):

سبق العلم، و جفّ القلم، و مضى القدر بتحقيق الكتاب و تصديق الرّسل، و بالسّعادة من اللّه عزّ و جلّ لمن آمن و اتّقى، و بالشقاء لمن كذّب و كفر، و بولاية المؤمنين و براءته من المشركين، الحديث.

و روى الحديث أيضا علي بن ابراهيم القمّي في تفسيره في سورة فاطر، ذيل الآية:

وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا [الآية: ٤٥]، ص ٢١٠، ج ٢، عن أبيه، عن النوفليّ، عن السكونيّ، عن جعفر، عن أبيه، عن آبائه (ع)، عن رسول اللّه (ص) مثله.

راجع أيضا تعليقتنا الرقم ٩٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٤٧

و إذا عرفت هذه المقرّرات المتكرّرة مرارا من هذه المقدّمات.

فاعلم، أنّ الكلمات الصّادرة من مثل هذه الدّواة و هذه الأقلام لا يكون قابلة للانتهاء و الانقطاع أزل الآزال و أبد الآباد كما

أشرنا إليه أيضا مرارا متمسّكا بقوله تعالى:

وَ لَوْ أَنَّ مٰا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاٰمٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمٰاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [سورة لقمان: ٢٧].

ثمّ اعلم، أنّ نسبتها إلى البحور و عدم إنفادها بها لأجل التفهيم و التّنبيه، و إلاّ أين البحور من هذه الكلمات و أضعاف أضعاف البحور بمرار غير متناهية، لأنّ الّذي سبق من أنّ السّماوات السّبع و الأرضون السّبع ليس في الكرسي إلاّ كحلقة ملقاة بأرض فلاة، و فضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة، يكفى في هذا الباب.

و الّذي سبق من قوله تعالى:

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لاٰ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمٰا وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [سورة البقرة: ٢٥٥].

و كذلك الّذي سبق عن قول النّبي صلّى اللّه عليه و آله:

انّ للّه تعالى أرضا بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوما، هي مثل الدّنيا ثلاثين مرّة، مشحونة خلقا لا يعلمون أنّ اللّه خلق السّموات و الأرض، و لا يعلمون انّ اللّه خلق آدم و إبليس الحديث «٢٣٢».

لأنّ الكلّ إشارة إلى عدم نفاد هذه الكلمات، و إلى أنّ العوالم الحسّية الشهاديّة بالنّسبة إلى تلك العوالم العينيّة الروحانيّة كقطرة في جنب المحيط و بل أقلّ منه.

و الغرض من هذا كلّه في هذا المقام أن يتحقّق عندك و عند غيرك أنّ الكلمات

---

(٢٣٢) قوله: إنّ للّه تعالى أرضا بيضاء.

قد مرّت الإشارة إليه في الرقم ٦٢.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٤٨

المشار إليها في القرآن أنّها غير قابلة للإنفاد الكلمات الآفاقيّة لا القرآنيّة، لأنّ الكلمات القرآنيّة تنفد توقية من المداد و بل أقلّ منه، نعم إذا قلنا بمعنى كلمة القرآن لا بألفاظه يصدق عليه هذه الأوصاف كما قلناه مرارا، و أمّا إذا قلنا من حيث الصّورة فلا يصدق عليه أصلا.

(في بيان انّ الموجودات غير قابلة للانتهاء و أنّ الموجود يستحيل اعدامه)

و حيث تقرّر أنّ الكلمات الآفاقيّة الإلهيّة عبارة عن المركّبات الممكنة أو عن الموجودات الممكنة مطلقا، فذلك بالضّرورة لا يكون قابلا للانتهاء و الانقطاع، لأنّ الممكنات غير قابلة للانتهاء أصلا باتّفاق العقلاء و باتّفاق المحققين أيضا، فإنّها مظاهر اللّه و انقطاع المظاهر مطلقا مستحيل.

و وجه آخر و هو أنّها من معلومات اللّه تعالى صادرة من فيضانه و تجلّياته، و تجلّياته و فيضانه غير منقطع و لا مكرّر بالاتفاق لأنّهما من مقتضى ذاته، و المقتضيات الذاتيّة لا تنفكّ عن الذّات بوجه من الوجوه.

و الّذي وجد في الخارج معلوماته، إعدامه أيضا مستحيل، لأنّه صار واجبا بالغير مادام الغير باقيا، و هذا الغير موجودا باق أبدا، فيستحيل إعدام الشيء القائم به و الإعدام المتعارف بين النّاس و الهلاك و الفناء الوارد في القرآن و الخبر هو عبارة

عن تبديل صورة إلى صورة أخرى و إلاّ و الجواهر المسمّاة بالمادّة لا يعدم أصلا.
و أيضا قاعدة كلّيّة بين أرباب العلم: إن الموجودات المطلق لا يصير معدوما مطلقا، و لا المعدوم المطلق موجودا مطلقا. هذا من حيث الاستدلال و المعقول.
و أمّا من حيث الكشف و المشهود فباتّفاق أهل اللّه، مظاهر اللّه المسمّاة بالممكنات انتهائها انقطاعها غير ممكن، لأنّها كلماته، و كلماته غير قابلة لذلك، لقوله:
وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لاٰ مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة الأنعام: ١١٥].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٤٩

لأنّ كلماته المعبّرة بالممكنات مظاهر أسمائه، و أسماؤه مظاهر صفاته، و صفاته مظاهر ذاته، فكلّ واحدة منهما مربوطة بالأخرى، فالانفصال بينهما مستحيل ممتنع فضلا عن الإعدام و الإفناء، و يعرف هذا من قولهم:
حجب الذّات بالصّفات و الصّفات بالأفعال و الأفعال بالأكوان.
و في قولهم:
أحد بالذّات كلّ بالأسماء.
و فيه قيل:

فالكلّ بالكلّ مربوط و ليس له عنه انفصال خذوا ما قلته عنّي

«٢٣٣» و قد بيّنا عدم تناهي الكلمات في وجه مفرد في المقدّمة الأولى «٢٣٤»، فإنّ هذا المقام لا يحتمل أكثر من هذا و اللّه أعلم و أحكم.

---

(٢٣٣) قوله: فالكلّ بالكلّ.
القائل: هو محيي الدين ابن عربي في الفصوص، شرح الفصوص للقيصري، ص ٩٣.
(٢٣٤) قوله: و قد بيّنا.
قد مرّ في الجزء الأوّل، ص ٣٥١ (الوجه الثالث).

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٥٠

البحث الثّاني في تحقيق الكلمة الآفاقيّة

اعلم، أن الكلمة بالنسبة إلى القرآن عبارة عن هيئة جامعة مركّبة من الحروف البسيطة تدلّ على معنى أو معان على حسب تلك الكلمة.
و أمّا بالنسبة إلى الآفاق فهي عبارة عن هيئة جامعة مركبة عن بسائط العالم و مفرداته، تدلّ بذاتها على معرفة ربّها

ببعض الأسماء و الصّفات كالملائكة و الجنّ، و أمّا بجميع الأسماء و الصّفات كالإنسان.

أمّا الدليل على الأول أي ببعض الأسماء فقوله تعالى في الملائكة:

وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ [البقرة: ۳۰].

و أمّا الدليل على الثّاني أي بجميع الأسماء فقوله تعالى في حقّ الإنسان:

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها [البقرة: ۳۱].

(في انّ الإنسان على قسمين)

و الإنسان على قسمين:

قسم يكون جامعا لجميع الأسماء و الصّفات بالقوّة فهو كلّ إنسان مطلقا.

و قسم يكون جامعا لجميع ذلك بالفعل فهو كلّ إنسان كامل من الأنبياء و الرّسل و الأولياء و الأصفياء و العارفين باللّه على حسب طبقاتهم، و كلّ من يظهر منه هذه الأسماء و الصّفات بالفعل فهو يكون أعظم من غيره و لهذا فضّل اللّه تعالى بعض النبيّين على بعض بحسب ظهور هذه الأسماء فيهم كما قال:

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ [سورة البقرة: ۲۵۳].

و حيث كان نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مظهر الجميع بالفعل، فضّله اللّه تعالى

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۴۵۱

على جميع الأنبياء و الرّسل و جعله خاتما للكلّ بالفعل كما جعله سابقا على الكلّ بالقوّة لقوله:

كنت نبيّا و آدم بين الماء و الطّين «۲۳۵».

و لقوله:

أن أوّلهم خلقا و آخرهم بعثا «۲۳۶».

و هاهنا أبحاث و ما لها دخل في هذا المقام فلنرجع و نقول:

(في أنّ للكلمة اعتبارين: تامّة و هي الإنسان و غير تامّة و هي ساير الموجودات)

اعلم، أنّ الكلمة لها اعتباران:

الأوّل أنّها تامّة، و الثّاني أنّها غير تامّة، أمّا التّامة فهي الإنسان مطلقا ان ظهر معنى الكلمة منه بالفعل أو بقي فيه بالقوّة.

و أمّا الغير التّامّة فباقي الموجودات الّتي هي غير الإنسان و لهذا الكلمة التّامّة الطيّبة تحصل لها العروج و الصّعود إلى الحضرة الإلهيّة لقوله:

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ [سورة فاطر: ۱۰].

المراد بها الأرواح الكاملة و النّفوس الشريفة الطّاهرة من أرواح الأنبياء و الرّسل و نفوس الأولياء و الكمّل (الكمّلين)، و اليها إشارة بقوله:

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى‏ رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي [سورة الفجر: ۲۸- ۳۰].

(٢٣٥) قوله: كنت نبيّا.

قد مرّ في الرقم ١٨٣.

(٢٣٦) قوله: أنا أوّلهم خلقا.

راجع تعليقتنا الرقم ٧٣، الجزء الأوّل، ص ٣١٥.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٥٢

و الكلمة الغير التّامّة بالفعل، الخبيثة الناقصة لا يحصل له العروج و تبقى في البعد و الحجاب إلى ما شاء، لقوله تعالى في الصّورتين:

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهٰا ثٰابِتٌ وَ فَرْعُهٰا فِي السَّمٰاءِ تُؤْتِي أُكُلَهٰا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهٰا وَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [سورة إبراهيم: ٢٤- ٢٥].

وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مٰا لَهٰا مِنْ قَرٰارٍ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ فِي الْآخِرَةِ [سورة إبراهيم: ٢٦].

(في انّ الأنبياء كلمات تامّات و مقاماتهم حصلت لهم لا بالمجاهدة)

و الحقّ تعالى جلّ جلاله صرّح في كتابه العزيز باسم الكلمة على الأنبياء و الرّسل عليهم السّلام بالفعل لقوله بالنّسبة إلى عيسى عليه السّلام:

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ [سورة النساء: ١٧١].

و كقوله:

إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ [سورة آل عمران: ٤٥].

و عيسى عليه السّلام لو لم يكن كاملا بالفعل من أوّل الآخر (الأمر) ما قال في المهد:

إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتٰانِيَ الْكِتٰابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا [سورة مريم: ٣٠].

و كذلك يحيى عليه السّلام:

يٰا يَحْيىٰ خُذِ الْكِتٰابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنٰاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا [سورة مريم: ١٢].

و الغرض أن لا يتوهّم أحد أنّ ظهور الأنبياء و الرّسل متوقّف على العمل و المجاهدة و الرّياضة و طول المدّة، فإنّه ليس كذلك و إن كان بعض الأنبياء و بل أكثرهم ما حصل

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٥٣

لهم هذه المرتبة إلّا بعد المدّة فإنّ كمالهم و مرتبتهم كما سبق ذكرها ليس إلّا عطاء محضا و إنعاما خاصّا، لقوله تعالى:

هٰذٰا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ [سورة ص: ٣٩].

و لقوله:

وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كٰانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً [سورة النساء: ١١٣].

و قد ورد عن أهل البيت عليهم السّلام «٢٣٧»:

إنّ الكلمات، الّتي كانت سبب توبة آدم عليه السّلام لقوله تعالى:

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [سورة البقرة: ٣٧].

(٢٣٧) قوله: و قد ورد عن أهل البيت إلخ.

راجع تعليقتنا الرقم ١١٦، في الجزء الأوّل، ص ٤٤١، و إضافة على ما قلنا فيها:

روى ابن شعبة الحرّاني في تحف العقول، ص ٤٧٦، عن موسى بن محمّد بن الرضا (ع)، عن أخيه الإمام عليّ بن محمّد (ع)، في حديث طويل فيه بيان و تفسير لبعض الآيات القرآنية في جواب أسئلة يحيى بن أكثم، قال:

نحن كلمات اللّه التي لا تنفد و لا تدرك فضائلنا و لا تستقصى، الحديث، فراجع.

روى مثله ابن شهر آشوب في المناقب ج ٤، ص ٤٠٠، و رواه أيضا الطبرسي في الإحتجاج ج ٢، ص ٢٥٩.

و روى المجلسي في البحار ج ٢٥، ص ٥ (من كتاب المحتضر للحسن بن سليمان)، و هو روى من كتاب منهج التحقيق، و هو روى بإسناده و فيه (رفع) عن الإمام أبي جعفر الباقر (ع) في حديث:

نحن الأسماء الحسنى التي لا يقبل اللّه من العباد عملا إلاّ بمعرفتنا، و نحن و اللّه الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، الحديث.

و روى الكليني في الكافي، كتاب التوحيد، باب النوادر، ص ١٤٣، الحديث ٤، بإسناده عن الصادق (ع) في قول اللّه تعالى:

وَ لِلَّهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا [سورة الأعراف: ١٨٠].

قال: نحن و اللّه الأسماء الحسني التي لا يقبل اللّه من العباد عملا إلاّ بمعرفتنا. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ۴۵۴

كانت أسماء الأنبياء و الرّسل و الأولياء و الأوصياء من ذرّيته و نسله الّذين صاروا كلماتا إلهيّة بالفعل بعد أن كانوا بالقوّة. و قيل: إنّها كانت أسماء أهل البيت من ذرّية النبيّ عليه السّلام الّذين هم أيضا كلمات اللّه التّامّات، لأنّهم رؤساء الأولياء و أقطاب الأصفياء.

و كذلك كلمات إبراهيم عليه السّلام في قوله:

وَ إِذِ ابْتَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمٰاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ... [سورة البقرة: ١٢٤].

فإنّها أيضا إشارة إلى أسماء الأنبياء السابقين من أجداده، و إلى أسماء المتأخرين من ذرّياته خصوصا نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله الطّاهرين، و يعضد هذا المجموع القول الجامع من قول نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله:

أوتيت جوامع (الكلم) «٢٣٨».

و: بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق «٢٣٩».

لأنّه إشارة إلى وجودات الأنبياء و مقاماتهم، لأنّ فيه وجوه ثلاثة:

الأوّل، أنّه أراد بالكلم وجود الأنبياء و الرّسل على ما هم عليه من الكمالات، و الجامعيّة لهم أنّهم كانوا مظاهر كمالاته التّفضيليّة من النبوّة التشريعيّة و رسالتها، و ذاته كانت جامعة لجميع ذلك بالأصالة من الأزل لقوله:

كنت نبيّا و آدم بين الماء و الطين «۲٤۰».

و الثّاني انّه أراد بالكلم مقامهم و مراتبهم و علومهم و حقائقهم، و بجامعيّته لذلك

---

(۲۳۸) قوله: أوتيت جوامع الكلم.

راجع تعليقتنا الرقم ۲۱، و أيضا في الجزء الأوّل، الرقم ۲، ص ۱۹٦.

(۲۳۹) قوله: بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق.

راجع تعليقتنا في الجزء الأوّل، الرقم ۳، ص ۱۹٦.

(۲٤۰) قوله: كنت نبيّا.

راجع تعليقتنا الرقم ۲۳٥.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ٤٥٥

لجامعيّة شرعه الشرائع و الأديان كلّها.

و الثالث انّه أراد بالكلم الكلمات الآفاقيّة الّتي تكون هي متضمّنة لجميع هذه الكلمات، لأنّ الأنبياء و الرّسل و الأولياء كلمات إلهيّة ثابتة في الكتاب الآفاقي ككلمات آخر، غاية ما في الباب هم كلمات تامّات، و غيرهم ليس مثلهم.

و وجه آخر غير الوجوه الثلاثة، أنّه أراد بالكلم الكلمات الآفاقيّة و بجامعيّته لها الجامعيّة على طريق التوحيد بأن يجعلها كلمة واحدة، و وجودا واحدا قائلا بلسان الحال: ليس في الوجود سوى اللّه «۲٤۱»، لأنّا إذا بيّنّا أنّ جميع العالم بمثابة الكتاب، و الّذي فيه بمثابة الحروف و الكلمات و الآيات، و أنّ على كل واحدة منها يصدق لهذا الإسم، فالعالم كلّه بالحقيقة ليس إلاّ كلمات اللّه فكلّ من يجمع هذه الكلمات و يجعلها كلمة واحدة، أو هذه الوجودات الممكنة و يجعلها وجودا واحدا فهو الّذطي يصحّ أن يقول:

أوتيت جوامع الكلم، و بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق، لأنّ إتمام مكارم الأخلاق ليس إلا بهذا.

و قول الشيخ الأعظم قدّس اللّه سرّه:

الحمد للّه منزّل الحكم على قلوب الكلم «۲٤۲».

يعضد ذلك أيضا، فإنّه إشارة إلى وجودات الأنبياء و أنّهم كلمة اللّه العليا، لأنّ الكلم جمع كلمة، و قد سمّى اللّه تعالى بعض أنبيائه بالكلمة و كلّ ما يصدق على واحد منهم من هذا المعنى يصدق على الكلّ لقوله:

لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ [النساء: ٤].

و في أكثر المواضع كلّ ما يصدق على الكلّ يصدق على البعض و بالعكس كالحيوانيّة فإنّها يصدق على كلّ الحيوان و على بعضه و كالقرآن فإنّه يصدق على الكلّ

---

(۲٤۱) قوله: ليس في الوجود سوى اللّه.

هذا الكلام منسوب لجنيد، راجع مرصاد العباد، ص ١٦٨.

(٢٤٢) قوله: الحمد للّه منزّل الحكم.

قاله الشيخ الأكبر في أوّل كتابه فصوص الحكم، ص ٤٧ (شرح القيصري).

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٥٦

و على بعضه. و قد صرّح الشيخ في فصّ كلّ واحد منهم في فصوصه بفصّ مخصوص به كقوله: فصّ حكمة إلهيّة في كلمة آدميّة، فصّ حكمة سبّوحيّة في كلمة نوحيّة، فصّ حكمة خليلية في كلمة إبراهيميّة، فصّ حكمة فرديّة في كلمة محمّديّة، و ذلك لم يكن إلاّ لهذا، و أكثر الشرّاح ما فسّروه إلاّ بهذا، و سيّما المولى المحقق كمال الدّين عبد الرّزاق قدّس سرّه، فإنّه قال في هذا المقام «٢٤٣»:

«و الكلم مستعارة لذوات الأنبياء و الرّسل و الأرواح المجرّدة (عن) في عالم الجبروت المسمّاة (المسمّى) باصطلاح الإشراقيّين: الأنوار القاهرة، إمّا لأنّهم وسائط بين الحقّ و الخلق تصل بتوسّطها (بتوسّطهم) المعاني الّتي في ذاته تعالى إليهم، كالكلمات المتوسطة بين المتكلّم و السّامع لإفادة المعنى الّذي في نفس المكلّم للسامع، أو لتجرّدها عن الموادّ و تعيّنها بالإبداع و تقدّسها عن الزّمان المكان الموجودة بكلمة «كن» في عالم الأمر إطلاقا لاسم السبب على المسبّب و الدّليل على الاستعمال بالمعنى المذكور قوله تعالى:

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ [سورة النساء: ١٧١].

و بالجملة كما يصدق على جميع القرآن إنّه كلمات اللّه و يصدق على بعضه ك«بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» أو غيرها ك «اللّه» و «الرّحمن» و «الرّحيم» على الانفراد، فكذلك يصدق على جميع العالم انه كتاب اللّه و كلمته، و يصدق على بعضه الّذي هو الإنسان من الأنبياء و الرّسل و أمثالهم كقوله بعضهم:

أنا القرآن الناطق، أنا البرهان الصادق، أنا كهيعص، أنا طه، أنا يس (٢٤٤).

---

(٢٤٣) قوله: سيّما المولى المحقّق كمال الدين راجع شرحه على فصوص الحكم ص ٥.

(٢٤٤) قوله: أنا القرآن الناطق.

راجع في أمثال هذا الحديث تعليقتنا الرقم ١٩ و ٢٠ و ١٠٨ و ١١٥ و ١١٦ في الجزء الأوّل، ص ٢١٤.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٥٧

و كقول بعضهم:

أنا القرآن و السّبع المثاني و روح الرّوح لا روح الأواني

«٢٤٥» و كما أنّ بسم اللّه الرّحمن الرّحيم هي مظهر الإسم الأعظم و يصدق عليها أنّها و كلمة اللّه العليا، فكذلك الإنسان

فإنّه أيضا مظهر الإسم الأعظم و يصدق عليه أنّه مظهر كلمة اللّه العليا، لأنّ الإنسان في الآفاق كما قلناه مرارا بمثابة بسم الرّحمن الرّحيم في القرآن، و ذلك لجامعيّته و مجموعيّته الأسماء و الصفات كلّها كما قال:
خلق اللّه تعالى آدم على صورته (٢٤٦).

- و روى البرسي في خطبة أمير المؤمنين (ع) ص ١٦٤، قال:
«أنا كلمة اللّه الناطق في خلقه».
(٢٤٥) قوله: أنا القرآن و السّبع المثاني (شعر).
قائله ابن عربي، قاله في الفتوحات المكيّة ج ١، ص ٩ و ج ١، ص ٧٠ ط ج، و قاله أيضا في كتاب «الإسراء» ص ٤، و هذا طبع في مجموعة رسائل ابن عربي، فراجع.
و أمّا الأبيات كما يلي:

أنا القرآن و السّبع المثاني — و روح الرّوح لا روح المعاني

فؤادي عند معلومي مقيم — يشاهده (أشاهده) و عندكم لساني

فلا تنظر بطرفك نحو جسمي — و عدّ عن التنعّم بالمغاني

و غص في بحر ذات الذات تبصر — عجائب ما تبدّت للعيان

و أسرارا تراءت مبهمات مستّرة بأرواح المعاني.

انتهى ما في الفتوحات، و في كتاب الأسرار توجد هذه الأبيات الثلاثة إضافة إلى تلك الأبيات:

فمن فهم الإشار فليصنها و إلاّ سوف يقتل بالسنان

لحلاّج المحبّة إذ تبدّت له شمس الحقيقة بالتداني

فقال: أنا هو الحقّ الّذي لا يغيّر ذاته مرّ الزمان.

(٢٤٦) قوله: خلق اللّه تعالى آدم على صورته.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ۴۵۸

و قال:

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمٰاءَ كُلَّهٰا [سورة البقرة: ٣١].

و قد عرفت قبل هذا تعظيم بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و شرفها و فضيلتها بإزاء هذه الفضيلة حيث وقعت مظهر هذا الإنسان الكامل بالفعل، هذا على أن يجعل الكلم بمعنى ذوات الأنبياء عليهم السّلام.

فأمّا إذا جعلنا المراد بها علومهم و مقاماتهم و شرايعهم و كتبهم المنزلة، فهناك أبحاث آخر و يجب الشروع فيها و هي هذه:

- قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا الرقم ٢١، فراجع.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ۴۵۹

البحث الثّالث في تحقيق الكلمة بوجه آخر

اعلم، أنّ قوله:

أوتيت جوامع الكلم.

كما يجوز أن يحمل على ذوات الأنبياء و الرّسل و أمثالهم يجوزان يحمل على كتبهم و شرايعهم و مقاماتهم و مراتبهم، و بناء على هذا يكون تقديره: أنّه يقول: أنا جامع جميع الشّرائع و الأديان و كتابي جامع جميع الكتب الإلهيّة متقدّمها و متأخّرها، و بيان ذلك:

و هو انّ المسلمين بأجمعهم اتفقوا على أنّه أشرف الأنبياء و الرّسل و انّه جامع لجميع كمالاتهم الصّوريّة و المعنويّة، و دينه و شرعه جامع لجميع شرايعهم و أديانهم، و ورد عنه ما يعضد ذلك كلّه و هو قوله:

«آدم و من دونه تحت لوائي» (۲٤٧).

---

(۲٤٧) قوله: آدم و من دونه تحت لوائي.

روى الصدوق في (أماليه) المجلس ٤٧، الحديث ۹، ص ۲۳۰، بإسناده عن الإمام الصادق، عن أبيه، عن آبائه (ع) (في حديث) قال: قال رسول اللّه (ص): إنّ عليّ بن أبي طالب (ع) صاحب لوائي في الآخرة كما كان صاحب لوائي في الدّنيا، و إنّه أوّل من يدخل الجنّة لأنّه يقدمني و بيده لوائي تحته آدم و من دونه من الأنبياء.

و روى القمّي في تفسيره في سورة المائدة في الآية ۷۱:

وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا [الآية: ۷۱].

بإسناده عن ابن مسعود، قال: قال رسول اللّه (ص):

«يا ابن مسعود إنّه إذا كان يوم القيامة رفعت لهذه الامّة أعلام، فأوّل الأعلام لوائي الأعظم مع عليّ بن أبي طالب و الناس أجمعين تحت لوائه (لوائي)». عنه البحار ج ۳۷، ص ۳٤٥، الحديث ۲.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ٤٦٠

- و روى الصدوق (ره) في (علل الشرائع) باب ۱۳۷، الحديث ۱۷۳، ج ۱، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع)، قال: قال رسول اللّه (ص): أنت أوّل من يدخل الجنّة، فقلت يا رسول اللّه أدخلها قبلك؟ قال: نعم، أنّك صاحب لوائي في الآخرة، كما أنّك صاحب لوائي في الدّنيا، و حامل اللّواء هو المتقدّم، ثمّ قال (ص): يا عليّ كأنّي بك و قد دخلت الجنّة و بيدك لوائي و هو لواء الحمد و تحته آدم و من دونه.

و روي في التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمّد الحسن العسكريّ (ع) في سورة البقرة في الآية ۹۲، ص ٤۰۸، الحديث ۲۷۸، قال رسول اللّه (ص):

يا (عليّ) أخي يا أبا الحسن ضغائن في صدور قوم يبدونها لك بعدي، قال عليّ (ع):

يا رسول اللّه في سلامة من ديني؟ قال: في سلامة من دينك، قال: يا رسول اللّه، إذا سلم ديني فلا يسوءني ذلك، فقال رسول اللّه (ص): لذلك جعلك اللّه لمحمّد تاليا، إلى رضوانه و غفرانه داعيا، و عن أولاد الرّشد و الغيّ بحبّهم لك و بغضهم (عليك مميّزا) منبئا، و للواء محمّد يوم

القيامة حاملا، و للأنبياء و الرّسل و الصّابرين تحت لوائي إلى جنّات النعيم قائدا، الحديث.

روى المجلسي عن ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، نقلا عن أحمد بن حنبل، عن النبيّ (ص)، قال:

«أنا أوّل من يدعى به يوم القيامة، فأقوم عن يمين العرش و في ظلّه، ثمّ أكسى حلّة، ثمّ يدعى بالنبيّين بعضهم على أثر بعض، فيقومون عن يمين العرش و يسكون حللا، ثمّ يدعى بعليّ بن أبي طالب لقرابته منّي و منزلته عندي، و يدفع إليه لوائي لواء الحمد، آدم و من دونه تحت ذلك اللّواء» الحديث. بحار الأنوار ج ٤٠، ص ٨١ و شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٩، ص ١٦٩.

قال ابن أبي الحديد في شرح الخطبة ١٥٤، ج ٩، ص ١٦٦:

(ذكر الأحاديث و الأخبار الواردة في فضائل علي) و اعلم أنّ أمير المؤمنين (ع) لو فخر بنفسه، و بالغ في تعديد مناقبه و فضائله بفصاحته التي آتاه اللّه إيّاها و اختصّه بها، و ساعده على ذلك فصحاء العرب كافّة، لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات اللّه عليه في أمره، إلى أن قال: و أنا أذكر من ذلك شيئا يسيرا ممّا رواه علماء الحديث الذين لا يتّهمون فيه، و جلّهم قائلون بتفضيل غيره-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٦١

(مرتبة كلّ نبيّ، مرتبة من مراتب النبيّ الخاتم (ص))

و معناه آدم و من دونه من الأنبياء دون مقامي و مراتبي في الحقائق الإلهيّة و المعارف الربّانيّة.

و ورد:

«أنا سيّد ولد آدم و لا فخر» «٢٤٨».

السيادة لا تكون إلّا بالفضيلة، و قد نطق القرآن الكريم بذلك في مواضع:

منها قوله تعالى:

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‌ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [سورة التوبة: ٣٣].

- عليه، فروايتهم فضائله توجب سكون النفس ما لا يوجبه رواية غيرهم ... إلى أن قال:

الخبر الثامن: رواه أبو عبد اللّه أحمد بن حنبل في الكتابين المذكورين «كتاب فضائل عليّ (ع)، و في المسند» أنا أوّل من يدعى، الحديث.

[.....]

(٢٤٨) قوله: أنا سيّد ولد آدم.

أخرج الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب المناقب، باب ١، الحديث ٣٦١٥، ص ٥٨٧، بإسناده عن رسول اللّه (ص)، قال:

أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، و بيدي لواء الحمد و لا فخر، و ما من نبيّ يومئذ آدم فمن سواه إلّا تحت لوائي، الحديث.

و قريب منه في مسند أحمد بن حنبل ج ١، ص ١٨١ و ص ٢٩٥، و أيضا أخرجه الغزالي في إحياء علوم الدّين ج ٣، ص ١٦١ و ج ٤، ص ٥٢٦.

و رواه أيضا في الصدوق في حديث، و أماليه، بإسناده عن النبيّ (ص)، المجلس ٣٥، ص ١٥٧، و الطوسي أيضا في أماليه ص ٢٧٧.

و روى الصدوق في أماليه، المجلس ٧٢، ص ٣٨٤، الحديث ١٦، بإسناده عن الأصبغ ابن نباتة، عن أمير المؤمنين (ع)، قال: سمعت رسول اللّه (ص) يقول: أنا سيّد ولد آدم، و أنت يا عليّ و الأئمّة من بعدك سادة أمّتي، الحديث.

أقول: الحديثان المذكوران مشهوران نقلهما العامّة و الخاصّة في الكتب المختلفة، و لا يحتاج أكثر من هذا في ذكر تلك الكتب، فراجع.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ۴۶۲

و ترجيح أمّته على جميع الأمم أيضا دال على ذلك في قوله:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [سورة آل عمران: ١١٠].

و قوله:

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً [سورة البقرة: ١٤٣].

و معلوم أنّ الوسط في المقامات و المراتب أعدل المقامات و أعظم المراتب كما تقرّر في الأخلاق، و طرفها من الإفراط و التفريط، و الوسط عند التحقيق باتّفاق أهل اللّه هو الصّراط المستقيم الحقيقيّ الموصوف بأحدّ من السّيف و أدقّ من الشّعر و لهذا إذا أنزل:

فَاسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ [سورة هود: ١١٢].

و عرف أنّ الاستقامة على الطّريق المستقيم في غاية الصّعوبة قال:

«شيّبتني سورة هود» (٢٤٩).

---

(٢٤٩) قوله: شيّبتني سورة هود.

روى الصدوق في (الخصال) باب الأربعة، الحديث ١٠، ص ١٩٩، بإسناده عن ابن عبّاس، قال: قال أبو بكر: يا رسول اللّه أسرع إليك الشيب؟ قال: «شيّبتني هود، و الواقعة، و المرسلات، و عمّ يتساءلون».

و مثله في أماليه، المجلس ٤١، الحديث ٤، ص ١٩٤.

و قريب منه أحاديث في تفسير الدرّ المنثور في سورة هود ج ٤، ص ٣٩٦، إلاّ أنّ في بعضها: «شيّبتني هود و أخواتها من المفصل»، و في بعضها إضافة على تلك السور: ذكر:

«الحاقّة»، و «إذا الشّمس كوّرت»، و «سأل سائل»، و «اقتربت السّاعة».

و في بعضها: قال: «شيّبتني هود و أخواتها و ما فعل بالأمم قبلي».

و في بعضها: قال: «شيّبتني هود و أخواتها، و ذكر يوم القيامة، و قصص الأمم».

و في حديث فيه: و أخرج البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي علي السري رضي اللّه عنه قال: رأيت النبيّ (ص) فقلت: يا رسول اللّه روي عنك أنّك قلت: شيّبتني هود، قال: نعم،-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ۴۶۳

و قد بسطنا الكلام في الصّراط في المقدّمات، و سيجيء في الفاتحة إنشاء اللّه.

(في تفسير قول نبيّنا (ص): بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق)

و قوله عقيب الخبر:

«و بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق» «٢٥٠».

يشهد بذلك لأنّه يشير إلى أنّ جميع الأنبياء و الرّسل كانوا مبعوثين لتكميل الأخلاق و تأسيسها لكن إتمام ذلك لم يكن إلّا بوجودي و ظهوري في عالم الشهادة لتكميل النوع البشري و غيرهم أيضا، و مثال ذلك مثال أطبّاء كثيرة يتوجّهون إلى مريض يريدون صحّته، فبعضهم قام بالمنضجات و بعضهم المسهلات، لقوله تعالى:

وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً [سورة الإسراء: ٨٢].

يعني كلّ من آمن و صدق به يكون موجبا لشفائه و كلّ من أنكر و كذّب به يكون موجب لمرضه و خسارته في الدّنيا و الآخرة لقوله تعالى:

خَسِرَ الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرٰانُ الْمُبِينُ [سورة الحج: ١١].

و هذا معلوم في حوزة الطبيب الصّوري لأنّ كلّ من قبل كلامه و صدّق و فعل ما أمره حصل له الصّحّة و خلص من المرض و طاب و قام، و كلّ ما قبل كلامه و أنكر

- فقلت: ما الّذي شيّبك منه قصص الأنبياء و هلاك الأمم؟ قال: لا، و لكن قوله:

«فاستقم كما أمرت».

و روى الطبرسي في تفسيره مجمع البيان في سورة هود في الآية المذكورة ج ٥، ص ٣٠٤، عن ابن عبّاس قال: ما نزل على رسول اللّه (ص) آية كانت أشدّ عليه و لا أشقّ من هذه الآية، و لذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشّيب يا رسول اللّه: شيّبتني هود و الواقعة.

(٢٥٠) قوله بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق.

قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا الرقم ٢٣٩، و في الجزء الأوّل الرقم ٣، ص ١٩٦، فراجع.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ۴۶۴

عليه و ترك قوله و فعله، زاد مرضه و أدّى إلى هلاكه و موته لقوله تعالى:

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضاً [سورة البقرة: ١٠].

و قوله أيضا:

و بعضهم بحفظ القوى لئلاّ يخرج من حدّ الاعتدال، و بعضهم بترتيب الأغذية الصالحة الموجبة حتّى حضر الطّبيب الأعظم و الأستاذ الأكمل و قام بتحصيل الصّحّة الكلّيّة و إزالة المرض مطلقا و ردّ المريض إلى ما كان عليه من الصّحّة و الاعتدال و إليه الإشارة بقوله:

مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ اللّٰهِ وَ خٰاتَمَ النَّبِيِّينَ [سورة الأحزاب: ٤٠].

و غير خاف على أحد من العقلاء على أنّ الأنبياء و الرّسل عليهم السّلام هم أطبّاء النّفوس و معالجي أمراض الخلق الّتي هي الجهل و الكفر و النّفاق، فكلّ نبيّ من الأنبياء كان بمثابة طبيب واحد من الأطبّاء، و كان نبيّنا (ص) بمثابة الطّبيب الأعظم الّذي قام بتحصيل الصحّة الكلّيّة الّتي الهداية و الإرشاد إلى الدّين القويم و الصّراط المستقيم المعبّر عنه بتهذيب

الأخلاق الحميدة و تكميل الأوصاف المرضيّة، و لهذا وصف القرآن بأنّه شفاء من الأمراض الحقيقيّة و سبب لحصول الصحّة الكلّيّة.

قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ [سورة فصّلت: ٤٤].

و هذا هو علّة ختميّته و قيام السّاعة بوجوده لقوله تعالى:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً [سورة المائدة: ٣].

لأنّ الأمر إذا تمّ أيّ أمر كان، لا بدّ له من الرّجوع إلى ما كان منه و لهذا قال:

منه بدا و إليه يعود (٢٥١).

---

(٢٥١) قوله: منه بدا و إليه يعود.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۶۵

و قال النبيّ عليه السّلام.

انّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه فيه السّماوات و الأرض (٢٥٢).

- قال تعالى: **كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ [سورة الأنبياء: ١٠٤].**

و قال تعالى: **إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [سورة يونس: ٤].**

و قال تعالى: **اللّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [سورة الرّوم: ١١].**

و قال تعالى: **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ [سورة البروج: ١٣].**

و روى الصدوق في «علل الشرائع» باب ٢٤٠ (العلّة التي من أجلها قد يرتكب المؤمن المحارم و يعمل الكافر الحسنات)، حديثا طويلا، بإسناده عن الإمام الباقر (ع)، و فيه جملتان كأنّهما قاعدتان، و هما الجملتان التاليتان:

«و عاد كلّ شيء إلى عنصره الأوّل الّذي منه ابتدأ».

و:

«كلّ شيء يعود إلى جوهره الّذي منه بدأ». علل الشرائع، ص ٤٩١.

(٢٥٢) قوله: إنّ الزّمان قد استدار الخ.

روى الصدوق في «الخصال» باب الشهور إثنا عشر شهرا، ج ٢، ص ٤٨٦، الحديث ٦٣، بإسناده عن عبد اللّه بن عمر، قال: نزلت هذه السورة: **إِذا جاءَ نَصْرُ اللّهِ وَ الْفَتْحُ على رسول اللّه (ص)، في أوسط أيّام التشريق، فعرف أنّه الوداع، فركب راحلته العضباء، فحمد اللّه و أثنى عليه، ثمّ قال:**

«أيّها النّاس كلّ دم كان في الجاهليّة فهو هدر» إلى أن قال: «أيّها النّاس إنّ الزّمان قد استدار، فهو اليوم كهيئة يوم خلق السماوات و الأرض، و إنّ عدّة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهرا في كتاب اللّه، يوم خلق اللّه السماوات و الأرض، منها أربعة حرم، رجب مضر الذي بين جمادى و شعبان، و ذو القعدة، و ذو الحجّة و المحرّم، فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم، فإنّ النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما و يحرّمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرّم اللّه و كانوا يحرّمون المحرّم عاما، و يستحلّون صفر، و يحرّمون صفر عاما و يستحلّون المحرّم، الحديث.

و في «تحف العقول» باب: خطبته (ص) في حجّة الوداع، ص ۳۰:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۶۶

و قال: أنا و السّاعة كهاتين (۲۵۳).

- «الحمد للّه نحمده و نستعينه، و نستغفره و نتوب إليه، و نعوذ باللّه من شرّ أنفسنا و (من) سيّئات أعمالنا، من يهد اللّه فلا مضلّ له و من يضلل فلا هادي له ...» إلى أن قال (ص):

«أيّها النّاس: إنّ الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه و لكنّه قد رضى بأن يطاع فيما سوى ذلك، فما تحتقرون من أعمالكم. أيّها النّاس إنّما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الّذين كفروا يحلّونه عاما و يحرّمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرّم اللّه، و إنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات و الأرض، و **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّٰهِ اثْنٰا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتٰابِ اللّٰهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ مِنْهٰا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** [سورة التوبة: ۳۶]، **ثلاثة متوالية، و واحد فرد:**

ذو القعدة، و ذو الحجّة، و المحرّم، و رجب بين جمادى و شعبان، ألا هل بلّغت؟ اللّهمّ اشهد.

الخطبة، فراجع.

و قال الطبرسي في تفسيره «مجمع البيان» في سورة التوبة في تفسير الآية ۳۷:

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيٰادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عٰاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عٰاماً لِيُوٰاطِؤُا عِدَّةَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ فَيُحِلُّوا مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمٰالِهِمْ وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ [سورة التوبة: ۳۷]:

«لمّا قدّم سبحانه ذكر السنة و الشهر عقّبه بذكر ما كانوا يفعلونه من النسيء فقال **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيٰادَةٌ فِي الْكُفْرِ، يعني تأخير الأشهر الحرم عمّا رتّبها اللّه سبحانه عليه، و كانت العرب تحرّم الشهور الأربعة، و ذلك ممّا تمسّكت به من ملّة إبراهيم و إسماعيل، و هم كانوا أصحاب غارات و حروب، فربّما كان يشقّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها، فكانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر فيحرّمونه و يستحلون المحرّم و لا يفعلون ذلك إلاّ في ذي الحجّة». إلى أن قال:**

و قال مجاهد: كان المشركون يحجّون في كل شهر عامين، فحجّوا في ذي الحجّة عامين، ثمّ حجّوا في المحرّم عامين، ثمّ حجّوا في صفر عامين.

(۲۵۳) قوله: أنا و السّاعة كهاتين.

روى المفيد في (أماليه) المجلس ۲۳، الحديث ۱۴، ص ۲۰۷، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، قال:

صعد رسول اللّه (ص) المنبر فتغيّرت و جنتاه و التمع لونه، ثمّ أقبل (على الناس) بوجهه فقال: «يا معشر المسلمين إنّي إنّما بعثت أنا و السّاعة

كهاتين، قال: ثمّ ضمّ السبّاحتين، ثمّ-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٦٧

لأنّ الغرض الكلّي و المقصود الجملي من وجود الأنبياء و الرّسل الّذين هم أطبّاء النّفوس، في تكميل الخلق و لهدايتهم بالأخلاق قد حصل و تمّ بوجوده، فلم يبق هناك غرض حتّى يكون في بقاء الطبيب فائدة، لأنّ كلّ حركة لا يكون على غرض تكون تلك الحركة من الحكيم الكامل عبثا و العبث على اللّه تعالى محال فيجب حينئذ قيام السّاعية بفقدان وجود الكامل لئلاّ يلزم منه الفساد المذكور.

- قال: يا معشر المسلمين إنّ أفضل الهدي هدي محمّد، و خير الحديث كتاب اللّه، و شرّ الأمور محادثاتها»، الحديث.

و قريب منه في أمالي الطوسي ج ١٢، ص ٣٤٧، بإسناده عن جابر بن عبد اللّه، عن النبيّ (ص).

و راجع أيضا سنن ابن ماجة (المقدّمة)، باب اجتناب البدع و الجدل، الحديث ٤٥، ج ١، ص ١٧، و ج ٢، باب ٢٥ (باب اشتراط السّاعة من كتاب الفتن)، الحديث ٤٠٤٠، ص ١٣٤١.

و أخرجه مسلم أيضا في صحيحه ج ٤، كتاب الفتن، باب ٢٧ (باب قرب السّاعة)، الحديث ١٣٤ و ١٣٦، ص ٢٢٦٩، و أيضا ج ٢، كتاب الجمعة، باب ١٣ (باب تخفيف الصلاة و الخطبة)، الحديث ٤٣، ص ٥٩٢، و أخرجه الترمذي في (الجامع الصحيح) ج ٤، كتاب الفتن، باب ٣٩، الحديث ٢٢١٣، ص ٤٩٦.

و أيضا رواه ابن الأثير في جامع الأصول ج ٥، ص ٦٧٩، الفصل ٥ (في الخطبة و ما يتعلّق بها)، الحديث ٣٩٧٤، و في مجمع الزوائد ج ١٠، كتاب الزهد، باب قرب السّاعة، الحديث ١٨٢٢٤ إلى ١٨٢٢٩.

و كذلك في الشهور، حتّى وافقت الحجّة التي قبل حجّة الوداع في ذي القعدة، ثمّ حجّ النبيّ (ص) في العام القابل حجّة الوداع، فوافقت في ذي الحجّة فذلك حين قال النبيّ (ص) و ذكر في خطبته: ألا و إنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السماوات و الأرض، اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة و ذو الحجّة و المحرّم، و رجب مضر الذي بين جمادى و شعبان، أراد (ع) أنّ الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها و عاد الحجّ إلى ذي الحجّة و بطل النسيء.

راجع أيضا في بعض المصادر الأخرى للحديث تعليقتنا الرقم ١٦٤، الجزء الأوّل، ص ٥٣٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٦٨

إذا تمّ أمر دنى نقصه ... يوقع زوالا إذا قيل تم

و سيجيء هذا البحث أكثر من ذلك عند بيان الشّريعة و الطّريقة و الحقيقة، و الغرض هاهنا أنّه كان جامعا لجميع الكمالات و الشرائع و المراتب و المقامات الّتي كانت لجميع الأنبياء و الرّسل المعبّرة عنها تارة بالكتب و الصّحف و الكلمات و الآيات، و تارة بالأخلاق و العلوم و المعارف الّتي هي أيضا من كلمات اللّه المعنويّة، و إلى هذا أشار جلّ ذكره في قوله:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [سورة الشورى: ١٣].

و إذا حصل الغرض و ثبت بهذين الوجهين المشتملين على وجوه كثيرة أنّ المراد بالكلمات ذوات الأنبياء و شرايعهم و مقاماتهم و أنّه صلّى اللّه عليه و آله جامع لجميع ذلك، فلنشرع في تمام الحديث و بحث الأخلاق بقوله:

«و بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق» «٢٥٤».

و الّذي نزل من اللّه تعالى في حقّه:

وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ [سورة القلم: ٤].

و ورد في الخبر:

انّ خلقه القرآن «٢٥٥».

و ورد:

---

(٢٥٤) قوله: و بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق.

راجع تعليقتنا الرقم ٢٥٠.

(٢٥٥) قوله: انّ خلقه القرآن.

أخرجه ابن حنبل، بإسناده عن عائشة حينما سئلت عن خلق رسول اللّه (ص)، قالت:

فانّ خلق رسول اللّه (ص) كان القرآن. مسند ابن حنبل ج ٦، ص ٥٤، و في ص ٩١ قالت:

كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول اللّه عزّ و جلّ: **إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ.**

و قريب منه في سنن ابن ماجة، كتاب الأحكام، باب ١٤، الحديث ٢٣٣٤، ج ٢.

تخلّقوا بأخلاق اللّه «٢٥٦».

و أمثال ذلك و باللّه التوفيق.

---

(٢٥٦) قوله: تخلّقوا بأخلاق اللّه.

رواه شيخ الإشراق السهروردي في كتابه (عوارف المعارف)، راجع كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي ج ٥، ص ٢٤١.

و رواه المجلسي أيضا في بحار الأنوار ج ٦١، ص ١٢٩.

و روى الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) ج ٤، كتاب الصبر و الشكر، باب بيان فضيلة الصّبر، ص ٦١، و قال: قيل:

أوحى اللّه تعالى إلى داود (ع): تخلق بأخلاقي و أنّ من أخلاقي أنّي أنا الصّبور.

و عنه الكاشاني في (المحجّة البيضاء) ج ٧، ص ١٠٧.

و روى مثله أيضا الديلمي في إرشاد القلوب، الباب ٣٨ (في الصّبر)، ص ١٢٧، و روى أيضا مثله الشهيد الثاني في مسكن الفؤاد، الباب ٢ (في الصّبر)، ص ٤٧، و عنه أيضا الشيخ الحر العاملي في (الجواهر السنيّة)، الباب ٨ (فيما ورد في شأن داود (ع)) مثله، إلاّ أنّ فيهما:

تخلّق بأخلاقي و إنّ من أخلاقي الصّبر.

و راجع أيضا تعليقتنا الرقم ٣٧، ص ٢٥٥، الجزء الأوّل.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧٠

البحث الرابع في الأخلاق و ما يتعلّق بها من بحث الكلمات

(في بيان أصول الأخلاق و معنى الحكمة و العفّة و الشجاعة و العدالة)

اعلم، ان أصول الأخلاق باتّفاق أكثر العقلاء و أرباب الأصول و أكثر أهل الكشف و أرباب الشهود، أربعة: الحكمة و العفّة و الشّجاعة و العدالة.

أمّا الحكمة، فهي على قسمين علميّة و عمليّة، أمّا العلميّات فكالنّظر في معرفة الحقّ تعالى و ذاته و صفاته و ما يتعلّق بها المقرّرة في أقسام الإلهيّات من الحكمة.

و أمّا العمليّات فهي استكمال النّفس بكمال الملكة التّامّة على الأفعال الفاضلة حتّى يكون الإنسان ثابتا على الصّراط المستقيم متجنّبا من طرفي الإفراط و التّفريط في جميع أفعاله و أحواله، و عن مثل هذه الحكمة أخبر اللّه تعالى في كتابه بقوله:

وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ مٰا يَذَّكَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ.

و بوجه آخر، الحكمة العمليّة على ما قيل و هي ملكة تصدر عنها الأفعال المتوسّطة بين الجربزة و الغباوة الّذين هما طرفا الإفراط و التّفريط.

و أمّا العفّة، فهي ملكة صادرة عن اعتدال حركة القوّة الشهويّة بحسب تصريف العقل العملي لها على قانون العدل.

و أمّا الشّجاعة، فهي ملكة حاصلة للنّفس عن اعتدال القوّة الغضبيّة بحسب تصريف العقل فيما يضبطه لها.

و أمّا العدالة، فهي فضيلة حاصلة من اجتماع هذه الثلاث.

و كلّ واحدة من هذه الأربعة لها طرفان هما طرفا إفراط و تفريط و هما مذمومتان يجب الاجتناب عنهما، و الوقوف على الحدّ الوسط من بينهما بحكم الخبر النّبوي:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧١

خير الأمور أوسطها «٢٥٧».

فإنّه الصّراط المستقيم الحقيقي المأمور بالاستقامة على كلّ عاقل مكلّف.

أمّا الحكمة، فطرف إفراطها الجزيرة الموجبة للمكر و الخدع و أمثالهما، و طرف تفريطها الغباوة و البلادة المؤدّية إلى

عدم الفضيلة.

و أمّا العفّة، فطرف إفراطها الفجور الّذي هو الخروج عن حدّ الاعتدال في قضاء قوّة الشهويّة، و طرف تفريطها عدم الشّهوة و الخمود عن اقتضاء القوّة الشهويّة بمقتضى طبعها.

و أمّا الشّجاعة، فطرف إفراطها التّهوّر الّذي هو إلقاء النفس في التهلكة و التهجّم في الأمور المهلكة الغير المحمودة، و طرف تفريطها الجبن الّذي هو القعود في موضع القيام بما يجب على الشّخص من الأحكام الشرعيّة و العقليّة، و لهذا لا يجوز أن يتّصف النبيّ و الإمام بهاتين الصّفتين، لأن الاتصاف بهما يكون موجب الطعن في عصمتهما كما هو مقرّر عند أهله.

و أمّا العدالة، فطرف إفراطها الظّلم الموجب للجور و العدوان و القهر و الغلبة، و طرف تفريطها الانظلام الموجب للمهابة و المذلّة و الخذلان، و كذلك لا يجوز اتّصاف النّبيّ و الإمام بهاتين الصّفتين.

و بالجملة الأخلاق على قسمين محمودة و مذمومة، أمّا المحمودة فيجب اتّصاف كلّ أحد بها و هي عند البعض سبعة و عند البعض عشرة. و أمّا المذمومة فيجب اجتناب

---

(۲٥۷) قوله: الخبر النبويّ: خير الأمور أوسطها.

رواه الكليني في فروع الكافي ج ٦، ص ٥٤٠، باب نوادر في الدواب، الحديث ۱۸، في حديث بإسناده عن الإمام الكاظم موسى بن جعفر (ع).

و رواه ابن أبي جمهور في عوالي اللّئالي ج ۱، الحديث ۱۹۹، و قال: في الحديث القدسي:

يا داود ....: «لا منع، و لا إسراف، و لا بخل، و لا إتلاف، خير الأمور أوسطها».

و أخرجه الجزري في جامع الأصول، عن النبيّ (ص) قال: «خير الأمور أوسطها» ج ۱، ص ۳۱۸، الحديث ۱۰۱.

و أخرجه الغزالي أيضا، عن النبيّ (ص) في إحياء علوم الدين ج ۳، ص ٥۷. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ٤۷۲

كلّ أحد عنها و هي بإزاء المحمودة.

أمّا السبعة من المحمودة:

فالعلم و الحلم و الكرم و التّواضع و الإخلاص و المحبّة و الزّهد.

و أمّا السبعة من المذمومة.

الجهل و الغضب و الكبر و البخل و الحسد و العجب و الرّياء.

و أمّا العشرة من المحمودة على رأي:

التّوبة، و الخوف، و الزّهد، و الشّكر، و الإخلاص، و التّوكّل، و المحبّة، و الرّضا، و الصّبّر، و ذكر الموت.

و أمّا العشرة من المذمومة:

شرّة الطعام، و كثرة الكلام، و الغضب، و الحسد، و البخل، و حبّ الجاه، و حبّ الدّنيا، و الكبر، العجب و الرّياء.

و لكلّ واحدة من هذه الأخلاق أيضا شعب و فروع و توابع و لوازم يعرف في مظانّها و لم يكن بعثة الأنبياء و الرّسل إلاّ لاتّصاف الخلق بالأخلاق الحميدة و اجتنابهم عن الأخلاق و الذّميمة و:

بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق.

إشارة إليه و معناه: بعثت أنا لتتميم الأخلاق الّتي وضعوها الأنبياء لأممهم من الأخلاق الحميدة و لنهيهم و اجتنابهم الأخلاق الذّميمة التّي منعوهم عنها و أمروهم باجتنابها، و قوله تعالى في أمّته:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [سورة آل عمران: ١١٠].

إشارة إلى اتّصافهم بالوسط الحقيقي، و لقوله أيضا:

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ [سورة البقرة: ١٤٣].

و تقديره: أنّ كلّ من وصف بهذه الأخلاق و أوساطها التّي هي الصّراط المستقيم الحقيقي فهو خير من كلّ أمّة لأنّ كلّ أمّة فرضت في العالم ما حصل لهم هذه الاتّصاف

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧٣

لأنّ اتّصاف كلّ امّة بالأخلاق الحميدة يتعلّق بمقام (نبيّ) النبيّ تلك الأمّة و ليس هناك نبيّ يكون أعظم من هذا النبيّ حتّى تكون أمّته أعظم من أمّته و لا أخلاقه أشرف من أخلاقه، و سنبسط الكلام في هذا عند بحث الشريعة و الطريقة و الحقيقة، و هذا البحث في هذا الموضع و إن كان خارجا عن الموضوع لكن حيث كان تتميما للكلم الّتي هم الأنبياء و مقاماتهم، و قيد الحديث تتميم الأخلاق، صار من الموضوع و جاز ذكره لأنّ تعليم الأخلاق في هذا المقام تهذيب للكلمات الإلهيّة الّتي هي نوع الإنسان بوجه، و بوجه آخر جميع المخلوقات، و إجراء لكلام الحقّ و قوله، و أمره في عباده الّذين هم كلماته في ضمن كتابه الكبير فافهم.

و حيث عرفت أصول الأخلاق و فروعها على سبيل الإيجاز من تقريرنا، نريد أن نشرع فيه مرّة أخرى على سبيل الإطناب من تقرير غيرنا توضيحا و تحقيقا للمطلوب، و هو أنّ بعض العارفين من أرباب التّوحيد قدّس اللّه سرّهم كتب رسالة في هذا المعنى لا يمكن أحسن منها، نذكر بعضها لأنّ ذكر الكلّ ممتنع و هو هذا، و هذا البعض أيضا في فصول:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧٤

الفصل الأوّل في تعريف الخلق و بيان تغيّره

الخلق ملكة في النّفس توجب سهولة صدور الفعل الإرادي عنها بلا رويّة و هو ليس بطبيعيّ لأنّه ممكن التغيّر كما تشاهد في الأحداث و الصّبيان إلاّ أنّ بعضه يكون سريع التغيّر و بعضه بطيء الاستحالة لأنّ المزاج الإنساني ذو عرض عريض و سببه تفاوت استعدادات القوابل بحسب الامتزاجات المتنوّعة الواقعة بحسب الأوضاع المختلفة و الصّور السّابقة، و كلّ مزاج يناسب خلقا مّا و يخالف آخر، على ما ترى في الصّبيان و ما يكونون عليه في مبدأ نشوئهم من الجود و الحياء في بعضهم و البخل و القحة في آخرين و كذلك سايرها كالشرّة و الغضب مثلا، فإن أهملوا و لم يقوموا بالتأديب نشأ كلّ على مقتضى مزاجه و بقي جميع عمره على حاله، و لهذا التأديب و التقويم شرعا و عقلا و أيضا فإنّ النّفس الإنسانيّة قابلة صافية الجوهر بحسب العادات و مخاطبة أصناف النّاس بالخير و الشرّ كما ورد في السنّة:

ما من مولود إلاّ و هو يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو و ينصّرانه و يمجّسانه «٢٥٨».

و قال أمير المؤمنين عليه السّلام في أثناء الوصيّة لابنه الحسن عليه السّلام «٢٥٩».

(٢٥٨) قوله: ما من مولود إلاّ و هو يولد على الفطرة.

أخرجه مسلم في صحيحه، باب معنى كلّ مولود يولد على الفطرة من كتاب القدر ج ٤، ص ٢٠٤٧، الحديث ٢٢ و ٢٣.

و رواه أيضا ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٢٣٣، و ابن أبي جمهور في عوالي اللّئالي ج ١، ص ٣٥، الحديث ١٨، إلاّ أنّ فيهما: كلّ مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه (فأبواه) الحديث.

و راجع أيضا كتاب التوحيد للصّدوق، باب فطرة اللّه عزّ و جلّ الخلق على التوحيد، ج ٩، ص ٣٣٠، و أصول الكافي ج ٢، ص ١٢، باب فطرة الخلق على التوحيد.

(٢٥٩) قوله: و قال أمير المؤمنين (ع):

راجع نهج البلاغة الوصيّة ٣١، نهج البلاغة صبحي صالح.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧٥

و إنّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب (الأدب) قبل أن يقسو قلبك، و يشتغل لبّك.

و هي و إن كانت متّحدة بحسب الماهيّة لكن مختلفة بالقوّة و الضّعف على حسب اعتدال القابل و كلّ ما كانت أقوى كانت أسرع قبولا للتأديب و التوجّه إلى الجهة العلويّة و الإعراض عن السفليّة و بالعكس.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧٦

الفصل الثاني في مكارم الأخلاق و أجناس الفضائل

قال اللّه تعالى:

وَ إِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ [سورة القلم: ٤].

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق. (قد مرّت الإشارة إليه في التعليقة ٢٥٣).

و كافيك بها شرفا حيث جعلها من النبوّة غرضا، و الأخبار الواردة فيه أكثر من أن يحصى مثل:

ألا أنبئكم بخياركم ان من خياركم أحاسنكم «٢٦٠».

إنّ أحسن الحسن الخلق الحسن «٢٦١».

و قال أمير المؤمنين عليه السّلام «٢٦٢».

انّ اللّه تعالى كريم حليم عظيم رحيم دلنا على أخلاقه و أمرنا بالأخذ بها و حمل النّاس عليها.

و لقد صدق من قال:

(٢٦٠) قوله: ألا أنبّئكم بخياركم.

روى المجلسي في البحار ج ٧١، ص ٣٩٦، الحديث ٧٦، عن كتاب الحسين بن سعيد، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، قال:

«قال رسول اللّه (ص): «ألا أنبّئكم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: أحاسنكم أخلاقا، الموطّئون أكنافا، الذين يألفون و يؤلفون».

(٢٦١) قوله: إنّ أحسن الحسن.

رواه الصدوق (ره) في كتابه الخصال، باب الواحد، ص ٢٩، الحديث ١٠٢.

(٢٦٢) قوله: و قال أمير المؤمنين (ع):

قاله (ع) في وصيّته لكميل بن زياد، رواه ابن شعبة في تحف العقول، ص ١٧٥.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧٧

ألا في سبيل المجد ما أنا فاصل   عفاف و اقدم و جزم و نايل

و إذ قد عرفت أنّ أحوال الأفعال الإنسانيّة أي الإنسانيّة التمييزيّة إنّما يتمّ بالقوى الثلاث ظهر لك أنّ فضيلة الأفعال متنوّع بحسبها فمن استقامة القوّة النطقية الّتي هي منشأ النظر في الحقائق يحصل فضيلة الحكمة و هي باعتبار تحصيلها باستعمال هذه القوّة في تحقيق اليقينيّات نوع من العمل و باعتبار حصولها في نفسها عين العلم.

فهي باعتبار الأوّل يعرف الموجودات كما هي و فعل ما ينبغي أن يفعل و هو المراد هاهنا كما سنبيّن في أنواعها، و يدل على فخامة شأنها و إنارة برهانها و سلطانها قوله تعالى:

وَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً [سورة النساء: ١١٣].

و في كلام أمير المؤمنين عليه السّلام:

خذ الحكمة و لو من أهل النّفاق «٢٦٣».

و بالاعتبار الثاني حصول صورة الأشياء في النّفس، قال اللّه تعالى:

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [سورة الزمر: ٩].

و من كلامه أيضا عليه السّلام:

«لا شرف كالعلم إذا أرذل اللّه عبدا حظر عليه العلم» «٢٦٤».

و من اعتدال القوّة السبعيّة الظاهرة الطالبة للغلبة و الجاه يحدث الشجاعة و هي أمثال ما يوجبه الرّأي الصحيح في الأقدام على المخاوف، و الصبر على الشّدائد، قال اللّه تعالى:

(٢٦٣) قوله: في كلام أمير المؤمنين (ع):

قال (ع): الحكمة ضالّة المؤمن، فخذ الحكمة و لو من أهل النّفاق. نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٨٠.

(٢٦٤) قوله: لا شرف كالعلم.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ١١٣ و ٢٨٨.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧٨

فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ [سورة آل عمران: ١٩٥].

و قال:

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا [سورة الصف: ٤].

و من انقياد القوّة البهيميّة و مطاوعتها للقل تتولّد العفّة و هي تصريف الشهوة إلى مقتضى الرأي الصائب بترك تعبّدها ليفيد حريّة، قال اللّه تعالى:

وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ [سورة ص: ٢٦].

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

بئس العبد عبد هوى يضلّه «٢٦٥».

و قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

انّ أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى و طول الأمل، فأمّا اتباع الهوى فيصد عن الحق، و أمّا طول الأمل فينسى الآخرة «٢٦٦».

و قال عليه السّلام:

حلية المؤمن التواضع، و جماله التعفّف «٢٦٧».

---

(٢٦٥) قوله: بئس العبد ...

رواه المجلسي في بحار الأنوار عن كتاب نوادر الراوندي، في حديث بإسناده عن أمير المؤمنين، عن رسول اللّه (ص)، ج ٧٧، ص ١٣٥، الحديث ٤٧، و أخرجه أيضا السيوطي في الجامع الصغير ج ١، ص ٤٩٠، الحديث ٣١٧٩، عن النبيّ (ص).

(٢٦٦) قوله: إنّ أخوف ما أخاف.

رواه الصدوق في كتابه الخصال ص ٥١، الحديث ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٤، باب أخوف ما يخاف على الناس خصلتان، بإسناده عن لنبيّ (ص)، و أخرى عن أمير المؤمنين (ع).

(٢٦٧) قوله: قال (ع): حلية المؤمن.

رواه ابن شعبة في تحف العقول، عن أمير المؤمنين (ع) في وصيّته لكميل بن زياد، تحف العقول، ص ١٧٢.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٧٩

و إذا تسالمت هذه القوى و تعاونت في أفعالها و استوت حتى بلغت الغاية الّتي خلقت لها حدثت العدالة و هي مسالمة هذه القوى بعضها بعضا و الإنصاف و الانتصاف من نفسه و غيره، قال تعالى:

وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [سورة الحجرات: ٩].

اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ [سورة المائدة: ٨].

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ [سورة النحل: ٩٠].

وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ [سورة الشورى: ١٥].

فأجناسها هي هذه الأربعة، و أنواعها كثيرة لا يكاد تحصى كثيرة، لكنّا نعد منها ما هو أظهر و أشهر.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٨٠

الفصل الثالث في الأنواع الواقعة تحت جنس الحكمة

و هي سبعة

: الأوّل صفاء الذّهن

، و هو استعداد النفس لاستخراج المطلوب، قال اللّه تعالى:

أَ فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [سورة الزمر: ٢٢].

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

إنّ اللّه تعالى خلق الخلق في ظلمة فالقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى و من أخطأه ضلّ (٢٦٨).

---

(٢٦٨) قوله: و قال رسول اللّه (ص): إنّ اللّه خلق الخلق في ظلمة.

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ١٧٦، بإسناده عن النبيّ (ص) مع تفاوت في بعض المفردات، و أخرج مثله بنفس العبارة البيهقي في (السّنن الكبرى) ج ٩، ص ٤، و أيضا رواه ابن كثير في تفسيره سورة النور الآية ٣٥، ج ٣، ص ٤٨١.

أقول: هناك روايات كثيرة يمكن أن تكون تفسيرا و شرحا لهذا الحديث، و لهذا لا بأس بذكرها هنا، و لكن نكتفي منها بذكر روايتين:

روى الصدوق في الخصال، بإسناده عن أبي أيّوب الأنصاري، قال: قال رسول اللّه (ص): «لمّا خلق اللّه عزّ و جلّ الجنّة خلقها من نور العرش، ثمّ أخذ من ذلك النور فقذفه فأصابني ثلث النور، و أصاب فاطمة ثلث النور، و أصاب عليّا و أهل بيته ثلث النور، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى إلى ولاية آل محمّد، و من لم يصبه من ذلك النور ضلّ عن ولاية آل محمّد. الخصال، ح ٢٥٨، ص ١٨٧.

و روى المجلسي في البحار ج ٦٨، ص ٤٤، الحديث ٩ عن كتاب (إرشاد القلوب)، بإسناده عن محمّد بن ثابت، قال: قال رسول اللّه (ص) لعليّ (ع): إنّ اللّه تبارك و تعالى خلقني و إيّاك من نوره الأعظم، ثمّ رشّ من نورنا على جميع الأنوار من بعد خلقه لها، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى إلينا، و من أخطأه ذلك النور ضلّ عنّا، ثمّ قرأ:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٨١

الثاني جودة الفهم

، و هي سرعة انتقال النّفس من الملزوم إلى اللاّزم، قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

من فهم علم غور العلم «۲۶۹».

الثالث، الذّكاء

، و هو سرعة انقداح النتائج، و يأوّل به قوله تعالى:

يَكٰادُ زَيْتُهٰا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ [سورة النور: ۳۵].

الرّابع، حسن التّصور

، و هو البحث عن الأشياء بقدر ما هي عليه.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

من تبصر الفطنة ظهرت له الحكمة «۲۷۰».

الخامس، سهولة التعلّم

، و هي قوّة النفس على إدراك المطلوب، قال اللّه تعالى:

أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمٰانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ.

السّادس، الحفظ

، و هو ضبط الصّور المدركة، قال اللّه تعالى:

وَ تَعِيَهٰا أُذُنٌ وٰاعِيَةٌ [سورة الحاقة: ۱۲].

و قال:

هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّٰابٍ حَفِيظٍ [سورة ق: ۳۲].

السّابع، الذّكر

، و هو استحضار المحفوظات، قال اللّه تعالى:

وَ مٰا يَذَّكَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ [سورة البقرة: ۲۶۹].

- **وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّٰهُ لَهُ نُوراً فَمٰا لَهُ مِنْ نُورٍ [سورة النور: ۴۰].**

يهتدي إلى نورنا.

(۲۶۹) قوله: من فهم علم.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ۳۱.

(۲۷۰) قوله: قال أمير المؤمنين (ع): من تبصّر الفطنة.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ۳۱. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۸۲

الفصل الرّابع في الأنواع الّتي تحت الشّجاعة

و هي إثنا عشر

: **الأوّل، كبر النّفس**

، و هو استحقار اليسار و الاقتدار على حمل الكرامة و الصّغار، قال اللّه تعالى:

قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ [سورة النساء: ٧٧].

و من كلام أمير المؤمنين عليه السّلام:

من كبرت عليه نفسه هانت عليه شهوته «٢٧١».

الثاني، عظم الهمّة

، و هو عدم المبالات بسعادة الدّنيا و شقاوتها حتّى الموبقات، كما قال تعالى:

حكاية عن أصحاب موسى في جواب:

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ [سورة الشعراء: ٤٩- ٥٠].

و في موضع آخر:

فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا [سورة طه: ٧٢].

الثالث، الثّبات

، و يسمّى الصبر أيضا و هي قوّة مقاومة الآلام في الأهوال و الشّدائد، قال اللّه تعالى:

وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ ما اسْتَكانُوا وَ اللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ [سورة آل عمران: ١٤٦].

---

(٢٧١) قوله: و من كلام أمير المؤمنين (ع): من كبرت.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٤٤٩:

«من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته».

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٨٣

الرابع، النجذة

، و هي ثقة النفس بأن لا يصبها جزع عند المخاوف، قال اللّه تعالى:

وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ [سورة البقرة: ١٥٥- ١٥٦].

الخامس، الحلم

، و هو الطمأنينة و ترك الشغب عند سورة الغضب، قال اللّه تعالى:

وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً [سورة الفرقان: ٦٣].

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ [سورة المؤمنون: ٩٦].

و من كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

ليس الشديد بالصرعة إنّما الشديد الّذي يملك نفسه عند الغضب «۲۷۲».

السّادس، السكون

، و هو التأنّي في الخصومات و الحروب الشرعيّة و يسمّى عدم الطيش أيضا، قال اللّه تعالى:

وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ [سورة البقرة: ١٩٠].

و من كلام علي عليه السّلام:

من بالغ في الخصومة أثم (۲۷۳).

---

(۲۷۲) قوله: و من كلام رسول اللّه (ص): ليس الشديد.

رواه ابن شعبة في تحف العقول في قصار مواعظه و حكمه (ص)، ص ٤٧. رواه أيضا الطبرسي في مجمع البيان، سورة آل عمران، الآية ١٣٤، ج ٢، ص ٥٠٥.

و أخرجه مسلم أيضا في صحيحه، باب فضل من يملك نفسه، ج ٤، ص ٢٠١٤، الحديث ١٠٧ و ١٠٨.

و البيهقي أيضا في السنن الكبرى، باب الشاعر يكثر الوقيعة في الناس على الغضب، ج ١٠، ص ٢٤١، كتاب الشهادات.

و رواه أيضا ابن كثير في تفسيره سورة آل عمران الآية ١٣٥، ج ١، ص ٦٣٥.

(۲۷۳) قوله: و من كلام علي (ع): من بالغ.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۸۴

السّابع، العفو

، و ترك الانتقام مع القدرة، قال اللّه تعالى:

وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ [سورة آل عمران: ١٣٤].

فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ [سورة الشورى: ٤٠].

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ [سورة الزخرف: ٨٩].

و من كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

لا تكونوا إمّعة تقولون: إنّ أحسن الناس أحسنّا و إن ظلموا ظلمنا، و لكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن النّاس أن تحسنوا و إن أساؤا فلا تظلموا «٢٧٤».

و قال:

من كظم غيظه و هو يقدر على إنفاذه ملأ اللّه قلبه إيمانا و أمنا «٢٧٥».

الثامن، التواضع

، و هو استعظام الرّجل ذوي الفضائل و من دونه في الجاه و المال.

قال اللّه تعالى:

وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [سورة الشعراء: ٢١٥].

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

- نهج البلاغة صبحي صالح، قصار الحكم، الرقم ٢٩٨.

(٢٧٤) قوله: لا تكونوا إمّعة.

أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب البرّ و الصّلة، باب ٦٣ (ما جاء في الإحسان و العفو)، ج ٤، ص ٣٦٤، الحديث ٢٠٠٦.

و قريب منه في كنز العمّال ج ١٥، ص ٧٧٢، الحديث ٤٣٠٣٥.

(٢٧٥) قوله: من كظم غيظه.

أخرجه الهندي في كنز العمّال ج ٣، ص ١٣١، الحديث ٥٨٢٢.

و قريب منه رواه ابن كثير في تفسيره سورة آل عمران الآية ١٣٥، ج ١، ص ٦٣٧.

و روى الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب كظم الغيظ، الحديث ٧، ص ١١٠، بإسناده عن الإمام الباقر (ع)، قال:

«من كظم غيظا و هو يقدر على إمضائه حشا اللّه قلبه أمنا و إيمانا يوم القيامة».

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٨٥

ما تواضع أحد للّه إلاّ رفعه اللّه «٢٧٦».

و من كلام علي عليه السّلام:

حلية المؤمن التواضع «٢٧٧».

التاسع، الشهامة

، و هو الحرص ما يوجب الذّكر الجميل من العظام، قال اللّه تعالى:

أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ [سورة المؤمنون: ٦١].

العاشر، احتمال الكدّ

، و هو إتعاب البدن في اكتساب الحسنات، قال اللّه تعالى:

وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا [سورة العنكبوت: ٦٩].

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً [سورة الانشقاق: ٦].

الحادي عشر، الحميّة

، و هي محافظة الملّة و الحرمة عن التهمة، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

اتّقوا مواضع التّهم (٢٧٨).

---

(٢٧٦) قوله: ما تواضع أحد.

أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البرّ و الصّلة، الحديث ٦٩، باب ١٩، ص ٢٠٠١، ج ٤، بإسناده عن رسول اللّه (ص).

و روى الشيخ الطوسي في أماليه بإسناده عن رسول اللّه (ص) في حديث، قال: «و من تواضع للّه رفعه اللّه».

و روى أيضا مثله الكليني في الكافي ج ٢، باب التواضع، الحديث ٣، ص ١٢٢، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، عن رسول اللّه (ص).

و روى الهندي أيضا في كنز العمّال ج ٣، الحديث ٥٧٣٧، ص ١١٣.

و أخرج ابن حنبل في مسنده ج ٣، ص ٧٦، بإسناده عن النبيّ (ص) قال: «من تواضع للّه درجة رفعه اللّه درجة حتى يجعله في علّيين».

(٢٧٧) قوله: حلية المؤمن.

و قد أشرنا إلى هذا الحديث في تعليقتنا الرقم ٢٦٨.

(٢٧٨) قوله: اتّقوا من مواضع التّهمة.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۸۶

الثاني عشر، الرّقّة

، و هي التأثّر عن أذى يصيب من النّاس بلا اضطراب، قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

ترى المؤمنين في تراحمهم و توادّهم و تعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر الجسد بالسّهر و الحمّى «۲۷۹».

- رواه الغزالي في إحياء العلوم ج ٣، ص ٣٦، باب تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب.

و روى ابن إدريس في كتابه السرائر في ما استطرفه من جامع البزنطي ج ٣، ص ٥٧٨، و قال: قال أبو الحسن (الرضا) (ع): قال أبو عبد اللّه (ع): «اتّقوا مواقف (مواضع) الرّيب، و لا يقض (يقفنّ) أحدكم مع أمّه في الطّريق، فإنّه ليس كلّ أحد يعرفها».

عنه المجلسي في «بحار الأنوار» ج ٧٥، ص ٩١، الحديث ٧، و «وسائل الشيعة» ج ٨ ص ٤٢٣، الحديث ٥.

(٢٧٩) قوله: قال النبيّ (ص): ترى المؤمنين.

رواه المجلسي في بحار الأنوار ج ٧٤، ص ٢٣٣، كتاب العشرة، باب حقوق الأخوان، الحديث ٣٠، و قال: وجدت بخطّ محمّد بن علي الجباعي نقلا من خطّ الشيخ الشهيد رحمه اللّه ما هذه صورته: من كتاب «المؤمن» لابن سعيد الأهوازي، بإسناده (إلى أن قال): عن أبي جعفر (ع) قال: المؤمنون في تبارّهم و تراحمهم و تعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى تداعى له سائره بالسّهر و الحمّى.

و رواه أيضا في ج ٦١، ص ١٥٠، الحديث ٢٨ من كتاب (الشهاب) للقاضي أبي عبد اللّه محمّد بن سلامة بن جعفر القضاعي، و هو من علماء القرن الخامس، كان يسكن في مصر.

و رواه أيضا البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ٥٤٩ (رحمة الناس بالبهائم)، الحديث ٨٩٤ ج ٧، ص ٣٢٨.

و أخرجه مسلم أيضا في صحيحه، كتاب البرّ، باب ١٧ (تراحم المؤمنين)، الحديث ٦٦، ج ٤، ص ١٩٩٩.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۸۷

الفصل الخامس في الأنواع الواقعة تحت العفّة، و هي إثنا عشر

الأوّل، الحياء

، و هو انحصار النّفس خوف ارتكاب القبائح، قال النبيّ عليه السّلام:

الحياء من الإيمان «٢٨٠».

و قال علي عليه السّلام:

من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه «٢٨١».

الثاني، الصبر

، و هو حبس النفس عن مطاوعة الهوى و مقاومتها إيّاه، قال اللّه تعالى:

وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا [سورة فصّلت: ٣٥].

وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: ٩٦].

و قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

---

(٢٨٠) قوله: الحياء من الإيمان.

رواه الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب الحياء، ص ١٠٦، الحديث ١، بإسناده عن الإمام الصادق (ع).

و رواه المجلسي في البحار ج ٧١، ص ٣٣٤، الحديث ١٢، عن كتاب الحسين بن سعيد، بإسناده عن الإمام الرضا (ع).

و رواه ابن شعبة عن الإمام موسى بن جعفر (ع) في وصيّته لهشام في «تحف العقول» ص ٣٩٤.

و روى الغزالي عن النبيّ (ص) أنّه قال: الحياء شعبة من الإيمان. إحياء العلوم ج ٣، ص ٣٢٠.

(٢٨١) قوله: من كساه الحياء.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٢٢٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٨٨

عليك بالصبر فإنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد «٢٨٢».

و قال:

الصّبر صبران، صبر على ما تكره، و صبر على ما تحبّ «٢٨٣».

فالقسم الأوّل هو الّذي سمّيناه الثبات في باب الشجاعة، و هذا هو القسم الثاني.

الثالث، الدعة

، و هي السّكون عند هيجان الشهوات، قال تعالى:

لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا [سورة طه:
١٣١].

الرابع، الحرّية

، و هي اكتساب مال من غير امتنان، و منّه و إنفاقه في المصارف الحميدة، و من كلام النّبيّ عليه السّلام:

(لو) لأن يأخذ أحدكم حبلة جبلا فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكفّ اللّه وجهه خير له من أن يسأل النّاس «۲۸۴».

و من كلام علي عليه السّلام:

لنقل الثقل من قلل الجبال أحبّ إليّ من منن الرّجال «۲۸۵».

---

(۲۸۲) قوله: عليك بالصّبر.

راجع أصول الكافي ج ۲، باب الصّبر، الحديث ۹، ص ۹۰. و الخصال للصّدوق، باب الخمسة، الحديث ۹۶، ص ۳۱۵. و عيون أخبار الرضا ج ۲، ص ٤٤، الحديث ۱۵۵، باب ۳۱ (فيما جاء عن الرضا (ع) من الأخبار المجموعة)، و قرب الإسناد، الحديث ۵۷۲، ص ۱۵۶. [.....]

(۲۸۳) قوله: الصّبر صبران.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ۵۵.

(۲۸٤) قوله: لأن يأخذ أحدكم.

رواه ابن فهد الحلّي في كتابه عدّة الدّاعي في فصل كراهيّة السؤال و ردّ السؤال، ص ۱۰۰.

(۲۸۵) قوله: لنقل الثقل من قلل الجبال.

لم نعثر عليه.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۸۹

و قال:

طوبى لمن ذلّ نفسه و طاب كسبه، و خلصت سريرته، و حسنت خليقته، و أنفق الفضل من ماله و أمسك الفضل من قوله «۲۸۶».

الخامس، القناعة

، و هي التّساهل في أسباب المعيشة و الاقتصار منها على الكفاف، و من كلام النبيّ عليه السّلام:

قد أفلح من أسلم و رزق كفافا و قنعه اللّه بما آتيه «۲۸۷».

و قال:

ليس الغنى من كثرة المال و لكن الغنى غنى النّفس «۲۸۸».

و قال:

---

(۲۸۶) قوله: طوبى لمن ذلّ نفسه.

نهج البلاغة صبحى صالح، قصار الحكم، الرقم ۱۲۳. قال (ع):

«طوبى لمن ذلّ في نفسه، و طاب كسبه، و صلحت سريرته، و حسنت خليقته، و أنفق الفضل من ماله، و أمسك الفضل من لسانه، و عزل عن

النّاس شرّه، و وسعته السّنّة، و لم ينسب إلى البدعة».

(٢٨٧) قوله: قد أفلح من أسلم.

أخرجه مسلم في صحيحه، باب في الكفاف و القناعة من كتاب الزكاة، ج ٢، الحديث ١٢٥، ص ٧٣٠.

و أخرجه أيضا ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ١٦٨ و ص ١٧٣، و قريب منه في سنن ابن ماجة، كتاب الزّهد، باب القناعة، الحديث ٤١٣٨، ج ٢، ص ١٣٨٦، و قريب منه رواه الكليني بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، عن رسول اللّه (ص) في أصول الكافي ج ٢، ص ١٤٠، باب الكفاف، الحديث ١ و ٢ و ٦.

و أيضا رواه الحميري في قرب الإسناد ص ٤٠، الحديث ١٢٩.

(٢٨٨) قوله: ليس الغنى.

رواه ابن شعبة في تحف العقول في مواعظ النبيّ (ص) و حكمه، ص ٥٧، و فيه: ليس الغنى عن كثرة لعرض ...

و أخرجه ابن ماجة في باب القناعة ج ٢، ح ٤١٣٧، ص ١٣٨٦.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٩٠

أرض بما قسم اللّه لكي تكن أغنى النّاس «٢٨٩».

و من كلام علي عليه السّلام:

القناعة كنز لا يفنى «٢٩٠».

و قال:

كفى بالقناعة ملكا و يحسن الخلق نعيما «٢٩١».

السّادس، الوقار

، و هو التأنّي في التوجّه نحو المطالب، قال النبيّ عليه السّلام:

التأنّي من الرّحمن، و العجلة من الشيطان «٢٩٢».

و قال:

---

(٢٨٩) قوله: ارض بما قسم اللّه.

روى الكليني في الكافي ج ٢، باب القناعة، الحديث ٩، بإسناده عن الصادق (ع)، قال:

«من قنع بما رزقه اللّه فهو من أغنى الناس».

و روى الصدوق في حديث في أماليه، المجلس ٣٦، الحديث ١٣، ص ١٦٨، بإسناده عن النبيّ (ص) قال: «ارض بقسم اللّه تكن أغنى النّاس».

و روى المجلسي في بحار الأنوار ج ٧١، ص ١٣٥، الحديث ١٥، عن (الخصال) للصّدوق، عن الصادق (ع) قال: ثق باللّه تكن موءمنا، و ارض بما قسم اللّه لك تكن غنيّا.

(٢٩٠) قوله: القناعة كنز.

نهج البلاغة، قصار الكلم، الرقم ٣٧١، و قال (ع): «و لا كنز أغنى من القناعة».

(۲۹۱) قوله: كفى بالقناعة.

نهج البلاغة (صبحى صالح)، قصار الحكم، الرقم ۲۲۹.

(۲۹۲) قوله: التأنّي من الرّحمن.

روى البرقي في (المحاسن)، باب التثبّت، ص ۲۱۵، الحديث ۱۰۱، بإسناده عن الإمام الباقر (ع)، قال: قال رسول اللّه (ص): «الأناة من اللّه، و العجلة من الشيطان».

و أخرج مثله الترمذي في كتاب البرّ، باب في التأنّي و العجلة، راجع جامع الترمذي ج ٤، ص ۳٦۷، الحديث ۲۰۱۲.

و رواه ابن شعبة في تحف العقول في مواعظ النبيّ (ص)، ص ٤۳.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۹۱

من تأنّى أصاب أو كاد و من عجل أخطاء أو كاد «۲۹۳».

السابع، المسالمة

، و هي الموادعة عند تنازع الآراء المختلفة، قال النبيّ عليه السّلام:

المسالمة خبأ العيوب «۲۹٤».

الثامن، الرّفق

، و هو حسن الانقياد لما يؤدي إلى الجميل، و يسمى أيضا الديانة، قال اللّه تعالى:

فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً [سورة طه: ٤٤].

و قال:

لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ [سورة آل عمران: ۱٥۹].

و من كلام النبيّ عليه السّلام:

من يحرم الرّفق يحرم الخير «۲۹٥».

و قال:

إنّ اللّه رفيق يحبّ الرّفق «۲۹٦».

التاسع، حسن الصّمت

، و هو محبّة ما يكمل النفس.

---

(۲۹۳) قوله: من تأنّى أصاب.

لم نعثر عليه.

(۲۹٤) قوله: المسالمة خباء العيوب.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٦.

(۲۹٥) قوله: من يحرم الرفق.

رواه الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب الرّفق، الحديث ٧، ص ١١٩، و رواه أيضا الترمذي في جامع الصحيح، باب ما جاء في الرّفق، الحديث ٢٠١٣، ج ٤، ص ٣٦٧.

و رواه مسلم في صحيحه، ج ٤، ص ٢٠٠٣، الحديث ٧٤ و ٧٥، باب فضل الرّفق.

(٢٩٦) قوله: إنّ اللّه رفيق.

رواه الكليني في أصول الكافي، باب الرّفق، الحديث ٩ و ١٤، ج ٢، ص ١١٩ و ١٢٠، و أخرجه مسلم في صحيحه، باب فضل الرّفق، الحديث ٧٧، ج ٤، ص ٢٠٠٤. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٩٢

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

الصّمت الحسن و التودّد و الإقتصاد جزء من أربع و عشرين جزءا من النبوّة.

العاشر «٢٩٧»، الورع

، و هو ملازمة الأعمال الجميلة، قال اللّه تعالى:

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ، إلى قوله: أُولٰئِكَ هُمُ الْوٰارِثُونَ [سورة المؤمنون: ٢].

و قال:

وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ [سورة الروم: ٤٤].

و من كلام علي عليه السّلام:

لا معقل أحسن من الورع «٢٩٨».

الحادي عشر، الانتظام

، و هو تقدير الأمور و ترتيبها بحسب المصالح، قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

كن مقدّرا و لا تكن مقتّرا «٢٩٩».

و قال: لا عقل كالتدبير «٣٠٠».

الثاني عشر، السخاء

، و هو إعطاء ما ينبغي على الوجه الّذي ينبغي، قال اللّه

---

(٢٩٧) قوله: الصّمت الحسن.

أخرجه الترمذي في جامع الصحيح، باب ما جاء في التأنّى، الحديث ٢٠١٠، ص ٣٦٦، ج ٤.

(٢٩٨) قوله: لا معقل.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٣٧١.

(٢٩٩) قوله: كن مقدّرا ...

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٣٣.

(۳۰۰) قوله: لا عقل ...

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ۱۱۳، و رواه الصدوق في معاني الأخبار، ص ۳۳۵ (باب معنى تحيّة المسجد ...) بإسناده عن أبي ذر، عن رسول اللّه (ص).

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۹۳

تعالى:

وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ [سورة البقرة: ١١٠].

و قال:

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ [سورة البقرة: ٢٦١].

و قال:

أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [سورة البقرة: ١٩٥].

و من كلام النّبي عليه السّلام:

الجنّة دار الأسخياء «۳۰۱».

و قال: لجاهل سخيّ أحبّ إليّ من عابد بخيل «۳۰۲».

و من كلام علي عليه السّلام:

---

(۳۰۱) قوله: الجنّة دار الأسخياء.

رواه الطبرسي في مجمع البيان، سورة آل عمران الآية ١٣٤، ج ٢، ص ٥٠٥.

و الغزالي في إحياء العلوم ج ٣، ص ٢٤٥، و في كنز العمّال ج ٦، ص ٣٩٣، الحديث ١٦٢١٦: الجنّة دار الأسخيار، و الذي نفسي بيده لا يدخل الجنّة بخيل و لا عاقّ لوالديه و لا منّان بما أعطى.

و روي أيضا في كتاب جامع الأخبار، الفصل ٩٦ (في السّخاء و الإيثار).

(۳۰۲) قوله: لجاهل سخيّ ...

رواه الترمذي في الجامع الصحيح في حديث ج ٤، باب ما جاء في السّخاء، الحديث ١٩٦١، ص ٣٤٢، و فيه «أحبّ إلى اللّه». و مثله في الترغيب و الترهيب ج ٣، (باب الترهيب من البخل ...)، الحديث ١٤، ص ٣٨١، و روى صاحب جامع الأخبار، عن أبي عبد اللّه (ع)، قال: و لجاهل سخيّ أفضل من شيخ بخيل، راجع الفصل ٦٩ في السّخاء و الإيثار.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۴۹۴

من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة «۳۰۳».

و هو نوع

تحته سبعة أنواع

: **الأوّل، الكرم**

، و هو أن يكون ذلك الإعطاء بالسهولة، و طيب النّفس في الأمور العظام، قال اللّه تعالى:

وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ

[سورة البقرة: ۲٦٥].

و من كلام علي عليه السّلام:

بالإفضال تعظم الاقتدار «۳۰٤».

الثاني، الإيثار

، و هو أن يكون مع الكفّ عن حاجاته، قال اللّه تعالى:

وَ يُؤْثِرُونَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ [سورة الحشر: ۹].

و قال:

وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى‏ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً [سورة الإنسان: ۸].

الثالث، النيل

، و هو الغير بالخير مع خصاصته و هو أن يكون مع السرور به.

الرّابع، المواساة

، و هو أن يكون في معاونة الأصدقاء بحيث يشاركهم بباله و ماله، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

البركة في المال من إيتاء الزّكاة و مواساة المؤمنين و صلة الأقربين (۳۰۵).

---

(۳۰۳) قوله: من يعط باليد.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ۲۳۲.

(۳۰٤) قوله: بالإفضال تعظم الإقدار.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ۲۲۳.

(۳۰۵) قوله: البركة في المال.

رواه ابن شعبة في تحف العقول، عن أمير المؤمنين في وصيّته (ع) لكميل بن زياد، مع تفاوت يسير في الألفاظ، ص ۱۷۲.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۴۹۵

الخامس، السماحة

، و هو بذل ما لا تحب بذل على سبيل التفضيل، قال النّبي صلّى اللّه عليه و آله:

السماح رباح «۳۰٦».

و من كلام علي عليه السّلام:

كن سماحا و لا تكن مبذّرا. (في نهج البلاغة حكمة ۳۳ (كن سمحا)) «۳۰۷».

السادس، المسامحة

، و هي ترك ما لا يحبّ تركه على سبيل التورع، قال اللّه تعالى:

وَ إِنْ كٰانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلىٰ مَيْسَرَةٍ وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ [سورة البقرة: ٢٨٠].

قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

من أنظر معسرا أو وسّع له أظله اللّه تحت ظلّ عرشه يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلاّ ظله (٣٠٨).

- و رواه المجلسي، عن كتاب بشارة المصطفى في بحار الأنوار ج ٧٧، الحديث ١، ص ٢٦٨، بنفس العبارة.

(٣٠٦) قوله: السماح رباح.

أخرجه الهندي في كنز العمّال ج ٦، الحديث ١٦٠٦٠، ص ٣٦١.

(٣٠٧) قوله: كن سمحا.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٣٣: كن سمحا و لا تكن مبذّرا.

(٣٠٨) قوله: من أنظر معسرا.

رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب البيوع، (باب ما جاء في إنظار المعسر)، الحديث ١٣٠٦، ص ٥٩٩، بإسناده عن رسول اللّه (ص)، قال: «من أنظر معسرا أو وضع له، أضله اللّه يوم القيامة تحت ظلّ عرشه، يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه».

و روى الكليني في الروضة من الكافي ج ٨ ص ٣، الحديث ١، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، رسالة له إلى جماعة الشيعة، و فيها: «إيّاكم و إعسار أحد من إخوانكم المسلمين أن تعسروه بالشيء يكون لكم قبله و هو معسر، فإنّ أبانا رسول اللّه (ص) كان

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٩٦

السابع، المروّة

، و هي بدل ما لا بدّ من إفادته عرفا، قال اللّه تعالى:

وَ لاٰ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبىٰ [سورة النور: ٢٢].

- يقول: ليس لمسلم أن يعسر مسلما، و من أنظر معسرا أظله اللّه بظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه».

و روى مثله الشهيد الثاني أيضا في كتابه مسكّن الفؤاد في الخاتمة، ص ١٠٥، عن جابر ابن عبد اللّه، عن رسول اللّه (ص). [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٩٧

الفصل السادس في الأنواع الّتي تحت العدالة، و هي أربعة عشر

الأوّل، الصّداقة

، و هي محبّة صادقة بحيث لا يزيد لنفسه شيئا إلاّ و يزيده بالخليل أولا مع إيثاره على نفسه في الخيرات، قال النّبي عليه السّلام:

كونوا عبادا للّه إخوانا «٣٠٩».

و من الأحاديث الربّانيّة:

أين المتحابّون فيّ أظللهم في ظلّي يوم لا يظلّ إلاّ ظلّي.

و من كلام أمير المؤمنين عليه السّلام:

أعجز النّاس من عجز عن اكتساب الإخوان و أعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم «٣١٠».

الثّاني، الألفة

، و هي اتفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعيشة، قال اللّه تعالى:

وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً [سورة آل عمران: ١٠٣].

و من كلام النّبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف و ما تناكر منها اختلف (٣١١).

---

(٣٠٩) قوله: كونوا عبادا.

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٢٧٧، بإسناده عن رسول اللّه (ص)، و جاءت نفس العبارة في تفسير مجمع البيان في تفسير سورة الشورى الآية ١٣: «أقيموا الدّين و لا تتفرّقوا فيه».

(٣١٠) قوله: أعجز الناس ...

نهج البلاغ، قصار الحكم، الرّقم ١٢.

(٣١١) قوله: الأرواح جنود.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٩٨

و قال: المؤمن إلف مألوف «٣١٢».

الثالث، الوفاء

، و هو ملازمة طريق المواساة و محافظة عهود الخلطاء.

قال اللّه تعالى:

وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ [سورة الأسراء: ٣٤].

بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [سورة آل عمران: ٧٦].

الرابع، التّودّد

، و هو طلب مودّة الأكفّاء و أهل الفضل بما يستلزم محبّتهم من حسن اللقاء و أمثاله، قال النّبي عليه السّلام: التودّد نصف العقل «٣١٣».

- رواه الصدوق في أماليه في المجلس ٢٩، الحديث ١٦، ص ١٢٥، في حديث بإسناده عن الإمام الباقر (ع)، فراجع. و رواه أيضا في كتابه علل الشرائع، باب ١٦١ (علّة استلام الحجر الأسود)، الحديث ٧، ص ٤٢؛ بإسناده عن أبي عبد اللّه الإمام الصادق (ع).

و أخرجه ابن حنبل، بإسناده عن النبيّ (ص) في مسنده ص ٢٩٥.

و أخرجه أيضا مسلم في صحيحه، كتاب البرّ، باب ٤٩ (باب الأرواح جنود مجنّدة)، ج ٤، الحديث ١٥٩، ص ٢٠٣١.

(٣١٢) قوله: المؤمن إلف مألوف.

رواه المجلسي في بحار الأنوار ج ٦٧، ص ٣٠٩، الحديث ٤١، عن كتاب (الشهاب) عن النبيّ (ص).

و روى الكليني في أصول الكافي ج ٢، ص ١٠٢، الحديث ١٧ (باب حسن الخلق)، بإسناده عن الإمام الصادق (ع)، عن أمير المؤمنين (ع) قال: «المؤمن مألوف و لا خير فيمن لا يألف و لا يؤلف».

و أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ٤٠٠، و الغزالي في إحياء العلوم ج ٢، ص ١٥٨، باب فضيلة الألفة.

(٣١٣) قوله: التودّد إلى الناس.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ١٤٢.

و رواه المجلسي في البحار ج ١، ص ٢٢٤، عن كتاب كنز الكراجكي، عن رسول اللّه (ص)، و أيضا رواه في ج ٧١، عن السرائر، عن النبيّ (ص).

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٤٩٩

و قال: إنّ من المعروف أن تلقي أخاك بوجه طلق «٣١٤».

الخامس، المكافاة

، و هي مقابلة الإحسان بمثله أو زيادة، قال اللّه تعالى:

وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها [سورة النّساء: ٨٦].

و قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

من أوتي معروفا فليكافئ به فإن لم يستطع فليذكره فإن ذكره فقد شكره «٣١٥».

السادس، حسن الشركة

، و هو الاعتدال في المعاملات.

قال اللّه تعالى:

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [سورة المطففين: ٣].

و قال:

وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ [سورة البقرة: ١٨٨].

و في موضع آخر:

فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ [سورة الأعراف: ٨٥].

السابع، حسن القضاء

، و هو ترك المنّ و الندم في المجازاة، قال اللّه تعالى:

هَلْ جَزٰاءُ الْإِحْسٰانِ إِلاَّ الْإِحْسٰانُ [سورة الرحمن: ٦٠].

الثامن، صلة الرّحم

، و هي مشاركة ذوي القرابة في الخيرات الدنيويّة، قال اللّه

(٣١٤) قوله: إنّ من المعروف.

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٦، ص ٣٤٤.

و روى الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب حسن البشر، الحديث ٣، ص ١٠٣، بإسناده عن أبي جعفر الباقر (ع)، قال: أتى رسول اللّه (ص) رجل، فقال: يا رسول اللّه أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: «ألق أخاك بوجه منبسط».

(٣١٥) قوله: من أوتي معروفا ...

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٦، ص ٩٠.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٠٠

تعالى:

وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ مٰا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ [سورة الرعد: ٢١].

و قال:

وَ آتَى الْمٰالَ عَلىٰ حُبِّهِ [سورة البقرة: ١٧٧].

و قال النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

أفشوا السّلام، و أطعموا الطعام، و صلوا الأرحام «٣١٦».

و قال:

ما من شيء أطمع اللّه فيه بأعجل ثوابا من صلة الرّحم «٣١٧».

التّاسع، الشفقة

، و هي صرف الهمّة إلى إزالة مكروه عن النّاس، قال النّبي عليه السّلام:

إن أحدكم مرآة أخيه فإنّ رأى به أذى فليمط عنه (٣١٨).

(٣١٦) قوله: أفشوا السّلام ...

رواه البرقي في كتابه (المحاسن)، باب الإطعام، الحديث ٣، ص ٣٨٧، بإسناده عن الصادق (ع)، قال: «جمع رسول اللّه (ص) بني عبد المطّلب فقال: يا بني عبد المطّلب! أفشوا السّلام، و صلوا الأرحام، و تهجّدوا و النّاس نيام، و أطعموا الطّعام، و أطيبوا الكلام تدخلوا الجنّة

بسلام».

و أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٥، ص ٤٥١.

(٣١٧) قوله: ما من شيء أطعم اللّه فيه.

روى الكليني في أصول الكافي ج ٢، باب صلة الرّحم، ص ١٥٢، الحديث ١٥، بإسناده عن الباقر (ع)، قال: قال رسول اللّه (ص): «إنّ أعجل الخير ثوابا صلة الرّحم».

و روى المفيد أيضا في حديث في أماليه، المجلس ١١، الحديث ٨ ص ١١٠، بإسناده عن أبي جعفر الباقر (ع)، قال: في كتاب أمير المؤمنين ... «و إنّ أعجل الطّاعة ثوابا لصلة الرّحم».

و مثله رواه الصّدوق في الخصال، الحديث ١١٩، ص ١٢٤، باب الثلاثة.

(٣١٨) قوله: إنّ أحدكم مرآة أخيه.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٠١

و قال:

المؤمن مرآة المؤمن لأنّه سامله فيسد فاقته و كمل حالته «٣١٩».

و من كلامه:

الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السّماء «٣٢٠».

العاشر، إصلاح ذات البين

، و هو التوسط بين النّاس في الخصومات بما يدفعها، قال اللّه تعالى:

فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ [سورة الحجرات: ١٠].

فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ [سورة الأنفال: ١].

و في موضع آخر:

لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ [سورة النساء: ١١٤].

الحادي عشر، التوكّل

، و هو ترك السعي فيما لا يسعه قدرة البشر، قال اللّه تعالى:

وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [سورة الطلاق: ٣].

و قال:

وَ عَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [سورة المائدة: ٢٣].

الثاني عشر، التسليم

، الانقياد لأمر اللّه و ترك الاعتراض على ما لا يلائم الطبع من

- أخرجه الترمذي في جامع الصحيح ج ٤، باب ما جاء في سفقة، الحديث ١٩٢٩.

و رواه الغزالي في إحياء العلوم ج ٢، ص ٢٠٨.

(٣١٩) قوله: المؤمن مرآة المؤمن.

رواه ابن شعبة في وصيّة أمير المؤمنين لكميل بن زياد. تحف العقول، ص ١٧٣.

(٣٢٠) قوله: الراحمون يرحمهم ...

أخرجه الترمذي في جامع الصحيح، كتاب البرّ، ج ٤، باب ما جاء في رحمة المسلمين، الحديث ١٩٢٤، ص ٣٢٣، بإسناده عن رسول اللّه (ص).

و راجع أيضا بحار الأنوار ج ٧٧، ص ١٦٧، الحديث ٤. [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٠٢

أفعاله و أفعال أهله، قال اللّه تعالى:

فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً [سورة النساء: ٦٥].

الثالث عشر، الرّضا

، و هو طيب النفس فيما يصيبه و يفوته مع عدم التغيّر، قال اللّه تعالى:

لِكَيْلاٰ تَأْسَوْا عَلىٰ مٰا فٰاتَكُمْ وَ لاٰ تَفْرَحُوا بِمٰا آتٰاكُمْ [سورة الحديد: ٢٣].

الرابع عشر، العبادة

، و هي تعظيم اللّه و أهله من الأنبياء و الأولياء و الأئمّة و امتثال الأوامر و النّواهي الشّرعيّة، قال اللّه تعالى:

وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ [سورة الحجر: ٩٩].

و قال:

أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ [سورة النساء: ٥٩].

هذا آخر بحث الأخلاق و أنواع فضائلها بحكم الحديث النّبوي و مناسبته لهذا الّذي سبق ذكره، بأنّ النّبيّ عليه السّلام حيث ضمّه إلى بحث الكلمات وجب انضمامه إلى بحثها.

و وجه آخر، و هو أنّ هذا كلّه أيضا كلمات اللّه المعنويّة، و مع أنّه كلمات اللّه المعنويّة يتعلّق بكلمات اللّه الصوريّة الآفاقيّة، فكان الكلّ بحث واحد، و فائدة ذلك لا يخفى على أهله، و اللّه أعلم و أحكم، و هو يقول الحقّ و هو يهدي السّبيل.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٠٣

البحث الخامس في تحقيق الكلمات من حيث التوحيد

اعلم، أنّ قوله:

أوتيت جوامع الكلم «٣٢١».

معناه: إنّي جئت جامعا للكلمات الوجوديّة الآفاقيّة المسمّاة بالمظاهر الإلهيّة، أعني جئت حتّى أجمعها بحكم التوحيد

الذّاتي من كلمة واحدة جامعة للكلمات كلّها كالإنسان مثلا، أو الوجود المطلق الحقّ تعالى وحده، فإن الوجودات الخاصّة كالكلمات المتعدّدة المنحصرة كلمة الوجود المطلق، الّتي هي كلمة واحدة، حصر المقيّدات تحت المطلق، و الخاصّ تحت العام.

ثمّ الكلمة في حرف واحد الّذي هو التّعيّن الأوّل الموسوم بالباء.

ثمّ في النّقطة الوجوديّة المركزيّة الموجبة للتميّز بين العبد و الرّبّ، كما سبق ذكرها، المشار إليها في الخبر:

بالباء ظهر الوجود، و بالنّقطة تميّز العابد عن المعبود «۳۲۲».

و تفصيل ذلك، و هو أنّه صلّى اللّه عليه و آله، حيث كان سابقا و خاتما خصّ به المبتدائيّة و المنتهائيّة، و الخفاء و الظّهور، فمرتبة خاتميّته يقتضي الظّهور و الكشف، و مرتبة مبتدائيّته يقتضي الخفاء و الكمون، و لهذا في زمان آدم و غيره من الأنبياء عليهم السّلام لم يكن للتّوحيد هذا الظّهور و الكشف، و كأنّه يقول: جئت لإظهار التّوحيد الذّاتي و أسراره و حقائقه على أتمّ ما يكون، و كنّى بهذا الجمع الكلمات، حيث كان

---

(۳۲۱) قوله: أوتيت جوامع الكلم.

و قد أشرنا إليه سابقا في تعليقتنا الرقم ۲۲.

(۳۲۲) قوله: بالباء ظهر الوجود.

القائل هو محيي الدين عربي، الفتوحات المكيّة ج ۱، ص ۱۰۲. و قد أشرنا إليه في الجزء الأوّل، ص ۲۱۱.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۰۴

الوجود كما يقرّر، ككتاب جامع للكلمات المذكورة من أنواع الموجودات، فحينئذ كما يرجع العارف من الآيات القرآنيّة إلى الكلمات و من الكلمات إلى الحروف، و من الحروف إلى النقطة قهقرا و يعرف من اطلاعه على النّقطة حقايق القرآن كلّها أو أكثرها، فكذلك العارف بالوجود و الكتاب الآفاقي فإنّه يرجع من الآيات الّتي هي كلّيّات العالم من العرش و الكرسي و اللّوح و القلم و السّماوات و الأرض إلى الكلمات الّتي هي المركّبات من المعدن و النّبات و الحيوان على الخصوص أو العالم مطلقا على العموم إلى الحروف الّتي هي البسايط من الأفلاك و العناصر و الحقائق و الماهيّات و من الحروف إلى حرف واحد الّتي هي الباء المعبّر عنها بالتعيّن الأوّل و الخليفة الأعظم، و من تلك الحرف إلى النّقطة الّتي تحتها ليحصل له بإطلاعه على تلك النّقطة و الباء، الإطلاع على جميع حقايق العالم أو على بعضها، و ذلك يتعلّق بالاستعداد و السرّ، و إليه الإشارة يقول العارف:

«العلم نقطة كثّرها الجهّال» «۳۲۳».

و لهذا البحث بالنسبة إلى هذه المقدّمات طول و عرض، و بالنسبة إلى التوحيد طول آخر، و قد خصّ ذلك بالمقدّمة السّابعة من المقدّمات السبعة، و هذا إيماء و إشارة بالنسبة إلى ذلك و الحق تكفى الإشارة، و حيث قيل:

خير الكلام ما قلّ و دلّ و لم تمل.

و نحن في بحث الكلمة، فالاقتصار في الكلام يكون مستحسنا.

و اللّه يقول الحق و هو يهدي السبيل.
و هذا آخر المقدمة الرابعة المتعلّقة بالكلمات الآفاقيّة و تحقيقها، و إذا فرغنا منها فلنشرع في الخامسة و باللّه التوفيق.

---

(٣٢٣) قوله: العلم نقطة.
رواه ابن أبي جمهور الأحسائي في عوالي اللّئالي ج ٤، ص ١٢٩، الحديث ٢٢٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٠٥

المقدّمة الخامسة في تحقيق الآيات الآفاقيّة و تطبيقها بالآيات القرآنية على سبيل الإجمال

و التفصيل مطابقة بالآيات الأنفسيّة اعلم، أن آيات اللّه تعالى ليست مخصوصة بالآيات القرآنيّة و غيره من الكتب السّماويّة، بل كلّ ما في الوجود من الموجودات العينيّة و الخارجيّة، روحانيّة أو جسمانيّة يصدق عليها أنّها آيات اللّه الآفاقيّة كما سبق ذكرها مرارا، لأنّا إذا بيّنا أنّ العالم بأسره كتاب اللّه الجامع و حروفه مفردات العالم، و بسائطه و كلماته مركّبات العالم و مشخّصاته، و آياته كلّيّات العالم و أنواعه، فقد تحقق أنّ الموجودات كلّها آياته لكن هذا يكون إجماليّا لا تفصيليّا و المراد هاهنا تفصيليّ، فلنشرع و نقول:
اعلم انّه قد سبق في تأويل قوله تعالى:
سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [سورة فصّلت: ٥٣].
أنّ الآفاق يجب أن يكون كتابا جامعا للآيات و الكلمات و الحروف، و كذلك الأنفس لأن الآيات لا يكون مركّبة إلاّ من الكلمات كما أنّ الكلمات لا يكون مركّبة إلاّ من الحروف، و الكلمات، و الحروف لا يكون مجتمعة إلاّ في الكتاب، لأنّ الآيات كما هي عبارة عن هيئة جامعة مركّبة من الكلمات، فكذلك الكلمات فإنّها عبارة عن هيئة جامعة مركّبة من الحروف، و كذلك الحروف فإنّها عبارة عن هيئة جامعة من النقط، و النقط و الحروف و الكلمات و الآيات لا يكون مجتمعة إلاّ في الكتاب، فبهذا الإعتبار و بمقتضى هذا التّرتيب سمّي العالم كتابا جامعا، و ما في ضمنه من الموجودات حروفا و كلماتا و آياتا، و الحكمة في ذلك أنّ الكتاب القرآني و آياته و كلماته و حروفه كما هو

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٠٦

سبب تجلّي الحقّ للخلق في صورة هذه الثلاث ظاهرا و باطنا بحكم الخبر المذكور:
لقد تجلّى اللّه لعباده في كتابه و لكن لا يبصرون «٣٢٤».
يكون الكتاب الآفاقي كذلك، أي سببا لتجلّي الحقّ في صورة مخلوقاته و موجوداته صورة و معنى بحكم الآية و ما يتبعها من الآيات، و هي قوله:
سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ٥٣- ٥٤].
و كان قوله تعالى كما أشرنا إليه مرارا:
قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [سورة القصص: ٤٩].

إشارة إلى هذين الكتابين أي الآفاقي و الأنفسي، لأنّه ليس هناك كتاب أهدى منهما إلى اللّه تعالى أصلا و أبدا، لأنّه لو كان ما أخبر اللّه تعالى بهذا في حقّهما و خبر اللّه تعالى لا يكون خلاف الواقع قطّ لأنّ تصوّر هذا يوجب الكفر فكيف بالوقوع، تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا، و إذا عرفت هذا، فاعلم، أنّ قوله:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ وَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ مٰاءٍ فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ بَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دٰابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيٰاحِ وَ السَّحٰابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [سورة البقرة: ١٦٤].

إشارة إلى تعيين آياته الآفاقيّة كالأفلاك و الأجرام و العلويّات و الرّوحانيات، لأنّ المراد بالسّماوات، الرّوحانيّات العلويّات، و بالأرض، الجسمانيّات السّفليّات، و هذا إخبار بالظّرف عن المظروف، كما قال في حقّ نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

---

(۳۲٤) قوله: لقد تجلّى اللّه.

قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا الرقم ١٢، في الجزء الأول، ص ٢٠٧.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ٥٠٧

لولاك لما خلقت الأفلاك «٣٢٥».

و معناه أي، لو لا أنت و أهل بيتك لما خلقت العالم و ما فيه، لأنّ الأفلاك ظرف العالم، و العالم مظروفه، فكذلك السّماوات و الأرض، و قيّد تعقل هذا المعنى بقوم يكون لهم هذا الاستعداد و القابليّة من حيث تصرّف العقول في الأشياء و معارفها، لأنّه لو كان بالنسبة إلى طائفة أعلى منهم لقال: أو لو الألباب و أولو النهي كما قال في موضع بقوله:

إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِأُولِي النُّهىٰ [سورة طه: الآية ١٢٨].

إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ [سورة الزمر: ٢١].

و ذلك لأنّ مرتبة الإدراك التعقّل الصّرف في الأزل، ثمّ يصعد إلى العقل بالفعل، ثمّ العقل المستفاد، ثمّ إلى اللّبّ، ثمّ إلى النّهى، ثمّ إلى فوق ذلك من البصيرة و الكشف و الشّهود الّذي هو آخر المراتب لقول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله:

إنّ للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة أبطن «٣٢٦».

كما بيّناه بقسيمه في المقدّمة الأولى.

و أمّا قوله:

اللّٰهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيٰاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْهٰاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ جَعَلَ فِيهٰا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهٰارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجٰاوِرٰاتٌ وَ جَنّٰاتٌ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوٰانٌ وَ غَيْرُ صِنْوٰانٍ يُسْقىٰ بِمٰاءٍ وٰاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهٰا عَلىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [سورة الرّعد: ٢- ٤].

(٣٢٥) قوله: لولاك لما خلقت الأفلاك.

قد أشرنا إليه في تعليقتنا الرقم ١٦٧، الجزء الأوّل، ص ٥٤٨.

(٣٢٦) قوله: إنّ للقرآن ظهرا.

راجع الجزء الأوّل تعليقتنا الرقم ١٠ و ١١، ص ٢٠٣.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٠٨

(في أنّ مبادئ الإدراك ثلاثة: الكشف و التفكّر و التعقّل)

فذلك تصريح بمطلوبنا، و هو أن الموجودات كلّها آيات اللّه الّتي هي في ضمن الكتاب الآفاقي، و مع ذلك فيه رعاية الترتيب المذكور من الإدراكات لأنّ المرتبة الأولى الّتي هي مرتبة أرباب اليقين و الكشف و الشّهود، ذكرها في الأولى و خصّصها بالعلويّات كالعرش و الكرسي و الأفلاك و الأجرام و ما يتعلّق بها من الشّمس و القمر و جريانهما و قيّد المجموع باللّقاء و الرؤية و الكشف و المشاهدة، لقوله: بلقاء ربّكم يوقنون. و معلوم أنّ اليقين خصوصا عين أو حقّ اليقين نهاية المراتب في الكشف و الشّهود، لقوله تعالى في حق إبراهيم عليه السّلام:

وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [سورة الأنعام: ٧٥].

و لقول أمير المؤمنين عليه السّلام حيث كان في هذا المقام:

لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا «٣٢٧» و المرتبة الثّانية، مرتبة أرباب الفكر و المتوسّطين من أهل السّلوك، ذكرها في الوسط و خصّصها بالأرض و ما يتعلّق من الموجودات المركّبة كالجبال و البحار و الأنهار و الأشجار، و اختلاف اللّيل و النهار، لقوله:

وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ... [سورة الرعد: ٣].

و علّة خصوصيّة الفكر بأرباب الأوساط دون أهل الكتاب لأنّ في البداية و الوسط ليس الفكر بمذموم كما هو في الأخير و النّهاية، فإنّ في النهاية طرح الأفكار و إسقاط تصرّف العقول واجب، كما قال العالم الرّبّاني عليه السّلام:

عرفت اللّه بترك الأفكار (٣٢٨).

(٣٢٧) قوله: لو كشف الغطاء.

راجع شرح الغرر و الدّرر للآمدي ج ٥، ص ١٠٨، الرقم ٧٥٦٩، و أيضا شرح «المائة كلمة للبحراني» ص ٥٢ الكلمة الأولى.

(٣٢٨) قوله: عرفت اللّه.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٠٩

و كما قال النبيّ عليه السّلام:

لا تتفكّروا في ذات اللّه بل تتفكّروا في آلاء اللّه «٣٢٩».

لأنّه كان عارفا بأنّ الفكر معزول عن تلك الحضرة، مطروح على سدنة بعض الأبواب.

و المرتبة الثّالثة، الّتي هي مرتبة المبتدئين و أرباب التعقّل الصّرف، و وظيفة العوام، و أهل الظّاهر، ذكرها في الأخير لأنّهم بالنّسبة إلى هذا التّرتيب كانّهم من القشريّين بالنّسبة إلى اللّبّ و لبّ اللّبّ، لقوله تعالى:

يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ [سورة الرّوم: ٧].

و هذا ترتيب من العلو إلى السّفل و من الأشرف إلى الأدون، و هذا مستحسن عند الأكثر، بل الوجود ترتيبه على هذا النسق كما سبق ذكره بوجوه مختلفة، و من هذا قال فيهم:

فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً [سورة النساء: ٧٨].

و التّفقّه، التفكّر في العلوم و الحقائق المستخرجة من الآيات و الكلمات، و الّذي أورد من لسانهم في القيامة أيضا دالّ على ذلك، و هو قولهم:

لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ [سورة الملك: ١٠].

و معلوم انّهم بحسب الظّاهر كانوا يسمعون و يعقلون لكن من حيث الباطن الّذي هو الفكر و التّصرّف في المعاني كانوا غافلين عنه محجوبين عن دركه كما قال تعالى فيهم:

أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها [سورة محمد: ٢٤].

- قال أمير المؤمنين (ع): عرفت اللّه سبحانه بفسخ العزائم، و حلّ العقود، و نقض الهمم.

نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم ٢٤٩.

(٣٢٩) قوله: لا تتفكروا في ذات اللّه.

راجع تعليقتنا الرقم ٧٢ و ١٠٠.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏٢، ص ٥١٠

و قال:

وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ [سورة يوسف: ١٠٥].

و هذه الآية من جملة البراهين القاطعة على دعوانا بأنّ السّماوات و الأرض و ما بينهما آيات اللّه و كلماته و أمثال ذلك كثيرة في القرآن مثل قوله:

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [سورة الرّوم: ٢١].

و قوله:

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [سورة الرّوم:

٢٠].

و قوله:

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‌ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ [سورة الشورى: ٢٩].

و قوله:

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ [سورة الروم: ٢٢- ٢٣].

و قوله:

إِنَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [سورة الجاثية: ٤].

و قوله:

وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [سورة الجاثية: ٥].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥١١

و قوله:

وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [سورة الروم: ٢٤].

و قوله:

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‌ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة الروم: ٢٥- ٢٧].

و بل ثلث القرآن يكون مشتملا على ذكر الآيات و ترتيبها و تحقيقها، و الكلّ شاهد على ما ذهبنا إليه، و الّذي شهد به القرآن: بأنّ العالم المسمّى بالآفاق و الكتاب الكبير مشتمل على آياته و كلماته و حروفه.

و إذا عرفت هذا،

(في انّ مطالعة القرآن، كما هي مخصوصة و شاملة إلى أهل الظاهر و الباطن معا فكذلك مطالعة آيات اللّه الآفاقيّة)

فاعلم، أنّ مطالعة آيات القرآن كما هي مخصوصة بطوائف مختلفة من الّذين سبقت ذكرهم بالنّسبة إلى أهل الظّاهر كعلماء العربيّة بأسرها كاللّغة و النّحو و الصّرف و المعاني و البيان و غير ذلك من الأصول و الفروع و الحديث، و الأخبار المنحصرة في السّبعة إجمالا تطبيقا بالقول النّبوي:

انّ للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة أبطن. (قد مرّ في الرقم ٣٢٧).

و أمّا بالنّسبة إلى أهل الباطن، فكالعالم بعلم التوحيد و أسراره و حقائقه، و علم الذّات و الصّفات و الأفعال، و علم النبوّة و الولاية و الرّسالة، و علم الوحي و الإلهام و الكشف، و علم الإسلام و الإيمان و الإتقان، و علم الحشر و النّشر و المبدأ و المعاد، و علم البرازخ المبتدائيّة و المنتهائيّة، و علم الثّواب و العقاب، و أمثال ذلك المنحصرة في

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۱۲

السبعة أيضا إجمالا لا تفصيلا مطابقا للظّاهر، لأنّ لكلّ ظاهر باطن كما أنّ لكلّ باطن ظاهر، فكذلك مطالعة آيات اللّه الآفاقيّة، فإنّها أيضا مخصوصة بطوائف مختلفة من أهل الظّاهر و أهل الباطن.

أمّا أهل الظّاهر، فمنهم المتدبّر و المتفكّر و المتعقّل و المؤمن و المتفقّه و المتوسّم و المتذكّر كما سبق ذكرهم عند بحث التّقوى.

و أمّا أهل الباطن، فمنهم المتّقين، و المحقّق، و الموحّد، و العارف، و الكامل، و الراسخ، و قد شهد القرآن بتعداد هذه الطوائف كلّها كما عرفتها في المقدّمات السابقة.

فالطائفة الأولى مثلا كما يمكن تخصيص المعاني المذكورة بهم بالطايفة الأخيرة، منهم الّذي هو العالم، فكذلك الطّائفة الثانية فإنّه يمكن تخصيص المعاني المخصوصة بهم من حيث الباطن بالطّايفة الأخيرة، منهم الّذي هو الرّاسخ لأنّ الأعلى منهم دائما جامع للأدون من غير العكس حتّى الأخير فإنّه جامع للكلّ، و قد عرفت هذا أيضا في بحث الرّسالة و النبوّة و الولاية، و خصوصيّة مشرب كلّ واحد منهم بنفسه دون الغير، فإنّ مشرب الولاية ليس مشرب النبوّة، و لا مشرب النبوّة مشرب الرّسالة، و كذلك جميع المراتب و الأطوار المشتملة على الإدراكات و المشارب المتناهية بحسب الكلّيّات الغير المتناهية بحسب الجزئيّات، لقوله تعالى:

يُسْقىٰ بِمٰاءٍ وٰاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهٰا عَلىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ [سورة الرعد: ٤].

فإنّ هذا إشارة إلى كثرة المشارب مع أنّها في الحقيقة واحدة، لقوله تعالى:

وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَةٌ [سورة القمر: ٥٠].

و ذلك يعرف من أطوار الإنسان و إدراكاته في كلّ طور من أطواره مثلا، فإنّ إدراك الطّفل الرّضيع فوق إدراك الجنين، مع أنّ الجنين له إدراك خاصّ، و كذلك الطفل المتميز فإنّ إدراكه فوق إدراك الطفل الرّضيع مع أنّ الرّضيع له إدراك خاصّ، و كذلك الشّابّ العاقل فإنّ إدراكه فوق إدراك الطّفل المتميّز، و كذلك الرجل الكهل بالنّسبة إلى الشّابّ، و كذلك الشّيخ بالنسبة إلى الكهل، فكذلك كلّ طائفة من الطوائف السّبعة المذكورة كالعارف و المحقق، و الموحّد، و الموقن، و الكامل، و المكمّل، و الرّاسخ، فإنّ

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۱۳

إدراك كلّ واحد منهم خلاف ذلك الآخر كالولاية، و الّذي في طورها بالنّسبة إلى النّبوة، و كالنبوّة و الّذي في طورها بالنسبة إلى الرّسالة، و كالرّسالة و الّذي في طورها، فإنّها الغاية.

فالطّائفة الّتي طورهم إدراكات المحسوسات هم محرومون من إدراكات العقول كالبهائم بالنّسبة إلى الإنسان، و الطائفة الّتي طورهم إدراكات المعقولات هم محرومون من إدراكات أهل الشّهود، و أرباب الذّوق و أرباب الشّهود إلى أهل الولاية كذلك، و أهل الولاية بالنسبة إلى النّبوة كذلك، و أهل النّبوة بالنّسبة إلى الرّسالة كذلك، و فوق كلّ ذي (علم) عليم، و لهذا يكون الوليّ دائما تابعا للنبيّ، و النبيّ تابعا للرّسول، لأنّه ليس فوق إدراك الرّسالة مدرك، و تلك الأمثال نضربها للنّاس و ما يعقلها إلاّ العالمون.

و الغرض من ذلك كلّه أنّ العالم بالعلوم السبعة المذكورة المخصوصة بالطايفة السبعة المعلومة، كما أنّه إذا نظر إلى آية من آيات القرآن حصل له المعاني السّبعة المذكورة دون الطوائف الّتي هم تحته، فالعالم الرّاسخ في العلوم السّبعة

المخصوصة بهم كذلك، فإنّه إذا نظر إلى آية من آيات الكتاب الآفاقي له المشاهدة السّبعة المخصوصة بالطّايفة السبعة.

(في كيفيّة مطالعة أهل الظاهر و أهل الباطن في القرآن و الآفاق)

فكما أنّ مطالعة آيات القرآن و مشاهدة معانيه و أسراره ليس إلاّ وظيفة أرباب العقول السّليمة المتمكّنون من استخراج المعارف و الحقائق منه، فكذلك مطالعة آيات الآفاق، و مشاهدة معانيه و أسراره ليس إلاّ وظيفة أرباب الكشف و الذّوق المتمكنون من الإطلاع على حقائقها و دقائقها لقوله تعالى:

وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ [سورة آل عمران: ٧].

فأرباب الظّاهر بالنسبة إلى القرآن كأنّهم وقفوا على تحصيل العلوم الظاهرة السبعة المتعلّقة بالقرآن و لا تجاوزوا عنها من علم اللغة و النحو، و الصرف، و القراءات، و التّفسير و الأحكام الظّاهرة و القصص و الأمثال و غير ذلك.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥١٤

و أرباب الباطن ما رضوا بهذا بل شرعوا فيه بحسب التأويل و استخرجوا منه المعاني الشريفة و المعارف الدّقيقة مطابقا للظاهر غير مانعة عنه، فكذلك أرباب الظّاهر بالنّسبة إلى الآفاق و آياته فإنّهم وقفوا على مشاهدة الملك و عالم الحسّ الظاهر من الأفلاك السّبعة العلويّة، أو العناصر و المواليد السّبعة السّفليّة و لا يتجاوزوا عنها بل رضوا بمعرفة ظواهرها و المشهور منها.

و أرباب الباطن ما رضوا به بل شرعوا في مشاهدة الملكوت و عالم الغيب من العقول و النّفوس و الأرواح المجرّدة المندرجة تحت تلك العوالم، لقوله تعالى:

بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ [سورة يس: ٨٣].

حتّى شاهدوا ما شاهدوا و عرفوا ما عرفوا و ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء و اللّه ذو الفضل العظيم.

فكلّ من شاهد و طالع الكتابين المذكورين على الوجه المذكور و الترتيب المعلوم استدلّ من الأوّل على الثّاني، و وصل من اللفظ إلى المعاني و صعد من الملك إلى الملكوت و من الملكوت إلى الجبروت، و شاهد و عرف أنّ جميع ما في الوجود الموجودات الروحانيّة و الجسمانيّة اللّطيفة و الكثيفة آية من آيات اللّه، و علامة من علاماته يستدلّ بها على ذاته و صفاته و أقواله، لقوله:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلاٰ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ٥٣- ٥٤].

لأنّ هذه الأمّة مخصوصة بهذه المشاهدة فقط كما بيّناه مرارا و سنبينها إن شاء اللّه، و فيه قيل:

و في كلّ شيء له آية   تدلّ على انّه واحد

«٣٣٠» فويل ثمّ ويل على من يكون محروما من هذه المطالعة، ممنوعا من هذه المشاهدة

---

(٣٣٠) قوله: و في كلّ شيء له آية، (شعر).

ذكره ابن عربي في الفتوحات ج ١، ص ١٨٤، و نسبه إلى العتاهيّة المتوفّى ٣١٠.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥١٥

موقوفا على ظواهر الآيات، و ظواهر الأشياء، داخلا في حكم قوله تعالى:

يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ [سورة الرّوم: ٧].

و كأنّه تعالى بالنسبة إليهم قال:

هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ رُسُلِي هُزُواً [سورة الكهف: ١٠٣- ١٠٦].

و الآيات الدالّة على مذمّة هؤلاء الّذين غفلوا عن مطالعة آياته القرآنيّة و مشاهدة آياته الأنفسيّة كثيرة، و ذكر الكلّ متعذّر لكن لا بدّ من بعضها تنبيها و تعريضا قبل أن نشرع في إتمام البحث الّذي كنّا في صدده، فمن الآيات قوله تعالى:

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ [سورة الأعراف: ١٧٥- ١٧٨].

فإنّ هذا و إن كان خاصّ بقصّة بلعام بن باعورا، الّذي كان من علماء اليهود و أحبارهم، لكن هو خطاب إلى عموم المسلمين و تفريع لهم على سبيل التّنبيه و الاستهزاء، و يدلّ عليه قوله:

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، إلى آخره [سورة الأعراف: ١٧٦].

لأن بلعام بسبب إعراضه عن مطالعة آياته المعنويّة كالقرآن، و آياته الصّوريّة كالآفاق صار مسخا بصورة الكلب أو الخنزير على اختلاف الرّوايات صورة كان أو معنى، و على جميع التقادير صار مستحقا لغضب اللّه و سخطه نعوذ باللّه منه.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥١٦

و منها قوله تعالى:

سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ [سورة الأعراف: ١٤٦- ١٤٧].

فإنّ هذا قريب إلى القول الأوّل لفظا و معنى.

و منها قوله تعالى:

قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى [سورة طه: ١٢٦].

و قوله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ [سورة الأنعام: ۱۵۷].

و قوله تعالى:

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ [سورة الرّوم: ١٦].

و قوله تعالى:

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ [سورة الجاثية: ٦].

و قوله تعالى:

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ [سورة المطفّفين: ۱۳- ۱۵].

و قوله تعالى:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۱۷

أَ فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [سورة محمّد: ٢٤].

و معلوم أنّ هذه الأقوال راجعة إلى جماعة هم معرضون عن آياته، إمّا بالإنكار و عدم القبول مطلقا كالكفّار و المشركين و المنافقين و اليهود و النصارى و المجوس و أمثالهم، و إمّا بالإعراض عنها و عدم القيام بعجائبها و إدراك معانيها.

و عند التحقيق أكثر هذه الإشارات إشارة إلى المعرضين عنها بعد القبول و الإقرار بها كالمسلمين المنحرفين عن فحاويها على ما هي عليها في نفس الأمر و الواقفين على ظواهرها آفاقية كانت الآيات أو قرآنية، و الّذي يفهم من هذه الأقوال و هو أنّه تعالى نظره كان على الآيات الآفاقيّة أكثر و يعضد ذلك قوله:

وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ [سورة يوسف: ١٠٥].

و قوله:

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ۵۳- ٥٤].

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ [سورة الرّوم: ٨].

و بالجملة جعل المنكر لآياته الآفاقيّة و القرآنيّة مطلقا، و المقرّ الّذين لا يقوم بهما على ما هي عليهما تارة كالكلب و تارة كالبهائم و تارة كالسبع، و تارة كالمشرك، و تارة أعمى، و تارة أصمّ، و تارة أبكم، و فاسقا و محجوبا، و غافلا و ميّتا، و مريضا، حتّى جعلهم شرّ الدّوابّ، لقوله:

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ [سورة الأنفال: ٢٢].

و الدليل على ذلك غير ما قلناه قبل هذا، قوله:

لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [سورة الأعراف: ۱۷۹].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۱۸

و قوله:

لاٰ تَعْمَى الْأَبْصٰارُ وَ لٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [سورة الحج: ٤٦].

و قوله:

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ [سورة البقرة: ١٧١].

و قوله:

وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ هُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوٰابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ وَ لَوْ عَلِمَ اللّٰهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ [سورة الأنفال: ٢٢].

و غير ذلك من الأقوال لأنّ هذا الصمّ و العمى و البكم و غيرها من الأوصاف ليس بحسب الصّورة لأنّهم بحسب الصّورة كانوا يسمعون و ينطقون و يبصرون بل كان بحسب المعنى و يؤكّد ذلك قوله أيضا:

إِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ وَ لاٰ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَ مٰا أَنْتَ بِهٰادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَ إِذٰا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دٰابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّٰاسَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا لاٰ يُوقِنُونَ وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُ قٰالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآيٰاتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهٰا عِلْماً أَمّٰا ذٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا فَهُمْ لاٰ يَنْطِقُونَ [سورة النمل: ٨٠- ٨٥].

و هذا إشارة إلى عمائهم و عدم استعدادهم في المعاد بسبب إنكارهم الآية و عدم شروعهم فيها بحسب البصيرة و الباطن دون البصر و الظّاهر حتّى جعلهم كافرا، لقوله:

وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ فَالَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هٰؤُلاٰءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلاَّ الْكٰافِرُونَ [سورة العنكبوت: ٤٧].

و لقوله:

وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ [سورة المائدة: ٤٤].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥١٩

وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ [سورة المائدة: ٤٧].

وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ [سورة المائدة: ٤٥].

فكيف يكون حال طائفة يكونون هم أعظم من الملائكة في الشّرف و الرّتبة، و بل أشرف من جميع الموجودات و المخلوقات في الصّورة و المعنى، بأفعالهم و إهمالهم أوامر اللّه تعالى و مشاهدة آياته في الآفاق و الأنفس و القرآن الجامع بينهما بحيث يسميهم اللّه تعالى كافرا و كلبا و خنزيرا و منافقا و مشركا و دوابّا، و يجعلهم أحسن منهم في الدنيا و الآخرة، نعوذ باللّه من هذا، فيجب على كلّ عاقل حينئذ الانتباه من نوم الغفلة، و التّيقظ من رقدة الجهالة، فإنّ العاقل لا يرضى لنفسه أن يكون متصفا بهذه الأوصاف، مخلّقا بهذه الأخلاق، لأنّه إذا تنبه و تيقظ و رجع إلى اللّه تعالى بالتّوبة و الإنابة، و قام بعبادته حقّ العبادة فتح عين بصيرته و كشف عن عين قلبه غطاء الأنانيّة و الغيريّة و أدخله في عبادة الّذين حصل لهم هذه المطالعة في آياته القرآنيّة و الآفاقيّة، و وصلوا إلى مشاهدته فيهما كشفا و عيانا و ذوقا و وجدانا و صار من الّذين يشربون من رحيق مختوم ختامه مسك من جنّات الذّات و الصّفات و الأفعال و المعارف و الحقائق مطلقا، لقوله تعالى فيهم:

كَلاّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ [المطفّفين: ١٨- ٢٨].

و إن لم يفعل ذلك و يبقى على حاله الّذي هو عليه من الجهل و الغفلة يكون حاله بعكس ذلك في العاجل و الآجل، و المبدأ و المعاد و يصير مستحقّا للحميم و الزّقوم و الغسلين و يدخل مدخل الفجّار و الكفّار و الأسرار، لقوله تعالى فيهم:

هذا وَ إِنَّ لِلطّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسّاقٌ [سورة ص: ٥٥- ٥٧].

و يصدق عليه كل ما يصدق عليهم، لقوله تعالى أيضا:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٢٠

إِنَّ كِتابَ الْفُجّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ كِتابٌ مَرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلاّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [سورة المطفّفين: ٧- ١٧].

و كلّ ذلك لعدم مطالعته الآيات القرآنيّة الجمعيّة و عدم مشاهدته الآيات الفرقانيّة الآفاقيّة.

و الحمد للّه الّذي هدانا لهذا و ما كنّا لنهتدي لو لا أن هدانا اللّه، و نعم ما قال تعالى جلّ ذكره بالنّسبة إلى الطائفة الأخيرة الموسومة بالفجّار الّتي هي في مقابلة الأبرار و هو قوله:

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ [سورة المطفّفين: ٢٩- ٣٦].

و المراد بذلك أن في زمان النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا هناك جماعة يستهزئون بأهل اللّه و أرباب التّوحيد و التأويل و يتغامزون في حقّهم و ينكرون على طريقتهم، لا اليوم خاصّة، و عند التّحقيق ليس إنكار هذا اليوم إلاّ نتيجة ذاك اليوم لأنّ هؤلاء المنكرين الّذين هم في هذا الصّدد ليسوا إلاّ أولادهم و أولاد أولادهم لقولهم:

إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [سورة الزّخرف: ٢٣].

نعوذ باللّه منهم و من أمثالهم، و نعم ما قال الشاعر في هذا المعنى:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني   أو كنت تعلم ما نقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي و عذلتني   و علمت أنّك جاهل فعذرتكا

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ

[سورة الأنعام: ١١٢].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۲۱

و إذا تقرّر هذا، و تحقّق أنّ مطالعة الآيات القرآنيّة موقوفة على مطالعة الآيات الآفاقيّة، و ثبت أنّ معرفة اللّه تعالى حقيقة أعني من حيث الكشف و الشهود موقوفة على مطالعتهما فلنشرع في تأويل بعض الآيات المتعلّقة بهذا البحث لئلاّ يتوهّم الجاهل أنّ هذا الكلام كلام من غير أصل و لا حاصل له، لأنّ كلّ شخص يكون عاريا عن فضيلة لا يصدّق بوجود تلك الفضيلة في بعض آخر و بل ينكر عليه.

في انّ معرفة الحقيقي موقوفة على مطالعة القرآن و الآفاق معا

و هذا البحث و هذا التأويل نجعله في قاعدتين:

الأولى، في تأويل قوله تعالى:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ [سورة فصّلت: ۵۳].

و الثّانية، في قوله تعالى:

اللّهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ [سورة النور: ۳۵].

و نبسط فيهما الكلام على ما ينبغي ليتحقّق عندك هذا البحث على ما هو عليه في نفس الأمر و اللّه يقول الحقّ و هو يهدي السبيل.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۲۲

القاعدة الأولى

الّتي هي في تأويل قوله:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ [سورة فصّلت: ۵۳].

فاعلم، أنّ قوله: سنريهم إلى آخره، معناه أنّه يقول لعباده المخلصين: سنكمل عين بصيرتكم بنور عنايتنا و هدايتنا ليحصل لكم بذلك استعداد مطالعة آياتنا الآفاقيّة و الأنفسيّة و قابليّة مشاهدتنا العيانية في ضمن كلّ واحدة منها و يتبين لكم انّه ليس في الوجود غيرنا و غير أسمائنا و صفاتنا و أفعالنا لأنّ غيرنا ليس إلاّ العدم المحض و اللاّشيء الصّرف، و لهذا قال العارف من عبادنا: ليس في الوجود سوى اللّه تعالى و أسمائه و صفاته أفعاله فالكلّ هو و به و منه و إليه، و قلنا نحن بأنفسنا:

كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [سورة القصص: ۸۸].

ليعلم أنّ كلّ ما يقع على اسم الشيء غير ذاتنا فهو هالك في نفس الأمر أزلا و أبدا لأن الوجود المضاف إليه وجود مجازي عارضيّ اعتباريّ في معرض الزّوال و الهلاك دائما أبدا، و لهذا أكّدنا بقولنا أيضا و قلنا:

كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِكْرٰامِ [سورة الرّحمن: ۲۷].

لأنّ الكلّ عند التحقيق معرض الفناء و الهلاك حيث ماله وجود حقيقي، و فيه قيل:

الباقي باق في الأزل   و الفاني فان لم يزل

و قيل في جواب: كان اللّه و لم يكن مع شيء: الآن كما كان «٣٣١».
لأنّه ليس في الحقيقة معه غيره، لأنّ غيره عدم صرف و لا شيء محض وليه له قوّة المعيّة مع الوجود، و لا الحقّ تعالى جلّ ذكره:
و الوجه باتّفاق عبارة عن وجوده و ذاته و حقيقته فيكون تقديره أنّ كلّ شيء غير

---

(٣٣١) قوله: و قيل في جواب.
راجع تعليقتنا الرقم ١٦ و ١٦٣، و في الجزء الأوّل الرقم ٨٧ و ٨٨، ص ٣٥٢.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٢٣

ذاته و وجوده و حقيقته، فان هالك مضمحلّ، و هذا هو الصّحيح الواقع لقوله أيضا:
هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة الحديد: ٤].
لأنّ الأوصاف الأربع شامل لجميع الجهات و جميع الأوصاف المترتبة عليها و لهذا قال:
فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ [سورة البقرة: ١١٥].
لأنّ الوجه ليس إلاّ الذات، و الذّات هو الوجود، و الوجود هو المحيط المطلق، و جميع الأشياء محاطاته و مقيّداته كما قال:
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ٥٤].
و إذا تقرّر هذا، فاعلم، أنّ المحيط لا ينفك عن المحاط و لا المحاط عن المحيط و مع ذلك لا يكون مخصوصا بمحاط دون محاط و لا بجهة دون جهة بل يكون بالنّسبة على الكلّ على سواء، و هذا يسمّى إحاطة وجوديّة و معيّة عامّة، فأمّا الإحاطة الصفاتيّة و المعيّة الفعليّة فتلك للأنبياء و الرّسل و الأولياء و الكمّلين و تلك أعزّ من الكبريت الأحمر و الغراب الأبيض و قد سبق ذكرها مرارا.
و أمّا المعيّة العامّة الوجوديّة فتلك معلوم من قوله:
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصّلت: ٥٤].
لكن قوله تعالى عقيب الآية:
أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ.
يشهد بذلك صريحا، لأنّه يقول على سبيل التنبيه، أي لم يكف لعبادنا في مشاهدتنا إنّهم يشاهدونا في كلّ ذرّة من ذرّات الوجود و مظهر من مظاهره في كلّ لمحة و لحظة و بل في كلّ آن حتّى يرجعون لقاءنا و ينتظرون شهودنا في مشهد غير هذا المشهد و يوم غير هذا اليوم و كيف يمكن مشاهدة المحيط بدون مشاهدته في المحاط أو مع المحاط و كيف يتصوّر مشاهدة المطلق بدون مشاهدة المقيّد لأن المحاط عين المحيط

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٢٤

بوجه و إن كان بوجه آخر غيره، كذلك المقيّد فلا يمكن حينئذ مشاهدة المحيط إلاّ في المحاط، و لا مشاهدة المطلق إلاّ في المقيّد و لهذا قال:

أعلم الخلق بذلك و هو نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله:

من عرف نفسه فقد عرف ربّه «۳۳۲».

و قال:

من رآني فقد رأى الحقّ «۳۳۳».

و قال غيره:

ما رأيت شيئا إلاّ و رأيت اللّه فيه قبله «۳۳۴».

و قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

مع كلّ شيء لا بمقارنة و غير كلّ شيء لا بمزايلة «۳۳۵».

ليعلم أنّ المقارنة يكون بين الشيئين أو بين الجسمين و ليس هناك في الحقيقة إلاّ

---

(۳۳۲) قوله: من عرف نفسه فقد عرف ربّه.

راجع الجزء الأوّل ص ۲۴۳ تعليقتنا الرقم ۳۰.

(۳۳۳) قوله: من رآني فقد رأى الحقّ.

أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الرؤيا باب قول النبيّ (ص) من رآني ...) ج ۴، ص ۱۷۷۶، الحديث ۲۲۶۷، بإسناده عن النّبي (ص). و ابن حنبل أيضا في مسنده ج ۳، ص ۵۵، و ج ۵، ص ۳۰۶. و ذكره المجلسي أيضا نقلا عن كتب السنّة، في البحار ج ۶۱، ص ۲۳۵. و أخرجه البخاري في مقدمة كتاب التعبير باب من رأى النّبي (ص) في المنام الحديث ۱۸۳۰، ج ۹، ص ۶۵۳. [.....]

(۳۳۴) قوله: ما رأيت شيئا.

رواه الصدر المتألهين عن أمير المؤمنين عليّ عليه آلاف التّحية و السّلام و كتابه مفاتيح الغيب ص ۶۰، و أيضا رواه الفيض الكاشاني في (علم اليقين) عنه عليه السّلام- و رواه الشيخ الأكبر في الفتوحات ج ۳، ص ۱۱۶ باب ۳۳۱ من غيره كما في المتن.

(۳۳۵) قوله: مع كلّ شيء.

نهج البلاغة، الخطبة الاولى.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۵۲۵

شيء واحد فكيف يتصوّر المقارنة بين الشيء و نفسه، كذلك المزايلة فإنّ المزايلة هي إزالة الشيء عن شيء آخر و ليس هناك شيئان حتّى يتصوّر هذا فلا يزول الشيء عن نفسه أصلا، و لهذا قال عليه السّلام:

و إنّه لبكلّ مكان و مع كلّ إنس و جانّ، و في كلّ حين و أوان «۳۳۶».

و قال:

و لا يجنّه الظهور عن البطون و لا يقطعه البطون عن الظهور ظهر فبطن، و بطن فعلن، و قرب فنال، و علا فدنا، و دان و

لم يدن «۳۳۷».

و قال:

و الشاهد لا بمماسّة، و الباطن لا بتراخي مسافة، و الظاهر لا برؤية، و الباطن لا بلطافة، بان من الأشياء بالقهر لها و القدرة عليها، و بانت الأشياء منه بالخضوع له و الرّجوع إليه «۳۳۸».

و كلّ ذلك إشارة إلى وحدته الذاتيّة الوجوديّة، و ظهوره في المراتب الأسمائيّة و الصفاتيّة المسمّاة بالكلمات و الآيات الإلهيّة مطابقا للأقوال المتقدّمة.

و حيث إنّ هذا البحث يريد بسطا غير هذا بعد أن بسطنا الكلام فيه غير مرّة، فلنشرع فيه في القاعدة الثّانية على سبيل البسط و هو هذا و اللّه أعلم و أحكم.

---

(۳۳٦) قوله: و إنّه لبكلّ مكان.

نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۵.

(۳۳۷) نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۵ و فيه:

«و لا يجنّه البطون عن الظهور، و لا يقطعه الظهور عن البطون، قرب فنأى، و علا فدنا، و ظهر فبطن، و بطن فعلن، و دان و لم يدن».

(۳۳۸) قوله: و الشاهد لا بمماسّة.

نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۲.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۲٦

و أمّا القاعدة الثّانية

الّتي هي في تأويل قوله:

اللّهُ نُورُ السَّماٰوٰاتِ وَ الْأَرْضِ ...

فاعلم، أنّ قوله:

اللّهُ نُورُ السَّماٰوٰاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكٰاةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ الْمِصْبٰاحُ فِي زُجٰاجَةٍ الزُّجٰاجَةُ كَأَنَّهٰا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبٰارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاٰ شَرْقِيَّةٍ وَ لاٰ غَرْبِيَّةٍ ... [سورة النور: ۳۵].

معناه: أي اللّه وجود السّماوات و الأرض و ما بينهما في الحقيقة، لأنّ النور بمعنى الوجود كما أنّ الظّلمة بمعنى العدم، لأنّه ليس في السّموات و الأرض و ما بينهما المعبّر عنه بالعالم إلاّ هو و وجوده، و إن قلت: هو اللّه الظّاهر في السّماوات و الأرض و ما بينهما و الكلّ مظهره، يكون تقديره: أنّ مثل نوره الّذي هو الوجود مثل نور حسّي في مشكاة فيها زجاجة و في تلك الزّجاجة مصباح مضيئ أي مظهر لذاته و مظهر لما عداه من الأجسام الشّفّافة القابلة للإضاءة، و المشكاة في هذا المقام يكون عبارة عن عالم الأجسام مطلقا، و الزّجاجة عن عالم الأرواح مطلقا، و المصباح عن عالم العقول مطلقا، و بناء على هذا يكون معناه:

هو اللّه الحقّ الظّاهر في هذه المظاهر و المراتب كلّها بذاته و المظهر لغيره من الممكنات الموسومة بالمظاهر و المشكاة

و الزّجاجة و المصباح لأنّ النّور الحقيقي هو الّذي مظهر بذاته و يظهر الأشياء به كالشّمس مثلا فإنّها كذلك، أعني هي ظاهرة بنفسها و مظهرة لغيرها، و الحقّ تعالى حيث كان كذلك و أظهر الأشياء بنفسه بعد أن كان ظاهرا بنفسه أزل الآزال و أبد الآباد سمّي بنفسه بالنّور و جعل النّور اسم من أسمائه و ذلك لشدّة ظهوره بنفسه و ظهور الأشياء به، و قد يقرّر في بحث الأسماء و المظاهر الأسمائيّة أنّ الشّمس من بين الموجودات وقعت مظهر اسمه النّور، و كذلك يوسف عليه السّلام و أثر ذلك ظاهر فيهما شايع من أثرهما، و تلك الأمثال نضربها

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۲۷

للنّاس و ما يعقلها إلاّ العالمون، و حيث كان نسبة الخلق إلى نوره الحقيقي الخفافيش.

قال العارف:

خفي لإفراط الظهور تعرضت لإدراكه أبصار قوم أخافش

و حظّ العيون الرزق من نور وجهه لشدّته حظّ العيون العوامش

و قد سبقت هذه الأبيات مرّة أخرى.

و المراد أنّه من شدّة ظهور في مظاهر السّماوات و الأرض المعبّر عنها بالمشكاة و المصباح و الزّجاجة، و كمال إظهاره الأشياء شيئا بعد شيء صار خفيّا كأنّه غيب و غيره شهادة، و الحال أنّ القضيّة بالعكس لأنّه الظّاهر في الحقيقة ظهورا لا خفاء له أصلا بوجه من الوجوه، و غيره خفي في الحقيقة خفاء لا ظهور له أصلا بوجه من الوجوه، كما قال العارف بذلك في قوله السابق على هذه الأقوال و هو قوله:

العالم غيب لم يظهر قطّ و الحقّ تعالى هو الظّاهر ما غاب قطّ

و النّاس في هذه المسألة على عكس الصّواب فيقولون: العالم ظاهر و الحقّ تعالى غيب، فهم بهذا الإعتبار في مقتضى هذا الشّرك، كلّهم عبيد للسوى و قد عاف اللّه تعالى بعض عبيده عن هذا الدّاء و الحمد للّه.

و الّذي ورد في الحديث القدسي أنّه تعالى قال:

كنت كنزا مخفيّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق «۳۳۹».

لا ينافي ما ذكرناه، فإنّ مراده هذا:

أي كنت مخفيّا عن أعين المحجوبين فأردت أن أظهر في أعين المحبّين ففتحت عن بصيرتهم حتّى شاهدوني على الوجه المذكور و ظهر لهم سرّ قول فيه:

هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة الحديد: ٤].

و بالجملة نرجع إلى ما كنّا بصدده و نقول:

(۳۳۹) قوله: كنت كنزا مخفيّا.

راجع تعلقتنا الرقم ۱۵۷.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۵۲۸

حيث ثبت إنّه وجد كلّ ما وجد بوجوده و ظهر كلّ ما ظهر بنوره فكان وجود السّماوات و الأرض و ما بينهما أي مظهر سماوات الأرواح و الرّوحانيات، و موجد عالم الأجسام و الجسمانيّات بل عين وجودهما و وجود ما فيها من الموجودات و المخلوقات، لأنّه هو الوجود المطلق الّذي به وجد كلّ ما وجد من الموجودات المقيّدة و به ظهر كلّ ما ظهر من المخلوقات المكنونة في كتم العدم المعبّرة عنها بالمشكاة و الزّجاجة و المصباح على ما بيّناه، بناء على هذا طابق قولنا قوله:

سوى اللّه تعالى و أسمائه و صفاته و أفعاله فالكل هو و به و منه و إليه قوله هو الأوّل و الآخر و الظّاهر و الباطن و هو بكلّ شيء عليم.

و صدق في قوله من قال:

لقد ظهرت و لا تخفى على أحد إلاّ على أكمه لا يعرف القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف متسترا؟

و يعرف سرّ هذا أيضا من مولانا و سيّدنا سلطان الأولياء و الوصيين أمير المؤمنين عليه السّلام جوابا لسؤال كميل بن زياد النخعي رضي اللّه عنه عن الحقيقة: نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره.

لأنّ النّور، إشارة إلى ذلك النّور، و إشراقه من صبح الأزل، إشارة إلى ظهوره بصورة المظاهر أزل الآزال من غير تصوّر تقديم زمان و لا مكان، و تلويحه على هياكل التوحيد و آثاره، إشارة إلى شدّة ظهوره بصورة الكثرة المرتفعة عنه التّوحيد الحقيقي المعبّرة عنها بالوجود الإضافي المسقط عند اسقاطه لقولهم:

التّوحيد إسقاط الإضافات.

و عند التحقيق لفظ الهياكل و المظاهر و المشكاة و الزّجاجة و المصباح، ألفاظ مترادفة صادقة على حقيقة واحدة باعتبارات مختلفة، و فيه قيل:

العين واحدة و الحكم مختلف و ذلك سر لأهل العلم ينكشف

و مثال ذلك مثال وجه واحد في مقابلة مرايا كثيرة، فإنّ في كلّ مرآة منها يظهر وجه آخر على وضع تلك المرآة من غير

تبديل و تغيير في الوجه المذكور كما قيل:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج٢، ص ٥٢٩

و ما الوجه إلاّ واحد غير أنّه

إذا أنت أعددت المرايا تعدّدوا

و هذا البيت ناطق بجميع الأسرار التّوحيديّة لكن لا يعرفها إلاّ أهلها و ليس الغرض هاهنا هذا البحث، بل بحث الوجود و العدم و النور (و) الظّلمة و كيفيّة ظهور الحقّ بصور المظاهر الآفاقيّة و الأنفسيّة، و بيان ذلك لا يتيسّر إلاّ بعد تحقيق النّور و الظّلمة و الوجود و العدم عقلا و نقلا.

أمّا عقلا، فالّذي ذكره الغزالي في مشكاة الأنوار و هو قوله «(٣٤٠)»:

لا ظلمة أشدّ من كتم العدم، لأنّ المظلم يسمّى مظلما لأنّه ليس للإبصار إليه وصولا إذ ليس يصير موجودا للبصر مع أنّه موجود في نفسه، و الّذي ليس موجودا لا لغيره و لا لنفسه كيف لا يستحقّ أن يكون هو الغاية في الظلمة ففي مقابلته الوجود فهو النور لأنّ الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره.

و قال عقيبه:

و الوجود أيضا ينقسم إلى ما للشّيء في (من) ذاته، و إلى ماله من غيره، و ماله الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه بل إذا اعتبرته من حيث ذاته فهو عدم محض و إنّما هو موجود من حيث نسبته إلى غيره و ليس ذلك بوجود حقيقيّ، فالموجود الحقيقي الحقّ هو الله تعالى المسمّى بالنّور و الوجود و له الوجود الحقيقيّ دون غيره و إليه أشار بقوله:

كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [سورة القصص: ٨٨].

و يؤيّد ذلك أيضا قوله عقيب الآيات المذكورة في صفة الكفّار:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ كَسَرٰابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مٰاءً حَتّٰى إِذٰا جٰاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفّٰاهُ حِسٰابَهُ وَ اللهُ سَرِيعُ الْحِسٰابِ [سورة النور: ٣٩].

---

(٣٤٠) قوله: فالّذي ذكره الغزالي.

ذكره في مشكاة الأنوار، الفصل الأوّل، ص ٤٦، ط القاهرة.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٣٠

أَوْ كَظُلُمٰاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشٰاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحٰابٌ ظُلُمٰاتٌ بَعْضُهٰا فَوْقَ بَعْضٍ إِذٰا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرٰاهٰا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّٰهُ لَهُ نُوراً فَمٰا لَهُ مِنْ نُورٍ [سورة النور: ٤٠].

لأنّ قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ كَسَرٰابٍ بِقِيعَةٍ ....

إشارة إلى الّذين احتجبوا عن وجوده بوجود الغير و تقيّدوا به، و ما شاهدوه على ما هو عليه، فإنّ أعمال هؤلاء و أفعالهم و أحوالهم و اعتقادهم يكون كسراب بقيعة أي معدومات بأنفسها موجودات بحسبان غيرها بحيث إليه ذلك الغير لم يجده شيئا بل يجده عدما صرفا و لا شيئا محضا، كما قال: فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰاءً مَنْثُوراً، و قوله:

أَوْ كَظُلُمٰاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشٰاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ [سورة النور: ٤٠].

إشارة إلى حال هذا الكافر الّذي شاهد الغير مع وجوده، و تقديره: أنّ هذا الكافر مع هذا النّظر و الاعتقاد و الأعمال في ظلمات بحر التعيّنات و التقيّدات المعدومة في نفس الأمر يغشاه موج أي يغشاه موج التعيّنات الخارجيّة ساعة فساعة و يستغرقه في ظلمات بحر العدم و ظلمات و بحر الطبيعة الكلّيّة الّتي لا نهاية لها ليحجبه عن مشاهدة الوجود المطلق المعبّر عنه بالحقّ تعالى جلّ ذكره و يبقى هو في الحجاب أبدا دائما.

و قوله: من فوقه سحاب، أي تراكم التعيّنات الغير المتناهية و ظلمتها الّتي هي كالسّحاب بالنّسبة إلى شمس الوجود الحقيقي ظلمات بعضها فوق بعض أي تعيّنات بعد تعيّنات و أمواج بعد أمواج إلى غير نهاية و هي على ثلاثة مراتب:

ظلمة محجوبيّته عن الحقّ بنفسه و انانيّته.

و ظلمة محجوبيّته عن الحقّ بتعيّنات عالم الملك.

و ظلمة محجوبيته عن الحقّ بتعيّنات عالم الملكوت.

بحيث إذا أخرج يده لم يكد يراها، أي بحيث إذا أراد أن يخرج من هذه الظّلمات لم يتمكّن من شدّتها و صعوبتها و غلظها لأنّ الإخراج من الظّلمات مطلقا موقوف على حصول النّور الّذي هو ضدّها خصوصا الظّلمات المذكورة، لأنّ الإخراج منها بلا نور من اللّه تعالى لا يمكن أصلا، و إليه الإشارة بقوله عقيبه فمن لم يجعل اللّه نورا فماله من

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٣١

نور، و لهذا أمر عباده بطلب النّور منه بقوله:

رَبَّنٰا أَتْمِمْ لَنٰا نُورَنٰا [سورة: الآية ٨].

و قال في جوابهم، قيل:

ارْجِعُوا وَرٰاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً [سورة الحديد: ١٣].

حتّى يرجعون إلى ورائهم الّذي هو العدم و الفناء، لقوله:

وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً [سورة مريم: ٩].

و يطلبون منه نور الشّهود الوجودي في عالم التّوحيد الحقيقي، و هذا هو المعبّر في اصطلاحهم الفناء في التوحيد، و ذلك لأنّ ظلمات تعيّنات الوجود الإضافي لا يرتفع إلاّ بنور الوجود الحقيقي، و مشاهدة الحقّ تعالى جلّ ذكره على الوجه المذكور، و الأنبياء و الأولياء دائما كانوا يطلبون منه تعالى استغراقهم في هذا النّور لكن تخلّصوا من ظلمات مشاهدة الغير مع وجوده، و منهم نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنّ له في هذا دعاء خاصّا و هو قوله:

اللّهمّ اجعل لي نورا في قلبي و نورا في قبري و نورا في سمعي، و نورا في بصري، و نورا في لحمي، و نورا في دمي، و نورا في عظامي، و نورا في بين يديّ، و نورا في خلفي، و نورا عن يميني و نورا عن شمالي، و نورا من فوقي، و نورا من تحتي، اللّهم زدني نورا و اعطني نورا، و اجعل لي نور الحقّ حبك يا أرحم الرّاحمين «٣٤١».

و الغرض من ذلك كلّه، أنّ النّور بمعنى الوجود، و الظّلمة وجوه:

منها، أنّ خيريّة النّهار بالنّسبة إلى اللّيل، و النّور إلى الظّلمة أمران نسبيّان إضافيّان

---

(٣٤١) قوله: اللّهمّ اجعل لي نورا.

رواه الطوسي في مصباح المتهجّد في صلاة الصبح، في ركعتي الفجر ص ١٨٧ في دعاء أوّله: «اللّهمّ إنّي أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، الدعاء.

و عنه البحارج ٨٧ ص ٣٢١.

و رواه أيضا النعمان المغربي في دعائم الإسلام ج ١، ص ١٦٦، عن الإمام الصادق (ع).

و عنه المجلسي في بحار الأنوار ج ٨٧ ص ٣٥٥.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٣٢

غير موجودين في الخارج لأنّ النّور عند الأكثرين عبارة عن عدم الظلمة، و الظلمة عن عدم النور، و كذلك الظلّ و الحرور، فخيريّة كلّ واحد منهما بالنّسبة إلى الآخر ما هي معلومة حتّى يمكن الحكم بهما لأنّ الظلمة يمكن أن يكون بالنّسبة إلى بعض المزاج خير من النور كالخفّاش مثلا، فإنّ الظلمة بالنّسبة إليه خير من النور، و كذلك اللّيل فإنّه يمكن أيضا أن يكون هو بالنّسبة إلى بعض المزاج خير من النّهار خصوصا إلى بعض الزّهاد العباد و يعكس ذلك إلى بعض الفساق و الفجّار، فأمّا العدم فقط لا يكون خير من الوجود عند أحد أبدا، و لا الشرّ من الخير.

و منها أنّ الظّلمة لو لم يكن بمعنى العدم ما سمّى الحقّ تعالى القرآن الكريم بقوله:

وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ وَ لاَ الظُّلُماتُ وَ لاَ النُّورُ وَ لاَ الظِّلُّ وَ لاَ الْحَرُورُ [سورة فاطر: ٢١].

لأنّ المراد بهما الوجود و العدم أو الموت و الحياة، و تقديره أي هل يستوي الوجود و العدم و الموت و الحياة، و الوجود خير من العدم، و الحياة خير من الموت، لأنّ العدم شرّ محض بالاتّفاق، و الوجود خير محض بالاتّفاق، و أين الشرّ من الخير، و الحياة من الموت، و السؤال أيضا على سبيل استفهام الإنكار و معناه: أي هل يستوي الوجود و العدم و الموت و الحياة، و جوابه: لا، أي لا يستويان أبدا.

و إن قلت: لم لا يجوز أن يكون المراد بالظّلمة اللّيل، و بالنّور النّهار و كذلك بالظلّ و الحرور، البرودة و الحرارة المعبّر عنهما بالشّتاء و الصيف.

قلنا: يجوز ذلك لكنّ السّؤال لا يكون موجّها من عدم الإيمان عن قلب الكافر ظلمة، و لا الإيمان في قلب المؤمن، نورا، لقوله:

اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ

أُولِئكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ [سورة البقرة: ٢٥٧].

و ورد هذا المعنى في اصطلاح الموحّدين عند تعريف الظلّ و النور و الظلمة و غير ذلك، و هو قولهم:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٣٣

الظلّ هو الوجود الإضافي الظاهر بتعيّنات الأعيان الممكنة و أحكامها الّتي هي معدومات ظهرت باسم النور الّذي هو الوجود الخارجي المنسوب إليها فتستر ظلمة عدميّتها النور الظّاهر بصورها صار ظلا لظهور الظلّ بالنّور و عدميّته في نفسه، قال اللّه تعالى:

أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ [سورة الفرقان: ٤٥].

أي بسط الوجود الإضافي على الممكنات فالظلمة بإزاء هذا النّور هو العدم، و كلّ ظلمة فهو عبارة عن عدم النور عمّا من شأنه أن يتنوّر به قال اللّه تعالى:

اللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ [سورة البقرة: ٢٥٥].

و على جميع التقادير تعبيرهما بالوجود و العدم أنسب من غيرهما، و يؤكد ذلك أيضا النقل الوارد عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو قوله:

خلق اللّه الخلق في ظلمة ثمّ رش عليه من نوره الحديث «٣٤٢».

فإنّ معناه ليس انّه تعالى خلق الخلق في ظلمة الليل أو ظلمة المكان المظلم بل انّه خلقهم في ظلمة للعدم و أوجدهم منها التي هي أعظم الظلمات و أعلاها ثمّ أعطاهم الوجود الخارجي الّذي هو أعظم الأنوار و أعلاها، و عند البعض ليلة القدر عبارة عن ليلة إيجاد الموجودات من كتم العدم و عالم الغيب و عالم العلم، و يوم القيامة عن إبرازهم و إظهارهم و إيجادهم في عالم الوجود و عالم الشهادة و الظهور.

(في أنّ الأعيان الثابتة غير الثابتات الأزليّة)

و بيانه أوضح من ذلك هو أنّه عيّن أولا ماهيّات الموجودات من كتم العدم تعيّنا علميّا، بخلاف القول الأشعري و هو ثبوت العدم فيه، ثمّ رشّ عليهم من أنوار الوجود المطلق الحقيقي نورا معبرا بالوجود الإضافي أي رشّ عليهم وجودا إضافيا نسبيا

---

(٣٤٢) قوله: خلق اللّه الخلق.

قد مرّت الإشارة إليه في الرقم ٢٦٨.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٣٤

و ذلك كان بإضافة الوجود المطلق إلى ماهيّة كلّ موجود ليصير به موجودا في الخارج كما كان موجودا في العلم، و قد عرفت مثال ذلك في صورة الحروف و الكاتب، و الوجودات الذّهني و الخارجي و العود إلى ما سبق خلاف الأدب.

و إذا عرفت هذا و عرفت قاعدة أهل التحقيق في هذا المعنى، فلنشرع في تفصيل العوالم على الترتيب المعلوم في صورة المشكاة و الزجاجة و المصباح و ما يتعلّق بها ثمّ في تأويل باقي الآيات الّتي بعدها واحدة بعد أخرى.

(في أنّ النور هو الوجود الحقيقي)

أمّا التفصيل فذلك على ما سبق:

أنّ النور هو الوجود الحقيقي الإلهي و السّماوات و الأرض و ما بينهما مظاهرة العلويّة و السفليّة في صورة المشكاة و الزّجاجة و المصباح، فالمشكاة حينئذ يكون عالم الأجسام و الجسمانيّات، و الزّجاجة عالم الأرواح و الرّوحانيّات، و المصباح عالم العقول و المجردات، و وجه المناسبة و هو أنّ الأنوار الإلهيّة المشرقة الطالعة من مشرق الوجود المطلق الحقّ على هياكل الموجودات و المخلوقات كما قال الإمام عليه السّلام:

نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التّوحيد آثاره.

تطلع أوّلا على عالم العقول و المجردات الّتي هي كالمصباح من نوريّته و لطافته و قربه إلى الحضرة الأحديّة الإلهيّة، ثمّ على عالم الأرواح الّتي هي كالزّجاجة من صفاتها و قابليّتها الإشراق و الإضاءة، ثمّ على عالم الأجسام الّتي هي كالمشكاة من ظلمتها و كثافتها و قابليّتها الإضاءة و الإشراق بالتبعيّة، لأنّها قابلة للأرواح و الانتعاش (۳٤۳) بها كالمشكاة القابلة للأنوار من الزّجاجة، و الزّجاجة من المصباح.

---

(۳٤۳) قوله: الانتعاش.

لسان العرب: و انتعش: و الانتعاش: رفع الرأس، و انتعش العاثر إذا نهض من عثرته، و نعشت الشجرة إذا كانت مائلة فأقمتها، و الربيع ينعش النّاس: يعيشهم و يخصبهم.-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۳۵

و المشكاة عند المفسّرين هي الكوّة «۳٤٤» في الحايط الّتي يكون فيها المصباح و الزّجاجة، و أمّا الشجرة الموقدة منها هذا المصباح هي شجرة الوجود المطلق الّتي يستضيء بها كلّ موجود مقيّد مضاف إليها من الموجودات المنسوبة إلى المصباح و الزّجاجة و المشكاة و المظاهر و الهياكل و غير ذلك. و نسبتها إلى الزّيت من كثرة إضائته بنور الوجود و منافعه و إبقائه فإنّه كذلك، و وجه المناسبة بين الوجود و الشجرة كثرة أغصانها و شعبها من الوجودات الإضافيّة المنسوبة إليه كالأغصان الصادرة عن الشجرة مع أوراقها و أزهارها و أثمارها، لأنّ الحقائق و الماهيّات و الذّوات كما تقرّر شؤون ذاتيّة كامنة في ذاته المقدّسة كالشجرة في النواة مثلا مع أوراقها و أغصانها و أزهارها.

و وصفها بأنها لا شرقيّة و لا غربيّة، لأنّ الشرق الحقيقي هو عبارة عن عالم الأرواح و الرّوحانيّات الّذي هو محل طلوع الأنوار الرّوحانيّة و النفوس المجرّدة.

و الغرب الحقيقي عن عالم الأجسام و الجسمانيّات الّذي هو موضع أفول الأرواح و الرّوحانيّات، و الوجود المطلق الذي هو النّور الحقيقي ليس من عالم الأرواح الصرف و لا من عالم الأجسام الصرف فلا ينسب إليهما بل هما ينتسبان إليه لأنّه المبدأ و المقسم، و المقسم من جميع الوجوه يكون غير القسيم، و المبدأ غير المنتهى.

و نسبة الزّجاجة بالكوكب الدّري يكون بسبب لطافته و نوريّته و إضائته.

و ان قلت: هذه الأوصاف حاصلة للشّمس و القمر، و نورهما أعظم و ضوئهما أكثر فلم خصصه بالكوكب.

قلنا: إنّ نسبة نور الشّمس نسبة نور اللّه في الآفاق، و نسبة نور القمر نسبة نور

- المصباح المنير: (نعشه) اللّه و (أنعشه) أقامه.

الصحاح: و النعش: سرير الميّت، سمّي بذلك لارتفاعه.

المنجد: نعش نعشا، نعشاه اللّه: رفعه و أقامه (تداركه من هلكة، جبره بعد فقر، و الربيع الناس: أخصبهم و أحياهم.

(٣٤٤) قوله: الكوّة.

المصباح المنير: الكوّة تفتح و تضمّ، الثقبة في الحائط، و الكوّة بلغة الحبشة: المشكاة.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۵۳۶

العقل، و نسبة الكواكب نسبة الأرواح الحسيّة المضيئة لكثرته و تفرقته على شبابيك الأجسام و مشكاتها فتخصيصه به أولى و أنسب لأنّ هذا النّور الواحد الّذي هو نور اللّه مثلا إذا أشرق على المظاهر الكثيرة فلا يصل إلى كلّ واحد منها إلاّ بقدر الكواكب لقلّة قابليّته و صغر ظرفه كالبصر مثلا بالنّسبة إلى الشّمس فإنّها لا تشاهد الشّمس مع عظمة جرمها و كثرة شعاعها إلاّ بقدر الترس أو القرص، و بوجه آخر مثاله مثال نور الشّمس أو القمر على الروازن الكثيرة و الشبابيك المتعدّدة، أو كالماء الواحد النازل من ظرف واحد جامع فيه إذا نزل منه و انتثر على الهواء و انتشر فيه فإنّه لا يرجع عنه إلاّ بقدر الدّرة أو اللؤلؤ البيضاء الّتي هي كالكوكب في الاستدارة و اللطافة، أو كالماء النّازل فإنّه في الأصل ماء واحد نازل عن أصل واحد كما قال تعالى:

يُسْقىٰ بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ [سورة الرعد: ٤].

فإنّه يصير أيضا قطرات كلّ قطرة كالدّرة البيضاء، و كالكواكب الدّري من لطافته و استدارته.

فكذلك نور اللّه الحقيقي الّذي هو ماء الحياة الحقيقيّة الموصوفة:

وَ كٰانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ [سورة هود: ٧].

بمعنى العدم و أن معنى قوله تعالى:

اللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ [سورة النور: ٣٥].

هو انّه نفس وجود السّماوات و الأرض و موجدهما و مظهرهما، لأنّ السّماوات و الأرض و ما بينهما عند التّحقيق ظلمات بالنّسبة إلى نوره، لأنّها ظلال كدرة و تعيّنات مظلمة، مانعة من مشاهدة شمس وجوده الحقيقي كما شهدت به الآية المتقدّم شرحها في قوله:

ظُلُمٰاتٌ بَعْضُهٰا فَوْقَ بَعْضٍ [سورة النور: ٤٠].

و من قوله:

أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شٰاءَ لَجَعَلَهُ سٰاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنٰاهُ إِلَيْنٰا قَبْضاً يَسِيراً [سورة الفرقان: ٤٥- ٤٦].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۵۳۷

فإنّ كلّ ذلك إشارة إلى ذلك المعنى أي النّور الوجود الحقيقي، و ظلمة الوجود الإضافي المعبّر عن الأوّل بالحقّ، و عن الثاني بالخلق.

و اللّه أعلم و أحكم هذا من حيث العقل و الدّلائل العقليّة.

و أمّا من حيث النّقل و الدّلائل النّقليّة، فالّذي ورد في بالنّسبة إلى الأرواح الصادرة منه المسمّاة بالمصباح و الزّجاجة الّتي هي كالكوكب الدّري الموقد من الشّجرة المباركة الّتي هي الوجود المطلق و الذّات الصّرف البحث يكاد زيتها أي زيت هذه الشّجرة الوجوديّة تضيئ بذاتها لو لم تمسه نار أي نار الأجسام الكدرة و الأجساد المظلمة الّتي هي منبع الظّلمات الثلث المذكورة لأنّ النّور الإلهي المتعلّق بالأجسام و الأجسام و ترتيبها، لولا احتجابه بظلمات جلابيت البدنيّة و الغواشي الحسيّة لأضاء بذاته و رجع إلى عالمه و شاهد ربّه بنوره و عرفه به على ما هو عليه في نفسه و قال بلسان الحال أو القال: عرفت ربّي بربّي و رأيت ربّي بربّي (۳۴۵)، و عرفت معنى قول العارف:

---

(۳۴۵) قوله: عرفت ربّي بربّي.

أقول: هناك أحاديث تبيّن لنا أنّ معرفة اللّه الحقيقيّة لا تحصل إلاّ به، لأنّه أظهر من كلّ شيء بل لا ظهور لما سواه إلاّ به، و هذا هو الّذي يحصل للإنسان بالبرهان الصدّيقين لو صحّ أن نعبّر عنه بالبرهان.

فنذكر هنا طرفا من تلك الأحاديث مزيدا للفائدة، و أمّا بيان كلّ ما ورد في هذا الموضوع و شرحها، و بيان برهان الصديقين و تطوّراته في كلمات الحكماء المتألهين و بيان الفرق بينه و بين الشهود، فيقتضي مقاما آخر، و كتبنا فيه رسالة مستقلّة و بسطنا فيها الكلام.

و أمّا ما يناسب أن نذكر هنا من الأحاديث المذكورة فهي ما يلي.

ألف- روى الكليني في الكافي ج ۱، ص ۸۶ (باب انه لا يعرف إلاّ به) الحديث ۳، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) انه قرّر قول القائل:

«إنّ اللّه جلّ جلاله أجلّ و أعزّ و أكرم من أن يعرف بخلقه بل العباد يعرفون باللّه» فقال:

رحمك اللّه.

و روى مثله الصدوق في التوحيد باب أنّه عزّ و جلّ لا يعرف إلاّ به الحديث ۱،-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‌۲، ص ۵۳۸

- ص ۲۸۵.

ب- روى الكليني في نفس المصدر الحديث ۱، بإسناده عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: قال أمير المؤمنين: «اعرفوا اللّه باللّه، الحديث، و روى مثله الصدوق أيضا في نفس المصدر الحديث ۳، و الحديث ۵.

ج- الصدوق في نفس المصدر الحديث ۴، بإسناده عن أمير المؤمنين في جواب الجاثليق في ما سئله و قال: أخبرني عرفت اللّه بمحمّد أم عرفت محمّدا باللّه عزّ و جلّ؟ فقال أمير المؤمنين (ع):

«ما عرفت اللّه بمحمّد (ص) و لكن عرفت محمّدا باللّه عزّ و جلّ»، الحديث.

د- الصدوق في التوحيد باب صفات الذات و صفات الأفعال الحديث ٧، ص ١٤٢، بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال:

اسم اللّه غير اللّه، و كلّ شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا اللّه، فأمّا ما عبّرت الألسن عنه أو عملت الأيدي فيه فهو مخلوق، و اللّه غاية من غاياه، و المغيّى غير الغاية، و الغاية موصوفة و كلّ موصوف مصنوع، و صانع الأشياء غير موصوف بحدّ مسمّى، لم يتكوّن فتعرف كينونته بصنع غيره و لم يتناه إلى غاية إلاّ كانت غيره، لا يذلّ من فهم هذا الحكم أبدا، و هو التوحيد الخالص، فاعتقدوه و صدّقوه و تفهّموه بإذن اللّه عزّ و جلّ.

«و من زعم أنّه يعرف اللّه بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك، لأنّ الحجاب و المثال و الصورة غيره و إنّما هو واحد موحّد، فكيف يوحّد من زعم أنّه عرفه بغيره، إنّما عرف اللّه من عرفه باللّه، فمن لم يعرفه به فليس يعرفه إنّما يعرف غيره، و اللّه خالق الأشياء لا من شيء، يسمّى بأسمائه فهو غير أسمائه و الأسماء غيره، و الموصوف غير الواصف، فمن زعم أنّه يؤمن بما لا يعرف فهو ضالّ عن المعرفة، لا يدرك مخلوق شيئا إلاّ باللّه، و لا تدرك معرفة اللّه إلاّ باللّه، و اللّه خلو من خلقه و خلقه خلو منه»، الحديث.

ه- تحف العقول باب كلامه (ع) في وصف المحبّة، عن الإمام الصادق (ع) في حديث قال:

«من زعم أنّه يعرف اللّه بتوهّم القلوب فهو مشرك، و من زعم أنّه يعبد الإسم دون المعنى فقد أقرّ بالطعن لأنّ الإسم محدّث، و من زعم أنّه يعبد الإسم و المعنى فقد جعل مع- [.....]

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٣٩

سبحان من لا يصل إليه إلاّ به.

- اللّه شريكا، و من زعم أنّه يعبد (المعنى) بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب، و من زعم أنّه يعبد الصفة و الموصوف فقد أبطل التوحيد لأنّ الصفة غير الموصوف، و من زعم أنّه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبر»، «و ما قدروا اللّه حق قدره».

قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟ قال عليه السّلام:

باب البحث ممكن و طلب المخرج موجود، إنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته، و معرفة صفة الغائب قبل عينه، قيل: و كيف نعرف عين الشاهد قبل صفته؟ قال عليه السّلام:

تعرفه و تعلم علمه، و تعرف نفسك به و لا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، و تعلم أنّ ما فيه له و به كما قالوا ليوسف:

إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قٰالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هٰذٰا أَخِي [سورة يوسف: ٩٠].

«فعرفوه به و لم يعرفوه بغيره و لا أثبتوه من أنفسهم بتوهّم القلوب»، الحديد و- جاء في دعاء السحر الّذي رواه أبو حمزة الثمالي عن الإمام السّجاد زين العابدين عليه السّلام:

«بك عرفتك و أنت دللتني عليك و دعوتني إليك و لو لا أنت لم أدر ما أنت».

رواه الطوسي في مصباح المتهجد في أعمال شهر رمضان، (دعاء السحر في شهر رمضان) ص ٥٨٢، و ذكره أيضا السيّد ابن طاوس ص ١٤٩، في دعاء ليوم الرابع عشر من شهر رمضان، و جاء أيضا في دعاء آخر لمولانا الحسن بن علي عليهما السّلام ذكره المجلسي في بحار الأنوار ج ٩٤، ص ١٩٠، الحديث ٣ نقلا عن مهج الدعوات للسيّد ابن طاوس.

ز- جاء في دعاء الصباح لمولانا أمير المؤمنين عليه السّلام:

«يا من دلّ على ذاته بذاته».

راجع البحار ج ۹٤، ص ۲٤۳.

ح- و في دعاء يوم العرفة لسيّد الشهداء أبي عبد اللّه الحسين صلوات اللّه عليه:

«كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، و متى بعدت حتّى تكون الآثار هي الّتي توصل إليك، عميت عين لا تراك».

راجع اقبال الأعمال للسيّد ابن طاوس ص ۳٤۹، و بحار الأنوار ج ۹۸، ص ۲۲٥.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٤٠

و قول الآخر:

سبحان من لا يعرفه إلاّ هو.

و ذلك لأنّ كلّ من شاهد الرّبّ بالرّبّ و الحقّ بالحقّ لا بدّ و أنّ يشاهده على ما هو عليه في نفس الأمر أعني من حيث الكمالات لا من حيث الذّات لأنّ ذلك مستحيل ممتنع، و لهذا قال الإمام عليه السّلام:

لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا «۳٤٦».

و قال الآخر:

ليس وراء عبّادان قرية.

و هذا معنى قوله:

نور على نور، أي نور الحقّ على نور العبد، أو نور الذّات على نور البصيرة، أو نور العقل الكلّي على نور العقل الجزئي، فإنّ بذلك يحصل المعرفة التّامّة الكاملة.

و كذلك معنى قوله:

يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ وَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة النور: ۳٥].

لأنّ حصول هذه النّور يتعلّق بعنايته تعالى خاصّة كما خصّصه هو بنفسه لا غير، و مثال ذلك مثال نور الشّمس في بيت مظلم يضاف إلى نور الشّمع و يصير نور على نور، فلذلك نور اللّه الحقيقي إذا أضاف إلى نور بصره العارف فإنّه يكون نور على نور.

و بوجه، و هو أنّ نور القمر مستفاد من الشمس بصحة التقابل، فكلّما قابل الشّمس استفاد منها بقدر المقابلة النّور و الشمس أضافت عليه بقدر القابليّة بالتّدريج حتّى صار كذلك منها بدرا و لم يبق في القابليّة و الفاعليّة من الطّرفين شيء من الإفاضة و الاستفاضة فيجوز للعمى في هذه الحالة أن يقول: رأيت الشّمس بالشّمس و عرفت

---

(۳٤٦) قوله: لو كشف.

قد مرّ في تعليقتنا الرقم ۳۲۷.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٤١

الشّمس بالشّمس، و شاهدت الشّمس بالشّمس، كما يجوز للعارف أن يقول رأيت ربّي بربّي، و عرفت ربّي بربّي، و شاهدت ربّي بربّي، حيث وقع العارف بالنّسبة إلى شمس الحقيقة الإلهيّة كالقمر بالنّسبة إلى الشّمس الصّوريّة الآفاقيّة لقوله تعالى:

وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ رَمىٰ [سورة الأنفال: ١٧].

و هذا معنى قوله: و يضرب اللّه الأمثال للنّاس، أي و يضرب اللّه مثل هذه الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون المبدأ، و يتفكّرون في المعاد و يعرفون ما بينهما و يقومون من وجودهم بالكلّ و يشاهدون الحقّ بعد فنائهم بغير الحقّ، لقولهم:

فلم أنظر بعيني غير عيني.

و لهذا قال:

وَ تِلْكَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا يَعْقِلُهٰا إِلاَّ الْعٰالِمُونَ [سورة العنكبوت: ٤٣].

لأنّ غير العالم الحقيقي لا يعقل هذا المعنى أصلا و بل ينكر عليه إنكارا لا مزيد عليه كما قال:

وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّٰهُ لَهُ نُوراً فَمٰا لَهُ مِنْ نُورٍ [سورة النور: ٤٠].

و ذلك كلّ عبد ما حصل له هذا النّور و بقي في ظلمة أنانيّته و احتجابه و بعده عن الحقّ بعدا لا يتصوّر فيه قربا بوجه من الوجوه بعد عن المعرفة المذكورة و المشاهدة المعلومة و صار من المحجوبين الضّالّين المضلّين الّذين وصفهم اللّه بعد الآية بقوله:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ كَسَرٰابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مٰاءً حَتّٰى إِذٰا جٰاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللّٰهَ عِنْدَهُ فَوَفّٰاهُ حِسٰابَهُ وَ اللّٰهُ سَرِيعُ الْحِسٰابِ [سورة النور: ٣٩].

أَوْ كَظُلُمٰاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشٰاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحٰابٌ ظُلُمٰاتٌ بَعْضُهٰا فَوْقَ بَعْضٍ إِذٰا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرٰاهٰا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّٰهُ لَهُ نُوراً فَمٰا لَهُ مِنْ نُورٍ [سورة النور: ٤٠].

كما قد سبق تأويله و تفسيره مبسوطا قبل هذا البحث بقليل و مراد اللّه، و مرادنا من ضرب المثال تقريب المعاني إلى الأذهان و ذلك مستحسن عند الفصحاء و أرباب

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٤٢

البلاغة لأنّ تفهيم المعنى في عالم الحسّ في صورة المحسوس أسهل و أيسر لأنّه إلى الذّهن أقرب، و إلى هذا النّور و الظّلمة أشار الحقّ تعالى بالنّسبة إلى أحبائه و أعدائه و قال:

اللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيٰاؤُهُمُ الطّٰاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمٰاتِ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ [سورة البقرة: ٢٥٧].

هذا مضى، و هاهنا أبحاث شريفة.

و أمّا قوله: عقيب الآيات:

وَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة البقرة: ٢٨٢].

فمعناه، أي و اللّه بكلّ شيء من الأشياء الممكنة عالم أزل الآزال و أبد الآباد، و عالم باستعداده و قابليّته قبل وجوده في

الخارج و ظهوره في عالم الشّهادة لكن من حيث إنّه يجب عليه تنبيه و تعليمه ليصل به إلى ما خلق لأجله كما هو مقرّر في علمه جلّ ذكره فيجب عليه أيضا إذا عرف عبد من انّه قابل لشيء من تلك العلوم و المعارف و غيرها أن يجذبه إلى ذلك الشيء بأنواع الجذبات لئلاّ يقع فعله عبثا و فعله مهملا، فالجذبة تارة يكون بالدعوة، و تارة بالإشارة، و تارة بالقهر على يد النّبي أو الإمام، و تارة بضرب المثال، و تارة بالقصص، و تارة بالإلهام ليتمكن العبد من الدخول إلى مطلوبه بواسطة هذه الوسائل و بسبب هذه الوسائط، و إليه أشار بقوله:

لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ [سورة آل عمران: ١٦٤].

و الّذي ورد في الحديث القدسي:

جذبة من جذبات الحق عمل الثقلين.

هذا معناه، لأنّ من جذبة من جذباته يمكن أن يحصل المقصود على ما هو عليه و يمكن أن في أعمال الثقلين لا يحصل هذا فيكون هو خير منها، و ذلك فضل اللّه يؤتيه

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٤٣

من يشاء و اللّه ذو الفضل العظيم.

و قد عرفت أقسام الجذبات قبل هذا و بيان الكشف و الوحي و الإلهام و غير ذلك فما نحتاج إلى العود.

و أمّا تأويل باقي الآيات المتعلّقة بهذا البحث و هو قوله:

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ إلى قوله: بِغَيْرِ حِسَابٍ [سورة النور: ٣٦- ٣٨].

و ان بسطنا البحث فيه في جامع الأسرار و منبع الأنوار، و رسالة الوجود، و غير ذلك لكن لا بد هاهنا من بعض ذلك ليرتبط الكلام بعضه بالبعض، فنقول: قوله:

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ ... [سورة النور: ٣٦].

مربوط بقوله: كَمِشْكَاةٍ، و تقديره كمشكاة في بعض بيوت اللّه التّي هي المساجد الصّوريّة، أو بتوقد، و تقديره أي كمصباح يوقد من شجرة زيتونة لتعليقه في بعض بيوت اللّه المذكورة، هذا بحسب الظّاهر. و أمّا بحسب الباطن فمعناه: أنّ مثل نور اللّه تعالى في مشكاة المظاهر الآفاقي الّتي هي الأجسام و الجسمانيّات مطلقا مع زجاجتها الّتي هي الأرواح و الرّوحانيّات مع مصباحها الّذي هو العقول و المجرّدات بأجمعها كمشكاة في بيوت اللّه الصوريّة الّتي وضعها لأجل ذكرها و تسبيحه فيها.

و قوله:

بِالْغُدُوِّ وَ الْآصَالِ [سورة النور: ٣٦].

يكون متعلّقات «يسبّح له»، أي كما يسبح له بالغدوّ و الآصال في المساجد الصوريّة كالمكّة و المدينة، فكذلك يسبح له بالغدوّ الآصال في المساجد المعنويّة الّتي هي العالم بأسره، لقوله:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [سورة الإسراء: ٤٤].

و الغدّ و الآصال يكون هاهنا بمعنى الظاهر و الباطن أو الغيب و الشهادة، أو يكون تقديره:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۴۴

أن العالم و ما اشتمل عليه من الطّبقات علوا و سلفا و هو كالبيوت الموضوعة لذكر اللّه و تسبيحه فيها، لأنّ العالم (كمال) (...) الكلّ في الوضع الإلهي و له طبقات من السّماوات و الأرض و ما بينهما من العناصر و المواليد و يكون فيها الكواكب كالمشكاة و المصباح و الزّجاجة، أو يكون عالم (...) (الوحي) و عالم الأرواح (...).

و يكون بدنه و حواسّه كالمشكاة، و قلبه كالزّجاجة و روحه (و دمه) كالمصباح و باقي القوى و الأعضاء كالعباد في هذه الشجرة يسبحونه و يذكرونه بالغدوّ و الآصال أي في الظّاهر و الباطن، أو في عالم الكثرة و الوحدة، و قد بيّنا ذلك أيضا.

و أمّا قوله:

رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِيهِمْ تِجٰارَةٌ وَ لاٰ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ [سورة النور: ٣٧].

فهو متعلق ببيوت أذن اللّه، و تقديره، مثل هؤلاء رجال و أيّ رجال لا تغفلهم الدنيا و ما فيها من متاعها عن ذكر اللّه أي عن التّوجّه إلى حضرته و الإشتغال بعبادته لأنّهم من مخلصي عباده و معظمي رجال لقوله:

إِنّٰا أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَةٍ ذِكْرَى الدّٰارِ وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنٰا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيٰارِ [سورة ص: ٤٦- ٤٧].

و لقوله:

رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اللهَ و قوله عقيب ذلك: وَ إِقٰامِ الصَّلاٰةِ وَ إِيتٰاءِ الزَّكٰاةِ يَخٰافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصٰارُ [سورة النور: ٣٧].

و هو صفة لهؤلاء الرّجال، و تقديره، رجال و أيّ رجال الّذين يقيمون الصلاة الحقيقيّة الّتي هي التّوجّه الكلّي إليه لقوله:

وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً [سورة المزمّل: ٨].

و الإعراض عن رؤية الغير مطلقا لقوله:

فَلاٰ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً [سورة الجن: ١٨].

وَ لاٰ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ [سورة الإسراء: ٣٩].

و من الّذين يؤتون الزّكاة الحقيقيّة الّتي هي إعطاء حقّ كلّ ذي حق آفاقا كان أو

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ۲، ص ۵۴۵

أنفسا بالإرسال و الهداية و الإعطاء و المنع بحكم الخلافة الإلهيّة و الرّياسة الإنسيّة يخافون يوما تتقلّب فيه القلوب و الأبصار، معناه أي يخافون من الرّجوع إليه تعالى في يوم يعرض عليه الأعمال كلّها و يصير الظّاهر باطنا و الباطن ظاهرا و تشهد ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم و الحقّ أنّه موضع الخوف،

(الفرق بين الخوف و الخشية)

و إن قلت: الخوف مسلوب عن الأولياء فكيف أثبت لهم الخوف.

قلنا: الخوف الثابت للأولياء هو الخوف الخاصّ الّذي هو الخشية لقوله:

إِنَّمٰا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ [سورة فاطر: ٢٨].

و أمّا الخوف العام الّذي للعوام فذلك مسلوب عنهم بالاتفاق لقوله:

أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اللهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ [سورة يونس: ٦٢].

و أمّا قوله:

لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰاءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ [سورة النور: ٣٨].

فذلك إشارة إلى ثمرة هذه العبادة من الصلاة و الزكاة و التوجّه و الخشية و أمثال ذلك و ذلك فضل اللّه و لطفه و هو يعمل ذلك مع انّه أراد بغير حساب معه و لا حصر و لا حساب لقوله:

هٰذٰا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ [سورة ص: ٣٩].

(في تطبيق الآفاق بالأنفس على سبيل التفصيل)

و هاهنا أبحاث ستعرفها في موضعها إنشاء اللّه، و حيث عرفت هذا بقدر هذا المقام فلنشرع في تطبيق الآفاق بالأنفس على سبيل التفصيل بحسب هذه الآيات و الأقوال المترتبة عليها أعني تطبيق هذا المجمل بالأنفس على سبيل التفصيل و ما يتعلّق به من الأبحاث.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٤٦

اعلم، ان في تطبيق العالم الكبير بالعالم الصغير كما أنّ المشكاة جسم الإنسان الكبير الّذي هو عبارة عن الجسم الكلّي و الجسمانيّات أو العلويات و السفليّات مطلقا و الزّجاجة عن قلبه الحقيقيّ الّذي هو النّفس الكلّيّة و عالم الرّوحانيّات كلّها، و المصباح عن روحه الكلّي الّذي هو الرّوح الأعظم و عالم العقول و المجردات كلّها، و الشجرة عن مجموع ذلك أو عن الوجود المطلق كما سبق بيانه، فجسد الإنسان الصغير و حواسّه بإزاء المشكاة، و قلبه بإزاء الزّجاجة، و روحه بإزاء المصباح، و المجموع من حيث المجموع بإزاء الشجرة لأنّ الشجرة في الحقيقة هي اسم للهيئة الجامعيّة من المجموع، فإنّ كلّ عضو من أعضاء الإنسان و كلّ قوى من قوائه بإزائه غصن من أغصانه الشجرة الآفاقيّة و أوراقها المذكورة، و من هذا التطبيق يفهم معنى قوله تعالى:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [سورة فصّلت: ٥٣].

لأنّ موسى عليه السّلام ما سمع قول: إنّي أنا اللّه، إلاّ من شجرة وجوده لأنّ شجرة وجود الإنسان أعظم من شجرة وجود الأكوان و من هذا قال العارف:

سبحان ما أعظم شأني.

و قال الآخر:

أنا الحقّ.

و غير ذلك من الأقوال، و هاهنا أسرار و حقايق ستعرفها في موضعها إن شاء اللّه و إن سبقت أكثرها، و بالنسبة إلى هذا التطبيق قال بعض العارفين ما يقارب هذا المعنى و هو قوله نظما:

نظرت بنور اللّه أوّل نظرة فغبت عن الأكوان و ارتفع اللبس

و ما زال قلبي لائذا بجمالكم و حضرتكم حتّى فنت فيكم النّفس

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٤٧

زيتونة الفكر الصحيح أصولها

مباركة أوراقها الصدق و القدس

فروحي زيتي و الخيال زجاجتي و عقلي مصباحي و مشكاته الحسّي

فصار بكم ليلي نهارا و ظلمتي ضياء و لاحت من (في) خيامكم الشّمس

رزقنا اللّه و ايّاكم الوصول إلى هذا المقام لمحمّد و آله الكرام.

و إذا عرفت هذا، فاعلم، أنّ لهذا البحث و إن طال، تذنيب و تتميم لا بدّ منها و هما بحث الشجرة و تحقيقها و علة نسبتها تارة إلى الوجود المطلق، و تارة إلى العالم، و تارة إلى الإنسان و أمثال ذلك.

فنقول: يجب عليك أن تعرف أنّ الشجرة الّتي قال تعالى من لسان إبليس:

هل أدلّك على شجرة الخلد، و ملك لا يبلى هي هذه الشجرة، أي شجرة الوجود مع أغصانها و أوراقها الّتي هي الموجودات و المخلوقات كما سبق ذكرها لأنّ كلّ من حصل له مشاهدة هذه الشجرة على الوجه المذكور فقد حصل له ملك لا يمكن أن يبلى و لا يفنى و لا يتغير و لا يتبدّل و بل ملك لا يمكن أن يكون أعظم منه و لا أوسع كما أشار إليه الحقّ تعالى في قوله:

وَ إِذٰا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً [سورة الإنسان: ٢٠].

و هذه المشاهدة في هذا الملك العظيم هي مشاهدة الخواصّ و المقربين السابقين لقوله: و قال فيهم:

السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ [سورة الواقعة: ١٠].

و يعبّر عنها بجنة الذّات أيضا و إليه الإشارة بقوله:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ [سورة القمر: ٥٥].

و أيّ نعيم و جنّة يكون أعظم من مشاهدته و لقائه في مظاهره الآفاقيّة و الأنفسيّة و يؤكّد ذلك قوله أيضا:

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٤٨

وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [سورة آل عمران: ١٣٣].

لأنّ الجنّة الحقيقيّة و نعيمها ليست إلاّ مشاهدته و لقاؤه على الوجه المذكور لأنّ في أكثر المواضع القرآنيّة إذا أخبر اللّه تعالى بالسّماوات و الأرض ما أراد بهما إلاّ العالم المشتمل على الرّوحانيات و الجسمانيّات أو العلويّات و السفليّات مطلقا، و لهذا أخبر عن عرضها لا عن طولها، لأنّ الوجود دوري و السّماوات و الأرض كريّ كما بيّناه في الدائرة فلا يناسب الأخبار عنها إلاّ بالعرض لأنّ الطول غير متصوّر فيه فافهم.

و عند التحقيق الجنّة المعنويّة لا طول لها و لا عرض، و الغرض من أمثال ذلك التنبيه و التعليم في صورة المثال:

وَ تِلْكَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا يَعْقِلُهٰا إِلاَّ الْعٰالِمُونَ [سورة العنكبوت: ٤٣].

و عن هذه الجنّة أخبر النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

انّ للّه تعالى جنّة ليس فيها حور و لا قصور و لا عسل و لا لبن بل يتجلّى ربّنا فيها ضاحكا متبسّما.

لأنّ هذه كلّها إشارة إلى الجنّة المعنويّة دون الصّوريّة، و الضّحك و التبسّم إشارة إلى الكشف اللثام و المشاهدة العينيّة في ملا بس التعيّنات و مظاهر التّشخصات مرتديا برداء الكبرياء و العظمة و متلبّسا بلباس الحلال و العزّة و المشار إليه في قوله:

الكبرياء ردائي و العظمة إزاري من نازعني فيهما كسرته «٣٤٧».

و إلى هذا الكشف الصريح أشار النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا في قوله:

---

(٣٤٧) قوله: الكبرياء ردائي.

في تفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمّد العسكري (ع) في سورة محمّد ذيل قوله تعالى:

الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، ص ٣٦:

يا موسى إنّ «الفخر ردائي و الكبرياء إزاري، من نازعني في شيء منهما عذّبته بناري».

و أيضا رواه الراغب الأصفهاني في المفردات في (كبر) و قال: روي عنه (ص) يقول:

«الكبرياء ردائي و العظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قصمته».

و راجع أيضا الجزء الأوّل تعليقتنا ٦٩، ص ٣٠٩.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٤٩

سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر «٣٤٨».

و معناه أي سترون ربّكم في مظاهره الآفاقيّة و الأنفسيّة كما ترون القمر ليلة البدر، و هذا إشارة إلى كمال اليقين، لأن مشاهدة البدر مشاهدة لا ريب فيه و لا شكّ، و كلّ مشاهدة يكون كذلك يكون في كمال اليقين و وضوح المعلوم لقوله عليه السّلام:

محو الموهوم مع صحو المعلوم (٣٤٩).

---

(٣٤٨) قوله: سترون ربّكم.

أخرجه البخاري في الصحيح كتاب مواقيت الصّلاة باب فضل صلاة العصر (٣٦٨) الحديث ٥٢١، ص ٢٨٩، ج ١، و في كتاب التوحيد باب ١٢١٨ في قوله تعالى: **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نٰاضِرَةٌ إِلىٰ رَبِّهٰا نٰاظِرَةٌ الحديث ٢٢٣٥، ج ٩، ص ٧٩٦.**

و أيضا أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح و العصر، الحديث ٢١١، ج ١، ص ٤٣٩. و ابن ماجة، باب فيما أنكرت الجهميّة، الحديث ١٧٧، ج ١، ص ٦٣. و ابن حنبل في مسنده ج ٤، ص ٣٦٠، و ص ٣٦٥.

و رواه أيضا المجلسي في بحار الأنوار ج ٣٧، ص ٢٣٠، و ج ٩٤، ص ٢٥١.

(٣٤٩) قوله: محو الموهوم مع صحو المعلوم.

فقرة من حديث معروف روي عن أمير المؤمنين عليّ (ع) في بيان (الحقيقة) في جواب كميل حين ما سأله عنها.

ذكره المؤلف السيّد في كتابه جامع الأسرار و منبع الأنوار ص ٢٨، و ص ١٧٠، و شرحه و عبّر عنه بأنّه حديث مشهور، و قال: أنّه مرويّ عن كميل أنّه سأل أمير المؤمنين عليّا (ع) عن «الحقيقة» بقوله: ما الحقيقية؟ فقال: «مالك و الحقيقة»؟ قال: أو لست صاحب سرّك؟ قال: «بلى و لكن يرشح عليك ما يطفح منّي»، قال: أو مثلك يخيّب سائلا، قال: «الحقيقة كشف سبحات الجلال من غيره إشارة» قال: زدني فيه بيانا، قال: «محو الموهوم مع صحو المعلوم» قال: زدني فيه بيانا، قال: «هتك الستر لغلبة لسرّ» قال زدني فيه قال: «جذب الأحديّة بصفة التوحيد» قال: زدني فيه بيانا، قال:

«نور يشرق من صبح الأزل فتلوح على هياكل التوحيد آثاره» قال: زدني فيه بيانا، قال: «أطف السراج فقد طلع الصبح».

و ذكره أيضا عبد الرّزاق الكاشاني (القاساني) في «شرح منازل السائرين» آخر باب-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٥٠

و لقوله:

«لو كشفت الغطاء ما ازددت يقينا» «٣٥٠».

و إلى هذه المشاهدة أشار أيضا عليه السّلام في خطبة من خطبه في صفة العارف الواصل إلى هذا المقام و هو قوله:

قد أبصر طريقه، و سلك سبيله، و عرف مناره، و قطع غماره، و استمسك من العرى بأوثقها، و من الجبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشّمس «٣٥١».

و إليها أشار أيضا في قوله:

الحمد للّه الّذي انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته، و ردعت عظمته العقول، فلم تجد مساغا إلى بلوغ غاية ملكوته، هو اللّه الحقّ المبين، أحقّ و أبين ممّا ترى العيون «٣٥٢».

و هذه المبالغة في هذه المشاهدة لعلمه التّامّ بمشاهدة الحواسّ و بأنّها في معرض

-التوحيد في بيان: (الفرق بعد الجمع) و به ختم كتابه، قال: «ألا ترى أنّ مقدّم القوم و الباب الأعظم لمدينة هذا العلم و ساقيهم من مشر الكوثر الّذي خصّ به نبيّنا محمّد (ص)، عليّ ابن أبي طالب كرّم اللّه وجهه، كيف ابتدأ في الإشارة إلى عين الحقيقة بقوله:

«كشف سبحات الجلال من غير إشارة» و هو محض تنزيه الذات عن التعدّد الأسمائي، و أكّده بقوله: «صحو المعلوم مع محو الموهوم» إشارة منه إلى فناء الرسوم كلّها في أحديّتها، و صرّح بذلك في قوله: «جذ الأحديّة لصفة التوحيد» ثمّ ختم بقوله: «نور يشرق من صبح الأزل، فيلوح على هياكل التوحيد آثاره» لبيان الفرق في عين الجمع، و هو بعينه معنى أحديّة الفرق و الجمع.

(٣٥٠) قوله: لو كشفت الغطاء.

راجع تعليقتنا الرقم: ٢١٨ و ٣٢٧.

(٣٥١) قوله: قد أبصر طريقه.

نهج البلاغة الخطبة ٨٧.

(٣٥٢) قوله: الحمد للّه الّذي انحسرت.

نهج البلاغة، الخطبة ١٥٥.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۵۵۱

الغلط و الشكّ سيّما العيون فإنّها في إدراكاتها و مرئيّاتها غير متيقّنة، لأنّ الشّمس مثلا في جرمها و مقدارها زيادة على جرم الأرض و مقدارها بمرار متعددة و هي تشاهدها بمقدار القرص و لا يشعر بنفسها أنّها ليس كذلك، لاٰ تُدْرِكُهُ الْأَبْصاٰرُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصاٰرَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [سورة الأنعام: ۱۰۳].

و و اللّه لو كتب قوله عليه السّلام:

«هو اللّه الحقّ المبين أحقّ و أبين ممّا ترى العيون».

بماء الذهب على وجه النفوس و العقول و جعل عوذه لدفع عين شجرة الجهل و مردة الكفر لكان قليلا، و بالجملة الجنّة الحقيقيّة المعنويّة ليست عند التحقيق إلاّ مشاهدة الحقّ بعين البصيرة في صورة هذه الشجرة المسمّاة بالوجود، كما قال جلّ ذكره بعد قوله:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلاٰ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [سورة فصلّت: ۵۳- ۵۴].

لأنّ هذه المشاهدة لو كانت قابلة بأن يكون فوقها مشاهدة أخرى لم يقل بنفسه:

أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، و لم يؤكد هذا لقوله: أَلاٰ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ، لأنّه يقول: أَلاٰ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ مع هذه المشاهدة الجليّة الّتي ليست فوقها مشاهدة، أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ أي ليس هو المحيط بكلّ شيء و المحيط بكلّ شيء كيف يمكن (كمل) مشاهدته إلاّ في كلّ شيء، لأنّ الكلّ من حيث الكلّ لا يشاهد إلاّ في الكلّ.

فالكلّ بالكلّ مربوط و ليس له عنه انفصال خذوا ما قلته عنّي

و في مثل هذه المشاهدة قال العارف:

ليس وراء عبادان قرية.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج۲، ص ۵۵۲

و قال الشيخ الأعظم قدّس اللّه سرّه «۳۵۳»:

«و إذا ذقت هذا فقد ذقت الغاية الّتي ليس فوقها غاية في حقّ المخلوق فلا تطمع و لا تتعب نفسك في الّتي ترقى أعلى من هذا الدرج فما هو ثمّة أصلا و ما بعده إلاّ العدم المحض».

و قد سبق هذا الكلام و هذا البحث مرّة أخرى و بل مرارا، و ليس الغرض هاهنا هذا البحث بل بحث الشجرة و الوجود و المناسبة الّتي بينهما فنرجع و نقول:

(في بيان المراد من شجرة طوبى)

اعلم، أنّ شجرة طوبى الّتي وعد في الجنّة إن حقق و عرف لا يكون إلاّ هذا الشجرة لأنّ تلك الشجرة موصوفة بأنّ لها أغصان كثيرة بحيث يكون في كلّ بيت من بيوت الجنّة منها غصن و هذه الشّجرة كذلك لأنّ كلّ موجود مقيّد لا بدّ له

من إضافته إلى المطلق و علاقته به فتلك الإضافة و العلاقة هي الأغصان، و الوجود هو الأصل، و الكمالات المترتبة على الوجود كالأوراق و الأزهار و توابعها و لوازمها، و مثال هذه في عالم الشهادة مثال الشمس و أنوارها المشرقة بالنّسبة إلى بيوت العالم و مساكنها و المختلفة فإنّ في كلّ بيت من البيوت غص من أغصان أنوارها و شعاعها كما يشاهدها كلّ شخص بعينه الحسّيّة البصريّة، وَ لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلىٰ فِي السَّماٰوٰاتِ وَ الأَرْضِ، و إن شئت جعلت الشجرة مجموع الإنسان و أصل الشجرة قلب الإنسان الّذي منه يتكوّن بدن الإنسان في أصل الخلقة و ينشأ منه أغصان الأعضاء و أوراق القوى و يتكمّل على هذا الوضع و يتّصف بأحسن الصّورة و أكمل الخليقة لقوله تعالى:

وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ [سورة غافر: ٦٤].

فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ [سورة المؤمنون: ١٤].

---

(٣٥٣) قوله: و قال الشيخ الأعظم.

فصوص الحكم شرح القيصري، الفص الشيثي، ص ١٠٧

.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٥٣

لأنّك إذا شاهدت شجرة وجودك على هذه الصورة و طابقها بشجرة العالم على الوجه المذكور حصل لك مشاهدة الحقّ في هذا المطابقة الأنفسيّة، كما حصل لك مشاهدة في المطابقة الآفاقيّة المتقدّم ذكرها، و عرفت معنى قوله عليه السّلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» و خصصت بالنعيم المعنويّة و فواكهها و لذّاتها و حورها و قصورها، و أيّ نعيم يكون أعظم من مشاهدة الحقّ بعين البصيرة في صورة الشجرة الإنسانيّة الّتي هي أعظم الصور و أكملها و أحسن النعيم و أشرفها و حيث إنّ مشاهدة الحقّ في الصورة الإنسانيّة كان أعظم المشاهدات و أشرف المعارف قال تعالى لنبيّه في حديثه القدسي تعليما له و تنبيها لغيره:

لا يسعني أرضي و لا سمائي و لكن يسعني قلب عبدي المؤمن «٣٥٤».

و قال النّبي عليه السّلام تصديقا لهذا القول:

---

(٣٥٤) قوله: لا يسعني أرضي.

راجع تعليقتنا الرقم ٣٨، في الجزء الأوّل، ص ٢٥٦.

و رواه المجلسي في بحار الأنوار ج ٥٨، ص ٣٩، و رواه الغزالي في إحياء العلوم ج ٣، ص ١٥، قال: و في الخبر لم يسعني أرضي و لا سمائي و وسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع، و روى العراقي في ذيله عن النّبي (ص): «انّ للّه آنية من أهل الأرض، و آنية ربّكم قلوب عباده الصالحين و أحبها إليه ألينها و أرقها.

و روى ابن أبي جمهور الأحسائي في عوالي اللئالي ج ١، ص ٢٤٩، الحديث ٦، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه (ص):

«ناجي داود ربّه فقال: إلهي لكلّ ملك خزانة فأين خزانتك؟

قال جلّ جلاله: «لي خزانة أعظم من العرش، و أوسع من الكرسي، و أطيب من الجنّة، و أزين من الملكوت، أرضها المعرفة، و سماؤها الإيمان، و شمسها الشوق، و قمرها المحبّة، و نجومها الخواطر، و سحابها العقل، و مطرها الرحمة، و أشجارها الطاعة، و ثمرها الحكمة، و لها أربعة أبواب: العلم و الحلم و الصبر و الرضا، ألا و هي القلب».

رواه أيضا السيّد المؤلّف في جامع الأسرار ص ٥١٤.

و روى الغزالي في احياء العلوم ج ٣، ص ١٥، عن ابن عمر قال: قيل لرسول اللّه:

يا رسول اللّه أين اللّه في الأرض أو في السّماء؟ قال: «في قلوب عباده المؤمنين».

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٥٤

قلب المؤمن عرش اللّه. و قلب المؤمن بيت اللّه «٣٥٥».

و قلب المؤمن بين الإصبعين من أصابع الرّحمن «٣٥٦».

و قد يقال حين حصل له هذه المشاهدة:

مٰا كَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ أَ فَتُمٰارُونَهُ عَلىٰ مٰا يَرىٰ [سورة النجم: ١١ و ١٢].

و يكفي في هذا ما بيّناه في بيان قوله:

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [سورة فصّلت: ٥٣].

و عند التحقيق ليست الشجرة الّتي خاطب اللّه تعالى بها موسى عليه السّلام بقوله:

فَلَمّٰا أَتٰاهٰا نُودِيَ مِنْ شٰاطِئِ الْوٰادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبٰارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يٰا مُوسىٰ إِنِّي أَنَا اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِينَ [سورة القصص: ٣٠].

إلاّ شجرة نفسه المعبرة عنها بالشجرة الإنسانيّة لا شجرة السدر و النخل و الزّيتون و غير ذلك لأنّه تعالى أعظم و أجلّ من أن يشاهد و يرى في شجرة من شجرة الدّنيا النّباتيّة المقيّدة في محلّ أو حيّز أو مقيّدة بصفة من صفاته بخلاف الشجرة الإنسانيّة الّتي هي متصفة بجميع الأسماء و الصفات لقوله:

---

(٣٥٥) قوله: قلب المؤمن عرش اللّه.

رواه صدر المتألّهين في تفسير سورة السجدة الآية ٤، ص ٤٠، و في حديث آخر ذكره المجلسي في البحار ج ٥٨، ص ٣٩:

قلب المؤمن عرش الرّحمن.

و روى مؤلّف جامع الأخبار الحديث (١٤٦٨/ ٨٠) عن الإمام الصادق (ع): القلب حرم اللّه، فلا تسكن حرم اللّه غير اللّه.

(٣٥٦) قوله: و قلب المؤمن بين الإصبعين.

رواه المجلسي في البحار ج ٧٠، ص ٣٩، و أخرجه ابن ماجة مع تفاوت يسير في المقدّمة، الحديث ١٩٩، ص ٧٢، ج ١. و مسلم أيضا في صحيحه كتاب القدر باب ٣، الحديث ١٧، ج ٤، ص ٢٠٤٥. و ابن حنبل في مسنده ج ٢، ص ١٦٨، و ص ١٧٣

و الحاكم في المستدرك ج ١، كتاب الدعاء ص ٥٢٥، و ج ٤، كتاب الرقاق ص ٣٢١.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٥٥

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها [سورة البقرة: ٣١].

و لقول نبيّه عليه السّلام:

خلق اللّه تعالى آدم على صورته «٣٥٧».

و معلوم أنّ المشاهدة في صورة جامعة كاملة يكون كالمرآة لصورة المحبوب خير من مشاهدته في صورة مقيّدة غير جامعة و لا كاملة لقول العارف «٣٥٨»:

«لما شاء الحقّ سبحانه من حيث أسمائه الحسنى الّتي لا يبلغها الإحصاء، أن يرى أعيانها (و إن شئت قلت أن يرى عينه) في كون جامع يصير الأمر (كلّه) لكونه متّصفا بالوجود، و يظهر به سرّه إليه، فإنّ رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته بنفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة فإنّه تظهر له نفسه في صورة تعطيها المحلّ المنظور فيه ممّا لم يكن يظهر (له) في غير وجود هذا المحلّ و لا تجلّيه له».

و العجب كلّ العجب أنّ أهل الظاهر يجوّزون تكليم اللّه تعالى من الشجرة النباتيّة و لا يجوّزونه من الشجرة الإنسانيّة الّتي هي أولى بذلك لقوله:

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [سورة ق: ١٦].

و لقوله:

وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ [سورة الذاريات: ٢١].

و لقوله:

وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ [سورة الحديد: ٤].

و لقوله في الحديث القدسي:

---

(٣٥٧) قوله: خلق اللّه تعالى.

قد مرّت الإشارة إليه في تعليقتنا الرقم ١٨٦. [.....]

(٣٥٨) قوله: لقول العارف.

قائله هو محيي الدّين ابن عربي في فصوص الحكم في شروعه في الفصّ الآدمي شرح القيصري ص ٦١، و العفيفي ص ١٨.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٥٦

كنت سمعه و بصره و لسانه و يده و رجله «٣٥٩».

ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [سورة النجم: ٣٠].

يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ.

و العجب من هذا كلّه أنّهم مع جهلهم بمثل هذه الأسرار يحكمون بكفر غيرهم من حيث أنّه مطلع عليها كالكفار بالنّسبة

إلى الأنبياء و الرّسل حيث كانوا يسمّونهم بالسّحرة و المجانين و الشاعر و الكاهن و غير ذلك و نظرا إلى هذا المعنى قال الإمام المعصوم زين العابدين عليه السّلام في أبيات منسوبة إليه و هي هذه:

إنّي لأكتم من علمي جواهره كيلا يرى الحقّ ذو جهل فيفتتنا

و قد تقدمها فينا أبو الحسن مع الحسين و وصّي قبلها الحسنا

يا ربّ جوهر علم لو أبوح به لقيل لي: أنت ممّن يعبد الوثنا

و لا يستحلّ رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

(٣٦٠)

---

(٣٥٩) قوله: كنت سمعه و بصره.

راجع تعليقتنا الرقم ٨٥، ص ٣٤٥ في الجزء الأوّل.

(٣٦٠) قوله: إنّي لأكتم من علمي.

الأبيات منسوبة إلى مولانا علي بن الحسين زين العابدين عليهما السّلام.

ذكرها الشيخ الأكبر في كتابه التدبيرات الإلهيّة ص ١١٣، و أيضا في الفتوحات ج ١، ص ٣٢، و ذكرها أيضا السيّد الجليل المؤلف السيّد حيدر الآملي في جامع الأسرار ص ٣٥، و الآلوسي في تفسيره (روح المعاني) ج ٦، ص ١٩٠ في تفسير الآية:

يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ [سورة المائدة: ٦٧].

و الجدير بالذكر أنّ البيت الثاني في جامع الأسرار هكذا:-

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٥٧

في بيان المراد من الشجرة الّتي أكل منها آدم (ع)

و ان حقّق عرف أيضا أنّ الشجرة الّتي أكل منها آدم عليه السّلام كان هي هذه الشجرة، لا شجرة الحنطة و لا غيرها و الجنّة الّتي كانت فيها أيضا كانت جنة المشاهدة و المكاشفة المعبّرة عنها بالجنّة المعنويّة، فأكل الحنطة في هذه الصورة عبارة عن تعلّقه بعالم الكثرة، و عمارة شجرة الوجود من حيث الظاهر و خروجه عن الجنّة توجّهه من العالم العلوي إلى العالم السفلي أعني من مشاهدة الروح و لذّة الوصال إلى مشاهدة الحسّ و ألم الفراق لأنّه إذا توجّه من عالم الوحدة إلى عالم الكثرة و نزل عن مشاهدة الرّوح إلى مشاهدة الحسّ و رضي بها خرج عن الجنّة المعنويّة الحقيقيّة و لذّاتها و استحقّ أن يوصف بالظلم على نفسه لقوله تعالى:

وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونٰا مِنَ الظّٰالِمِينَ [سورة البقرة: ٣٥].

لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، و هذا كان كذلك فيصدق عليه أنه ظالم أعني ظالم لنفسه لارتكابه الفعل الّذي لا ينبغي و الظلم على النفس أقبح الظلم و أفحشها و هذا عند أهل البيت عليهم السّلام و أكثر المحقّقين من أهل اللّه لا يجوز بالنسبة إلى آدم الّذي هو أبونا و أبو النّوح عليه السّلام لأنّه النبيّ المعصوم و المعصوم لا يخالف اللّه في شيء سيّما في الجنّة و دار الآخرة، و المراد به يكون نوع الإنساني لا شخص من أشخاصه و ضمير المفرد راجع إليه أي إلى النوع، و هذا جايز حسن في البلاغة لقوله تعالى في هذه القصّة بعينها:

وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السّٰاجِدِينَ [سورة الأعراف: ١١].

فانّه دال على ذلك لأنّه ذكر الجمع و إفراد الضمير لأنّ المراد به كان النوع لا

-

و قد تقدّمنا فيها أبو حسن   مع الحسين و وصيّ قبلها الحسنا

و في التدبيرات الإلهيّة و روح المعاني كما يلي:

و قد تقدّم في هذا أبو حسن   إلى الحسين و أوصى قبله الحسنا

-.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٥٨

الأشخاص الّتي تحت النوع و إن كان في المعنى يرجع الضمير إلى كلّ واحد من الأشخاص و ضمير التثنية في قوله:

و لا تقربا.

يكون إلى الذّكور و الإناث من النوع في الآفاق و في الأنفس أي القلب و النّفس و كلاهما حسن جايز.

و إن قلت: إنّ التوجّه إلى عمارة البدن و التعلّق بالدّنيا ليس مذموما مطلقا و بل في بعض الصورة واجب.

قلنا: إنّ ذلك بالنّسبة إلى النّبي المعصوم لا يجوز فإنّه يؤدّي إلى الميل إلى الدّنيا و لذّاتها و إيثار العاجل على الآجل و هذا عين المعصية لقوله عليه السّلام:

«حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة» «٣٦١».

فأمّا بالنّسبة إلى غيره فيجوز ذلك و لكن على حدّ الاعتدال و مع ذلك يكون خارجا عن الجنّة المعنويّة بقدرها و اللّه

أعلم و أحكم.

و الغرض من هذا البحث أن أكل الشجرة في الجنّة المعنويّة، فهو بالنسبة إلى كلّ واحد، واحد من أولاد آدم، لا آدم عليه السّلام، و ذلك بالتفاتهم عن العالم العلوي و لذاته إلى العالم السفلي، و لذاته و تنزّلهم من مشاهدة عالم الغيب إلى مشاهدة عالم الحسّ، و من تدبير المعاد إلى تدبير المعاش و قوله تعالى أيضا:

وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [سورة طه: ١١٥].

---

(٣٦١) قوله: حبّ الدّنيا.

راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول ج ٤، ص ٥٠٦، الحديث ٢٢٠٣، و ج ١١، ص ١٦، الحديث ٨٤٨٠ و كنز العمال ج ٣، ص ١٩٢، الحديث ٦١١٤، و احياء العلوم ج ٣، ص ٢٠٢، كتاب ذمّ الدنيا، باب بيان ذمّ الدنيا.

رواه أيضا ابن أبي جمهور بإسناده عن النبيّ (ص) في عوالي اللئالي ج ١، ص ٢٧، الحديث ٩، و رواه الكليني بإسناده عن الإمام الصادق و عن الإمام زين العابدين (ع).

أصول الكافي ج ٢، باب حبّ الدّنيا الحديث ١ و ٨ ص ٣١٧، و ٣١٥.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٥٩

العزم على الرجوع إلى المبدأ و غير ذلك، و سيجيء بحث آدم عليه السّلام و أولاده، و بحث الجنّة الصوريّة و المعنويّة في موضعه أكثر من ذلك إنشاء اللّه، فإن فيه اختلافات كثيرة ليس هذا موضعها، لأنّ النّاس بعضهم ذهبوا إلى أنّ هذه الجنّة ليست الجنّة الموعودة في الآخرة بل هي جنّة من جنّات الدّنيا، و بعضهم إلى أنّ هذه الجنّة كانت الجنّة الأخرويّة و هي الآن موجودة، و بعضهم إلى أنّها لو كانت الجنّة الأخرويّة لم يمكن إخراج أحد منها خصوصا النبيّ المعصوم لأنّ الإخراج من الجنّة الأخرويّة بعد الوصول فيها مستحيل بالاتّفاق و سيّما شهد القرآن بالخلود فيها، و الحقّ من هذا كلّه أنّ الجنّة المذكورة هي الجنّة المعنويّة و خروجها منها كان كما قلنا بالتفاته إلى شجرة الوجود الحسيّة و لذّاتها و شهواتها الّتي هي عبارة عن التنزّل من العالم العلوي إلى العالم السفلي، و قوله تعالى:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ [سورة التين: ٤- ٥].

إشارة إلى هذا أي إلى أنّه خلقه أولا في أحسن الصورة من الصورة الرّوحانيّة و جعل مقامه و منزله الجنّة المعنويّة الشهوديّة الفطريّة و معلوم أنّ هذا هو أحسن تقويم و أعدل تعديل لكن صدر منه أفعال رديّة و أحوال غير مرضيّة فرددناه إلى أسفل عالم الطبيعة و أرذل مراتب الشهوات المعبّر عنه بالجحيم و جعلنا غذاؤه و لذّته إشارة إلى النوع الشامل لأولاده الّتي هي الأشخاص فإنّ النّسيان مسلوب عن الأنبياء و الرّسل عليهم السّلام بما قام على البراهين العقليّة و الدّلائل النّقليّة و ذلك العهد هو الّذي قال تعالى:

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏ [سورة الأعراف: ١٧٢].

لأن أولاده بأجمعهم ذكورا كان أو إناثا اقرّوا بذلك في الأزل و عند إيجاد الأرواح و أنكروا في الأبد و عند إيجاد الأجساد إلاّ القليل منهم لقوله:

وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِيَ الشَّكُورُ [سورة السبأ: ١٢].
فضمير النّسيان إليهم لا إلى آدم، و كذلك فقدان من شجرة الزّقوم من النّزل

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٦٠

و الحميم، عوض طوبى و تلك الجنّة و النعيم، و حيث بلغ الكلام هذا المبلغ و سمعت ذكر شجرة الزّقوم المقابلة لشجرة طوبى،

(في أنّ الوجود مطلقا دائر على التقابل من الأسماء الجلاليّة و الجماليّة)

اعلم، أنّ الوجود مطلقا دائر على التقابل من الأسماء الجلاليّة و الجماليّة و اللطيفة و الهقريّة، فالجنّة من الأسماء الجماليّة و مقتضياتها، و الجحيم من الأسماء الجلاليّة و مقتضياتها، و كذلك شجرة طوبى و شجرة الزّقوم.
و إذا تقرّر هذا فنقول: قوله تعالى لأهل النّار:
أَ ذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنّٰا جَعَلْنٰاهٰا فِتْنَةً لِلظّٰالِمِينَ إِنَّهٰا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهٰا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيٰاطِينِ [سورة الصافات: ٦٢- ٦٥].
في مقابلة قوله تعالى لأهل الجنّة:
طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ [سورة الرعد: ٢٩].
لأنّها في مقابلتها فكما أنّها يخرج من أصل الجحيم فهذه يخرج من أصل الجنّة، و المراد بالأصل موضع إنباتها و نموّها.
فشجرة طوبى كما أنّها في الآفاق عبارة عن الوجود الحقيقي الكلّي على العموم و على الخصوص من النّفس الكليّة الإنسانيّة فتلك في الأنفس عبارة النفس الناطقة الجزئيّة على الخصوص و على العموم عن بدن كلّ إنسان موٴمن موحّد.
و شجرة الزّقوم كما أنّها في الآفاق عبارة عن شجرة الطبيعة الكلّيّة فتلك في الأنفس عبارة عن النفس الأمّارة الحيوانيّة الطبيعيّة، و الأولى هي المعبّرة في الأزل بالشجرة الطيّبة و الكلمة الطيّبة، و الثانية بالشجرة الملعونة و الكلمة الخبيثة و تشبيهها برءوس الشياطين لقبحها و قبح أغصانها و شعبها و أوراقها، و على هذا التقدير يكون أصل الشجرة الطيّبة المعبر عنها بطوى النفس الناطقة الجزئيّة الإنسانيّة و في الآفاق الوجود الحقيقي و أصلها ثابت و فرعها في السّماء صفتها، و أصل شجرة الملعونة المعبرة عنها بشجرة الزقوم النّفس الأمّارة الحيوانيّة، و في الآفاق الطبيعة الكلّيّة و وصفها أنّها

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٦١

شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنّه رؤوس الشياطين.
و صاحب التأويل قدّس اللّه سرّه أشار إلى هذا المعنى من تأويله و هو قوله «٣٦٢»:
إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم و هي شجرة النفس الخبيثة المحجوبة النابتة في قعر جهنم الطبيعة المتشعبة أغصانها في دركاتها القبيحة الهائلة ثمراتها من الرذائل و الخبائث كأنّها في غاية القبح و التشوّه و الخبث و التنفّر (بالتنفّر) «رؤوس الشياطين» إذ أي تنشأ منها الدّواعي المهلكة، و النوازع المردية الباغثة على الأفعال القبيحة، و الأعمال السيّئة، فتلك أصول الشيطنة و مبادئ الشرّ و المفسدة فكانت «رؤوس الشياطين فإنّهم لآكلون منها» يستمدّون منها و يتغذون و يتقوّون بها فإنّ الأشرار غذاؤهم من الشرور، و لا يلتذّون إلاّ بها.
و بالجملة المراد بالجنّة المعنويّة لا الصوريّة و بالجحيم الجحيم المعنويّة لا الصّوريّة، و بالشّجرة الآفاقيّة الوجود المطلق

العام على الخصوص، و بالشجرة الأنفسيّة مجموع الإنسان من حيث المجموع على العموم، و النفس الناطقة الجزئيّة على الخصوص.

و قد ذكر الغزالي رحمة اللّه عليه في جواهر القرآن «۳۶۳» فصلا مفردا في معنى الجنّة الصوريّة المعنويّة و ما يتعلّق بهما نذكره هاهنا ليتحقق عندك و عند غيرك أنّ قولنا في جميع المواضع مطابق لقول العلماء و المشايخ المتقدّمين منهم و المتأخرين، و هو قوله:

في أنّ للعارفين شهوة و شوق إلى اللّه و لمعرفة جلاله و هي ليست في غيرهم

«اعلم، أنّه لو خلق فيك شوق إلى اللّه عزّ و جلّ و شهوة لمعرفة جلاله أصدق

---

(۳۶۲) قوله: و صاحب التأويل قدّس اللّه سرّه.

راجع التأويلات لمؤلفه عبد الرزاق الكاشاني ج ۲، ص ۳۴۰، المطبوعة باسم «تفسير القرآن الكريم للشيخ الأكبر محيي الدّين» سهوا.

(۳۶۳) قوله: و قد ذكر الغزالي.

ذكره في جواهر القرآن ص ۳۶.

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج‏۲، ص ۵۶۲

و أقوى من شهوتك (إلى الأكل) للأكل و الشرب و النكاح لكنت تؤثر جنّة المعرفة و رياضها و بساتينها على الجنّة الّتي لقضاء (فيها قضاء) الشهوات المحسوسة لأن جنة المعارف هي الجنّة الّتي لا نهاية لأطرافها إذ معرفة جلال اللّه تعالى و أفعاله لا نهاية لها و الجنّة الّتي تعرفها خلقت من أجسام فهي و ان اتسعت أكنافها فمتناهية إذ ليس في الإمكان خلق جسم بلا نهاية فإنّه محال و إيّاك أن تستبدل الّذي هو أدنى بالّذي هو خير فتكون من جملة البله إن كنت من أهل الجنّة فإنّ أكثر أهل الجنّة البله.

ثمّ اعلم، ان هذه الشهوة خلقت للعارفين و إن لم يخلق لك كما خلق لك شهوة الجاه و إن لم يخلق للصبيان و إنّما للصبيان شهوة اللعب، و أنت تتعجّب من الصّبيان في عكوفهم على لذّة اللّعب و خلوهم عن لذّة الرّياسة، و العارف يتعجّب منك في عكوفك على لذّة الجاه و الرّياسة، فإنّ الدّنيا بحذافيرها عند العارف لهو و لعب، و لما خلقت هذه الشّهوة للعارفين كان التذاذهم بالمعرفة بقدر شهوتهم فلا نسبة لتلك اللذة إلى لذّة الشّهوات الحسيّة، فإنّها لذّة لا يعتريها الزّوال و لا يفترّها الملال بل لا يزال يتضاعف و يترادف بزيادة المعرفة و الإغراق فيها بخلاف ساير الشهوات إلاّ أنّ هذه الشهوات لا تخلق في الإنسان إلاّ بعد البلوغ أعني البلوغ إلى حدّ الرّجال و من لم يخلق فيه فهو إمّا صبيّ بعد لم تكمل فطرته لقبول هذه الشهوات أو عنّين أفسد كدورة الدنيا و شهواتها فطرته الأصليّة و شهواتها الحقيقيّة، فالعارفون لمّا رزقوا شهوة المعرفة و لذّة النظر إلى جلال اللّه تعالى فهم من مطالعتهم جمال (جلال) الحضرة الرّبوبيّة في جنّة عرضها السّماوات و الأرض بل أكبر و أعظم و هي جنّة عاليّة قطوفها دانية فإنّ فواكهها صفة ذاتهم و ليست بمقطوعة و لا ممنوعة إذ لا مضايقة في المعارف و على هذا التقدير لا مضايقة في الجنّة لأنّ جنّة كلّ واحد منهم مخصوصة به و ليس للآخر فيها مدخل و ليس هناك بخل و لا منع، فالعارفون ينظرون إلى العاكفين في حضيض الشّهوات نظر العقلاء

إلى الصبيان عند عكوفهم على لذّات اللّعب، و لذلك تراهم يستوحشون من أكثر الخلق و يؤثرون الخلوة و العزلة فهي أحبّ الأشياء إليهم و يهربون من الجاه و المال فإنّه يشغلهم عن لذّة المناجاة و يعرضون عن الأهل و الولد ترفعا (رفعا) عن الإشتغال بهم عن اللّه تعالى، و ترى النّاس يضحكون منهم و يقولون في حقّ من يرونه منهم أنّه

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٦٣

موسوس مدبر ظهر عليه (عليهم) مبادئ (منادي) الجنون و هم يضحكون على النّاس لقناعتهم بمتاع الدنيا و يقولون أن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون، و العارف المشغول بتهيئة سفينة النجاة لغيره و لنفسه لعلمه بخطر المعاد فيضحك (على أهل الغفلة) ضحك العاقل من (على) الصبيان إذا اشتغلوا باللعب و الصولجان، و العجب منك أيّها المسكين المعشوف (المشغول) بجاهك الحقير المنغص و مالك اليسير المشوّش قانعا به عن النظر إلى جلال الحضرة الربوبيّة و جمالها مع إشراقها و ظهورها فإنّها أظهر من أن يطلب و أوضح من أن يفقد و لم يمنع القلوب من الاستهتار (الاستشهاد) بذلك الجمال بعد تزكيتها (تركيبها) عن كدورات شهوات الدنيا إلاّ شدّة الإشراق مع ضعف الأخلاق أو غلبة الظهور مع صغر الأبصار فسبحان من اختفى عن بصائر الخلق بنوره و احتجب عنهم بشدّة (لشدّة) ظهوره».

و يكفي في هذا عند العارف المنصف قوله:

هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظّٰاهِرُ وَ الْبٰاطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة الحديد: ٣].

لأن هذا يشمل جميع ما سبق في هذا المعنى لأنّه الأوّل في عين الآخر و الظاهر في عين الباطن و ليس لغيره وجودا إلاّ أولا و لا آخرا و لا ظاهرا و لا باطنا.

و الحمد للّه الّذي هدانا لهذا و ما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه و هو يقول الحق و يهدي السبيل.

هذا آخر المقدّمة الخامسة و آخر بحث آيات اللّه الآفاقيّة و الأنفسيّة و القرآنيّة، و آخر بحث التطبيق الثلاث أعني الآفاق و الأنفس و القرآن، و آخر بحث الجنّة الصوريّة و المعنويّة و الجحيم الصوريّة و المعنويّة، و آخر بحث الشجرة الآفاقيّة و الأنفسيّة، و غير ذلك من الأبحاث الشريفة و النكات الدّقيقة التّي لا توجد في كتاب غيره، و ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء و اللّه ذو الفضل العظيم.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ لَآيٰاتٍ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً سُبْحٰانَكَ فَقِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ [سورة آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

تفسير المحيط الأعظم و البحر الخضم، ج ٢، ص ٥٦٤

و إذا عرفت قواعد القوم و أصولهم و طريق تفسيرهم و تأويلهم و اطلعت على أسرارهم و معارفهم و تحققت لطائفهم و رموزهم و كشف لك دفائنهم و كنوزهم.

فاعلم أنّ هذا نتائج علم لم يحصل بالكسب و الاجتهاد و مقدّمات فنّي، لم يمكن حصولها من المعلم و الأستاذ لا يحمل عطاياهم إلاّ مطاياهم، و من لم يفرق لم يعرف.

وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا وَ مٰا يَذَّكَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ [سورة آل عمران: ٧].

و حيث فرغنا من هذا فالشّروع في بيان الشريعة و الطريقة و الحقيقة و أحبّ ليتأكّد هذا المعنى أيضا بتركته فإنّ الكلّ يرجع الى هذه المراتب الّتي هي مراتب الأقوال و الأفعال و الأحوال لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الشريعة أقوالي و الطريقة أفعالي و الحقيقة الحديث «۳۶۴».

و هو هذا و باللّه التوفيق.

هذا و قد تمّ بحمد اللّه و المنّة الجزء الثاني من تفسير المحيط الأعظم للسيّد الفقيه العارف السيّد حيدر الآملي رضي اللّه عنه حسب تجزئتنا، و يليه إن شاء اللّه الجزء الثالث المشتمل على المقدّمة السّادسة.

---

(۳۶۴) قوله: الشريعة أقوالي.

راجع الجزء الأوّل ص ۱۹۵، تعليقتنا الرقم ۱.